

تأليف
السيد عبد السلام بن عبد الله

مكتبة
عبد العزيز بن سلمان بن فواز

دار الكتب والوثائق



تمهيد

العالم الإسلامى تعبير ينطوى على مفاهيم دينية وسياسية واستراتيجية ، بل ظهرت دراسات عن جغرافية العالم الإسلامى ، ولقد بلغ العالم الإسلامى ذروة إتساعه وكذلك ذروة قوته وحضارته فى عهد الدولة العباسية التى تمثل واحدة من الحضارات العالمية . ويمكن القول أن هذا العالم الإسلامى يملأ قلب العالم القديم إذ يمتد من إقليم سينكيانج^(١) وتركستان الصينية والجمهوريات السوفيتية الإسلامية السسكان وأفغانستان والملايو (ماليزيا) وبورما . وتوجد أقاليم إسلامية فى كوريا والفلبين ودول الهند الصينية (فيتنام - كمبوديا - لاوس - تايلاند) والفلبين وأستراليا وأما القارة الهندية (الهند وباكستان) فكانت ولا تزال أكبر المناطق الإسلامية تعدادا أما أندونيسيا فتفوقها فى الكثافة العددية الإسلامية بينما تقع إيران (فارس) ، الفارسية اللغة ، وتركيا فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى المتكلم بغير العربية . فالى الغرب والجنوب من فارس (إيران) وتركيا يمتد العالم العربى ، وبينما تقل الكثافة السكانية الإسلامية فى البلقان كلما اتجهنا من جنوبه نحو الشمال فإن العالم الإسلامى يغطى الصحراء الكبرى ويتوغل فى أفريقيا جنوبا حتى الحزام الزنجى الممتد من السنغال إلى الكنفو ، وفى شرق أفريقية كثافة إسلامية واضحة تمتد بشكل متناقص فى اتجاه جنوب أفريقية فيما هو جنوب تنزانيا .

هذا الامتداد الكبير للعالم الإسلامى لا يرجع إلى السيف بقدر ما يرجع إلى الدعوة والدعاة والأسوة الحسنة ، وما جبل عليه المسلمون الدعاة من إيمان وتواضع وربط متكامل بين مطالب الحياة الدنيا والآخرة .

وجوهر الدعوة الإسلامية التوحيد بالله وأن محمدا رسول الله والقرآن الكريم كتاب أنزله الله على رسوله ليكون شريعة الله لكافة البشر .

ولقد كانت الدعوة إلى الإسلام موجهة إلى البشر كافة ولكن من الواضح أن بلاد المسلمين الرئيسية تركزت فى المنطقة الواقعة بين المنطقة المعتدلة الشمالية والمنطقة

المعتدلة الجنوبية لتتأثر اقلية صغيرة إسلامية في قارة أوروبا ويتضاءل عدد المسلمين إلى حد كبير في الأمريكتين بالقياس إلى أوروبا .

ومن المبادئ الإسلامية الرئيسية الدعوة إلى الإسلام حتى يندرج تحت لوائه كافة الشعوب والجماعات ، ولكن الدولة الأموية والعباسية لم تستطع أن تحقق هذا الهدف الأعظم بل أخذت قطاعات كبيرة من أجزاء الدولة الإسلامية تنفصل لأسباب سياسية أو اقتصادية أو مذهبية ، حتى لقد ظهر أكثر من خليفة في وقت واحد ، ومئات المذاهب التي تكونت على أساسها دول إسلامية مستقلة ، وظهرت نداءات قوية ضد الشعوبية ، حتى جاء العصر الحديث الذي تميزت خلاله أوروبا بتفوق حضارى واضح وبمفهوم للقومية يزداد عمقا على مر السنوات . وانتقل هذا المفهوم بطريقة أو أخرى إلى العالم الإسلامى ، فأخذت تظهر الدول الإسلامية المعتمدة على الأساس العرقى .

فالعرب أصبحت لهم أكثر من دولة بالمفهوم الحديث . (أ) في افريقية : مصر ، السودان ، ليبيا ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، موريتانيا ، الصومال .

(ب) في آسيا : سوريا ، لبنان ، شرق الأردن ، العراق ، المملكة العربية السعودية ، اليمن العربية ، اليمن الديمقراطية الشعبية ، سلطنة عمان ، إتحاد الإمارات العربية ، قطر ، البحرين ، الكويت .

ومسلمو أفريقية يدين لهم العالم بتوفير أفريقية ونقل أجزاء واسعة منها من البدائية إلى نور الحضارة ، ولا نقصد بذلك الدول العربية في القارة الإفريقية ، وإنما إلى شرق أفريقية جنوبى الصومال ، وإلى غرب أفريقية ابتداء من موريتانيا وإلى البلاد الواقعة في قلب الصحراء الأفريقية وحتى الحزام الزنجى فالإسلام والعرب والحضارة الإسلامية كان لها الفضل في ارتقاء هذه البلاد سلم التطور الذى لا تزال تصعده . رغم ما حاوله الاستعمار الأوروبى للقضاء على هذا الدور الإسلامى السامى هناك فقد كان التراث الإسلامى — ولا يزال — مقدرا كل التقدير ويقوم بدوره في عملية التطور .

وفي آسيا شعوب كانت لها حضارات هزت العالم بروعتها، فلما انتشر بينها الإسلام أصبحت قمة ومجدا ، مثلما حدث في فارس والهند ، فتاريخ الفرس قبل الإسلام يملأ الأسماع بأحداثه وتطورات حضارية رائعة ، والهند قبل انتشار الإسلام كانت منارة

حضارية ، فلما آمنت فارس بالإسلام خرجت على العالم بما لا يزال حديث العانة والخاصة ، وعندما انتشر الإسلام في الهند ضربت مثالا لا يزال يحير الباحثين في تاريخ الحضارات .

ولكن عشرات الملايين من المسلمين كانوا مجهولين لدى اخوانهم في البلاد الأخرى ، فموريتانيا مثلا كانت إسلامية قبل أن تستقل مثلما هي عليه الآن ، ولكن وجودها تحت الاستعمار الفرنسي جعل مسلمي الشرق لا يعرفون عنها إلا النزر اليسير ، وقليل من مسلمي المشرق كان يعرف أن نيجيريا والنيجر والسنغال وغيرها تضم ملايين من المسلمين ، وصوت مسلمي الاتحاد السوفيتي والصين خافت ، ويعانى مسلمو الفلبين من سياسة تصفية وقعت تحت الاستعمار الأسباني منذ أربعة قرون .

ومثلما انتشر الإسلام بالموعظة والأسوة الحسنة في قلب الصحراء والغابات الإفريقية ، انتشر الإسلام بالموعظة والأسوة الحسنة فيما وراء الهند في سريلانكا (سيلان) وأندونيسيا (جزر الهند الشرقية) وفي الهند الصينية الفرنسية (بورما - تايلاند - لاوس - كمبوديا - فيتنام) بل انتشر الإسلام في الأجزاء الشرقية من الصين .

ومن استبس آسيا انطلقت قبائل احتياحية صوب الغرب افزعت المشرق الإسلامي ايما افزاع ، وهلع العالم من تلك الجحافل المغولية التي بدا وكأنها لا ترد ، حتى توقفت امام القوة المصرية في عين جالوت لترد هذه الموجة لتقود موجة أخرى مغولية ، ولكن هذه المرة - مع أنها كانت كذلك إحتياحية - كانت إسلامية ، كما أن العناصر التركية التي أسلمت لم تلبث أن تابعت هجرتها وضغطها على آسيا الصغرى (تركيا) حتى تركت تلك المنطقة لتقوم من بعد الدولة العثمانية آخر الدول العامة الإسلامية . تلك الدولة الإسلامية التي ملأت الأناضول (آسيا الصغرى) وامتدت عبر الدردنيل والبوسفور إلى الأراضى الأوروبية (البلقان) ، وظلت تضم أقاليمه الواحد بعد الآخر حتى قضت نهائيا على الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) وحتى دقت أبواب (فيينا) عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وانتشر الإسلام في افريقية عبر معابر مصر إلى شمال افريقية وعبر البحر الأحمر إلى شرق افريقية ، حتى أصبحت الصحراء الكبرى إسلامية الشعوب وكذلك شرق افريقيا

ومنها اخذ الإسلام يتوغل الى قلبها . وأصبح لأفريقيا البدائية حضارة وتاريخ إسلامي .
تقدم الإسلام في افريقية بنوع من البطء ، وأصبحت في افريقية مجتمعات إسلامية
وأخرى وثنية ، وأقدمت أوروبا على نشر المسيحية ، ففشلت فشلا ذريعا في المجتمعات
الإسلامية ، ولقيت نجاحا متفاوتا من مكان لآخر . وأدى ذلك إلى أن نجد في (بورتو
نوفو) — عاصمة داهومي — مظاهر الإسلام والمسيحية والوثنية جنبا إلى جنب : مساجد
وكنائس ومعابد وثنية .

ولقد بذلت أوروبا جهودا ضخمة وتضحيات مالية وبشرية كبيرة من أجل نشر
المسيحية في المجتمعات الوثنية الافريقية ، وإنه لمن العسير حصر المؤسسات التبشيرية
الأوروبية التي عملت في المجال الافريقي نظرا لكثرتها وتوزعها على مختلف المناطق وعلى
العديد من المذاهب والطوائف المسيحية .

وعلى العكس كانت الدعوة الإسلامية والتبشير بها بين المجتمعات البدائية الافريقية
تتضاءل حتى يمكن القول أنها أصبحت ضعيفة جدا في القرن التاسع عشر وما بعده ، وذلك
لغياب المؤسسات التبشيرية الإسلامية والانخفاض المستوي الحضاري بين المسلمين الأمر
الذي أدى إلى أن ينطلق المبشرون المسيحيون للدعوة إلى المسيحية في افريقيا .

حقيقة ظهرت مؤسسات في النصف الثاني من القرن العشرين تعمل على الدعوة
للإسلام في العديد من البلاد الافريقية ، ولكنها رغم حسن النية وسلامة الهدف ، ليست
ناجحة وليست على مستوى المسؤولية، وإذا كانت هذه المؤسسات قد نجحت في شيء ربما
هو الحفاظ على الإسلام في قلوب المسلمين . وهو موقف دفاعي ليس في صالح المسلمين .

ومن أبرز الدعاة إلى الإسلام والتبشير به وكسب أنصار جدد إليه من بين الجماعات
الافريقية والأسبوية المتخلفة والبدائية ، من أبرز الدعاة : (رجال الطرق الصوفية) اذ
يرجع إليهم الفضل في دخول الملايين من الوثنيين في الإسلام وحضارته .

فعلى يد بعض هذه الطرق الصوفية إنتشر الإسلام فيما وراء الصحراء الكبرى في
أفريقية ، وقامت دول إسلامية على انقاض الدول الوثنية، خاصة بعد تدهور امبراطورية
«غانه» وظهر في مدنها العلماء والفقهاء، ومن أبرز تلك المدن «تمبكتو» ، وخرج من هذه

للدول والمدن الإسلامية عشرات الألوف من الحجاج سنويا إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة أو إلى معاقل العالم الإسلامي في القيروان والقاهرة ودمشق وبغداد .

ومن الواضح أن انتشار الإسلام كان أوسع نطاقا بكثير جدا عن انتشار اللغة العربية، الأمر الذي جعلنا أمام خريطة لمسلمي العالم توزعهم ليس فقط إلى شعوب متميزة بل وإلى شعوب تتحدث لغات كثيرة ، فإذا كان مائة مليون يتحدثون بالعربية ، فهناك عشرات الملايين يتكلمون التركية ، وعشرات أخرى تتكلم الفارسية ، وعشرات ثالثة تتكلم الأوردية ، وعشرات تتكلم السواحلية ، أما عن اللهجات فأكثر مما تحصى .

والكتابة لدى المسلمين متعددة الأشكال ، ولكن العرب لهم الفضل الأعظم في دفع اللغة العربية قدما إلى أعلى المستويات محتفظين بالفصحى كأساس للكتابة رغم تعدد اللهجات العربية ، بينما اكتفى الفرس بكتابة لغتهم بحروف عربية ، وتطرف مصطفى كمال أتاتورك فكتب التركية - وكانت بحروف عربية - بحروف لاتينية ، وظهرت أكثر من دعوة لترك الفصحى إلى العامية فتحطمت هذه التيارات وأصبحت أقل من زوبعة في فئجان .

ولكن المشكلة الرئيسية التي لم يقم العالم الإسلامي بحلها حلا جذريا يرفعه إلى مستوى التقدم السريع لأوروبا الحديثة ، هي أن العالم الإسلامي كانت تسيطر على معظم بلاده التشكيلات العشائرية .

فالتشكيلات العشائرية الإسلامية العربية وغير العربية تغطي الأغلبية العظمى من البلاد الإسلامية من حدود الصين مرورا باستبس آسيا إلى إيران والبلاد العربية والبلاد الإسلامية في أفريقية .

ومع أن مبادئ الإسلام ضد العصبية القبلية ، فقد عادت العصبية إلى ما كانت عليه قبل الإسلام في وقت كانت أوروبا تنتقل فيه من التشكيلات القبلية إلى النظام الإقطاعي إلى شعوب قومية . وكان هذا التحول الرجعي نحو القبلية في البلاد الإسلامية سببا رئيسيا في اتساع الفجوة الحضارية بين البلاد الإسلامية والبلاد العربية .

ولقد ظهرت في البلاد الإسلامية إمارات ودول قبلية ، ومن تلك دولة «القره قوينلو» أي الخروف الأسود، و «الآق قوينلو» أي الخروف الأبيض في فارس والعراق والأناضول

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، كما نمت قوة عشائر الأفغان والفلزاي والأوزبك في مناطق أفغانستان ، وقبائل البختيارى الفارسية ، وقبائل كعب وبنى لام وزبيد وعنزة والبوعلى وقبائل اليمن والرولة وغيرها في العراق وشبه الجزيرة العربية والشام ، والقبائل العربية العديدة في السودان وشمال أفريقيا ونيجيريا . . وغيرها . . وغيرها مما يصعب حصره .

وإذا كانت الصراعات بين القبائل تثير مشكلات كثيرة قبل التفوق الأوروبى على الشرق الإسلامى ماديا وفكريا وعسكريا ، فقد أصبحت هذه الصراعات القبلية نكبة على البلاد الإسلامية في التاريخ الحديث، وكانت هذه الصراعات القبلية العامل الرئيسى في تمكين الاستعمار الأوروبى من السيطرة على كثير من البلاد الإسلامية . حدث هذا في الصومال وحضرموت والخليج العربى وشمال افريقية . كما أصبحت هناك عشائر عربية تنظر بعين القلق الشديد الى حكمها الفرس وعشائر كردية مترددة بين الولاء لفارس ولحكّام العراق ، والفرس ارادوا فرض الفارسية على العرب والأكراد حاولوا خلق قومية كردية لهم على حساب فارس والعراق . ودخل عرب في الخدمة العسكرية لدى المستعمر مثلما حدث في الجزائر ، ونادى عرب مسيحيون في لبنان بالقومية العربية ليتخلصوا من الحكم الإسلامى العثمانى ، بينما نادى عرب مسلمون بالقومية العربية لمواجهة تحوّل العثمانيين إلى سياسة قومية تركية ظالمة للعرب ولحقوقهم .

ولقد عاق هذا الانتشار الواسع للتركيبات العشائرية التطور نحو التحديث نظرا لأن الولاء الشديد للقبلية يتعارض مع مفهوم الدولة الحديثة لما للولاء للعشيرة من تعارض بل تناقض مع المفهوم الحديث للمواطنة ، حتى لقد قاومت بعض القبائل الحكومة الوطنية بشدة لا تقل عن مقاومتها للاستعمار الأوروبى .

وهذه العصبية القبلية أصبحت في التاريخ الحديث مشكلة خطيرة تسعى الدول الإسلامية الى وضع حلول جذرية لها بأساليب عديدة ومختلفة . كالتوطين والتثقيف والتحضير ، والدعوة الى مبادئ الإسلام . بل لقد لجأ مصطفى كمال (أتاتورك) الى نقل العشائر الكردية وبعثرتها . ولكن الى جانب المقاومة الشديدة من جانب شيوخ القبائل لتلك السياسات فقد عمل التفوق الأوروبى والاستعمار الأوروبى على شدّ أزر التركيبات العشائرية ومقاومة التطور نحو الدولة الحديثة .

ومع ان فترة التسط الاستعماري على بعض البلاد الإسلامية كانت طويلة نسبيا. مثلما هو الحال بالنسبة لأندونيسيا وسيلان (سيريلانكا) والهند فقد فشلت الجهود الاستعمارية في تغيير الطبيعة الإسلامية لتلك البلاد ، ولكن نجحت - وأحيانا إلى حد خطير - في وقف تقدم وانتشار الإسلام ، وفي خلق قوى مناهضة للإسلام وللمسلمين ، عن طريق التبشير تارة ، وتقوية الجماعات المتنصرة ورفعها إلى مستوى الحكم والسلطة والثروة وغير ذلك من الأساليب التي أدت إلى مشاكل معقدة في تشاد وجنوب السودان والهند ولبنان وغيرها .

وإذا ما ألقينا نظرة على الكثافة السكانية للعالم الإسلامي نجد أن العالم الإسلامي في الوقت الذي يضم فيه عددا من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية جدا في أودية أنهار السند ودلتا مصر ، نجد كذلك أن العالم الإسلامي يضم أقل مناطق العالم الإسلامي كثافة في استبس آسيا والصحراء الكبرى، وتمثل اندونيسيا وبنجلاديش من جهة والصحراء الكبرى في أفريقية من جهة أخرى متناقضات صارخة في العالم الإسلامي من حيث الكثافة السكانية الضخمة في المجموعة الأولى والكثافة السكانية المتناهية في الضالة بالنسبة للمجموعة الثانية . وإن كانت جميعها متقاربة من حيث التخلف الاقتصادي .

ومن حيث المستوى الاقتصادي ، فقد امتد الإسلام وانتشر في قلب العالم القديم الخصب وفي أودية أنهار عظمى ذات دالات متسعة كنهر السند والفراتين والنيل العظيم ، كما أصبحت سواحل قلب العالم القديم تحت السيطرة الإسلامية إمتدادا من الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط حتى سواحل الأطلنطى عند المغرب وموريتانيا والسنغال إلى السواحل الجنوبية الممتدة من شرق أفريقية إلى جنوب شرق آسيا ، وكان المسلمون رجال بحر على مستوى عال حتى تخلفوا في بناء الموانى وفي بناء السفن واقتصروا على ارتياد البحار بسفن شراعية بينما أقبلت أوروبا على ارتياد البحار والمحيطات بسفن شراعية أكبر ابتداء من القرن الخامس عشر .

واستمرت أوروبا في التفوق في الملاحة البحرية والمحيطية وتشكلت شركات كبرى ذات أساطيل تعمل في أعالي البحار والمحيطات وفي الأنهار الداخلية حتى احتكرت الملاحة على الخطوط العالمية التي يطل عليها العالم الإسلامي ، وحتى احتكرت الملاحة في أنهار كبرى إسلامية للمسلمين فيها مصالح رئيسية مثل دجلة والفرات وقارون والنيل والنيجر .

كما سيطر الاستعمار الأوروبى على المنافذ البحرية الإسلامية : طنجة — قناة السويس — عدن — الخليج العربى — ملقا •

وكانت المواصلات البرية عبر العالم الإسلامى كذلك قد استمرت بدائية، ففى الوقت الذى كان فيه الروس ينفذون خطوطا للسكك الحديدية فى خيوة ومرو فى اتجاه أفغانستان وفى إيران لإحكام السيطرة على تلك البلاد الإسلامية أو التمهيد للسيطرة عليها — كان الانجليز والفرنسيون والألمان يفعلون نفس الشيء فى البلاد العربية فالأهداف معروفة من وراء المشاريع الأجنبية لمد خطوط السكك الحديدية وأهمها :

خط حديد برلين — بغداد وخط حديد الحجاز وخط حديد الاسكندرية القاهرة السويس وخطوط السكك الحديدية فى السودان وشرق أفريقية • فالغالبية العظمى لهذه الخطوط وكذلك خطوط المواصلات البرية الحديثة كان لخدمة الاستراتيجيات الغربية والاقتصاد الاستعمارى الأوروبى أولا ثم خدمة المصالح الوطنية ثانيا •

والعالم الإسلامى — بصفة عامة — يصدر خاماته خلال العصر الحديث إلى الدول الأجنبية بينما هى تحاول جاهدة أن تحصل منها على التكنولوجيا المعاصرة ، وحتى الآن لم تحصل البلاد العربية والإسلامية إلا على جزء منها •

وقد ساعد ضعف العالم الإسلامى على تقلص أطرافه تدريجيا ، بينما بلغت جموع المسلمين قلب فرنسا ودقت الجيوش العثمانية أبواب فيينا (١٦٨٣) نجد المسلمين قد فقدوا الأندلس وأجزاء إسلامية واسعة فى البلقان وقامت إسرائيل على أرض إسلامية •

وهناك العديد من المناطق التى أخذ المسلمون فيها يفقدون أكثرينهم أو قوتهم أو مكانتهم تحت الضغط المعادى ، فالصحافة فى البلاد الإسلامية لم تبرز مشكلة مسلمى الفلبين إلا بعد أن تناقصت نسبتهم هناك من ٣٥٪ إلى ٥٪ فقط • كما يتناقص تعداد مسلمى الحبشة وتنزانيا وأوغنده بسبب الاستعمار والعوامل الطائفية والظروف الاستعمارية ، فلقد كانت الكلمة العليا للمسلمين فى معظم مناطق الحبشة حتى جاء البرتغاليون إلى المياه الإسلامية الجنوبية وتحالفوا مع الحبشة ضد المسلمين ، كما أن معظم تنزانيا (زنجبار وتنجانيقا) كانت تحت الحكم العربى حتى القرن التاسع عشر عندما سيطر الانجليز على أسرة « البوسعيد » وممتلكاتها •

وكانت هناك أجزاء من العالم الإسلامى معرضة للضياع فى التاريخ الحديث ، ونعنى بذلك ادعاء فرنسا أن الجزائر قطعة من فرنسا وبذلت هذه الدولة أقصى قدراتها لخلق شعب فرنسى على طول الساحل الجزائرى على الأقل ، كما حاولت إيطاليا فى عهد الملكية وكذلك فى الفاشستية أن تفعل بليبيا نفس الشئ، ولكن باءت كذلك محاولاتها بالفشل؛ حقيقة كان ذلك الفشل نتيجة للمقاومة الإسلامية الجزائرية والليبية ، كذلك بسبب تلك الوقفة الرائعة المصرية إلى جانب المقاومة الجزائرية والليبية . فلقد خرجت من مصر - رغم أنها تحت الاحتلال البريطانى - حملات ضد الاستعمار الإيطالى سنة ١٩١١ ، وظلت مصر مقرا للوطنيين الليبيين وكان لمصر دورها المشهود فى حصول ليبيا على الاستقلال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولم تجد فرنسا من وسيلة للبقاء فى الجزائر إلا بالعمل على توجيه ضربة قاصمة إلى مصر ترغمها على نفى يدها من القضية الوطنية الجزائرية ، فكان أن دبرت مع إنجلترا وإسرائيل العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ فكان أن انقلبت الأوضاع على رأس الاستعمار وحصلت الجزائر على استقلالها . والأدوار التى لعبتها مصر فى تحرير واستقلال دويلات الخليج العربى واليمن الشعبية وغيرها من البلاد الإسلامية يشكل جزءا رئيسيا فى تاريخ العلاقات الدولية .

على أن تلك النجاحات التى أحرزتها بعض البلاد الإسلامية والعربية فى التخلص من التسلط الأوروبى يجب ألا تخفى عن أعيننا نوعا خطيرا من التراجع عن الفكر الإسلامى الحقيقى ومن الأخذ بالفكر العلمانى وبالمذاهب المستوردة ، فإذا كان إلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال أتاتورك فى ١٩٢٤ وتركيزه على اللغة التركية غاضا الطرف عن اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وانتشار الفكر الشيوعى فى بعض أجزاء محدودة من العالم الإسلامى وفى أفغانستان إذا كان هذا مؤشرات تراجع إسلامى أمام فكر مناهض للإسلام فإن الزعامات الإسلامية بدأت تعنى بإعادة النظر فى المواجهة الجادة بين الفكر الغربى على اختلافه والفكر الإسلامى فى محاولة لتجنب التقاليد المعرقة للتطور ووقف عملية التخريب فى الفكر الإسلامى .

ولدى الأوروبين ولع بتضخيم الفوارق بين المسلمين سواء من حيث العنصر أو من حيث المذهب أو الأرض التى يعيشون عليها . وقد يكون هذا الاتجاه مقصودا من بعض المفكرين الأوروبين ، وقد يكون انعكاسا لمزيج البحث التاريخى لديهم، حيث إن الأوروبى

يعامل الأقطار الإسلامية على اعتبار أنها وحدات قومية قائمة بذاتها ، فكان أن وقفت الدول الأوروبية ضد الجامعة الإسلامية ورفضت الولايات المتحدة فكرة الوحدة العربية .

ولقد قوى وتعمق هذا الاتجاه بسبب الاستعمار الأوروبي في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، فأصبحت الحدود دولية ، وأصبحت قوانين الجنسية والإقامة تطبق على المسلم اليمني مثلما تطبق على الدنماركي .

بل لقد ظهرت إلى جانب ذلك مشكلات طائفية عمقت من هذه الفواصل الحديثة .
حقا ، لقد كانت هناك طوائف إسلامية منذ صدر الإسلام وكانت هناك مذاهب متعددة كذلك ، ولكن المذاهب الرئيسية لا تختلف في الأصول وإنما في التفاصيل . وعمل الاستعمار على تعميق هذه الخلافات المذهبية وتحويلها إلى مفاهيم متناقضة في بعض الأحيان .

فعندما جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر وفوجيء بالثورات الشعبية الكبيرة تأكد أنه يعيش على أرض معادية فلجأ إلى التفرقة الطائفية وسعى الفرنسيون إلى تكوين فرقة عسكرية من الأقباط في مصر مستغلين العاطفة الدينية .

كذلك يلاحظ أن الانجليز قبل احتلالهم لمصر وبعده كانوا يركزون على دورهم في حماية الأقليات ، واعتبر الانجليز أقباط مصر من الأقليات وليسوا مواطنين ولكن فوجيء الانجليز في ثورة ١٩١٩ أن الأقباط يرفضون تماما أنهم أقلية تحت حماية أجنبية .

وفي السودان تكشف لنا نشرة لأحد المواطنين عما كان يفعله الانجليز من أجل إيقاع التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، ومن أجل القضاء على الإسلام وإيقاع الفرقة بين أهله تمكيننا لسياستهم الاستعمارية في السودان ومصر ، وتقول هذه النشرة :

« إن هدف السياسة البريطانية هو خلق انقسامات بين مختلف القبائل لاكتساب مساعدة الواحدة ضد الأخرى . . جردوكم من أرضكم التي تملكونها بحقوق قانونية . . بغية إعطائها إلى الشركات الانجليزية . . انظروا إلى مدارسهم في الخرطوم وأم درمان حيث يرغب الطلبة على التبشير بالإنجيل ، ثم أن الحكومة أخذت أيضا في إدخال المسيحية في جميع أنحاء السودان الجنوبي . . في الخرطوم ذاتها ستة كنائس وجامع واحد فقط

وهو الذى لم يتم بناؤه بعد طوال عشرين عاما ٠٠ إن الانجليز قد تبنوا سياسة التفرقة بين (المحمدين) والأقباط فى مصر ، ناشرين الدسائس بين الفريقين ٠٠ على أنه متى عُرف الفريقان ذلك واتحدا معا ، فإنهما يتوصلا إلى تحقيق غاياتهما والله هو المعين ٠

اتحلوا مع اخوانكم المصريين وأعملوا من أجل استقلالكم ٠٠ إن اخوانكم المصريين يعملون الآن من أجل أنفسهم ومن أجلكم » ٠

وكما طالب بعض المواطنين فى السودان بإزالة القيود المفروضة على الإسلام والمسلمين فى السودان الجنوبي ، نادى المسلمون فى لبنان بأن الامتيازات التى حصل عليها الموارنة لا تعد إلا إفتئاتا على الحقوق الشرعية للإنسان، وفى العراق بذل الانجليز جهودا كبيرة فى رفع النسيطة (الاثوريون) إلى قوة ضاربة طائفية ضارة بالكيان الإسلامى للعراق ، ولم تصف هذه المشكلة إلا بعد صدام دموى فى ١٩٣٣ ، كما عمل الانجليز على تعميق النزعة القومية بين الأكراد الأمر الذى حفر هوة لا يزال يعانى منها العراق حتى الآن ، كما اثار مؤرخون انجليز واداريو حكم الانتداب الانجليزى فى العراق جدلا عن هوية شيعة العراق وفجروا فتنة كانت نائمة بين شيعة العراق وسنته ، وعندما وقعت الحرب العراقية الإيرانية كان الشيعة العراقيون ينددون عن وطنهم العراق بكل تضحية وصلابة وفى اليمن كانت هناك أزمات بين الأئمة الزيديين والشوافع ، واستخدم الفرنسيون فى المغرب سياسة التفرقة بين العرب والبربر ٠

تلك بعض جهود خصوم الإسلام والمسلمين لتعميق الفوارق بين أهله ٠ فهل هناك سبيل إلى وحدة إسلامية ؟

لقد كانت الوحدة الإسلامية السياسية هدفا كبيرا لزعامات إسلامية متعددة خلال القرن التاسع عشر ٠ وفى عهد جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩) أصبحت هذه الدعوة لوحدة إسلامية ذات أبعاد محلية ودولية ضخمة، ولكن إنهارت هذه الدعوة تحت ضغوط متعددة أهمها :

- ١ - لقد كان العصر عصر القوميات ، وانتشر الفكر القومى وكذلك الايديولوجيات الحديثة الغربية ٠
- ٢ - انتشار التعليم الغربى ٠

٣ - انتشار الاستعمار الأوروبى فى البلاد الإسلامية والعربية .

ويجب أن نعترف هنا أن مبدا أو نظرية الوحدة الإسلامية أصبحت من النظريات التى تتردد فى العالم الإسلامى ، أحيانا بقوة مثلما حدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأحيانا بضعف خلال النصف الأول من القرن العشرين . وهى حاليا تتردد فى أكثر من مكان ، ولدينا (المؤتمر الإسلامى) ولكن لا تزال النظرية فى حاجة إلى تعديل جوهري حتى تتلاءم مع ظروف القرن الحادى والعشرين .

وتعانى بعض دوله من مشكلات حادة مزمنة مثل (الديون) وعلى رأسها العراق ومصر وسوريا ، وهى ديون للدول الكبرى والدول الأوروبية الغربية، واستنفدت أحجاما كبيرة جدا من تلك الديون فى مواجهة الحروب أو نتائجها ، وهى فى نفس الوقت فى حاجة إلى أموال ضخمة أخرى حتى تعالج مشاكلها وتقوم بمسؤولياتها ، وحتى لا تستخدم هذه الديون فى دفعها نحو التبعية وما يترتب عنها من نتائج خطيرة .

ونظرا لأن المجتمعات الإسلامية عاشت سنوات بل قرونا على تقاليد اجتماعية وسياسية واقتصادية غير سوية ، فإنها فى حاجة إلى إعادة تكوين أو إعادة بناء . ومن أبرز ذلك (عشق) الوظيفة الحكومية ، وهذا داء أصاب المجتمع المصرى ، وأصاب المجتمع العربى البترولى الثرى ، حتى ظهرت البطالة المقنعة فيه .

ولا يزال المجتمع الإسلامى ينظر إلى المرأة نظرة لا تقبلها الديمقراطية الليبرالية ، وليس هذا هو الأمر المفروض فقط وإنما هى مشكلة تعانى منها المجتمعات الشرقية وخاصة الإسلامية من حيث أن المرأة هى نصف المجتمع ، وإذا لم تكن انتاجية . وليس فقط فى الانجاب - فان المجتمعات الأخرى التى تعمل فيها المرأة وتنتج ستكون أقوى بكثير جدا من المجتمعات الإسلامية ، وتفرض نفسها عليها وتصبح المجتمعات الإسلامية مجالا لنشاط مجتمعات أخرى . ومن ثم يجب أن لا نفقد القدرات الانتاجية لنصف المجتمع الإسلامى ، وخاصة أن القرنين التاسع عشر والعشرين شهدا اقتحاما جيدا من جانب المرأة للغالبية العظمى من مجالات العمل والانتاج .

ومن يشاهد المرأة المصرية التى كانت (ملثمة) فى النصف الأول من القرن العشرين وأصبحت منطلقة فى مجالات العمل فى القرن العشرين ، ومن يشاهد المرأة الكويتية وكانت

هى الأخرى ملثمة فى مطلع القرن ومنطلقة حضاريا استهلاكيا فى النصف الثانى من القرن العشرين يتبين له بسهولة أن القيود الاجتماعية غير المنطقية تزول بالتدريج، ولكن الأهم من ذلك هو أن تصبح الفتاة والمرأة الإسلامية (انتاجية) حتى يستطيع المجتمع الإسلامى أن يواجه المستقبل بكل طاقاته الانتاجية .

ولا يمكن أن يتحول المجتمع الإسلامى إلى قوة انتاجية عالمية إلا عن طريق التربية والتعليم والسلوك الاجتماعى والمنهج العلمى ووضع النظريات موضع التطبيق بما يتلاءم مع طبيعة المجتمع الإسلامى ومع التوقعات المستقبلية المحلية والاقليمية والعالمية بل والكونية . ومن المشكلات العويصة التى تواجهها المجتمعات الإسلامية المتعددة الانتقال من (البداوة) إلى (الانتاجية الصناعية) ، حيث أن المجتمعات الإسلامية البترولية الغنية تعتمد على (العمالة) المستوردة فى المشروعات الاستهلاكية . ودون تنسيق يحدث نقلة انتاجية وإنما التنسيق لا يزال من منطلقات قطرية بحتة . ولسنا من أنصار ذوبان الأقطار الإسلامية بعضها فى بعض لاقامة الدولة الإسلامية الواحدة بسرعة غير محسوبة، وإنما من أنصار الملاءمة المربحة لكافة الأطراف بين متطلبات قطرين إسلاميين أو أكثر . ومن هنا يكون الاقبال الطبيعى على إزالة الحواجز بين قطرين أو أكثر وهكذا .

وهذه الخطوط الأخيرة قد بدأت فعلا فى المجتمع العربى ، حيث تشكلت وحدات اقليمية (مجلس التعاون العربى ، مجلس تعاون الخليج ، الوحدة المغاربية) ، ولكن الأهم من قيام أى تجمع إقليمى يجب أن يكون انتاجيا يعود بالفائدة على كافة الأطراف المشاركة .

وكثيرا ما تردد أن المجتمعات الإسلامية غالبا ما تعيش فى منساق صحرافية أو زراعية ، وأن الانتاج الصحراوى والزراعى لا يعطى الفرصة للارتفاع إلى مستوى العصر إلا اعتمادا على محصول نقدى (مثل البترول) أو (القطن) والحقيقة غير ذلك حيث أن دولة زراعية مثل هولندا تعتبر فى مصاف الدول المتقدمة ، ودولة صغيرة هى (تايلاند) تعتبر دولة صناعية ولبنان الفقير الى المعادن اعتبر دولة متقدمة فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين .

إن المجتمع الإسلامى سواء الثرى فيه أو الفقير يعيش بصفة عامة فى مناخ غير صحى

(اقتصاديا) ولا بد من أن يتعدل هذا المناخ سواء بالنسبة للفرد أو للجميع حتى يمكن الانتقال من عصر التناقضات إلى عصر الانتاج .

وهناك تصنيفات أخرى لشعوب الشرق الأوسط وللشعوب الإسلامية :

- شعوب فقيرة جدا وأخرى غنية جدا . وأبرز مثال على ذلك الفنى الفاحش للكويت ولدولة الامارات وقطر والفقر الشديد الذى يعانى منه السودان .
- دول راديكالية مثل البانيا وحكومة أفغانستان وسوريا وليبيا واليمن الشعبى ودول محافظة جدا مثل السعودية ودول وسط بين هذا وذاك مثل مصر والمغرب .
- دول ذات كثافة سكانية منخفضة مثل معظم البلاد العربية البترولية ودول ذات كثافة سكانية معقولة مثل إيران وتركيا ودول ذات كثافة عالية جدا مثل مصر لضيق الوادى المعمور وباكستان .

أما الوطن العربى والعالم العربى فهو الممتد من الاطار الأعجمى الشرقى عبر العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ووادى النيل وشمال أفريقية ، وهو الذى يضم دول الجامعة العربية .

ويمكن أن نقسم المسلمين الى الأقسام الرئيسية التالية :

المجموعة الأولى :

- البلاد العربية وما جاورها من بلاد أفريقية ذات تركيبات عربية إسلامية قوية .

المجموعة الثانية :

- مسلمو تركيا والبلقان .
- مسلمو إيران .
- مسلمو أفغانستان .
- مسلمو الاستبس (الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) .
- مسلمو الصحراء الكبرى .
- مسلمو غرب أفريقية .
- مسلمو قلب أفريقية وشرقها .

— المسلمون في جنوب افريقية .

المجموعة الثالثة :

— المسلمون في المهجر في أمريكا الشمالية والجنوبية وفي استراليا .

وأما الوطن العربي فيمكن تقسيمه إلى الأقسام الرئيسية التالية :

١ — القلب أى وادى النيل .

٢ — المشرق العربى وينقسم إلى : العراق — الاردن — الشام — شبه الجزيرة العربية .

٣ — المغرب العربى : ويتكون من الدول الخمس : ليبيا ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، موريتانيا .

٤ — الصومال الكبير : الصومال ، جيبوتى وما سلب منها لصالح الحبشة .

والهدف من تلك التقسيمات هو سهولة تناول تاريخها وفي نفس الوقت لأن كل مجموعة من تلك المجموعات تقدم دلالة معينة ذات خلفية تاريخية يجدر أن تؤخذ بعين الاعتبار .

وتوجد مصطلحات أخرى ذات علاقة وثيقة بالشعوب الإسلامية :

١ — الشرق الأدنى .

٢ — الشرق الأوسط .

٣ — الأمة العربية ، والشعوب العربية ، والوطن العربى ، والعالم العربى ، والعرب ، وبلاد العروبة .

ومصطلح الشرق الأدنى أقدم من مصطلح الشرق الأوسط ، وكلاهما من ابتداء الأوروبيين . والشرق الأدنى كان يقصد به — إلى حد كبير — الدولة العثمانية التى كانت تمتد فى معظم البلقان إلى العراق إلى معظم الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقية ، ومن ثم فهى الشرق القريب (الأدنى) من أوروبا .

أما الشرق الأوسط فهو مصطلح أطلقه الغرب (أمريكا وأوروبا) على المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية العالية فى قلب العالم القديم الممتدة من باكستان إلى إيران وتركيا والبلاد العربية حتى المحيط الأطلنطى ويدخل فيه كذلك حوض البحر المتوسط فى إطاره العربى بصفة خاصة . وشاع استخدام هذا المصطلح خلال وأعقاب الحرب العالمية الثانية .

ولكن تعرض هذا المصطلح لتطورات عديدة . فقد كان يستخدم في أول الأمر - خلال الحرب العالمية الثانية وأعقابها - بمفهومه الواسع الذي أشرنا إليه آنفا .

وبنمو الاستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط تميزت داخله مناطق عن أخرى ، فظهرت دول الاطار الخارجى الإسلامى المتحالف مع الولايات المتحدة بشكل مباشر أو غير مباشر وكانت هى نفسها - أى تلك الدول الإسلامية - العصب الأساسى لحلف بغداد (تركيا - إيران - باكستان - بغداد) ، وكما هو واضح أنها كانت شعوبا إسلامية غير عربية باستثناء العراق ، بينما كانت البلاد المحيطة بإسرائيل تعاني بشدة من الصراع مع إسرائيل التى كانت تدعمها الولايات المتحدة والدول الأوروبية بصفة عامة .

وأدى انهيار حلف بغداد خلال الستينيات والسبعينيات واضطلاع مصر بمسئولية اعطاء دفعة قوية إلى الحركة الوجودية العربية ، وعدم اشتراك الدول الإسلامية غير المماسة لإسرائيل اشتراكا ايجابيا فى الصراع العربى الاسرائيلى أدى إلى أن ينظر الراى العام العالمى إلى الشرق الأوسط وإلى مشكلة الشرق الأوسط على اعتبار أنها صيغة أخرى للصراع العربى الاسرائيلى ، ثم حدث تطور كبير آخر عندما قامت الثورة الإسلامية على الطريقة الخمينية الشيعية ونجحت فى استلام السلطة فى ١٩٧٩ .

فقد أعلنت زعامات الثورة الإيرانية أنهم يسعون إلى تصدير الثورة الإسلامية وقيام الجبهة الإسلامية ، وتصفية الوجود الاسرائيلى ، وأنهم لناجحون فيما فشل فيه العرب بقوة الايمان وقوة السلاح ووصل بهم الأمر أن قالوا أن تحرير فلسطين يكون عبـر العراق ، وتهيأت الظروف ليس لحركة تحريرية إيرانية لفلسطين ولكن لحرب إسلامية - إسلامية بين إيران والعراق، اتخذت شكل صراع بين النظرية الإسلامية والقومية العربية، وبين العجم والعرب ، إلى غير ذلك من مؤججات الصراع .

على أى حال فقد أدت هذه الحروب إلى اتساع مفهوم الشرق الأوسط مرة أخرى ، بل زاد اتساعا مع الغزو السوفيتى لأفغانستان والدور الباكستانى النشط فى مقاومته ، بينما توصلت مصر وإسرائيل إلى صيغة للسلام العسكرى دون تطبيع العلاقات، فأصبحت أطراف الشرق الأوسط أشد توترا من قلبه بينما كان قلبه من قبل متواصل التوتر بسبب الصراع العربى - الاسرائيلى الذى لعبت فيه مصر الدور الرئيسى .

إن الحرب الأهلية اللبنانية منذ ١٩٧٣ وما صاحبها من غزوات اسرائيلية للبنان ومصادمات متباعدة بين اسرائيل وسوريا وتدخل عسكري من جانب الولايات المتحدة، وإن الانتفاضة الفلسطينية منذ ديسمبر ١٩٨٧ واستمراريتها ودورها الايجابى فى مواقف بعض الدول الكبرى من الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فضلا عن الحرب العراقية الإيرانية ، والحرب الليبية التشادية وحرب المغرب ضد البوليزاريو والحرب فى جنوب السودان ، كل هذا جعل صورة الشرق الأوسط والبلاد العربية كئيبة لدى الدول والشعوب الأخرى .

حتى بدت هذه الصورة الكئيبة تتحسن بتوقف الحرب العراقية الإيرانية ، ومحاولات التوصل إلى حل للمشكلات الأخرى فى المنطقة .

وخلال السنوات الأخيرة كانت التيارات الوحيدة على أساس اقليمى تنمو حتى ظهر (مجلس تعاون الخليج) فى السبعينيات و (الوحدة المغاربية) من دول شمال افريقية الخمس ، و (مجلس التعاون العربى) الذى يضم أكبر دولتين مقاتلتين عربيتين هما مصر والعراق فضلا عن الأردن الذى تدرس منذ بداية الصراع العربى الاسرائيلى على خوض معاركه .

واتجهت تركيا إلى الافادة من تاريخها العثمانى الإسلامى ليكون لها موقع قوى فى المنطقة ، هذا فضلا عن تيار القومية العربية الذى أخذ يشتد عوده مرة أخرى فى عهد حسنى مبارك بعد استعادة مصر مكانها فى الجامعة العربية بعد مقاطعة عربية لمصر امتدت حوالى عشر سنوات (١٩٧٩ - ١٩٨٧ / ١٩٨٨) .

تلك كانت نظرة على مصطلح «العالم الإسلامى» و «البلاد الإسلامية» و«المسلمون» بما هم عليه وبما عليهم أن يفعلوه .

ولدينا عدة ملاحظات بشأن العالم الإسلامى هى :

١ - إن أطراف العالم الإسلامى أخذت تتآكل سواء فى البلقان أو فى منساق الشرق الأقصى (الفلبين) . فقد كان البلقان كله تقريبا تحت السيطرة العثمانية الإسلامية ثم أخذت هذه السيطرة تنحسر بالتدريج حتى لقد ظهرت حركة منظمة لطرد المسلمين من البلقان خلال القرن التاسع عشر ، ونجحت فعلا فى تقويض الامبراطورية

(الدولة) العثمانية ، حتى لم يبق للاتراك العثمانيين على الأرض الأوروبية سوى رقعة صغيرة جدا حول (ادرنه) . كما ظهرت حركة منظمة لتصفية الوجود الإسلامى فى بعض الدول الشيوعية فى البلقان ، مما أدى إلى أزمة بين بعض هذه الدول وتركيا بصفة خاصة .

٢ — كان المسلمون قد وصلوا إلى جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وبعد أن فقدوا هذه المناطق وثبت القوى الأوروبية على شمال أفريقية حتى أصبح فى القرن التاسع عشر وقبل الحرب العالمية الأولى قسمة بين الدول الاستعمارية وبصفة خاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، ولا تزال حتى الآن جيوب استعمارية فى شمال أفريقية مثل سبته ومليله .

٣ — إن العالم الإسلامى بأسره وقع تحت نير الاستعمار الأوروبى باستثناء بعض أجزائه المحدودة مثل (نجد) — فى قلب الجزيرة العربية — واليمن . وتلك الحقيقة وضعت شعوب العالم الإسلامى بأسره فى قائمة الشعوب المتخلفة ولكنها أخذت تتخلص من الاستعمار إلا أنها لا تزال تعاني من أنواع مختلفة من التبعية .

٤ — إن الشعوب الإسلامية وهى تحاول اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، تبنت عدة إيديولوجيات :

(أ) النقاء الفكرى العربى الإسلامى مع تطويع الحضارة الغربية وتطبيعها وإعادة صياغتها واقتباسها مثلما حدث فى المملكة العربية السعودية .

(ب) التوفيق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية مثلما فعلت مصر .

(ج) الأخذ بالحضارة الغربية والاندماج فيها مثلما حدث لدعاة الاندماج فى الجزائر .

والخطورة التى تواجه العالم الإسلامى فى المستقبل القريب هى تفوق الدول الغربية تفوقا حاسما فى التكنولوجيا ، ويخشى من أن تفرض الدول الغربية نفسها فرضا على الشعوب الإسلامية .

وما من مخرج من وجهة نظرنا من هذا المأزق سوى استعادة المسلمين المبادرة

والمبادرة في المشروعات الكبرى التي تحافظ على (الشخصية الإسلامية) ، وما من أسلوب أجدى من (الاقتصاد الانتاجى) للحفاظ على هذه الشخصية الإسلامية .

٥ — تضارب الايديولوجيات في البلاد الإسلامية . فبعض البلاد الإسلامية أخضعت بالشيوعية ، مثل البانيا . وتعيش كتل بشرية كبيرة في الدول الشيوعية الكبرى مثل الاتحاد السوفيتى والصين ، وهذه الكتل البشرية الكبيرة معرضة لأن تفقد يوما ما هويتها الإسلامية . كذلك هناك كتل بشرية كبيرة استوعبتها الحضارة الغربية حتى أصبحت أقرب إلى أوروبا منها إلى العالم الإسلامى ولم يبق من إسلاميتها سوى المظهر ، وحجم ليس بالقليل منها يعيش داخل الشعوب الإسلامية نفسها .

وإننا لا ندعو إلى ارغام هؤلاء على اتباع التعاليم الإسلامية وإنما ندعو الى اقناعهم بتلك التعاليم .

٦ — إن الايديولوجيات الغربية — مثل الديمقراطية الليبرالية — هي التي ستجتاح العالم خلال السنوات القليلة القادمة . وينظر إليها العديد من القيادات الإسلامية على أنها ستدمر الفكر الإسلامى ، والحقيقة هي أنها ليست كذلك إذا ما تعامل معها الشرق الإسلامى بحكمة . فعليه أن يعترف أولا بأنها هي الايديولوجية التي ستحتل المرتبة الأولى في العالم خلال الفترة القادمة . وعليه أن يطبع العلاقات معها بدلا من أن تكسر على المسلمين أبوابهم بشكل يخرجهم من دينهم .

٧ — إن في العالم الإسلامى مجموعة من الصراعات على رأسها الصراع بين مفهوم عالمية الإسلام ومفهوم القومية العربية والوطنية القطرية . وهو صراع اشتد أواره في النصف الثانى من القرن العشرين . وهو صراع إن لم نتحكم فيه فسيؤدى إلى تحكم الآخرين فينا باسم السلام من أجل الديمقراطية الليبرالية . وتجد الشعوب الإسلامية قد فرض عليها السلام وفرض عليها ايديولوجية دون تطويع هذا السلام أو تلك الايديولوجية لمصلحة الشعب والشعوب الإسلامية .

٨ — إن الشعوب الإسلامية استهلاكية في مجملها ومدينة للدول الكبرى ، معرضة لخوض حروب ضد جيران طامعين فيها ، وفوق هذا وتلك فهي في حاجة مستمرة إلى دعم

الدول الكبرى بطريقة أو بأخرى . وبالتالي فعلى هذه الشعوب أن تحدد شكل التبعية ، والتبعية في حد ذاتها خطر إذا ما تعدت المعقول ، وهذا ما يجب أن تحدده الشعوب الإسلامية بحيث تتخلص من (التبعية) وتدخل في اطار (التعاونية) الدولية .

٩ - إن الفكر الإسلامى يجب أن يتطور تطورا جوهريا بحيث يكون قادرا على استيعاب الايديولوجيات الأخرى . والفكر الإسلامى فيه ما يستوعب أية ايديولوجية أخرى . ونظرا لأن رجال الدين ليسوا على مستوى المسئولية لتحقيق هذا الهدف ، فإن المؤسسات الدينية يجب أن تتعرض لأزمة حوار مفتوح حتى تجد الطريق الذى يحافظ على الهوية الإسلامية ويفيد من التطورات الحضارية الغالبة .

فمن المعروف أن بعض رجال الدين المسلمين خلال القرن التاسع عشر والعشرين اتخذوا مواقف متصلبة من الاقتباس من النهضة الأوروبية الحديثة والمعاصرة ، فبعضهم كان يرفض (التليفون - والراديو) فأصبحا في زاوية من زوايا المنزل ، ولكن أخطر موقف سلبي لرجال الدين كان بالنسبة لتجارة الرقيق فلم يعلنوا تحريمها في الوقت الذى كانت فيه انجلترا تنزع حركة إنسانية واسعة النطاق لتحريم هذه التجارة غير الإنسانية ، حتى لقد أصبح المفهوم في أواخر القرن التاسع عشر أن المسلمين - وخاصة العرب - هم تجار العبيد، مع أن الأوروبيين هم الذين استنزفوا قوة أفريقيا البشرية ، وتوقفوا عن تجارة الرقيق بعد أن توقفت المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد (أمريكا الشمالية والجنوبية) عن استيعاب رقيق جدد . وهكذا أصبح الافريقيون مقتنعين - وعلى نطاق غير ضيق - بأن العرب مسئولون عن تجارة الرقيق ، وأن الانجليز هم المخلصون .

١٠ - إن اعدادا كبيرة من الشعوب الإسلامية تعيش حالة حضارية شديدة التخلف واعنى بذلك حياة (القبائل) و (العشائر) وهذا يعتبر سبة في جبين أى مسلم . وهذه التركيبات القبلية تكاد تغطى معظم العالم العربى بالذات . فتلك التركيبات القبلية ستكون لقمة سائغة لأية حضارة أخرى متفوقة .

١١ - كانت موج في البلاد الإسلامية الصراعات مثلما حدث في القارة الهندية بين المسلمين

والهندوس ، وبين الشيعة والسنة والوارنة والدروز في لبنان ، وبين العراق وإيران ، وبين السعودية واليمن وبين السعودية ومصر وبين ليبيا وتشاد وبين موريتانيا والسنغال ، وهذه اشارات وليست حصرا ، ومن ثم فان هذه الصراعات كفيلة بأن توقف عملية التنمية وليس فقط تعطيلها الأمر الذى يعرض تلك البلاد الإسلامية للوقوع في نوع جديد من السيطرة والاستغلال الأجنبي .

١٢ - إن البلاد العربية المحيطة بإسرائيل هي التي تحملت أساسا مفارم الصراع العربى - الاسرائيلى وبخاصة مصر . وهو صراع شبيه بتلك الحروب الصليبية . وهو صراع من نوع خاص يحتاج إلى حكمة عالية المستوى لعلاجه حتى لا تتحول إسرائيل الحالية إلى (إسرائيل الكبرى) . وفى هذا انقاذ لليهود من أنفسهم حتى لا يعيشوا على فكر خيالى قد يتحقق يوما ما ولكن على حساب مستقبلهم ومستقبل المنطقة . وابلغ دليل على ذلك ما يجرى فى الضفة الغربية من انتفاضة جعلت الاسرائيليين يعيشون على أرض محروقة يسمونها هم (جودايا والسامرة) أمل الأولين منهم ورثه عنهم الحاليون .

والملاحظ هنا أن دور الدول الإسلامية فى الصراع العربى الاسرائيلى محدود جدا لا يتعدى التأييد المعنوى والمالى أما مفهوم التضامن الإسلامى والعمل بمقتضى الآية (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) فلم يكن فى استطاعتهم ذلك نظرا لأن (النظرية القطرية) - أى أن كل قطر يعمل من منطلق مصالحه الخاصة به - كانت هي التي أخذت بها الدول والشعوب الإسلامية متشددة بالتضامن الإسلامى أكثر منها منفذة له .

١٣ - إن الجامعة الإسلامية كانت نظرية سعت الدولة العثمانية دون جدوى أن تحققها، وقامت منظمة المؤتمر الإسلامى وهي تعمل من منطلقات (قطرية) ومع ذلك فهي منظمة ضرورية لمواجهة المنظمات العالمية الطامعة فى الشرق الإسلامى بطريقة أو بأخرى . ولكن المشكلة الحقيقية التي تواجه تلك المنظمة والمؤسسات الدينية بصفة عامة أنها تفتقر إلى الروح التبشيرية .

١٤ - إن التيارات الإسلامية النشطة خلال السبعينيات والثمانينيات تستند بعضها إلى القوة أكثر منها إلى الحوار ، وإلى نظريات السلف أكثر منها على نظريات العصر

والمستقبل ، وتعمق من صراع الايديولوجيات أكثر من الانطلاق معها نحو مستقبل أكثر متقاسما .

١٥ - إن هناك بعض الدول والشعوب الإسلامية بدا وكأنها قد تطرفت - نوعا ما - في الابتعاد عن مجموع الشعوب الإسلامية ونخص هنا بالذكر (تركيا) و (تونس) ، ثم نلاحظ أنها استعادت توازنها الإسلامى نظرا لأن الأرضية الشعبية إسلامية ، وإن هذه العملية من الابتعاد والاقتراب واستيعاب المبادئ الإسلامية وتطبيقها كلها ظواهر شملت الشعوب الإسلامية بدرجات مختلفة من القوة والضعف .

١٦ - إن العصر والمستقبل القريب يعيش عصر تنافس الشعوب المنتجة في إطار من الديمقراطية . وهذا ما يجب أن يكون نصب عين كل شعب إسلامى وكافة الشعوب الإسلامية حتى تخطو بخطوات ثابتة عبر القرن الحادى والعشرين .

ولا شك أن كافة الامكانيات التى يمكن أن يقدمها المسلمون لأنفسهم والعالم الحضارى تكمن فى قدرتهم على أن يشعر المواطن المسلم فى أى بلد بمقدرته على الانتاج بالتعاون مع إخوة له حتى ولو كانوا فيما وراء البحار .

الباب الأول

نشأة ونمو الدولة العثمانية

منذ القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر

الأتراك شعب من الشعوب الإسلامية التي ملأت التاريخ أحداثا وتطورا ، إذ مرت بالغالبية العظمى من الأتراك مظاهر الحضارة طيبها ومرها ، من البداوة إلى الدولة العامة (الامبراطورية) ، ومن أدنى المستويات الحضارية إلى أرفعها ، ومن حكم يقوم على نظرية (السلطنة) إلى نظرية (الخلافة) إلى (الجمهورية) .

وذاق الأتراك عبر تاريخهم الطويل حلاوة الجهاد في سبيل الله ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية الشرقية) ، حتى استولوا على هذه الامبراطورية كلها، ومدوا ذراعا لهم قوية إلى المحيط الهندي وأخرى إلى المشرق العربي وإلى وادي النيل حتى حوض البحر الأحمر الجنوبي وما وراءه بقليل ، وامتدت ذراع عثمانية ثالثة حتى وصلت إلى حدود مراکش (المغرب) ، وأصبحوا الدولة الإسلامية التي تضم أرضا إسلامية وأرضا أوروبية مسيحية .

ويمكن أن نقسم تاريخ الأتراك العثمانيين إلى الأقسام الرئيسية التالية :

- ١ - نشأة ونمو الإمارة العثمانية في شمال غرب الأناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى استيلاء السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية ١٤٥٣ .
- ٢ - التوسع العثماني في البلاد العربية خلال القرن السادس عشر .
- ٣ - الدولة العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- ٤ - المواجهة بين الحضارة الإسلامية التقليدية على الطريقة العثمانية والحضارة الأوروبية الحديثة في القرن التاسع عشر ومحاولات التحديث في الدولة العثمانية .
- ٥ - الأيديولوجيات المتضاربة في الدولة العثمانية : الجامعة الإسلامية ، القومية (التركية - العربية) ، الخلافة أم الجمهورية ، الشورى الإسلامية أم الديمقراطية الغربية ، السلفية والمعاصرة .
- ٦ - المفامرة الأخيرة (الاشتراك في الحرب العالمية الأولى) وقيام الجمهورية وإلغاء الخلافة .

فكما سبق أن ذكرنا لقد شهد الأتراك مختلف التطورات الكبرى التي مرت بالعالم منذ القرن الثالث عشر وكانت لهم مواقف ازاء تلك التطورات والأحداث الكبرى .

الفصل الأول

نشأة ونمو الدولة العثمانية

في الأناضول والبلقان

١ - الظروف الممهدة لظهور الإمارة العثمانية

٢ - نمو الدولة العثمانية في البلقان

٣ - فتح القسطنطينية

١ - نمو الامارة في الأناضول والبلقان

في ذلك الأستبس المترامى الأطراف في وسط آسيا كانت مواطن الأتراك الأولى ، ومنها خرجت هجرات قوية في مختلف الاتجاهات ، إلا أن مستقبلهم العظيم كان في الديار والمجالات الإسلامية . فللاسلام الفضل الأول في فتح أبواب مستقبل باهر أما الأتراك . كانوا من قبل وثنيين رعاة غلاظ القلوب ، فلما اسلموا تهذبت طباعهم وأخلاقهم ، وأصبحوا قوة لها مكانتها . فباعتناقهم الإسلام أصبحوا أعضاء مقبولين في المجتمع الإسلامي ، وفي أى جزء من العالم الإسلامى ، (فالؤمنون أخوة) .

ونظرا لتمرس الأتراك في الأستبس على صنوف القتال وضراوته ، ونظرا لأن الأتراك السلاجقة كانوا في تركيا في حرب ضروس ضد العملاق البيزنطى ، توافدت الهجرات التركية من وسط آسيا إلى تركيا (آسيا الصغرى الأناضول) وكانت فكرة الجهاد ضد بيزنطة واحدة من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالأتراك إلى هذه الهجرة الى الأناضول ، حتى أصبح الأناضول تركيا كله، وأخذت تظهر هناك الإمارات التركية . حقيقة كانت هذه الإمارات التركية وكأنها أقزام بجوار العملاق البيزنطى إلا انها كانت قادرة على رد العدوان البيزنطى عليها بشدة تماسكها ، بل كذلك صمدت خلال الفترة العصيبة التى اجتاحت فيها المغول العالم الإسلامى وقوضوا الدولة السلجوقية وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد ١٢٥٨ م .

إن هذه الغزوة المغولية أدت كذلك إلى انتشار الإسلام بين المغول والتتار ، وبالتالي فتح الإسلام أمامهم أبواب الهجرة إلى الديار الإسلامية ولهذا أقبل على الأناضول الكثير من الجماعات المغولية فضلا عن الجماعات التركية ، لتسهم هذه الهجرات في استكمال تتريك الأناضول حيث أن الأتراك والمغول من أصول واحدة . كانت الوثنية تجمعهم قبل الإسلام ، وأصبح الإسلام يجمعهم منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

ومع أن المغول قضوا على الدولة السلجوقية ، وقضوا على الخلافة العباسية فإنهم

(٣ - الشعوب الإسلامية)

لم يستطيعوا السيطرة سيطرة مباشرة على أملاكهم الواسعة في المشرق الإسلامى أو في الأناضول ، فلم تظهر على يدهم أو من بعدهم حكومة مركزية قوية في الأناضول الأمر الذى أفسح المجال لنمو العديد من الدويلات التركية الصغيرة ومن بين هذه الدويلات « الإمارة العثمانية » .

والفترة الأولى من تاريخ هذه الإمارة العثمانية الصغيرة تحيط بها الأساطير . فمن المعروف أن أية إمارة تنمو إلى دولة كبيرة فإن تطورها هذا كفىل بأن يضى عليها الكثير من الصفات والأعمال المبالغ فيها . كذلك من المعروف أن الإمارة الناشئة الصغيرة لا تلفت الأنظار وهى لا تزال فى المهد ، ولا يكتب عنها أحد إلا إذا بدأت تلفت الأنظار اليها ، وغالبا ما يكون ذلك بعد فترة طويلة من نشأة الإمارة ، وبعد أن يكون تاريخ النشأة قد أصبح اقرب إلى الأساطير ، خاصة إذا ما نمت هذه الإمارة حتى أصبحت الدولة الأكبر مثلما حدث للإمارة العثمانية التى نمت حتى أصبحت دولة الخلافة الإسلامية .

تصدى لهذا الموضوع مؤرخ عظيم هو جيبونز (١) فى كتاب (تأسيس الامبراطورية العثمانية) ذلك الكتاب الذى أصبح مرجعا رئيسيا لمن يتصدى لنشأة الدولة العثمانية ، وله فى هذه النشأة نظرية تقول :

« كان أرطغرل ابو عثمان الذى تنسب إليه الامبراطورية هو رئيس قبيلة صغيرة عرفت باسم (قاى) وفدت على الأناضول فى عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيزخان واستقرت فى سكود فى شمال غرب الأناضول . . . وكان عثمان وقبيلته اتراكا كفارا يزاولون الرعى ، فلما عاشوا فى بيئة إسلامية دخلوا فى الإسلام كابناء جلدتهم من الترك السلاجقة . . . ولم يكن تحت إمرة عثمان قبل دخوله فى الإسلام إلا اربعمائة محارب . . . ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن (تضاعف) بين سنتى ١٢٩٠ - ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقت حدود البيزنطيين ، وادى ذلك إلى ظهور جنس Race جديد انتسب إلى رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى ، ولكنه كان جنسا جديدا مختلطا ناشئا عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون » (٢) .

Gibbons; The Foundation of The Ottoman Empire

(١)

(٢) محمد فؤاد كوبرلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة عن التركية ، وقدم له

الدكتور احمد السعيد سليمان ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٩ .

شاعت هذه النظرية حتى أصبحت أشبه بالحقيقة الثابتة لما كان يعرف عن جبونز من علو كعب في التاريخ التركي ، ولأن عددا ليس بالقليل من مؤرخي أوروبا قبل النظرية وأخذ بها في مؤلفاتهم ، حتى انبرى مؤرخ تركي لهذه النظرية دارسا ثم ناقدا ، وأخيرا وضع الأمور في نصابها محددا الظروف والطريقة التي لا بدت نشأة الإمارة التركية فيقول كوبريلي :

« إنه إن الخطأ أن نعزو تأسيس الامبراطورية العثمانية إلى قبيلة من اربعمائة خيمة كانت تقطن في القرن الثالث عشر الحدود البيزنطية السلجوقية في أقصى الشمال الغربي من الأناضول ، دون تفكير - لشرح هذه الواقعة - في الظروف التاريخية والاجتماعية للأناضول في القرن الثالث عشر والرابع عشر » (١) .

لقد كان الأناضول (تركيا) فعلا - قبل أن تفد إليه قبيلة (قايى) - وكان إسلاميا كذلك . ولتكون (قايى) قبيلة مسلمة وتركية ، كانت فرصتها واسعة للقـسـودم إلى الأناضول ولتكوين إمارة صغيرة ، مجاهدة في سبيل الإسلام ، على الحدود السلجوقية - البيزنطية في المنطقة المعروفة حول (أسكى شهر) . وكانت الدولة السلجوقية تعين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية وعن مناطق الحدود ، وعرف هؤلاء باسم (أمراء الحدود) .

كان أمراء الحدود يواجهون ظروفًا صعبة للغاية ، ومشكلات متجددة من وقت لآخر ، وكانوا خلال هذا يجدون أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ سياسات تختلف عن سياسة الحكومة الكبرى المسئولة عن الأناضول : الحكومة السلجوقية . وبطبيعة الحال أدى ذلك إلى أن يصبح ولاء هؤلاء الأمراء للدولة السلجوقية - المتدهورة - مجرد ولاء اسمي ، وأن يصبحوا في نفس الوقت أقدر على التصرف والتحرك بحرية كبيرة في مواجهة العملاق البيزنطي .

وحيث أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بعمل بطولى إسلامي ، كانت ثقتهم بأنفسهم وبعملهم عظيمة وكبيرة وكانت ذكريات الحروب الصليبية لا تزال قريبة . وإلى جانب ذلك كانت هناك عدة عوامل ساعدت على هذا النمو المطرد للإمارة العثمانية .

(١) كوبريلي ، المصدر السابق ص ٩ وما بعدها .

فقد كان الأناضول خلال القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر قد أصبح أشبه بمنطقة فراغ سياسى وبشرى . كانت السلجوقية والامبراطورية البيزنطية تتناحran عليه ، ولكن تلقت كل منهما وفي وقت متقارب ضربة قاصمة . انقضت أوروبا الغربية على هيئة حملة صليبية رابعة (١٢٠٤) على الامبراطورية البيزنطية وليس على الدولة الإسلامية فكان ان فرضت على القسطنطينية حكما كريها هدم الكثير من قيم أهاليها . فعندما سيطر الصليبيون الغربيون على عاصمة الامبراطورية البيزنطية أقدموا على أعمال وحشية إذ « استباح اللاتين المدينة طيلة ثلاثة أيام ودمرت أجزاء من القسطنطينية الجبارة وسلبت . واستهجن البابا انوسنت الثالث ما قام به أتباعه الكاثوليك الذين خرجوا على سياسته فقد كان يدعو إلى توطيد الصداقة بين الشرق والغرب ، أما حملة ١٢٠٤ فقد جعلت من المستحيل قيام اتحاد بين الشرق الأوروبى وغربه . وقال البابا أن الاتحاد أصبح الآن مستحيلا إلى الأبد » (١) .

حقيقة استطاع (ميخائيل الثامن) ان يعود إلى القسطنطينية امبراطورا بيزنطيا بعد أربعين عاما من تلك النكبة . ولكن تلك النكبة كانت قد هنت العاصمة والامبراطورية وكانت بمثابة بداية النهاية بالنسبة لها . فكان ذلك فرصة ذهبية أمام هذه الإمارة الصغيرة الطموحة العثمانية . فقد ركزت الامبراطورية البيزنطية أنظارها بسبب تلك النكبة على البلقان وما هو وراء البلقان أكثر من تركيزها على خطر الإمارات التركية النامية على حسابها فى الأناضول .

ويبدو أن السلطات الحاكمة فى القسطنطينية كانت قد تعودت على فقد أجزاء من ممتلكاتها فى الأناضول ، حتى فقدوا الأمل ، ليس فقط فى استرداد الأناضول بعد توالى وصول واستقرار القبائل التركية فيه وتحويله إلى أرض تركية تماما . فإذا ما حاولت

(١) برنادين كلتي : فتح القسطنطينية ، ترجمة شكرى محمود نديم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٦٢ ، ص ٦١ ، وقد علقت (كلتي) على تلك الوحشية من جانب اللاتين بالمقارنة بالأتراك بقولها : « لم يسمر الأتراك فى أى وقت احتلوا فيه مدينة . . بالشكل الذى دمر به هؤلاء القوضيون من الفرنسيين والإيطاليين والفلمنكيين القسطنطينية المسيحية » .

بميزنة استرداد الأناضول باسم المسيحية ، ستجد أنها تعمل على أرض معادية لها :
أرض إسلامية .

تولى أمر هذه الإمارة الصغيرة ، بعد موت مؤسسها عثمان ، ابنه أورخان . وكان رجلا على جانب عظيم من الحكمة والنشاط ، سواء في عهد أبيه ، أو بعد أن تولى هو الحكم . فهو الذى فتح بروسه (١٣٢٦ م) ، وجعلها عاصمته ، وهو أول من عبر المضيق إلى غالوبولى لتصبح قاعدة التوسع العثمانى فى البلقان .

وهناك عدة عوامل ساعدت أورخان على تأسيس دولة يحسب حسابها فى المنطقة ،
أهمها : ————— :

١ — كانت الامبراطورية البيزنطية تعاني من امراض الشيخوخة . واطرها (الحرب الأهلية) والصراع حول العرش بين زعماء غير اكفاء لمواجهة الخطر الحقيقى الذى يواجه الامبراطورية ، وكان وقود هذه الحرب شعب كان يفقد الثقة فى نفسه وفى زعمائه سنة بعد أخرى . حتى لقد استعان الامبراطور (كانتا كوزيناس) بأورخان ، فتمكن الأول من أن ينفرد بالحكم (١٣٥٣) وعندما حاول (كانتا كوزيناس) أن يتنصل من الثمن الباهظ الذى كان عليه أن يدفعه لأورخان ، توالى عليه النكبات والثورات حتى سقط عن عرشه ليجلس عليه (باليولوجاس) (١٣٥٨) الذى لم يجد بدا من الاعتراف بالوجود العثمانى فى تراقيا فى شمال اليونان .

٢ — أن أورخان أدرك أن الأعباء الملقاة على امارته أكبر من إمكانياتها خاصة بعد أن أصبحت السلطات البيزنطية تنظر إليه بعين المخاوف والأخطار الحقيقية ، وهذا ما لم يكن متوفرا لتلك السلطات قبل عبور العثمانيين البحر إلى البلقان . ولهذا عنى باعادة تنظيم الجيش . فقد كان الجيش العثمانى يعتمد على الفرسان ، إلا أن أورخان خلال المعارك أدرك حاجته الملحة إلى جيش من المشاة يستطيع أن يستولى على القلاع والأسوار الكبرى التى اشتهرت بها مدن البلقان . ولكن خبرات الأتراك السابقة كانت متركزة على الخيالة ، وكان من العسير تحويل التركى إلى جندى مشاة فاتجه أورخان إلى استخدام عنصر غير تركى فى تكوين جيش من المشاة ، وعرفت هذه الطريقة باسم الديوشيرمة .

والديوشمة هي ضريبة الدم ، إذ كان الصبية الصغار المسيحيون يؤخذون من البلاد المفتوحة حديثا ، ليدخلوا في الإسلام ويربوا تربية إسلامية عسكرية وفكرية . وكانوا يعيشون في ثكنات خاصة بهم لا يتزوجون ولا يختلطون بالمجتمع وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامى والملة والسلطان . وهذا النوع من الجند العثمانى هو الذى أطلق عليه اسم « الإنكشارية » أى الجيش الجديد .

وهناك نقد أوروبى شديد الوطأة لهذا النظام ، يتهم الأتراك بالقسوة المتناهية إزاء البشرية . ومع ما فى هذا النظام من قسوة فإنه لا يمكن أن يقارن بما فعله الأسبان بمسلمى الأندلس الذين خيروهم بين التنصر والموت ، وبما فعله الأوروبيون بالزنج الأفريقيين خلال عهد الاسترقاق المروع .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبه الإنكشارية فى توسيع الدولة العثمانية وفى سقوطها فى نهاية الأمر كتب تاريخ نشأة هؤلاء الإنكشارية بشكل بعيد عن الحقيقة ، فقد وردت فى الغالبية العظمى من المؤلفات التى تعرضت لهذا الموضوع أن الإنكشارية هم الذين كانوا يكرنون الجيش العثمانى ، أو على الأقل عموده الفقرى منذ البداية ، والحقيقة هى أن نظام الفرسان ظل سائدا فى الجيش العثمانى ولم يصبح الإنكشارية أغلبية فى الجيش إلا فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وعندما تدهور نظام الإنكشارية كان ذلك التدهور واحدا من الأسباب الرئيسية لضعف الدولة العثمانية .

كانت المؤلفات عن الإنكشارية تعتمد على الصورة السيئة الأخيرة لها ، دون ادراك حقيقى لقيمة هذا النظام فى الفترة المبكرة وأنه كان مقبولا حينذاك إذ أن الفرق لم يكن كبيرا بين نظام الإنكشارية ونظام المماليك الذى كان شائعا فى العالم الإسلامى ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن النظامين اجتذبا أعين الأوروبيين فكانوا أحيانا يدخلون أبناءهم إلى أى من النظامين — المملوكى والإنكشارى — حتى يصلوا إلى مراتب عليا فى الحكم لا يمكن أن يصلوا إليها فى مواطنهم الأصلية .

أن قيمة أورخان هو أنه شهد أول استقرار إسلامى فى أوروبا من جهة البلقان ، وشهد ظهور نظام عسكري جديد سيصبح رعب أوروبا لمدة أربعة قرون تالية .

وكذلك في عهد أورخان كانت قد بدأت عملية الاقتباس من النظم الحضارية الأخرى، وكانت تتم دون عقبات أو اعتراضات ، وأخذت نظم الضرائب البيزنطية تدخل في الإدارة العثمانية الناشئة ، وكذلك بعض نظم وفنون البناء والهندسة . وكذلك نما الاقتباس من الآداب الفارسية فضلا عن العربية ، وظهر إنتاج أدبي تركي له قيمته .

★ ★ ★

(٢)

نمو الدولة العثمانية في البلقان

إن تاريخ الإمارات الصغيرة والدول في تطوراتها الأولى يكاد يركز على الشخصيات الحاكمة التي كان لها الدور الأكبر في عملية التطور والنمو . وهذا ينطبق أكثر على تاريخ الإمارات والدول في الشرق الإسلامي حيث لعب الفرد دورا رئيسيا في تكوين وبناء الدولة حتى لقد أصبح لدينا العديد من بناء الدول الإسلامية الحديثة والمعاصرة من أمثال :

★ محمد علي باشا ★ عبد العزيز بن سعود

★ محمد علي جناح ★ رضا بهلوى

ولذلك سنلاحظ أن دور الشخصيات الحاكمة الرئيسية في بناء الدولة العثمانية كان رئيسيا الأمر الذي يجعلنا نركز عليهم بشكل واضح .
في ١٣٦٢ توفي أورخان ، وخلفه ابنه مراد الأول ليواجه أعداء دولته في اتجاهين متباعدين خطيرين :

١ - في الشرق كانت إمارة قرمان التركية تنظر بعين الخوف الشديد الى نمو الإمارة العثمانية واستطاع مراد الأول أن يوجه ضربات الى خصومه أقعدتهم عن التحرك .
ضدّه .

٢ - في أوروبا كان الامبراطور البيزنطي يسعى الى الانقضاء عليه ، ولكن (مراد) استولى على (أدرنة) ١٣٦٦ واتخذها عاصمة له ، الأمر الذي كان له صدى سيء في مختلف العواصم الأوروبية ، وخاصة لدى البابا في روما وانطلقت مرة أخرى الدعوة الى حرب صليبية ولكن دون جدوى ، بينما تابع العثمانيون تقدمهم واستولوا - فيما استولوا عليه - على سالونيك .

إلا أن هذا النمو في الدولة العثمانية كان سببا في قيام تحالف جديد من القوى المسيحية البلقانية لصد الغزو العثماني وأحرز التحالف البلقاني النصر في الجولات الأولى ولكن مراد الأول - في النهاية - خاض ضد أعدائه معركة قوصوة الكبرى في يونيو ١٣٩٨ . تلك المعركة التي سقط فيها مراد شهيدا ووقع فيها ملك الصرب أسيرا فأعدمه بايزيد الأول الذي تولى الإمارة بعد إستشهاد أبيه .

بعد هذه التطورات أصبح العاهل الجديد وجها لوجه مع أكثر الشعوب البلقانية
عداء للأتراك وتعنى بذلك البلغار والمجر .

كانت بلغاريا بين بايزيد الأول العثماني من جهة و (سيجسموند) ملك المجر من
جهة أخرى ، وكان الأخير يدرك أنه لا يستطيع وحده صد الزحف العثماني في البلقان ،
ولكن في نفس الوقت كان ملوك أوروبا يدركون أن الطريق سيصبح مفتوحا أمام الأتراك
إلى قلب أوروبا لو نزلت بالمجر هزيمة كبيرة ، ولذلك كانت الدعوة التي أطلقها ملك المجر
لإرسال حملة صليبية جديدة ذات صدى قوى بالقياس إلى الدعوات السابقة عليها ولقد
شد أزر المجر كل من بابا روما وملك فرنسا وملك إنجلترا والبندقية .

وفي ٢٧ أيلول — سبتمبر ١٣٩٦ دارت موقعة نيقية التي أحرز فيها بايزيد الأول
الانتصار الذي جعل من الدولة العثمانية حقيقة كبرى في البلقان إذ أصبحت بلاد البلغار
واليونان وجزء من البلقان الشمالي نفسه تحت السيطرة العثمانية . وقد كان لانتصارات
بايزيد رنة فرح في العالم الإسلامي وفي مصر منح الخليفة العباسي لقب سلطان إلى
بايزيد الأول .

نكسة أنقرة ١٤٠٢ :

حينذاك كانت قوة اجتياحية تنطلق من وسط آسيا قد وصلت إلى الشرق الأسطى
بقيادة فاتح رهيب هو (تيمور لنك) الذي أخضع البلاد حتى فارس مؤسسا في ظرف
سنوات قليلة إمبراطورية كبرى مترامية الأطراف تمتد من سهوب آسيا من سمرقند
شرقا حتى بلاد الأفغان والهند وإيران غربا وحتى جورجيا وأرمينيا ، وأصبح على مشارف
الأناضول قلب الدولة العثمانية .

وهكذا أصبحت إمبراطورية تيمور لنك مجاورة للدولة العثمانية الفتية ودولة
المماليك التي كانت تضم مصر والشام والحجاز كما أصبحت تجاور الدولة العشائرية
الناشئة قره قوينلو في شرق الأناضول والجلائرية المتداعية في العراق والقبيلة الذهبية في
حوض الفولجا الأدنى .

إلى جانب الجوار وحدة الطبع التتري ، كانت هناك أسباب كفيلة بإثارة الحرب بين
الدولتين التترية والعثمانية أهمها :

١ — كانت أمارات شرق الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر تشعر

الأناضول ومدنه . حقيقة كانت الضربة قاسية جدا للدولة العثمانية ولكن خفف منها أن تيمورلنك لم يكن يرغب في الاستيلاء على الأناضول وإنما عاد الى سمرقند ليعيد حملة على الصين ، ولم يلبث أن مات في ١٤٠٥ تاركا الامبراطورية تواجه التفكك السريع الذي اعتادته مثل هذه الامبراطوريات المغولية في أعقاب موت مؤسسها .

كان عدم إكتراث تيمورلنك بالأناضول ، أو باسقاط الدولة العثمانية عاملا جوهريا في الابقاء على هذه الدولة وفي قدرتها من بعد على الظهور قوية رغم المتاعب الداخلية الشديدة التي ألمت بها في أعقاب تلك الهزيمة النكراء .

وعلى المؤرخ الكبير أرنولد توينبي عدم سقوط الدولة العثمانية بعد تلك الضربة القاسية في معركة أنقرة بأن هذه الضربة وقعت في وقت كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال في دور التكوين والفتوة ، وهو دور يعطى الدولة الناشئة القدرة على تلقي الضربة وامتصاصها ثم معاودة النهوض ، رغم ما كانت تواجهه من ظروف داخلية صعبة . فلا يكاد خطر التتر ينحسر عن الأناضول حتى تعرضت الدولة العثمانية لصراع أسرى مرير بين أبناء بايزيد الثلاثة . موسى وسليمان ومحمد .

خلال هذا الصراع بين الأخوة ظهر خطر تمزق الدولة ، فقد كان هناك مطالب بالعرش معتمدا على الأناضول ، وآخر في البر الأوروبي مطالباً كذلك بالعرش . فعلى هذه الصورة كان الصراع بين محمد في آسيا ، وموسى في البلقان^(١) . وكان كل منهما يعاني من خصوم له في منطقته ، كان الصرب والامبراطور البيزنطي يعادون (موسى) ، وكان أمير أزمير وأنقرة شوكة في جنب (محمد) ، إلا أن (محمدا) كان أقدر من أخيه موسى في تصفية المشكلات التي كانت تواجهه ، ولعل هذا يرجع الى أحوال الخصم في كل جانب . كانت الخصومات دينية سياسية في البلقان ، بينما كانت بالنسبة لمحمد خصومات سياسية فقط . ولهذا كان من اليسير على (محمد) أن يحصل على تحالفات في البلقان يستخدمها ضد أخيه ، وكان الصرب والامبراطور البيزنطي مستعدين للتحالف معه ؛

(١) لم يثبت أخ ثالث - هو سليمان في الميدان طويلا إذ قتل في معركة ضد أخيه موسى في ١٤١٠ .

ولهذا كان النصر حليف (محمد) فى سهل غاليبولى على أخيه ، ليصبح السلطان الأوحـد (١٤١٣) .

كان الخطر الداخلى الكبير الثانى يتمثل فى ثورة عقائدية صوفية ذات أبعاد اقتصادية وتنطوى على محاولة للتقريب بين الإسلام والمسيحية . تلك كانت حركة (بدر الدين الضمارنوى) وتابعه (بوركلوجه مصطفى) .

وكانت هذه الثورة تنادى بأن المسلمين والمسيحيين متساوون فى الإيمان بالله وأن الناس متساوون فى الإفادة من أرزاق الأرض فكان طبيعيا أن تلقى مثل هذه الدعوى قبولا لدى الفلاحين فى آسيا بسبب الارهاق الشديد الذى كانوا يعانون منه على يد كبار الاقطاعيين ولأن هؤلاء الفلاحين كانوا — فى غالبيتهم — حديثى عهد بالإسلام . ولكن مثل هذه الدعوات المتطرفة لا يكتب لها النجاح فى عصر كان فيه الفكر الدينى هو المسيطر على الأذهان ويحدد العدو من الصديق فى غالبية الحالات ، وكان الفكر الاقطاعى هو السائد حينذاك ، واستطاع (محمد) أن يقضى على هذه الحركة ، ولكن بعد جهد كبير (١٤١٨) .

واجه (محمد) ثورة أخرى لها خطورة تزعمها مطالب بالعرش ادعى أنه مصطفى ابن بايزيد ، ولكن لم يستطع مصطفى هذا أن يثبت طويلا أمام خصمه القوى .

وكان نجاح (محمد) فى إعادة السيطرة على الدولة العثمانية ، وقضائه على الثورات الداخلية هو المهد الحقيقى لنمو قوة الدولة على يد خليفته : ابنه (مراد) وحفيده (محمد الثانى) ، ولقد استطاع السلطان مراد أن يعيد تكوين وتثبيت الدولة ، وقام السلطان (محمد الفاتح) بالخطوات العملية التى أدت فى نهاية المطاف إلى استيلائه على القسطنطينية ١٤٥٣ واضعا حدا نهائيا لهذه الامبراطورية التى عاشت حوالى ألف عام .

★ ★ ★

(٣)

فتح القسطنطينية (١٤٥٣)

موقعة فارنا ١٤٤٤ :

بعد وفاة (محمد) المفاجئة تولى ابنه مراد العرش في ١٤٢١ . واذا كان عهد (محمد الأول) هو عهد إعادة الدولة الى ما كانت عليه قبل نكبة (انقره ١٤٠٢) ، فإن عهد (مراد) هو إعداد الدولة للمهام الكبرى التي كانت مسئولة عنها قبل النكبة . ولهذا كان (مراد) معنيا بإعداد جيش قوى واقتصاد متين لدولته وإقامة حدود منيعة في وجه أوروبا المتوثبة ضده وبوجه خاص لصد قوة (المجر) المتصاعدة، إذ كان يتولى الدفاع عن المجر ، واتخاذها قاعدة ضد الدولة العثمانية قائد صلب العود هو النبيل المجسرى (حنا هونيادى) (١) . فمع أن (مراد) استطاع أن يستولى على سالونيك إلا أن (هونيادى) كان يوجه ضربات قاسية للجيوش العثمانية ، حتى لقد شاع أن الرجل هو الذى قيد له المسيح أن يخرج الأتراك من أوروبا ، وأن حملة صليبية جديدة ، تسهم فيها أوروبا يمكن أن تحقق هذا الهدف المرحلى .

وحيثذاك كانت الدعوة قوية في الدوائر الدينية والسياسية الأوروبية نحو اتحاد بين الكنائس الشرقية والغربية ، ولهذا اتجهت الأفكار نحو عقد مجمع اساقفة في فلورنسا في ١٤٣٩، وفيه ووفق على ارسال حملة صليبية جديدة لإخراج الأتراك من الأرض الأوروبية وتخليص القسطنطينية من الخطر المباشر الذى أصبح يهددها منذ ذلك التوغل العميق الإسلامى التركى فى البلقان .

ودعا البابا (يوجين الرابع) (٢) ملوك أوروبا إلى المساهمة فى هذه الحملة الصليبية الجديدة . وفى أعقاب ذلك كانت قوات كبيرة تحتشد تحت قيادة فيلادسلاف (٣) — ملك

J. Huniade

(١)

Eugene

(٢)

Vladislav

(٣)

المجر و بولندا ، وانضم اليها جورج برانكوفيتش (١) — أمير الصرب . كما شاركت قوات من (الافلاق) (٢) وجماعات من الألمان ، ومن الثوار البلقانيين في قتال العثمانيين .

رني موقعة نيش (٣) أحرزت الجيوش الصليبية انتصارا (نوفمبر — تشرين الثاني ١٤٤٣) إلا أن المنتصرين لم يجنوا ثمار انتصارهم ، فلم يتقدموا جنوبا صوب القسطنطينية ، وذلك بسبب صعوبة اجتياز البلقان في الشتاء ، كما يبدو أن تعدد القيادات في الجيش الصليبي يوحى بالتروى عند اتخاذ قرارات خطيرة ضد الأتراك العثمانيين .

كانت هذه الهزيمة ، بالإضافة الى الأخطار التي تهدد الدولة العثمانية على يد أمير قرمان من العوامل التي جعلت مراد يهدى إحدى الجهتين ليتفرغ لواحدة فقط . ولهذا عرض الصلح على القوى الأوروبية بشروط مغرية ، فوافق (فلاديسوف) على عرض مراد الثاني ، ووقع الصلح لمدة عشر سنوات ، وأقسم هذا على القرآن ، وذاك على الانجيل بالأمان يحنث بالعهد .

شعر السلطان أن الأعباء عليه كبيرة ، وإن الأجدى هو أن يتنازل عن العرش لابنه ليستريح هو في مغيبيسيا . ولكن الظروف كانت لا تعطى لا للسلطان ولا للدولة فرصة للراحة ، وذلك لأن الزعامات المسيحية المسئولة عن شن الحرب الصليبية عادت ونظرت إلى الأرقف بعين المصلحة الخاصة بفض النظر عن تلك المعاهدة التي عقدت بين (فلاديسلاف) والسلطان وتزعم هذه الحركة الكاردينال سيزاريني (٤) .

كان الاعتقاد السائد في الدوائر المعادية للعثمانيين أن موقف هؤلاء أصبح حرجا للغايه وأن دولتهم أضحت منهكة وأن أطرافها كلها معرضة للاقتطاع ، وفوق هذا وذاك كانت توجد قوات كبيرة أوروبية معسكرة في البلقان يتعذر جمعها مرة أخرى فضلا عن استمرار العمليات العسكرية الصليبية يجعل من الممكن تحريك ملوك أوروبا نحو تقديم مساعدات جديدة وجديدة للحرب الصليبية القائمة .

George Brankovich

(١)

Valaque أي ولاشييا .

(٢)

Nich

(٣)

Cesarini

(٤)

أدى كل هذا إلى أن يتنكر زعماء وملوك بل والبابا نفسه لتلك المعاهدة التي وقعها فلاديسلاف وخلقوا هذا النكت بالعهود بأن الاتفاق مع (الكفار ٩) لا قيمة له وإنمسا المصلحة العليا المسيحية هي التي يجب أن توضع فوق أية اعتبارات أخلاقية .

اقتنعت الزعامات المسيحية العسكرية في البلقان بهذا التفسير وتحركت مشاعر ملك إنجلترا وملك فرنسا ، وكذلك تحركت حكومات البندقية وجنوة وفلورنسا - رغم ما بينها من منازعات - للمساهمة في الحرب الصليبية الجديدة .

لقد أخذ عدد المشتركين في هذه الحملة الصليبية الجديدة يتزايد ، إذ انضم إليها بلغار وترانسفاليون وبشناق (من البوسنة) وبولنديون والبانيون وأفلاقيون (من ولاشيا أي الأفلاق) ودوقية برجندي فضلا عن البابوية . إلا أن عناصر لها شأنها من داخل المنطقة نفسها أبت المشاركة في هذه الجولة . فقد رفض جورج برانكوفيتش المشاركة في هذه الحرب الجديدة ، وعلى منواله سار عدد من الزعماء المحليين في البلقان .

كانت العمليات العسكرية الصليبية الأولى تشير إلى نجاح كبير متوقع لهذا الحلف الأوروبي ، خاصة وأن السفن التابعة للبندقية وجنوة تمكنت من السيطرة على المضائق مانعة بذلك الجيوش العثمانية العاملة ضد اماره (قرمان) والمعسكرة في آسيا من العبور الى البلقان إذا ما حاولت المشاركة في صد هذه الغزوة الصليبية الكبيرة .

كان مراد قد اعتزل في مغنيسيا بينما تولى ابنه محمد الثاني العرش وهو لا يزال في منتصف العقد الثاني من عمره ، وكان الخطر أكبر من قدراته . وكانت هزيمة أخرى غالبا ما ستؤدي الى تراجع عن كثير من الأراضي البلقانية ، ولكن الأدهى من ذلك أن الأناضول نفسه كان كذلك يعاني من ضغوط الامارة التركية المنافسة (قرمان) . فذهب الوزراء الى (مراد) في عزلته ، وسألوه أن يعود الى الحكم والى القيادة انقاذا للدولة من خطر كبير محقق . ولبي الرجل الدعوة ، وتولى زمام الأمور فكان هذا واحدا من الأسباب التي أعطت للجيش العثماني الثقة في النصر . وشكل السلطان مراد جيشا كبيرا ، ضخّم الأعداء عدده بشكل خيالي ، ولكن مما لا شك فيه أن الجيش الذي زحف تحت قيادة السلطان كان أكبر مما توقعه قواد الحملة الصليبية .

وكان من المفهوم أن الجيش الصليبي وهو يزحف صوب الجنوب سيجد نفسه بين أرض مسالمة وشعب يرحب به ولكن هذا الجيش الصليبي هو الذي قضى على هذه الميزة

عندما أنزل العقاب بقسوة متناهية ببعض القرى المسيحية التي قاومتها ، وعندما استمر النهب والحرق وهو في طريقه جنوبا . وهذا يرجع الى أنه إذا كان المسلمون - في نظر الكاردينال سيزاريني - كفرة ، فمسيحيو البلقان الأرثوذكس هراطقة .

وإلى جانب هذا ، كانت الخلافات بين قيادات الجيوش الصليبية تزداد عمقا مرحلة بعد مرحلة . وكانت تظهر خلافات جوهرية بين هذه القيادات حول الخطة التي يجب أن تنفذ ضد العثمانيين . كان (هونيادي) يدعو إلى شن حرب هجومية جسورة ، وبينما كان قائد آخر يدعى فلاد - دراكيل (١) يفت في عضد المقاتلين الأوروبيين ودعا إلى تأجيل الحملة الى السنة القادمة حتى يمكن إعداد حملة ضخمة متماسكة ، إلا أن وجهة نظر (هونيادي) هي التي تفوقت . في الوقت الذي كان هناك من يحسد (هونيادي) على ما حصل عليه من شهرة، ويسعى إلى أن يحل محله في زعامة الحركة الصليبية الجديدة مثل (فلاديسلاف) الذي كان يصر - بأي شكل - على أن يكون النصر باسمه .

وأخيرا وقعت المعركة في ١٠ نوفمبر - تشرين الثاني ١٤٤٤ في فارنا (ورنه) ، فتهور فلاديسلاف في هجومه دون ترو فسقط صريعا ، وقطعت رأسه وعلقت على حربة مرتفعة وإلى جوارها حربة أخرى مرتفعة كان مثبتا على أعلاها نصا لمعاهدة الصلح التي أقسم (فلاديسلاف) على الإنجيل أن يحترمها .

أدى مصرع فلاديسلاف إلى اضطراب جيشه الذي فتك العثمانيون به ، وبالتالي شاعت الفوضى في القوات الصليبية كلها . وكان النجاح الصليبي في هذه المعركة قاصرا على قيام هونيادي بجمع شتات بعض الجند ليفر بهم عبر الدانوب . واستطاع بعد عدة سنوات أن يعاود الهجوم على العثمانيين ولكن دارت عليه الدوائر في معركة (كوسوفو) (١٧ أكتوبر ١٤٤٨) .

سقوط القسطنطينية ١٥٤٣ :

كانت معركة فارنا (ورنه) آخر محاولة صليبية جماعية ضد الأتراك العثمانيين . وكانت أنباء النكبة - التي منيت بها القوات الصليبية - من العوامل الرئيسية التي جعلت الحكام الأوروبيين يعتقدون أن فكرة الحرب الصليبية غير مجدية ، وبالتالي لم يعد هناك

(١) Vlad — Dracul بطل قومي مجرى (حوالى ١٣٨٥ - ١٤٥٦) .

أمل أمام امبراطور القسطنطينية بعد معركة (ورنه) ، وسيتولى (محمد الفاتح) مهمة توجيه ضربة قاضية لآخر معقل للإمبراطورية البيزنطية : القسطنطينية . علينا أن نلقى نظرة على هاتين القوتين في هذه المواجهة التاريخية .

كان المدافعون عن القسطنطينية تحت قيادة امبراطورها قسطنطين باليولوج متعددي الجنسيات ، وإن كان سكان المدينة هم الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من هؤلاء المدافعين عنها ، كان فيها جنويون وبنادقة يضعون مصلحتهم الخاصة التجارية فوق أية مصلحة ، وبدوا في فترة من الفترات العصيبة - التي شدد الأتراك حصارهم على العاصمة - كأنهم يتناسون ما بينهم من خلافات وأحقاد مريرة كثيرا ما كانت تؤدي إلى اقتتال البنادقة والجنويين أينما التقوا . ولكن عمق هذه الأحقاد كان يدفع الطرفين إلى أن يضرب بعضهم بعضا في أدق المراحل وأشد الظروف خطورة حتى لقد كان الامبراطور نفسه ينزل إلى الشوارع ليفصل بين الطرفين .

كذلك كان من بين المدافعين كاتالونيون (١) وكاثوليك وأرثوذكس وبعض من أتباع الكنيسة الاتحادية ، ومفكرون أحرار وإنسانيون ، وأراخنة بيزنطيون وقواد إيطاليون لجند من المرتزقة ، كلهم اجتمعوا تحت لواء الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام ، وفي قلوبهم أحقاد فيما بينهم .

وكانت أشهر مظاهر الحقده وضوحا تلك التي كانت بين الأرثوذكس والكاثوليك ، أو بمعنى آخر بين اليونانيين وفرنجة الغرب ، أو بمعنى ثالث بين حضارة الشرق المسيحية وحضارة الغرب المسيحية أيضا .

كان الامبراطور يدرك عن حق أن العاصمة في حاجة ماسة إلى نجدة عسكرية من الغرب ، وأدرك أن ذلك الصراع الطويل المذهبي الذي كان يتشدد به أباطرة الدولة البيزنطية وبابوات روما وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، دفعت الامبراطورية البيزنطية ثمنه غاليا وما هي قد أصبحت مهددة بأن تدفع حياتها كلها ثمنا له .

أقنعت المحنة (قسطنطين باليولوج) أن الأخوة والتعاون الأرثوذكسى — الكاثوليكي هو أحد الوسائل الجوهرية لانقاذ العاصمة من خاتمة مروعة • ولم يكن الرجل خياليا مثل رعيته التي استمعت بنوع من التصديق اللاشعورى الى كلمات القساوسة وهى تؤكد قرب وقوع معجزة من السماء ، على هيئة ملائكة سيهبطون إلى الأرض لإبادة الأتراك ان وطأت أقدامهم أرض العاصمة (١) •

كان قسطنطين واقفيا ويدرك أن الأسوار والسلسلة الطويلة التى أغلقت مدخل القرن الذهبى وعزيمة الرجال وحملة انقاذ من أوروبا الغربية الكاثوليكية هى التى يمكن ان تدفع الأتراك بعيدا عن العاصمة • ولهذا كان صادقا مع نفسه عندما تلقى — مع أنه رئيس الأرثوذكسية وحاميها — البركة من يد الكاردينال الكاثوليكي (ايزيدور) ليقنع الناس أجمعين أن مواجهة الأزمة يتطلب الارتفاع فوق الخلافات المذهبية •

ولكن كان صدى هذه الحادثة سيئا للغاية بين صفوف العامة من رعية الامبراطور فقد قيل أن (نوتاروس) — الدوق الأكبر وأعلى النبلاء مركزا بعد الامبراطور — صرح : « إني أفضل غمامة المسلم على قبعة الكاردينال الحمراء » •

وفي الشوارع تعالت احتجاجات الناس وعلى لسانهم كلمة (الخيانة) • فما كان للشعب أن ينسى تلك الأحوال والنكبات التى تحملها على يد الكاثوليك الغربيين ، ولا تلك القرون الطويلة من العداء بين بيزنطة وروما • لقد كانت المحنة الجديدة أشد قسوة من سابقتها ، ومع ذلك فان ما جاء من الغرب كمساعدة للعاصمة القسطنطينية لم يتجاوز الخمسين رجلا •

أما فى الجانب الأقوى ، وهو الجانب العثمانى ، فكان (محمد الثانى) شابا فتيا عندما تحمل مسئولية الاستيلاء على القسطنطينية • وبدأ فى السنة الأولى من حكمه وكأنه سلطان مسالم يود التعايش مع القوى العديدة التى كانت تعادى الدولة العثمانية من قبل •

(١) تردد أن رجال الدين كانوا يؤكدون للشعب الوجمل « أن ملاكا سماويا سيحييكم بمشيئة الله » وقد تدخل قطعات الكفرة (كذا) المدينة إلا أنه فور دخولهم سينزل عليهم ملاك أزرق من السماء ويمحوهم عن آخرهم •

فقد تصالح مع (هونيادي) ومع صاحب (صربيا) ومع أمير (ولاشيا) (١) ومع جنوة
وفرسان رودس (٢) ومع راجوسا (٣) ، ومع صاحب البلوبونيز (٤) ومع صاحب بولند
ومع أمير قرماني ، وإلى جانب هذا وذاك تصالح مع الامبراطور قسطنطين باليولوج .

ولكن كان محمد الثاني حين أقدم على هذه الدبلوماسية الهادئة قد وضع نصب
عينيه هدفا آلى على نفسه أن يحققه ألا وهو القسطنطينية نفسها . لقد كانت السنوات
التي سبقت هجومه الأخير عليها سنوات اعداد وتنظيم وتجهيز لهذه الحملة الكبرى .

وكان الجيش الذي أعده (محمد الفاتح) لهذه المهمة كبيرا يصل إلى أضعاف
أضعاف القوة المدافعة . وكان يستخدم كل جديد من فنون الحرب ، وخاصة المدفعية
وآلات الحصار الضخمة . ولكن حقيقة القوة العثمانية كانت في الجند سواء الفرسان أو
المشاة الإنكشارية . كانوا مؤمنين بالإسلام عن عقيدة كما كانوا مؤمنين بهدفيهم وسلطانهم ،
إذ كانوا يتطلعون إلى الشهادة في تواضع . فالقائد كان لا يتورع عن اصلاح حذرة حسانه
أن اختلت ، والإنكشاري يرى جنات ربه وهو يتلوى محترقا تحت سيل من الزيت المغلى
تصب القوات المدافعة عن الأسوار . وإذا انفتحت ثغرة في تلك الأسوار كان التكبير يتردد
في المسكر التركي وكأنه زلزال الحشر وبروح فدائية حقة كانت القوات التركية تريد أن
تكسب الدنيا والآخرة في آن واحد ، تحثها استصراخات رجال الدين والصوفية وسيرة
المجاهدين من الصحابة وآلاف المؤمنين الذين سقطوا تحت أسوار هذه العاصمة المنيعه .

كان الإنكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها وبالمهمة التي أعدوها لها . السيف
سلاحهم والإسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وسيدهم . مثقفون متدينون ، كانوا
قبل المعركة ، يستعدون للشهادة فيتطهرون ويسجدون لربهم في صلاة خاشعة ويذكرونه
في إيمان بسيط وبنفوس صافية .

Valachia

(١)

Cheualiers de Rhodes

(٢)

Raguse

(٣)

Ploponèse

(٤)

Karamanie

(٥)

كانت هناك استعدادات يقوم بها محمد الثانى لتحقيق هدفه ، ولكن دون أن يثير المخاوف الحقيقية المباشرة لدى الامبراطور قسطنطين باليولوج وحاشيته ، حتى انتهى الى اتخاذ الخطوة قبل النهائية لضرب الحصار على العاصمة ، وكانت هذه الخطوة عبارة عن إنشاء قلعة « روملى حصار » الى جوار القسطنطينية نفسها ، وفى موقع جعلها تسيطر مباشرة مباشرة على المضيق بحيث تجعل السفن الآتية من البحر الأسود تحت رحمتها ، فإن هى دفعت الضرائب الجمركية والمكوس فيها ، وأن هى رفضت اغرقتها مدفعية القلعة . بذلك يكون (محمد الثانى) قد كسب موقعا استراتيجيا واقتصاديا فى آن واحد .

كان هذا العمل بمثابة النقطة الحرجة التى وصلت إليها العلاقات السلمية الحذرة بين الطرفين . كان (محمد الثانى) يرى فى هذه القلعة مقدمة لإسقاط المدينة فى يده ، وكان الامبراطور قسطنطين باليولوج يدرك هذا أيضا . وقرر الامبراطور أن يوقف العمل فى هذه القلعة ، فحذره بعض رجال بلاطه من أن هذا لا يعنى سوى الإسراع باعلان حرب غير متكافئة ، وكذلك كان الامبراطور يدرك هذا ، ولكنه كان يعتقد بحق أن لا قيمة لتأجيل الحرب ، وفعلا أدى اعتراض الامبراطور على أعمال بناء القلعة إلى الحرب ، فكانت بداية النهاية .

كانت المدفعية سلاحا حاسما فى الحصار إذ أخذت فى قصف أبواب وأسوار وأبراج المدينة ، ولكن الخطوة الحاسمة جاءت على يد البحرية العثمانية التى نقلت برا (١) إلى (القرن الذهبى) خلف السلسلة العظيمة التى كانت تسده ، وبذلك أصبحت العاصمة مهددة من كافة الجوانب . وكانت الكارثة كبيرة لأن الأسوار فى هذه الناحية البحرية كانت رديئة ولم يكن يعتمد عليها ، لأنه كان من المستبعد جدا أن يهبط أسطول معاد الى (للقرن الذهبى) ، وهكذا أصبحت العاصمة لأول مرة مهددة من البر والبحر على السواء .

توالى القصف والهجمات وتداعت الأسوار فى أكثر من مكان ومنعا لمزيد من سفك الدماء بين المهاجمين والمدافعين على السواء بعث السلطان (محمد الثانى) رسولا إلى الامبراطور قسطنطين باليولوج يدعوهُ إلى تسليم العاصمة بالشروط التالية :

١ - أن يخرج منها الامبراطور وبلاطه بكل الأموال إلى المورة (٢) ويحكمها تحت سيادة السلطان .

(١) كانت خطة ذكية للغاية ، وكانت مفاجأة فتت فى عضد المدافعين .

(٢) فى اليونان .

٢ — أن لا يصاب سكان العاصمة — بعد دخول الأتراك اليها — بأى أذى .

ولكن الامبراطور رفض إلا الدفاع عن عاصمته أو الموت فيها . فكان أن وقع الهجوم النهائى بعد ٥٣ يوما من الحصار ، وفى هذا الهجوم تجلت شجاعة وقدرات الإنكشارية واستولى الجيش العثمانى عنوة على العاصمة وسقط امبراطورها قتيلا فانتهدت بذلك سلسلة الأباطرة من آل باليولوج مع تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، لتصبح القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية (٢٩ مايو — إيار ١٤٥٣) لمدة خمسة قرون تقريبا حتى اتخذ كمال اتاتورك من انقره عاصمة لتركيا فى مطلع العشرينات من القرن العشرين .

وتتحدث المصادر بكثرة عن تلك الحملة الصليبية التى أعدتها البابوية والبندقية لإنقاذ القسطنطينية ، والتى كانت مؤلفة من ثلاثين سفينة محملة بالجند والذخائر . وكانت هذه الحملة فى طريقها إلى القسطنطينية عندما ضيق محمد الثانى الحصار عليها ، ويقال أن رياحا معاكسة عطلت سيرها وأخرت وصولها حتى بلغتها الأنباء — على يد الفارين من القرن الذهبى — بسقوط القسطنطينية .

وفى اعتقادنا أن مثل هذه الحملات ما كانت لتفعل شيئا للقسطنطينية إلا تأخير يوم سقوطها بضعة أسابيع .

كان محمد الفاتح قد عزم منذ البداية على أن يجعل من القسطنطينية عاصمة لدولته ولهذا عنى بأن تعود إليها الحياة بسرعة ، وأن تفيد من كافة المزايا العسكرية والاقتصادية التى كانت تتمتع بها ، بل ومن المزايا الجديدة التى هيئت لها . وكان يدرك أن رعيته المسيحية بها تشكل جانبا نشطا من جوانب المدينة ويجب لاحتفاظ به واعطائه دفعة جديدة لمتابعة العمل والنشاط حتى تصبح العاصمة الإسلامية الكبرى الجديدة قاعدة الحكم والثروة فى آن واحد . ولهذا أقدم على عدة خطوات ساهمت على سرعة انتعاش العاصمة ورقبها .

١ — كانت مسئوليات العاصمة كبيرة ، ولا يمكن أن يقوم بها شعب قليل العدد تبقى بها بعد ذلك الحصار الدموى المخرب ، وكان كثير من الجماعات الإسلامية تدرك قيمة الانتقال إلى هذه العاصمة الجديدة للافادة من قيمة موقعها التجارى من جهة ، ومن الفرص العديدة التى تسنح من الوجود بالقرب من الحكومة المركزية من جهة أخرى ، واستمرت هذه الهجرات الإسلامية إلى العاصمة حتى أصبحت عاصمة

إسلامية تماما ، ومع هذا لم يهمل محمد الفاتح أمر سكانها اليونانيين الأصليين الذين سبق أن فروا منها خلال ذلك الحصار المدمر أو أولئك الذين بقوا فيها عند الفتح . فقد شجع هؤلاء وهؤلاء على العودة إليها والاستمرار في البقاء بها ومزاولة نشاطهم بل وبدرجة أكثر عن ذي قبل .

٢ — كان في حي (غلطة) — أحد أحياء القسطنطينية الرئيسية — جالية جنوبية كان لها الدور الكبير في تنمية تجارة المدينة ، ولهذا عمل على أن يبقى الجنوبيون في حيهم ، فأبقى ما كان لهم من امتيازات وزاد عليها فكانوا بذلك أداة لنمو ثروة العاصمة وفي نفس الوقت كانوا أدواته للاتصال بالدول الأوروبية . وهناك من يرى أن هذه المعاملة اللينة التي نعم بها الجنوبيون ليست سوى نتيجة موقفهم الخائن — أو على الأقل — المحايد خلال الحصار العثماني للعاصمة (١) .

ولقد سار (محمد الفاتح) على أسس سياسية دينية رائعة ، أساسها التسامح وأن لا اكراه في الدين ، مما أدى إلى أن يقلل من نفقات الاحتلال العثماني للبلقان إلى أقل درجة ممكنة ، وحتى يمكن الافسادة من هذه العناصر المسيحية في استثمار البلاد اليونانية والبلغارية ، ولهذا أبقى المسئوليات الدينية لليونانيين في يد الكنيسة وعلى رأسها (بطريرك الروم) ، بل وأضاف إليها سلطات مدنية . لقد كانت سياسة (محمد الفاتح) الدينية السمة لا مثيل لها في بقية مناطق الصدام بين المسلمين والمسيحيين .

إستمرار التوسع العثماني في البلقان :

كان لسقوط القسطنطينية دوى كبير سواء في الشرق أو في الغرب ، فقد طربت القاهرة عندما أتمها هذه الأنباء ، واتخذت زينتها . وكان هذا في حقيقة الأمر إعدادا للأذهان لتقبل الزعامة التركية الإسلامية الناشئة ، فمنذ سنوات طويلة لم تحرز أية دولة إسلامية انتصارا مدويا كهذا .

وكان سقوطها كذلك سببا في أن يضطر بعض أمراء البلقان — مثل برانكوفتش أمير

الصرب — إلى إعلان الخضوع للسلطان . وأن كان مستعدا لأن ينفذ هذه التبعية اذا ما وجد مشجعا له على ذلك .

وكان جورج كاستريوتا (اسكندر) في البانيا على نفس المستوى من التفكير الذي كان لدى برانكوفتش .

أما أمراء ولاشيا وملدافيا (الافلاق والبغدان) فقد قبلوا السيادة العثمانية غير المباشرة نكاية في خصمهم التقليدي : المجر ، ولكن كانوا كذلك لا يتورعون عن استخدام المجر وبولندا ضد الدولة العثمانية كلما سنحت الفرصة .

وقبل شقيقا الامبراطور قسطنطين باليولوج — اللذان كانا في المورة — أن يكونا تابعين للسلطان ، كما فضل حكام خيوس ولسبوس — وكانوا جنيويين — دفع الجزية السنوية للسلطان .

وتابع محمد الثاني سياسته السلمية وتحركاته الدبلوماسية في البلاطات المعادية للدولة العثمانية . فقد عقد معاهدة مع جنوة (١) ، كذلك عقد محمد الثاني اتفاقية سلمية مع دوق ناكسوس .

وهكذا كانت سياسة الأتراك في البلاد البلقانية التي وقعت تحت سيطرتهم تنم عن بعد نظر ورغبة في جعل هذه البلاد أرضا مسالمة لا خاضعة فقط ، وكما يقول توينبي : كانت سيطرتهم على البلقان بطريقة جعلت شعوبه المسيحية متعلقة بالسلام العثماني Pax Ottomana على نسق السلام الروماني Pax Romana هذا السلام العثماني لم يكن قائما على أساس الدبلوماسية ، وإنما كان سلاما مفروضا يمنع — الى حين — قوى البلقان من أن تصبح شوكة خطرة في جانب الدولة العثمانية .

إن هذا الاتساع والنمو في مكانة الدولة العثمانية أدى الى أن تشعر بعض الدول بأن الخطر العثماني قد أصبح داهما ونعني بذلك الصرب والمجر والبندقية ، وكانت الأخيرة صاحبة النفوذ الأكبر على سواحل البلقان عسكريا واقتصاديا . وإلى جانب هذه الدول كان يوجد جيب صغير بيزنطي في (طرابيزون) إذ كانت لا تزال تحت حكم أسرة «كومنين» .

وبجانب هذه القوى المسيحية المناهضة للدولة العثمانية، كانت توجد دولة إسلامية فنية ولكن عشائرية تركمانية قد اتسعت في الشرق من الأناضول ، وهي دولة الآق قويونلو بزعامة أوزون حسن (أى حسن الطويل) . وكان أوزون حسن على دراية بمشاكل محمد الثاني مع عدد من القوى المسيحية . وكان في نفس الوقت واسع الآمال طموحا .

هذه هي القوى التي وجد محمد الثاني نفسه مضطرا لقتالها بعد فتحه القسطنطينية وكانت أسباب الصدام متوفرة مع أى منها . ولكن الذى مكنه من إحراز النصر أو منع العدو من الحصول على مكاسب واسعة من وراء أى انتصار يحرزه ، الذى مكنه من ذلك تباعد مراكز أعدائه ، وعدم القدرة لديهم على حشد جيوشهم في جبهة واحدة ، وعدم قدرتهم على الارتفاع إلى مستوى تنسيق عملياتهم العسكرية ، رغم وجود فكرة التحالف بين هذه القوى أو بعضها لمواجهة هذا العملاق الفتى العثماني .

فالمضرب كانت تقع بين ممتلكات محمد الفاتح (محمد الثاني) والدولة الصليبية العنيفة « المجر » تحت قيادة المقاتل هونيادى . وأصر محمد الفاتح على أن تكون له وحدة السيادة على الصرب على اعتبار أن أى أمير مسيحي على هذه البلاد لن يتوانى عن التعاون مع القوى المسيحية في تحالف هجومي ضد الدولة العثمانية . ولهذا شرع محمد الفاتح في فرض سيادته كاملة على الصرب بينما التجأ برانكوفتش إلى هونيادى وتعاوننا في مقاومة ناجحة في أول الأمر ضد الجيوش العثمانية وكان لدهما أمل في وصول امدادات صليبية من أوروبا الغربية . ولكن أصبح الحديث عن حملات صليبية مجرد استهلاك محلى في مختلف بلاطات أوروبا ، بينما كان (محمد الثاني) يستعد لمعركة كبيرة ضد الصرب والمجر ، وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه بسبب وفاة خصميه الكبيرين (هونيادى) - الذى كان قد انتصر في موقعة بلغراد على الأتراك في ١٤٥٦ - و (برانكوفتش) في سنة واحدة (١٤٥٦) ، ودبت الفوضى في حكومة بلغراد بسبب تنازع ورثة برانكوفتش فيما بينهم على التركة الأمر الذى مكن السلطان (محمد الفاتح) من أن يضع يده على بلاط الصرب (١٤٥٩) فيما عدا بلغراد التى ظلت تحت يد المجر وظلت بعيدة عن متناول العثمانيين زهاء ستين سنة حتى سقطت في يد الأتراك في ١٥٢١ .

وفي ١٤٦٣ وقعت البوسنة (بلاد البشناق) في يد السلطان محمد الفاتح بسهولة

وذلك لوجود جماعة ملية عرفت باسم بوجميل (١) كانت قد تعرضت لاضطهاد شديد من جانب رجال الدين الكاثوليك والارثوذكس على السواء ، حتى أصبحت هذه الجماعة شديدة البغض للمسيحيين متطلعة إلى الأتراك العثمانيين ليس فقط لأن الأتراك يستطيعون إنزال القصاص بخصومهم بل لأن مبادئ هذه الجماعة كانت تلتقى مع الإسلام في أشياء كثيرة . ويلاحظ أنه بعد أن سيطر العثمانيون على البوسنة دخلت هذه الجماعة واعداد كبيرة من الشعب في الدين الإسلامي ، وإلى جانب هذا دخل عدد كبير جدا من النبلاء - يتبعهم أتباعهم - في الإسلام فاحتفظوا بامتيازاتهم وأملاكهم ، أما بقية البوسنة فظل مسيحيا ولكن موزعا بين المذهبين المتنازعين : الارثوذكس والكاثوليك .

وكانت البانيا قد تأثرت بالحضارة الإسلامية حتى أن بعض مثقفيها تفقهوا في الدين الإسلامي ومنهم جورج كاستريوتا ، ابن أحد أمراء البانيا ، وقد درس كاستريوتا الإسلام وأعلن إسلامه عندما كان رهينة في بلاط السلطان مراد الثاني وترقى هناك وأصبح يعرف باسم (اسكندر بك) .

وحينذاك كانت البانيا مجالا حيويا للبندقية وكانت الدولة العثمانية تعمل على طرد النفوذ البندقي منها بل والسيطرة على البانيا وكان هذا يعنى اغلاق مجال هام لنشاط البندقية وتهديدا استراتيجيا لها .

وبينما كان العثمانيون يعملون على تصفية الموقف في البانيا لصالحهم فر اسكندر بك إلى بلاده وأرتد عن الإسلام وأعلن عزمه على الحفاظ على البانيا مستقلة بعيدة عن متناول يد الأتراك، وكان طبيعيا أن تلقى اسكندر بك تأييد القوى المعادية للدولة العثمانية وبخاصة البندقية والبابوية التي ترى في مثل هذه الحركات نواة لحرب صليبية جديدة فلقد أعلنه البابا كاليكستوس الثالث في ١٤٥٧ قائدا عاما للحرب الصليبية .

ونظرا للطبيعة الوعرة للبلاد هناك وإمكانية تكوين فرق عسكرية ضاربة سريعة الحركة فقد ألهق اسكندر بك الجيش العثماني حتى لقد اضطر السلطان محمد الثاني (محمد الفاتح) إلى عقد هدنة معه لمدة عشر سنوات تبدأ في عام ١٤٦١ .

كان ذلك فرصة لتعيد بعض الزعامات المسيحية حساباتها في الوقت الذي كان فيه
اسكندر بك يستعد لنقض الهدنة الأمر الذي مهد لوضع خطة واسعة لحملة صليبية كبرى
كان يريها البابا بيوس الثاني ولكنه لم يلبث البابا أن توفي وخمدت من بعده الدعوة
لحملة صليبية جديدة الأمر الذي جعل اسكندر بك في موقف حرج فنتيجة لذلك التطور
أصبح اسكندر بك وحيدا في الميدان أمام السلطان العثماني محمد الثاني فاتح
القسطنطينية .

ومع هذا صمد اسكندر بك لفترة ليست بالقصيرة ، بل أن العثمانيين لم يستطيعوا
السيطرة على البانيا إلا بعد وفاة اسكندر بك في ١٤٦٨ .

وبعد دخول البانيا في الدولة العثمانية وانتشر الإسلام في البانيا أصبحت من بعد
مصدرا هاما لتزويد السلاطين العثمانيين بكبار رجال الدولة وبالمقاتلين ، فالملاحظ أن
عددا ليس بالقليل من الصدور والعظام والقواد العثمانيين كانوا البانيين ، وأصبحت
كتائب الالبانيين العثمانية من أكثر القوات العثمانية شراسة خاصة في القرنين الثامن
عشر وأوائل التاسع عشر .

ولكن البانيا نفسها ستكون من أكثر مناطق الدولة العثمانية شغبا وتمردا على
الحكومة العثمانية . مثلها في ذلك مثل الصرب .

خسرت البندقية بوفاة (اسكندر بك) حليفا شديدا الوطأة على الأتراك ، ولكنها
وجدت في أوزون حسن (١) — زعيم تركمان الآق قوينلو — حليفا قويا يهدد الأناضول من
الشرق . فعلا كان الصراع بين أوزون حسن والسلطان العثماني طويلا ومريرا ، ورغم
الانتصار الذي أحرزه السلطان على أوزون حسن في ١٤٧٣ إلا أن دولة الآق قوينلو ظلت

(١) كان أوزون حسن قد تزوج من ابنة أخى (دافيد كومنين) حاكم طرابيزون وشن
حملة تخريبية على شرق الأناضول في (١٤٦٠) ، عندما أراد أن ينزل به السلطان العثماني
محمد الثاني هزيمة قاسية أسرع والد أوزون حسن إلى التفاهم مع السلطان ، فكف
مؤقتا عن ضربه وركز السلطان جهده ضد طرابيزون فاستولى عليها وقضى على الأسرة
الحاكمة فيها نهائيا .

شموكة في جنب الدولة العثمانية • حتى قدم القدر خدمة جليلة للسلطان بموت أوزون حسن (١٤٧٨) وتفككت دولته من بعده •

ولهذا كان من مصلحة البنادقة أن يعقدوا صلحا مع السلطان وتم ذلك في ٢٦ يناير كانون الثاني ١٤٧٩ ، وهو الصلح الذي جعل اليد العليا للعثمانيين في البانيا والمورة ، ودفعت البندقية مبلغا كبيرا من المال في مقابل حقها في المتاجرة في الليفانت (١) وفي إقامة قنصل لها في (غلطة) ضاحية القسطنطينية •

كان هذا الصلح إطلاقا للجيش العثماني للعمل في المورة ، فاستولى على زنتة (٢) وسان موري (٣) ، وحاولت قوات عثمانية النزول إلى الساحل الإيطالي عند أوترانت (٤) ، ولكن ذلك كان مجرد هجوم عاصف غير مستقر •

كانت مصالح الجنويين قد تعرضت هي الأخرى للمخاطر بسبب ذلك النمو في الدولة العثمانية ، إذا استصرخ زعماء المسلمين في القرم بالسلطان العثماني — الذي أصبح قبلة الزعامات الإسلامية المستضعفة — ضد الجنويين المسيطرين على اقتصاديات المنطقة بواسطة الميناء (كافا) فرد السلطان بالاستيلاء على هذا الميناء ، وقضى نهائيا على الوجود الجنوي فيه • ولكن ظل الاتصال غير مباشر بين الممتلكات العثمانية في البلقان وخانية القرم حتى تمكن بايزيد الثاني — خليفة محمد الفاتح — من التوسع على حساب (ملدافيا) بالتعاون مع خان القرم ، وأمكن بذلك الاستيلاء على أكرمان في (١٤٨٤ م) التي ربطت بين الحلفين ، والتي مكنت العثمانيين بعد ذلك من ارسال الحملات ضد بولنداد •

كما أدى هذا التوسع العثماني في اتجاه القرم إلى أن تحتك الدولة العثمانية بالدولة الناشئة الروسية • وأخذ التجار والسفراء الروس يأتون الى الاستانة للحصول على تسهيلات تجارية (١٤٩٥ — ١٤٩٩) •

(١) الحوض الشرقي للبحر المتوسط Levant

Zante (٢)

Sainte Maure (٣)

Otrante (٤)

إن نظرة سريعة على انجازات محمد الثانى (محمد الفاتح) تبين لنا :

١ — كانت صفة الجهاد فى سبيل الله قد ارتبطت بتاريخ الأتراك العثمانيين وأعطتهم السمعة العظيمة فى مختلف البلاطات الإسلامية ، فكانت انتصارات الأتراك تقابل بكل فرح وترحاب فى تلك البلاطات ، ولما سقطت القسطنطينية رحبت القاهرة وازينت ، وباركت مكة المكرمة هذا النصر ، ولكن بمرور الوقت ، أخذت هذه الدولة العثمانية تكشف عن حقيقة قوتها الأمر الذى جعل بعض البلاد الإسلامية تحسدها ، ونخص بالذكر دولة المماليك فى مصر والشام . حقيقة لم يقع الصدام بين السلطان محمد الفاتح ومماليك مصر ، ولكن وقعت الحرب بين خليفته بايزيد الثانى والسلطان المملوكى بسبب استيلاء الأخير على أرض كيليكيا وعلى بعض المدن التى كانت واقعة تحت نفوذ السلطان العثمانى . وبدأ واضحا أن الطرفان — وإن سعىا الى الحرب — أنهما كانا يريدان إيقافها فى أقرب فرصة . فبعد معركتين متتابعتين فى ١٤٨٩ و ١٤٩٠ — لغیر صالح الأتراك العثمانيين — عقد الصلح بين الدولتين حقنا لدماء المسلمين ، ولكن كان هذا بداية للعلاقات العنيفة بين العثمانيين والمماليك .

٢ — لقد صفى محمد الثانى الكثير من الجيوب التى كانت بمثابة اشواك فى جنب دولته .
٣ — وصلت حدود الدولة العثمانية إلى مسافات عميقة للغاية فى شرق أوروبا فضلا عن حصول الدولة العثمانية على اليد العليا فى ولاشيا وملدافيا وفى القرم .

٤ — كانت الدول التى واجهت الدولة العثمانية وتريد صدها عن البلقان تواجه مشكلات معقدة . فالبندقية — أشد القوى عداوة لها — لا تستطيع أن تنزل جيشا بریا وانما كانت تسعى الى حليف مثل (المجر) أو (أوزون حسن) . أما الآق قوينلو فتلاشت بوفاة هذا الرجل ، أما المجر فحملت عبء المقاومة ومسئولية أوروبا فى شن الحروب الصليبية ودفعت ثمنها ، وكان الثمن غالیا . إذ ستستمر الحروب بين الدولتين العثمانية والمجرية . وقد أراد (بايزيد الثانى) — خليفة (محمد الفاتح) — أن ينتهز فرصة وفاة ملك المجر (ميناس كورفون) فى ١٤٩٢ ليستولى عليها ، ولكن الحرب الجديدة كانت أقرب ما يكون إلى المذابح المتبادلة بين الطرفين . كما كانت الحملات المتبادلة بين الدولة العثمانية والبندقية على هذا النحو .

٥ — ان فتوحات (محمد الفاتح) — رغم أنها كانت في أرض معادية غير إسلامية ، ورغم أن البلقان ظل مسيحيا في غالبته العظمى ، بعكس الأناضول ، فقد ظل تحت الحكم العثماني حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

٦ — لقد أدت تلك المكانة الرفيعة التي حصلت عليها الدولة العثمانية بعد سقوط القسطنطينية ، والصدى المدوي في أوروبا لهذا الحدث إلى أن تتخذ الدول الأوروبية سياسات معينة أزاء الأتراك ، أما صداقة مبطنة بالمؤمرات أو عداوة عنيفة . تلك كانت مواقف البابوية وفلورنسا وبيزا ونابلي وفرنسا بل والامبراطورية الرومانية المقدسة في بعض الأحيان على أن الامبراطورية الرومانية المقدسة كانت — بسبب طبيعة تكوينها وموقعها — تشعر بأنها هي المسئولة عن طرد الأتراك من أوروبا على الأقل .

٧ — كانت جهود محمد الفاتح ، ومن قبله سلاطين الأتراك ، مركزة على الجهاد في البلقان ، وكذلك كان خليفته (بايزيد الثاني) . بينما كانت أراجون وقشتالة (بزعامة فرديناند وايزابيلا) تشن حربا لتصفية الوجود الإسلامي في الأندلس وعندما توالى الاستنجات على بايزيد لم يفعل سوى إرسال أسطوله ليروع السواحل الأسبانية (١) . دون أن يحول ذلك دون سقوط (غرناطة) بشكل مأساوي مشابه لذلك الذي حدث للقسطنطينية قبلها .

لم يكن محمد الفاتح سلطانا محاربا فقط ، بل كان معنيا بالقانون والتشريع ، على اعتبار أنهما مسئولان من تسيير عجلة الدولة بانتظام ويحولا دون تطور أمورها إلى فوضى واضطراب . حقيقة هناك غموض فيما جاء في مؤلفات المؤرخين بشأن قيام (محمد الفاتح) بترتيب القانون العثماني (قانون نامه) ، وأن هناك جمهرة من المؤرخين يسندون ذلك العمل الجليل إلى (سليمان الأول) الذي وصف بأنه سليمان (القانوني) . ولكن مما لا شك فيه أن النظم التي وضعها (محمد الفاتح) لإدارة دولته ظلت سارية المفعول وكانت من أسباب قيام الدولة من بعده بمجهودات كبيرة جعلتها أكبر دولة إسلامية وأعظمها زمن سليمان القانوني .

(١) رد فرديناند الثاني بالمثل على الدولة العثمانية في ١٥٠١ بأن بعث أسطولا أسبانيا روع السواحل العثمانية — البلقانية ثم عاد .

وإذا كان هناك بعض الشك في ذلك العمل القانوني الجليل فإن الأعمال المعمارية الرائعة التي تمت في عهد (محمد الفاتح) تثبت — مما لا يدعو للشك — أن هذا السلطان ، وكذلك خليفته بايزيد الثاني ، على فكر حضارى راق . فتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد على أسس معمارية راقية ، وبناء العديد من المساجد التي تعتبر من التحف الفنية المعمارية ، وفتح المدارس والمكتبات والحمامات والمستشفيات بكثرة لم تشهدها العاصمة القسطنطينية من قبل ، وقصره الرائع بها ، وقلعة الأبراج السبعة الرهيبة ، وأحواض بناء السفن ، ودور الصناعة ، كل هذا يدل على مقدرة تركيبة فذة في مجالات الأخذ بالحضارات والاقتباس منها وإدخال التحسينات عليها .

★ ★ ★

الفصل الثاني

الفتوحات العثمانية في البلاد العربية

- ١ - الحرب العثمانية الفارسية الأولى .
- ٢ - الفتح العثماني للشام ومصر .
- ٣ - الإمتداد العثماني في الحجاز .
- ٤ - الفتح العثماني لليمن .
- ٥ - الفتح العثماني للعراق .
- ٦ - التوسع العثماني في شمال أفريقية .

الحرب العثمانية الفارسية الاولى

تولى السلطنة بايزيد الثانى فى ١٤٨١ خلفا لأبيه (محمد الفاتح) واستمر فى الحكم حتى ١٥١٢ . وهناك اتجاه شائع فى المؤلفات يصف بايزيد بأنه سلطان مسالم أراد أنه يهدىء المنطقة من تيار الحروب الجارفة التى لاقها خلال القرن الخامس عشر . ومع أن بايزيد الثانى كان مستعدا لشن الحرب إذا تصور أنها مجدبة ، مثلما فعل مع المجر ومع بولندا ومع البندقية وممالك مصر ، فلا شك أن بايزيد الثانى كان ينظر إلى الأمور بعين تختلف عن عين أبيه محمد الفاتح إذ كان مضطرا لتصفية الجيوب العديدة المعادية فى دولته أو حولها وهذا ما كان ليتم إلا بضرب القوى المتحالفة مع تلك الجيوب أيضا . أما وقد توصلت الدولة إلى حدود ثابتة مترامية فالأجدى أن تبذل الجهود لصيانتها وتقويتها حتى لا يصبح هذا الاتساع عبئا على الدولة نفسها . ولعل هذا هو الذى جعله يسعى إلى التفاهم وديا مع القوى العديدة المجاورة له . متبعا أحيانا أسلوب الزواج من الأسرات الحاكمة الإسلامية . فقد زوج واحدة من بناته لوريث عرش فارس ، كما زوج بنت أخيه إلى سلطان مصر . وتبادل السفارات الودية مع الدول المسيحية المجاورة .

وقد نجح بايزيد الثانى فى تحقيق هدفه من وراء هذا السلم الحذر ، خاصة من حيث نمو علاقاته الدبلوماسية مع الدول المجاورة والكبيرة . كما كان السلم الطويل نسبيا فرصة لتركيز بعض العناية على المشروعات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والمعمارية على نفس الخطة التى سار عليها أبوه (محمد الفاتح) ، بل من مآثره أنه أعاد بناء أجزاء عديدة من القسطنطينية التى كان قد دمرها زلزال عنيف فى ١٥٠٩ . ولكن هذه السياسة السلمية - فى نفس الوقت كانت فرصة يمكن أن يستغلها خصوم الدولة العثمانية وبوجه خاص الزعيم الجديد القوى الداعية إلى المذهب الشيعى الاثنى عشرى « الشاه اسماعيل الصفوى » مؤسس الدولة الصفوية فى إيران ، الذى دفع بدعائه بنشاط إلى الأناضول فحصلوا على أنصار عديدين هناك الأمر الذى كان يهدد الدولة العثمانية فى عقر دارها : (الأناضول) .

وهذه الديناميكية من جانب الشاه اسماعيل الصفوى ، إزاء السلبية من جانب

بإيزيد الثاني وضعف شخصيته أمام أولاده المتنافسين على العرش في حياته ورطه كل هذا في حرب أسرية كان النصر النهائي فيها لأبنة سليم ، القوى الشكيمة الذي أيدته قطعات الإنكشارية ورفعته إلى العرش في ١٥١٢ .

وبتولى سليم الأول العرش ، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية تتحول فيها من دولة إسلامية تركية - بلقانية إلى دولة إسلامية عامة تمتد من شمال البلقان حتى البحر العربي ومن حدود فارس حتى مراکش .

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول - الذي عرف بياوز - هي الخطر والذي كانت تشكله الدولة الفتية الشيعية في فارس بزعامة الشاه اسماعيل الصفوي (١) ، فلما أن سيطر الشاه على فارس في مطلع القرن السادس عشر حتى تطلع إلى العراق الذي وكان لا يزال بيد (مراد بن يعقوب ميرزا) أخذ أولاد أوزون حسن ، وكانت تطلعات الشاه للعراق نتيجة لمجموعة من الدوافع المذهبية والسياسية والاقتصادية .

فمن حيث الدوافع المذهبية كانت حركة الشاه اسماعيل تعتمد على الدعاية الشيعية الأثنى عشرية . ومن ثم كانت سيطرته على كل من كربلاء (مرقد الإمام الحسين) وعلى النجف (مرقد الإمام علي) تعطي لحركته دفعة قوية من النشاط ، فضلا عن هذه السيطرة على العتبات المقدسة الشيعية في العراق لا تحقق فقط أملا مذهبيا كبيرا وإنما تحقق كذلك أهدافا اقتصادية كبرى . فالعراق الخصب الزراعي يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الإيرانية الفقيرة . وفوق هذا وذاك فإن الاستحواذ على بغداد - القلب التقليدي للعالم الإسلامي - يعطي للشاه اسماعيل الصفوي مكانة رفيعة لدى المسلمين .

(١) سندرس بالتفصيل تاريخ هذا الرجل ونكتفي هنا بالإشارة إلى ظروف ظهور هذه الدولة . ففي أواخر دولة (القره قوينلو) اشتهرت في أوردبيل - في شمال فارس - أسرة صوفية شيعية تنسب إلى (صفى الدين) ، ونمت مكانتها حتى خشيت منها الأسرة الحاكمة نفسها فاضطهدتها ، فوضع رجال الأسرة الصفوية أنفسهم في خدمة أوزون حسن زعيم الآق قوينلو . فلما قوض أوزون حسن دولة القره قوينلو ارتفع شأن رجال الأسرة الصفوية ، وبعد موت أوزون حسن دبت الفوضى في دولته الأمر الذي مكن اسماعيل - أحد أحفاد صفى الدين - من أن يوجه ضربة قاضية لهذه الدولة واستولى على تبريز في (١٥٠٢ م) ثم على إيران كلها .

وكان مراد بن يعقوب يدرك تماما نه أعجز من أن يقف وحده أمام أطماع الشاه !
ولذلك استنجد بامارة ذى القدر - الواقعة في جنوب غرب الأناضول بين إيران والشام ،
ولكن امارة ذى القدر كانت في سنوات شيخوختها واعجز من أن تقدم مساعدتها لبغداد .

فاتجه مراد بن يعقوب - آخر حكام بغداد من الآق قوينلو - إلى السلطان قانصوه
الغورى الذى يعيش الخليفة العباسى فى كنفه والذى يتربع على سلطنة مصر وصاحب
الشام وحامى حرمين الشريفين وأمل المسلمين فى كفاح الفرنجة .

ولقد كان قانصوه الغورى يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل الصفوى السريع
على إيران وأنه أمام زعيم شديد المراس سينافسه فى منطقة المشرق العربى فاتخذ بعض
الإجراءات التمهيدية لإعداد حملة ضد الشاه وفرضوا الأموال على أهل دمشق لتمويل
كتائب المشاة التى ستعسكر فى حلب استعدادا لخض شوكة « اسماعيل شاه الصفوى » .
ولكن هل كان السلطان قانصوه الغورى مستعدا لتجدة مراد بن يعقوب وإنقاذ
العراق من « الصفوى » ؟

والواقع أن الظروف العامة التى كان يواجهها الغورى حينذاك كانت لا تسمح له
بمناورات عسكرية فقط دون أن تورطه فى حرب حقيقية ضد الشاه . فقبل ذلك بوقت
قصير كان فاسكودا جاما قد نجح فى الوصول إلى الهند بطريق رأس الرجاء الصالح ،
وسرعان ما ضرب الأسطول البرتغالى حصارا حول السواحل العربية وأغلق مداخل البحر
الأحمر والخليج العربى وأخذ كل سفينة عربية وإسلامية غصبا وحول التجارة الشرقية
عن طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح - أوروبا . ولذلك انشغل السلطان قانصوه
الغورى باتمام التجهيزات الحربية لإرسال الحملات البحرية الكبرى ضد الأسطول
البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية ، ولتقوية الدفاع عن الأراضى المقدسة الحجازية
وعن مفايح البحر الأحمر فى اليمن . كل هذا جعل السلطان الغورى يفضل إلا يفتح على
نفسه جبهة جديدة غير مستعد لها ، ولهذا ترك صاحب العراق يدبر أموره بنفسه . ولذلك
لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية التى إنتهت بالاستيلاء على العراق
فى ١٥٠٨ .

وذهب الشاه اسماعيل بنفسه إلى العراق متفقدا حاجا الى العتبات المقدسة
الشيعية فشق قناة للمياه الى النجف عرفت باسم نهر الشاه ، وعمر مراقد الأئمة الشيعة

وانقلب على علماء المذهب السني هادما مقابرهم سافكا دماءهم ، عاملا على أن يصبغ العراق بالصبغة الشيعية بكل ما أوتى من أساليب وإمكانات .

وانتفخت أوداج الشاه بعد أن وجد نفسه سيد بغداد والعراق دون أن تتحرك ضده أى من الدولتين الكبيرتين السنيتين اللتين أصبحتا تطلان على دولته من شمال ومن غرب وهما :

١ - الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان .

٢ - الدولة المملوكية في الشام والحجاز ومصر .

ولذلك مد الشاه أبصاره إلى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يحقق آمال الشيعة في إقامة دولة شيعية كبرى في المنطقة .

فمن قواعده في العراق وضع الشاه اسماعيل الصفوي سياسته التوسعية على أساسين :

١ - التحالف مع القوى المعادية للدولة العثمانية وللدولة المملوكية .

٢ - نشر المذهب الشيعي الاثني عشري .

لقد بعث الشاه برسالة الى أوروبا مفاوضا بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عوناً على سلطان مصر وأنهم (يجيئون) من البحر (ويجيء) هو من البر في حركة كماشة تؤدي إلى سقوط الدولة المملوكية ليقترسها الشاه مع ملوك الفرنج بأن تكون مصر من نصيبهم بينما يستحوذ هو على الشام ليطل بذلك على البحر المتوسط . كما أنه بذل مجهودات كبيرة جدا لنشر المذهب الشيعي الاثني عشري في الأناضول التركي ليجتث بذلك الدولة العثمانية السنية من أصولها حيث أن الأناضول هو البيئة التي نمت فيها وتعتمد عليها الدولة العثمانية .

ولا شك أن وجود السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) اللين العريكة على العرش العثماني أطمع الشاه اسماعيل في مضاعفة جهوده في تحويل الأناضول إلى المذهب الشيعي ، خاصة وأن تلك الجهود كانت تلقى نجاحا متتاليا .

وبينما لم يقدر بايزيد الثاني خطورة هذا التحول نحو المذهب الشيعي كان ابنه

سليم - حاكم طرابزون - شديد الحساسية لهذا التحول حتى أنه لم يتوان عن شن الهجمات ضد الفرس ليخضع شوكتهم . فأصبح بذلك أمل القيادات العسكرية العليا الإنكشارية في وقف الخطر الشيعي . فكان أن تهيأت بذلك فرصة القيام ضد أبيه بانقلاب عسكري تم بنجاح في ١٥١٢ وتسلم سليم الأول العرش من أبيه ليبدأ سياسة عثمانية جديدة آزاء المشرق العربي .

والحق أن قوى المشرق الإسلامي بنت لسليم الأول وكأنها قوى عدوانية تدبر للدولة العثمانية حتفها حيث لم يكن سلوك الشاه فقط هو المعادي وإنما كان سلوك الغوري نحوه معاديا أيضا .

فبينما كان الشاه ينشر المذهب الشيعي في الأناضول كان الغوري يستقبل في بلاطه الثائرين والفارين من وجه سليم وخاصة إخوته المطالبين بالعرش العثماني ومن ثم كان لا بد وأن يقع الصدام بين سليم الأول من جهة والشاه اسماعيل أو الغوري من جهة أخرى .

وكان من الطبيعي أن يبدأ سليم الأول بالشاه اسماعيل حيث أنه كان يمثل الخطر المباشر على الدولة العثمانية ، وكان الأتراك بصفة عامة يفخرون بأنهم حماة المذهب السني من الشيعة . فلا غرو أن بدأ السلطان سليم الأول بتطهير الأناضول من المتحولين إلى المذهب الشيعي ، ودبر لهم مذبحة مروعة لم تقم لهم بعدها قائمة .

ثم التفت إلى أصل الداء ونقل الحرب إلى بلاد خصمه في وادي جالديران (١٥١٤) ودارت المعركة بين قزلباش الشاه من جهة وإنكشارية وسباهية السلطان من جهة أخرى ، وأحرز السلطان العثماني في معركة بالديران نصرا كبيرا جدا .

حقيقة كانت الضربة قاسية على الشاه ، ولكنها لم تكن القاضية ، حيث استطاع الشاه أن يستعيد قوته وأن يعيد بناء جيشه ودولته ، بينما اكتفى السلطان العثماني بمكاسبه في شمال العراق حيث سيطر على (ديار بكر) و (أورفة) و (ماردين) و (حصن كيف) ، أو بمعنى آخر لقد أصبحت مفاتيح العراق الشمالية في يد العثمانيين ، بل لقد أصبح سليم الأول صاحب سيادة على العراق عندما أعلن صاحب بغداد الولاء له . وبذلك الحرب الناجحة ضد الشاه اسماعيل الصفوي أصبح السلطان سليم الأول من أصحاب الكلمة القوية في تحديد مصير البلاد العربية .

ولدينا عدة ملاحظات على هذا الصدام العثماني الصفوي :

١ — أن الدعوة الصفوية اعتمدت على قوة ضاربة عسكرية فتية تستند فعلا الى نظرية (الفتوة) . ولقد نجحت (الفتوة الصفوية) في التحكم في الأوضاع الداخلية في فارس بكل قوة ، وأدى ذلك الى سيطرة الشاه اسماعيل الصفوى بقوة على امور فارس الداخلية . إلا أن هذا النظام من الفتوة أثبت فشله عند أول مجابهة خارجية (الحرب الفارسية العثمانية) إذ انتهت بهزيمة قاسية للغاية للجيش الفارسى ، ولكن دون أن تقع البلاد كلها في قبضة سليم الأول ودون أن يخضع الأهالى الفرس للسلطان العثمانى المنتصر .

وانه يمكن مقارنة تلك الفتوة الصفوية ودورها الناجح في الداخل ودورها الفاشل في الخارج ، بما حدث لنظام حكم خمينى في فارس حيث تمكن اتباع خمينى من السيطرة بكل قوة على الوضع الداخلى بينما اضطر النظام الحاكم الى وقف القتال مع العراق (أغسطس ١٩٨٨) بمعنى فشل القوة الضاربة عند المواجهة الخارجية .

واعتقد أن السبب في هذا التشابه الكبير بين ما حدث للشاه اسماعيل وللخمينى يرجع الى طبيعة (التسرع) للعمل الثورى فيؤدى الى نكسة ، ويرجع كذلك الى الاعتماد على الحماس وتضخيم الانتصارات الفرعية دون اعطاء العناصر الأخرى قيمتها الحقيقية .

٢ — إن الهزيمة التى نزلت بالشاه اسماعيل فى جالديران هى التى وضعت الأساس لإعادة النظر فى طبيعة تكوين القوات الفارسية ، وفعلا أعيد تكوين القوات الفارسية على يد الشاه عباس الأول الذى أنشأ القزلباشية الجديدة وألغى القبلىة فيها وأدخل الأسلحة النارية واستعان بالأوروبيين فى تدريب القوات الفارسية .

٣ — بعد ضربة جالديران توقفت الدولة الفارسية ، حقيقة كانت لها غزواتها فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب ، ولكن بصفة عامة أصبحت فارس ذات كيان محدد واضح لديه كافة مقومات (الدولة القومية) باستثناء شىء واحد فقط هو اعلان ذلك ، إلا أن ذلك كان متعذرا لأن الفكر القومى من الناحية النظرية كان لا يزال أوروبيا وعسيرا على الشرقيين تفهمه حينذاك حتى ولو مارسوه على نحو ما كان عليه الفرس .

٤ — أن فارس الصفوية الشيعية قسمت العالم الإسلامى الى قسمين : المسلمون شرق إيران أغلبية سنية وشيعة والمسلمون غرب إيران وأغليبتهم كذلك سنة . ومع أن الفكر السننى كانت تعوزه النظرية التبشيرية إلا أنه كان ولا يزال هو الفكر السائد فى العالم الإسلامى والمعبر عنه .

٥ — كان سليم الأول ورجاله شديدى الكراهية للفرس الصفويين على اعتبار أن التبشير بالصفوية يقوض دعائم المجتمع السننى الذى هو المجتمع الإسلامى الصحيح العقيدة . ولا شك أن التنظيم الصفوى القائم على التبشير بالمذهب الشيعى الاثنى عشر كان كفيلا بأن يكسب عشرات الألوف من المسلمين السنة الى جانب الصفويين بسبب غياب (التبشير السننى) .

وعلى أى حال كانت هزيمة الشاه اسماعيل الصفوى فى معركة جالديران هى العامل الرئيسى الذى أعطى الفرصة للسلطان سليم الأول ليتعامل مع مركز القوة الثانى أى مع السلطان المملوكى قانصوه الفورى .

★ ★ ★

(٢)

الفتح العثماني للشام ومصر

قبل أن ندخل في تفاصيل الصراع الذي دار بين السلطان العثماني سليم الأول والسلطان المملوكي قانصوه الغوري ، سنلقى ضوءاً على طبيعة العلاقات بين الطرفين العثماني والمملوكي خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

كانت الدولة العثمانية الناشئة محط إعجاب الدولة المملوكية نظراً لأن العثمانيين كانوا (مجاهدين) ضد أوروبا الشرقية المسيحية (الامبراطورية البيزنطية) . وكان المسلمون في أرجاء العالم يطربون لسماع انتصاراتهم المتتالية .

ولكن طبيعة العلاقات الدولية والعوامل الجيوبوليتيكية كفيلة بأن تثير حذراً دولة مجاورة من جاراتها . وهذا ما نلاحظه من موقف كل من الدولتين العثمانية والمملوكية من غزوة تيمورلنك لأراضى الدولتين ، فلم يتوصلا إلى اتفاق ضد عدوهما المشترك .

فقد اجتاحت جحافل تيمورلنك الشام وطرد المماليك من دمشق في ١٤٠٠ م ثم التقى في معركة انقرة (١٤٠٢) بالسلطان العثماني بايزيد الأول فوق الأخير أسيراً وتشنت جيشه . حقيقة انحسرت بعد ذلك الموجة التتارية وتتابعت العلاقات بين العثمانيين والمماليك ولكن من منطلق عدم الثقة ، وكان درس تيمورلنك لم يجد لأى من الطرفين .

لقد كانت صورة مصر مهزوزة لدى بلاطات الدول الكبيرة في الشرق الأوسط حينذاك ونعنى بها (الدولة العثمانية) و (الدولة الفارسية) . فقد حرض أحد رجال السلطان العثماني بايزيد الثاني على الاستيلاء على مصر في حوالى ١٤٨٦ . على أن المواجهة بين العثمانيين والفرس وضع العثمانيين والمماليك وجها لوجه .

ومن ثم كان على قانصوه الغوري أن يتخذ سياسة ما إزاء هذه التطورات السريعة بما يفيد ويبقى عليه كصاحب الكلمة الأولى في المشرق العربي . فكان عليه أن يتبع واحدة من ثلاث سياسات كانت أمامه .

فكان عليه أن يتبع واحدة من ثلاث سياسات كانت أمامه :

١ - أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين .

٢ - أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين .

٣ — أن يقف على الحياد بين الطرفين .

وأخذ قانصوه الغورى يقلب هذه السياسات أمامه . فوجد أنه إذا وقف الى جانب السلطان العثماني سليم الأول ضد الشاه اسماعيل فإنه بذلك يعطى العثمانيين قوة ، ويجعل جهود العثمانيين في القضاء على الصفويين غير شاقة . وبالتالي إذا ما توترت الأمور بين المماليك والعثمانيين يكون هؤلاء مستعدين دون ارهاق لخوض المعارك ضد المماليك . أو بمعنى آخر أن انضمام المماليك الى السلطان العثماني كان سيخل التوازن إخلالا شديدا لصالح العثمانيين بالذات .

أما إذا أخذ السلطان قانصوه الغورى جانب الشاه اسماعيل الصفوى ، فكان عليه أن يقنع جمهرة المماليك بذلك ، ولقد كان من المستبعد أن ينجح في إقناعهم لعدة أسباب :
أولا : لقد كانت العلاقات الصفوية المملوكية غير طيبة ، ولا تشجع على قيام تحالف على جناح السرعة .

ثانيا : كان ممالك مصر سنيين متحمسين لمذهبهم لا يقبلون التعاون مع الشاه الصفوى الشيعى ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضد أوروبا منذ أكثر من قرنين من الزمان .

ثالثا : لقد أثبت العثمانيون أنهم أكثر غيرة على الإسلام من الصفويين ، حيث لى السلطان العثماني بايزيد الثاني طلبات الغورى بشأن إمداده بالأخشاب والفنيين لإعداد أسطول كبير لخض شوكة الأسطول البرتغالي الذى أخذ كل سفينة إسلامية غصبا في المياه الإسلامية الجنوبية .

ولهذا فضل قانصوه الغورى أن يقف على الحياد ، واكتفى بإرسال قوة من ممالكه « الجلبان » إلى حلب لمراقبة تطورات الأمور ولحماية الأراضى والامارات الواقعة تحت نفوذ المماليك من الجيش العثماني الزاحف من الأناضول الى أذربيجان الفارسية .

ولكن إرسال هذه القوة وقيامها بمنع الجيش العثماني من المسير عبر طرق تمر بأراضى واقعة تحت النفوذ المملوكى أدى الى تدهور العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى بعد أن خرج الأول منتصرا في موقعة جالديران على الشاه اسماعيل الصفوى .

وبدا واضحا أن سليم الأول عاد من جالديران وهو يضمم اقحام حرب على السلطان الفورى لأنه كان يخشى من وجود دولتين كبيرتين معاديتين له تشرفان على حدوده الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية .

وكان من أبرز هذه الاتجاهات أن السلطان سليم بعد عودته من جالديران أسرع إلى الانفراد بالنفوذ في اماره ذى القدر الفاصله بينه وبين المماليك ، فقتل أميرها الحاكم علاء الدولة ووضع مكانه على ابن شاه سوار .

ولقد كان ذلك الإجراء لطمة شبه مباشرة للسلطان الفورى الذى عزم على أن يستعيد هيئته في المنطقة فأمر بالاستعداد للحرب إن لم يرفع السلطان سليم الأول يده عن اماره ذى القدر .

ولكن الفورى في حقيقة الأمر كان يود من صميم قلبه أن لا تتطور الأمور إلى حرب وأن تنهى الفرصة التقليدية التى تؤدي إلى تسوية ما بينه وبين السلطان سليم الأول تحت شعار حقن دماء المسلمين حيث أن الفورى كان يعرف تماما أن ممالك مصر محملون بأعباء ثقيلة إزاء القوى المناهضة لهم في شبه الجزيرة العربية وإزاء البرتغاليين في المياه الإسلامية وفي المحيط الهندي كما كان الفورى يدرك أن المماليك غير مستعدين من وجوه عديدة لخوض غمار حرب كبيرة ضد جيش السلطان العثماني .

إن المقارنة بين ذلك السلطان العثماني الجريء سليم الأول — الذى ينقل الحرب في المشرق إلى أرض خصومه ويفرض عليهم خوض المعارك — وقانصوه الفورى الذى يسعى إلى تجنب الحرب بطريقة أو بأخرى ، يعكس حقيقة أن ممالك مصر كانوا في أحوال سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية يرثي لها . والمماليك أنفسهم مسئولون عن كثير من أسباب هذا التدهور الذى أصاب البلاد الواقعة تحت حكمهم (الشام والحجاز ومصر) .

ولقد أسار المؤرخ ابن اياس بوضوح إلى تحول المزاني على البحر الأحمر والبحر المتوسط من الازدهار إلى الخراب في مطلع القرن السادس عشر ، وقد عزا ابن اياس ذلك إلى جشع وسوء الإدارة المملوكية فيقول ابن اياس أن حسين نائب جده قد ضاعف ما يجنيه عشرة أمثال «فامتنعت التجار من دخول بندر جده وآل أمره إلى الخراب» (١) .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

وتحدث ابن اياس عن خراب بندرى الاسكندرية ودمياط فقال : « فامتنعت تجار
الافرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التى تجلب من
بلاد الافرنج » (١) .

وبذلك تكون التجارة المصرية — الهندية، والتجارة المصرية — الأوروبية قد أصيبت
بحالة شديدة من التدهور ، وفقدت موانئ مصر على هذين البحرين المتوسط والأحمر
دورها الاقتصادى خاصة على المستوى الدولى .

إن مسئولية تردى أحوال الشام ترجع أساسا الى أيام الحروب الصليبية
والاجتياحات المغولية والتترية للشام ، وإلى أن المماليك لم يعيدوا بناء اقتصاديات مصر
والشام ، بل اتبعوا سياسة خاطئة اقتصادية حين تركوا سفن البنادقة تنقل التجارة
الشرقية من مصر والشام الى أوروبا دون أن يعطوا فرصة للشعب كى يقوم بهذه التجارة
العظيمة بل اكتفوا بفرض الضرائب المتزايدة على تلك التجارة الدولية واشتطوا فى ذلك
حتى لقد فكر البنادقة فى وقت من الأوقات فى قطع علاقتهم بالمماليك .

ولعل اتجاه المماليك الى مضاعفة الضرائب على التجارة الشرقية يرجع أساسا الى
فساد نظام الاقطاعات العسكرية الذى كان متبعًا حينذاك ، حيث كان على كل مملوك أن
يعيش على موارده من اقطاعه وأن يسلح نفسه ورجاله وهو ينفق عليهم من أرزاقه من هذا
القطاع ، ولكن الذى حدث هو أن المماليك والأجناد كانوا يبيعون اقطاعاتهم او يتنازلون
عنها حتى لقد اشترى أصحاب الحرف والصناعات كثيرا من هذه الاقطاعات فاصبحوا
بسبب ذلك ضمن الاجناد وهم لا يعرفون فى أمور الحرب والقتال شيئا .

وزاد من تدهور البلاد اقتصاديا أن المماليك مدوا أيديهم بقسوة الى دخل الفلاحين
الذى لا يسد رمقهم . حيث ضاعفوا الضرائب عليه واشتطوا فى فرض الغرامات حتى
جعلوه عاجزا عن المحافظة على مستواه المدينى .

وحيث أن أهل المدن — مثل الفلاحين — هم الذين كانوا فى متناول الحكام المماليك،
فقد عانى أهل المدن من (الرمى على الحارات) بدعوى تمويل الحملات اللازمة لإنقاذ قافلة
الحجاج من تعدى العربان عليها أو لإعداد القوات اللازمة لحماية المدن العربية من الهجمات

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

وكان على الممالك أن يعالجوا هذا التدهور الاقتصادي الخطير ، ولكنهم ظلوا متمسكين بتقاليدهم ولم يحاولوا إعادة النظر في أساليب الحكم أو في أساليب الانتاج الاقتصادي أو في فتح مجالات اقتصادية جديدة مربحة للفرد وللجماعة والدولة . بل إنهم ظلوا على اسرافهم في المظاهر الاجتماعية ومن أبرز مظاهر الإسراف الحفلات التي كان يقيمها الممالك ، والأموال التي كان يوزعها وينثرها الغوري والممالك خلال زحفهم من مصر عبر الشام للقاء الجيش العثماني في معركة مرج دابق .

فقد كان الغوري يريد أن يوهم الناس أن خزانته عامرة وأمواله كثيرة فابدى من مظاهر البذخ ما يتنافى مع حقيقة الانهيار الاقتصادي الذي كان يعاني منه . وهذا الأسلوب في إيهام الشعوب بالرخاء وهي متدهورة اقتصاديا يذكرنا أيضا بما أقدم عليه الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري انطوانيت حين أقاما الحفلات الكبرى. وظهروا بمظهر اليسر لا العسر لعل ذلك يمكنهم من عقد قروض جديدة ، ولكنها أساليب لا تعالج الداء من أساسه ولذلك لا تلبث الأمور أن تتكشف عن واقع الحال وما كان أسوأه .

وفي مصر ، مركز الحكم المملوكي ، كانت عناصر التدهور تظهر تباعا حيث أصبح الممالك يواجهون دولا من طراز جديد تقوم اما على أساس الفكر المذهبي مثل فائس الصوفية الشيعية أو على أساس الجهاد الديني مثل الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان ، أو الحرب الصليبية الاقتصادية مثل البرتغاليين ، أما الممالك فكانوا عقائديا قد فقدوا أسس احتكارهم للحكم والحرب فلقد قبلهم الشعب في مصر والشام وتحمل مظالمهم ، وضحي برفاهيته وبكثير من مصالحه لمجرد أن هؤلاء كانوا يجاهدون في سبيل الله ضد العدوان الصليبي .

وانه لارتفاع رائع الى مستوى التضحية الواجبة من جانب الشعب العربي في مصر والشام حين تحمل كل ما تحمله من أجل تلك الأهداف البسامية .

أما وقد انتهى الصليبيون وخرجوا من الشام . وارتد المغول عن المشرق لم تعد هناك حاجة الى استمرار تلك التضحيات من جانب الشعب ، ولكن استمر الممالك يعيشون على ذكريات تلك الانتصارات الرائعة ، ويبتزون أموال الناس باسم الأعمال المجيدة التي قاموا بها رغم مرور أكثر من قرنين من الزمان عليها ، دون أن يجدوا

شباب قوتهم أو قوة البلاد التي يحكمونها اتقاء شر مستطير يأتى إلى البلاد الإسلامية من أوروبا مرة أخرى .

ولهذا عندما فوجيء المماليك بالأسطول البرتغالى وقد فرض سيطرته على المياه الجنوبية الإسلامية ثم بجيش السلطان سليم الأول يستعد لفرض حرب مصيرية على المماليك لم يكن لدى المماليك القدرة على الارتفاع بسرعة إلى أساليب ومستويات التفوق العسكرى حينذاك سواء فى البر أو فى البحر .

فقد كان الجيش المملوكى يتكون من أقسام رئيسية :

- ١ - المماليك السلطانية من قرانصة وجلبان .
 - ٢ - المماليك الأمراء ، حيث كان لكل مملوك قوته التابعة له وتدين له بالولاء والطاعة .
- وكان المماليك يعتمدون فى تجديد شباب جيشهم على شراء أعداد كبيرة من القوقاز لتدريبها ورفعها من مراتب العسكر إلى القيادات .
- وكان شراء المماليك الجدد يتم بأعداد كبيرة ، ولكن هؤلاء المماليك الجدد فى القرن الخامس عشر كانوا على صفات أدنى بكثير من أولئك المماليك الذين كانوا يجلبون إلى مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

فيحدثنا المؤرخ ابن طولون عن الفوضى التي كان يثيرها هؤلاء المماليك الجدد خلال سفرهم عبر الشام إلى مصر . ومع أن هؤلاء كانوا شرسين ، غير مطيعين مرهقين للسلطان ، إلا أنه لم يكن قادرا على الاستغناء عنهم ، حيث أن المسئوليات التي القيت على كاهل جيش مصر تضخمت فجأة وبشكل مذهل اذا امتدت جبهات العمل العسكرى امامهم من مرعش وشمال العراق إلى طرابلس الغرب وعدن والحبشة والسواحل الهندية ، وبالتالي أصبح السلطان الفورى فى حاجة لأعداد متزايدة من المماليك الجدد ، ولكن كان لا بد وأن يشعر الفورى ، وغيره من كبار رجال المماليك فى مصر أن القوقاز - وهى المصدرة للمماليك الجدد لمصر عبر الأراضى العثمانية والشام - لن يظل مفتوحا أمامهم باستمرار ، وعندما توترت العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الفورى عمل سليم على منع مرور المماليك الجدد عبر أرضه . فيكون بذلك قد جمد نمو الجيش المملوكى . ومع أن هذا التجديد لا تظهر آثاره إلا بعد وقت طويل نسبيا إلا أن آثاره النفسية ليست بالقليلة على المماليك

في مصر الذين كانوا مجرد أقلية حاكمة تعيش في خضم عربي كبير يمكن أن يبتلعهم يوما
ما إذا لم تستمر عملية التجديد والإضافة عن طريق الشراء وتعويض النقص في الجيش
المملوكي . وأقبل الغوري على شراء المماليك حتى « تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتي
خاصكي من مشترواته » وكان لا بد من استمرار عملية الشراء هذه سنة بعد أخرى
لتعويض النقص حيث أن أعدادا كبيرة من المماليك كانت تذهب ضحية الأوبئة والمؤامرات .

ولقد دب الشقاق في كل صفوف المماليك . فالقراصة كانوا ضد الجلبان ، وكل
صنف منهما كان يستكثر من الأموال ويتجنب المشاركة في الحروب خوفا على النفس من
الموت وعلى الأموال من الضياع وللإستمرار في حركة المؤامرات الدائبة في القاهرة بين
كبراء المماليك سعيا إلى المناصب العليا .

فالقراصة يرفضون الذهاب لحماية العقبة والاسكندرية ويصرّون على أن يعسكروا
في رشيد ودمياط دون غيرهما . والجلبان لا يقيمون وزنا للسلطان الغوري نفسه فكانوا
« يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين . . وصار الناس في غاية
الضنك والقهر » .

وحاول الغوري أن يصلح بعض أمور المماليك وأن يعيد الوئام بين كل المماليك ولكنه
كان يرمى فرقة بأخرى وهذا أسلوب لا يؤدي إلى توحيد الصفوف ومجابهة العدو بقلب
واحد .

لقد تغلبت روح المؤامرات على الرغبة في تصفية الخلافات وتوحيد الصفوف وانشغل
المماليك أكثر بمؤامراتهم ، وفي رفع هذا المملوك أو ذاك إلى المناصب العليا .

لقد أصبح البطل لدى المماليك هو الذي يدبر مؤامرة ناجحة لا ذلك الذي يكسب
معركة حامية . ومما عمق هذا الاتجاه الخطر في نفوسهم هو أنهم لم يشتبكوا في حرب
خارجية لعدة سنوات طويلة ، باستثناء تلك الحرب القصيرة التي وقعت بين المماليك
والعثمانيين في أواخر القرن الخامس عشر .

وكان عدم الاحتكاك العسكري بالقوى الأخرى عاملا رئيسيا أدى إلى تحويل نشاط
المماليك من قوى قادرة على نقل الحرب الى أرض العدو وخارج مصر الى قوى متاخرة .
تجد العزة في الاستبداد بأهل البلاد ، وفي الاقتتال فيما بينهم .

وغرق المماليك في مؤامراتهم الداخلية ، ولم يعنوا بما كان يدور خارج البلاد فطاشت آراؤهم حول قوة جيرانهم ولم يدركوا أن أساليب الحرب والقتال كانت تنتقل من عصر الفروسية والسيف إلى عصر المشاة والمدفعية البرية والسفن البحرية المزودة الواحدة منها بأكثر من أربعين مدفعاً كفيفة بأن تسوى بالأرض أى ميناء من الموانئ المصرية أو الشامية أو الحجازية حينذاك .

وإنه لقصور جد غريب حيث أنه لم ينشأ ذلك من عدم ادراك أو معرفة لقيمة هذه الأسلحة النارية ، إذ أن المماليك كانوا يعرفون أمرها وحاولوا استخدامها بل أدخلوها فعلاً في نظامهم الدفاعي ولكن بأسلوب لا يفيد في رفع مستوى الجيش المملوكي إلى مستوى القرن السادس عشر ، فلقد كانت لديهم بعض المدافع ولكنهم أبوا أن يتولوا أمرها وإنما أسندوا تشغيلها إلى البنادق .

بل عندما أدرك بعض القواد المماليك أنه لا بد من استحداث فرقة من المشاة رماة البنادق لجأوا إلى تدريب عناصر من غير المماليك . وكان اختيارهم لهذه العناصر سيئاً للغاية حيث أنهم كونوا هذه الفرقة من « زعر » دمشق ، وهم أشبه بفتوات بولاق والحسنية في القاهرة وبشقوات بغداد .

ولقد حاول الغوري أن يعيد النظر في تشكيل جيش المماليك وتجديده ، وأعد فعلاً قوة من رماة البنادق عني بتدريبها الأمر الذي أدى إلى فتنة كبيرة في ١٥١٤ - ٩٢٠ هـ . إذ اتهمه أمراء المماليك بأنه أنفق على هؤلاء الجند ما كان يجب أن ينفقه عليهم ، وأنه لن يلبث أن يستغنى عنهم عندما يكمل إعداد جيشه الجديد ، وهكذا كان الغوري في ورطة معقدة ، فهو لا يستطيع أن ينشئ جيشاً جديداً ، ولا هو بقادر على تطوير المماليك بما يتناسب مع حروب القرن السادس عشر ، في الوقت الذي كان فيه المماليك يواجهون جيوشاً من نوع جديد لا من حيث التسليح فقط بل من حيث أنها جيوش عقائدية .

فلقد كان البحار البرتغالي يستमित من أجل الهدف الصليبي الاقتصادي الذي يسعى إلى تحقيقه . بينما كان الجهاد في سبيل الله والسنة المحمدية وتلبية أوامر السلطان العثماني نصب عين رجالات الإنكشارية وسباهية الجيش العثماني . وكان قزلباش اسماعيل الصفوي يبذلون دماءهم من أجل الشاه وعقيدتهم . أما السلطان الغوري فكان له جيش من المماليك يعتمد صيتهم على انتصارات أسلافهم في القرن الثالث عشر

ولكنه أصبح غير كفىء للمعارك الحاسمة العالمية في القرن السادس عشر ، ومع هذا كان الغورى مضطرا لخوض حروب ضد العثمانيين والبرتغاليين فكل منهما كان يهدده تهديدا مباشرا ، وكل منهما نال من مكانته وكرامته بشكل لا يمكن السكوت عليه .

فالبرتغاليون هزوا ثقة المسلمين في الماليك فلم يعد الماليك حماة للإسلام ولا للمسلمين فشتان بين دور الماليك في تصفية الوجود الصليبي في الشام ودورهم في مقاومة الحملات البرتغالية على المياه الإسلامية الجنوبية . شتان بين استرداد الماليك لعكا في (١٢٩١) ونتائج معركة ديو ١٥٠٩ بين الأسطولين المملوكي والبرتغالي فقد أصبح البرتغاليون بعد تلك المعركة ، وإلى حد كبير ، أصحاب السيادة على المياه الإسلامية الجنوبية .

هكذا فعل البرتغاليون بالماليك . ثم جاء السلطان سليم الأول ليشن حملة تحقيق ضد الماليك ، فهم في نظره مجرد عبيد اغتصبوا الحكم . اذ خاطب سليم الأول السلطان الغورى بقوله :

« إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية ملك وأنا ملك الى عشرين جدا وقت توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة » . وأصر السلطان سليم على أن يكون السيف هو الحكم ان لم يعلن الغورى خضوعه له فكان ذلك هو ذروة الاستهانة بالغورى والماليك . ونحن لا نستبعد أن يكون السلطان العثماني صادقا في رغبته في أن يكف يده عن مقاتلة الغورى ، حيث أن هناك سابقة ، وهي أن سليم الأول بعد موقعة جالديران لم يستمر في الزحف داخل الدولة الفارسية ، واكتفى باعلان حاكم بغداد الخضوع للسلطان . ولكن ما كان في استطاعة الغورى أن يعلن تبعيته للسلطان العثماني هكذا بسهولة ودون حرب تحت شعار حقن دماء المسلمين .

فكيف يكون ذلك والسلطان الغورى كان يجلس في حضرته أمير المؤمنين الخليفة العباسي الذي كان يصدر تقليد السلطنة حتى للسلطان العثماني نفسه ؟ ثم اليس هو — أى الغورى — حامى حمى الحرمين الشريفين ؟ وأسلافه هم الذين هزموا المغول وقضوا على الصليبيين نهائيا في الشام وقاتلوا البرتغاليين هناك بعيدا قرب السواحل الغربية الهندية عند ديو ؟ اليسوا هم الذين استنجد بهم حكام المسلمين في الهند ودعوا إلى اقامة وجهة إسلامية ضد العدوان الصليبي البرتغالي ؟

إنهم تـأى الممالك — لأصحاب تاريخ مجيد ، ولكن الحقيقة هى أن دولتهم عجوز ، ولكنه لا يستطيع إلا أن يحمل السلاح حتى تتكسر نصاله على النصال .
ونستطيع أن نحدد الأسباب الرئيسية للفتح العثمانى لمصر فيما يلى :

١ - التوازن الدولى :

لا شك أن نظرية التوازن الدولى لعبت دورا هاما للغاية فى طبيعة الصراع الذى وقع خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر حيث نلاحظ أن الشاه اسماعيل كان مستعدا لأن يتعاون مع (الفرنجية) أى الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، كما وقعت فى يد السلطان العثمانى سليم الأول مكاتبات من الفورى إلى الشاه اسماعيل الصفوى تحت على نوع من التحالف ، وحيث أن الدولة العثمانية تدرك أكثر من الدولتين الصفوية والمملوكية ماذا يعنى تحالف دولة أوروبية كبرى مع أى من الدولتين الصفوية والمملوكية من فتح أبواب البلاد العربية والإسلامية لحملة ضليبية جديدة ، ومثل هذا الموقف الدولى يتطلب من السلطان العثمانى أن يوهن إلى أقصى حد قوة كل من الدولتين الصفوية والمملوكية وضم ما يمكن ضمه من ممتلكاتها . ومن ثم لم تكن هناك ثقة بين القيادات الكبرى الإسلامية الثلاث (سليم الأول ، الفورى ، اسماعيل) . وكان موقف الدولة العثمانية — رغم مظهرها القوى — هو أكثر الدول الثلاث تعرضا لأخطار مروعة تهدد كيان الدولة نفسها .

فالدولة العثمانية قبل ظهور الدولة الصفوية ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول كانت تحارب فى جبهة واحدة فقط هى جبهة البلقان وبظهور الدولة الصفوية وبموقف الممالك المريب من الأتراك العثمانيين أصبحت الدولة العثمانية مهددة بالقتال فى ثلاث جهات مرة واحدة وهذا وضع استراتيجى خطير لا بد من علاجه ، وما كان علاجه إلا باضعاف الدولتين الإسلاميتين الصفوية والمملوكية . وأغلب الظن أن سليم الأول كان يرغب فى أن يعلن سلطان مصر الولاء للسلطان العثمانى وأن تتوقف الأمور عند هذا الحد ، إلا أن التطورات أدت إلى انتصار العثمانيين فى موقعة مرج دابق ، وسقوط الشام ومصر فى يد سليم الأول .

وباتساع الدولة العثمانية فى الشام وفى مصر وحوض البحر الأحمر أصبحت هناك دولة إسلامية كبرى (الدولة العثمانية ذات الشكل الامبراطورى) فى مواجهة دولة مسيحية

كبرى امبريالية (الامبراطورية البرتغالية) • بمعنى أن الدولة الإسلامية المجاهدة (الدولة العثمانية) أصبحت في مواجهة الدولة المسيحية الصليبية (الامبراطورية البرتغالية) •

٢ - لقب حامى حمى الحرمين الشريفين والخلافة :

لا شك أن من يحمل هذا اللقب يكون له مكانة متميزة بين كافة الحكام في البلاد الإسلامية فهو شرف لا يطاوله شرف آخر • ولقد كان سلاطين المماليك يفتخرون بأنهم حماة الحرمين الشريفين • والحقيقة هي أنهم حموه في وقت لم تتعرض فيه البلاد المقدسة الحجازية لخطر شديد ، حيث تولى المماليك الحكم في مصر في منتصف القرن الثالث عشر قى وقت كان فيه الصليبيون فى بلاد الشام يزدادون ضعفا على ضعف ولم يعودوا قوة يخشى منها على الحرمين الشريفين ، ولكن للمماليك الفضل في انقاذ البلاد المقدسة الإسلامية من الخطر المدمر المفولى •

وفي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ظهر خطر حقيقى يهدد البلاد الحجازية المقدسة ويهدد الحرمين الشريفين تهديدا مباشرا ألا وهو خطر البرتغاليين عندما اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، وأعلنوا أنهم لن يتورعوا عن قصف المدينة المنورة ومكة المكرمة وأن يفعلوا بمقدسات المسلمين ما تمكنهم قوتهم أن يفعلوه • حقيقة تحرك المماليك ، وارسلوا قوة عسكرية الى جدة ، وعملوا على تحصينها وبعثوا بأسطولهم لقتال البرتغاليين قرب سواحل الهند عند (ديو) • ولكن النتيجة العامة هي أن المماليك أصبحوا غير قادرين على التغلب على البرتغاليين وبالتالي أصبح الحرمان الشريفان في خطر •

وكان السلطان العثماني سليم الأول يتعجب من الزمن الذي جعل حماية الحرمين الشريفين في أشخاص غير مؤهلين - بمقياس ذلك العصر - للقيام بهذه المهمة العظيمة ، ونعنى بذلك كون المماليك عبيدا ، وأن مثل هذا العمل العظيم لا يقوم به إلا ذوى العروش الكريمة وعراقة المحتد •

إن المصادر التى بين أيدينا حتى الآن لا تشير صراحة الى أن السلطان سليم الأول كان يريد انقاذ الحرمين الشريفين من أى خطر يتهددهما وخاصة خطر البرتغاليين • ولكن لدينا بعض الملاحظات :

(١) اليس السلطان بايزيد الثانى - والد سليم الأول - هو الذى لى طلب الغورى

فارسى اليه الأخشاب والفنيين لبناء أسطول فى مصر للابحار الى سواحل الهند لقتال البرتغاليين، ولا شك أن نتيجة معركة ديو بين الأسطولين المملوكى والبرتغالى كانت معروفة لدى البلاط العثمانى وأن البرتغاليين أخذوا كل سفينة إسلامية غصبا وأنهم صليبيون .

(ب) أن السلطان سليم الأول كان رجلا من طراز قيادى ومن بناء الدول ومثل هؤلاء الرجال الذين عاشت دولتهم على (الجهاد) ضد أوروبا المسيحية لا تغيب عنه مسئوليته فى الحفاظ على سلامة الحرمين الشريفين وأن يحصل على أشرف لقب (حامى الحرمين) ولدينا مثال وقع منذ قليل جدا حين فضل فهد بن عبد العزيز لقب (خادم الحرمين الشريفين) على لقب ملك وهل كان يغيب عن عبد العزيز ابن سعود - مؤسس الدولة السعودية المعاصرة - أن ضم الحجاز يعطيه مكانة مميزة بين مختلف القيادات فى العالمين العربى والإسلامى ؟

ونلاحظ أن السلطان سليم الأول رفض أن يلقب بـ (ملك الحرمين الشريفين) وأعلن أنه فقط (خادم الحرمين الشريفين) وما أسماها من مسئولية . وأن هناك نوعا من التشابه بين القيادتين فى هذا الصدد . فالسلطان سليم الأول ضم الحجاز وافتخر بأنه خادم الحرمين فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يهددون بتدميرهما ، وضم عبد العزيز ابن سعود الحجاز فى الوقت الذى كانت فيه الهجرات اليهودية تتدفق على فلسطين ، وكل منهما عمل على انقاذ المنطقة من أهداف خطرة صليبية .

ورغم عدم وجود نص صريح بشأن مساعى السلطان سليم الأول لكى يصبح حامى الحرمين الشريفين ، فإننا نرجح وبكل اطمئنان أن سليم الأول كان يسعى الى هذا الهدف .

ولكننا حين نقول أن السلطان سليم الأول كان يسعى الى الحصول على (الخلافة) إنما نقولها مع نوع من التحفظ . حقيقة تروى بعض المصادر أن سليم الأول كان على بينة تماما من أنه اذا ما استولى على مصر فستؤول إليه ليس فقط ولاية الحرمين وإنما سيؤول « مقام الخلافة » الى الأسرة العثمانية .

ولقد خاطب الشريف بركات السلطان سليم الأول بأنه خليفة ولكن الأهم من ذلك

أن السلطان سليم كان يتكلم من منطلق أنه المهيمن على « أمصار المسلمين وبلاد الموحدين » وأنه ذاهب الى « الحرمين الشريفين » ومن ثم فهو المقصود حين تفسر الآية التي تقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وأوضح هدفه إزاء مقام الخلافة حين استند الى الآية التالية « إني جاعل في الأرض خليفة » .

لقد دار جدل طويل حول موضوع الخلافة وحق آل عثمان فيها ، ويمكن أن نقول أن السلطان سليم الأول كان يقدر مقام الخلافة كل تقدير ، وكان يرى في اتساع ملكه وفي خدمة الحرمين الشريفين ، وفي استجواذه على الخليفة العباسي ومقام الخلافة كل هذا كفيلاً بأن يكون أهلاً للخلافة إلا أن منصب السلطنة كان قوة أكبر بكثير جداً من منصب (الخلافة) ، وهو وضع كان قائماً قبل فتح سليم الأول لمصر بعدة قرون .

إن الجدل الذي دار حول (الخلافة العثمانية) وصل الى حد القول أنهم (اغتصبوها) ، وذهب البعض الى القول أن آخر الخلفاء العباسيين في مصر استسلم الى السلطان سليم الأول تنازل له عن الخلافة خلال سنوات أسره في الاستانة ، وهناك من يقول أن السلاطين العثمانيين العظام من أمثال سليم الأول وسليمان الأول لم يعنوا بموضوع الخلافة ، واكتفوا بلقب السلطان .

وأغلب الظن أن طول فترة ضعف الخلافة والخليفة منذ سقوط بغداد في يد المغول وانتقال الخلافة الى القاهرة تحت سيطرة المماليك ، وهم في نظر سليم الأول عبید أرقاء ، واتخاذ آخر الخلفاء العباسيين موقفاً مؤيداً للسلطان الفوري وما كان للخليفة حينذاك إلا أن يفعل ذلك ، كل هذا هبط من قيمة الخليفة العباسي في نظر سليم الأول ولكن لم يهبط من قيمة (الخلافة) التي كان يقدرها سلاطين آل عثمان حق قدرها ، فقد ورد في قانون نامه سليمان القاب هذا السلطان العظيم على النحو التالي :

« خاقان وجه الأرض وخليفة رسول رب العالمين ، ملك ممالك الدنيا ووارث الخلافة العظيمة . . صاحب الإمامة العليا والسلطان المجيد » (١) .

(١) انظر هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ج ١ ، ص ٤١

ومن ثم فان مدرك (الخليفة والخلافة) واضح لدى آل عثمان وإنما ارتبطت أفعالهم بالشكل (السلطاني) أكثر بكثير جدا من شكل (الخلافة) .

ونحن لا نأخذ برأى جب وبوون من حيث أن مصطلح (خلافة) و (خليفة) أخذ شكلا آخر ، وإنما حافظ على شكله ومعناه خلال حروب الفتح العثماني للمشرق العربي ثم قل استخدامه بعد أن توقفت تلك الحروب .

على أننا نخرج من هذا كله أن خدمة (الحرمين الشريفين) كانت أعلا مرتبة من (الخلافة) ولقد كان الخليفة العباسي في القاهرة طوال العهد المملوكي مجرد لقب ومرتبة بلا فاعلية حقيقية ، فالخليفة في كنف السلطان سليم الأول يشبه الى حد كبير البابا عندما كان أسيرا لدى الامبراطور شارل الخامس في أوائل القرن السادس عشر ، ولقد حدث ذلك في وقت قريب من حادثة استيلاء السلطان سليم على مصر وعلى مقام الخلافة .

إنه عصر ضاعت فيه المعاني العالمية للخلافة الإسلامية وللبابوية المسيحية حتى أصبح البابا في دويلته الصغيرة في الفاتيكان أشبه بالرمز منه الى أى شيء آخر وكذلك الخلافة . . رغم محاولة عبد الحميد الثاني لحياتها بقوة حتى الفيت في ١٩٢٤ .

تلك كانت الرؤية الإسلامية للانطلاقة التوسعية العثمانية في اتجاه فارس والمشرق العربي ووادي النيل وحوض البحر الأحمر . وهناك رؤية عربية للتوسع العثماني حيث أطلق أحد المعاصرين لموقعة مرج دابق وهو (مترقجي) على كتابه (فتحنامه ديار عرب) ، ومعنى هذا أن الأتراك كانوا منذ البداية يدركون تقسيما عرقيا (الفرس) و (العرب) و (ترك) تحت راية اسلامية لا تحول دون صراعات بينهم .

٣ - العامل الاقتصادي :

لا شك أن هناك عمليات فتح وتوسع لا تستهدف أرباح اقتصادية، ولكن ذلك قليل، والهدف الاقتصادي من وراء حرب أو توسع غالبا ما يكون هو الأساس وكثيرا ما يكون هو الهدف الباطن غير المعلن . وبناء عليه فأننا نرى أن التوسع العثماني في البلاد العربية كان يستهدف مكاسب اقتصادية . ويمكن نقد هذه الفكرة نقدا شديدا ، حيث أن من يراجع ما كتبه المؤرخ المصري العظيم ابن اياس عن أحوال مصر قبيل وخلال وأعقاب الفتح العثماني يجد أنها في أسوأ حال من حيث تعطل التجارة وانتشار الأوبئة .

ولكن اذا وضعنا في الاعتبار أن حالة مصر والشام المزدهرة قبل تحول طرق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ، لم تكن بعيدة وإنما لم يكن قد مر على تلك النكبة سوى عقدين على الأكثر ، ولا يستبعد أن يكون السلطان سليم الأول قد تطلع إلى إعادة حالة الأزدهار تلك إلى ما كانت عليه على اعتبار أن المماليك فشلوا في توجيه ضربة قوية للبرتغاليين أما هو (أى سليم) فيستطيع ذلك ويستطيع أن يعيد الطريق عبر الشرق الأدنى بين الشرق والغرب إلى ما كان عليه فتصبح التجارة الدولية بيد آل عثمان وليس بيد المماليك أو البرتغاليين . ولعل هذه الفكرة كانت وراء إرسال قوات عثمانية إلى الحجاز واليمن في أعقاب سقوط مصر في يد سليم الأول .

ثم إنه ليس من المعقول أن يخوض السلطان سليم تلك الحروب الخطيرة دون أن يكون لديه تصور لما سيعود على دولته من مكاسب خاصة وأن تطلعات سليم الأول لم تكن قاصرة على الشام ومصر بل إلى الحجاز واليمن .

ونلاحظ أن الحرب التجارية هي التي بدأ بها سليم الأول صراعه مع السلطان الفوري فبعد الانتصار الكبير الذي أحرزه سليم الأول في موقعة جالديران، وأثناء استعدادهم للزحف على الشام أوقف التجارة بين البلاد الشمالية ومصر ، وهذا يدل دلالة واضحة إلى أهمية الدور الاقتصادي في الصراع .

٤ - اللاجئون لدى الطرفين العثماني والمملوكي :

كان عدد من أمراء آل عثمان الطامعين في العرش يفرون إلى هذا البلد أو ذاك لعلهم يجدون سبيلا إلى تحقيق أهدافهم ، الأمر الذي كان يثير في السلطان الحاكم (بايزيد الثاني ثم سليم الأول) الرغبة في قتال أولئك الذين يحمون هؤلاء الأمراء ويستخدمونهم . وكان عدد من الأمراء ذوي المكانة قد فروا إلى المماليك (١) .

وكان من أسلوب الطرفين المتقاتلين أن يكسب كل منهما أعوانا له من بين رجالات الآخر . وكان ذلك من الأمور التي تحدث عندما تقع الحرب بين دولتين إسلاميتين هذا فضلا عن أن الحكومتين العثمانية والمملوكية تركيتان إسلاميتان والخلاف من حيث درجة الأصالة الاجتماعية فقط . ومن ثم كان الانتقال فقط من المعسكر التركي العثماني إلى المعسكر

(١) أنظر الصفحات التالية .

الملوكى من الأمور اليسيرة • وهذا ما حدث فعلا ، فقد استقبل كل طرف الفارين من الطرف الآخر واندمجوا فيه بسهولة وبسرعة •

وكان من أخوة سليم من لجأ الى الغورى فأكرمه وأبقاه ليستعمله فى الوقت المناسب . وكان بعض كبار المماليك قد فروا من مصر الى حمى السلطان العثمانى سليم ومنهم خوشقدم • ولكن كانت إفادة السلطان العثمانى من اللاجئين اليه من المماليك أكثر من إفادة الغورى من اللاجئين اليه من العثمانيين • حيث أن التفكك الداخلى فى الدولة المملوكية كان يعطى فرصا واسعة للسلطان سليم للإفادة المثمرة بينما كانت الجبهة الداخلية العثمانية صلبة يسيطر عليها السلطان سليم الأول بمحبة جنده وخوفهم منه لما عرف عنه من قسوة بالغة فى معاملة المتمردين عليه •

وإذا قارنا بين الطرفين فى هذا الصدد لوجدنا أن اللاجئين العثمانيين الى بلاط الغورى كانوا يمنحونه قوة معنوية ودعائية بينما الذين استطاع العثمانيون جذبهم الى صفوفهم من رجالات المماليك كانوا ذوى المناصب العليا وكبار القادة من أمثال نائب عينتاب وخايربك نائب حلب التى هى بمثابة خط الدفاع الأول عن الشام ومصر •

ولقد كانت رائحة الخيانة قوية وأصابع الاتهام مصوبة نحو خايربك بالذات لدرجة أن سيباى (أحد كبار المماليك) أمسك بتلابيب خايربك وخذر الغورى منه مؤكدا له أنه إذا أراد أن يكسب المعركة المصيرية المقبلة فعليه أن يتخلص من رأس الخيانة خايربك ولكن الغورى لم يأخذ هذه الاتهامات بمحمل الجد والخطورة لأنه كان يستبعد مثل هذه الخيانة من خايربك نفسه ، فضلا عن أنه كان مقبلا على المعركة بعد قليل فإذا ما أشيع فى المعركة أن هناك خيانات بين الأمراء المماليك تفكك الجيش وأصبح الأمل فى النصر بعيدا للغاية •

• — مرجع دابق : —

وكان الغورى يدرك أن جيشه لا يستطيع وحده الصمود امام الجيش العثمانى ، فقد حاول أن يدفع الشاه اسماعيل الصفوى الى التحالف معه ضد العدو المشترك • ولعل مما شجع الغورى على ذلك أن الشاه اسماعيل كان مصرا — بعد جالديران — على متابعة العمل ضد السلطان سليم الأول • ولكن الكراهية التى كان يكنها الشاه للغورى لم تكن تقل عن كراهيته للسلطان سليم • هذا فضلا عن أن الشاه كان منذ جالديران لا يفكر فى خوض معركة مع العثمانيين واكتفى بتثبيت حكمه فى إيران وما هو وراءها شرقا فى اتجاه الأذربك لا فى اتجاه الشام •

ولهذا لم تسفر مجهودات الغورى لدى الشاه اسماعيل الصفوى عن شىء ايجابى ؛ بل لقد أدت مكاتباته للشاه الصفوى الى تعميق الهوة بين الغورى وسليم . فلقد سقطت تلك المكاتبات التى بعث بها الغورى الى الشاه اسماعيل فى يد رجال السلطان سليم الأول ، وكان الشاه اسماعيل عدوا غير عادى بالنسبة للسلطان سليم ، فالشاه اسماعيل لا يتورع عن طعن الدولة العثمانية من خلف ، بل لقد كان الشاه اسماعيل يفاوض فعلا البوكرى — الاميرال البرتغالى فى المياه الهندية — على عقد تحالف ضد السلطان العثمانى .

أما وقد أصبحت الحرب لا محالة واقعة بين العثمانيين والمماليك لجأ كل من الطرفين الى كل أسلوب يمكن أن يوهن قوى الطرف الآخر ، ولقد كان الاتهام بخيانة فكرة الجهاد ضد أوروبا الصليبية من اقوى أساليب الدعاية ، ولقد استخدمها الغورى . فلقد اذاع الغورى على الناس أن السلطان العثمانى « قد جهز عساكر كثيرة من النصارى والأرمن وغيرهم » ليضرب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة الذين هددوا بتدمير الأراضى المقدسة الإسلامية الحجازية .

ولكن يبدو أن هذا الأسلوب فى الدعاية لم يلق نجاحا يذكر بين أهل دمشق ويرجع هذا الى أن الاتهام لا يستند الى أى دليل مادى واضح بل الذى كان شائعا هو أن العثمانيين منذ قرون مضت عاشوا مجاهدين ضد الفرنجة ولم يتأخروا عن امداد المماليك انفسهم بالمواد والفنيين اللازمين لقتال البرتغاليين .

وعلى أى حال أعد السلطان الغورى جيشه وغادر به القاهرة الى دمشق فدخلها فى جمادى الأول ٩٢٢ هـ سنة ١٥١٦ م . وكان يحيط نفسه بمظاهر البذخ والفخامة التى دأب عليها اسلافه ، فنشر الأموال يمينا ويسارا ومن حوله الخليفة العباسى ، وكبار رجال الدين من المذاهب الأربعة : الشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، والحنفية ، وأولاد محمد ابن بركات شريف مكة وخليفة السيد أحمد البدوى وخليفة السيد ابراهيم الدسوقي وكانت تسير فى ركابه كذلك محفلات لزوجة الغورى ، ومغنون وغير ذلك من تلك المظاهر التى دأب المماليك على التمسك بها منذ توطد نظامهم فى مصر والشام كذلك لم يغير جيش المماليك من سلوكه إزاء أهالى المدن التى كان ينزل فيها . فلقد أخرج العسكر الأهالى من بيوتهم ونهبوا أموالهم وتعرضوا للأعراض ، الأمر الذى أساء الى المماليك كل الإساءة وكان له عواقب وخيمة بالنسبة لهم .

هذا هو الجيش المملوكى الذى زحف ليقا تل الجيش العثمانى فى مرج دابق القريبة من حلب (١٥١٦) . أما الطرف الآخر العثمانى فكانت مصـادر قوته العسكرية فى نمو طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر . حيث أن الجيش العثمانى كان مكونا من إنكشارية وسباهية (فرسان) مخلصين بقوة للسلطان العثمانى .

وكان هذا الجيش بصفة عامة من أحسن جيوش العالم حينذاك وزحف به السلطان سليم الأول حـتى هبط على مقربة من حلب (١٥١٦) وأصبح على مقربة من معسكر جيش المماليك بقيادة الغورى نفسه .

وهناك تبادل مع السلطان سليم الرسائل ، وبدا كان هناك مشروعات للتفاوض وحقن الدماء وهو ما كان يريده الغورى . والحقيقة هو أن السلطان سليم كان لا يضمـر إلا شن المعركة بينهما . ولقد أفاد السلطان سليم من هذه الفترة القصيرة التى سبقت وقوع المعركة فى تحريض المماليك على الغورى وعندما وقعت المعركة فى مرج دابق ظهرت امكانيات المماليك على حقيقتها .

فلقد قاتل بعض المماليك قتال الأبطال وخاض القرائصة المعركة ومنـسوا فى بدايتها بهزيمة قوية ، فلما عاينوا عدم اشتراك الجلبان فى المعركة بأمر من السلطان الغورى تقاعسوا هم أيضا على اعتقاد منهم بأن الغورى يريد أن يكسب بهم المعركة وأن يجعلهم فى نفس الوقت طعمة لنيران هذه المعركة ليتمتع هو والجلبان بشمار النصر . ونفذ خايربك مؤامره ضد الغورى فأنحاز الى جانب السلطان سليم وانكشف جناح الجيش المملوكى وحصد رصاص وقنابل مدفعية العثمانيين الكثيرين من المقاتلين المماليك ، فحلت الهزيمة فى جميع اجزاء الجيش المملوكى وسقط الغورى صريعا أو لم يعثر له بعد ذلك على أثر .

ويتجلى العامل العسكرى كسبب رئيسى فى الهزيمة فى حديث دار بين كرتباى احد القواد المماليك والسلطان سليم بعد معركة مرج دابق فقد ظل كرتباى متمسكا بالتقاليد العسكرية المملوكية حتى بعد تلك المعركة وقال :

أن منا فرسان المنايا . . وإذا لم تصدق فـجرب

فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط . . وانظر بعينك كيف (نفعل) . . أن الملك لا يصلح إلا لمن يكون من الأبطال المخبورين ، كما كان عليه السلف الصالح . . أما

أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا ٠٠ وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها
الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقات العساكر الإسلامية وهذه البندق التي لو رمت بها امرأة
لمنعت كذا وكذا إنسانا ، ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليها ، ولكن نحن قوم
لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف والعود ٠

ولكن يجب ان نؤكد أنه ليس التنظيم العسكرى العثمانى هو وحده السبب فى
انتصارات العثمانيين على الجيش الفارسى فى جالديران ثم على المماليك فى مرج دابق
والريدانية ، وإنما كان التنظيم الإدارى من العوامل الرئيسية التى هيات الظروف أمام
جيش السلطان سليم لى يخوض المعركة بعد المعركة ومعظم حاجات الجند والضباط
متوفرة أو على الأقل كافية لمواجهة متطلبات الحرب ٠

فماذا كان موقف اهالى الشام من حوادث الحرب بين السلطان العثمانى والسلطان
الفورى ؟

لقد كان الشعب فى الشام يعانى مر المعاناة من مظالم المماليك ومن النكبات
الاقتصادية المتتالية التى كانت تتعرض لها البلاد دون أن تجد فى الحكومة المملوكية منقذا
للبلاد من شر ما ابتليت به ، بل تعرضت مدن شامية ، مثل دمشق وحلب ، لمظالم لا حد لها
سبق الإشارة إليها ، وبالتالى كانت الحرب بين السلطانين تثير الكثير من انتباه الناس
بعضهم يود لو اذاق الله الهزيمة للمماليك الظلمة وبعضهم يستعيد ذكريات جهاد المماليك
ضد قوى العدوان الصليبي فيدعو لهم بالنصر ولكن الأغلبية كانت تكره المماليك ، وترى
فى نفس الوقت فى انتصار العثمانيين على المماليك مجرد استبدال اترك يحكمون بدل
آخرين ٠

وبعد أن انجلت المعركة ، وعرف الناس أن المماليك هزموا شر هزيمة انقض الناس
على فلولهم لينتقموا من أولئك الذين عتوا وتجبروا دون داع فأصاب المماليك أثناساء
انسحابهم من الشام أهوال وعذاب شديد ٠ وكانت بعض المدن الشامية تفتح أبوابها دون
أية مقاومة للسلطان العثمانى ٠

كانت بعض القوى المحلية الحاكمة فى الشام تقف موقف المتردد من هذه الحرب بين
سليم والفورى ، ومعظمها مثل آل معن فضل أن يقف موقف المتفرج ليتخذ بعد إنتهاهم

المعركة الموقف الذى يتناسب مع مصالحه . ولكن لم يعد المماليك وقوف بعض القوى الى جانبهم مثل بنى بحتر ، وترتب على مثل هذه المواقف أن هبطت مكانة بنى بحتر . وارتفعت مكانة آل معن .

بعد انتصار سليم الأول انتصارا كبيرا فى مرج دابق وبعد أن تيقن أن السلطان الغورى أصبح أثرا بعد عين ، اكتفى بهذا النصر ، وأراد أن يوقف الحرب ، والا يستمر فى زحفه الى مصر ، فعرض على طومان باى - الذى تولى السلطنة بعد الغورى - أن يعلن خضوعه للسلطنة العثمانية فى مقابل أن يسند اليه السلطان سليم حكم مصر ، ولكن طومان باى لم يقبل ، لأنه كان يعتقد أن انتصار سليم الأول ليس إلا ومضة من ومضات الحظ القصيرة . والحقيقة هو أن عمر الدولة المملوكية هو الذى أصبح يعد بالأيام ، وأضطر السلطان سليم الى أن ينقل الحرب الى مصر ذاتها وأن يشن حربا شعواء فى وجه مقاومة جد عنيفة من المماليك وقوى الشعب المصرى المؤيد لهم ، وانتهت معركة الريدانية ومعارك الشوارع فى القاهرة بانتصار السلطان العثمانى انتصارا حاسما جعل مصر ضمن الدولة العثمانية وانقضت أيام الدولة المملوكية المستقلة .

لقد تلقى المماليك الضربة العثمانية فى سنة ١٥١٦/١٥١٧ وهم فى شيخوخة دولتهم وفى آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء فى الشرق الأوسط أو فى العالم . كانوا قد فقدوا حيوييتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم ، فكان أن زالت دولتهم ، وذهبت البلاد التى كانت تحت حكمهم للسلطان العثمانى .

فلقد أدت معركة مرج دابق الى وقوع الشام فى يد السلطان سليم وأدت الريدانية الى وقوع كل من مصر والحجاز وجزء من اليمن تحت الحكم العثمانى . فقد أعلن الشريف بركات خضوعه للسلطان سليم ، كما أن المماليك فى اليمن أنقسموا على أنفسهم وأعلن كثير منهم الخضوع للسلطان العثمانى مثلما فعل صاحب بغداد بعد جالديران ، ولهذا يمكن أن نقول أن فتح العثمانيين للمشرق العربى كان سهلا وسريعا بالقياس للفتوحات العثمانية الدموية المكلفة فى بلاد البلقان وفارس ، بل وجدوا فى القوى الحاكمة فى المشرق العربى عناصر مستعدة للتعاون معهم وفى تحمل مسئولية الحكم تحت إطار الدولة العثمانية من أمثال خايربك الذى أسند اليه سليم الأول حكم مصر ، وجان بردى الفزالى الذى

تولى حكم دمشق ، والشريف بركات الذى استمر فى منصبه فى مكة ، والإسكندر — القائد المملوكى فى اليمن .

ولم يرث العثمانيون ملك الممالك فقط وإنما ورثوا كذلك المشاكل التى كانت تواجههم سواء فى المشرق العربى ، أو فى المياه الجنوبية والهندية ، هذا كله بالإضافة الى الأعباء العسكرية الكبرى التى كانت ملقاة على كاهلهم وأصبحت الجبهات التى يحارب فيها السلطان سليم الأول متعددة وشديدة الاتساع ، بل إن مجالات الصدام بين الفرنجة كانت تمتد من قلب أوروبا الشرقية الى شمال أفريقية والى مداخل البحر الأحمر وشرق أفريقية والى العراق والخليج العربى حتى الهند . ثم أن الخطر الفارسى الصفوى على المشرق العربى كان يتزايد ، حيث أن الشاه اسماعيل الصفوى استطاع أن يستعيد قوته بسرعة بعد نكبته فى « جالديران » ، وعندما وقعت الحرب بين السلطان سليم والسلطان الفورى رأى فيها الشاه الصفوى فرصته لاستعادة بعض ما فقده أثناء انشغاله فى تلك الحروب المصرية . ولقد هدد الشاه اسماعيل فعلا مناطق شمال الشام وشرق الأناضول خلال تلك الحرب ، الأمر الذى جعل السلطان سليم يعمل على تصفية الموقف فى مصر بأقصى سرعة ممكنة للعودة الى الأناضول حتى لا تتسع الفرصة أمام الشاه ولردعه مرة أخرى إذا لزم الأمر .

لقد كان شاه فارس « اسماعيل الصفوى » مستعدا كل الاستعداد للتفاهم مع البرتغاليين للوصول الى تعاون واسع النطاق ضد العثمانيين وبدا أن العثمانيين أصبحوا بين أطراف شديدة العداء لهم :

فارس فى الشرق ومراكش فى الغرب وعمان واليمن فى الجنوب والفرنجة يطوقون العالم الإسلامى من الشمال والغرب والجنوب .

ومما كان يزيد من متاعب العثمانيين فى هذه الفترة المبكرة من توسعاتهم ان الاساطيل الأوروبية كانت تضرب بيروت سنة ٩٢٦ هـ — ١٥١٩ م وتستولى على السفن الإسلامية بين بيروت ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى يهدد بضرب جدة . وخطورة تلك القوى المعادية أنها كانت قوى عقائدية صعبة المراس ولكن كان الخطر البرتغالى هو أشدها إلحاحا .

(٣)

الامتداد العثماني إلى الحجاز

كان الحجاز طوال العصور السابقة تابعا لمصر وكانت هذه التبعية تضيف على الممالك مكانة متميزة على اعتبار أنهم كانوا يفخرون بأنهم حماة الحرمين الشريفين .

وخلال العهد المملوكي كان الحجاز يتمتع بنوع من الاقتصاد النامي حتى تحولت التجارة الشرقية الى رأس الرجاء الصالح . فكان ذلك بمثابة ضربة اقتصادية شديدة للغاية لبناء جدة بصفة خاصة .

ومما زاد في الأزمة الاقتصادية في الحجاز أن الأشراف — حكام مكة — كانوا في حالة صراع شبه متواصل على (الشرافة) ، ولقد دار فعلا صراع شديد بين (بركات) و (الجازاني) في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يتوعدون الأراضي الحجازية بضربها بأسطولهم . وقد ثبت السلطان الغوري الشريف بركات قبل فترة قصيرة من نشوب الحرب ضد العثمانيين .

عندما بدأ الصراع بين السلطان سليم الأول والسلطان الغوري كانت أهمية الحرمين الشريفين واضحة كل الوضوح أمام عينى سليم الأول ، والدليل على ذلك أن سليم الأول عقد مجلسا للتداول في أمر الخطة التي يجدر به أن ينفذها بالنسبة لمصر، وفي هذا المجلس أشار عليه محمد شلبي بن نشانجي بان (ولاية الحرمين) و (مقام الخلافة) سيؤولان الى الأسرة العثمانية إذا ما فتح السلطان سليم مصر (١) .

كان طبيعيا أن يكون الحجاز من آمال السلطان سليم الأول . وكان يرى في السيطرة عليه تقوية لمكانته في العالم الإسلامي ، خاصة بعد أن أصبحت دمشق تحت حكمه ، والقاهرة في قبضته ، وخطب باسمه على منابر بغداد . وأغلب الظن أن الأشراف ، حكام مكة ، كانوا يزرون أن من يحكم في القاهرة — مقر الخلافة العباسية منذ أعقاب استيلاء المغول على بغداد والعراق — هو صاحب الدولة الإسلامية العامة التي يجب أن يعمل كل المسلمين تحت رايتها . فكان طبيعيا أن يتطلع شريف مكة (أبو البركات) الى موافقة

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثماني ، ص ١٢٤ .

صريحة من السلطان سليم الأول عليه شريفا حاكما في مكة وملحقاتها . فاعلن الشريف
نواله للسلطان سليم الأول ويعث بابنه الى القاهرة لتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان
والجديد ، لعل لدى هذا المنتصر الفتى علاجا لإنقاذ الحجاز من تدهوره الإقتصادي ، وحتى
تظل أفواج الحجاج ، وخاصة من الشام ومصر والعراق ، تفد الى مكة والمدينة سنويا
لما يحصل عليه الحجاز من وراء ذلك من انتعاش إقتصادي كبير .

ومن ناحية أخرى ، كان من المتعذر عسكريا أن يبقى شريف مكة غير معني
بالتطورات الجوفهرية في الشام ومصر واليمن . فقد كان عليه أن يحدد موقفه ازاء هذه
التطورات الكبرى التي تدق أبواب الحجاز من شمال ومن جنوب . فلم يكن اشراف مكة
سوى حكام تحت السيطرة المملوكية ، وخاصة في أيام الغوري . وامتثالهم عن الخضوع
للسلطان سليم الأول ، بعد استيلائه على الشام ومصر ، سبقت أنظار هذا السلطان أن
يجلا أو أجلا ، خاصة وأنه كانت توجد في الحجاز حامية مملوكية في جدة ، من بقايا
القوات المملوكية التي بعث بها الغوري لتقوية قبضة الحكم المملوكي في وجه التمردات
الداخلية هناك وفي وجه الخطر البرتغالي المهدد للأراضي المقدسة الإسلامية .

كما أن سيطرة سليم الأول على مصر ستجعله بلا شك ينظر بعين الحذر الى تلك
والقوى المملوكية المتناثرة على شواطئ البحر الأحمر الشرقية من جدة الى اليمن ، فإن
الاستيلاء على شواطئ البحر الأحمر الغربية من جانب العثمانيين تحثهم الى التطلع الى
سيطرة ثابتة على شواطئه الشرقية . وهي سياسة مصرية عامة تستهدف جعل البحر
الأحمر بحيرة إسلامية آمنة من أية أخطار تهدد الأراضي المقدسة أو تهدد نمو التجارة بين
الشرق الأقصى والبلاد الإسلامية وأوروبا وهذا النمو يعود على حكومات اليمن والحجاز
ومصر بشراء نعمته تلك الحكومات طوال القرون الماضية، حتى جاء البرتغاليون بأساطيلهم
مهددين الأراضي المقدسة الإسلامية فاضين حصارا بحريا عسكريا على التجارة العربية
الإسلامية في المنطقة حتى لا يصبح البحر الأحمر - على الأقل - بحيرة إسلامية ، وهو
الذي تمتع بهذا السلام الإسلامي المطلق طوال القرون العشرة السابقة على مقدم
البرتغاليين . ومما لا شك فيه أنه كان من أهداف شريف مكة في اعلان الخضوع
للسلطان عدم السماح للقوى الصليبية بالتوغل في البحر الأحمر والابقاء على هذا البحر
بحيرة إسلامية خالصة .

لقد تلاقت أهداف أبو البركات - شريف مكة - مع تطلعات سليم الأول التي فرضتها عليه ظروف انتصاراته في مرج دابق والريدانية والأخطار السلبيّة التي تهدد العالم الإسلامي بصفة عامة والبحر الأحمر والأراضي المقدسة بصفة خاصة ، ولذلك كان دخول أبو البركات في طاعة السلطان سليم ، وانقضاضه السريع على القوات المملوكية في جدة تنفيذاً للفكر السياسي المستنير من جانب أبو البركات .

وقد كسب الحجاز كثيراً من وراء ذلك الارتباط السريع بالدولة العثمانية . فقد كانت حملات البرتغاليين على البحر الأحمر متتالية وموجهة في ١٥١٧ إلى جدة بالذات ، فقام البرتغاليون بهجمات عليها ، ورد العثمانيون على ذلك بإرسال قوات إليها تحميها من تكرار هذا العدوان .

ومن ناحية أخرى كان إرسال العثمانيين حملاتهم إلى اليمن ومساعدتهم لامارة (عدل) الإسلامية ضد الحلف البرتغالي الحبشي ، كان كل هذا يحول دون تحول الحجاز إلى ميدان قتال بين البرتغاليين والعثمانيين ، وأبعد الخطر الصليبي عن الأراضي المقدسة الإسلامية .

ولكن إدارة الأشرف للأراضي المقدسة الحجازية لم تكن تهدف إلى رفع المستوى العسكري والاقتصادي لمواجهة العصر حينذاك . فظلت البلاد الحجازية تعاني من الصراعات القبلية المرهقة .

الفتح العثماني لليمن

اليمن مفتاح العالم العربي والإسلامي من جهة الجنوب ، وفي مطلع القرن السادس عشر تعرض اليمن مباشرة للخطر الصليبي البرتغالي وتضرر تضررا كبيرا بالحصار البحري البرتغالي ، وكان بسبب تعدد القوى المحلية المتصارعة عليه عاجزا عن التصدي للتطورات العالمية الجديدة بقدرات مناسبة . فالإمامة الزيدية كانت لا تستطيع توحيد البلاد بسبب ظهور دولة عربية إسلامية بزعامة « آل طاهر » الشوافع الذين استولوا على صنعاء .

حقيقة أيقظ الخطر البرتغالي الضمير الوحدوي الإسلامي بين الأطراف المتنازعة ، فهناك من اليمنيين من كان يعد حملة لقتال « الأفرنج » في الهند ، واتصل « عامر بن عبد الوهاب » الطاهري بالسلطان الفوري ، وبعث المماليك حملة بقيادة حسين الكردي الى اليمن ، وبدلا من أن يتفرغ هذا القائد لمواجهة الخطر البرتغالي غرق في دوامة الصراعات المحلية اليمنية ، فأضعف آل طاهر وتبع هؤلاء في معقلهم في عدن وأبدى بعضهم الاستعداد للتعاون مع البرتغاليين حفاظا على البقية الباقية مما تحت يدهم . وتطلع المماليك إلى تصفية الموقف في اليمن لصالحهم فاستولوا على صنعاء (١٥١٧) ، وأصبح المماليك والإمامة الزيدية في مرتفعات اليمن الوعرة وجها لوجه ، لتجيء في هذه الأثناء أنباء مضرع الفوري وسقوط الشام ومصر في يد العثمانيين ، فوجد القائد المملوكي « الاسكندر محمد » - ومعه أغلبية المماليك - أن من الأجدي اعلان الولاء للسلطان العثماني حتى يظل للمماليك في اليمن كيان واضح ، وبعث العثمانيون بالامدادات الى اليمن وإذا باليمن يعاني من اضافة هذا العنصر الجديد الى العناصر المتقاتلة على اليمن . فقد اصطدم العثمانيون بمقاومة « اسكندر محمد » فضلا عن القوى المحلية الأخرى ، بل تقاتل المماليك فيما بينهم ، وتقاتل اولاد الإمام الزيدى شمس الدين ، وظهر في ١٥١٩ مدع للإمامة في بلاد « الخيمة » ، وكادت الفوضى تسود اليمن بأسره .

اثارت هذه الفوضى مخاوف العثمانيين في الوقت الذي كانوا يدركون فيه حقيقة الخطر البرتغالي ليس على اليمن فقط بل على العالم الإسلامي بأسره ، وبعثوا بالحملة الى اليمن للسيطرة عليه بالسيف ، ولم يدركوا أن ذلك من الأمور المتعذرة ، فلقد أحرز (٧ - الشعوب الإسلامية)

سليمان الخادم قائد الجيش العثماني انتصارات متتالية ، إذ استولى على « عدن » غدرا فقتضى على آل طاهر نهائيا ، ولكن غدره هذا أفقد حكام الشرق الإسلامي ثقتهم في العثمانيين ، واستولى على « زبيد » ، فأنهى الوجود المملوكي في اليمن ، وتطلع الى « تعز » فاصطلم بمقاومة الإمامة الزيدية العنيفة .

وتابع العثمانيون جهودهم للتحكم في كل اليمن ، فاستولوا على صنعاء التي تعرضت لأشد ألوان المهانات على يد الجيش الفاتح ، ورغم هذا ظلت مقاومة الإمامة قوية ليقنع القواد العثمانيون بأن الخير في صلح يبقى لكل من الطرفين ما تحت يده ، وتم ذلك في ١٥٥١ ، ولكن فشل العثمانيون في تحويل هذا الصلح الى صلح دائم (١٥٦٠) . وعاد القتال ، في وقت كانت فيه السلطنة العثمانية تواجه حروبا فارسية مرهقة على الجبهة العراقية وأزمات في الشام وفي الأناضول وشمال أفريقيا وحوض البحر المتوسط . واخذت كفة الإمامة الزيدية ترجح واخذ العثمانيون يفقدون منذ أوائل القرن السابع عشر الأراضي أمام زحف الإمام الزيدى « المؤيد بالله محمد بن القاسم » ، حتى انتهى الأمر بخروج العثمانيين من اليمن في ١٦٣٥ م / ١٠٤٥ هـ . ولم يعد اليه العثمانيون إلا في أعقاب انسحاب القوات المصرية من « تهامة » في أربعينات القرن التاسع عشر .

فلماذا قبل العثمانيون خروجهم من اليمن ؟ الواقع أن الرقعة كانت قد اتسعت أمام قدرات الجيوش العثمانية التي كانت تقاوم في جبهات متباعدة متناثرة ، وكانت الدولة العثمانية قد بدأت تضعف إذ كان على رأسها عند ضياع اليمن مراد الرابع آخر السلاطين العثمانيين العظام ، الذي استطاع أن يقضى على فخر الدين المعنى أمير لبنان (١٦٣٥) وأن يسترد العراق من الفرس (١٦٣٨) وتوفي مراد الرابع بعد عامين فقط من هذا النصر الكبير (١٦٤٠) . وركزت السلطات العثمانية جهودها من بعد في إعادة تنظيم إدارتها ومواجهة نفقات حروب متطاولة في الجبهات البولندية والبلغانية ، وحصل خلالها العثمانيون على انتصارات محدودة أعقبتها سلسلة من الهزائم في البلقان وقلب أوروبا الشرقية ، وبالتالي لم يكن لدى العثمانيين الفرصة أو الامكانيات لاعطاء جبهة اليمن ما يلزمها من نفقات وقوات . ولعل ما أصاب البرتغال من تدهور في أعقاب دخولها تحت الحكم الأسباني في ١٥٨٠ وهزيمة « الأرمادا » الأسبانية في ١٥٨٨ على يد الأسطول

الانجليزى ، وتفوق البحرية الحربية والتجارية الهولندية والانجليزية ذات الأهداف التجارية فى المياه الإسلامية الجنوبية ، على البرتغاليين ذوى الأهداف الصليبية كل هذا جعل العثمانيين أقل تحمسا نحو اعادة السيطرة على اليمن .

ولا شك أن الحملات العثمانية على اليمن لم تكن لديها مخططات واضحة لتكتيل الزعامات ضد القوى الأوروبية ، وكانت الزعامات اليمنية المحلية لا تترك قيمة التضحية بمصالحها الخاصة فى سبيل مواجهة الأخطار الخارجية ولهذا ، وبعد انسحاب العثمانيين من اليمن ، ظل اليمن يعانى من تصارع القوى المتنافسة .

★ ★ ★

(٥)

الفتح العثماني للعراق

كان العراق في القرن السادس عشر قد أصابه تغيير كبير خلال عصور الإضمحلال التي مرت به منذ الاحتلال المغولي (١٢٥٨ م) ، فبعد أن دهمت جيوش المغول بغداد تحولت هذه العاصمة الإسلامية الى مجرد مركز فقير ، في الوقت الذي أصبح فيه العراق على توالي السنين من بعد ، يعاني من الثورات الداخلية ، والصراعات القبلية ، وسقوط الحكام وتداعى الأسرات الحاكمة ، وتوالى عليه حكومات الجلائريين (١٣٣٩ - ١٤١٠ م) والقره قوينلو (١٤١٠ - ١٤٦٨ م) والآق قوينلو (١٤٦٨ - ١٥٠٨ م) ، ولما ثبت الشاه اسماعيل الصفوي نفسه في حكم إيران انقض على العراق (١٥٠٨ م) .

دخل الجيش الإيراني بغداد ، وكان من الأعمال الأولى للفاتحين الجدد ذبح أئمة السنة الموجودين وهدم مقابر الغابريين منهم . فكانت وصمة ذات صدى قوى في بلاط السلطان العثماني ، وبخاصة أن أمراء كردستان كانوا قد فروا من وجه الصفويين الى السلطان مستنجدين به ، ولقيت نداءاتهم آذانا جدمصغية إذ أن سقوط العراق في يد الصفويين هدد قلب الدولة العثمانية وأوجد الى جانبها قوة فتية ذات أهداف مذهبية امبراطورية واسعة ، فكانت الحرب الضروس وانتصار السلطان سليم في جالديران ودخوله تبريز والاستيلاء على كردستان والموصل . وكان لتقدم الفاتح العثماني في بلاد الدولة الصفوية صدى قوى في بغداد حيث استولى على الحكم ذو الفقار الكردي الأصل وأعلن ولاءه للسلطان العثماني ولكن الخيانة أعادت بغداد الى الحكم الصفوي سنة ١٥٣٠ ، على أن انتعاش الحكم الصفوي في بغداد لم يستمر أكثر من سنوات قليلة وذلك لأن السلطان سليمان القانوني بعد أن انتهى من حروبه في أوروبا التفت الى الشرق والى خطورة عودة الحكم الإيراني للعراق ، فلقد تحالف الشاه مع ملك المجر عدو السلطان فكان الشاه بذلك خائناً للحركة الإسلامية الكبرى التي تزعمها السلاطين العثمانيون . وواضح ان الاحتفاظ بكردستان والموصل لا يمكن أن يستمر قويا الا اذا توطد الحكم العثماني في العراق كله . لذلك زحف السلطان بجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ بعد تردد شائن من حاكمها .

رأى السلطان أن الشيعة الصفوية عملوا على صبغ بغداد بالصبغة الشيعية، ولذلك اتجه السلطان إلى رفع شأن أهل السنة واعادتهم إلى سابق تفوقهم . ولكن موقفه من مزارات الشيعة ومن شيعة العراق أنفسهم كان طيبا إذ اتخذ بازائهم موقفا كريما من حيث الاعتراف بما في العراق من خلافت مذهبية والنظر إلى الطرفين بعين الاعتدال وتسهيل أمور العبادة لكل من أهل السنة والشيعة ، وإشعارهما بالطمأنينة والهدوء ، وهذه السياسة كانت من أسس الحكم العثماني التي استمرت قائمة في العراق ، فقد تركوا للشيعة مذهبهم وتركوا لهم مزاراتهم ولم يحولوا قط بينهم وبين هذه المزارات ، بل حرصوا على أن يمهّدوا للشيعة من خارج العراق أيضا زيارة هذه المزارات المقدسة .

وأما من الناحية الاقتصادية فقد تابع السلطان العثماني سياسة اسماعيل الصفوي من حيث الاهتمام بمشروعات الري وحماية البلاد من غوائل الفيضان .

ومن الناحية السياسية اعترف السلطان بالعصبيات الكردية في الشمال فأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة وجعل من الموصل أياًلة - ولاية - قائمة بذاتها ضمت ست سناجق ، وكانت هذه الأيالة تتوغل قليلا في كردستان شرقا حتى «بانه» وتمتد جنوبا إلى تكريت إلى ما وراء جبل حميرين بقليل . ولم تكن حدود هذه الأيالة واضحة نظرا لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التي أصبحت أياًلة باسم «شهرزور» وهي أياًلة لم تتضح إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، نظرا لأنها كانت مجالا واسعا للعمليات العسكرية من جانب إيران ، وبخاصة تابعتها أردلان (١) والدولة العثمانية، ومع ذلك فيمكن أن تقسم أياًلة شهرزور إلى حوالي العشرين سنجقا (٢) .

وكما اعترف السلطان بحكم العصبيات في شمال العراق اعترف به في العراق العربي إذ ترك الشيوخ حكاما على عشائرتهم ، وكانت أهم المشيخات في القرنين السادس

(١) إحدى الإمارات الإيرانية القوية التي كانت تدعى السيادة على كردستان .
(٢) وهي سناجق ، سروجك ، كسنان ، أربل ، شهر بازار ، جنكولة (ضمت إلى بغداد) هازار مردود ، جوران ، مركاه ، حريو ، رودين ، تيل طاري ، سبه ، زنجير عجور ، أبرومان ، باق ، برتلي ، اوشتي ، قلعة غازي ، وكانت هذه السناجق سريعة الاختفاء وكان بها حوالي مائة أمير من مرتبة زعامت . انظر : عباس العزاوي : تاريخ العراق ج ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

عُشر والسابع عشر هي مشيخات الخزاعل والعبيد وزبيد وبنى لام وشمر والمنتفق (١) . وكانت عشائر المنتفق أقوى هذه العشائر تسيطر على البصرة عندما فتح السلطان بغداد فأعلن شيخها راشد المغامس ولاءه له ، فأبقاه تحت حكمه (٢) . ولكن وجود هذه الامارة العربية شبه المستقلة كان يحول بين العثمانيين واعدائهم البرتغاليين (٣) فاستولت عليها القوات العثمانية سنة ١٥٤٦ (٤) وتقدم العثمانيون بعد ذلك على طول الساحل الغربي ، فاستولوا على الأحساء سنة ١٥٥٠ وهذه أيضا أصبحت آيالة . ولم تقسم البصرة - وكذلك الأحساء - الى سناجق نظرا لقوة العصبية العشائرية في كل من الأيالتين . وبقيت البصرة بذلك وحدة إدارية واحدة وكانت هذه الأيالة ذات مميزات خاصة . فهي تطل على البحر واتجاهها نحوه ومشكلاتها تتعلق بخطر عشيرة كعب عليها وباطماع إيران .

وبين الموصل وشهرزور في الشمال والبصرة في الجنوب كانت تمتد آيالة بغداد وهي أهم باشويات العراق وتضم أخصب المناطق وأشهرها لأنها قلب العراق منذ أقدم العصور ، وأقوى باشوية فيه تحكم حكما مباشرا . وكانت بغداد تتفوق على مدن العراق كلها بأنها كانت المركز الثقافي والاقتصادي الأول في العراق ، وكانت أكبر الباشويات مساحة إذ كانت تضم ثمانية عشر سنجقا .

وقد وضع الباب العالي نظام حكم آيالات العراق على غرار النظام الذي كان متبعاً في بقية الدولة العثمانية . فكان الوالي على رأس الجهاز الإداري ، ومدة حكمه سنة تجدد بموافقة السلطان فتصل أحيانا الى ثلاث سنوات . وكان الوالي أحيانا يعرّد الى ولايته أكثر من مرة أو يعين في ديار بكر أو الموصل ثم يتولى بغداد أو البصرة فيكون ذلك من الأسباب التي تكسبه خبرة أدق بأمور العراق . وكان باشا بغداد من المرتبة الأولى (أي

(١) سنتكلم بالتفصيل عن هذه العشائر العربية في الفصل الثالث ومعظم هذه العشائر في جنوب بغداد حتى البصرة .

(٢) العزاوي : تاريخ العراق ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٣) كان السلطان يعمل على قتال البرتغاليين في المياه الهندية « التفصيل في سياسة داود في الخليج العربي » .

(٤) العزاوي : تاريخ العراق ، ج ٤ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

صاحب ثلاثة أطواغ) وكان عدد كبير من باشوات العراق من حاشية السلطان حتى تولى حسن باشا ولاية بغداد سنة ١٧٠٤ فأصبحت الباشوية لابنه وللمماليك من بعده .

وكان باشوات بغداد متفوقين على زملائهم في بقية الأيالات العراقية إذ أن اعتماد الأيالات الأخرى على بغداد جعل الباب العالي ينص في فرمان على حق باشا بغداد في عزل ونصب باشوات كردستان (١) ، وهذا امتياز لم يحصل عليه أى باشا من باشوات الأيالات الأخرى العراقية . على أن حكم الأيالات كان مطلقا تقريبا فلا يرجع الوالى الى الاستئانة إلا فى الأمور الخطيرة وعلى الباشا أن يدبر أمور باشويته وأن يرسل الأموال الى الباب العالي وألا يزعجه بمشكلات خطيرة .

وكان الوالى يأخذ مرتبا سنويا . وهو يقتطع هذا المبلغ من الأموال التى جمعها من أياالته وكانت عين الباب العالي تراقب - فى كثير من الأحيان - أعمال الباشا . وبخاصة أن القاضى والدفتردار (٢) كانا يعودان سنويا الى الاستئانة فتصبح أمور الأيالة مكشوفة أمام الباب العالي . وكان الشعب أيضا كلما أحس بظلم ملحوظ تمرّد على الباشا وأرسل الشكاوى فى حق الوالى . وكانت شكاوى الشعب الى السلطان ذات صدى فى دوائر الاستئانة .

على أن الديوان كان الهيئة الحكومية العليا القادرة على معارضة الباشا . وكان يتكون من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الإنكشارية والدفتردار والعلماء وكبار حكام المدن ، وكانت العضوية فى الديوان غير ثابتة وكان الباشا هو الذى يختار الأعضاء ومن ثم كانت السلطة العليا للباشا الذى كان قادرا على أن يغير فى تشكيل الديوان . وقد ثبت أن الديوان لم يستطع أن يكون قوة قائمة بنفسها نظرا لأن الإنكشارية اعتمدوا على قوتهم ، والعلماء اعتمدوا على الشعب ، واعتمد الشعب عليهم ، والوالى اعتمد على ما يجمعه من قوات . وانتهى الأمر الى إهمال الديوان وأصبح مجرد هيئة استشارية ولم يعد أداة من أدوات الحكم ، ولكنه بقى لاستقبال كبار الزائرين والمبعوثين .

(١) جودت باشا : ترتيب جديد استانبول : مطبعة عثمانية سنة ١٣٠٢ هـ ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) سوف نرى أن المماليك كانوا يسندون هذا المنصب الى أصهارهم الذين يخلفونهم فى منصب الباشوية .

وكانت القوة التنفيذية لأوامر الباشا مسندة الى الكتخدا (الكخيا) فهو نائب الباشا ووكيله ، وهو القائد العام للقوات العسكرية ، والمشرف على أمن المدينة والولاية . فكانت مكانته لذلك خطيرة . على أن هذه المكانة لم تظهر خطورتها إلا عندما بدأ حكم المماليك .

أما الأمور الاقتصادية فكانت مسندة الى الدفتر دار الذى كان بمثابة وزير المالية فى الولاية . وهذا المنصب لم يعد له مدلوله الذى كان عليه فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وقد أصبح الدفتر دار فى غضون القرن الثامن عشر والتاسع عشر يتولى قيادة الجيوش وأمور الولاية السياسية حتى كادت وظائفه لا تفترق كثيرا عن مهمة الكخيا . وفى بعض الأحيان . وكذلك كان الأمر بالنسبة للخازندار . وأما الأمور القضائية الشرعية فكانت مسندة الى القاضى الذى كان يعين باقتراح من شيخ الإسلام وبفرمان سلطانى ، وتلحق به دار الإفتاء ويرأسها مفتى المدينة . وكان للقاضى نواب فى سائر أنحاء الولاية .

وأما خارج عاصمة الولاية فإن المشيخات العشائرية تتبع أقرب المدن اليها أو يعين لها ضباط فى أماكن معينة يجمعون منها الأموال ويكونون واسطة بينهم وبين الحكومة . والواقع أن التنظيم الإدارى خارج بغداد كان بسيطا فكل سنجق حاكم مسئول عنه من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية ، ويتولى منصبه كل سنة أيضا حسب رغبة والى . ونظرا لأن والى عادة مدته قصيرة فإنه يمكن أن نقول أن إدارة العشائر كانت متروكة لشيوخها تماما حسب عرفها وما تتبعه من قوانين ، وهذا يرجع الى قوة هذه العشائر العربية فى العراق .

على أن الاعتراف بالعصبيات الحاكمة وتقسيم العراق الى أيلات متعددة كان خطة لها عيوبها . لقد كان التقسيم يقوم على أساس جغرافى ، كما كان نتيجة لعوامل سياسية . فقد كانت الموصل على الحافة الغربية لجبال كردستان ، وبذلك لا تستطيع السيطرة التامة على إمارات كردستان حتى الحدود الإيرانية . ولذلك كان انشاء إمارة شهرزور من العوامل التى تجعل السلطة العثمانية أكثر قدرة على رقابة الحدود الإيرانية — العراقية فى تلك المنطقة المضطربة . وكانت البصرة لها وضعها الذى كان يختلف كل الاختلاف عن أوضاع الأيلات الأخرى . فمشكلاتها بحرية — عشائرية ، واتصالها

مباشرة بالصراع الأوروبي الاستعماري في الخليج العربي ، وتعوق الأهوار والبحيرات الموسمية والقبائل المعادية للاتصالات السريعة مع بغداد . وكانت في الوقت نفسه نقطة رقابة حساسة على نشاط عشيرة كعب الشيعية المهددة للبصرة، ومن ثم كانت فعلا جديرة بأن تصبح وحدة إدارية واحدة مستقلة عن بغداد . وأما الأحساء فكانت هي الأخرى وحدة إدارية واحدة لأن العشائر كانت تموج فيها والحكم الفعلي فيها كان للعشائر ولم يكن في استطاعة الباشا « الحسا » بإمكانياته البسيطة أن يسيطر على هذه الأيالة التي تخطط بها العشائر العربية القوية من كل جانب .

ومن العوامل الرئيسية التي أدت إلى تقسيم العراق إلى أيلات أن السلطان قدر خطورة تجميع العراق كله تحت يد وإلى واحد تكون ثورته مروعة إذا ما ناهض السلطات العثمانية . وقد كان تمرد الباشوات أمرا معهودا في الدولة العثمانية . وكانت سياسة عدم الثقة هي التي تسيطر على أعمال الباب العالي . والباشا في ذلك الوقت لم يكن قادرا على أن يسيطر على العراق كله دفعة واحدة نظرا لامتداد العراق امتدادا كبيرا ، ولأنه ضم بيئات مختلفة وجنسيات متنافرة ذات أهداف متباينة . وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عن مصر التي عرفت في مختلف العصور الحكومة الواحدة والسلطة المركزية . وذلك لتجانس السكان وارتباط الغالبية العظمى منهم بالأراضي الزراعية وقدرة هذه البيئة على هضم العناصر الأخرى .

وكان لهذا التقسيم أيضا عيوب من الناحية العسكرية ، إذ أنه يوزع القيادات ويشتت المجهودات ولكن لم تظهر تلك العيوب واضحة إلا بعد أن ضعفت القوات الامبراطورية ، فقد ترك السلطان قوات إنكشارية في عواصم الأيلات والمدن الكبرى ، وكانت ترد أحيانا من الاستئانة فرق إنكشارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة . وكلما توترت العلاقات مع إيران - الطامعة دائما في العراق - أرسل السلطان القوات العثمانية إلى العراق لتقوم بمهمة الدفاع عنه ، وكانت هذه القوات الإنكشارية المرسلة من الاستئانة أو الموجودة في قلاع عواصم العراق تحت قيادة أغوات تابعين للسلطان . وفي أوقات السلم كانت الفرق الإنكشارية في بغداد تقوم بأعمال الشرطة في المدينة وجمع الضرائب .

(٦)

التوسع العثماني في شمال أفريقية

بينما كان التوسع العثماني في المشرق العربي نتيجة لمعارك حربية كبرى في جالديران ومرج دابق والريدانية ، وحملات متتالية على اليمن ، نجد أن التوسع العثماني في شمال أفريقية كان معظمه نتيجة للاحاح القوى العربية هناك على العثمانيين ليقدموا دعما قويا للجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي المتصاعد على شمال أفريقية خاصة بعد سقوط غرناطة . وكانت الأعداد الضخمة من الفارين المسلمين من أسبانيا الى شمال أفريقية تحت حكام هذه المنطقة على العمل ضد أساطيل أوروبا وتجارها فأدى ذلك الى أن أصيبت التجارة الأسبانية بخسائر شديدة بل وهاجمت السفن الإسلامية موانئ أسبانيا في ١٥٠٥ مما أثار حدة الصراع في الحوض الغربي من البحر المتوسط . وأرسل فردناند - ملك أسبانيا - حملة الى « المرسى الكبير » واستولى عليه بعد مقاومة عنيفة (١٥٠٥) وكذلك استولى على « وهران » (١٥٠٨) وبجاية (١٥١٠) وطرابلس (١٥١٠) وأصبح شمال أفريقية وكأنه قد دق فيه أكثر من اسفين خطير .

وكان طبيعيا أن يتطلع المسلمون في تلك الجهات الى قائد على مستوى أعلى يستطيع أن يرد الهجمات البحرية المتتالية ، وكانت طبيعة الصراع في شمال أفريقية تتطلب قائدا بحريا شديدا المراس . ولقد كان « عروج » - أحد أصحاب السفن الحربية في البحر المتوسط - من هذا الطراز الذي كان يريده الناس هناك . ولكنه عندما وضع نفسه وقواته في الدفاع عن تلك البلاد تعرض لمتاعب جمّة ناشئة عن أن شمال أفريقية كان في حالة من التفكك الشديد جعلت من اليسير على الأسبان أن يجدوا لهم أصدقاء وحلفاء بين الزعامات الإسلامية هناك .

وجد عروج في أول الأمر أن الأسرة الحفصية في تونس - وعلى رأسها حينذاك محمد بن الحسن (١٤٩٤ - ١٥٢٦) - وضعت بعض إمكانياتها في خدمة قضية منكوبى الأندلس والجهاد ضد القوى الصليبية وتعاون الطرفان على الجهاد ، وحيث أنه كان جهادا يؤدي الى مكاسب مالية ذات قيمة اتفقا على اقتسامها .

ولقد قام عروج بواجبه المزدوج هذا بنجاح ملحوظ ، ولبي نداء حاكم « بجاية » ولكن دون نجاح ، واستولى على « جيجل » لتصبح قاعدة له بدلا من « جربة » بسبب تصاعد خلافاته مع السلطان الحفصي ، وانجد أهل مدينة الجزائر (١٥١٦) ولكن فشل في احتلال القلعة التي كانت تشرف على الميناء والتي كانت بيد حامية أسبانية قوية . وأدى هذا الفشل الى صدام بين عروج وسالم التومي حاكم الجزائر وأصبح الموقف لا يحتمل إلا واحدا من امرين :

إما أن يفادر عروج البلاد فاقتدا الكثير من مكائنه وآماله واما أن يبقى في الجزائر لتصبح قاعدة قوية له .

وأصر عروج وجنده على الأمر الثاني واستولى على الجزائر ، ونصب نفسه حاكما فيها ، وثبت حكمه بالتغلب على حملة أسبانية ضده ، وتطلع من بعد الى مد سلطته الى ما وراء الجزائر ، فانتهاز فرصة استنجد زعماء « تلمسان » مقر الأسرة الزيانية — واستولى على هذه المدينة (١٥١٧) ، ولكن لم يتورع الزيانيون عن التحالف مع الأسبان وحوصر عروج في تلمسان واضطر الى مغادرة المدينة وقتل خلال ابتعاده عنها (١٥١٨) ، ولكن لم يلبث أخوه خير الدين أن تابع كفاحه وهو الذي اشتهر باسم بارباروسا .

كان خير الدين يدرك أن الصراع في شمال أفريقية ضد القوى الأوروبية يحتاج الى مشاركة دولة إسلامية كبرى كالدولة العثمانية كما كان يدرك أن العداء المطلق للدول الأوروبية لن يفيد الكفاح الإسلامي كثيرا ، خاصة أن هناك دولا أوروبية كبيرة — مثل فرنسا — كانت على عداء شديد مع الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا . ولقد كاتب خير الدين السلطان سليم الأول — في أعقاب انتصاره الأخير على المماليك — معلنا ولاءه للسلطان ، فأمدّه بقوة من الإنكشارية وأسند اليه نيابة الجزائر وظهر خير الدين بارباروسا كرجل من كبار قادة الدولة العثمانية في البحر المتوسط، وكان قد عزم ليكافح ليس فقط للدفاع عن الجزائر بل كذلك من أجل تحرير تونس من سيطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة ومن خيانات الأسرة الحفصية ومن أجل مجاهدة العدوان الصليبي في أي مكان في متناول قواته البحرية والبرية .

واستطاع خير الدين أن يوطد — بعد جهد — نفوذه في الجزائر (١٥٢٥) وأن يستولى على القلعة التي كانت لا تزال في يد الأسبان (١٥٢٩) ، وبعث بحملة الى تونس (١٥٣٤) ويبعد عنها الأسرة الحفصية مؤقتا ورد شارل الخامس — امبراطور الدولة الرومانية المقدسة — على هذا التفوق الإسلامى بارسال حملة الى تونس . ومع أن خير الدين لم يوفق في صد هذه الحملة إلا أنه أصبح في نظر السلطان العثمانى سليمان القانونى أجدر من يتولى مهمة إعادة تنظيم الأسطول العثمانى ليعده لمهامه الكبرى في مواجهة الأساطيل الأوروبية المعادية في حوض البحر المتوسط . وأسند الى خير الدين منصب قبطان باشى الأسطول العثمانى . ورغم المؤامرات العديدة التى دبرت لابعاده عن السلطان العثمانى ، ظل خير الدين مخلصا له .

ويبدو أن الفضل يرجع اليه في تكوين تحالف بين السلطان سليمان القانونى وفرنسوا الأول . فما كان من شارل الخامس إلا أن بعث بحملة بحرية كبيرة بقيادة أمهر قواده « أندريا دوريا » الى الجزائر في ١٥٤١ إلا أن عاصفة شديدة شتتت أسطوله وأصبحت الجزائر آمنة ، بل أصبحت في نظر الأوروبيين مدينة لا تقهر ، ولم يلبث خير الدين أن توفى في ١٥٤٦ .

وتقديرا للمجهودات الكبيرة التى قام بها خير الدين أسند السلطان منصب بكربكية الجزائر الى ابنه حسن باشا الذى واجه القوى التى تصدت لأبيه من قبل ، وهى :

١ — الأسبان في وهران .

٢ — الأسرة الزيانية في تلمسان وكانوا يحاولون اللعب على الطرفين العثمانى والأسباني .

٣ — الأسرة السعدية الناشئة في مراكش .

ورأى حسن باشا أن من الخير أن يتعاون مع الأسرة السعدية ضد الأسبان في وهران ، إلا أن السعديين استغلوا هذا التحالف في السيطرة على تلمسان (١٥٥٠) وتوسعوا بشكل يهدد العثمانيين لا الأسبان ، فأسرع حسن باشا الى وضع يده على تلمسان ولكن دون أن يقضى على الأسرة الزيانية التى قضى عليها فعلا صالح بن باديس — الذى حل محل حسن باشا في الحكم (١٥٥١) ، واستولى ابن باديس على « بجاية »

من يد الأسبان (١٥٥٥) ، ولكنه لم يلبث أن توفي وهو يحاول منع قيام تحالف بين السعديين والأسبان في وهران .

ومن بعد ابن باديس دبت الفوضى في البلاد ، واستبد الجند بتوجيه الأمور ، وقتلوا الباشا ، مما جعل السلطان العثماني يرسل اليهم « حسن باشا » ابن خير الدين ليعيد الهدوء (١٥٥٧) . حقيقة سيطر حسن باشا على الجزائر وعلى تلمسان ، واستعد لطرده الأسبان من وهران ولكنه رغم انتصاره عليهم إلا أنه لم يستول على وهران ، وتعرضت طرابلس لحملة أسبانية إلا أن الأسطول العثماني تفوق . ومع هذا لم يلبث الجند أن تمردوا وقبضوا على (حسن باشا) وأرسلوه مكبلا إلى الاستانة (١٥٦١) ، إلا أن السلطان أعاده إلى الجزائر ١٦٥٢ ليتابع العمل من أجل تحرير وهران . ومع أنه لم يوفق فقد كافأه السلطان بتعيينه قبطان باشي الأسطول العثماني ، وتوفي في ١٥٧٢ .

تولى بكربكية الجزائر من بعده « علي العليج » في ١٥٦٨ ، وكان يود تحقيق آمال خير الدين في السيطرة الكاملة على شمال أفريقية ، وكانت أمور تونس قد آلت إلى الحفصيين إلا أن أمورهم كانت في تدهور مستمر خاصة بعد سيطرة القائد البحري العثماني « طرغوث » على طرابلس في ١٥٥١ ، وأصبحت تونس بذلك محصورة بين القوى العثمانية في طرابلس والجزائر . فعلا استولى العثمانيون على تونس في ١٥٦٩ .

لقد أدى هذا النشاط العثماني الكبير في شمال أفريقية ، واستيلاء العثمانيين على قبرص إلى نشاط مضاد تزعمته البندقية لكسر شوكة الأسطول العثماني - الجزائري في حوض البحر المتوسط ، فعقدت حلفا مع البابوية ومع الامبراطورية الرومانية المقدسة والتقى الأسطول الأوروبي بالأسطول العثماني - الجزائري عند ليبانتو ١٥٧١ ودارت معركة بحرية كبيرة ملى فيها الأسطول الإسلامى بهزيمة كبيرة ، إلا أن والى الجزائر استطاع أن يجمع شتات بقية السفن وينقذها من الدمار . فكانت هذه الهزيمة البحرية بداية النهاية للتفوق البحري العثماني في حوض البحر المتوسط . بل يعتبرها البعض بداية تدهور الدولة العثمانية .

وعلى أى حال ، بذل العثمانيون جهودا كبيرة لانقاذ بقية الأسطول العثماني وأعيد بناء الأسطول خاصة بعد سقوط تونس مرة أخرى في يد الأسبان (١٥٧٣)، ولكن استطاع

القائد العثماني « سنان باشا » أن يستولى على تونس ويقضى نهائيا على حكم الأسرة الحفصية .

وبعد استرداد العثمانيين لتونس تطلعوا الى المغرب ، وكانوا جادين في تنفيذ مشروعهم ، ولكن حال دون ذلك عدة أسباب وظروف :

١ - لقد أحرز المغاربة نصرا كبيرا على البرتغاليين في معركة وادي المخازن (١٥٧٨) جعلهم محط تقدير السلطات العثمانية فتوقفت الحملة المعدة ضدهم .

٢ - ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعنى به « المنصور السعدي » .

وبصفة عامة ، طبق نظام الولايات العثماني ، فأصبحت طرابلس وتونس والجزائر ولايات عثمانية . وأصبحت الرقعة متسعة على السلطان العثماني حيث كان جنده يقاتلون على أسوار فيينا (١٦٨٨) وفي الخليج العربي والعراق وفي المياه الإسلامية الجنوبية .

ويلاحظ أن العثمانيين كانوا أكثر توفيقا في شمال أفريقية منهم في المياه الجنوبية الإسلامية وذلك لعدة أسباب :

١ - أن العمليات البحرية العثمانية كانت مناسبة لأسطولهم البحري على عكس العمليات البحرية في المحيط الهندي التي كانت تتطلب سفنا من طراز آخر أكثر قدرة على الحروب المحيطية .

٢ - كان الساحل الأفريقي الشمالي أقرب الى الاستئانة عاصمة الدولة وكانت الامدادات من تركيا ومصر ترسل الى ميادين القتال بسرعة أكثر ، كما كانت صعوبة التطورات في حوض البحر المتوسط لدى المسؤولين العثمانيين أكثر وضوحا عن تلك التي كانت لديهم عن ميادين القتال في المياه الإسلامية الجنوبية . وكانت قواعد العثمانيين في شمال أفريقية أكثر ثباتا من تلك التي كانت لديهم على السواحل العربية الممتدة من البصرة الى اليمن .

٣ - لم يلق العثمانيون مقاومة متطاولة مرهقة كتلك التي واجهتهم في اليمن .

٤ - اتساع المستعمرات الأسبانية الغنية في أمريكا جعل الأسباب لا يبذلون أقصى قدراتهم في السيطرة على شمال أفريقية سيطرة كاملة ، أما البرتغاليون فقد

ركزوا على جهودهم الاستعمارية في منافذ البحار الإسلامية الجنوبية وفي استعمار
أفريقية والهند مما جعل لهم قواعد قوية يستطيعون منها كسر شوكة الحملات
العثمانية هناك ، خاصة وأن هذه الحملات العثمانية كانت ترسل من وقت لآخر
لقتال البرتغاليين بينما كان الوجود البرتغالي مستمرا ومسيطرا هناك .

لقد استمرت ولايات شمال أفريقية ضمن الدولة العثمانية حتى أخذ الاستعمار
الأوروبي منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر يقطع أجزاء من شمال أفريقيا حتى إذا
ما أصبح العالم على وشك دخول الحرب العالمية الأولى كان شمال أفريقية وحوض النيل
قد توزع بين الدول الاستعمارية : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، مثلما توزع المشرق العربي
بين بريطانيا وفرنسا حينذاك .

★ ★ ★

الفصل الثالث

الكفاح العثماني ضد العدوان البرتغالي

على الديار الإسلامية

يمثل الوجود العسكرى البحرى الصليبي الاستعمارى البرتغالى عاملا جوهريا فى توجيه مقدرات المشرق العربى ، الى جانب ظهور ونمو الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين فى المشرق العربى : الدولة الصفوية والدولة العثمانية . ولا شك أن وصول الأسطول البرتغالى الى قليقوظ فى مايو ١٤٩٨ يمثل بداية عصر جديد فى المنطقة ، وفى المشرق كله بصفة عامة .

ومما لا شك فيه أن وصول البرتغاليين الى المياه الإسلامية الجنوبية هو المسئول الأول عن وقف التطور التقدمى لعرب المشرق العربى ، حيث أن التفوق الذى أحرزته العرب فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى المحيط الهندى والبحار الجنوبية كان كفيلا بأن يمهّد لنهضة تأخذ بيد العرب خاصة بعد أن ظهر بينهم ملاحون ممتازون من أمثال أحمد ابن ماجد . فهل كان من الممكن أن يقدم البرتغاليون خدماتهم للمسلمين والعرب ويفتحوا لهم أبواب تعلم الفنون الجديدة عن طيب خاطر على نفس المستوى الذى قدم به أحمد ابن ماجد خدماته لفاسكوداجاما فقاده هو وأسطوله فى أول رحلة بحرية برتغالية بين شرق أفريقيا وساحل ملبار (الهند) ولكن كان هناك فرق شاسع بين التفكيرين وبين الرجلين ؟ وكان العرب يعملون بنشاط وافر فى نقل المتاجر من موانئ الشرق الى السويس ، وكان الباب مفتوحا لكل صاحب أسطول أن ينقل المتاجر عبر البحار والمحيطات حيث كانت حرية الملاحة الدولية من الأمور التى لم يفكر العرب فى نقضها ، شأنهم فى ذلك شأن القوى الآسيوية الأخرى . فلا غرو أن كانت سفن الصين تصل بكل حرية الى عدن .

فلقد كان أحمد بن ماجد ، والعرب والمسلمون بوجه عام ، يرون فى البحار والمحيطات مجالات واسعة للغاية تستوعب كل من يريد العمل فى النقل البحرى . فكان المبدأ المطبق هو حرية الملاحة الدولية . فكانت سفن العرب تسير فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وتوغل حتى (ملقة) وما بعدها ، كما أن سفن الصين كانت توغل غربا حتى تصل الى سواحل بلاد العرب الجنوبية . وأدى هذا النشاط التجارى العربى الإسلامى الكبير الى نمو هرمز - عند مدخل الخليج العربى - وأصبحت بفضل تفوقها فى العمليات التجارية

الكبرى ، أكثر المراكز التجارية ازدهارا • ولقد امتد نفوذ هرمز من الاحساء والبحرين وعمان الى عدن ، حتى لقد أصبحت ذات شهرة وثروة عظيمة ، حتى لقد نظم فيها الشعراء قصائدهم مثلما فعل الشعاع الانجليزى ملتون فى (الفردوس المفقود) وهناك من زار هرمز قبل نكبة البرتغاليين لها بوقت قصير جدا ، فوصف اتساع تجارتها البحرية •
فلقد كانت هرمز فى القرن الخامس عشر درة الخليج العربى فعلا ، وطغت حتى على البصرة وغيرها من الموانئ الأولى •

ولكن جاء البرتغاليون الى المياه الجنوبية الإسلامية بفكر صليبي شديد الإنفعال تميز به أهل شبه جزيرة أيبيرية • وكان هذا الفكر الصليبي هو الذى يحثهم على الوصول الى الشرق الأقصى بطريق بحرى مباشر حتى يتجنبوا نقل التجارة الشرقية عبر مصر وحتى يوجهوا ضربة قوية للإسلام والمسلمين من هذا الباب الخلفى •

كما كانت الإنعامات البابوية على ملوك البرتغال تؤجج تلك الروح الصليبية المتوقدة فى نفوس البرتغاليين ، حتى لقد أصبح تدمير المقدسات الإسلامية فى الحجاز جزءا من أهداف النشاط البرتغالى فى المياه الشرقية الإسلامية •

ولقد اتبع البرتغاليون فعلا فى سيطرتهم على صفحات البحار والمحيطات سياسة صليبية لا إنسانية ضد العرب بالذات ، فلقد كان البوكرك اذا أمكنه العثور على عربى كان افلاته من يده من المحال وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار ، واطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم ضد العرب فسمحوا لبحارتهم بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية • وأخذوا كل سفينة عربية إسلامية غصبا كما كان الأسطول البرتغالى كان يقوم بشحن الحرب على المعامل التجارية البحرية العربية ، فإن استطاع السيطرة عليها واحتلالها فيها وإن لم يستطع ذلك ضرب الأهداف المدنية واحرق الميناء بمنشآته ، والسفن والقوارب الراسية فيه ، وهذا ما فعله البرتغاليون فى عدن وقمران وهرمز وزيلع وقريات ومسقط والبحرين وصحار •

ولقد أدرك البرتغاليون أن استقرار تحكمهم فى التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر المشرق العربى ومصر الى أوروبا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى الى أوروبا وهما طريق الخليج العربى الذى تسيطر عليه هرمز ، طريق

البحر الأحمر الذى تتحكم فيه عدن وسقطرة وباب المندب ، وكانت عدن شديدة المقاومة للبرتغاليين سنة ١٥١٣ ، وامتنعت عدن عليهم ، وذلك لأن دولا كبيرة نسبيا كانت تحمى ظهرها ونعنى بذلك دولة آل طاهر فى عدن واليمن حتى ١٥٣٨ كما كانت تحمىها القوى البحرية والبرية التى ساقها المماليك ضد البرتغال فى البحر الأحمر واليمن ، هذا فضلا عن أن عدن كان قد تولاه حكام عرفوا كيف يدروا الخطر البرتغالى بالسياسة الى جانب القوة من أمثال مرجان الظافرى ١٥١٧ م / ٩٣٣ هـ ، وعلى بن سلمان البسدى فى ١٥٤٦ م / ٩٥٣ هـ .

أما هرمز فقد اضطرت الى أن تواجه بنفسها واعتمادا على قواتها العدوان الصليبي البرتغالى . وكانت القوة غير متكافئة منذ البداية . فقد كان البوكرك - الاميرال البرتغالى المشهور - الذى وطد العزم على أن ينشئ امبراطورية شرقية برتغالية قد قرر أولا تقليص أظافر هرمز فبدأ بالسيطرة على سقطرة ١٥٠٦ ، ثم دمر الموانئ الساحلية التابعة لهرمز على الخليج العربى وخاصة مسقط وصحار ، وحولوا الضريبة السنوية التى كانت تدفعها لهرمز الى خزينة البرتغاليين ثم وجه البوكرك أسطوله الى هرمز . وهناك وجد البرتغاليون أنهم أمام مدينة تختلف عن تلك الموانئ التى أحرقها الأسطول البرتغالى من قبل . حيث أن ملك هرمز كان قد تلقى تحذيرات بأن البرتغاليين فى طريقهم اليه فاستعد بقواته البرية والبحرية للدفاع عن الجزيرة .

وكان ملكها حينذاك سيف الدين فى الثانية عشر من عمره تحت وصاية أتابكه « خوجة عطار » الذى كان يتصف بالجرأة واستدعى قوات من البلدان المجاورة من فرس وعرب حتى بلغ عدد المقاتلين ٢٠ ألف رجل ، وفى الميناء تجمعت ٤٠٠ سفينة عليها ٢٥٠٠ مقاتل ، بعضها كان مزودا بالمدفعية الصغيرة . ولكن استطاع الأسطول البرتغالى أن يكسب المعركة وأصبح ملك هرمز تابعا لملك البرتغال يدفع له ضريبة سنوية . وبنى البرتغاليون حصنا فى هرمز وأنشأوا وكالة تجارية كما أرغموا الملك على أن يعفى التجار البرتغاليين من الضرائب ، أما إذا اشترى البرتغاليون من هرمز وتوابعها فيدفعون ضريبة مماثلة لما هو مفروض على الوطنيين واشترط البرتغاليون كذلك ضرورة حصول اية سفينة محلية يملكها أحد المواطنين على تصريح من البرتغاليين بالملاحة . وبهذا تكون السيادة السياسية والتجارية البرتغالية على الخليج العربى قد بدأت تتوطد .

وبضم سقطرة ، وبالسيطرة السياسية على هرمز وبفتح ملفه ، وبتقوية القاعدة البحرية الكبيرة في « جوا » يكون البرتغاليون قد أسسوا لأنفسهم نظاما ، يتحكمون بؤاسطته في الملاحة على صفحات بحار المنطقة . وكانت قيمة هرمز لهذا النظام ، هي الأعظم لموقعها الإستراتيجي الخطير ولماضيها الاقتصادي والسياسي الحافل .

لقد أدرك ملك هرمز أنه لا بد من الاستعانة بدولة كبيرة تشد أزره ضد العدوان البرتغالي وتخلصه منه . وكان السلطان الفوري هو أمل المسلمين في إزالة هذه الغممة المفاجئة . ولقد قام الفوري — وقد فوجيء بوصول البرتغاليين الى المياه الجنوبية — بأعداد أسطول كبير أرسله في ١٥٠٨ الى المياه الجنوبية بقيادة حسين الكردي . وهناك عند « ديو » دارت أكثر من معركة بين الأسطولين البرتغالي والمملوكي دون أن يكسب أي منهما معركة حاسمة . ولكن انسحاب الأسطول المملوكي من المياه الهندية وعودته الى البحر الأحمر أبقى للبرتغاليين السيادة في تلك المياه وفي داخل الخليج العربي وفي مدخل البحر الأحمر . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الحركة الوطنية في هرمز تتطلع الى الشاه اسماعيل الصفوي ، ولذلك اعترف ملك هرمز بالخضوع للشاه الأمر الذي جعل موقف البرتغاليين دقيقا (١٥١٤) . حيث أن الشاه اسماعيل الصفوي كان هو حليفهم الطبيعي ضد العثمانيين ، فعلا عقد مفاوضات مع السلطات البرتغالية في جوا من أجل عقد معاهدة تحالف ضد العثمانيين . ومن ثم كان الوصول الى تسوية مع الشاه بشأن مستقبل هرمز أمرا يسيرا .

ولكن الذي حدث في داخل الجزيرة نفسها جعل من الضروري على الأسطول البرتغالي — المتجه ضد عدن وسواحل البحر الأحمر — أن يعمل أولا على إخضاع الثورة الوطنية التي نجحت في تسلم السلطة في هرمز . فعلا استطاع الأسطول البرتغالي أن يغيد سيطرته على الجزيرة . ولما جاء سفير الشاه دارت مفاوضات بين الطرفين الفارسي والبرتغالي انتهت بأن يظل ملك هرمز خاضعا لملك البرتغال دوم مانويل Dom Manuel . ومات البوكر بعد ذلك بقليل ١٥١٥/١٢/١٥ .

لقد وجدت هرمز ومدن الساحل الغربي للخليج العربي نفسها تحت نير السيطرة البرتغالية دون أن يجدوا قوة كبيرة إسلامية قادرة على التعاون معهم ضد هذا العدوان الصليبي ، وحيث فشل الأسطول المملوكي في البقاء في المحيط الهندي والمياه العربية.

الجنوبية مناورا للأسطول البرتغالي ، وحيث أن الشاه الفارسي لم يتورع عن التخلي عن هرمز التي ألقت بنفسها تحت قدميه في وقت الشدة ، لم يعد أمام هرمز ومدن الساحل الغربي للخليج العربي إلا أن يعتمدوا على انفسهم للقيام بثورة عامة مباغتة في آن واحد ضد البرتغاليين وتجعلهم مضطرين للعمل على عدة جهات متباعدة فيمكن التخلص منهم وانتزاع الحرية من بين أنيابهم ، وفعلا وقعت الثورة الكبيرة في هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار ، وهاجم الوطنيون الحاميات البرتغالية برا وبحرا . وفرض ملك هرمز الحصار بقوة على الحصن البرتغالي في الجزيرة . ولكنه ظل صامدا حتى جاءت الامدادات . وفقد الملك أمله في النصر فأحرق المدينة وغادرها الى جزيرة قشم ليصرعه هناك أحد أتباعه (١٥٢٢) .

وتولى العرش في هرمز من بعد ذلك ابنه محمود شاه آخر ملوكها ، حيث عقد معه البرتغاليون معاهدة جديدة زادت من قوة القبضة البرتغالية على الجزيرة ثم لم يمر سوى وقت قصير حتى وضع البرتغاليون نهاية للحكم الوطني ، عندما أسندوا حكم الجزيرة الى حاكم برتغالي في ١٥٢٤ . ولتعيش هرمز بعد ذلك حوالى القرن تحت الحكم البرتغالي حتى يستولى عليها الشاه عباس الأول في ١٦٢٢ .

هذا بينما وسع البرتغاليون من مجالات عملهم في البصرة نفسها حتى أصبحت ضمن مشروعات البرتغاليين وهدفا لعملياتهم العسكرية . وذلك بعد أن أصبحت القواعد البرتغالية في مسقط وهرمز قوية . وكانت المنازعات بين القوى المحلية الحاكمة في جنوب العراق تعطى فرصا واسعة للأسطول البرتغالي للعمل في مياه البصرة سواء برضاء الحكام أو رغما عنهم . فقد شب نزاع بين راشد بن مغامس ، شيخ عشائر المنتفق وصاحب البصرة - وأمير الحويزة ، وناشد راشد بن مغامس البرتغاليين إعانتته ضد خصمه . وفعلا بعث دي كونهيا de Cunha قطعاً بحرية برتغالية الى البصرة ولكن سرعان ما شب النزاع بين البرتغاليين وراشد بن مغامس وانقضت القطع البحرية البرتغالية على البصرة ، ومن الأسباب الظاهرية لهذا النزاع إمتناع راشد بن مغامس عن تسليم سفن تركبة كانت راسية هناك، وأغلب الظن أن السبب الرئيسى في تحول التفاهم الى اشتباك على هذا النحو يرجع الى أن التحالف كان قائما على أساس المصلحة الذاتية فحسب

فضلا عن اختلاف الأهداف والمشارب اختلافا جوهريا بين شيخ عربى عشائرى مسلم وقائد أسطول برتغالى صليبي • فكل منهما يريد معونة لا أكثر ولا أقل دون أن يحصل الطرف الآخر على أى كسب مادي أو سياسى من وراء ذلك • والبرتغاليون كانوا يبحثون وراء كسب حقيقى جديد فى المنطقة •

ولم تتحول القوى الإسلامية الى الهجوم مرة أخرى إلا بعد أن سيطر السلطان سليم الأول العثمانى على الشام ومصر والنحجاز فى ١٥١٦ — ١٥١٧ • وأصبح يتحمل مسئولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من أجل انقاذ الأراضى المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها أو من حيث إعادة التجارة الشرقية الى طريق مصر • فبدأت صفحة جديدة من الصراع فى المياه العربية الجنوبية لم يشترك فيه العرب إلا هامشيا أو بطريق غير مباشر • وإنما أصبح فى يد العثمانيين التمويل والاعداد والقيادة للأساطيل الإسلامية ضد البرتغاليين فى المياه العربية والهندية • وبدأت هذه الهجمات البحرية العثمانية المضادة فى أعقاب التوسع العثمانى فى المشرق العربى مباشرة •

ومما لا شك فيه أن سليم الأول كان مدركا تمام الإدراك للخطر البرتغالى من الجنوب • وكانت خريطة العدوان الأوروبى على البلاد الإسلامية سواء المطل منها على المحيط الهندى أم المطل على البحر المتوسط واضحة أمامه • فقد كان فرسان القديس يوحنا يهاجمون بيروت وطرابلس ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى بروع السواحل الإسلامية الجنوبية فى ١٩/١/٩٢٦ هـ •

والملاحظ أن سليم الأول لم يتخذ إجراءات كبيرة ضد البرتغاليين ولعل هذا يرجع الى أنه كان قد خرج من حربين كبيرتين ضد فارس (١٥١٤) وضد مصر (١٥١٦) / (١٥١٧) وعاد الى مقر حكومته ليموت بعد سنوات قليلة (١٥٢٠) وهو يستعد لقتال فرسان القديس يوحنا فى رودس • كذلك كانت الفترة الأولى من حكم سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) مليئة بالأحداث الكبرى فى أوروبا خلال صراعه ضد الدولة الرومانية المقدسة وغيرها فى البلقان • كما أن مصر تعرضت لثورات قام بها بعض زعماء المماليك وعلى رأسهم اينال السيفى وجانم السيفى (١٥٢٢ م / ٩٢٨ هـ) ثم ثورات أحمد باشا الخائن (١٥٢٣ / ١٥٢٤) كما شغل العثمانيين بعد ذلك بتوطيد حكمهم فى مصر (١٥٣٤ — ١٥٣٥) وبفتح العراق وتخليصه من الفرس (١٥٣٤) ولعل هذا كان سببا فى ألا يتخذ السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) إجراءات كبيرة ضد الوجود العدوانى

البرتغالي في المياه الإسلامية الجنوبية حتى تولية سليمان الخادم للمرة الثانية على مصر
(١٥٣٦ - ١٥٣٨) .

ومع أن العراق - الذي أصبح ضمن الدولة العثمانية منذ ١٥٣٤ - كان أقرب إلى
قواعد البرتغاليين في المحيط الهندي . إلا أن الأوامر صدرت إلى سليمان باشا الخادم
- وإلى مصر - بأن يعد حملة كبيرة بحرية ضد البرتغاليين وأن يتخذ من السويس قاعدة
لإنطلاق حملته . لأن السويس فعلا كانت هي الميناء الوحيد المناسب لمواجهة تلك المسؤولية
الكبيرة خاصة وأن البصرة حتى ١٥٤٦ لم تكن قد وقعت تحت الحكم المباشر العثماني .

وحتى بعد أن استولى العثمانيون على البصرة في ١٥٤٦ لم ظلت مصر والسويس
- في العهد العثماني - هي القاعدة العسكرية التي تخرج منها الحملات البحرية
الموجهة ضد العدوان البرتغالي .

أصدر سليمان القانوني أوامره إلى سليمان الخادم سنة ١٥٣٧ « للجهاد » على
رأس حملة كبيرة يذهب بها إلى الهند « لتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء » وأن يعمل
على حماية مكة المكرمة والمدينة المنورة من العدوان الصليبي البرتغالي وأن يتوج جهوده
بإزالة شافتهم من تلك البحار .

وكان هذا التوقيت مناسبا في الواقع حيث كان السلطان سليمان القانوني قد خرج
منذ سنوات قليلة جدا منتصرا في حربه ضد الفرس مستوليا على العراق (١٥٣٤) .
وهذا التوقيت يؤكد لنا أن العمليات العسكرية العثمانية ضد الوجود العدواني البرتغالي
في المياه الجنوبية كان مرتبطا بالتوسع العثماني في المشرق العربي . ولهذا فنحن لا نوافق
قصر المؤرخ الكبير تويسبي لأسباب التوسع العثماني على أنه استمرار للصراع القديم بين
أي دولتين كبيرتين تظهرا في الشرق الأوسط .

وعلى أي حال أعد سليمان الخادم حملته الكبيرة لا ليكسر شوكة البرتغاليين فقط
بل للسيطرة أيضا على مفاتيح البحار الإسلامية في الجنوب ، وبوجه خاص ميناء عدن
الذي أصبح على أهمية كبرى استراتيجية خلال الصراع البرتغالي المملوكي العثماني على
المياه الجنوبية ، فاستولى على عدن غدرا .

وحيث أن سليمان الخادم كان قد عزم على الرحيل لقتال البرتغاليين ، وكان يريد

الاطمئنان الى أن أمور اليمن ستتظل ودية مع العثمانيين كتب الى الإمام الزيدى (شرف الدين) مؤكدا له أنه يريد التعاون معه وأنه خلص الإسلام والمسلمين من شر عامر ابن داود حاكم عدن لانه كان «يريد بيع عدن للافرنج».

ونحن لا نستبعد أن تكون هناك محاولات من جانب عامر بن عبد الوهاب للوصول الى تفاهم ما مع البرتغاليين الذين كانوا يمثلون خطرا ساحقا على عدن في الوقت الذي كانت فيه عدن - آخر معقل للطاهريين - معرضة لهجمات عنيفة من جانب الإمام الزيدى.

سواء أكانت ظنون سليمان الخادم خاطئة أم أن عامر بن داود قد خان القضية الإسلامية، فإن الاستيلاء على عدن بالخديعة واللقاء القبض غيلة على عامر بن داود ثم شنقه أساء الى سمعة سليمان باشا الخادم حيث أصبح في نظر القوى المظلة على البحر العربى والمحيط غادرا لا يؤتمن على عهد. وقد سبقته أنباء مؤامراته هذه الى الهند في وقت كانت فيه القوات البحرية الهندية بقيادة أميرال فالقوطة مشتبكة مع الأسطول البرتغالى، واستطاع الأميرال البرتغالى مارتن دى سوزا Martin de Soiza أن يشنت الأسطول الهندي قبل وصول الأسطول العثماني.

ولكن الى جانب هذا كانت القوى البحرية الهندية العادية للبرتغاليين، قد أصبحت عازية عن التعاون مع الأسطول العثماني خوفا من غدر سليمان الخادم، وهنا - ولهذا لم تكن حملته مثمرة في المياه الهندية، وعاد الى الخليج العربى ليقوم فيه بعدة عمليات عسكرية كبيرة، ثم استطاع أن يجاهر هرمز وأن يستولى على مسقط والقطيف، وعاد دون أن يعمل العثمانيون على الإبقاء على أسطول دائم في تلك المياه لمناددة الأسطول البرتغالى الأمر الذى أبقى التفوق المطلق للبرتغاليين بعد عودة الحملات العثمانية الى قواعدها.

ومع هذا فقد أدى وصول الأسطول العثماني الى الخليج العربى الى رفع معنويات المقاومة هناك لدى أهل المنطقة، وخاصة في القطيف في أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة. فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين في ١٥٥٠ وسلموا المدينة للأتراك العثمانيين. فكان أن رد البرتغاليون على ذلك بأن دمروا القطيف بمدفعية أسطولهم (١).

لقد أدت كل تلك العمليات البحرية البرتغالية الناجحة منها أو الفاشلة الى تعميق اتجاه السلطات العثمانية في الاستئانة نحو ارسال حملة كبيرة ضد وجود العدوان البرتغالي في المياه الإسلامية الجنوبية ، خاصة وأن تدمير الأسطول البرتغالي للقريط كان يعنى ضياع هيبة العثمانيين في المنطقة ولا يمكن استردادها إلا بإرسال حملة كبيرة لمسازلة البرتغاليين والتفوق عليهم . وأسند السلطان قيادة الحملة الكبيرة التي كانت تعد في السويس الى بربك وكان تحت امرته ستة عشر الفا من المقاتلين على ظهر أسطول كبير من الفلاحين ، أبحر من السويس الى الخليج العربي .

وكان نوروها - القائد البرتغالي - في هرمز ، فبعث بقطع من الأسطول بحثا عن أسطول بربك فاصطدم به بربك وكاد أن يقع في أسره ، ولكن هاجم بربك هرمز وكاد أن يستولى عليها تماما ، وهاجم بربك مسقط ونهب المدينة واستسلم قائد القلعة البرتغالية جلودي ليزبا Joada Lisboa بعد أن تعرضت لقصف من الأسطول العثماني استمر ثمانية أيام ، ونقل بربك مدافع القلعة الى سفنه . ثم عاد الى هرمز وحاصرها لمدة شهر تكبد خلاله خسائر جعلته ينهب ما استطاعه وذهب الى جزيرة قشم واستولى هناك على غنائم كبيرة ثم عاد ولكن مصادمات بربك مع الأسطول البرتغالي كانت تؤكد أن كفة البرتغاليين كانت هي الراجحة رغم الازعاج الشديد الذي كان قد سببته عمليات بربك ضدهم . وأصبح التفوق البرتغالي واضحا تماما في أعقاب إنتهاء بربك من جولاته في الخليج (١) حيث ظل الأسطول البرتغالي هو المنفرد على صفحات المياه .

كانت النتيجة السلبية التي انتهت اليها الحملة البحرية بقيادة بربك تفرض على العثمانيين أن يحاولوا من جديد خض شوكة البرتغاليين في المياه الجنوبية وأعدوا حملة بحرية جديدة بقيادة مراد بك ، وكانت له خبرة سابقة بحروب البرتغاليين في الخليج العربي .

أبحر مراد بك بأسطول قوامه ١٥ سفينة حربية ، واصطدم في معركة عنيفة مع الأسطول البرتغالي بقيادة Diego de Noronha على مقربة من الساحل الفارسي ، ولكن لم تسفر المعركة عن انتصار حاسم لأي منهما .

(١) عاد بربك الى الاستئانة وهناك أعدم لمخالفة أوامر الصدر الأعظم وتمرده عليه وطموحه الزائد .

وكرر العثمانيون محاولاتهم لخض شوكة البرتغاليين فأرسلوا حملة رابعة بقيادة على شلبى فأحرز عليه البرتغاليون انتصارا حاسما شدد سيطرتهم على المياه الإسلامية الجنوبية وخاصة في الخليج العربى .

والملاحظ أن نشاط العثمانيين أصبح برىا بعد ذلك فقد هاجموا البحرين ولكن انتصر عليهم البرتغاليون ، كما لجأ العثمانيون الى الهجمات الخاطفة مثل هجمات على بك على مسقط سنة ١٥٨١ ولكن لم يلبث أن غادرها لتعود تحت قبضة البرتغاليين .

عند تحليل طبيعة الحملات والهجمات العثمانية ضد البرتغاليين نجد أنها بدأت بأساطيل قوية كبيرة على يد سليمان الخادم وبير بك ، وكبدت البرتغاليين الكثير من الخسائر ، وأثارت القوى الوطنية المحلية في الخليج العربى ضد الوجود العدوانى البرتغالى في المنطقة .

ولكن كانت الحملات العثمانية البحرية بعد بير بك ضعيفة غير مؤثرة بل وأضعف من سابقاتها حتى كف العثمانيون عن ارسال حملات بحرية كبيرة أو لجأوا الى الهجمات الخاطفة البحرية غير المستديمة ، والى الحملات البرية غير المجدية ، بالتالى كان نمو القوة البرتغالية في المياه الجنوبية في تصاعد مستمر خلال الصراع ضد المحاولات العثمانية لكسر شوكتهم هناك .

والواقع أن تدهور قوة الردع العثمانى للوجود العدوانى البرتغالى في المياه الجنوبية كان مرتبطا بالضعف الذى أصاب القوة البحرية العثمانية في أعقاب هزيمتها أمام الحلف الصليبي في ليبانتو ١٥٧١ . كما أن هذا الضعف في المياه الجنوبية الإسلامية يرجع في الواقع الى أن قوى اليمن والخليج العربى والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية ، فضلا عن أن معظم تلك القوى وضعت مصالحها الخاصة فوق المصلحة العامة .

ومن ناحية أخرى ، كان العثمانيون يخوضون حربا محيطية غير تلك الحروب البحرية التى تعودت عليها أساطيلهم في البحر المتوسط أو في البحر الأسود . ثم أنهم دخلوا ميدان هذه الحرب المحيطية متأخرين بعد أن وطد البرتغاليون أقدامهم في بعض المعاقل المنيعه في الخليج العربى مثل هرمز ومسقط والبحرين ، وفي ساحل ملبار الهندى في جاوا

ومع أن قطع الأسطول البرتغالي كانت تتوافد على المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل وأن العثمانيين كانوا يبنون أسطول كل حملة في السويس لينطلق إلى المياه الإسلامية الجنوبية، فإن طبيعة بناء الأسطول البرتغالي كانت هي الأنسب لمعارك فيما وراء البحار كما كانت قدرات الأسطول البرتغالي على البقاء بصفة مستمرة فيما وراء البحار كانت لا تبارى من جانب الأسطول العثماني .

ولا شك أن تلك القدرات البحرية البرتغالية كانت توحى بأن السيطرة والاحتكار البرتغالي على صفحات المياه الجنوبية وعلى طول طريق رأس الرجاء الصالح ستكون مستطول لعدة قرون . ولكن الذي حدث هو أنه في الوقت الذي بلغت فيه السيطرة البرتغالية ذروتها في الثمانينيات من القرن السادس عشر كانت البرتغال قد فقدت فعلا كيائها المستقل وأصبحت تحت حكم فيليب الثاني ملك اسبانيا ، الأمر الذي جعل مصالح البرتغال فيما وراء البحار في المرتبة الثانية بالنسبة للمصالح الأسبانية . بل لقد أهملت المصالح البرتغالية وتدهورت ، ولا شك أن هزيمة الأسطول الأسباني (الارمادا) في ١٥٨٨ أمام الأسطول الانجليزي كان عاملا حاسما في تدهور القوتين الأسبانية والبرتغالية معا ، وفتح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى أمام القوى البحرية الأوروبية الناشئة وعلى رأسها هولندا وانجلترا وفرنسا وعلى يد الهولنديين والانجليز وضع حد للتفوق البرتغالي في المياه الإسلامية الجنوبية ، وتم ذلك في أوائل القرن السابع عشر وخاصة في أعقاب التعاون الفارسي الانجليزي ضد البرتغاليين ذلك التحالف الذي أدى إلى طرد البرتغاليين نهائيا من هرمز في ١٦٢٢ م .

★ ★ ★

الفصل الرابع

الطولة العثمانية
في اللروة

ظهرت خلال عصر النهضة مجموعة من العمالقفة فى العلاقات الدولية ، بل وفى بناء الدول واقامة الامبراطوريات سواء فى الغرب الأوروبى أو فى الشرق الإسلامى . ونذكر منهم على سبيل الأمثلة لا الحصر :

— الامبراطور شارل الخامس : امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك أسبانيا والمستعمرات الواسعة لها فى العالم الجديد .

— فرانسوا الأول : ملك فرنسا العظىم الذى كان ينافس شارل الخامس على عرش الامبراطورية ، ويسعى الى جعل فرنسا صاحبة الكلمة المسموعة فى أوروبىا .

— هنرى الثامن : ملك انجلترا والذى أدخل اصلاحات جوهرية هيات انجلترا لدور قىادى عالمى استمر من القرن السادس عشر حتى الحرب العالمىة الثانية (أى حوالى ثلاثة قرون ونصف) .

وفى الشرق ظهر مع عصر النهضة الأوروبية عمالقفة مسلمون من بنىاة الدول والامبراطوريات من أمثال : سليم الأول ، وسليمان الأول العثمانى ، والشاه اسماعيل الصفوى ، وعباس الأول فى فارس . وباهر وأكبر فى الهند .

كانت نظرية التوازن الدولى التى تحكمت فى العلاقات الدولية فى أوروبا ابتداء من الحروب الإيطالية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر قد تحكمت كذلك فى أحوال الشرق العربى ، حيث ظهرت فى الشرق العربى دولة عثمانىة امبراطورية تستطيع منازلة البرتغالىين وحماية البلاد الإسلامىة منهم ، بينما فقدت فارس القدرة على اقامة امبراطورية لها فى الشرق العربى إلا لفترات محدودة للغاية ولم يعد فى استطاعتها أن تصل الى البحر المتوسط فقد أغلق العثمانيون الطريق أمام الفرس اخلاقا .

وبينما كانت الدولة الفارسىة الشىعىة الصفوىة مستعدة للتحالف مع البرتغالىين ضد الدولة العثمانىة ، بل ومع الفرنجة (الدول الأوروبىة) لنفس الهدف . كانت الدولة العثمانىة تتحالف مع فرنسا بالذات ، على اعتبار أن العدو المشترك لهما هو (٩ — الشعوب الإسلامىة)

شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان ذلك مظهرا من مظاهر التوازنات الدولية سواء في الشرق أو الغرب .

والحقيقة ان فرانسوا الأول كانت لديه الاستعدادات لأن يتصرف على النحو الذي يرضى جمهرة المسيحيين الا وهو التشديق باعداد حملة صليبية ضد السلطان العثماني ضد الإسلام والمسلمين . ولكن التطورات التي وقعت في أوروبا جعلته يغير من سياسته ، من التعاون مع الدول الكبرى الأوروبية صليبيا الى التعاون مع السلطان سليمان القانوني . فقد كان فرانسوا الأول يسعى الى ما كان يسعى اليه أسلافه الأقربون ونعني بذلك ان تكون الولايات الإيطالية تابعة لفرنسا أو على الأقل بعضها . إلا أن الدول الكبرى انزعجت كل الانزعاج من اجتياح القوات الفرنسية لشمال إيطاليا بشكل يؤدي الى الاخلال بالتوازن الدولي .

وتشكل حلف كبير من الدول الأوروبية كان على رأسه الامبراطور شارل الخامس ، وانزل هزيمة قاسية بالفرنسيين في موقعة بافيا ١٥٢٥ التي سقط فيها فرانسوا الأول نفسه أسيرا ، وفرضت على فرانسوا معاهدة مدريد ١٥٢٦ تلك المعاهدة التي ضيقت مكاسب ومكانة فرنسا ، وكان من بين شروطها أن يشارك فرانسوا الأول في حملة صليبية ضد الدولة العثمانية ، هذا بينما كان فرانسوا قد ضم على التلخص من هذه المعاهدة على اعتبار أنها مفروضة عليه تحت حد السيف . وقرر أن يخوض من جديد مواجهة عسكرية وهنا تبين له ان تحالفا يعقده مع السلطان العثماني يمكن ان يقدم خدمات كبرى خلال الحرب لصالح فرنسا .

وهكذا بينما كانت معاهدة مدريد تفرض على فرانسوا الأول ان يساهم في حملة صليبية على الدولة العثمانية ، قرر فرانسوا الأول التحالف مع السلطان العثماني ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة العدو المشترك للطرفين .

وقبل أن نخوض في تفاصيل الدور العثماني في العلاقات الدولية حينذاك يجب ان نضع الأمور التالية نصب أعيننا :

١- أن الدول الأوروبية التي تسعى الى التحالف مع الدولة العثمانية هي في حقيقة

الأمير تضمير عداوة صليبية ليس فقط للدولة العثمانية وإنما للمسلمين بصفة عامة.

٢ - أن نظرية التوازن الدولي التي بدأت تستقر منذ ذلك الوقت هي التي فرضت عدم الالتزام بالأهداف الدينية وأن يؤخذ في الاعتبار أولا المصالح الجيوبوليتيكية للدولة القومية الأوروبية .

٣ - أن التحالفات التي تمت وستتم بعد ذلك بين الدولة العثمانية وفرنسا تقابلها محاولات من جانب الدولة الفارسية للتحالف مع دول أوروبية أخرى الأمر الذي يذكرنا بذلك التحالف أو على الأقل التفاهم بين الدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة في مواجهة تحالف بين بيزنطة والدولة الأموية في الأندلس . وهي تحالفات من النوع السياسى الذى يضع الأهداف السياسية فوق الأهداف الدينية . وإن كان هذا الموضوع محل جدل وحوار طويل . فالكل فى نفس الوقت لهم أهدافهم الدينية والسياسية وليس من اليسير القول بأنهم غلبوا هذا العامل على ذاك أو العكس .

لقد سعى فرنسوا الأول الى التحالف مع الدولة العثمانية وكان على رأسها أحد عمالقة السلاطين الإسلاميين وهو : سليمان الأول المشهور بسليمان القانونى أو سليمان العظيم . وكان سليمان يمنى نفسه بنصر تتحدث عنه الأجيال ، نصر لا يقل عن فتح القسطنطينية فى ١٤٥٣ ، لقد كان سليمان القانونى يتطلع الى فتح (فيينا) عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفعلا زحف الجيش العثمانى فى ١٥٢٩ وحاصر فيينا ولكن لم يحقق هدفه وان استطاع أن يصبح صاحب الكلمة العليا فى شمال البلقان، خاصة عندما سقطت (بودا) - عاصمة المجر - فى يد القوات العثمانية فى ١٥٤١ ، وأن يصبح سيد البحر المتوسط بفضل الأسطول العثمانى الذى كان يقوده خير الدين باربروسا . فقد روع السواحل الأوروبية وقدم مساعدات عسكرية هامة للجبهة التى كان يحارب فيها الفرنسيون فى منطقة الريفيرا الفرنسية على ساحل البحر المتوسط ، ولقد كان واضحا أن قيادة خير الدين بارباروسا للأسطول العثمانى والعمليات التى قام بها كانت تؤكد تفوقا واضحا على القائد البحرى المشهور أندريا دوريا رغم الأعمال الكبرى التى قام بها .

ان سياسة التحالف مع الدولة العثمانية التي وضعها فرانسوا الأول أصبحت أشبه بالسياسة التقليدية للدولة الفرنسية ، فقد اتبعها - الى حد كبير - كل من هنري الثاني ، وهنري الرابع ، وریشيلو ، ولويس الرابع عشر . حقيقة كانت هناك بعض الفترات التي تحدث فيها قطيعة بين الدولتين العثمانية والفرنسية ولكن سياسة التفاهم الفرنسي مع الدولة العثمانية كانت هي الأكثر وضوحا ، وذلك لأن العوامل الاستراتيجية هي التي كانت تفرضها على الحاكم في باريس .

وإذا كان ملوك وحكام فرنسا في حاجة الى الدولة العثمانية بسبب الصراعات المتتالية في أوروبا ، فان الدولة العثمانية هي الأخرى كانت ترى أنها في حاجة الى دولة أوروبية كبيرة تتعاون معها في مواجهة التطورات هناك . فمن المصلحة الاستراتيجية العثمانية أن يضع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في حساباته باستمرار أن دولتين متحالفتين ضده يقع هو بينهما . وكذلك من مصلحة الدولة العثمانية أن تظل فرنسا مصدر تهديد لأسبانيا حتى لا يتصاعد انطلاق الأخيرة في عملياتها ضد المسلمين في شمال أفريقية وبالذات ضد بلكربكية الجزائر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية هناك .

ولقد حصلت فرنسا من وراء تلك التحالفات والصدقات مع الدولة العثمانية على مكاسب كبيرة وان شاركتها فيها الدول الأخرى الأوروبية .

فقد عقد فرانسوا الأول مع السلطان سليمان القانوني معاهدة في ١٥٣٥ وتعتبر هذه المعاهدة الركيزة التي اعتمدت عليها الدول الكبرى في الحصول على امتيازات أسهمت - فيما أسهمت به - في انهيار الدولة العثمانية سياسيا واقتصاديا .

وفيما يلي أهم نصوصها :

- ١ - حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا .
- ٢ - حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة .
- ٣ - تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية .
- ٤ - الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك .

ان سياسة التحالف مع الدولة العثمانية التي وضعها فرانسوا الأول أصبحت أشبه بالسياسة التقليدية للدولة الفرنسية ، فقد اتبعها - الى حد كبير - كل من هنري الثاني ، وهنري الرابع ، وریشيلو ، ولويس الرابع عشر . حقيقة كانت هناك بعض الفترات التي تحدث فيها قطيعة بين الدولتين العثمانية والفرنسية ولكن سياسة التفاهم الفرنسي مع الدولة العثمانية كانت هي الأكثر وضوحا ، وذلك لأن العوامل الاستراتيجية هي التي كانت تفرضها على الحاكم في باريس .

وإذا كان ملوك وحكام فرنسا في حاجة الى الدولة العثمانية بسبب الصراعات المتتالية في أوروبا ، فان الدولة العثمانية هي الأخرى كانت ترى أنها في حاجة الى دولة أوروبية كبيرة تتعاون معها في مواجهة التطورات هناك . فمن المصلحة الاستراتيجية العثمانية أن يضع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في حساباته باستمرار أن دولتين متحالفتين ضده يقع هو بينهما . وكذلك من مصلحة الدولة العثمانية أن تظل فرنسا مصدر تهديد لأسبانيا حتى لا يتصاعد انطلاق الأخيرة في عملياتها ضد المسلمين في شمال أفريقية وبالذات ضد بلكربكية الجزائر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية هناك .

ولقد حصلت فرنسا من وراء تلك التحالفات والصدقات مع الدولة العثمانية على مكاسب كبيرة وان شاركتها فيها الدول الأخرى الأوروبية .

فقد عقد فرانسوا الأول مع السلطان سليمان القانوني معاهدة في ١٥٣٥ وتعتبر هذه المعاهدة الركيزة التي اعتمدت عليها الدول الكبرى في الحصول على امتيازات أسهمت - فيما أسهمت به - في انهيار الدولة العثمانية سياسيا واقتصاديا .

وفيما يلي أهم نصوصها :

- ١ - حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا .
- ٢ - حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة .
- ٣ - تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية .
- ٤ - الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك .

الفصل الخامس

خصائص الدولة العثمانية

قامت الدولة العثمانية منذ نشأتها على نظرية الجهاد • الذى يعطى للقائمين به فرص متابعته بالقوى البشرية والمادية ، فالسلطة العليا للمجاهد اى للعثماني أو من يختاره العثماني •

وكان للسلطان مجلس «الديوان الهمايوني» ولكنه مجرد مجلس استشاري، والمكانة الأعلى بعد السلطان تتمثل في الصدر الأعظم «الوزير الأول» وشيخ الإسلام والمفتي والثلاثة ينفذون أوامر السلطان وكان هناك وزراء ولكن دون أن يشكلوا مجلس وزراء • ومنصب شيخ الإسلام والمفتي كان يتولاه الأحرار ، أما منصب الصدر الأعظم والوزراء فكانوا غالبا عبيدا تحرروا ، وكانت الإدارة المركزية في العاصمة استانبول وكذلك الولاة كانوا من أصول تركية أو مستتركة •

وقد كان التعليم يجرى على الطريقة الإسلامية في المساجد وفي المدارس ، كما أن القضاء كان على الطريقة الإسلامية وعلى المذهب الحنفي •

واشتهر النظام الإداري العثماني بتسجيل الوقائع الأمر الذى جعل العهد العثماني غنيا بالوثائق على عكس العهد المملوكي في مصر والشام • ويعتبر النظام العسكر العثماني من أقوى مؤسسات الدولة العثمانية ولذلك سنلقى نظرة عليه •

ان القوات المسلحة دائما هي التى ينسب اليها النصر أو الهزيمة ، والحفاظ على تمامية الدولة أو فقد أجزائها ، واننا لنعتقد أن القوات المسلحة لا يمكنها أن تحرز نصرا أو تخسر معركة إلا من منطلق المناخ العام للدولة الذى يهيء لهذه القوات امكانيات النصر وأسباب وظروف الهزيمة •

وتلعب القيادة العليا دورا رئيسيا في احراز النصر وافتقاده خلال العصور السابقة • ولقد كانت الدولة العثمانية فتية قيض لها العديد من السلاطين والقواد الذين كانوا على مستويات عالية من القيادة والإدارة •

وكانت القوات المسلحة العثمانية مشكلة — على ما كانت عليه الحال في تلك العصور — من الجيش والأسطول . ونظرا لطبيعة المجتمع التركي المتميز في موطنه الأولى بالفروسية وكذلك في الأناضول فقد كانت فرق (الخيالة) هي عماد القوات المسلحة العثمانية ، حتى بدت للسلطين الأول أنها مرتبطة بالاقطاعات التي تمنح للسياحية (الخيالة) وأنه يمكن تشكيل جيش خاص من (العبيد) بجمع الصبية المسيحيين من البلاد المفتوحة حديثا في البلقان ، وهذا ما عرف باسم (الديوشيرمة) ، وكان يختار اللاتقين بدنيا وذهنيا واعدادهم فكريا واداريا فضلا عن الاعداد الدينى الإسلامى ليصبحوا حرسا للسلطان ثم أصبحوا من بعد أقوى من الجيش العثمانى وعرفوا بالجيش الجديد (الإنكشارية) وهو مصطلح محرف عن المصطلح التركى (يكى جىرى) وتنطق (ينى شرى) .

ونظرا للعناية الفائقة بالإنكشارية وتكوينهم البدنى والذهنى المتميز فقد أثبتوا أنهم خيرة المقاتلين .

وكان هؤلاء الإنكشارية قد رصدوا أنفسهم للجهاد ، فلا يتزوجون ولا يختلطون بالمجتمع ويستشهدون في سبيل الله ويضحون بأنفسهم دفاعا عن أبيهم السلطان .

لقد كان مجرد سماع الأعداء باسمهم كفىل بأن يثير الدعب فى صفوفهم ولكن هذه الصورة الرائعة انقلبت الى العكس تماما عندما ضعف وتدهور هذا النظام واصبحت كلمة (إنكشارية) من كلمات السخرية والاستهزاء خلال القرن التاسع عشر وما بعده .

اما الأسطول العثمانى فانه تكون أساسا لمواجهة البندقية حين تصادمت المصالح العثمانية فى البلقان مع المصالح البندقية هناك ، وكانت البندقية صاحبة أسطول قوى .

وقبل هذه المواجهة العثمانية مع البندقية كانت العمليات التوسعية العثمانية تجرى عن طريق القوات البرية سواء فى البلقان أو فى فارس والمشرق العربى ، بل إن القوى الرئيسية البلقانية التى كانت تقاتل العثمانيين كانت (برية) ونذكر منها الصرب والمجر ، وكانت البندقية والقسطنطينية هما القوتان الرئيسيتان اللتان تتطلبان من العثمانيين استخدام الأسطول ضدهما فى معارك البلقان .

على أى حال اتجه العثمانيون الى بناء أسطول ويرجع اليه الفضل فى طرد البنادقة من معظم السواحل الغربية للبلقان ، وفى سقوط القسطنطينية فى يد السلطان محمد

الفتاح وفي طرد فرسان القديس يوحنا من رودس (١٥٢٢) وفي دعم الحصار الذي فرضه فرانسوا الأول - حليف السلطان سليمان القانوني - على نيس في ١٥٤٣، وفي فتح وقبرص وكريت وفي العمليات البحرية التي قام بها خير الدين بارباروسا على طول السواحل الجنوبية الأوروبية ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كما بعثت الدولة العثمانية حملات الى المياه الإسلامية الجنوبية (الخليج العربى - البحر الأحمر - البحر العربى - المحيط الهندى) ضد البرتغاليين .

ومثلما أصبحت الإنكشارية أضحوكة العالم فى القرن التاسع عشر، أصبح الأسطول العثمانى شيئاً تافها لا يعتد به : وذلك يرجع الى العوامل الرئيسية التالية :

١ - كانت تعوز الأتراك العثمانيين الخبرة البحرية .

٢ - عدم بناء السفن الشراعية المحيطية التي كانت الطراز المتقدم المتفوق حينذاك .

٣ - سوء استخدام الاعتمادات المالية المخصصة للأسطول .

على أن المواجهة بين اسطول الدولة العثمانية ، واسطول البندقية وحلفائها فى موقعة ليبانتو فى ١٥٧١ وهزيمة الأسطول العثمانى تعتبر بداية لخروج الدولة العثمانية من قائمة الدول البحرية الكبرى ، وفقدت بذلك سلاح العصر حينذاك .

وخلال الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانونى وتولية سليم الثالث العرش فى ١٧٨٧ كان البلاط العثمانى والدوائر الحاكمة فى الدولة قد أصيبت بفساد شديد . فخلال هذه الفترة حكم حوالى سبعة عشر سلطانا ، كان منهم ثلاثة فقط على نوع من الكفاءة هم :

١ - محمد الثالث (١٥٩١ - ١٦٠٣) .

٢ - مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) .

٣ - مصطفى الثالث (١٧٥٦ - ١٧٧٣) .

وكان السلاطين الآخرون لا يمارسون الحكم إلا بواسطة وزراء كانوا أحيانا مثالا للفساد . وأحيانا أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار ، وأحيانا ثلاثة كانوا يقومون باصلاحات تعطى للدولة حيوية تدير بها أمورها لعدة سنوات . ولكن دون الاقدام على اصلاحات جذرية تنقذ الدولة من التخلف .

كان من أشد المهازل الدموية للبلاط العثماني ، مصارع أبناء السلاطين بيد الأخ الذي يتولى العرش دونهم ومن ذلك أن محمد الثالث خنق أخوته التسعة عشر .

وكثيرا ما كان يصل الى العرش صبيرة صغار أو سلاطين قصار العمر . فقد تولى كل من أحمد الأول وعثمان الثاني العرش في سن الرابعة عشر ومحمد الرابع كان في السادسة من عمره عندما تولى العرش . ومن السلاطين من كان معتوها من أمثال مصطفى الأول . ولأول مرة ثور قطاعات من الجيش وتقتل السلطان عثمان الثاني ، وكم من سلطان عزل من منصبه بمهانة وتحقير .

وكان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجرد سجناء في قبو مظلم ، وكانت تنعكس هذه الفترة المظلمة على سلوكهم خلال توليهم الحكم ، فمنهم من كان شديد الاسراف في الأبهة والقتل ، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب والسطو على مالية الدولة واخذ الرشوة وبيع المناصب . وكان لنساء البلاط تأثير قوى على السلاطين ، وخاصة السلطانة الوالدة التي كانت حريصة على الاحتفاظ بالملك لأولادها . ولقد جاء وقت في القرن السابع عشر كانت فيه الدولة تحت حكم سيدات البلاط .

وأصيبت الهيئات الحاكمة أيضا بالفساد ، اذ تولى المناصب العليا من لا تجربة له ، وفسدت الذمة في الإدارة ، وأهمل السلاطين عقد الديوان الذي اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية ، بل ان القضاء أيضا أصبح يسير بالرشوة لا بالعدل .

وتدهور نظام الإنكشارية حيث أصبح نظاما باليا لا يتمشى مع العصر الحديث . ويمكن أن نوجز العوامل والظروف التي أدت الى ضعف وتدهور هذا النظام فيما يلي :

١ — ان القاء نظرة سريعة على الحروب الطويلة المتتالية التي خاضها العثمانيون في البلقان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتي خاضوها ضد الدولة الفارسية خلال القرنين سالفى الذكر يجد أن الخسائر في الأرواح والأموال كانت مرتفعة للغاية .

٢ — كان ارتفاع الخسائر في الأرواح قد صاحبه فقد أجزاء متتالية من الأراضى البلقانية التي كانت تنفذ فيها ضريبة (الديو شرمة) ، وأخذ السلاطين يقللون من استجلاب

أبناء المسيحيين لادخالهم في الجيش ، ولهذا كان العثمانيون يضعفون بعملهم هذا الأساس الذى قام عليه النظام الإنكشارى .

٣ — حيث أن الإنكشارية كانوا أقوى قوة ضاربة في الجيش العثمانى شعور هؤلاء بمكانتهم وقدرتهم حتى أصبحوا يطلبون من كل سلطان جديد مبلغا من المال ، وإن لم يدفع السلطان لهم أثاروا الفتن عليه .

٤ — لم يعد الهدف العام الإسلامى واضحا أمام القوات الإنكشارية التى تقيم مدة طويلة في قلعة أو في مدينة نائية ، وفقد الإنكشاريون معنوياتهم بسبب ضعف نظم التدريب وعتاد الحرب، ولم تعد للسلطان تلك القداسة التى شب عليها الإنكشاريون من قبل . وأصبح هؤلاء الإنكشارية أشد عناصر الفساد في المدن التى يقيمون فيها ، حتى لقد هم بعض الولاة بالقضاء عليهم والتخلص منهم . إذ أصبحوا عناصر فوضى وابتزاز للأموال .

٥ — كان من المعتاد أن يربط الإنكشارية في قلاعهم وثكناتهم لمدة معينة ، ثم يستبدلون بقوة أخرى ، ولكن الذى حدث — خاصة في القرن الثامن عشر — هو استتقار الحاميات في معاقلها . وبسبب ضعف الدولة العثمانية ، ولقيام قوات الإنكشارية بمسؤوليات جمع الضرائب ، اندمجت هذه القوات تدريجيا في حياة المدينة ، وغادر رجالها ثكناتها وعاشوا حياة عادية ، وأصبح لهم أسراتهم ، وأصبحوا عنصر اضطرابات مستمر في الولايات وليس عنصر دفاع عنها .

٦ — أصبح نظام الإنكشارية نظاما للارتزاق . فقد كان لكل ضابط أو جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على (علوفة) نقدية أو عينية ، ولما ضعفت الدولة العثمانية وقصرت حكومة الباب العالى في دفع مرتبات الجند تولى هؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة ، أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها ، والشارى يصبح صاحب التذكرة . وبالتالي يصبح إنكشاريا ، حتى لقد وجد في قوائم الإنكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات .

كما فسد نظام الإنكشارية فسد نظام السباهية (الفرسان) العثمانى . وكان هذا النظام يقوم على أساس الاقطاعات الزراعية للسباهية، ولكن هذه الاقطاعات أصبحت

تعطى حتى للمحظيات سيدات القصر وموظفى الدولة ، دون أن يقدموا عنها فرسالة للدولة .

وفى مجال الأرض والضرائب لجأت الدولة الى نظام عقيم عرف باسم (الالتزام) ، أى أن يلتزم رأسمالى من رجال الدولة دفع الضريبة السنوية عن مساحة من الأرض يتولى هو من بعد ذلك جمع الأموال من أهلها ، وبالتالي يعتصر الملتزم الفلاح وأرضه ، بل أصبحت الولاية بأسرها تعطى التزاما للوالى فى مقابل مبلغ يدفعه للسلطان ، وظهر الدريكات أى أصحاب الوديان الواسعة التى يعاملونها وكأنها ملك خاص لأسرهم .

وحيث أن الدولة العثمانية كانت قد تركت الخدمات الاقتصادية والاجتماعية لأهل البلاد أنفسهم ، وأن هؤلاء لم يقوموا بهذه الخدمات ، فقد تدهور التعليم والمؤسسات الدينية ، وطفى العربان على الأراضى الزراعية ، وهوى تعداد السكان فى المدن بسبب الأوبئة .

ثم ان الامبراطورية العثمانية حافظت على تكتلاتها الداخلية العنصرية بينما كانت أوروبا تسير بسرعة نحو الدولة القومية المركزية المتجانسة . ولم يعد أسلوب الحكم العثمانى ولا أسلوب الحياة اليومية قادرا على الوقوف أمام الخصوم الأوروبيين .

ونظرا لضعف قوة الدولة فى الولايات نمت العصبية المحلية فى طول البلاد وعرضها ، ومما ساعد على ذلك أن سياسة الباب العالى (المالية) والعصبية كانت تضع كل ملة أو عصبية تحت حكم زعيم يكون هو المسئول عنها أمام السلطات العثمانية ، الأمر الذى حفظ للقوميات قوميتها وطابعها ، ولم يتبع الأتراك سياسة (التتريك) أو هضم القوميات . ولهذا ظلت الأسس القومية سليمة لدى العناصر التى حكمها الأتراك . وعندما تطلعت هذه القوميات الى الاستقلال عن الدولة العثمانية وجدت فى قوميتها صلابة كافية للصمود أمام القوات العثمانية ، وفى البلاد العربية ظهر العديد من الأسرات المحلية الحاكمة (١) .

(١) آل جنبلاط فى حلب ، آل العظم فى دمشق وطرابلس وحلب وصيدا ، آل معن ، وآل شهاب فى لبنان ، ظاهر العمر فى فلسطين ، أحمد باشا الجزائر فى عكا ، الأشراف فى

وبذلك تكون الحكومة العثمانية قد فقدت سيطرتها المباشرة على الولايات ، وأصبحت الولايات مصدر متاعب كبيرة للسلطان وللبابه العالي لتوالى تمرداتها من وقت لآخر ضد السلطان بغية الامتناع عن تأدية التزاماتها نحو السلطنة العثمانية ، والاكتفاء فقط بالتبعية الاسمية ، وبينما كانت الدول الكبرى تنزل الهزيمة بالدولة العثمانية سنة بعد أخرى ، وكانت الثورات الداخلية لا تهدأ ، كان الفساد يزداد سوءا في الداخل .

فلماذا لم تسقط الدولة العثمانية بعد أن أصيبت بهذه الآفات القاتلات ؟ هناك عدة أسباب أعطت للدولة العثمانية عمرا طويلا رغم هذا الضعف الشديد :

١ - كانت الدول الكبرى الأوروبية تكره الدولة العثمانية وكانت روسيا (١) تريد القضاء عليها ولكن كانت هناك دول أخرى تخشى من أن تصبح روسيا من القوة لدرجة تضر بمصالح الدول الأوروبية الأخرى . ومن هنا أعطى التنازع الأوروبي للدولة العثمانية فرصا طويلة للبقاء .

٢ - كان البرالى الذى يثور ضد السلطان يجد بجواره والى يحد من نموه (٢) فكان كل والى يتطلع الى السلطان ويخشى جاره .

٣ - كان الإسلام أساس الدولة ، وكانت الدولة العثمانية تمثل الدولة الإسلامية العامة الأمر الذى أوجد نوعا من الهدف العام يربط بين أجزاء الدولة الممزقة . وكان هناك رجال مصلحون يوجهون الانذار بعد الانذار لانقاذ الدولة من الانهيار . وهناك من قارن بين ما أصبحت عليه الدولة وما كانت عليه أيام سليمان القانونى ، حتى لقد قال أحد قضاة الأتراك فى القرن السابع عشر أن الوزراء هم أعداء الدولة والدين . ولكن ظهر وزراء عظام استطاعوا أن يدافعوا عن الدولة عادية السقوط بل ورفعها الى مكانة أعلى .

★ ★ ★

الحجاز ، آل سعود فى قلب الجزيرة ، الأئمة الزيدية فى اليمن ، اليعاربة ثم البوسعيد فى مسقط وعمان ، آل آفراسياب فى البصرة ، المماليك فى العراق ، الامارات الكردية المتعددة فى شمال العراق ، المماليك فى مصر ، الأسرة القرميلية فى طرابلس الغرب ، البايات فى تونس ، الدايات فى الجزائر .

(١) نمت روسيا بسرعة منذ أيام بطرس الأكبر وأصبحت هى والامبراطورية الرومانية المقدسة تتناوبان الحرب ضد الدولة العثمانية .

(٢) والى بغداد يراقبه والى الموصل ، ووالى دمشق يراقبه والى حلب ، وهكذا .

كانت أحوال الدولة معرضة للتدهور أكثر لولا أنها رزقت — خلال هذه الفترة من ضعف السلاطين — بعدد من الصدور العظام الذين حفظوا لها قوتها وقدرتها ، وبوجه خاص عدد من الصدور العظام من أسرة (كوبرلى) التى حكمت الدولة العثمانية تقريبا بين ١٦٥٦ — ١٧١٠ م . ومن أبرز رجالاتها (محمد كوبرلى) الذى كان يشغل فى أول حياته العملية مناصب متواضعة . ثم ارتفع بكفاءته الى مناصب الحكم والإدارة فى دمشق وطرابلس وبيت المقدس ، ثم تولى الصدارة العظمى ، وأعطى من السلطات ما لم يتمتع بمثلها قبله أحد . وقد استخدم محمد كوبرلى سلطاته فى الضرب على أيدي العابثين بمصالح الدولة من رجال الإنكشارية أو السباهية أو رجال الدين ، وخلفه ابنه أحمد فى (١٦٦١) ، وتوالى من بعد عدد من رجالات هذه الأسرة (١) ، الذين أعطوا للدولة القدرة على الصمود أمام القوى المعادية المتعاضمة .

كان الصراع بين السلطنة العثمانية وبيت الهابسبورج على المجر متتاليا لا يهدأ الا لفترة قصيرة . وكانت كفة الامبراطورية الرومانية المقدسة هى الراجحة فى الغالب ، وبدأت أكبر الهزائم التى منى بها العثمانيون فى موقعة سان جوتار فى (١٦٦٣) ، ولم يخفف من وقعها سوى الانقسامات الشديدة فى جبهة الهابسبورج ، وسوى وجود أحمد كوبرلى فى الصدارة العظمى الذى دفع بالجيش العثمانى حتى أسوار (فيينا) فى (١٦٨٣) . وكان المدافعون عن (فيينا) يمثلون لونا من التكتل الصليبي ، وكان أمل الأتراك فى النصر يتركز على امتناع البولنديين عن المشاركة فى الدفاع عن فيينا ، وكان دبلوماسيو لويس الرابع عشر هم الذين قاموا بتلك المحاولات دون جدوى ، وانتهت المعارك بهزيمة الجيش التتارى .

وبعد ذلك تراجع الأتراك باستمرار ، وأخلو (بودا) سبتمبر — ايلول ١٦٨٦ حتى وصلوا الى نهرى الساف والدانوب ، ثم تخلصت هنجاريا (المجر) من الاحتلال التركى بعد كفاح دام قرن ونصف قرن تقريبا ، وحاولت جيوش الامبراطورية الرومانية المقدسة ان تتابع تقدمها إلا أن مصطفى كوبرلى — الصدر الأعظم — صدها الى ما وراء الساف والدانوب . ولم تنته سلسلة هذه الحروب الا بمعاهدة كارلوفينز فى ٢٦ يناير — كانون الثانى ١٦٩٩ التى وضعت المجر تحت حكم هابسبورج وتلتها حرب كانت هزيمة للأتراك

(١) أبرزهم : مصطفى وحسين ونعمان كوبرلى .

الذين وقعوا معاهدة جديدة هي معاهدة باسادويتز في ١٧١٨ وأصبحت (باجيسراد) بمقتضاها تابعة للنمسا . وتوالى ضغط الامبراطورية الرومانية المقدسة على الدولة العثمانية في البلقان طوال القرن الثامن عشر ، ولكن دون الحصول على مكاسب جوهرية . كذلك التي حصلت عليها من قبل ، وتمثل الحرب التي وقعت بين الدولتين في ١٧٨٨ آخر حرب بينهما في القرن الثامن عشر .

وكانت الامبراطورية الرومانية المقدسة قد دخلت هذه الحرب كحليف لروسيا في حربها ضد العدو اللدود لها الدولة العثمانية ، وانتهت هذه الحرب بصلح سستوفا بين الأتراك والنمساويين سنة ١٧٩١ .

أما العلاقات بين الأتراك والروس حتى هذا التاريخ فكانت قد تحولت الى شبه أزمات متتالية منذ أيام بطرس الأكبر ، على أن روسيا ظهرت أيام كاترين الثانية كقوة قادرة على أن تملأ مأربها على الدولة العثمانية التي ظهر عليها الضعف فعلا .

كانت كاترين الثانية ذات طموح كبير ، وهي التي عرفت كيف تقسم بولندا مع النمسا وبروسيا ، وتطلعت الى تفويض الدولة العثمانية ، وكانت خططها في هذا الصدد بعيدة الأهداف متطورة التنفيذ . فقد عازمت على ضرب العثمانيين في أكثر من جبهة بل وفي أماكن كان من المستبعد جدا أن يصل إليها الروس ، ففي الوقت الذي زحفت فيه القوات الروسية ضد العثمانيين في الجبهات البرية التقليدية ، بعثت بأسطولها ليدور من البلطيق حول أوروبا الى البحر المتوسط ليتعاون هناك مع القوى الثائرة ضد السلطان العثماني من أمثال ظاهر العمر في فلسطين وعلى بك الكبير في مصر ومنصور الشهابي في لبنان . وقد قام هذا الأسطول فعلا بعدة عمليات بحرية ، وضرب فيما ضرب بيروت ، وتعاون مع العناصر البلقانية الثائرة على السلطان العثماني ، وانتهت هذه الحرب بمعاهدة مذلة عرفت باسم معاهدة كوجك قينارجي ١٧٧٤ .

بمقتضى معاهدة كوجك قينارجي حصل الروس على مكاسب كبيرة للغاية :

- ١ — أصبح القرم تحت يد الروس اسميا ولن يلبث أن يصبح تحت يدهم فعليا .
 - ٢ — أن تصبح روسيا إحدى الدول الأكثر تفضيلا من حيث المعاملة أي تحصل على أي امتياز تحرزه دولة أخرى أي أصبحت من الدول المتمتعة بالامتيازات .
- (١٠ — الشعوب الاسلامية)

ومعاهدات الامتيازات التي بدأت في ١٥٣٥ أصبحت ذات طابع آخر في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر والعشرين . كانت أولى هذه المعاهدات قد عقدت بين تركيا وفرنسا في ١٥٣٥ في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في ذروة قوتها وقد حصلت كل من بريطانيا (١) والامبراطورية الرومانية المقدسة وغيرها من الدول الأوروبية الكبرى حينذاك على معاهدات مماثلة أو مؤكدة على هذه الامتيازات . وكان حصول روسيا على معاهدة ١٧٧٤ بداية استغلال معاهدات الامتيازات بشكل يتعارض مع سلامة الدولة العثمانية ، حيث أن ضعف الدولة العثمانية أعطى للدول الأوروبية — استنادا الى تلك المعاهدات — فرصة التدخل في أمور الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية الرعايا المسيحيين فيها أو عن طريق منح الحماية لأعداد كبيرة من رعية السلطان أو استغلال مواد تلك المعاهدات في منع الرعايا الأتراك من استرداد حقوقهم من التجار والأجانب المعتمدين على تأييد القناصل . بل لقد فتحت هذه المعاهدات البلاد العثمانية أمام التجار الأجانب بشكل أضر كثيرا جدا بمصالح التجار الوطنيين . وأصبحت معاهدات الامتيازات سيفا مسلطا على رقاب الأتراك في فترة ضعفهم .

وتوالى الحروب بين الدولة العثمانية من جهة والدولتين الروسية والنمساوية من جهة أخرى ، وتوالى تراجع الدولة العثمانية في البلقان بصفة خاصة .

كان البلقان أرضا معادية فعلا للأتراك والمسلمين . وكان سوء الحكم عاملا جوهريا في تعميق هذه الأزمة الدينية بين المسلمين والبلقانيين . ولكن الظلم الذي كان يقع على الناس في البلقان كان يصيب المسلمين والمسيحيين على حد سواء ومن ذلك أن الإنكشارية كانوا يضطهدون المسلمين وكذلك الرعية المسيحية ، فكانت الثورة ضد هؤلاء الإنكشارية عنيفة ودموية خلال تلك الفترة ، وكانت الثورة بوضوح موجهة ضد الفساد والإنكشارية وليس ضد الحكومة العثمانية نفسها .

وبعث الشعب الصربي بمندوبيه الى الباب العالي ليعرض شكواه عليه ، وكانوا في

(١) تعتبر معاهدتها مع تركيا في ١٦٧٥ أساس التمتع بهذه الامتيازات ، كما أن معاهدة ١٥٣٥ أكدت في ١٧٤٠ واعتبرت فرنسا هذه المعاهدة الأخيرة معاهدة الامتيازات لفرنسا .

نفس الوقت يكسبون معاركهم ضد الإنكشارية ، ونظرا لماطلة الباب العالي في تسوية المشكلة قوى الاتجاه نحو العمل على الاستقلال لصربيا ، خاصة وأن روسيا كانت تؤيدهم بدرجة أوضح بكثير من تأييد النمسا لهم . وادى ذلك الى أن تازمت العلاقات بين السلطان العثماني وقيصر روسيا . وحيث أن القيصر كان يصدد حرب ضد الامبراطور نابليون^(١) ، كان من اليسير على هذا الامبراطور أن يكسب تحالف السلطان ، ولم تلبث أن وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية . ولكن كان نابليون يسعى الى كسب القيصر ، حتى ولو كان هذا على حساب حليفه الشرقى السلطان العثماني ، وحدث هذا فعلا في تلست . ١٨٠٧ .

ولقد استمرت الحرب بين الأتراك والروس ودارت المعارك بعنف في بلاد الصرب ، ولم تلبث خطط نابليون الأول أن أزعجت القيصر ، وادى هذا الى أن يتصالح مع السلطان في ١٨١٢ في معاهدة بوخارست وهي نفس السنة التي غزا فيها نابليون روسيا . وحصلت الصرب على نوع مخفف من الحكم الذاتى فى تلك المعاهدة ، ولكن نصوص المعاهدة كانت غير محددة الأمر الذى أدى الى تجدد القتال بين الطرفين التركى والصربى مرة أخرى ، وكانت كفة الأتراك هى الراجحة بسبب انشغال روسيا فى مقاومة الفوز النابليونى ، وعدم قدرة النمسا^(٢) المهيضة الجناح على التحرك الى جانب الصرب . إلا أن المقاومة الصربية المتفرقة ظلت موجودة حتى أعيد النظر فى معاهدة بوخارست فى ١٨٢٦ ، ثم فى ١٨٣٠ بعد هزيمة الأتراك أمام الثورة اليونانية والتدخل الأوروبى ، وحصل الصرب على إمارة وراثية ومجلسين أعطاهما شكل الحكم الذاتى بوضوح وتولى (ميلوش) أول إمارة صربية فى نوفمبر - تشرين ثانى ١٨٣٠ فكان ذلك بداية حصول الصرب على الاستقلال التام الذى ستفوز به فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

على أن الشعب البلقانى الذى استنطاع أن ينتزع من الأتراك استقلاله التام هو الشعب اليونانى .

(١) انظر عبد العزيز نوار وعبد الحميد البطريق : التاريخ الأوروبى الحديث ، ص ١١١ وما بعدها .
(٢) ذات مد تليفتم عزائم شديدة على يد نابليون الأول .

الفصل السادس

ازمات الدولة العثمانية منذ أوائل القرن التاسع عشر
حتى مؤتمر برلين

لقد تعرضت الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر لسلسلة من الأحداث كانت تؤكد الواحد منها بعد الأخرى أن الدولة العثمانية لم تعد دولة قوية وإنما يمكن أن تصبح هدفا للتوسع والاستعمار وكانت الحملة الفرنسية على مصر قد أثبتت حين ذاك أن الدولة العثمانية غير قادرة على اخراج الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة الانجليز .

حقيقة خرج الفرنسيون من مصر ١٨٠١ ولكن الدولة العثمانية مرة أخرى وجدت في فرنسا الدولة التي يمكن أن تعينها وتساعدتها ضد روسيا العدو اللدود للدولة العثمانية ولذلك لم تلبث أن تحسنت العلاقات العثمانية الفرنسية ثم وقعت حرب عثمانية انجليزية ترتب عليها ارسال انجلترا حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ أى بعد تولية محمد على مصر بعامين فقط .

وتمكنت مصر من تحرير نفسها من هذه الحملة الانجليزية المحددة ولم يلبث السلطان العثماني أن طلب من محمد على القضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، ونفذ محمد على رغبة السلطان ووصلت قواته حتى الخليج العربي ١٨١٨ ثم انسحبت من هناك بينما كان الانجليز يعملون على توطيد أقدامهم هناك في الخليج العربي وبينما كان محمد على يسعى الى السيطرة على وادي النيل وتكوين جيش حديث استنجد السلطان العثماني بمحمد على لانقاذ العراق من الغزو الفارسي الذي وصل حتى حصار بغداد « ١٨٢٠ » كما استنجد السلطان العثماني بمحمد على لاقحام ثورة كريت واخماد الثورة اليونانية .

كان اليونانيون قد احرزوا تقدما ملحوظا تحت الحكم العثماني ، وتمتع رجال الدين اليونان بمكانة كبيرة في اليونان وفي مختلف أرجاء الدولة العثمانية ، وكانوا يشكلون هيئات الاكليروس في الكنائس البلغارية والصربية والالبانية ، حتى لقد أصبحت هذه الشعوب واقعة تحت سلطات الأتراك المالية والإدارية وسلطات الاغريق في الشؤون الروحية ، وأصبح اليونان سادة التجارة والملاحة ، ونشأت طبقة من الرأسمالية اليونانية المحبة لوطنها ولتاريخها وآدابهم الاغريقية ، وخدم عدد من المثقفين اليونان في

مناصب الدولة • وأصبحت وظائف الترجمة بالذات احتكارا ليونانيي الفنار • وشعر اليونانيون خلال ذلك أنهم أعلى مكانة وعقلية من الأتراك ، وكانت وراء هذه الاتجاهات دولة كبيرة أرثوذكسية ، وهى روسيا • حتى لقد قيل أن قيصرية روسيا كانت تسعى الى بناء امبراطورية يونانية على حساب الدولة العثمانية •

ولقد كانت انتصارات الروس ، وخاصة منذ معاهدة (كوجك قينارجى) ، تثير روح التحرك لدى اليونانيين ، وكان لروح الثورة الفرنسية ونمو الفكر القومى أثره الكبير فى تحرك اليونانيين نحو أهداف قومية وتحررية • خاصة وأن الثورات البلقانية ضد الدولة العثمانية لم تهدأ فى المجر والصرب بل نشبت كذلك ثورات بزعامة قيادات إسلامية مثل على باشا والى (يانينا) •

كانت فى روسيا ظواهر قوية تحث اليونانيين على الاعتقاد أنها مستعدة لخوض حرب لانقاذ اليونان من الحكم التركى ، فلقد وصل اليونانى الأصل كابوديستريا الى منصب وزير خارجية فى حكومة قيصر روسيا ، بل مما شجعهم على الثورة أن صحافة أوروبا كانت تتحدث باستمرار عن مجد اليونان الماضى ايام الأغريق وبيزنطة ، وعن مأساتها تحت حكم الأتراك •

نمت الحركات الثورية والجمعيات السرية والعلنية اليونانية وانتشرت وأصبحت تشكل قوة ضاربة فى ١٨٢٠ ، وكان ابسلانتي — وهو ابن امير سابق لولاشيا — يتولى من منفاه فى روسيا مهمة الإشراف على تنظيم قوى الثورة • وفى ١٨٢١ ذهب الى ملدافيا وولاشيا على أمل أن يجد مساعدات من يونانييها ، ولكن وجد الانقسام شديدا هناك بين الزعامات ، بل كان الزعماء الرومانيين (١) فى هاتين الولايتين يخشون من قيام حركة هيلينية أغريقية لأنهم عانوا كثيرا من تسلط اليونانيين • ولكن فى اليونان كان حظ ابسلانتي أوفر اذ أعلنت الثورة (Evangelismos) فى ٢٥ مارس ١٨٢١ •

من العوامل التى أعطت اليونانيين قدرات عسكرية سريعة وفعالة عملهم — لسنوات طويلة جدا — فى الملاحة البحرية ، واثقانهم المهارات الملاحية وتحويل السفن التجارية الى حربية ، ولهذا كانت الحرب عند الثوار حربا فى البر والبحر ، وكانت تواجه العثمانيين.

(١) الأفلاق والبغدادى ولاشيا وملدافيا هما أصل رومانيا الحالية •

بمصاعب كبيرة لكثرة الجور المتعددة المبتالية والمنعزلة ، ولكثرة الجبال والوديان والممرات التي اشتهرت بها البلاد اليونانية والتي كان اليوناني يعرف أسرارها وكيف يستخدمها استراتيجيا ضد القوات العثمانية التي وجهت لآخماد ثورته .

حقيقة كان من اليسير على الأتراك العثمانيين أن ينزلوا الاضطهاد - ردا على تلك الثورة - بنيونانيي الاستانة والأناضول ، ولكن كان اخضاع الثورة يتطلب امورا أخرى . إذ كانت المعارك في اليونان أشبه بالمذابح المتبادلة بين الطرفين في وحشية بالغة ودون تقدير لقوانين الحرب والأسرى ، مثلما حدث عندما استولى الثوار على تريبولتيزا في ٥ أكتوبر ١٨٢١ إذ ذبحوا حوالي ثمانية آلاف تركي ثارا لمن قتلهم الأتراك . وكانت فظائع الأتراك كثيرة في شعراء أوروبا العظام كوامن حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين فكانوا ينشدون شعرا مؤثرا عن فتيات اليونان الضائعات بين أيدي الأتراك ، والدمار الشامل الذي أضاع معالم القرى الجميلة في وديان (خيوس) وعلى هذا الوتر الحساس كان يضرب فيكنور (هوجو) الفرنسي ، ولورد (بيرون) الانجليزى (١) ليهثوا الحمية في نفوس الشعوب الأوروبية .

وكانت الصحافة الأوروبية ، وخاصة الانجليزية - شديدة كل الشدة على الأتراك، ترى في كل مذبحه يونانية للأتراك نصرا ، وفي كل مذبحه تركية لليونانيين نكبة حلت على اليونان أم الحضارات .

وكانت القروض تعقد للشوالا في لندن ، والمؤن ترسل من كافة الموانئ الأوروبية ، والمتطوعون يقدون للمساهمة . لقد كانت حملة صليبية جديدة مقنعة .

كان الموقف الأوروبي معقدا في أول الأمر ازاء الثورة اليونانية ، كانت روسيا تريد التأييد القوي للثورة . ولكنها كانت تخشى الانفراد وحدها إذ في انفرادها بالمسألة اليونانية إثارة لمخاوف جارتها القلقة النمسا ومخاوف بريطانيا الشديدة الحذر من أى تحرك روسي . وكانت روسيا حينذاك عضوا في الحلف المقدس The Holy Alliance وكانت الدول الكبرى الأوروبية المتعاقدة في المحالفة الرباعية Quadyuple Alliance (٢) قد

(١) مرض ومات في موسولينجي .

(٢) عقد الحلفان (الحلف المقدس) و (الحلف الرباعي) ضد عودة فرنسا الى

التوسع وضد الفكر الثوري التحرري .

نصت على ضرورة عقد مؤتمرات دولية لمواجهة المشكلات الدولية . وكان مؤتمر (فيرونا) (١) قد نجح في إعطاء فرنسا الضوء الأخضر لضرب الثورة في اسبانيا وكان هناك اعتقاد شائع أن مؤتمرا على هذا الشكل يمكن أن يقرر تدخلا اوروبيا لصالح الثوار اليونانيين .

وخلال المباحثات بين الدبلوماسيين الأتراك ودبلوماسيي الدول الكبرى ، أكد الأتراك أن الدول الأوروبية تعنى بالتدخل إلى جانب الثوار المسيحيين الواقعين تحت الحكم التركي الإسلامي ، أما إذا ثار مسلمو الهند أو روسيا فلا تتحرك أى من هذه الدول دفاعا عنهم . وكان من المعتقد أن مؤتمر فيرونا سيتخذ قرارا ما ازاء المشكلة اليونانية ، ولكن انفضى دون قرار لأن الدول الكبرى كانت تخشى من حرب روسية تركية تؤدي الى تفوق روسى في البلقان الأمر الذى كان يتعارض مع مصالح النمسا . وكان على رأس حكومة النمسا حينذاك مترنخ زعيم الرجعية المشهور الذى كان يرى في نجاح الثورة اليونانية تشجيعا لثورات القوميات العديدة التى كانت تتكون منها الامبراطورية النمساوية .

وكان الروس ينظرون الى مستقبل الثورة نظرة تفاؤل ، وكانوا يعتقدون أن الأتراك لن يلبثوا أن يقبلوا مشروعهم الهادف الى تكوين ثلاث امارات يونانية :

- ١ - اليونان الشرقية : وتتكون من تسالى - بيوتيا - اتيكا .
- ٢ - اليونان الغربية : من ابيروس وأكرنانى .
- ٣ - اليونان الجنوبية : تتكون من المورة وكريت . وهو مشروع طموح يعطى اليونانيين أرضا لن يتوصلوا اليها إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

إلا أن هذه الآمال الأوروبية فى الانتصار اليونانى تهاوت بسرعة عندما طلب السلطان محمود الثانى من محمد على باشا والى مصر أن يرسل قواته بقيادة ابنه ابراهيم باشا لاختضاع ثورة المورة . وكان محمد على مستعدا للقيام بهذا الدور على اعتبار أن الخطر موجه ضد دولة المسلمين العامة الدولة العثمانية .

كان الجيش والبحرية المصرية قادرة على تصفية الثورة اليونانية ، وبدا هذا واضحا من سرعة اخمادها لثورة كريت ١٨٢٢ وسيطرتها على معقل الثوار الواحدة بعد الأخرى بسرعة ، وانتشرت الشائعات عن أن ابراهيم باشا عزم على اخلاء اليونان من أهلها

ليحل محلها سكان من العرب • وألهبت هذه الشائعات شعوب أوروبا التي نشطت بشدة للعمل ضد النجاح المصرى فى المورة ، وتوافد فرنسيون وانجليز وألمان بل ووصلت سفن تابعة للولايات المتحدة الأمريكية الى اليونان تأييدا لها ضد الجيش المصرى • ولعب اليونانيون دورهم بمهارة فى هذه الظروف التى بدت فيها قضيتهم خاسرة إذا صمدوا ، وحدهم أمام الجيش المصرى لفترة ليست بالقصيرة ، ولكن لم تلبث معاقلم أن تهاوت تحت ضربات الجيش المصرى المنظم على أسس حديثة ، وكانت تحركاته وأعماله على شكل لم تتعده أوروبا من الشرقيين من حيث معاملة العدو وفق قوانين الحرب وعدم التعدى على العسزل •

لقد أصبح اليونانيون فى حاجة الى تأييد أوروبى مباشر لتحقيق أهدافهم ، ولهذا عرض زعماء منهم عرش اليونان على أمير فرنسى كسبا لفرنسا لجانبهم ، وعرض بعضهم وضع اليونان تحت الحماية البريطانية ، وكان هناك زعماء عديدون يونان يعملون بتوجيه من روسيا • وكانت بريطانيا بالذات ترفض انفراد روسيا بالعمل وحدها ، وترفض أن يتولى فرنسى امارة اليونان ولهذا قرر الانجليز الوصول الى تفاهم بين الدول المعنية حول مستقبل اليونان واتفق فى بروتوكول سان بطرسبورج فى ٢٣ مارس - ٤ ابريل ١٨٢٦ على إعطاء اليونانيين نوعا من الحكم الذاتى فى اطار التبعية الاسمية للسلطان العثمانى • ولكن بعد ذلك بوقت قصير سقطت موسولونجى فى يد الجيش المصرى ، وكانت آخر معقل كبير للشوار (٢٢ ابريل - نيسان ١٨٢٦) •

وضخم الساسة ووسائل الاعلام الأوروبيين أنباء سقوط موسولونجى ، وكان سقوطها موضوع خطبة (شاتوبريان) فى مجلس النواب الفرنسى ، وندهبها (فيسكتون هوجو) بأشعاره وكانت الدعوة واضحة نحو حملة كبرى جديدة لانقاذ اليونان • ولهذا اتجهت كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا الى عقد معاهدة لندن فى ٦ تموز ١٨٢٧ التى تقرر فيها تنفيذ بروتوكول ١٨٢٦ وفرضه بطريقة ما على الطرفين العثمانى - المصرى واليونانى ، ومن هنا كانت فكرة ارسال الأساطيل الفرنسية والبريطانية والروسية ومحاصرها الأسطولين المصرى والتركى فى ميناء نافارين Navarina ، فعلا أرسلت هذه الأساطيل وحاصرت الأسطولين المصرى والتركى فى هذا الميناء ، واتفق على عدم اتخاذ أية اجراءات عسكرية من أى طرف انتظارا لنتيجة المفاوضات الدبلوماسية الجارية حينذاك .

وكل الأخبار والروايات تؤكد ان حادثة اطلاق النار واغراق الأسطولين المصرى والتركى فى ميناء نوارين فى ٢٠ تشرين الأول - أكتوبر ١٨٢٧ على أنها مجرد مصادفة كانت نتيجتها هى غرق الأسطول المصرى والعثمانى ولكن اعتبر ذلك الحادث فى مصلحة روسيا بالذات ، وأحدث ذلك امتعاضا شديدا فى الدوائر السياسية البريطانية . وفى اعتقادنا أن الحكومة البريطانية كانت تريد فرض القيود الشديدة على الأسطولين المصرى والعثمانى وأن القائد الانجليزى كادرنجتون وجد أن من الخير القضاء عليهما حتى تسوى القضية اليونانية بالطريقة التى تريدها بريطانيا ، وهذا ما حدث فعلا .

فضل محمد على بعد ذلك سحب قواته من اليونان وتم له ذلك فعلا ، ورفض أن يشارك السلطان محمود الثانى - الذى كان قد قضى على الإنكشارية فى ١٨٢٦ - فى حربه ضد روسيا . ووجلت الدول الكبرى الأخرى أن الأمور تتحول بسرعة لصالح روسيا ، ولهذا أسرع فرنسا الى ارسال جيش الى المورة باسم حماية اليونان من القوات المصرية ، وفى الحقيقة لمنع الجيش الروسى من الذهاب اليها تحت ستار مساعدة اليونان على الاستقلال .

ولقد كانت الجيوش الروسية تتقدم بسرعة فى البلقان حتى لقد احتلت أدرنة فى ١٩ اغسطس - آب ١٨٢٩ ، وكانت بعض الدوائر السياسية الفرنسية تريد استغلال هذه الفرصة بالتحالف مع روسيا وبروسيا ضد النمسا وبريطانيا لكى تستطيع من وراء ذلك التخلص من قيود معاهدات باريس ومؤتمر فيينا ١٨١٥ ، ولكن نيقولا الأول - قيصر روسيا - كان يخشى فرنسا تماما ، وكان فى نفس الوقت موقنا أن الجبهة الروسية - الفرنسية اضعف من الكتلة الأوروبية الأخرى ، وأن من الخير له الحصول على مكاسبه بنفسه دون معونة فرنسية ، خاصة وأن السلطان العثمانى محمود الثانى أبدى رغبته فى الوصول الى صلح ثم أن بريطانيا كانت تضغط عليه بشدة لقبوله حتى لا يتعرض السلام الأوروبى للخطر . وفعلا وقع السلطان معاهدة أدرنة مع القيصر فى ايلول - سبتمبر ١٨٢٩ التى اعترف فيها السلطان باستقلال اليونان، وكانت هذه الدولة الجديدة كانت تقتصر على المورة واليونان الوسطى بما فيها موسولنجى وايبوى وجزر الكيكلاذيز .

كانت هذه الهزائم المتلاحقة من أيام كوجك قينارجى حتى استقلال اليونان قد أبرزت بوضوح أن الدولة العثمانية بحالتها تلك كفيلة بأن تسقط بين يد أعدائها ، بل لقد ظهرت في الدوائر السياسية الأوروبية ، وخاصة على يد الدبلوماسيين الروس ، مشروعات لاقتسام الدولة العثمانية . وبدأ واضحا أنه إن لم تعمل حكومة الدولة العثمانية على إعادة تنظيم نفسها على أسس حديثة فمصيرها هو التمزق والاققسام على مائدة الدول الامبريالية الأوروبية المتربصة بها . ولهذا ظهرت حركة الاصلاح من ابتداء عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٧ - ١٨٠٧) .

★ ★ ★

الفضل النابج

حركات الاصلاح والتنظيمات
في القرن التاسع عشر

كانت هناك محاولات عثمانية لتجديد شباب الدولة وذلك بالاقتباس من الغرب ، وكانت حضارة الغرب تتسرب بشكل أو بآخر الى الدولة العثمانية ، ولكن بشكل بطيء . ومن ذلك استخدام الطباعة على يد (ابراهيم متفرقة) في اوائل القرن الثامن عشر وحيث اقتصرَت الطباعة على الكتب غير الدينية والشرعية ، ظهر من بعد ذلك عدد من المثقفين العلمانيين من غير رجال الدين .

كذلك وفد عدد من الخبراء الأجانب على الدولة العثمانية ووضعوا خبراتهم في خدمة العثمانيين من أمثال الفرنسي Bonval والبارون دي توت Tott .

وكانت الاحتياجات العسكرية تفتح أمام الأتراك بعض مجالات الاقتباس ليس في العلوم الجديدة فقط ولكن كذلك في العلوم الطبية وفي تعلم اللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية .

وتعتبر الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فترة هزت كافة الأسس التي كان يقوم عليها المجتمع الأوروبي أو الشرقي ، فالثورة الفرنسية جعلت أوروبا تواجه أفكارا جديدة واتجاهات سياسية جديدة ، والحركة الإصلاحية التي سارت عليها الدولة العثمانية منذ سليم الثالث (١٧٨٧ - ١٨٠٨) كانت بداية عهد جديد من الإصلاح والتغيير لانقاذ الدولة من الأطماع الأوروبية وسياسة التقسيم التي كانت تنادي بها روسيا ، ومن الضغوط الاستعمارية التي كانت تشنها بريطانيا وفرنسا ، ومن الضغوط العسكرية المتتالية من جانب الامبراطورية النمساوية ، ومن جانب الدولة الفارسية .

ولا شك أن الثورة الفرنسية هزت أفكار سليم الثالث ولكن فكرة الإصلاح والتغيير كانت تملئها ضرورات داخلية أقوى من تأثير الثورة الفرنسية . فعلى يد سليم الثالث كثرت البعثات التركية الى أوروبا ، وشجع التعليم وخاصة العسكري منه ، وتحدث عن وغبته في إلغاء نظام الالتزام ، ودعا الى انشاء (مجلس مشورة) من كبار الموظفين ، وفعلا عقد مجلسا من هذا النوع ، وطلب من كبار موظفيه أن يكتبوا آراءهم فيما يجب أن (١١ - الشعوب الاسلامية)

يجرى من اصلاحات لانقاذ الدولة من تخلفها عن ركب الحضارة ، وخاصة من حيث انشاء جيش جديد قادر على دفع العدوان عن الدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) .

كان سليم يدرك ان الإنكشارية لم يعودوا قادرين على التطور وان النظام الجديد يجب ان ينشأ بعيدا عنهم ، ومن هنا شرع في وضع النظام الجديد على أسس اوروبية . ولكن الإنكشارية أدركت ان حتفها في تفوق هذا النظام الجديد . فثارت على السلطان وقتلته في ١٨٠٨ .

نجا محمود الثاني - الذي اعتلى العرش في ١٨٠٨ - من مصير سلفه سليم الثالث لأنه اختبأ فوق سطح القصر . وعندما تولى السلطنة كان موقفه مزعزعا لأن العلماء والإنكشارية - الذين اسقطوا سلفه - كانوا اقوياء وبالمضاد للمحاولات التي تبذل لاصلاح الدولة . واما سلطة محمود الثاني خارج العاصمة فكانت هي الأخرى ضعيفة للغاية ، إذ كانت حكومات العصبية في الولايات قد شلت تدخل الباب العالي في أمورها .

كان محمود الثاني يضرر الاصلاح ، وكان يبحث عن وسيلة تمكنه من القيام به دون ان يثير أعداء الاصلاح ، ولذلك كان يتلمس طريقه ببطيء . بل كان يهدف اولا الى أن وطد سلطته في داخل البلاد لكي يفرض خطته الاصلاحية فرضا ، وحين عزم على تحقيق هذا الهدف واجه ازمات في منتهى التعقيد والخطورة . ويمكن ان نحدد الرئيسى منها على النحو التالى :

١ - الفزوة الانجليزية لمصر في ١٨٠٧ والفوضى التى حدثت في مصر خلالها وبعدها حتى عقد الصلح مع بريطانيا في ١٨٠٩ .

٢ - انتصارات الموحدين بقيادة آل سعود وسيطرتهم على البلاد من حدود العراق حتى الحجاز .

٣ - القلاقل المزمنة في البلقان .

٤ - الضغط الروسى الذى كان أشبه بحرب متصلة .

٥ - الضغط الفارسى على العراق الذى كان هو الآخر أشبه بحرب متصلة في تلك النواحي .

وفوق هذا وذاك كانت التطورات العالمية الكبرى الناجمة عن سياسات نابليون التوسعية. وردود فعلها تثير المتاعب المتواصلة للدولة العثمانية بطريقة أو بأخرى . فخلال الفترة الأخيرة من الحروب النابليونية اشتبكت الدولة العثمانية مع روسيا في حرب طويلة استمرت من ١٨١٠ الى ١٨١٢ ، وبعد سقوط نابليون نشطت روسيا في إثارة القلاقل والثورات في البلقان ، وتخللت الثورة اليونانية حرب عثمانية - روسية ، انتهت بمعاهدة مذلة في ١٨٢٩ .

وكانت الجبهة الشرقية لا تقل سوءا عن الجبهة الغربية ، فقد كان الشاه الفارسي ورجاله يشددون الضغط على العراق حتى وقعت حرب كبيرة بين الدولتين في ١٨٢١ حتى عقدت معاهدة أرضروم الأولى في ١٨٢٣ ، وكانت حركة الموحدين أقوى من أن يخمدوها السلطان وحده ولذلك كلف والى مصر باخضاعها (١٨١١ - ١٨١٨) ولن يلبث أن يقع الصدام الكبير بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي - والى مصر - حول مستقبل الشام ١٨٣١ - ١٨٤٠ .

رغم كل هذه الأخطار سار السلطان محمود الثاني في طريق التغيير الجذري لنظم الدولة العثمانية على أساس الاقتباس من نظم الغرب Western Zation ، وتقوية قبضة الحكومة المركزية على مختلف أجزاء الولايات مع اجتثاث المفاسد من جذورها ان أمكن . فكانت هذه الخطة الثلاثية هي التي سار عليها السلطان محمود الثاني ، فكيف نفسـها ؟

كانت الخطوة الأولى هي أن يقضى على أكبر معارضى الإصلاح أى الإنكشارية . وكان يبحث عن الوسيلة حتى ضرب له محمد علي - والى مصر الذى قضى على المماليك في مذبحة القلعة ١٨١١ - المثل في اجتثاث مثل هذه الطغمة الفاسدة من جذورها . فدبر مذبحة للإنكشارية في ١٨٢٦ ليشرع من بعد ذلك في تكوين جيش جديد على الطراز الأوروبى الحديث ، وأطلق عليه السلطان اسم « العساكر المنصورية المحمدية » ، واستدعى لتدريبها ضباطا ومهندسين فرنسيين وألمان (١) ، وتأسست أكاديمية عسكرية في ١٨٣٤ وأرسل بعض خريجيها الى العواصم الأوروبية لاستكمال دراساتهم العليا ، وأسس مدرسة الطب ، وكان التدريس بها باللغة الفرنسية . وأنشأ نظام الحجر الصحى .

(١) من بينهم فون مولكته المشهور وكان لا يزال في مقتبل نبوغه العسكرى .

وأنشأ عددا من الوزارات الحديثة (وزارة الداخلية ووزارة المالية) وعلى رأسها الصدر الأعظم . إلا أن هؤلاء كانوا يشكلون مجلسا للوزراء ، اذ كان كل وزير مسئولا عن وزارته ، ويمكن عزله دون أن يؤثر ذلك في مكانة الصدر الأعظم (١) .

ويرجع الفضل الى محمود الثانى فى انشاء (ترجمة اوده سى) أى (إدارة الترجمة) التى تحولت بعد ذلك الى وزارة الخارجية . ومن (ترجمة اوده سى) خرج عدد من مشاهير رجال الدولة العثمانية من أمثال على باشا وفؤاد باشا ونامق كمال بك . ومن اسباب تفوقهم احتكاكهم بالمعضلات السياسية الأوروبية خلال عملهم .

وفى مجال القضاء أسس « المجلس الأعلى للقضاء » الذى كلف باعداد القوانين الجديدة ، وعرف باسم « مجلس والى احكام عدلية » وكان أعضاؤه من مختلف الأديان ، ومن هذا المجلس انبثق فى ١٨٦٨ مجلس الدولة (شورى دولت) .

وفى أيام محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ظهرت قوة الباب العالى الذى كان مقرا للصدر الأعظم ووزارات الدولة . ولكن بعد عهد محمود الثانى سيصبح للباب العالى الدور الاول فى توجيه سياسة الدولة ، وسيصبح بمثابة القلب النابض المسيطر على السلاطين والإدارة البيروقراطية فى العاصمة والولايات ، حتى يضع السلطان عبد الحميد الثانى السلطة كلها فى يده بين ١٨٧٦ حتى ١٩٠٨ .

أعاد محمود الثانى تنظيم إدارة الولايات فى الاستانة وفى مراكز الولايات ، فأصبح الولاة يعينون من قبل السلطان ، وسحبت منهم سلطة تنفيذ احكام الاعدام إلا بعد موافقة السلطان . ونمت الإدارة فى الولايات مثلما نمت فى الاستانة ، فتضخم الجهاز الإدارى ، وظهرت طبقة (الأفندية) التى رتب لها السلطان مرتباتها لعله بذلك يقضى على الرشوة السائدة بين موظفى الدولة . وهؤلاء الأفندية كانوا فى غالبيتهم يتعلمون الفرنسية ويعملون كتابا فى الدواوين وأخذوا يكتسبون فى العاصمة الطباع الأوروبية، ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء الأفندية تلقوا من أوروبا معلومات سطحية طفت فوق كتلة ضخمة من الجهل والمعلومات والعادات الفاسدة . وكان هذا (الأفندى) معتزا بفرنسيته الركيكة وبملابسه الأفرنجية (الطربوش والاستنبولية) ولكن لا هو بثقن الفرنسية ولا الطريقة

(١) تعدل هذا اللقب أكثر من مرة .

الغربية في الحياة ، وإنما اختلطت عليه العادات القديمة بالمفاهيم الأوروبية الجديدة ، وكان يعيش في الواقع حياة غير مستقرة في مجتمع ينظر اليه بنوع من الاستهزاء والقبول في آن واحد .

وكانت المكاتب الإدارية الحديثة — اذا صح التعبير — صورة من صور فوضى الشرق ، الكثبة يعملون والزوار يملأون طرقات الإدارات ، والبساعة يتنقلون بين الحجرات ، والأوراق غير منظمة على المكاتب ، والإدارات لا أرشيف يمكن الرجوع اليه . ومن هنا كانت القضايا السياسية الدولية لا تجد من يفهمها بدقة إلا من عاصرها ، فان عزل أو مات الموظف المسئول عنها اضطرب الأمر وضاعت الوثائق .

إن من أهم وسائل وأنساليب الإصلاح كان انشاء مجالس الولايات ، ولكنه نظام لم يجرب إلا على نطاق ضيق في أول الأمر، وكانت هذه المجالس تضم مسلمين ومسيحيين وتناقش المسائل المدنية والمالية والقضائية ، وأصبح على الوالى أن يحصل على منحصر موقع من أعضاء المجلس على أعماله . وكانت هذه المحاولة تهدف الى ربط الولايات بالحكومة المركزية مع زيادة الرقابة المحلية على أعمال الوالى .

ولكن المشكلة الحقيقية هي ان الوالى كان يختفى وراء هذه المضبطة ليتنصل من المسئولية ، وان المجلس كان تحت توجيه كبار الملاك في الولاية ، وكان هؤلاء قادرين على توجيه أعمال الوالى وفق مصالحهم الخاصة .

وما كان في استطاعة السلطان في الواقع أن يعالج كل المصائب المتراكمة على الجهاز الحكومي ، حتى الرشوة التي كان معنيا كل العناية بالقضاء عليها زادت بشكل أكبر عن ذى قبل وذلك لعدة عوامل :

١ — كانت مرتبات الموظفين صغيرة ، وأصبحت تطلعاتهم أكثر بعدا فزادت اغراءات الرشوة عن ذى قبل .

٢ — لم تكن هناك أجهزة رقابة على أعمال الموظفين ، خاصة الكبار منهم ، وهؤلاء كانوا قد تعودوا على شراء مناصبهم رغم تشديد السلطان بمنع ذلك ، حتى لقد قال أحد الولاة وهو والى ديار بكر :

« ليس لدى دوافع لكي أكون أمينا ، فاذا ما حاولت أن أحكم بالعدل تكاتف ضدى كل الباشوات الآخرون ، ولن البث أن أطرده من وظيفتى ، اذا رفضت الرشوة سأصبح أفقر من أن أشتري وظيفة أخرى » .

وهناك اشارات عن أن محمود الثانى كان يتجه جادا الى المساواة القانونية بين جميع رعاياه بغض النظر عن الدين ، وهى خطوة كانت تحول دونها التقاليد التى اتبعت طوال القرون الماضية بل يقال ، انه كان معنيا بوضع دستور للبلاد واقامة حكومة دستورية وبرلمان من مجلسين .

ومن حيث تقوية قبضة الحكومة على الولايات العثمانية لقي السلطان محمود الثانى كثيرا من النجاح فى بعض الأماكن ، فقد سحق عددا من (الدربيكات) ، وابعده بعضا من هؤلاء الدربيكات عن مواطنهم وحدد اقامتهم ، ووجه ضربة قاضية للماليك فى العراق فى (١٨٣١) بمذبحة مشابهة لمذبحة الإنكشارية فى الاستانة ١٨٢٦ ومذبحة مماليك مصر فى القلعة (١٨١١) ، وانهى حكم الأسرة القرمنلية فى طرابلس فى ١٨٣٥ . وفى الاقطاعات العسكرية ، وأصبحت سياسات الولايات توجه من الاستانة التى قويت سلطاتها المركزية .

وعند تقييم حقيقة جهود محمود الثانى نجدها واضحة فى عمليات الهدم أكثر منها فى عمليات البناء ، حيث أنه بالنسبة للبناء كان يواجه مصاعب كثيرة ، وكان يواجه مزالق خطيرة تجعله يترى من سنة لأخرى ، هذا فضلا عن أن النتائج لا تظهر فى مثل هذه المجالات إلا بعد سنوات طويلة وكانت حاجات الدولة تبتلع كل من يظهر نوعا من المهارة فى صنعته حتى لو لم يتقن أساسياتها .

إن قيمة عهد محمود الثانى واصلاحياته تكمن فى انه فتح باب الإصلاح وأصبح من المستحيل أن يغلق بعده .

ولم تؤد هذه الإصلاحات الى استعادة الدولة قدرتها على الانتصار فى المعارك ، وتبطل ذلك فى فشل القوات العثمانية - بعد انسحاب القوات المصرية من المورة - فى صد الهجوم الروسى واضطرار السلطان الى توقيع معاهدة ادرنة ١٨٢٩ التى أرغمته على ترك اليونان لأهلها . ولم يلبث أن استولى الفرنسيون على الجزائر (١٨٣٠) وانزلت

القوات المصرية الهزائم المتتالية في الزراعة وقونية في ١٨٣٢ وزحفت حتى اقتربت من المضائق لولا صلح كوتاهيه (١٨٣٣) الذي أعاد القوات المصرية الى اطنة بين الشام وتركيا .

لماذا تحركت بريطانيا الى جانب السلطان محمود الثانى قبيل وبعد كوتاهية ؟

كانت سلطات الاستانة تبحث عن حليف لها يصد القوة الجارفة المصرية ، فوجدت أن فرنسا تؤيد محمد علي ، وبريطانيا لا تستمع الى نداءات السلطان ، وربما بسبب مشاغلها في المشكلة البنجيكية (١) ، ولم تجد سوى القيصر الروسى . وما كان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود ، ولكن الظروف كانت قاسية وعقد معه اتفاقية خنكار سكله سى (١٨٣٣) . التى أعطت للقيصر حق ارسال جيش للمضائق للدفاع عن السلطنة العثمانية ، وفعلنا نزلت القوات الروسية على مقربة من الاستانة الأمر الذى أزعج الانجليز كل الازعاج .

وفى ١١ يوليو — تموز ١٨٣٣ استجوب أحد النواب الانجليز الوزارة فى مجلس العموم مشيرا الى أن أبواب الدولة العثمانية وفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس . وقد بالغ النائب فى تصوير الخطر الروسى ، ولكن تجدر الإشارة الى أن هذه المبالغة كانت من أساليب الانجليز لاثارة المشاعر ضد خصمهم . وخلال هذه المناقشات تجلت حقيقة هامة هى أن الروس بعد خنكار سكله سى أصبحوا القوة المواجهة للمصريين ، وأصبحوا فى نفس الوقت حماة الدولة العثمانية ، ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية وعلى مشاركة الدول الأوروبية فى ايجاد حل للنزاع بين السلطان ومحمد علي حتى لا تنفرد روسيا بالعمل ، بل وحتى تصبح بريطانيا هى التى تفرض هذا الحل الدولى . ويقال فى كثير من الوثائق أن الانجليز هم الذين كانوا يحرضون السلطان العثمانى على التحرش بالجيش المصرى فى الشام وارغامه على خوض الحرب مجددا . ولكن أدى ذلك الى نكبة اخرى حلت بالجيش العثمانى بهزيمة قاسية أمام الجيش المصرى فى موقعة نزيب ١٨٣٩ ولم يلبث أن أبحر الأسطول العثمانى من تركيا منضمًا طواعية الى الأسطول المصرى فى الاسكندرية .

(١) كانت ثائرة على هولندا كى تستقل .

وحيث أن السلطان محمود الثانى كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن تأتية أنباء نكبة نزيب ، أصبحت الدولة العثمانية بلا جيش ولا أسطول ولا سلطان . وكان الأمر يتحول الى انهيار تركيا لولا وقوف الدول الأوروبية الى جانب السلطان الجديد عبد المجيد الأول ووزيره النشيط رشيد باشا .

لقد أدرك رشيد باشا ان انقاذ تركيا أصبح فى يد الدول الكبرى ، ومن هنا ارتبط ارتباطا وثيقا بها ، وخاصة بريطانيا التى كانت ترى فى تركيا القوة القادرة على منع أى من روسيا أو مصر من التفوق فى الشرق الأوسط ، رغم أن مصر أكدت لبريطانيا أكثر من مرة انها كفيلة بروسيا إلا أن بريطانيا كانت تدبر الانفراد بالمنطقة ان أمكن .

تحت وطأة هذه الأحداث أصدر السلطان عبد المجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات وعرف بخط كلخانة فى نوفمبر - تشرين الثانى ١٨٣٩ . وهناك العديد من المؤرخين الذين يربطون فقط بين صدور هذا الخط والهزيمة أمام القوات المصرية ورغبة تركيا فى كسب الدول الأوروبية الى جانبها ضد مصر . وفى اعتقادنا أن هذه ربما كانت بعض الأهداف من وراء اصدار خط كلخانة ، ولكن مما لا شك فيه أن حركة الإصلاح كانت قد بدأت من قبل ، وان اصدار هذا الخط لا يعنى سوى حلقة من حلقات هذا الإصلاح . وأن ظروف الهزيمة أوجبت هذا اصدار حتى تبدو الدولة - وهى بصدد طلب المساعدة من أوروبا - جديرة بأن تعامل معاملة الدولة المتحضرة الحديثة .

يؤكد خط كلخانة أن عدم الانقياد الى الشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال القرون الماضية من تدهور وضعف وان المقصود من هذا الخط هو احياء الدين والملة . ومع هذا كان هذا الخط هو الخطوة الكبيرة الثانية نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بين المسلم وغير المسلم ، فكان ذلك هو الخطوة الأولى لفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين . كذلك ساوى (الخط) بين الطوائف المختلفة فى فرض الضرائب أمام القانون بصفة عامة . وقضت القرارات بفرض التجنيد على الرعايا جميعهم والغاء نظام الاقطاعات العسكرية الغاء تاما ، كما قررت تحديد الضرائب على كل فرد والغاء نظام الالتزام الذى وصفه (خط كلخانة) بأنه من آلات الخراب فى الدولة ومن أسباب تدهورها .

وركن (الخط) على تحديد مرتبات موظفى الدولة وعلى منع شراء المناصب .
وصدرت فى أعقاب خط. كلخانة سلسلة من القوانين التنظيمية لوضع أسس خط كلخانة
موضع التنفيذ ، فصدرت القوانين الجنائية والقضائية والمدنية ، وظهرت المحاكم على
مختلف أنواعها وصدرت فرمانات بتأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية ، وإنشاء
جامعة عثمانية .

ومثل أى قرار جذرى ، واجه خط كلخانة عاصفة من النقد وسيلا من التأييد .

فقد حذر السياسى النمساوى الكبير الرجعى (مترنج) العثمانيين من الخطر
الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوروبية المتعارضة مع الحضارة الإسلامية
العثمانية . ومع أن خط كلخانة حرص على أن يكون الاصلاح أوروبيا فى اطار الشريعة
الإسلامية فإن تطبيق مثل هذا الاصلاح كان عسيرا للغاية خاصة فى دولة تزداد ضعفا
عاما بعد آخر .

وهناك من الأوروبيين من تحمس جدا للاصلاح الجديد ، مثل السفير البريطانى
استراتفورد كاننج S. Canning الذى كان صاحب كلمة مسموعة فى الباب العالى .
وكانت وجهة نظر الانجليز هى أن الاصلاح على الطراز الأوروبى هو وسيلة الدولة
العثمانية للصمود أمام الخطر الروسى ، ومن ناحية أخرى كانت حركة الاصلاح الجديدة
العثمانية تبدو مرتبطة برباط خاص ، ورضيت عنها بريطانيا لأنها لم تمس المصالح
البريطانية فى الدولة ، وبخاصة معاهدة بلطة ليما المعقودة فى ١٨٣٨ والتي أعطت لرعايا
الدولة البريطانية حق المتاجرة مباشرة فى أى جزء من أجزاء الدولة العثمانية تصديرا
واستيرادا وتجارة داخلية وخارجية ونهرية وبحرية فى مقابل ضريبة محددة بسيطة .

وهكذا فتحت التنظيمات العثمانية باب الدولة للحضارة الأوروبية لتتدفق عليها
بأقصى سرعة ممكنة ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع
الدولة العثمانية اقتصاديا . هذا فضلا عما توقعته الدول الأوروبية من فتح باب
الارساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه .

وفى داخل البلاد واجهت هذه الاصلاحات معارضة قوية ، خاصة فى تلك الجهات
التي تتجاور فيها عصبية مذهبية مختلفة : إسلامية ومسيحية .

ففى جبال طيارى فى شمال العراق وفى جبل لبنان وقعت الصدامات المذهبية ، حيث أن بعض زعامات للأقليات المسيحية فى الدولة العثمانية أبدت نوعا من الارتباط مع الدول الأوروبية نكاية فى الزعامات الإسلامية التى كانت لها السلطة المطلقة من قبل ، وأدى ذلك الى تردى العلاقات خاصة وأن يد الأجنبى كانت تنتظر مثل هذه الفرص .

واستغلت الدول الأوروبية هذه التنظيمات والاصلاحات لجعلها تخدم أغراضها لا اغراض الدولة منها . فقد سعت فرنسا الى حماية الكاثوليك فى الدولة العثمانية ، كما سعت روسيا الى حماية الارثوذكس ، وسعى مبشرو بريطانيا وأمريكا الى تحويل مسيحيى الكنائس الشرقية الى الكنيسة البروتستنتية .

ولقد بدا فى أعقاب صدور خط كلخانة أن الأخطار كبيرة واستغلالها سيكون على نطاق واسع على يد الدول الأوروبية، خاصة بعد أن أصبح للدول الأوروبية الكبرى الفضل الأول فى ارغام (محمد على) على سحب قواته من الشام والجزيرة العربية^(١) . حتى لقد بدأ التفكير فى عزل رشيد باشا لوقف مفعول خط كلخانة منذ ١٨٤١ ولكن لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هى المسئولة وحدها عن عزله ، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا فى عزله حيث أنها كانت ضد سياسة التنظيمات . والفارق بين روسيا المناهضة للتنظيمات وبريطانيا (المؤيدة للتنظيمات) هى أن الأولى ترى فى هذا الخط حائلا دون تحقيق أطماعها والثانية ترى فيه معينا لها على تحقيق أطماعها .

وعلى أى حال توقفت الحركة الاصلاحية مؤقتا بعد عزل رشيد باشا ، ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى .

ويبدو أن المسئولين عن الاصلاحات بعد رشيد باشا أدركوا أن الشعب لم يدرك حقيقة التنظيمات الجديدة أو أهدافها ، وأن من واجب الحكومة أن تقنع الشعب بخطواتها الاصلاحية وليس فقط تركه يتفهمها وحده . ولهذا عقد السلطان فى ١٨٤٦ (مجلس شورى الدولة) الذى حضره مندوبان عن كل ولاية للتدارس والتباحث فى أساليب

(١) يمكن مراجعة تفاصيل الصراع بين محمد على والسلطان محمود الثانى فى كتابنا (تاريخ العرب المعاصر) .

الاصلاح والتنظيم ، وكانت هذه هى المحاولة الأولى التى قام بها العثمانيون لأخذ رأى الولايات فى اصلاح والتنظيم ، ولكن يبدو أن المحاولة كانت غير حسنة الاعداد وأن من ذهبوا كانوا لا يعرفون حقيقة دورهم ، فعندما سئلوا وطلب منهم مقترحاتهم لم يقدموا شيئا . فكان ذلك خاتمة للاجتماع ، وعاد الباب العالى الى وسيلته التقليدية فى معرفة أحوال الولايات أى ارسال مندوبين من قبله لكتابة تقارير عن الولاية التى يزورونها .

وخلال الفترة التى حكم فيها السلطان عبد المجيد . (١٨٣٩ - ١٨٦١) كانت حركة اصلاح نشطة وتأسست كافة الدوائر الحديثة تقريبا ، لتأخذ طريقها فى النمو المضطرب من بعد ذلك . فكثر المدارس بصفة خاصة ، والمدارس الفنية ، وإدارات الجسار والهيئات الصحية ، والخدمات العامة مثل مد الطرق وصيانة الأمن الداخلى . استمرت الأمور تسير على هذا النحو حتى جاءت المحنة الرابعة (١) الكبرى التى واجهت الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر ونعنى بها حرب القرم .

حرب القرم

وتعتبر حرب القرم واحدة من تلك الحروب العديدة التى تصارعت فيها الدول الكبرى الأوروبية، ولكنها هى الحرب التى كان سببها الرئيسى كامنا فى الشرق العثماني . ويمكن أن نحدد العوامل الرئيسية التى أدت اليها فيما يلى :

العوامل الاستراتيجية :

فى أعقاب الحروب النابليونية نشطت حركة الاختراعات فى مجالات النقل البرى والبحرى على المستوى العالمى ، فأصبح القطار والبخارة أداة النقل الحديثة . وظهرت المشروعات العديدة لمد خطوط ملاحية بخارية أو خطوط سكك حديدية بين أوروبا والشرق الأقصى عبر الشرق الأدنى، وأخذت فرنسا تفكر بحماس فى شق قناة السويس، وأخذت بريطانيا تفكر فى مد خط ملاحى فى انهار العراق أو مد خط حديدى بين الاسكندرونة والموصل وبغداد والبصرة للاتصال السريع بالشرق الأقصى . حيث كان من وجهة نظر الانجليز والفرنسيين يجب منع روسيا من الوصول الى منطقة الشرق الأدنى،

(١) الأولى هى (الحملة الفرنسية على مصر) والثانية (حرب المورة) والثالثة (الحرب ضد محمد على) والرابعة (حرب القرم) .

بينما كانت وجهة نظر روسيا مختلفة ، وهي أن بريطانيا وفرنسا بقيامهما بمثل هذه المشروعات في العراق ومصر يجب أن تحصل هي على القسطنطينية لتتوازن معهما . ولكن مفهوم التوازن الدولي عند بريطانيا كان يعنى ابعاد روسيا باستمرار عن المضائق . ولهذا جاهرت بريطانيا بسياسة الدفاع عن كيان الدولة العثمانية لا حبا في الدولة العثمانية وانما لتمنع روسيا من الوصول الى المضائق .

العامل الاقتصادي :

كانت روسيا خلال الفترة التي أعقبت الحروب النابليونية معنية بزيادة حجم صادراتها ، وخاصة من القمح الذي كان يزرع بكميات كبيرة في روسيا . وكان ميناء (اوديسا) من أهم الموانئ التي تصدر عن طريقها قمحها ، ولكن كان في البلقان ولايتان عثمانيتان هما (ولاشيا) و (ملدافيا) كانتا تصدران كميات كبيرة من القمح نافست بشدة صادرات روسيا من اوديسا . ولهذا سعى القيصر نيقولا الأول الى السيطرة على هاتين الولايتين حتى يتحكم في انتاجهما بما يفيد روسيا ، وحتى يستطيع القيصر منهما ان يتحكم في البلقان المتطلع الى روسيا .

العامل الديني واللاهوتي :

أصبحت روسيا — بعد الحروب النابليونية — أكثر الدول تركيزا على الحروب الصليبية . وكان كثير من سياسة روسيا يتعجبون من عدم مشاركة الدول الأوروبية لروسيا في حربها المقدسة هذه . ولكن هذه الفكرة الصليبية كانت تجد ترحيبا فقط بين الشعوب البلقانية وزعمائها وبين شعوب أوروبا وليس بين زعمائها ، فالفكر الصليبي لدى فرنسا وبريطانيا تحول الى التبشير والتسلط التجاري والسياسي ان أمكن . وكان التبشير الفرنسي كاثوليكيًا أما الانجليز فكان بروتستانتيا ، وكل منهما كان ناجحا الى حد كبير وكان هذا التفوق التبشيري الفرنسي والبريطاني يهز مكانة روسيا في المنطقة ، فكان ان وقع الصدام في بيت المقدس بين رجال الدين الكاثوليك ورجال الدين الارثوذكس ليتحول الى حرب كبرى باسم الدين المسيحي بينما كانت الأهداف الاقتصادية أكثر قوة .

الأسباب الشخصية :

يركز كافة المؤرخين على الدور الذي لعبه سفير بريطانيا في الاستانة ستراتفورد كاننج المشهور باسم لورد ستراتفورد دي ريدكليف . وينهب البعض الى أنه هو السبب في وقوع الحرب . ولقد كان (كاننج) فعلا يدرك حقيقة الكراهية الشديدة التي كان يكنها الشعب الانجليزى للروس بسبب تصادم المصالح في أكثر من مكان في العالم . وكان الكاننج مكانة كبيرة في الباب العالي ، حتى لقد وصف بأنه « السلطان العثماني » غير المتوج . ولقد كان كاننج يدرك تماما أن روسيا بلغت من القوة الدرجة التي أصبحت فيه قوة خطيرة مهددة للامبراطورية البريطانية ، وأن تقليم أظافرهما في وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التي لا بد أن تقع يوما ما . وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث - امبراطور فرنسا - كان قد عقد العزم على أن لا يصطدم ببريطانيا وأن تكون امجاده العسكرية بالتعاون معها ضد روسيا أو النمسا مثلا .

كان السبب المباشر للحرب هو تلك البعثة التي ارسلها القيصر الى السلطان العثماني ، وكانت هذه البعثة برئاسة منشيكوف ، وذهبت في ظروف كان القيصر يعتقد - خطأ - أن انجلترا لن تعترض سبيل اقتسام الدولة العثمانية . وكان منشيكوف متفطرسا ولكنه وجد في وزارة الخارجية رجلا كيسا قادرا على دحض حججه - هو فؤاد باشا - ولذلك سعى الى ابعاده عن منصبه . فعلا استقال فؤاد باشا ، ولكن صمد الباب العالي - بتأييد من كاننج - أمام مطالب القيصر المتتالية التي كانت تتمثل في تعيين من تريده حكومة القيصر وعزل من لا تريده ، وفي فرض السيطرة الروسية على ولايتي الافلاق والبغدان (ولاشيا و ملدافيا) ، وشرعت روسيا في احتلالهما فعلا في منتصف ١٨٥٣ . فما كان من السلطان إلا أن طلب نجدة من القوات المصرية التي وصلت الى الاستانة فعلا بعد وقت قصير ، واسرعت الأساطيل الفرنسية والبريطانية الى المضائق لارغام روسيا على الانسحاب من الولايتين .

وسرعان ما تصاعدت الأزمة عقب غدر القيصر وحنثه بوعدده الخاص بعدم ضرب القوات العثمانية إلا اذا بدأت هي القتال ، وذلك عندما أفرق الأسطول الروسى القطع البحرية العثمانية في ميناء (سينوب) ، وظهرت نية نابليون الثالث القوية نحو ارسال أسطوله الى البحر الأسود وخشيت بريطانيا من انفراد فرنسا بالقيام بمثل هذا العمل

الدولى الخطير فقررت الدخول فى حرب ضد القيصر الى جانب السلطان العثمانى (مارس - آذار ١٨٥٤) . وكانت بذلك كفة الدول الحليفة هى الراجحة خاصة - إنه بعد اغراق الأسطول الروسى فى سيستبول - كانت فكرة انزال القوات الفرنسية والانجليزية ثم البيدمنتية فى القرم كانت تدل على أن عنصر التفوق كان لدى الحلفاء .

استمرت الحرب عنيفة حول سيستبول بأهوال ومذابح وأوبئة فتاكة حتى جاءت ١٨٥٦ بعوامل جديدة فتحت الباب أمام الوصول الى صلح . وكانت الأسباب الرئيسية لعقد الصلح :

١ - حقق الانجليز والفرنسيون هدفهم وهو تحطيم الأسطول الروسى وبذلك لن يكون فى استطاعة الروس القيام بدور فى حوض البحر المتوسط . وثبتت السيطرة الكاملة البخيرية للحلفاء فى البحر الأسود . واكتفى الحلفاء بهذا النصر ورفضوا التقدم وراء سيستبول .

٢ - اختلاف وجهات النظر الفرنسية عن الانجليزية من حيث استثمار الحرب حيث أن نابليون الثالث اصر على وقف هذه الحرب الأمر الذى أزعج الانجليز على وقفها مع أنهم كانوا يريدون الاستمرار فيها حتى تذل روسيا اذلالا كاملا ويقضى على دورها فى السياسة الأوروبية .

وفى مؤتمر عقد فى باريس فى ١٨٥٦ بقرار عقد صلح بين الدول المتحاربة على الأسس التالية :

- ١ - تجريد البحر الأسود من السلاح ، وهذا موجه ضد روسيا بالذات .
- ٢ - اغلاق المضائق أمام السفن الحربية الأجنبية .
- ٣ - إعادة قارص الى الدولة العثمانية .
- ٤ - حكم ذاتى لولايتى الافلاق والبغدان (ولاشيا و ملدافيا) .

واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوروبية أن تصدر (خطا) جديدا يضع برنامجا واضحا للإصلاح أكثر اتساعا ودقة من (خط كلخانة) وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايونى ١٨٥٦ .

والحق أن حركة الإصلاح استمرت حتى بعد الحركة الرجعية التى أبعدت رشيد باشا،

عن الحكم . فقد صدرت خلال حرب القرم نفسها فرمانات ذات أهداف بعيدة عميقة ،
فقد صدر في ١٨٥٥ فرمان يرفع الجزية عن المسيحيين ، وبعد ذلك صدر الخط الهمايوني
ومن ثم فلا شك أن دافع الإصلاح كان وراء إصداره وليس فقط الضغط الأوروبي .

أكد الخط الهمايوني ما سبق أن ورد في (خط كلخانة) . ولكن زاد عليه التفاصيل
المتعلقة بحقوق المسيحيين والتنظيمات الإدارية الجديدة ، فبالنسبة للمسيحيين تقرر
تشكيل مجالس مخصوصة وانتخاب البطريرك لكل ملة وتحديد رواتب رجال الدين غير
المسلمين ، وكفل لهم حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع مناهج الدولة ، وأكد
الخط الهمايوني حق الدولة في تجنيد المسيحيين وأن أبقى على حقهم في دفع البسـ
العسكري . كما سمح للأجانب بامتلاك العقارات ولكن وفق شروط معينة . وأكد (الخط)
على ضرورة إنشاء مجالس الولايات ، وكان مطبقا على نطاق ضيق .

فهم هذا الخط من زوايا متعددة ، ففسرته كل جماعة حسب مصالحها . فالفالدية
العظمى من مسيحيي الدول العثمانية كانت ترى في صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر
ضعفها ، وتطلع بعض زعمائهم الى الدول الأوروبية ، وتمسكوا بما في الخط الهمايوني من
حقوق لهم ضاربين صفحا عما به من التزامات وواجبات عليهم ، بل تمسكوا في نفس الوقت
بما كان لديهم من امتيازات قديمة تتعارض مع الخط الهمايوني .

وانتشرت الشائعات عن أن الدول الأوروبية ستقف الى جانب مسيحيي الدولة
لو ثاروا ضدها : وساعد هذا على وقوع فتن الشام ولبنان بين المسلمين والمسيحيين
ليسير لبنان في اتجاه الحكم الذاتي وبنظام خاص عرف بالمتصرفية ، ذلك النظام الذي
كان يتعارض مع خطة العثمانيين في توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد يعتمد على
الخط الهمايوني ، فقد طبق في لبنان نظام طائفي لا يزال يعاني منه لبنان .

وصدرت بعد الخط الهمايوني مجموعة من القوانين التنظيمية التي مست المجتمع
العثماني بقوة أهمها :

١ - قانون الأراضي (الطابو) ١٨٥٨ .

٢ - قانون الولايات ١٨٦٤ .

٣ - مجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠ - ١٨٦٣ .

كان الغرض من قانون الأراضي التخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكهم قطعة من الأرض تمليكا غير مطلق يرتزق منها ، وعندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان يتوقع منه . فقد كان الفلاح فقيرا عاجزا عن دفع قيمة الأرض . بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من الأراضي ، وتحول الفلاح الى مجرد أجير لدى هؤلاء الملاكين الكبار ، كذلك سجل شيوخ العشائر الأراضي باسمهم وأصبحوا هم الملاكون وافراد العشيرة عمالا عندهم أو اجراء .

اما قانون الولايات فيعتبر المحاولة العملية لاصلاح حال الولايات من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأكيد خضوعها للدولة . فقد حدد القانون نظام الإدارة واختصاصات الوالى وغيره من موظفى الولاية وطريقة انتخاب أعضاء مجلس الولاية وكان من أهداف هذا القانون اشراك الأهالى فى إدارة أمور بلادهم وفى الاصلاحات التى أدخلت فى مختلف النواحي . كذلك كان من أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية . اذ أدرك العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية احيانا ، وأنه من العسير وضع قانون موحد ينتظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والأكراد الجبليين وعشائر العراق وعصبيات الشام وعرب شمال افريقيا وترك الأناضول ومسلمى البوسنة والبنانيا .

كان قانون الولايات يضح السلطة العليا فى يد الحكومة المركزية فى الاستئانة وقد اتجه حكام الاستئانة هذا الاتجاه لاعتقادهم أن فساد الإدارة فى الولايات هو المسئول عن عدم تحسين أحوالها ، وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالى مجرد منفذ لأوامر رؤسائه فى الاستئانة ويرجع اليهم فى أمور الولاية الهامة . وساعد على هذا استخدام الخطوط البرقية فى الدولة العثمانية على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

التولة العثمانية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

(م ١٢ الشعوب الاسلاميه)

كان عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) قليل الحروب نسبيًا . على
على عكس عهود أسلافه ، إلا أنه كان فترة خطيرة من التاريخ التركي . إذ كانت كافة
الأقاليم البلقانية تستعد للحصول على امتيازات أكثر من الأتراك لأن لم يكن الاستقلال
الكامل .

فقد تحركت المشاعر في الجبل الأسود ، وفي صربيا وكانتا تتمتعان بالاستقلال
الذاتي ، والولايتان الرومانيتان كانتا قد اتحدتا تمهيدا لتحقيق ظهور (رومانيا)، وكانت
فرنسا تؤيد اتجاهات هاتين الولايتين نحو الاستقلال لأن الرومانيين كانوا كاثوليكًا .

وكانت اليونان تتطلع الى استكمال وحدة اليونانيين الخاضعين للأتراك، بل وكانت
تتطلع الى (أزمير) ، والى الهدف الضخم (القسطنطينية) .

أما كريت فشارت ، وذهب اليها آلاف المتطوعين من الجيش اليوناني لضرب
المسلمين في الجزيرة وابداتهم وبالتالي تخلص لليونان ، حقيقة وضع نظام وحكم خاص
يشارك فيه المسيحيون والمسلمون ، ولكن كانت كلمة المسيحيين هي السائدة (١٨٦٧)
والاتجاهات نحو الاتحاد مع اليونان قوية .

كذلك كانت القلاقل في البوسنة والهرسك متتالية ، والبلغار ضد الأتراك وضد
الأكليروس اليوناني المفروض عليهم ، وظهرت الكتائب البلغارية هنا وهناك في
الستينات .

وفي ١٨٦٤ هاجر الى البلقان عدد كبير من الشرکس المسلمين الذين فروا من أمام
الروس بعد فشل مقاومتهم الطويلة للتسلط القيصري ، وقد استقرت أعداد كبيرة من
هؤلاء في بلغاريا وعلى طول الحدود الصربية ، وتوالى الصدام بين القادمين الجدد
والبلغاريين وفي بعض مناطق الدانوب .

كانت هذه القلاقل العديدة في البلقان هي التي جعلت الباب العالي يسند ولاية
الدانوب الى المصلح الكبير مدحت باشا الذي بذل جهودا كبيرة للتغلب على تمردات

البلغار ، وارغم العديد منهم على الفرار الى الولاياتين الرومانييتين . وارضاء للبلغار اصدر الباب العالي فرمانا بانشاء كنيسة بلغارية مستقلة بنفسها . وكان هذا في حد ذاته من العوامل التي كانت تعمل على تجميع شمل البلغار نحو الهدف الكبير : اقامة دولة بلغارية قومية . وكانت انظار البلغار معلقة بالروس على اعتبار أن الانتصارات الروسية هي أقصر طريق الى استقلال البلغار . ولكن كان أساس التحرك هو ثورة بلغارية كبيرة تفرص نفسها على السلطان وتكسب عطف الدول الكبرى وخاصة روسيا .

وفعلا قامت حركة تمرد في ١٨٧٢ قضى عليها خلال السنتين التاليتين . ولكن استمرت حركات العصابات تشد أزرها روسيا التي تخلصت من قيود حيدة البحر الأسود في ١٨٧١ منتهزة فرصة الحرب البروسية - الفرنسية ، وفي ١٨٧٥ اشتعلت ثورة الهرسك ، لتضع السلطات العثمانية أمام أزمة جديدة .

كانت اجراءات الحكومة العثمانية قد أثبتت عجزها عن مواجهة هذه الأزمات وفقدت مكانتها بسبب عجزها عن دفع ديونها ، واسرع عدد من المصلحين - وعلى رأسهم مدحت باشا - الى التحرك ضد السلطان عبد العزيز الذي أغرق البلاد في فوضى عارمة من الاسراف والسياسات الخرقاء ، وعزلوه ورفعوا السلطان مراد الخامس الى العرش لي عزل بعد قليل لأنه كان معتوها وخلفه السلطان عبد الحميد الثاني ، في أغسطس - آب ١٨٧٦ على أساس اصدار دستور للبلاد . وفعلا صدر أول دستور عثماني في ذلك العام ؛ وبهذا تبدأ أهم فترة من التاريخ العثماني الأخير .

تولى السلطان عبد الحميد العرش وهو في الرابعة والثلاثين من عمره . كان ذكيا ، وكان كثير العمل ، ولكن كانت فترته السابقة على توليه العرش خليطا من الحياة التعسة في القصور ، والزيارة الرائعة لأوروبا . وكان شديد الخوف حذرا من كل انسان . وهو لم يكن محبا للحكم الدستوري ، وانما كان معاديا له . ومع هذا وجد نفسه يأتي الى العرش كأول سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية ، ولهذا كان ينتظر الظروف التي تمكنه من التخلص من هذا الدستور ومن صاحبه مدحت باشا .

وكانت الظروف تعطي الفرصة الكبيرة للسلطان عبد الحميد الثاني ليتخلص من الدستور . فقد أسرع روسيا الى اعلان الحرب نيسان - ابريل ١٨٧٧ على الدولة

العثمانية لتقضى على الحركة الدستورية فيها وتعيد القوة الى الثورة في البلقان ضد السلطان، وأحرزت الجيوش الروسية انتصارات سريعة حتى وصلت الى (بلغنا) فضربت عليها القوات الروسية الحصار ودافعت عنها القوات العثمانية ببسالة عظيمة ، حتى سقطت في ديسمبر — كانون الأول ١٨٧٨ ، وأصبحت العاصمة الاستانة نفسها مهددة مما اضطر حكومة السلطان الى عقد هدنة ثم فرض الروس معاهدة سان استيفانو على السلطان العثماني (١٨٧٧) .

وتنص معاهدة سان استيفانو على :

- ١ — أن تستولى روسيا على قارص وبايزيد وباطوم في الشرق ، وعلى (دبروجة) في الغرب .
- ٢ — حصلت الصرب على مخرج على البحر الأدرياتيكي .
- ٣ — تحصل البوسنة والهرسك على حكم ذاتي .
- ٤ — امتداد بلغاريا من الدانوب الى بحر ايجه ، وضمت الرومللى ومعظم مقدونيا .

ان النتيجة الخطيرة التي ترتبت عن معاهدة سان استيفانو هي أن بلغاريا — مخلب القط الروسى — أصبحت ضخمة للغاية من وجهة نظر بريطانيا بالذات ، وان النفوذ الروسى في البلقان أصبح يهدد مكانة النمسا في المنطقة . وكادت الأمور تتطور الى حرب كبرى تتزعما بريطانيا ضد روسيا لولا أن دعا بسمارك الدول الكبرى الأوروبية الى عقد مؤتمر لتسوية المشكلات الأوروبية على حساب الدولة العثمانية حيث أن الدولة العثمانية — من وجهة نظر بسمارك — غير جديرة بحرب تقع بين الدول الكبرى الأوروبية ولكن جديرة فقط بأن تتولى هذه الدول الكبرى اقتسامها وتسوية مشكلاتها على مائدة المفاوضات وليس في ساحة القتال .

وعلى هذا الأساس عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذى أهملت فيه آراء الأتراك ، بل وكانوا محتقرين خلال انعقاده ، وانتهت المفاوضات الى قرارات اعادت رسم خريطة البلقان من جديد ، وكانت كلها موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية، وسعت كل دولة الى نهب قطعة منها بوسيلة شريفة او بوسيلة تأمرية ايا كانت .

ففى مقابل حماية — غير أكيدة — للأملاك العثمانية الآسيوية ، اقتنصت بريطانيا قبرص ، وحتى ترضى فرنسا عن هذه (الخيانة) لفتت بريطانيا — الطامعة فى مصر (١) — انظار فرنسا (٢) الى تونس . وتقلصت بلغاريا (٣) وسلخ منها الرومللى الشرقى الذى وضع تحت الحكم التركى ، ووضعت البوسنة والهرسك تحت إدارة النمسا ، ولكن ظلتا تحت السيادة العثمانية وبصفة عامة خسرت الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين ما لم تفقده فى أى حرب سبقت .

ومن نتائج مؤتمر برلين غير المباشرة ان الأرمن شعروا ان الوقت قد اذف ليحققوا آمالهم ، وكانت مادة مؤتمر برلين قد نصت على ان يقوم السلطان باصلاح حال ارمينيا والأرمن ، ولكن مرت السنون دون تطوير يذكر بينما كانت اتصالات الأرمن بالعالم الخارجى تزيد مداركهم اتساعا وظهر منهم علماء وباحثون ودعاة الى ان الأرمنى ارقى من سيده التركى ويجب ان ينقلب الوضع ويصبح الرعاية سييدا ، بل كانت هناك دعوات بين الأرمن الى طرد المسلمين من ارمينيا ، كما كانت هناك دعوات بطرد المسلمين من البلقان بالنقل او بالابادة ، وتصاعد التوتر فى بلاد الأرمن ، ولم يلبث ان وقع الاضطراب وكان ان نكل الأكراد بالأرمن بقسوة اهل الجبل فى اهل الجبل .

ووقفت كل الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا منددة بالسلطان عبد الحميد الثانى واطلقت عليه (السلطان الأحمر) ، أما المانيا وقيصرها فقد وقفت الى جانب السلطان لهدف كان يسعى اليه وهو كسب ثقة السلطان . والجدير بالملاحظة هنا ان بريطانيا التى تحركت بقوة دفاعا عن مسيحىي البلقان والأرمن لم تفعل شيئا للبولنديين والاييرلنديين الا الايذاء طالما كان هذا متمشيا مع مصالحها .

★ ★ ★

(١) احتلتها فى ١٨٨٢ .

(٢) احتلتها فى ١٨٨١ .

(٣) لم تلبث ان استقلت .

لقد كان السلطان العثماني يدرك أنه في حاجة ماسة الى قوة أوروبية تقف الى جواره بسبب تلك العزلة الكبرى التي حدثت له بسبب مذابح الأرمن ، وكان السلطان في حاجة الى دولة كبرى يستطيع أن يستعين بها في تنفيذ الكثير من مشروعاته الحيوية الكبرى دون أن تتحول هذه المشروعات الى مخططات استعمارية على الطريقة الانجليزية والفرنسية ، وكان يعتقد أن القيصر الألماني ولهم الثاني ليس استعماريًا مثل فيكتوريا ملكة الانجليز أو مثل الفرنسيين . هكذا كان يتصور عبد الحميد الثاني .

وكانت ألمانيا قد نمت وعظمت بعد وحدتها وتبحث عن مجالها الحيوي فوجدته في الدولة العثمانية وبوجه خاص في تركيا والعراق، كانت صناعة الآلات في ألمانيا نامية وكانت تنافسها الصناعات البريطانية وكانت هذه الصناعة تجد مجالًا لها في الدولة العثمانية وكانت هذه بحاجة الى الخبرة الفنية المتوفرة في ألمانيا التي أصبحت هي الأخرى منطقة طرد بشري . بينما سيطرت بريطانيا وفرنسا على أحسن المستعمرات وتركوا لألمانيا أفقرها وأكثرها تعبًا .

كانت عين الامبراطور الألماني على تركيا ، وكانت التقارير تأتيه متتالية عن الخيرات الدفينة في باطنها . وكانت هناك مبالغاة في التقديرات ، ولكن القيصر كان معجبًا بالفكرة فاستولت عليه وآل على نفسه أن يشرف على تنفيذها وكان أول مظهر قوى هو قيامه بزيارة (١) خليفة المسلمين ظل الله على الأرض السلطان عبد الحميد الثاني . وأدت الزيارة الى أن يحصل القيصر على موافقة مبدئية على مشروعه الكبير : خط حديد برلين — بغداد — الخليج العربي ، وذهب القيصر الى القدس ، وهناك رحب العرب والمسيحيون واليهود ، كل في نفسه هدف أو غرض خاص .

ونظرًا لأن مشروع خط حديد برلين — بغداد ليس سوى جزءًا من الصراع الدولي المحتدم منذ أواخر القرن الثامن عشر حول خطوط المواصلات العالمية عبر المشرق العربي بصفة خاصة والمشرق الأدنى بصفة عامة فيجدر بنا أن نلقى نظرة عليه .

★ ★ ★

(١) زار القيصر الألماني الدولة العثمانية مرتين ١٨٨٩ بعد توليه العرش مباشرة والثانية هي التي زار فيها بيت المقدس سنة ١٨٩٨ .

الفصل الثامن

الصراع الدولي على خطوط
المواصلات العالمية عبر المشرق العربي
خلال القرن التاسع عشر

وقع تطور كبير في أوروبا في أعقاب الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا ، وأدى استخدام البخار في إدارة آلات المصانع الى تضاعف الانتاج الأمر الذى تطلب سرعة نقل الانتاج الصناعى الى الأسواق الاستهلاكية فيما وراء البحار بأسرع أساليب النقل وأرخصها . فكان طبيعيا أن تصبح العربات التى تجرها الدواب والسفن الشراعية عاجزة عن مواجهة المتطلبات الجديدة ، ولذلك أصبحت فكرة استخدام السفن البخارية فى الأنهار والبحار والمحيطات تشغل بال المعنيين بالنقل المحلى والنقل البحرى عبر القارات .

كذلك كان حجم التجارة المتبادلة بين الهند وإنجلترا قد تزايد جدا فى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر خاصة وأن الهند أصبحت تصدر القطن الى إنجلترا ليعود اليها على هيئة منسوجات رخيصة . وأدى ذلك التطور فى العلاقات التجارية بين الهند وإنجلترا الى زيادة عدد المشتغلين من الانجليز فى الهند فى مختلف المجالات السياسية والتجارية والاجتماعية فضلا عن المجالات العسكرية ، وهؤلاء الانجليز أصبحوا فى حاجة الى أن تكون اتصالاتهم مع إنجلترا سريعة ورخيصة حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه ، والى أن يكون سفرهم وترددهم بين إنجلترا والهند فى وقت قصير والى أن تصل المكاتبات الرسمية والرسائل البريدية الى إنجلترا فى الوقت المناسب .

كل هذه الأمور كانت تؤكد للانجليز يوما بعد يوم أن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل بسفنه الشراعية لم يعد قادرا على مواجهة متطلبات الثورة الصناعية ونتائجها أو متطلبات التوسع الاستعماري فى الهند (١) . بل بدا واضحا - منذ الحملة الفرنسية

(١) من أهم الأسباب التى كانت تدعو الانجليز الى تجنب طريق رأس الرجاء الصالح والعودة الى طريق الشرق الأدنى : (أ) كانت الرحلة البحرية طويلة بين الميناء الانجليزى بورتسموث والميناء الهندى بمباى، ولهذا كان من الضروري أن تحتزن السفينة كميات كبيرة من المواد الغذائية لسد حاجات البحارة خلال تلك الرحلة الطويلة ولهذا كانت هذه المواد الغذائية تشغل حيزا كبيرا من السفينة . (ب) كثرة تعرض البحارة لمرض

على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) - أن الدفاع عن الهند أصبح يتطلب سيطرة عسكرية لا على طريق رأس الرجاء الصالح فقط بل كذلك على الطرق القديمة العالمية عبر الشرق الأدنى . واتجهت أنظار الانجليز والرأى العام الانجليزى بقوة الى الشرق الأدنى بصفة عامة والليفانت (الحوض الشرقى للبحر المتوسط) بصفة خاصة .

وأصبحت الدوائر البريطانية ذات حساسية عالية لما يجرى فى منطقة الليفانت ، فى نفس الوقت الذى تكون فيه رأى عام بريطانى يدعو الى اسراع انجلترا فى استخدام البواخر فى المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى قبل أن تسبقها دولة أوروبية أخرى فى هذا الاتجاه ، فيصبح الدفاع عن الهند واهيا وتعرض الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية هناك الى الضياع . هذا الى أن عددا من الرحالة الانجليز - الذين استخدموا طريق العراق أو مصر للتردد بين الشرق والغرب - نشروا مؤلفاتهم عن رحلاتهم تلك وطالبوا باستخدام البواخر فى أحد الطريقين القصيرين عبر مصر أو العراق ، كما أنهم أسألوا لعاب المستعمرين الانجليز بما كتبوه عن الخير الوافر المادى والسياسى الذى يمكن أن يحصل عليه الانجليز اذا ما سيطرت الحكومة الانجليزية على هذين الطريقين أو احدهما ، وإذا ما استخدمت البواخر فى البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر العربى والخليج العربى والمحيط الهندى .

وجاءت هذه الاتجاهات فى وقت حلت فيه البواخر محل السفن الشراعية فى العمل بين الجزر البريطانية ، وبين انجلترا وأوروبا ، كما أصبحت البواخر تستخدم حينذاك فى انهار أمريكا الشمالية وكذلك شرعت حكومة الهند البريطانية فى تنفيذ خطوط بخارية فى انهار الهند الكبرى . وأدى النجاح المتواصل فى تلك الجهات الى أن يعمل الانجليز على

الاسخربوط . (ج) هبوب عواصف مفاجئة تعرض السفن للتخريب والفرق .
(د) كان طول الرحلة بين انجلترا والهند يجعل السفينة تصل الى الهند لتجد الوضع السياسى فيها على غير ما كان متوقعا . فقد كان يحدث أن تنشب الحرب بين انجلترا وفرنسا بعد اقلاع السفن ، وفى الطريق تجد هذه السفن نفسها فجأة فى مواجهة الأسطول الفرنسى . (هـ) الحاجة الى نقل أكبر الكميات التجارية بأسرع وقت وأرخص التكلفة .
أنظر :

استخدام البواخر في رحلات محيطية • وقد شرع الانجليز في تنفيذ هذه الخطوة الجريئة ابتداء من العقد الثالث من القرن التاسع عشر •

وكان أمام الانجليز ثلاث خطوط ملاحية يمكن استخدام البواخر فيها لربط الشرق بالغرب بمواصلات سريعة ، وهي :

- ١ - طريق رأس الرجاء الصالح •
- ٢ - طريق مصر - البحر الأحمر •
- ٣ - طريق الشام - العراق - الخليج العربي •

وظهر من يؤيد هذا الطريق أو ذاك ، إلا أن طريقى مصر ورأس الرجاء كانا يتصدران موضوع المفاضلة بين هذه الطرق • بينما ظل طريق العراق هامشيا لفترة طويلة • وكان جيمس جونستون J. Johnston هو الذى قدم مشروعا متكاملا لخط بخارى بين إنجلترا والهند • وشرع جونستون فى ١٨٢٢ فى تأليف شركة للملاحة البخارية تعمل بين كلكتا والسويس ، ولكن توقفت جهوده فى هذا المشروع بسرعة لأن التطورات الداخلية فى مصر كانت كثيرة بشكل أدى الى اقتناع المشرفين على المشروع - دون وجه حق - بأن عدم الاستقرار السياسى فى مصر يعنى عدم القدرة على نقل البضائع والمسافرين من السويس الى الاسكندرية فى أمن تام • ومن ناحية أخرى كانت نفقات تنفيذ هذا المشروع باهظة ومن ثم كان من العبث اقناع المساهمين بالمضى فيه طالما كان هناك ما يهدد بلقضاء على المشروع ، ومن ناحية ثالثة لم يلق هذا المشروع تأييد الحكومة فكان ذلك عاملا هاما فى أن يتحول جونستون الى طريق رأس الرجاء الصالح •

أعد جونستون باخرة أطلق عليها اسم الانتربرايز Enterpize للعمل بين إنجلترا والهند عن طريق رأس الرجاء الصالح على اعتبار أن هذا الطريق تحت السيطرة المباشرة للأسطول البريطانى ولأنه لا توجد فيه عقبات سياسية كتلك التى كانت فى مصر • فعلا قامت الباخرة « انتربرايز » برحلتها حول رأس الرجاء الصالح ، ولكن هذه الرحلة أثبتت أن هذا الطريق الطويل لا يصلح كخط للبواخر بين الشرق والغرب (١) •

(١) يرجع ذلك الى أن الباخرة خلال رحلتها هذه اضطرت الى استخدام آلاتها

كان طبيعيا أن تلتفت الأنظار الى طريقى الشرق الأدنى (عبر مصر أو العراق) بعد أن ثبت أن طريق رأس الرجاء الصالح لا يصلح لأساليب المواصلات الحديثة البخارية . ولهذا احتدم الجدل بين الداعين لطريق العراق والداعين لطريق مصر . ولكن كان الطريق عبر مصر يكسب بسرعة أنصارا أكثر وهذا يرجع الى أن مصر خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر استطاعت أن تحرز تقدما ملحوظا لم نشاهد مثله في العراق . فمصر منذ ١٨٠٥ الى ١٨٤٨ كانت تحت حكم محمد على الذى صعد الى كرسى الحكم بسواعد زعماء الشعب المصرى ، واستطاع أن يثبت أقدامه فى الحكم ، وأن يكسب ثقة السلطان ، وامتد حكمه خارج مصر الى شبه الجزيرة العربية ، وإلى السودان مستيطرا بذلك على جانبي البحر الأحمر . وكان فى نفس الوقت معنيا جدا بسلامة القوافل بين السويس والاسكندرية وكانت حكومة محمد على قوية فى الداخل ولها كلمة ذات قيمة فى الخارج .

أما العراق فقد توالى عليه أحداث كبرى خلال الثلث الأول من القرن التاسع

البخارية خلال ٣/٢ المدة فقط بينما اضطر الى استخدام الشراع فى المدة الباقية ، وتعرضت لأزمات قاسية مثل نفاذ الوقود وعندما تعطلت بعض الآلات لم تكن هناك إمكانية القيام باصلاحها أو تشحيمها اثناء الرحلة . وكانت المياه التى استخدمت فى ملاخزانات المراحل مأخوذة مباشرة من المحيط وهى مياه مالحة جدا فادى ذلك الى تلف المراحل والأنابيب . وخلال الرحلات الطويلة تكون بدالات الباخرة أكثر عرضة للتلف فى الرحلات القصيرة . هذا الى أن نفقات الرحلة كانت باهظة للغاية .

أنظر :

Hoskins, British Routes to India PP. 88 — 98 .

وهناك ظروف أخرى لعبت دورا هاما فى الاجهاز على طريق رأس الرجاء الصالح . وفى الوقت الذى أثبتت فيه رحلة الباخرة انثربرايز أن نفقات الرحلة حول ذلك الطريق باهظة التكاليف ومحفوفة بالأخطار قامت باخرة أخرى هى الهولندساي Hughlindsay برحلة ناجحة بين بمبائى والسويس ، فازدادت تحمس المسئولين لطريق البحر الأحمر ولمد خط ملاحى بخارى عالمى بين بمبائى والسويس خاصة وأن مصر أصبحت تتمتع منذ العقد الثانى من القرن التاسع عشر بحكومة مستقرة مركزية قوية هى حكومة محمد على .

عشر . فبعد وفاة سنيان باشا الكبير ١٨٠٢ توالى على الحكم في بغداد خمس ولاه ، قتل منهم ثلاثة (١) وهم يداقون عن حقهم في الحكم ضد منافسيهم واستسلم خامسهم داود باشا للجيش الذي بعث به السلطان لطرده ولل قضاء على حكم الماليك (١٨٣١) (٢) كذلك يلاحظ أن خمستهم تعرضوا لمضايقات عديدة من ايران بل غزت القوات الايرانية العراق في ١٨٢٠ (٣) ، كما تعرضت البصرة لحصار اسطول مسقط لها في ١٨٢٦ (٤) ، والى جانب هذا وذاك كانت هناك ثورات عشائرية عربية وكردية تكاد لا تنقطع .

وهكذا كان العراق يشير مخاوف القائمين على المشروعات الكبرى الهادفة الى احياء العراق كطريق بين الشرق والغرب ، وتركزت الأنظار على مصر ، وكان حاكم بمباى منستيورات الفنستون Elphineston من أولئك الذين اقتنعوا بأن الوقت قد أوف لاستخدام البواخر في طريق مصر فاقترح على مجلس ادارة شركة الهند الشرقية بأن تستخدم باخرة تعمل بين بمباى والسويس وأخرى بين الاسكندرية والموانئ الانجليزية . وفي نفس الوقت اقترح هـ . الفنستون بأنه في حالة تعذر استخدام طريق مصر — اذ كان هو الأساسى في مشروع الفنستون — يصبح طريق العراق بديلا له في الظروف المحيطة (٥) .

استطاع هـ . الفنستون ان يذال بحماسة كثيرا من العقبات التى اعترضت مجهوداته لاثبات أن طريق مصر هو الذى يجب أن تسير فيه البواخر ، حتى أنه بعد انتهاء مدة عمله

(١) وهم سليمان القتيل (١٨٠٨ — ١٨١٠) وعبد الله (١٨١٠ — ١٨١٣) وسعيد (١٨١٣ — ١٨١٦) .

(٢) أنظر : ع . نوار : داود باشا والى بغداد . الفصل السابع .

(٣) المرجع السابق : الفصل الرابع .

(٤) C. Aitchison, A collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India Reute Said : Said Bin Sulton .

لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث .

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين الجزء السادس ، ع . نوار . داود

باشا والى بغداد : لفصل الثالث .

كحاكم لبمباى سافر عن طريق مصر للدعاية لفكرته (١٨٢٧) • ومما ساعد على ازدياد أهمية مصر في هذا المجال أن خليفة الفنستون في حكم بمباى — وهو جون مالكولم Malcolm — كان متحمسا هو الآخر لطريق مصر ، فاستمر مالكولم في نفس الاتجاه الذى سار فيه سلفه ، وقام بمجهودات كبيرة من أجل دراسة هذا الطريق من الوجهة الفنية (١) ، كما أنشئت مراكز لتموين البواخر على طول الطريق (٢) ووضع مالكولم مشروعا يقوم على أساس استخدام بواخر خفيفة وسريعة في هذا الطريق ، وتعمد ارسال البريد الحكومى عن طريق مصر ليثبت للمسؤولين في لندن قيمة هذا الطريق وصلاحيته ، وكان تحمس جون باركر القنصل الانجليزى في مصر لمشروعات مالكولم هذه عاملا هاما في نجاح تلك الخطوات الاولى • ولكن تأييد محمد على — والى مصر — لتلك الخطوات ، وموافقته على نقل البريد والمسافرين بين السويس والاسكندرية كانت عاملا حاسما في ذلك النجاح الذى أحرزه مالكولم (٣) •

ولم هناك عقبات تحول دون التنفيذ النهائى للمشروع سوى عدم موافقة حكومة لندن عليه، وعدم قيامها ببعض الاجراءات الضرورية الأخرى وعلى رأسها مد خط البواخر بين بورتسموت ومالطة الى الاسكندرية (٤) حتى يصبح المشروع متكاملا • ولكن حكومة لندن أهملت هذا الموضوع ، ومع هذا استمر جون مالكولم في مجهوداته حتى ترك منصبه في عام ١٨٣٠ فكتب تقريرا مطولا عن تلك التجارب وقيمتها ، ووضع في تقريره هذا — بالتعاون مع أخيه سير تشارلز مالكولم (المشرف العام على الأسطول الهندى) — مشروعا جديدا يهدف الى استخدام خط بخارى حكومى بين بمباى والسويس لنقل البريد الهندى •

(١) كان من المعروف أن العواصف المفاجئة في البحر الأحمر كانت شديدة الخطورة على السفن البخارية ، هذا فضلا عن أن البحر الأحمر لا يحتوى على موانئ طبيعية وأنه عميق جدا لا تصل المرساة لقاعه •

(٢) في مخا وعدن وجدة والقصير والسويس •

(٣) Hoskins, British Rerites, PP. 104 — 105.

(٤) كان خط البواخر يمتد من بورتسموت الى مالطة فقط دون ان يصل الى الاسكندرية •

ويبدو أنه كان يرى أن النجاح في استخدام البواخر بين بمباي والسويس سيؤدي حتما إلى حث حكومة لندن على مد خط باورها من مالطة إلى الاسكندرية وبذلك تتم حلقات المشروع ويصبح في وسع المسافرين أن يستخدم البواخر من بمباي إلى السويس ثم الطريق البري القصير بين السويس والاسكندرية ثم بالبواخر مرة أخرى من الاسكندرية إلى إنجلترا مباشرة . ولكن مرت عدة سنوات دون أن تقدم حكومة لندن على تلك الخطوة الهامة (١) .

إن تلك المشروعات التي لم تحقق هدفها النهائي كانت مشروعات بين مندوبي شركة الهند الشرقية وحكومة لندن ، وكانت المباحثات في هذا الشأن ذات طابع حكومي مرتبط ارتباطا قويا بالبيروقراطية الانجليزية البطيئة . كان هناك في نفس الوقت جماعة من المغامرين الانجليز الذين اعتقدوا أن مثل هذه المشروعات إذا تولتها شركة من الشركات الكبرى فإنها ستحقق ما عجزت الحكومة عن تحقيقه . وكان من أشهر هؤلاء المغامرين ثلاثة هم :

- ١ - جيمس و . تيلر J. Taylor وهو أخو الوكيل السياسي البريطاني في بغداد .
- ٢ - توماس واجهورن T. Waghorn
- ٣ - فرانسيس راودن كسني F. R. Chesney الذي اشتهر بقيادة بعثة الفرات بين

(١٨٣٤ - ١٨٣٨) .

كان جيمس تيلر في أول الأمر من دعاة مشروع استخدام البواخر في طريق مصر (إنجلترا - الاسكندرية ثم السويس - بمباي والعكس) ولكن لم يستطع أن يعمل بحرية في هذا المجال حيث أن جون مالكولم - عندما كان حاكما على بمباي - كان لا يوافق على قيام الأفراد بتلك المشروعات الكبرى وإنما كان يصر على أن تتولى الدوائر الحكومية هذه المشروعات . فأدى ذلك إلى أن يترك جيمس تيلر مجال مصر لمالكولم واتجه تيلر إلى دراسة امكانية استخدام البواخر في طريق العراق (إنجلترا - الساحل السوري - نهر الفرات - الخليج العربي - الهند) . وكان طريق العراق قد بدأ يكسب الدعاة خلال

الثلث الأول من القرن التاسع عشر كما كان بعض الرحالة قد فضلوا طريق العراق عند سفرهم من الهند الى انجلترا من أمثال بكنجهام (١) وهود (٢) . وقد فضل جيمس تيلر أن يسافر عن هذا الطريق نفسه للدراسة والدعاية .

ومما لا شك فيه أن وجود روبرت تيلر R. Taylor — كوكيل سياسى لبريطانيا في بغداد — كان عاملا هاما من العوامل التى جعلت جيمس تيلر — وهو أخو روبرت تيلر — ينظر الى العراق ويلتفت اليه رغم أن سمعة العراق كانت سيئة بسبب كثرة الفتن الداخلية فيه بشكل لا يبشر بأنه سيصلح كمرع على سريع بين الشرق والغرب . وعلى أى حال غادر جيمس تيلر الهند الى العراق . وهيا له أخوه الامكانيات اللازمة لصعود نهر دجلة حتى بغداد . وهناك تدارس الأخوان معا خطة عمل سياسى اقتصادى لتنفيذ المشروع الكبير الذى يربط الهند بالبحر المتوسط وبأوروبا بواسطة بواخر تعمل في أنهار العراق . وكان طبيعيا أن يمتزج العمل التجارى بالعمل السياسى حيث أن « جيمس » كان يفكر تفكيرا اقتصاديا بينما كان أخوه « روبرت تيلر » يفكر تفكيرا سياسيا عسكريا في نفس الوقت ، فقد اتصل جيمس تيلر بدادود باشا والى بغداد (١٨١٦ — ١٨٣١) . وعرض عليه مشروعه . مبينا له ما سيعود على العراق من وراء ذلك من مكاسب كبيرة . ويقال أن داود وعد جيمس تيلر بأن يعطى الانجليز حق استخدام البواخر في نهر دجلة لمدة عشر سنوات وحق احتكار الانجليز تزويد البلاد بالأسلحة (٣) .

ان امتيازا كهذا كان كفيلا بأن يشجذ همم الأخوان جيمس وروبرت تيلر وأن يفتح مجالات واسعة أمام الانجليز في العراق وفي المنطقة بأسرها . ولكن شاء القدر أن يقضى جيمس تيلر نحبه قرب الموصل . فمات ومات معه ذلك الامتياز (٤) .

أما منافسه واجهورن Waghorn الداعى الى مشروع البواخر في طريق مصر فلم يلق هو الآخر نجاحا كبيرا . حقيقة كان هناك متحمسون كثيرون لمشروعه ولكن دون أن ينتقل التحمس الى مرحلة التنفيذ . ومع أن بعض البواخر قامت بعدة رحلات بين بمباي

(١) Buckingham

(٢) Heude

(٣) انظر د. نوار : داود باشا .

(٤) المرجع السابق .

والسويس وثبتت جدوى استخدامها بين هذين الميناءين • الا أن الحكومة الانجليزية تقاعست عن استخدام البواخر بين الاسكندرية ومالطة ، مع أن البواخر كانت تعمل فعلا بين مالطة والموانئ الانجليزية • فكان هذا عاملا هاما في تعطيل المشروعات العديدة التي وضعت في الهند لانشاء خطوط بخارية بين بمباي - السويس ثم الاسكندرية والموانئ الانجليزية • ووجهة نظر الحكومة البريطانية في الامتناع عن مد خط بوآخرها من مالطة الى الاسكندرية هي أن مثل هذا الأمر يتطلب أولا الدخول في مفاوضات معقدة مع الحكومة العثمانية لعقد معاهدة بشأن استخدام البواخر في المياه العثمانية وبشأن نقل التجارة والمسافرين من السويس الى الاسكندرية وبالعكس • وكانت الحكومة الانجليزية تعتقد أن هذه المشروعات قد تورطها في أزمات دولية هي في غنى عنها •

ولكن وقعت سلسلة من التطورات السياسية والاقتصادية الكبرى في إنجلترا نفسها وخارجها وفي مجالات السياسة الدولية أدت الى أن يعيد المسئولين الانجليز النظر في موقف الحكومة الانجليزية من المشروعات العديدة المطروحة أمامها بشأن استخدام البواخر في خطوط منتظمة بين الموانئ الهندية والمصرية والانجليزية •

وعلى رأس هذه التطورات :

١ - أصبح التنافس العالمى التجارى شديدا بين الدول الكبرى الأوروبية منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر وكما كانت تحت يد الشركات الكبرى امكانيات سريعة لارسال التعليمات والرد على الطلبات كانت فرص الأرباح تتزايد بسرعة • وحيث أن السوق الهندية وأسواق الصين أصبحت مفتوحة أمام التجارة البريطانية ، فإن الشركات في إنجلترا شعرت برغبة ملحة في أن تكون اتصالاتها بالهند والشرق الأقصى سريعة حتى يمكن تلبية الطلبات في أقصر وقت ، ولهذا كانت هذه الشركات تلح على الحكومة البريطانية من أجل انشاء خط بوآخري بين بورتسموث والاسكندرية بالتعاون مع خط بين السويس وبمباي من أجل نقل المراسلات التجارية بصفة خاصة والبريد بصفة عامة بواسطة البواخر •

٢ - لقد أصبح لفرنسا نشاط كبير جدا في البحر المتوسط ، فقد شاركت فرنسا في تدمير الأسطول المصرى العثمانى في نوارين ١٨٢٧ ، وأرسلت حملة بحرية لحصار (م ١٣ الشعوب الاسلامية)

الجزائر في أعقاب ذلك، ثم أنزلت جيوشها لاحتلال الجزائر ابتداء من ١٨٣٠، وكان الانجليز الى جانب هذا يعتقدون أن محمد علي لم يقم بهجومه الكبير على سوريا في أكتوبر ١٨٣١ الا بتحريض من فرنسا ، هذا الى أن فرنسا عنيت عناية واضحة باستخدام البواخر في البحر المتوسط وأنشأت فعلا خطا بخاريا بين مينائي مرسيليا والاسكندرية ١٨٣٥ ، وخشى الانجليز من أن يصبح البحر المتوسط بعد وقت وجيز بحيرة فرنسية . وكان الرأي العام الانجليزي شديد الحساسية لمثل هذه النشاطات الفرنسية .

٣ - كان التوسع المصري في سوريا (١٨٣١ - ١٨٣٣) سريعا وقويا بشكل لم تكن تتوقعه الحكومة الانجليزية . وكانت تعتقد أن محمد علي سيكتفى بتثبيت الامتيازات التي حصل عليها من الباب العالي وبالاكتفاء بضم عكا دون بقية اجزاء سوريا ، ولكن محمد علي أصر على أن يسيطر على كل سوريا وبالتالي أصبح طريق مصر وطريق العراق في قبضته ، حيث أن من يسيطر على الشام يسيطر بالتالي على طريق العراق . ثم أن التوسع المصري في الشام جعل العراق نفسه قاب قوسين أو أدنى من الانضمام الى مصر ضد السلطان العثماني وهو امر كانت تبغضه الامبريالية الانجليزية كل البغض . وفوق هذا وذاك دخلت روسيا في ١٨٣٣ طرفا ثالثا بين الحكومة العثمانية ومصر ، عندما عقد قيصر روسيا مع السلطان العثماني معاهدة خنكار سكله سي ١٨٣٣ (١) ، التي جعلت الدولة العثمانية - من وجهة نظر الانجليز - تحت الحماية الروسية ، وأصبحت انجلترا تخشى على طريق العراق لا من مصر فقط بل كذلك من الروس ايضا ، فلقد حذر الوكيل السياسي الانجليزي في بغداد حكومته من أن الروس سيستغلون معاهدة خنكار سكله سي الى أقصى حد ممكن ، وأن الروس لن يتوانوا عن استغلال انهار العراق في مشروعات تقوض المصالح البريطانية في المنطقة وتهدد الهند تهديدا خطيرا (٢) .

(١) معاهدة هجومية دفاعية قصد بها السلطان العثماني الاستعانة بالروس ضد التوسع المصري . أنظر نصوصها في :

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 106
Taylor to Secret Committee, October 10, 1823; India Office Records, Persia and Persian Gulf, Vol. 51, pp. 357—390; March 17, 1834; Ibid; Vol. 50 pp. 193—204; F. O. 78/371: Werry to Palmerston; July 5, 1839.

ولقد وضعت الحكومة الانجليزية سياستها على اساس ارغام مصر (١) على الانسحاب من سوريا ومن شبه الجزيرة العربية على اعتبار أن مصر المسئولة عن هزيمة السلطان العثماني ، وبالتالي عن عقد الأخير لمعاهدة خنكار سكه سى مع قيصر روسيا . ورات بريطانيا أن نفوذها الامبريالى فى منطقة الشرق الأوسط يتوقف على ابعاد روسيا عنه وعلى انسحاب المصريين من الشام وشبه الجزيرة العربية .

وكان ابعاد المصريين عن سوريا يحقق لانجلترا فى الوقت نفسه بقاء طريق العراق بعيدا عن متناول الروس والمصريين .

بحثت الحكومة الانجليزية هذا الموقف بالتفصيل ووجدت أن هناك طريقين لتحقيق أهدافها فى الشرق الأوسط :

الطريق الأول : هو استخدام القوة المسلحة ضد مصر وارغامها على الخروج من سوريا ومن شبه الجزيرة العربية .

الطريق الثانى : هو وضع بواخر بريطانية مسلحة فى نهري دجلة والفرات تحول دون انضمام العراق الى مصر انضماما فعليا .

وفضلت الدوائر السياسية الانجليزية هذا الطريق الثانى، وطلبت من الباب العالى أن يصدر فرمانا يسمح لها باستخدام باخرتين فى نهر الفرات بقصد العمل على تنشيط التجارة . وبعد تردد اصدر السلطان فرمانا فى ديسمبر ١٨٣٤ بهذا المعنى (٢) .

وبناء على ذلك ارسلت الحكومة الانجليزية الكابتن فرنسيس راودن جسنى Chesney على رأس بعثة تتكون من سفينتين بخاريتين الى الشاطئ السورى ، ثم نقلت هاتان الباخرتان الى بيره جك فى أعالي الفرات وركبتا هناك ، وأخذتا فى هبوط نهري الفرات ، وقد غرقت احدى الباخرتين بينما استمرت الثانية وهى الباخرة (الفرات) فى هبوطها للنهر حتى القرنة ، ثم صعدت نهر دجلة الى بغداد ثم عادت الى شط العرب .

(1) Rebert Taylor to India Board. March 14, 1834. F.O. 78/245

(٢) انظر التحليل التفصيلي لظروف اصدار هذا فرمان فى كتابنا « المصالح البريطانية فى انهار العراق » . مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٨ الفصل الثالث .

فقامت بدراسة واسعة لأنهار العراق ، وكان من المقرر أن تنتهى بعثة جسنى في ١٨٣٧/١/٣١ ، وفعلًا انتهت البعثة في ذلك التاريخ ، ولكن ظلت الباخرة في المياه العراقية .

وعندما وقعت معركة نزيب بين الجيوش العثمانية والمصرية في يونيو ١٨٣٩ وأصيبت الجيوش العثمانية بهزيمة نكراء ، أسرعت انجلترا الى تعزيز قوتها في العراق ضد أية اتجاهات مصر نحوه ، فأرسلت على عجل ثلاث بواخر مسلحة انضمت الى الباخرة (الفرات) في العراق ووقفت هذه البواخر الأربع في أنهار العراق على أهبة الاستعداد لمنع انضمام العراق الى مصر . وهكذا أصبح العراق قاعدة انجليزية ضد مصر (١) .

واستمر الحال على هذا النحو حتى أرغمت الجيوش الأوروبية الجيش المصرى على الانسحاب من الشام ثم من شبه الجزيرة العربية وبعد ذلك سحبت انجلترا بواخرها من المياه العراقية فيما عدا باخرة واحدة كانت نواة للقوة البحرية المسلحة الانجليزية في المياه العراقية تلك القوة التى ظلت موجودة في العراق حتى سقوطه في يد الانجليز سنة ١٩١٧ . وهكذا كان العراق خلال أزمة التوسع المصرى قاعدة ضد المصريين (١) تحت ستار مشروعات خطوط المواصلات العالمية وتنشيط التجارة . ولم يلبث الانجليز أن أهملوا العراق لأن سياستهم اتجهت نحو تفضيل مصر كطريق سريع بين الهند وأوروبا . وفي هذا يقول السير جو هبوس Hobbhouse في مجلس العموم البريطانى أن الفرص من مد خطوط الملاحة البخارية بين الهند وانجلترا غرض قومى . وحتى لو نجحت بعثة جسنى في اثبات أن نهر الفرات صالح للبواخر ولربط الشرق بالغرب فإنه لا بد أيضا من استخدام الطريق عبر مصر والبحر الأحمر . وهذا يؤكد لنا أن الطريق عبر مصر كانت له دائما الأفضلية لدى الانجليز . حتى أن هوسكنز Hoskins كان يرى أن النقد الحقيقى الذى يوجه الى بعثة الفرات هو أنها عطلت أمر استخدام طريق مصر (٢) .

(١) عن هذا الموضوع أنظر دراستنا التفصيلية في تاريخ العراق ١٨٣٠ - ١٨٧٢
الفصل الخامس والسادس . وانظر كذلك .

F. R. Chesney; The Expedition for the Survey of the River
Enphrates and Tigris; London 1850, Vol. I-II; Hoskins; British
Routes to India Chapters VI - VII.

وخلال الفترة التي كانت فيها بعثة الفرات تعمل في العراق كانت عدة بواخر محيطية كبيرة على وشك الانتهاء في أحواض السفن الانجليزية لاستخدامها في البحر المتوسط ، وفي نفس السنة التي انتهت فيها بعثة الفرات رسميا تشكلت لجنة برلمانية جديدة ألقى على عاتقها دراسة أحسن الوسائل التي يمكن بواسطتها انشاء خطوط مواصلات بخارية مع الهند عن طريق البحر الأحمر . وكان من الطبيعي أن تتجاهل مثل هذه اللجنة التقارير التي وضعت عن بعثة الفرات . وكان التقرير الذي قدمته هذه اللجنة يؤكد ضرورة انشاء خط ملاحية تجارى بين السويس وبمباي (١٨٣٧) . ووقعت عدة تطورات جعلت طريق البواخر عبر البحر الأحمر أكثر سهولة للانجليز وأهم هذه التطورات :

١ - مد الخط الملاحي البريطاني من مالطة الى الاسكندرية ومن ثم أصبحت الرحلة مباشرة بين الاسكندرية وانجلترا بواسطة البواخر .

٢ - الاتجاه الى احلال البواخر في الأسطول الهندي محل السفن الشراعية .

٣ - الاحتلال الانجليزي لعدن سنة ١٨٣٩ التي أصبحت من أهم محطات تزويد البواخر بالفحم (١) .

وخلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كانت محطات الفحم متوفرة فعلا على طول الطريق الملاحي بين الهند والسويس ، ونظم الانجليز - منذ أواخر الثلاثينات - رحلات بخارية بين بمباي والسويس ، وبين الاسكندرية وموانئ انجلترا واستخدام طريق البحر الأحمر على نطاق واسع منذ ذلك الوقت خاصة بسبب التحسينات التي أدخلت على البواخر التي أصبحت أكثر سرعة واتساعا عن ذي قبل الأمر الذي جعل فكرة شق قناة السويس أكثر إلحاحا عما مضى (٢) ، ثم أن المسافة بينا السويس والاسكندرية رغم أنها قصيرة إلا أنها كانت شاقة بالنسبة لنقل البضائع والمسافرين على حد سواء . ولهذا ظهرت مشروعات انجليزية لمد خطوط حديدية بين السويس والاسكندرية . فعلاوة على أن هذا الخط الحديدي يعطى نفوذا كبيرا لانجلترا في مصر ،

(1) Hoskins, op. cit. pp. 197-207

(2) Ibid, pp. 183-235.

فانه سيحل كذلك مشكلة النقل بين السويس والاسكندرية ، ولقد كانت لدى الانجليز رغبة قوية في أن يرسلوا بريدهم الى الهند عن طريق مصر ، وكان من قبل يرسل عن طريق العراق وذلك بسبب المشاغبات التي لا تنقطع في العراق بين الحكومة والعشائر العربية الأمر الذي كان يعرض البريد من وقت لآخر للضياع . ومن هنا نتبين أن انظار الانجليز والفرنسيين على السواء أصبحت مركزة على مصر أكثر من العراق منذ بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر ، وظهرت الدعوات القوية الى أن مد خط حديدي من الاسكندرية الى السويس خير من مد خط حديدي من الساحل السوري وعبر العراق الى الخليج العربي ، خاصة وأن عباس الأول — والى مصر — كان متحمسا لمشروع الخط الحديدي عبر مصر (١) .

وعمل الباب العالي على منع عباس الأول من المضي في مشروع خط حديد السويس الاسكندرية، كما عمل على التدخل في أمور مصر بما يحقق له أهدافه، ومع ذلك شرع عباس الأول في تنفيذ الخط الحديدي بين السويس والاسكندرية ، ذلك الخط الذي تم فعلا بعد وفاة عباس (٢) .

لقد كان الانجليز أسرع في الوصول الى تفاهم مع عباس الأول لمد خط حديدي يربط الاسكندرية بالقاهرة بالسويس . وتم لهم ذلك في ١٨٥٢ . ورأى الانجليز أن هذا الخط يغنيهم عن المشروعات العديدة التي كانت تروجها فرنسا لشق قناة السويس أو المشروعات التي كان يروجها المتحمسون لمد خط حديدي على طول نهر الفرات . وكان طبيعيا أن يثير هذا العمل الذي أقدم عليه عباس الأول — دون أخذ موافقة الباب العالي — حنق الدوائر العثمانية عليه . ووقعت أزمة شديدة بين عباس والسلطان كان لها اثر على العراق .

فقد تنبه الباب العالي الى أنه أهمل المشروعات المتعددة التي ترددت بشأن مد خطوط حديدية على طول العراق تربط البحر المتوسط بالخليج العربي . ووجد أن مد

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل الجزء الأول ص ١٤ .

خط حديد الاسكندرية - القاهرة - السويس يقضى على أى أمل فى جعل العراق طريقا عالميا للمواصلات . فتحرك الباب العالى معترضا على حق عباس فى أن يقدم على مشروعه سالف الذكر ، وأخذ الباب العالى يردد بعد وفاة عباس الأول تحول تيار السياسة المصرية صوب الفرنسيين لأن سعيد باشا كان يميل اليهم وأصدر امتياز شق قناة السويس لشركة عالمية فرنسية الطابع . ولكى تقضى انجلترا على هذا المشروع الفرنسى لجأت الى احياء طريق العراق ، وقامت دعايات بريطانية قوية نحو مد خط حديدى على طول العراق يربط بين البحر الأحمر والخليج العربى . وأصبح التنافس بين مشروع خط حديد العراق (الانجليزى) ومشروع شق قناة السويس (الفرنسى) على أعلى المستويات الدولية . بل كان حجر الزاوية فى السياسة الشرقية للدول الأوروبية الكبرى . وتزعم فرانسيس داودن جسنى Chesney وكذلك اندرو Andrew حركة الدعاية لمد خط حديدى على الفرات (١) ، وامتدت هذه المشروعات الانجليزية الى أوروبا نفسها حتى لقد طالب دعاة المشروع باقامة معبر بين كاليه ودوفر لتسهيل السفر والنقل من انجلترا الى القارة الأوروبية الى العراق بخطوط حديدية متصلة . وأغرى جسنى حكومته بأن زراعة القطن فى العراق سيفوق ما تنتجه مصر ويصبح العراق متفوقا فى تصديره الأمر الذى سيؤدى الى الحصول على أرباح وفيرة من عمليات نقل القطن بالسكة الحديدية التى سيملكها الانجليز .

والواقع أن فرنسا كانت فى الوقت الذى تركز فيه جهدها من أجل تنفيذ مشروع قناة السويس ، كانت تنافس بريطانيا أيضا فى مشروعات خطوط المواصلات العالمية عبر العراق . وهكذا كما كانت بريطانيا تشاكس فرنسا فى مشروع قناة السويس ، كانت فرنسا تشاكس بريطانيا فى مشروع خط حديد الفرات .

كذلك كان السفير البريطانى فى الاستانة السير بولور Bulwer من المتحمسين لمشروع خط حديد الفرات ، ويبدو أن ذلك شجع المتحمسين من الرأسماليين الانجليز لهذا الخط للتقدم الى السلطان العثمانى للحصول على امتياز مد خط حديدى فى العراق فى وقت قريب من صدور امتياز قناة السويس . ولكن بينما صدر امتياز قناة السويس (١٨٥٤/١٨٥٦) لم يصدر امتياز خط حديد الفرات . والسبب فى عدم صدور امتياز خط حديد الفرات هو أن السلطات البريطانية الحكومية المسئولة - وعلى رأسها

بالمرستون Palmerston كانت تعارض في مد أى من الخطوط العالمية السريعة سواء في العراق أو في مصر .

لقد كان بالمرستون يقدر تماما أن قناة السويس الفرنسية ستقضى على مكانة بريطانيا الامبريالية ، وأن طريق الفرات لا يستطيع أن ينافس القناة أو أن يحافظ على مكانة انجلترا في العراق . ولهذا لم يكن من مصلحة بريطانيا في نظره مد خط حديدى في العراق أو شق قناة السويس فى مصر ، وإنما الذى يهيمه هو عدم القيام بهذه المشروعات الكبيرة لتظل لبريطانيا اليد العليا في العراق ومصر . وحاول الفرنسيون اخراج الانجليز من صلابتهم بأن عملوا على اغراء الانجليز بانشاء جبهة انجليزية فرنسية تشرف على خطوط المواصلات عبر الشرق الأدنى ولكن دون جدوى (١) . بل شعر الانجليز أن فرنسا بعد حرب القرم أصبحت أكثر خطورة على مستقبل الأطماع البريطانية سواء في الشرق الأوسط أو في الشرق الأقصى .

بل لقد دخلت فرنسا مجال المنافسة الفعلية على طريق العراق أيضا . وربما هدفت فرنسا من وراء ذلك أن تظهر أمام بريطانيا بأن طريق مصر والعراق — في آن واحد — سيصبحا في ايد فرنسية ، الأمر الذى يجعل فرنسا قادرة على مساومة انجلترا بصلاية أكثر على أساس أن يتنازل الفرنسيون عن مشروعاتهم في العراق في مقابل أن يتخلى الانجليز عن معارضتهم لمشروع شق قناة السويس . وفلا تقدم الفرنسيون سنة ١٨٥٦ الى السلطان العثمانى بمشروع لمد خط حديدى على طول نهر الفرات . ولكن الانجليز لم يتحولوا عن سياستهم ولم يتخلوا عن معارضة كل هذه المشروعات الفرنسية سواء في العراق أم في مصر ، ونجحوا فعلا في القضاء على المشروع الفرنسى الخاص بخط حديد الفرات ، كما استمرت معارضتهم لمشروع شق قناة السويس . واستمرت هذه المعارضة أثناء عمليات الحفر حتى انتهت هذه العمليات بنجاح وافتتحت قناة السويس في ١٨٦٩ . فكان ذلك تحولا حاسما في التاريخ وأصبح الطريق بين الشرق والغرب بواسطة قناة السويس هو الأكثر تفضيلا لدى الدول وتزاحمت السفن والبواخر على عبور هذه القناة منذ ذلك التاريخ .

(1) Hoskins, op. at. pp. 335-336.

ولقد أصاب العراق بعض الفوائد من وراء شق قناة السويس . وذلك لأن اتصال العراق بأوروبا قبل شق القناة كان يتم بواسطة الطريق البرى الطويل الخطر المؤدى الى الموانئ السورية . وكانت نفقات النقل بين أوروبا والعراق عالية ، أما بعد افتتاح قناة السويس فقد أصبحت اتصالات العراق بأوروبا مباشرة بواسطة السفن البخارية التى تستطيع أن تقوم برحلتها - دون عقبات - بين الموانئ الأوروبية والبصرة . ولهذا نجد أن عدد البواخر الراسية فى ميناء البصرة كان قد تزايد بشكل ملحوظ بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بسبب كثرة ورود السفن الأوروبية الى البصرة عن طريق القناة فكان ذلك عاملا هاما فى نمو العلاقات بين العراق وأوروبا ، فصدر العراق التمور والحبوب الى أوروبا بتكاليف نقل أقل عن ذى قبل . كما صدر التمور والصوف الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكثرت الكميات التى استوردها العراق من منتجات أوروبا الصناعية (١) .

ولكن من ناحية أخرى ، كان العراق قبل افتتاح قناة السويس يستورد البن من اليمن والمنتجات الهندية العديدة ليصدرها الى دمشق وحلب . وبشق قناة السويس أصبح من الأرخص نقل متاجر الهند مباشرة الى السواحل السورية ، وكذلك بالنسبة لنقل منتجات اليمن الى الموانئ الشامية .

لقد بدا بسرعة كان قناة السويس أصبحت شريان الحياة بالنسبة للعلاقات التجارية بين أوروبا والشرق الأقصى ، وأن الطريق الثانى عبر العراق فقد قيمته فى هذا المجال، وشعر الباب العالى أن هذه الميزة الكبرى التى حصلت عليها مصر يجب أن ينافسها العراق فيها ، وندم المسئولون العثمانيون على تفريطهم فى حق العراق فى هذا الشأن وتقاعسهم عن تنفيذ بعض المشروعات الكبرى التى كانت تعرض عليهم . وكان مدحت باشا - المصلح العثمانى الشهير - من أكثر المتحمسين للعمل على احياء طريق العراق بين الشرق والغرب ، كما أنه دعا الى أن يفيد العراق الى أقصى درجة ممكنة من قناة السويس . ولهذا كان حكمه للعراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) نقطة تحول هامة فى تاريخ هذه البلاد .

(١) يعقوب سر كيس : مباحث عراقية : ج ٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وضع مدحت مشروعه على أساس :

- ١ — توصيل الساحل السوري بأعلى نهر الفرات بطريق برى .
 - ٢ — ازالة العقبات التى تحول دول استخدام البواخر فى أنهار العراق .
 - ٣ — ربط البصرة بالاستانة بخط بواخر مباشر يعمل بين البصرة والخليج العربى ، والبحر الأحمر ، وقناة السويس ، والبحر المتوسط ، والاستانة .
- وبالنسبة للطريق البرى بين الساحل السوري ونهر الفرات ، فقد أقام على طول هذا الطريق البرى نقطا للحراسة لمنع العشائر — التى يمر هذا الطريق بالقرب منها — من التعدى على القوافل .

وفيما يتعلق بنهر الفرات عنى مدحت باشا عناية كبيرة بدراسته لتحديد العقبات التى حالت دون استخدام البواخر فيه على نطاق واسع ، واستقدم « كراكات » لازالة هذه العقبات ، وأما ربط البصرة بالاستانة بالبواخر فهو المشروع الذى لقى نجاحا أكبر فى الوقت الذى لم تسفر مجهودات مدحت فى نهر الفرات وفى الطريق البرى بين القسرات والساحل السوري الا عن نجاح محلى فقط . ولم يلبث هذا النجاح أن تلاشى بعد رحيل مدحت عن العراق . أما البواخر التى استقدمها مدحت باشا لتعمل بين البصرة والاستانة فقد استمرت فى القيام برحلاتها حتى بعد رحيل مدحت عن العراق ١٨٧٢ (١) .

(١) عن مدحت فى العراق وعن مشروعاته هذه انظر : عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين . ج ٧ ، ص ٢٠٩ مدحت : تبصرة عبرت ، ٩٨ .

★ ع . نوار : تاريخ العراق الحديث الفصل الحادى عشر وعن مدحت فى العراق بصفة عامة . انظر الفصل العاشر والحادى عشر ، ومجموعة كبيرة من الوثائق التى صورت من دور المحفوظات البريطانية

India Office and Public Record office

محفوظة بكلية الآداب بجامعة عين شمس . وكذلك عن اعماله انظر صحيفة (زوراء) التى أصدرها فى العراق عقب وصوله اليه واليا فى ١٨٦٩ ، وكتب احمد امين عنه فى كتابه زعماء الاصلاح وكتب حيدر مدحت كتابا باللغة الانجليزية وآخر باللغة الفرنسية عن أبيه مدحت باشا هما :
The Life of Midhat Pacha, Midhat Pacha.

لم تستطع تلك المجهودات التي بذلها مدحت باشا في العراق أن ترفع العراق الى مستوى المنافسة الحقيقية لقناة السويس ، ومن ناحية أخرى أصبحت مصر هدفا رئيسيا من أهداف الاستعمار البريطاني للسيطرة على هذا الممر المائي العظيم . وساعدت الظروف المحلية والدولية الاستعمار البريطاني على احتلال قبرص مفتاح مصر الشمالي (١٨٧٨) ، وتطورت الأمور بسرعة ، فنشبت الثورة العراقية التي أصرت على أن تضع مصالح الوطن العربي والشعب المصري قبل مصالح الأجانب ، وعلى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، فأسرعت انجلترا الى ضرب الثورة العراقية في مهدها مستخدمة القوة المسلحة واحتلت مصر ١٨٨٢ .

ولقد كان من مصلحة الاستعمار البريطاني في مصر أن لا تنفذ أية مشروعات تحيي طريق العراق حتى لا ينادد قناة السويس . ومع هذا ظهرت المشروعات التي تعمل على احياء طريق العراق ليكون بديلا لقناة السويس .

ولقد اثير فعلا موضوع استخدام خطوط مواصلات عالية بديلة لقناة السويس بواسطة بعض المفكرين الانجليز ومنهم اللورد لمنجتون الذي طالب باعادة النظر في هذا الموضوع الحساس على اعتبار أن الاعتماد كلية على قناة السويس في أمور النقل البحري التجاري والعسكري يعرض المصالح البريطانية لأخطار جسيمة لو حدث وتعطل استخدام القناة لأمر من الأمور . وقد أثار لمنجتون في أحد جلسات اللوردات في يوليو ١٨٨٣ نقطة طريفة وهي أن آخر لجنة شكلت للنظر في مشروع مد خط حديدي بين البحر المتوسط والخليج العربي يمتد على طول نهر الفرات كانت في ١٨٧٢ ، وأن تلك اللجنة استفسرت عن هذا المشروع من ٣٥ خبيرا بالموضوع . وبين هؤلاء ثلاثون أيدوا مشروع مد الخط الحديدي على طول نهر الفرات وخمسة فقط هم الذين عارضوه ، ومع هذا رفضت الحكومة الأخذ برأي هذه الأغلبية الساحقة من الخبراء ، وركزت الحكومة جهودها في السيطرة على قناة السويس حتى تم لها ذلك وأهملت طريق الفرات . وأشار لمنجتون الى أن هذا تقصير من جانب الحكومة البريطانية حيث أن تكاليف مد الخط الحديدي على طول العراق لن يكلف الحكومة مبالغ كبيرة في نفس الوقت الذي تضمن فيه استخدام هذا الطريق البديل عند الحاجة .

وتشبثت الحكومة البريطانية بموقفها ، وبأن قناة السويس كافية لسد حاجات

النقل البحري التجاري العسكري (١) ، فضلا عن أن احتكار بواخر شركة لينش للملاحة البخارية في نهري دجلة والفرات يضع هذين النهرين في خدمة المصالح البريطانية هناك . ولم يثر موضوع استخدام العراق كخط للمواصلات العالمية بشكل عنيف إلا على يد ألمانيا فيما عرف باسم خط حديد بغداد الذي أثار أزمات كبرى منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

يعتبر مشروع خط حديد بغداد من أغنى المشاريع من حيث المناورات الدبلوماسية والمفاوضات التي اشتركت فيها الدول الكبرى ، في الوقت الذي وقف فيه أهل العراق بصفة خاصة وبقية أجزاء الوطن العربي بصفة عامة موقف المتفرج . بل أن المعلومات التي كانت تتسرب عن هذا المشروع الكبير كانت قليلة فلم يعرف الشعب إلا القليل عنه وحيل بينه وبين فهم التطورات على حقيقتها .

ولقد شعرت دوائر الاستتانة أنها تقاعست عن جعل العراق خطا رئيسيا للمواصلات الحديثة بين الشرق والغرب . خاصة بعد أن رأت بنفسها كيف أن قناة السويس جعلت لمصر مركزا دوليا خطيرا ، في نفس الوقت الذي كان يعتقد فيه أن دخل مصر من القناة سيكون ضخما . ولهذا تطلع العثمانيون الى تنفيذ مشروع خط حديدى عبر العراق ، وكانت الاتجاهات الأولى تفضل أن يمتد هذا الخط من الاستتانة الى أنقرة ومنها الى الموصل وبغداد وينتهى بالكويت (١٨٧٢ - ١٨٧٤) . وكان أحد المهندسين النمساويين وهو الفون بروسيل William von Prousel صاحب هذا المشروع (١) .

كذلك دعا المصلح التركي المعروف مدحت باشا بمد خط حديدى من طرابلس (على الساحل السورى) الى بغداد . ولقد تقدم بعض الفنيين الروس بمشروع مشابه له ، ولكن لم تستطع هذه المشروعات أن تدخل مرحلة التنفيذ . حتى التقى السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى مع المؤسسات المالية الألمانية عند تنفيذ مشروع مد خط

(١) الدكتور لؤى بحرى : سكة حديد بغداد . دراسة في تطور ودبلوماسية قضية سكة حديد برلين - بغداد حتى ١٩١٤ . شركة الطبع والنشر الأهلية سنة ١٩٦٧ ، ص ١٣ - ١٤ .

حديدي الى بغداد ، ولقيت هذه المشروعات ترحيب وليم الثاني - قيصر ألمانيا - وأعلن تأييده الرسمي لمشروع خط حديد بغداد (اكتوبر ١٨٩١) ، وما أن عرف ذلك في الدوائر السياسية والاقتصادية الفرنسية والانجليزية حتى شرع الانجليز والفرنسيون في القيام بحملة كبرى لمنع حصول الألمان على امتياز مد خط حديد بغداد . وكانت بريطانيا في الحقيقة تعمل على القضاء على المشروع من أجل مصالحها في قناة السويس ، ومنعها لوصول الألمان - أو أية قوة كبرى مناهضة لها - الى الشرق الأدنى ، الا اذا كان ذلك تحت اشراف بريطانيا نفسها (٢) .

وقد كان نشاط السفير البريطاني في الاستانة السير كلارفورد Clarford سببا في اندلاع أزمة عنيفة أصبحت مصر طرفا فيها دون أن يكون لها يد في ذلك . فلقد اثار خط حديد بغداد أزمات دولية كانت مصر طرفا فيها كما أن بعض الأزمات التي وقعت لمصر كان العراق طرفا فيها من خلال مشكلة خط حديد بغداد ، وسنتعرض هنا لعدد من هذه الأزمات وهي :

- (أ) علاقة خط حديد بغداد بتطوير الجيش المصري .
- (ب) علاقة خط حديد بغداد بحادثة فاشودة .
- (ج) علاقة خط حديد بغداد بمشروع خط حديد الكاب - القاهرة .
- (د) أوجه التشابه بين مشكلة الكويت (١٨٩٩) ومشكلة طابا سنة ١٩٠٦ .
- (هـ) تجاهل حكومة الاتحاديين مصالح أهل العراق في أنهارهم (أزمة لينش) ونفرض يدها من الحزب الوطني المصري .

لقد كانت الحكومة البريطانية تماطل في أمر الجلاء عن مصر، وكانت سياسة ألمانيا، خاصة في أيام بسمارك ، تبحث انبطرتا على احتلال مصر والاستمرار في ذلك الاحتلال ، واستمرت العلاقات الألمانية - البريطانية طيبة حتى قدم السفير البريطاني في الاستانة

(٢) وفي هذا قال جاسترو عن خط حديد بغداد :

السير كلارفورد Claford احتجاجا شديدا للهجة الى السلطان عبد الحميد الثاني طالبا منه أن يمتنع عن اعطاء رأى نهائى بشأن خط حديد بغداد الا بعد أن يحاط السلطان علما بوجهة نظر الحكومة البريطانية في هذا المشروع الخطير . وقد اثار هذا الاحتجاج على تلك الصورة ثائرة الدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية المعنية بذلك المشروع .

حقيقة كان الاحتجاج البريطانى مهينا للسلطان العثمانى ، ولكنه فى نفس الوقت كان يعنى اعتراضا بريطانيا على المشروع الذى يسعى الألمان الى تنفيذه ، ومن ثم فالانجليز فى نظر الألمان أصبحوا يعرقلون النشاط الألمانى مع أن الألمان كانوا يتوقعون من الانجليز أن يكونوا مؤيدين لهم فى مثل هذه المجالات حيث أن مواقف ألمانيا المؤيدة للنشاط الانجليزى فى الشرق كانت مما لا ينكره أحد .

لقد كان لذلك الاحتجاج البريطانى رد فعل عنيف فى وزارة الخارجية الألمانية لدرجة أن وزير الخارجية الألمانية البارون مارشال فون بيبيرشتين Baron Marschal von Bieberstein قرر أن يوجه لوزارة الخارجية البريطانية احتجاجا لا يقل فى حقيقته عن تهديد قوى لبريطانيا . فقد استدعى البارون مارشال فون بيبيرشتين اليه السير ادوارد مالت Edward Malet - سفير بريطانيا فى برلين - وقدم اليه احتجاجا على تلك الاجراءات التى قام بها السير كلارفورد ضد المشروع الألمانى لمد الخط الحديدى الى بغداد ، وبعث فون مارشال كذلك الى القنصل الألمانى فى القاهرة بتعليمات تقضى بأن يسحب موافقة ألمانيا على طلب بريطانيا الخاص باعادة تكوين الجيش المصرى وتطويروه (١) .

لقد قدم هذا التهديد بسحب الموافقة الألمانية على تطوير الجيش المصرى فى وقت كانت فيه فرنسا كذلك قد رفضت الموافقة على تقوية وتطوير الجيش المصرى . وحيث أن عملية التطوير والتقوية فى الجيش المصرى تتطلب نفقات كثيرة ، فقد كان فى استطاعة فرنسا وألمانيا أن تضعا العقبات الكثيرة أمام سلطات الاحتلال الانجليزى فى مصر على اعتبار أن تقوية الجيش ستؤدى الى تقليل كفاءة مصر نحو دفع ديونها للدائنين الأجانب . ومن ناحية أخرى كانت بريطانيا تلقى معارضة شديدة من جانب فرنسا ضد

(١) لوى بحرى : سكة حديد بغداد ، ٣٦ .

الوجود البريطاني غير الشرعى فى مصر ، فضلا عن مجهودات فرنسية مضمية لمنع الأنجليز من استخدام الجيش المصرى - بعد تطويره - فى عمليات استرداد السودان ؛ فقد كانت فرنسا تعتبر السودان أرضا بلا صاحب منذ انسحاب القوات المصرية من السودان بعد سقوط الخرطوم فى يد قوات المهدي فى ١٨٨٥ ، بعكس بريطانيا التى ظلت متمسكة بأن السودان تابع لمصر ، فكانت فرنسا تريد أن تشق طريقها من مستعمراتها فى أفريقيا الغربية الى السودان عن طريق بحر الغزال ، وكانت فرنسا لا تهدف الى هذا فقط بل كانت تسعى الى منع الانجليز من تنفيذ مشروعهم الكبير الذى نادى به الاستعمارى الشهير « سيسيل رودس Cicil Rhodes » ألا وهو مد خط حديدى بين الكاب والقاهرة (١) بل لقد كان « سيسيل رودس » هذا يدعو الى أن توافق بريطانيا على المشروع الألمانى الخاص بمد خط حديد بغداد فى سبيل الحصول على تأييد ألمانيا لمشروع خط حديد الكاب - القاهرة (٢) .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن تهديد ألمانيا بسحب موافقتها على تطوير الجيش المصرى جاء فى وقت جد عصيب بالنسبة للوجود البريطانى غير الشرعى فى مصر .

فقد بدأت الحركة الوطنية فى مصر حينذاك تظهر كقوة جديدة على مسرح السياسة المصرية ، فضلا عن أن عباس حلمى الثانى (خديوى مصر) (١) كان لا يزال شابا ويسعى الى اثبات وجوده أمام اللورد كرومر Cromer المندوب السامى البريطانى الذى استبد بأمر مصر كل الاستبداد ، ولقد وقعت فى ١٨٩٣ أزمة مشهورة بين الخديوى عباس حلمى الثانى وكرومر بسبب اقدام الخديوى عباس حلمى على عزل مصطفى فهمى من الوزارة (٢) ، وكان عباس حلمى الثانى يعتمد على الحركة الوطنية التى كانت لا تزال فى مهدها للوقوف فى وجه كرومر . وقد خرجت مظاهرات طلابية فى يناير ١٨٩٣ - كان يشعل حماسها مصطفى كامل - تؤيد موقف الخديوى ضد الانجليز .

(١) على ابراهيم عبده : مصر وأفريقيا ، ص ٥٩ .

(٢) لؤى بحرى : سكة حديد بغداد ، ص ٥٩ .

(١) تولى الحكم بعد محمد توفيق باشا فى ١٨٩٢ .

(٢) انظر ما كتبه كرومر بالتفصيل عن هذه الأزمة فى Cromer, Abbas II

London pp. 16-22 وانظر كذلك وجهة النظر القومية فى هذه الأزمة فى عبد الرحمن

الرافعى : مصطفى كامل .

كذلك كان هناك اتجاه عام في القاهرة يدعو الى كسب تأييد فرنسا للحركة الوطنية ضد كرومر بصفة خاصة وضد الوجود البريطاني في مصر بصفة عامة . فقد وقفت الصحافة الفرنسية في مصر بكل قواها مؤيدة الخديوى في حقه في ابعاد مصطفى فهمى عن الوزارة . حتى لقد نجح فعلا في ابعاده وان خلفه في الوزارة رياض باشا (١) .

هذا التأييد من جانب الحركة الوطنية الناشئة ومن جانب فرنسا والصحف الفرنسية في مصر للخديوى ضد كرومر ظهرت بوضوح قوى في أزمة أخرى عرفت باسم حادثة الحدود سنة ١٨٩٤ ، وهى التى نشأت بسبب انتقاد الخديوى عباس حلمى الثانى لضباط فرقتين من فرق الجيش المصرى في أسوان ، فما كان من قائد الجيش (السردار كتشنر) أن قدم استقالته ، فأصر كرومر على أن يقوم الخديوى بعمل يثبت فيه رضاه عن الجيش المصرى تحت القيادة البريطانية كترضية للضباط الانجليز الذين اهانهم الخديوى ، واضطر الخديوى الى أن يوجه شكرا الى السردار كتشنر ، فكانت محاولات كرومر للنيل من خديوى مصر فرصة للصحافة الفرنسية للهجسة الاحتلال البريطانى في مصر واتهمت الانجليز بانهم جاءوا الى مصر لحماية الخديوى في ١٨٨٢ وفى ١٨٩٤ أصبحوا يستخدمون الجيش لكبت الحركة الوطنية المصرية ولاخضاع الخديوى للتوجيه البريطانى .

هذه هى الظروف التى صدر فيها ذلك التهديد الألمانى بسحب الموافقة على تطوير الجيش المصرى ، وهى ظروف دقيقة فى الواقع بالنسبة للوجود البريطانى في مصر ، فلو تألفت القوى الوطنية مع الخديوى مع فرنسا مع هذا المارد الجديد الألمانى ضد بريطانيا في مصر لأصبح مركز الأخيرة فعلا مزعزا تماما .

ان استخدام وزير الخارجية الألمانى للموقف في مصر سلاحا ضد بريطانيا من أجل ارغامها على التخلي — ولو مؤقتا — عن معارضتها لمشروع خط بغداد كان مجديا للغاية حيث أبرق اللورد روزبرى Lord Rosebery وزير الخارجية البريطانية — في ٩ يناير ١٨٩٣ الى حكومة برلين مؤكدا :

(١) محمود نجيب أبو الليل : الاحتلال البريطانى والصحف الفرنسية . القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٧٧ — ٢٢٢ .

« انه ليس لدى حكومة جلالة الملكة رغبة في اتخاذ أية خطوات غير ودية ضد النفوذ
أو المصالح الألمانية في القسطنطينية » (١) . وبذلك كسبت ألمانيا في العراق على حساب
مصر .

وكما استفادت ألمانيا في موضوع خط حديد بغداد على حساب مصر . نجد فرنسا
كذلك تحاول أن تحصل على تأييد ألمانيا لها في أزمة فاشودة لتكسب على حساب مستقبل
العراق وخط حديد بغداد ففي أول الأمر بذلت فرنسا مجهودات كبيرة من أجل عرقلة
مشروع خط بغداد منعا للتفوق الألماني في المشرق ، بل قدمت الحكومة الفرنسية تحذيرا
الى الحكومة العثمانية من أية أضرار تصيب المصالح الفرنسية من جراء اعطاء الألمان
امتياز خط بغداد (٢) . حقيقة كانت فرنسا في أول الأمر متشديدة ولكنها تراجعت عن
هذا التشدد بسبب الأزمة التي نشبت بينها وبين إنجلترا في فاشودة (٣) .

وهكذا بدا كأن التطورات تؤدي الى اطلاق يد ألمانيا في مشروع خط بغداد ، واطلاق
يد إنجلترا في مصر خاصة بعد حادثة فاشودة ولكن في الحقيقة كان اتجاها الحكومة
العثمانية نحو اعطاء الألمان امتياز خط حديد بغداد واضحا ، كما كان الاتجاه نحو تسوية

(١) لؤى بحري : سكة حديد بغداد ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه : ص ٤١ .

(٣) فاشودة قرية صغيرة على النيل الأبيض وحادثة فاشودة من أهم الحوادث
التاريخية في خاتمة القرن التاسع عشر . والسبب في وقوعها هو أن القوات المصرية تحت
القيادة البريطانية كانت منذ ١٨٩٦ تعمل على استعادة السودان فعلا استطاعت أن
تتغلب على قوات التعايشي واستولت على الخرطوم وعلم الانجليز أثناء ذلك أن قوة
فرنسية بقيادة الكاتبين مارشان كانت تشق طريقا من الكونغو الى السودان لاحتلال أكبر
قسم منه على اعتبار أنه أرض لا صاحب لها . ووصل مارشان بقوته الى فاشودة ، وعلم
كتشنر أثناء وجوده في الخرطوم بذلك ، فذهب كتشنر الى فاشودة وقابل مارشان في
١٩ سبتمبر ١٨٩٨ وطلب منه الانسحاب على اعتبار أن فاشودة تابعة للخديوي عباس
حلمي الثاني ولكنه رفض ، وتوتر الموقف على المستوى المحلي في فاشودة وعلى المستوى
الدولي بين كل من فرنسا وبريطانيا وكادت الحرب تقع بينهما لولا موافقة فرنسا على
التراجع بلا قيد أو شرط . وكانت هذه التطورات بداية التفاهم البريطاني الفرنسي على
حساب مستقبل مصر الذي كانت فرنسا تدافع عنه بحرارة قبل تلك الأزمة .
(م ١٤ - الشعوب الإسلامية)

أزمة فاشودة من العوامل الرئيسية التي مهدت للتقارن الفرنسي الانجليزي الذي انتهى إلى عقد الوفاق الودي (١٩٠٤) الذي أدى إلى حدة الصراع الدولي بين دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ودول الوفاق انجلترا وفرنسا وروسيا .

ويهمنا هنا ذلك الصراع الدولي الذي نشب حول خطوط المواصلات الحديدية بين كل من العراق ومصر ومدى تأثير مصر بالصراع على خط حديد بغداد الذي كان مقررا له أن ينتهي بالكويت ، وتأثير العراق بالصراع على خط حديد الحجاز الذي كان مقررا له أن تكون طابا — داخل حدود مصر — نهاية له .

ويمكن أن نعتبر عامي ١٨٩٨/١٨٩٩ من الأعوام الهامة في تاريخ التفوق البريطاني في كل من العراق ومصر ، فقد وقعت حوادث دولية خطيرة كانت كلها لصالح ذلك التفوق البريطاني ونعني بها :

١ — حادث فاشودة (١٨٩٩) (١) .

٢ — الاتفاقية الكويتية الانجليزية (١٨٩٩) .

٣ — أزمة طابا (١٨٩٨ / ١٩٠٦) .

والمعروف أن انجلترا — التي رفعت يد الفرنسيين عن فاشودة وأغلقت الطريق أمام التغفل الفرنسي نحو السودان وصعدت الأزمة إلى درجة كادت تؤدي إلى حرب بين فرنسا وانجلترا — هي نفسها التي أقدمت على عقد اتفاقية مع الشيخ مبارك — حاكم الكويت — في ١٨٩٩ بقصد رفع يد العثمانيين عن الكويت ومنع التغفل الألماني إلى العراق الأمر الذي كان يعتقد الانجليز أنه تهديد مباشر للمخططات الاستعمارية الانجليزية في الشرق الأدنى والأقصى على السواء . وكانت الكويت في أواخر القرن التاسع عشر قد أصبحت النهاية المناسبة لأي خط حديد يربط بين الاستانة وسواحل البحر المتوسط من حية والخليج العربي من جهة أخرى .

ومن مذكرة كتبها الكولونيل ميد Meade المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بشأن خطورة استخدام أية قوة أوروبية — غير انجليزية — للكويت كنهاية لخط

(١) أشرنا إليهما فيما سبق هامش صفحة ١٨٣ .

حديدي ، ويمكن أن نكتشف أن الموضوع لم يكن يعنى العراق فقط بل كذلك مصر .
فلقد أشار الكولونيل ميد الى أن هناك مشروعا لمد خط حديدي بين بورسعيد - الميناء
المصرى المعروف - والكويت ، أو بين الاسكندرونة والكويت (١) .

وهذه الإشارة الى مشروع خط بين بورسعيد - الكويت تؤكد لنا كم كان الصراع
العالمى على خطوط المواصلات يربط مصير العراق بمصر فالانجليز الذين قاوموا تنفيذ
مشروع قناة السويس غيروا سياستهم بعد تنفيذ المشروع واحتلوا مصر للسيطرة على
القناة . وعندما شعروا أن مشروع خط حديد بغداد سيدخل عن قريب حيز التنفيذ
قاموا هم انفسهم بمقاومة مشروع خط حديد بغداد ، بالسيطرة على الكويت منفذ هذا
الخط ومفتاح العراق الجنوبى . وفي اعتقادى أن الانجليز هم الذين روجوا لفكرة مد خط
حديدي من بورسعيد الى الكويت كمشروع مضاد لخط حديد بغداد الألمانى .

فقد كانت بورسعيد تحت يد الانجليز ، ومثل هذا المشروع سيجعل الخط يسير من
هذه المدينة الى أحد الموانئ في جنوب فلسطين ومنها الى بغداد والكويت ، أو الى الكويت
مباشرة . فاذا ما وضعت الكويت تحت الحماية البريطانية فان بداية ونهاية هذا الخط
المقترح ستصبحان في قبضة الانجليز وبالتالي يصبح هذا الخط حاجزا بين الألمان والعراق
وشبه الجزيرة العربية . حقيقة أن هذا المشروع لم يدخل حيز التنفيذ . ولهذا يمكن
القول بأنه كان مناورة انجليزية لمقاومة المشروع الألمانى لخط حديد بغداد ، ولتقوية
الأسباب التى تدعو الحكومة البريطانية الى وضع الكويت تحت الحماية البريطانية .

وايا كان الأمر فقد عازمت الحكومة الانجليزية على أن تضع يدها على الكويت وتم
ذلك في ١٨٩٩ بعد اتفقيتهما المشهورة مع الشيخ مبارك . حقيقة لم يحتل الانجليز
الكويت كما فعلوا بمصر ، وانما حصلوا على تعهدات من جانب الشيخ مبارك بعدم قبول
أى ممثل اجنبى في الكويت الا بعد موافقة الحكومة الانجليزية ، وبألا يتنازل أو يبيع أو
يرهن أى جزء من اراضيه لرعايا اية دولة غير بريطانيا الا بعد موافقة الأخيرة . ومعنى

(١) Col. Meade to Secretary to Government to India (Confidential) No. 20; April 25, 1897 F.O. 78/113.

هذا أن الكويت أصبحت بعيدة عن متناول العثمانيين والألمان على حد سواء ، وأصبحت موافقة بريطانيا على مد أي خط حديدي إلى الكويت أمرا محتملا إذا أريد لأي خط حديدي أن يصل إلى المنفذ الطبيعي له على الخليج العربي (١) .

وبذلك يكون الانجليز قد وضعوا يدهم على الطريقين القصيرين المؤديين إلى الشرق الأقصى ، فقد كانت شركة الملاحة البخارية في نهري دجلة والفرات (شركة لينش) تحتكر الملاحة في هذين النهرين وتحول دون استخدام أية سفينة بخارية أوروبية لهذين النهرين (٢) .

- (١) عن الكويت والاتفاقية الانجليزية الكويتية سنة ١٨٩٩ انظر :
- ★ لؤي بحري : سكة حديد بغداد دراسة في تطور وبلوماسية قضية سكة حديد - بغداد ١٩٦٧ .
 - ★ محمود علي الداود : الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٠ - ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦١ .
 - ★ صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .
 - ★ مجموعة ضخمة من الوثائق البريطانية التي صورتها من دور المحفوظات البريطانية .

India Office Records and Public Record Office

- وهذه الوثائق مصورة على ميكروفيلم وموجودة بكلية الآداب بجامعة عين شمس .
- Gooche and Temperley; British Documents on the Origins of the War 1898—1914, London. 1938.
 - A Cheradam; La Question de l'Orient Paris 1903.
 - H. Dickson ; Kuwait and her Neighbour London 1956.
 - D. Fraser ; India under Curzon and After. London 1911.
 - M. Jastrow; The War and the Baghdad Railway, Philadelphia, 1918.
 - M. Earle! Turkey. The Great Powers and the Baghdad Railway. N.Y. 1923.
 - N. Whigham, 'The Persian Question' London 1903.

(٢) انظر كتابنا « المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ - ١٩١٤ » .

وحاول السلطان عبد الحميد ، يحثه الألمان ، إعادة سسيطرته على الكويت ولو باستخدام القوة ، فرد الانجليز على ذلك بارسال قوة بحرية الى الكويت ، وحث الانجليز الشيخ مبارك على وضع يده على جزيرة بوبيان وعلى الأراضي الممتدة حتى خور عبد الله ، وبدأ واضحا أن الخط لا يمكن أن يمتد الى ما وراء البصرة الا بموافقة بريطانيا ، وهذا ما حدث فعلا حيث أن بريطانيا سمحت في سنة ١٩١٣ بمد خط حديد بغداد ولكن بشرط أن يقوم الانجليز بمد الجزء الأخير منه بين البصرة والخليج (٢) ولكن هذا اتفاق لم ينفذ بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى .

وكما قاوم الانجليز وصول خط حديد بغداد الى الكويت قاوموا وصول خط حديد الحجاز الى « طابا » القريبة من ميناء العقبة . وكما رفعوا يد السلطان العثماني عن الكويت منفذ العراق - ضاربين عرض الحائط بما سيكسبه العراق من وراء مد هذا الخط الحديدي - عملوا كذلك على رفع يد السلطان العثماني عن « طابا » لكي يضعوها تحت سيطرتهم ، ضاربين كذلك عرض الحائط بمستقبل العقبة وطابا كميناء عربي يمكن أن يتطور الى ميناء عالمي يستطيع أن يستقبل سفن الشرق الأقصى .

حقيقة كان على العثمانيين أن يطوروا ميناء العقبة ليصبح ميناء كبيرا عالميا بحريا . ولكن هذا ما كان ليتم بدون « طابا » كنهاية للخط الحديدي المقترح ، فلقد كانت «طابا» بالنسبة للعقبة « كالكويت » بالنسبة للبصرة . فان سلامة خط حديد الحجاز كانت تتوقف على طابا ، مثلما كانت قيمة خط حديد بغداد تتوقف على الكويت . ولقد قال كرومر : « ان خط الحجاز سيكون تحت رحمة الانجليز عندما يصل الى البحر عند العقبة » (١) . طالما كانت طابا داخلة في حدود مصر التي يحتلها الانجليز .

ولما قامت القوات العثمانية باحتلال طابا ردت بريطانيا على ذلك بأن اعلنت ان طابا ضمن الأراضي التي يحكمها الخديوي عباس حلمي الثاني . وأرسلت بوارجها الى قرب

(١) انظر نص الاتفاقيات النهائية بشأن خط حديد بغداد في :

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I p. 182.

عن مقال للدكتور يونان لبيب رزق بعنوان (أزمة طابا) في مجلة الدراسات التاريخية ١٩٦٨ العدد ١٣ .

العقبة • واضطر السلطان العثماني الى التراجع وانسحبت القوات التركية من طابا (١) • وعند وضع حادثتي الكويت (١٨٩٩) وطابا (١٩٠٦) موضع المقارنة نجد أن الأسلوب البريطاني كان واحداً في السيطرة على المنافذ المائية البحرية لكل من العراق ومصر • فقد أرسلت بريطانيا قطعها البحرية الى كل من الكويت وطابا لمنع السلطان من إعادة سيطرته على الكويت وتطرد القوات التركية من طابا • لقد كانت السيطرة البحرية على الخليج العربي وعلى البحر الأحمر هي العامل الحاسم في وقوع هذه المراكز الاستراتيجية في العراق ومصر تحت رحمة الانجليز •

ولكن بينما كانت ألمانيا وراء أزمة الكويت بوضوح كانت الدلائل تشير الى أن ألمانيا لم تكن تؤيد السلطان في أزمة طابا وقد عللت صحيفة *Deutch Kolonial Zeitung* عدم تأييد ألمانيا للسلطان في أزمة طابا بأن نمو المصالح التجارية الألمانية في مصر كان يتعارض مع فكرة تأييد السلطان ضد الانجليز في مصر (٢) •

وبسيطرة بريطانيا على منفذى خطى حديد بغداد والحجاز (الكويت وطابا) تكون قد أحرزت انتصاراً هاماً في مجال التنافس حول خطوط المواصلات العالمية سواء عبر العراق أو عبر مصر •

وقبل أن نختم هذا الحديث عن العلاقات المصرية والعراقية في خضم المنافسة بين الدول الكبرى على خطوط المواصلات العالمية يجدر بنا الإشارة الى أن مشروعات مد خط حديدى الى بغداد لم تكن بقاصرة على الألمان أو على منافسيهم الكبار الانجليز والفرنسيين والروس (٣) والأمريكيين (٤) فالطريف حقاً أن أحد المهندسين المصريين ويدعى محمد رشدى أفندى — الخبير في المحاكم المصرية — قام برحلة كبيرة في ولايات الدولة العثمانية ، ثم وضع بعد ذلك خريطة بين عليها السكك الحديدية التى يقترح مدها

(١) انظر د • يونان لبيب رزق : أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابا ١٩٠٦ • مجلة الجمعية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ العدد ١٣ •

(٢) يونان لبيب رزق : ص ٢٩ •

(٣) محمود الداود : محاضرات في الخليج العربى : ص ٢٠٠ — ٢٠٢ •

(٤) صدى بابل ، العدد ٢٠ في ١٨ ذى الحجة ١٣٢٧ هـ / ١٩١١ م •

فى تلك الولايات لما استجلبه عليها من منافع اقتصادية بعيدة المدى . وقدم المهندس محمد رشدى هذه الخريطة الى معتمد الدولة العثمانية بمصر طالبا منه الاهتمام بها ، وحث العثمانيين على تأسيس الشركات لاستثمارها فى مد خطوط حديدية تكون لها سيطرة كاملة عليها بعيدة عن التدخلات الأجنبية وفيما يلى الخطوط الحديدية التى اقترحها محمد رشدى أفندى :

- ١ - خط يمتد من الاسكندرونة مارا بأنطاكية فعلب فتصبح تلك البلدان مرتبطة بدمشق بخط حلب الذى كان موجودا حينذاك (١٣٧٢ هـ / ١٩١٠ م) .
- ٢ - خط يمتد من اللاذقية الى حماة ومنها الى دير الزور وميادين على نهر الفرات ويمتد الى الكويت معاذيا لشاطئ نهر الفرات .
- ٣ - خط من طرابلس الشام الى حمص ومنها الى عين كركات فيرتبط منها بالخط الممتد من دمشق الى الكويت .
- ٤ - خط يمتد من دمشق الى الرصافة (بغداد) مارا بمدينة تدمر ويمتد حتى الكويت ، وهذا الخط معارض فى سيره لخط حديد بغداد الألمانى ، وبعيد عن طريقه .
- ٥ - خط بين بيروت والقاهرة .

والملاحظ هنا ان هذه المشروعات تعنى بالدرجة الأولى ربط بلدان المشرق العربى بعضها ببعض ، وان هذه المشروعات تضع مصالح الولايات العربية فوق مصالح تركيا ، بينما كانت المشروعات الأوروبية المقترحة لمد خطوط حديدية فى المشرق العربى تضع فى المرتبة الأولى حاجات وأهداف تركيا العثمانية ، جنبا الى جنب مع أهداف الاستعمار الأوروبى بغض النظر عن حاجات ومستقبل الشعب العربى نفسه . أما المشروعات التى وضعها محمد رشدى أفندى فكانت فى حقيقة الأمر تعبيرا صادقا صادرا عن مواطن عربى يعيش فى المنطقة ويدرك متطلباتها ولا شك أن محمد رشدى كان يدرك كم أضرت قناة السويس بمستقبل مصر لأنها قامت على أموال أجنبية وجلبت التنافس الدولى الذى ادى الى وقوع مصر تحت الاستعمار البريطانى .

ولهذا كان يحاول أن يمنح الولايات العربية القدرة على استخدام المواصلات الحديثة

العالمية بدون الوقوع في قبضة لاستعمار . ولهذا كان يصير على أن يكون مهولو هذه المشروعات من أثرياء العثمانيين (١) .

ولدينا ملاحظة ثانية وهي أن محمد رشدي بعد أن وضع مشروعاته لخطوط السكك الحديدية لم يقدمها الى السلطات المصرية أو الى سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، وإنما قدمها الى معتمد الدولة العثمانية في مصر (٢) .

وذلك لأن الحركة الوطنية في مصر كانت تشد أزر المشروعات العثمانية لمد الخطوط الحديدية في البلاد العربية ، وكان معتمد الدولة العثمانية في مصر على صلة بتلك الحركات الوطنية الملتهبة (٣) ، فإذا أضفنا الى هذا أن مصطفى كامل — شعلة تلك الحركة الوطنية — قد أخذ يتطلع الى ألمانيا كقوة أوروبية يمكن الاستعانة بها ضد الاستعمار الانجليزي لأدركنا كم كانت الحركة الوطنية في مصر قادرة على الخروج من قوقعة الكفاح المحلي ضد الانجليز الى العمل على تحرير المنطقة بأسرها من الاستعمار .

وبدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا والنمسا ضد دول الوفاق (بريطانيا — فرنسا — روسيا) بدأت بداية النهاية بالنسبة للدولة العثمانية .

★ ★ ★

(١) صدى بابل . العدد ١٣ في ٢١ شوال ١٣٢٧ هـ .

(٢) د . يونان لبيب رزق : حادثة العقبة .

(٣) لقد بذلت الحكومة البريطانية جهدها بعد تصفية أزمة طابا حتى أبعدت معتمد الدولة العثمانية عن مصر . المصدر السابق .

الفصل التاسع

الجامعة الإسلامية

إن نظرية الدولة الإسلامية الواحدة التي يستظل بظلها كافة المسلمين هي نظرية قامت منذ الدعوة الإسلامية ووصلت ذروة قوتها ومجدها في العصر العباسي الأول ثم أخذت تتفكك الدولة الإسلامية العامة الى دول ودويلات • وغالبية حكام الدول الإسلامية كانوا يتلقون (التقليد) من الخليفة العباسي بمعنى أن الخلافة أصبحت رمزا للوحدة الإسلامية •

كما ظهرت بعض الدول التي ترفض الخلافة العباسية مثل الدولة الأموية في الأندلس • ولكن بصفة عامة كان هناك مفهوم سائد هو أن المسلمين يعيشون تحت مظلة دولة إسلامية عامة حتى ولو كان الخليفة يسيطر على رقعة صغيرة من البلاد الإسلامية • فظل الخليفة العباسي يصدر قراراته بتعيين هذا السلطان أو ذاك رغم أن هذا الخليفة العباسي الذي كان يقيم في مصر - منذ القرن الثالث عشر الميلادي - كان لا حول له ولا قوة • وعندما أصبحت الدولة العثمانية دولة قوية لم يعن السلاطين كثيرا بنظرية الجامعة الإسلامية الا عندما دب الضعف فيها وأصبحت في حاجة الى نظرية جديدة تلم الشمل حول السلطان العثماني •

كذلك شعر المفكرون الإسلاميون في القرن التاسع عشر أن العالم الإسلامي أصبح نهبا للدول الاستعمارية وأن انقاذه يتطلب توحيد المسلمين ليقفوا وقفة رجل واحد امام الاستعمار الأوروبي •

وكانت هناك دعوات الى التضامن الإسلامي والجامعة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وأعقابه ولكنها لم تتخذ شكل (الحركة) حتى دعا اليها جمال الدين الأفغاني ، فقد كرس الرجل فكره ولسانه وقلمه للدعوة الى الجامعة الإسلامية ، ليس في قطر بعينه وانما عبر الأقطار الإسلامية وبين العجم والعرب بل وبين الأوروبيين أنفسهم •

كان الأفغاني داعية صعب المراس في الحق فكم من بلد إسلامي أبعدته مثل فارس ومصر ، ولكنه كان يغادر هذا البلد ليدعو الى الجامعة في بلد اسلامي آخر وكان يترك حيثما يقيم تلاميذا يدعون الى الجامعة الإسلامية •

لقد جاءت دعوة جمال الدين الأفغانى هذه فى الوقت الذى كان فيه السلطان عبد الحميد الثانى يعانى من المعاناة من النهب الاستعمارى الاقتصادى والسياسى والتوسعى . وأصبح فى حاجة ماسة الى نظرية تجمع رعيته تحت مظلته بل وتعمل على تجميع المسلمين فيما وراء دولته فى مشارق الأرض ومغاربها تحت لوائه . فمهد الأفغانى الأرضية لها وأطلق عبد الحميد الثانى الدعاة ورجال الدين لينشروا الوعى بين المسلمين على أساس :

١ — وأعدوا لهم ما استطاعتم من قوة ومن رباط الخيل .

٢ — انما المؤمنون اخوة .

٣ — وجعلناكم خير اممة .

٤ — فليصبح المسلمون كالبنيان المرصوص .

وانطلقت حناجر خطباء المساجد فى خطبة كل صلاة جمعة داعين الى وحدة المسلمين واقامة الجامعة الإسلامية فى ظل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى .

ان الغالبية العظمى من المسلمين رحبت بل وهلت لهذه الدعوة حتى خيل للناس ان العالم الإسلامى أصبح قاب قوسين او ادنى من قيام جامعة إسلامية من الهند الى سمرقند الى مسلمى البشناق (البسنة) الى الطوارق من غرب افريقيا الى وادى النيل .

واذا أردنا أن نضرب مثالا على ذلك التضامن الإسلامى مع الدولة العثمانية فلدينا مثالين بارزين أحدهما خط (حديد الحجاز) والثانى الحرب العثمانية الايطالية .

فقد دعا السلطان عبد الحميد الثانى الى مد خطوط حديدية فى الشام تربط بين حلب وحمص وحماة ودمشق وبيروت وطرابلس والموزيريب الى المدينة المنورة والى مكة المكرمة تسهيلا لحجاج بيت الله الحرام .

ورغم ما قيل عن أن هذا الخط كان يحقق هدفا استراتيجيا للدولة العثمانية وهو سرعة نقل القوات التركية العثمانية الى الشام والجزيرة العربية لضرب العناصر المتمردة على السلطة العثمانية ، رغم هذا فقد انهالت التبرعات من المسلمين على الخزانة العثمانية لتمويل هذا المشروع الكبير الذى تحقق الجزء الأعظم منه قبيل الحرب العالمية الأولى .

والمثال الثاني هو الحرب الطرابلسية فعندما غزت الجيوش الاستعمارية الإيطالية ولاية طرابلس (ليبيا) حمل مفكرون مصريون وعسكريون مصريون سلاحهم متسللين من بلادهم مصر ، الواقعة تحت الاحتلال البريطاني المتآمر مع الاستعمار الإيطالي متسللين من بلادهم مصر الى جارتهم العزيزة ليبيا ليشاركوا أهلها نعمة الاستشهاد والقتال دفاعا عن أرض عربية إسلامية ، مقاتلين جنبا الى جنب القوات العثمانية العاملة في ليبيا . وتوالت التأييدات من الغالبية العظمى من الزعامات العربية من عبد العزيز بن سعود ومن إمام اليمن ومن أمير الكويت ومن غيرهم من الزعامات العربية .

إذ كانت هذه الزعامات ترى أن الدولة العثمانية - وان أصبحت غير جديرة بأن تكون ممثلة للدولة الإسلامية العامة الا أن الواجب الإسلامي كان يفرض عليهم أن يشدوا أزر أي مسلم في محنة .

ولكن شتان بين النظرية والتطبيق خاصة اذا كانت النظرية مجرد احياء لنظرية ليست ابداعا جديدا بل ان الدعوة الى الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر هي شكلا من اشكال السلفية . وهناك سلفية ابداعية تحدث نقلة حضارية ، وسلفية تسعى الى العودة الى اعادة الماضي بأدواته البالية .

فالنهضة الأوروبية في القرن السادس عشر كانت تركز على احياء الحضارة القديمة اليونانية والرومانية ولكن دون العودة اليها بأدواتها وانما بأدوات العصر الجديدة ، فأدى ذلك الى النهضة الأوروبية الحديثة . أما دعاة الجامعة الإسلامية فإنهم أرادوا اقامة دولة إسلامية عامة بأساليب قديمة ، فكانوا كمن يريد السير الى الأمام بينما عيونهم خلف رؤوسهم .

والحقيقة أن رؤية جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية كانت أكثر تقدما من رؤية عبد الحميد الثاني . كان جمال الدين الأفغاني ينادى بجامعة إسلامية دستورية ، في حين كان عبد الحميد الثاني يريد جامعة إسلامية يتمتع هو بزعامتها كخليفة للمسلمين ظل الله على الأرض له الكلمة الأولى والأخيرة ، بينما كان العصر عصر الحكومات الدستورية البرلمانية القومية ومن ثم كانت نظرية عبد الحميد الثاني لا تنسجم اطلاقا مع

العصر ، اذ كان ضد النظام الدستورى وضد التمثيل النيابى للشعب فضلا عن أن نظرية الجامعة الإسلامية كانت ضد النظرية القومية التى هى نظرية القرن التاسع عشر . لقد كان السلطان عبد الحميد الثانى بصفة خاصة يسير عكس التيار العام .

وتعتبر المواجهة بين النظرية القومية ونظرية الجامعة الإسلامية واحدة من أخطر العوامل التى أدت الى فشل تطبيق نظرية الجامعة الإسلامية . وسنتناول بعد قليل المواجهة بين الدولة العثمانية والقومية العربية . ومن أهم العوامل الأخرى أن الأقليات فى الدولة العثمانية تحركت بعنف ضد الدولة العثمانية ، ونخص بالذكر ما دار من صراع دموى بين الأرمن من جهة والأتراك والحركة الصهيونية والحركة المارونية فى لبنان .

وهنا يجب أن نتساءل هل كان سلوك عبد الحميد الثانى ينم فعلا عن إيمان بنظرية الجامعة الإسلامية قولا وعملا . هناك كثير من المفكرين وخاصة الغربيين منهم يرون أن عبد الحميد الثانى كان يعمل فقط على الحفاظ على مكانته كخليفة للمسلمين وأن تظل الدولة العثمانية كممثلة للدولة الإسلامية العامة دون أن يعطى للمسلمين غير الأتراك حقوقا مماثلة لبنى جلدته . فلقد ثبت تماما أن عبد الحميد الثانى كان يعتمد فى الحكم والإدارة العسكرية سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى الولايات العربية على العناصر التركية فنلاحظ أن عددا قليلا جدا من العرب هم الذين تولوا بعض المناصب الهامة فى الدولة ، مع أن العرب كانوا يمثلون جزءا رئيسيا من الدولة العثمانية . ومن ثم فإن الجامعة الإسلامية التى دعا إليها عبد الحميد الثانى كانت جامعة إسلامية على الطريقة التركية العثمانية ، ومثل هذا الاتجاه كفىل بأن يثير أشجان العناصر العربية والعناصر التركية الأخرى .

وكان من أولى الحركات التى رفضت هذه اليد العليا العثمانية الحركة الإصلاحية على الطريقة الحنبلية التى تبناها آل سعود منذ منتصف القرن الثامن عشر فى الجزيرة العربية ، والحركة الإمامية فى اليمن ، وأسرة البوسعيد فى مسقط وعمان والعديد من القبائل العربية فى العراق بل لقد دعا عبد الغفار الأخرس شاعر العراق المشهور هو والمفكر عبد الفنى جميل والأديب عبد الباقي العمري بكل وضوح الى أن يحكم العرب أنفسهم بأنفسهم دون الأعاجم . وتسمى إبراهيم باشا — القائد المصرى المشهور — عندما

زحف فاتحا الشام سنة ١٨٣١ باسم سر عسكر عربستان ، ونسب اليه قوله ، أنه لن يتوقف في زحفه الا بعد أن نحرر كل من ينطق بلغة الضاد . ولكن هذا التيار العربى لم يأخذ طريقه الى المفهوم الأوروبى للقومية الا على يد الزعامات المسيحية اللبنانية التى دعت الى يقظة العرب والتخلص من الحكم التركى . وتطرف بعضهم مثل نجيب عازورى الى وضع البلاد العربية تحت السيطرة الانجليزية والفرنسية حتى يمكن أن يتمتع العرب بفرصة لاعلان دولة قومية عربية .

ومهما قيل عن دور هذه الزعامات المسيحية فى ذلك الوقت فى العمل على اقامة دولة قومية عربية فانما نرى أنهم كانوا يسعون أولا الى تحطيم الدولة العثمانية على اعتبار أنها ممثلة للجامعة الإسلامية، وثانيا الى اقامة دولة قومية عربية للمسيحيين يكون لفرنسا فيها ايد العليا . ومن ثم فانها حركة تتناقض مع سمو الحركة القومية ولكن مهما كان الأمر فان العصر كان عصر القوميات وكان لا بد وأن تسرى الروح القومية بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء وفعلا انتقلت الدعوة الى الحركة العربية الى الزعامات الإسلامية ومن بينها عبد الرحمن الكواكبي .

واذا كان الأفغانى رومانسيا إسلاميا ونجيب عزورى مسيحيا طائفيا كما عبد الرحمن الكواكبي مفكرا يحاول أن يقترب من الواقع العربى تحت مظلة إسلامية واستبعد الأتراك العثمانيين لأنهم استبدوا بالعرب ولأنهم ضعفوا وأضعفوا المسلمين واصبح على العرب أن ينهضوا ، وأدت بساطة تفكيره الى أن يتجه الى عرب الجزيرة العربية مثلما فعل حينذاك محمود شكرى الألوسى - المفكر العراقى المشهور - فكل منهما اتجه الى عرب الجزيرة على اعتبار أنهم يحتفظون بنقائهم . وأن لديهم مقومات القيادة والنهضة وكان يرى أن الخلافة يجب أن تكون عربية قرشية وأن يستند نظام الحكم الى (الشورى) ومن ثم فقد عاش على نظرية كانت تحتاج الى تقنين ، ثم ان الشعوب العربية كانت تتجه الى (القطرية) اكثر من اتجاهها نحو (الوحدة) .

فمصر الواقعة تحت الاحتلال البريطانى كانت تنظر بعين الحذر الشديد الى دعاة الحركة العربية اذ كانت ترى فيهم معول هدم للدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) بينما كان عبد العزيز بن سعود لا يقر حقا للأتراك فى الخلافة ، وكان اليمينيون قطريون وكذلك دولة البوسعيد .

ومن ثم كان الاتجاه القطرى حين ذاك أقوى من الاتجاه الودوى ، ولذلك يمكن القول أن الأرضية الإسلامية لم تكن مهياة لاقامة جامعة إسلامية وأن الأرضية العربية لم تكن مهياة لاقامة دولة عربية واحدة وأن القطرية حين ذاك كانت هى الأقوى لأنها هى التى كانت تساعد على اقامة الدولة القطرية العربية الحديثة .

لقد أسهمت سياسة السلطان عبد الحميد الثانى فى تهيئة الظروف لسقوطه فقد كان يعتمد على سياسة استبدادية قاسية وعلى ألوف من الجواسيس ، فى وقت كانت تتحفز الدول الأوروبية للانقضاض على الدولة العثمانية الأمر الذى حدا بالعديد من المفكرين الأتراك الى العمل على احداث تغيير جوهرى فى نظام الحكم لانقاذ الدولة من الانهيار ، فقامت جمعية الاتحاد والترقى بانقلاب فى ١٩٠٨ .

★ ★ ★

الفصل العاشر

تطور العلاقات بين العرب والترك

منذ

القرن التاسع عشر حتى أعقاب الحرب العالمية الأولى

كانت فلسفة الحكم العثماني تقوم على أساس ترك الأمور في الولايات على ما هي عليه دون ما تدخل جوهري من جانب الحكومة في حياة الناس على أن يكون ذلك في إطار التبعية للسلطان العثماني . وهذا ما نعبر عنه بسطحية الحكم العثماني . فهو لم يتغلغل في الأمور الداخلية ، وإنما اكتفى بوضع حاميات للدفاع عن البلاد ، ولنشر الأمن فيها . أما ما عدا ذلك فقد ترك أمره لأهل البلاد ، ولحكامها من ولاية يعينهم السلطان أو من شيوخ واعيان أو أمراء يتصدون لعلاج مشاكل بلادهم وأهالي البلاد .

فأدت هذه السياسة الى تجميد أوضاع البلاد العربية ، في أول الأمر . ثم لما أصيبت الحكومة العثمانية بالضعف والفساد وانتقل ذلك الى مختلف الولايات وسارت هذه الولايات كذلك نحو التدهور في مختلف مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

بدأت الملامح الأولى لظهور شعوب ودول الأمة العربية خلال فترة ضعف الدولة العثمانية ، وعلى وجه الخصوص خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

كانت الدولة العثمانية قد استطاعت أن تبسط سيطرتها بدرجات متفاوتة من القوة والضعف على الغالبية العظمى من البلاد العربية من حدود العراق الشرقية ومن الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية واليمن والحجاز والشام ، الى مصر وطرابلس الغرب (ليبيا) والجزائر ، بينما ظلت المغرب مستقلة خلال حكم الأسرة السعدية وخليفاتها الأسرة العلوية .

فقد أدى ضعف الحكومة العثمانية ، وسياستها التي تترك أمور الولايات للقوى المحلية القادرة على تحمل اعباء الحكم والإدارة والدفاع ، أدى ذلك الى أن تظهر أسرات حاكمة في مختلف الولايات العربية في الدولة العثمانية . واخذت كل أسرة حاكمة في كل ولاية تدعم نفسها بان تخلق لها كيانا واضحا قد يعتمد على حدود جغرافية واضحة ، مثلما هو الحال بالنسبة لممالك مصر وممالك العراق وأئمة اليمن أو يركز نفسه حول مدينة أو في اقليم ذات مكانة اقتصادية وسياسية مثل آل العظم في دمشق

والأشراف في مكة وآل الصباح في الكويت ، وآل ثاني في قطر ، وآل خليفة في البحرين ،
والعبدلى فى لحيج ، والغونج فى السودان ، والأسرة القرميلية فى طرابلس (الغرب)
وبايات الأسرة الحسينية وبايات الجزائر .

فكانت هذه التشكيلات السياسية والأسرية بمثابة البدايات الأولى لتكوين الدول
العربية الحالية .

وإذا كان القرن الثامن عشر قد شهد تلك البدايات فإن القرن التاسع عشر شهد
ظهور بعض الوحدات السياسية العربية بشكل يكاد يقارب الى حد كبير ما أصبحت
عليه الآن .

وكان التدهور مظهرا عاما فى مختلف البلاد العربية . فى العراق ، وشبه الجزيرة
العربية وفى الشام ومصر وفى طرابلس (الغرب) وتونس والجزائر ومراكش .

وكان طبيعيا ، وقد ضعفت القوة العثمانية أن تظهر على حسابها قوى محلية تعمل
على الحلول محلها . وكانت هذه هى فعلا ظاهرة عامة . فقد ظهرت فى العراق حكومة
المماليك (١٧٤٩ — ١٨٣٠) وحاولت أن تسيطر على العراق من موصله الى البصرة .

وكانت الجزيرة العربية قد فقدت تلك المنة الكبرى التى اعطاها اياها الإسلام ،
ونعنى بها الوحدة . ويبدو انه منذ انتقال كرسى الخلافة بعيدا عن مكة والمدينة ، أهمل
خلفاء بنى أمية وبنى العباس أمر شبه الجزيرة العربية وعلى هذا المنوال سارت بقية
الدول الإسلامية وآخرها الدولة العثمانية . فعاد شبه الجزيرة العربية الى صورته
القبلية التقليدية التى كان عليها ، وتصاعدت نعرات العصبية الجاهلية الى مستويات لا
تقل عما كانت عليه زمن الجاهلية الأولى ، حتى قوافل الحجيج ما كان يسمح لها بالذهاب
الى مكة والمدينة الا اذا دفعت لهم الأموال ، والا تعرض الحجاج للنهب والسلب والقتل ،
وما هو أشد من ذلك .

ولكن خلال القرون الواقعة بين السابع عشر والثامن عشر وخلال القرن التاسع
عشر بصفة خاصة بدأت تظهر الملامح الرئيسية للوحدات السياسية الموجودة الآن . فقد
وقعت هجرة (العتب) التى أسست الأسرات الحاكمة المعروفة حاليا فى الكويت

(آل الصباح) والبحرين (آل خليفة) وقطر (آل ثاني) وانفصلت مشيخات جنوب اليمن (اليافي ، الكثيري ، العبدلي ، العولقي . الخ) عن اليمن الذي حرر نفسه من الحكم العثماني منذ ١٦٣٥ . وفي الركن الشرقي من الجزيرة كانت أسرة البو سعيد في عمان قد نجحت في تحرير البلاد من الغزو الفارسي . ولكن في مواجهة تيارات التفكك هذه في شبه الجزيرة العربية بدأت حركة الموحدين (الوهابية) تعمل على توحيد شبه الجزيرة ، وما يمكن توحيدده من وراء ذلك . ولكن اصطدمت هذه الحركة بسياسة معاكسة مصدرها الخلافة العثمانية التي كانت تنظر الى نفسها على انها هي التي حفظت البلاد الإسلامية من العدوان البرتغالي ، وانها هي التي حملت لواء الجهاد ضد أوروبا دون غيرها من البلاد الإسلامية . ومن ثم فعلى البلاد الإسلامية والعربية أن تبقى في اطار الخلافة العثمانية حتى لا تنهشها أظافر القوى الاستعمارية التي تتربص بالمنطقة وتستعد لاقتناصها وانتزاعها عنوة . وكانت مخاوف الحكومة العثمانية في محلها من هـذم الناحية ، خاصة عندما انقضت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت لتستعمرها ولتصل الى الهند - ان استطاعت - عبر مستعمرات فرنسية على طول الشرق العربي . أو بتأييد حكام في الولايات العثمانية استبدوا بالحكم من دون رجال السلطان ، حيث تعاون الباشا القرملي في طرابلس مع الحملة الفرنسية في مصر ، وكذلك والى الجزائر . ولذلك وخلال محنة وجود الحملة الفرنسية في مصر وفلسطين بدا للحكومة العثمانية واضحا انها عاجزة عن أن تخرج هؤلاء الغزاة وحدها ، وأن طردهم من مصر لم يتم الا بعد أن دمر الأسطول الانجليزي في موقعة أبي قير البحرية الأسطول الفرنسي ، والا بالمساعدات البحرية العسكرية التي قدمت للمدافعين عن عكا ضد الفرنسيين ، والا بعد التحالف الانجليزي العثماني ضد فرنسا والا بعد الحملة البريطانية الكبرى التي نسقت أعمالها مع الحملة العثمانية الى مصر .

لقد بدا واضحا أن الدولة العثمانية ، وولاياتها لم تعد على مستوى العصر ، وانها أصبحت مهددة بتكرار غزوات على نمط الحملة الفرنسية ، وبعدم قدرة امكانيات الدولة العثمانية وحدها هي وولاياتها على التصدي لمثل تلك الحملات . ولذلك شرعت الحكومة العثمانية في العمل على القضاء على الأسرات الحاكمة المحلية في مختلف ولاياتها ، والقضاء على الحركات المناهضة للعثمانيين ، وعلى وجه الخصوص الحركة الوهابية بقيادة آل

سعود التي تنكر على السلطان العثماني حقه في أن يحكم وفي أن يحتكر الخلافة . فضلا عن أن استيلاء آل سعود على الحجاز سلب من السلطان العثماني أقوى مظهر من مظاهر الخلافة الا وهو حماية الأراضي المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة .

وحيث أن السلطان العثماني كان مشغولا في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر بمشكلات دولية كبرى ، وكان في حاجة الى تعبئة كل ما لديه من قوات لمواجهة ثورات شعوب البلقان ضده ، ولواجهة الضغط الروسي ، والضغط النمساوي عليه ، كان عليه أن يجد قوة قريبة من قلب شبه الجزيرة العربية تتولى مهمة القضاء على آل سعود . وكان ان اتجه الى محمد علي باشا والي مصر الذي استطاع ان يتولى حكمها بواسطة زعماء الشعب ، والذي استطاع ان يثبت اقدامه في حكم البلاد في وجه مقاومة عنيفة من جانب تحالف مملوكي - انجليزى ضده . ولقد استطاع الشعب المصري ان يعطى محمد علي الفرصة لكي يتابع حكمه عندما تغلب الشعب بنفسه على ذلك التحالف المملوكي - الانجليزى في معركة رشيد (١٨٠٧) وارغم حملة فريزر على الانسحاب من مصر . وكان هذا في نفس الوقت تقريبا الذي توسع فيه آل سعود من نجد صوب الحجاز واستولوا عليه (١٨٠٣) .

ومن ثم أصبح محمد علي واحدا من القوى المجاورة لشبه الجزيرة العربية القادرة على توجيه حملة ضد آل سعود ، وكانت القوة الأخرى هي ممالك العراق وكان والي العراق حينذاك هو سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ - ١٨٠٢) ولكن كافة حملاته اثبتت فشلا ذريعا ضد آل سعود ، بل أدت الى أن يهاجم آل سعود بقسوة العتبات المقدسة الشيعية (١٨٠١) .

وكانت القوة الثالثة هي والي الشام ، ولقد أثبت ولاية الشام كذلك عجزهم تماما عن توجيه حملة ذات قيمة الى شبه الجزيرة العربية ، وبالتالي أصبح والي مصر محمد علي باشا هو المرشح للقيام بتلك المهمة .

كان محمد علي يريد التوسع في الشام وفي السودان ، ولم يكن معنيا كثيرا بأمور شبه الجزيرة العربية ، وقد طلب محمد علي فعلا من السلطان العثماني أن يمنحه الشام مقابل اخماد حركة الموحدين ، ولكن هبت العواصف السياسية على محمد علي واتهم بأنه

يسعى الى سلب السلطان حقوقه في مصر ، وحيث ان محمد علي كان في سنوات حكمه الاولى ويخشى من أن ينفذ عنه الشعب المصرى لو اصطدم علانية بالسلطان العثمانى ، ففضل أن يلبي طلبات السلطان وأن يضع ما لديه من قوات من أجل توجيه حملة ضد آل سعود ، ليطالب هو من بعد ذلك بضم الشام اليه .

ومن هنا يتبين لنا أن موقع مصر وأهميته في قلب الوطن العربى يملى على زعمائها اتجاهات عربية قومية ، فلقد وجد محمد علي نفسه في تيار عارم يدفعه نحو البلاد العربية ، فدور مصر في اتجاه هذه البلاد العربية تمليه اوضاع المنطقة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية من القدم ، فضلا عن اوضاع مصر نفسها .

أرسل محمد علي حملاته الى شبه الجزيرة العربية ، ودارت المعارك في أول الأمر لصالح الموحدين ، ولكن لم تلبث الامكانيات العسكرية الحديثة البسيطة التى كانت لدى ابراهيم باشا (ابن محمد علي باشا) أن تغلبت على الحماس الدينى لدى الموحدين .

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه القوات التى ارسلت الى شبه الجزيرة العربية بقيادة ابراهيم باشا لم تكن مصرية وانما كانت مكونة من الارناءوط من ذوى الأخلاق السيئة ، فكان أن أساءوا الى أهل البلاد ، واساءوا الى المصريين على اعتبار أنهم وصفوا بأنهم قوات (مصرية) .

وعلى أى حال ، استولى ابراهيم باشا على الحجاز ثم على نجد ووصلت قواته حتى الاحساء (١٨١٨) ولم تبق القوات المصرية في منطقة الاحساء الا فترة وجيزة وانسحبت بسرعة الى نجد ، والى ما وراء نجد . وهذا يعتبر في نظرنا نوع من قصر النظر السياسى ، خاصة وان القوى الحاكمة القريبة من الاحساء والخليج العربى كانت هى الأخرى لا تقدر حقيقة الأوضاع في الخليج العربى تقديرا سليما . اذ كان الانجليز — من قواعدهم في الهند البريطانية — يتحينون الفرص لفرض نفوذهم على منطقة الخليج العربى واحتكار التجارة والملاحة هناك . كذلك كانت هناك قوة عربية ناشئة — وهى أسرة البوسعيد في عمان — تعد نفسها لان تلعب الدور الرئيسى في توجيه مقدرات الخليج العربى .

كان في دست الحكم في مسقط حينذاك (السيد سعيد) الذى حكم من ١٨٠٦ — ١٨٥٦ ، وكان يملك أكبر قوة بحرية عربية في الخليج العربى في ذلك الوقت . ولكنه لم

يستطيع التفوق ذلك لأنه كان يتنافس مع قوة أوربية استعمارية كبرى تهدف الى نفس الهدف
وهى بريطانيا الممثلة فى شركة الهند الشرقية .

وعلى اى حال ضربت البحرية الانجليزية معاقل القوى العربية المتحالفة مع
الموحدين (الوهابيين) ، خاصة رأس الخيمة (١٨١٩) .

بعد تلك الحملة الانجليزية المسقطية المشتركة ، أصبحت اليد العليا فى الخليج
العربى للانجليز ، وفرضوا على الامارات والمشايخات العربية فى الخليج العربى معاهدة
(١٨٢٠) ، تلك المعاهدة التى جعلت بريطانيا تنفرد — الى حد كبير جدا — بتوجيه أمور
تلك المشايخات والتحكم فيها .

وبعد عامين تقريبا بدأت دوائر حكام بغداد من الممالك ، ودوائر حكومة محمد على
فى القاهرة تدرك كم أصبحت عليه أوضاع الخليج العربى ، والمياه الجنوبية العربية
الإسلامية من خطورة على مستقبل المنطقة بسبب سياسات الانجليز الاستعمارية فى تلك
المناطق . خاصة وان النشاط الاستعمارى الانجليزى لم يكن قاصرا فى تلك الجهات على
الخليج العربى وانما كذلك امتد الى البحر الأحمر . فقد كانت حكومة الأئمة الزيديين
فى اليمن شديدة الانفلاق على نفسها ، تعاني من الصراعات الداخلية الدموية ، فانتهز
الانجليز هذه الظروف المواتية وضربوا بأسطولهم ميناء (مخا) اليمنى فى ١٨٢٦ تمهيدا
للسيطرة عليه .

وهكذا بدا واضحا ان القوة الاستعمارية البريطانية قد بدأت تدق بعنف أبواب
شبه الجزيرة العربية والعراق واليمن ، وقد يمتد ذلك بسرعة الى السويس نفسها .
وحيث أن مقاومة مثل هذا الخطر البريطانى كان يتطلب استخدام أسطول مناسب ، ولم
يكن ذلك متوفرا حينذاك ، احرز الأسطول البريطانى تفوقا حاسما .

فلا غرو أن اتجه والى بغداد داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣٠) الى محاولة شراء بعض
السفن الحربية . وحيث أن ذلك كان غير متيسر الا من القواعد البريطانية فى الهند ، فقد
لجأ اليها، وكان طبيعيا أن ترفض تزويده بشىء منها حفاظا لها على السيطرة على مقدرات
الخليج العربى .

أما محمد علي ، فقد سعى الى تكوين جيش واسطول كبيرين، وكانت ظروفه أفضل
وذلك للأسباب التالية :

١ — كانت أوضاع مصر قد استقرت الى حد كبير بعد أن قضى هو على المماليك
المشاغبين في مذبحة القلعة ١٨١١ .

٢ — وفر له انتاج مصر الكبير من الأراضي الزراعية على يد فلاحها المثابر الأموال
الكثيرة للانفاق منها على مشروعه العسكري الكبير .

٣ — قرب مصادر الأخشاب من مصر ، ونعنى بذلك (لبنان) .

٤ — وجود موانئ كبيرة صالحة لبناء السفن : الاسكندرية والسويس .

ونمت قوة مصر العسكرية بحريا وبريا ، واصبح في نظر السلطان العثماني أداة
يمكن أن يستخدمها في أية جبهة تستدعى منه ارسال جيش اليها .

فعندما غزا الفرس العراق في ١٨٢٠ — ١٨٢٣ اتجه السلطان العثماني الى مصر ،
طالباً من واليها أن يسرع الى انقاذ العراق من الغزو الفارسي . ان هذه أول مرّة يطلب
فيها من والي مصر أن يخف للدفاع عن العراق في التاريخ الحديث (١) .

وشعر محمد علي أن السلطان العثماني سيصر على تكليفه بتلك المهمة ومن ثم
اصبح عليه أن يعد العدة العسكرية اللازمة لمواجهة هذه الحرب في أرض العراق . بينما
كان محمد علي حينذاك مشغولاً بفتح السودان .

بدا واضحاً لمحمد علي أنه في حاجة الى جيش كبير ، وبأقصى سرعة ممكنة . وكان
حتى ذلك الوقت يسعى الى تكوين جيش من غير المصريين . ولذلك كتب الى ابنه ابراهيم
باشا — الذي كان يقوم بعمليات فتح السودان — أن يسرع في ارسال أعداد كبيرة من
السودانيين الى مصر ليعدهم جيوشاً كبيراً يخوض به معارك تحرير العراق من الفرس .

ومن هذا تتكشف لنا حقيقة خطيرة ، وهي أن محمد علي كان لا يريد تكوين جيش
وطني مصري ، وإنما كان يريد الاعتماد على المرتزقة أو على السودانيين ولكن نبت لديه

(١) هناك سابقة حدثت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ولكنها كانت على
نطاق ضيق للغاية .

بعد ذلك انه اذا اراد أن يبنى مصر الحديثة ، وأن تظهر في مصر دولة قوية ، فإن السبيل الوحيد الى ذلك هو اقامة جيش من فلاحى مصر نفسها ، وهذا ما اضطر محمد على اليه بعد فشل تجربة تجنيد السودانيين وتكوين جيش منهم .

أدت تلك الحرب الفارسية - العراقية الى نتيجة هامة أخرى بالنسبة لمصر . فقد وسعت مدارك محمد على ، وجعلته يرتفع الى مستوى المسؤوليات الجسام الملقاة على كاهل مصر من منابع النيل الجنوبية الى مخا ومسقط والعراق والشام ، وكريت والبلقان . لقد اتسعت الصورة امام محمد واتسعت معها الآمال ، وتعاضمت الأعباء .

عمل محمد على على أن تكون أمامه صورة واضحة لما كان يجرى في الجبهة العراقية . وادرك أن الحملة المطلوب ارسالها ستواجه متاعب قاسية بسبب طول الطريق بين مصر والعراق ، والحاجة الى نفقات باهظة بينما كانت انظار محمد على متركزة على الشام وليس على العراق ، على اعتبار انه هو المجال الذى يجب أن تعمل فيه مصر أولاً لاعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية عديدة . ولذلك ترك محمد على أمر الحرب فى العراق ، خاصة وانها كانت تسير نحو انسحاب الجيش الفارسى منه وركز جهوده فى بناء جيش وأسطول مصرى كبير يستطيع بهما أن يدافع ضد التيار الاستعماري البريطاني سواء فى مصر او فى الشام .

خلال العشرينات من القرن التاسع عشر أصبح تحت يد محمد على جيش وأسطول كبيران كانا موضع حسد الدول الكبرى ، الشرقية والغربية على السواء اذ كانت فكرة ظهور دولة قوية فى قلب الوطن العربى كفيلة بأن تثير مخاوف الدول الكبرى الطامعة فى المنطقة . وقد بدأ هذا يتجلى عندما كلف السلطان العثمانى محمد على باشا أن يقوم باخضاع ثورة المورة (اليونان) التى عجزت الجيوش العثمانية عن اخضاعها خلال جهود مضمينة استمرت ست سنوات . فارسل محمد على الجيش المصرى ، والأسطول المصرى الى المورة ، وسيطر على الموقف ، فتكاثفت الدول الأوروبية بأساطيلها ضد الأسطول المصرى فى نزاربن وهاجمته مجتمعة ، واغرقتة (١٨٢٧) . ولكن كان هذا حافزاً أكثر لمصر لكى تعيد بناء جيشها وأسطولها لكى تتولى المهمة التاريخية الملقاة عليها وهى انقاذ المشرق العربى من الأخطار الاستعمارية الأوروبية ومن الحكم العثمانى المتسددى . أو بمعنى آخر ركز محمد على جهده صوب الشام التى وعده بها السلطان لو اخضع ثورة

المورة ، ولكن لم يلبث السلطان أن رفض تنفيذ ما وعد به فقرر محمد علي أن يحقق ذلك بالقوة .

ولكن يجب التأكيد هنا بادىء ذى بدء ، أن علاقة محمد علي بالشام لم تكن بقاصرة على تلك الأهداف الاستراتيجية والاقتصادية التي ترددها المؤلفات ، وإنما كانت زعامات الشام هي التي تلح عليه كذلك كي يقدم اليهم وينقذهم من الفوضى التي كانوا يعانون منها . ولقد لجأ الى مصر العديد من زعماء الشام وحكامه من أمثال بشير الشهابي ، عبد الله الجزائري ، زعماء نابلس وزعماء القدس . كذلك كانت العلاقات تنمو بسرعة بين مصر والشام . فقد حث محمد علي بشير الشهابي على الاكثار من استخراج الفحم الحجري وارساله الى مصر ، كما أن الشام كان في حاجة الى كميات متزايدة من قمح مصر .

قبل أن يرسل محمد علي قواته المسلحة الى الشام كانت منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة والدولة العثمانية تتعرض لهزات عنيفة . فقد كانت الدولة العثمانية لا تزال تعاني من مرارة هزيمتها أمام روسيا التي فرصت عليها معاهدة ١٨٢٩ ، ونزلت القوات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر في ١٨٣٠ ، وكانت هناك ثورة في العراق ضد السلطان العثماني يقودها داود باشا (١٨٣٠) .

وبدا كأن المنطقة تسير في تيار خطر ، وان على محمد علي أن يضمن سلامة مصر ، وسلامة الشام بوضعهما تحت حكم واحد ، فبعث بابراهيم باشا على رأس القوات المصرية لضم الشام الى مصر .

وخلال (١٨٣١ - ١٨٣٢) توالى انتصارات الجيش المصري على الجيش العثماني خاصة في موقعة قونية (١٨٣٢) التي جعلت الطريق الى الاستانة مفتوحا أمام الجيش المصري . وفعلا لم يتوقف الجيش المصري الا بعد أن وصل الى كوتاهية في أقصى الشمال الغربي من الأناضول . وكان توقف الزحف المصري نتيجة لتدخلات الدول الكبرى الأوروبية ضد مصر ، وكانت تدخلات دبلوماسية قوية مغلقة بتهديدات عسكرية . ومع ذلك اضطر السلطان العثماني الى منح محمد علي حكم (أطنة والشام) وقد عقد السلطان معاهدة سرية دفاعية هجومية مع روسيا (خنكار سكله سى ١٨٣٣) بعد أن يئس من

تدخل فرنسى او انجليزى ضد محمد على .

كان فى هذه التطورات فضلا عن وقوع خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق الأدنى بين الغرب والشرق فى يد حكومة مصر عاملا جوهريا فى تحرك الاستعمار البريطانى ضد مصر ، فاعلنت الحكومة البريطانية سياستها الخاصة بالمحافظة على « كيان الدولة العثمانية » تمهيدا لارغام محمد على على التخلي عن الشام وعن شبه الجزيرة العربية ، واثارت انجلترا القوى المحلية فى الشام ضد الحكم المصرى ، ووضعت سفنا مسلحة فى نهر الفرات لمنع القوى العراقية المناصرة لمصر من التعاون مع القيادة المصرية فى الشام ، ومنعوا شيخ البحرين من التعاون مع مصر ، واستولوا على عدن (١٨٣٩) ، وحاصروا الأسطول الانجليزى مدخل البحر الأحمر والسواحل المصرية والشامية . وحرضوا السلطان العثمانى على خوض معركة جديدة ضد محمد على ، فخاضها ولكنه هزم هزيمة شنيعة فيها (موقعة نزيب ١٨٣٩) ، فاسرعت بريطانيا الى تكوين كتل اوروبى ضد مصر وارغمت القوات المصرية على الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية وفرضت على مصر تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ التى جعلت حكم مصر فى أسرة محمد على ، وحددت عدد الجيش ، وابقت لمصر حكما ذاتيا فى اطار التبعية الاسمية للدولة العثمانية .

والجدير بالذكر، أن هذا التكتل العثمانى الأوروبى ضد مصر خلال ١٨٣٣ - ١٨٤١ كان يتم فى نفس الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستعمر ولاية الجزائر العثمانية بموافقة انجلترا الضمنية ، ورغم أنف الباب العالى .

بعد انتهاء أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى ، أصبح الوضع فى البلاد العربية على النحو التالى :

١ - العراق : قضى العثمانيون على ممالك العراق ، وحكموا العراق مرة أخرى حكما مباشرا استمر من ١٨٣١ - ١٩١٧ .

٢ - الخليج العربى : قوى فيه التسلط الانجليزى على مشيخاته ، وعلى دولة البوسعيد خاصة بعد وفاة السيد سعيد فى ١٨٥٦ .

٣ - عدن : استولى عليها الانجليز فى ١٨٣٩ وشرعوا فى تنفيذ سياسة فصل (المحميات التسع) عن اليمن وهى التى كانت فى منطقة حضر موت .

٤ — نجد : استعادت أسرة آل سعود حكمها في نجد وملت سيطرتها الى الاحساء ثم ففدتها في ١٨٧١ ، ولم تحاول مرة أخرى السيطرة على الحجاز (١) . وكانت أسرة آل سعود قد أصيبت بضعف شديد حتى انها لم تلبث أن تفوقت عليها في الثمانينات أسرة آل رشيد في حائل ، ولم تستعد أسرة آل سعود مكانتها الا في مطلع القرن العشرين (١٩٠١) عندما استرد عبد العزيز آل سعود الرياض ليؤسس الدولة السعودية الثالثة ولا تزال الى الآن وضمت اليها الحجاز في ١٩٢٥ .

٥ — الشام : كان موزعا الى عدة ولايات ، ولاية الشام (دمشق) ولاية طرابلس ، ولاية حلب ، سنجقية القدس ، وامارة جبل لبنان ، وكان المواردنة قد أصبحوا أكثر تقدما من المسلمين وكانوا يعدون العدة لاقامة دولة لهم (مستقلة) الأمر الذي أدى الى صراع بينهم وبين المسلمين وخاصة الدروز ، وهو صراع نشب بشدة بعد الانسحاب المصرى من الشام الأمر الذى أدى الى تدخل الدول الكبرى الأوروبية لصالح مواردنة لبنان وترتب على ذلك اقامة نظام القائمقايتين أى تقسيم جبل لبنان بين المسيحيين (المواردنة) والدروز ، الا أن هذا النظام ساعد على تصاعد الصراع الطائفى الذى وصل ذروته فيما عرف باسم مذابح الستين (١٨٦٠) . وانشاء نظام المتصرفية حتى وقوع الحرب العالمية الأولى . أما فى دمشق وحلب فقد قامت نهضة عربية ، وكذلك فى لبنان سيكون لها أثرها فى الحركة التحررية فى الوطن العربى هذا بينما أصبحت فلسطين هدفا للاستعمار الصهيونى منذ العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر .

٦ — مصر قامت بنهضة كبرى تعليمية ، واقتصادية ، وسياسية ، ولكنها نكبت بازمة مالية أدت الى ثورة أحمد عرابى ثم الى الاحتلال البريطانى لها .

٧ — السودان : تقدم حضاريا تحت الإدارة المصرية ، ولما احتلت بريطانيا مصر انتهزت فرصة الثورة المهدية واحتلت السودان لتنفرد به .

٨ — طرابلس : كانت الدولة العثمانية قد قضت على الأسرة الحاكمة فيها (الأسرة

القرمطانية) في ١٨٣٥ وحكمتها حكما مباشرا ولكن منذ أن استولت فرنسا على تونس (١٨٨١) تطلعت إيطاليا الى طرابلس .

٩ — الجزائر : ادعت فرنسا انها جزء منها ثم تطلعت من بعد الى فرض الحماية على مراكش .

١٠ — مكة : كانت تحت حكم اشراف الحجاز .

١١ — اليمن : تحت حكم ائمة زيديين يعانون الكثير من الصراعات الداخلية والتفوق المريع .

وكانت تلك الهزائم التي منيت بها الدولة العثمانية أمام الدول الأوروبية وإمام مصر وشعور الحكومة العثمانية بأنها متخلفة عن باقي الدول الأوروبية بل وعن تابعتها مصر ، عملت على الإسراع في إعادة تجديد نفسها لعلها بذلك تستطيع التصدي للتدخل الأوروبي في أمورها ، ولعلها تعيد قبضتها قوية على مختلف أجزاء الدولة العثمانية . فأقدمت على إصلاحات في مجال العلاقة بين الحكومة والرعية وفي المجال العسكري . وكانت أهم مظاهر التجديد في الدولة العثمانية هي المراسيم التي أصدرها السلطان العثماني وعرفت باسم (التنظيمات العثمانية) . وعرفت فترة التنظيمات العثمانية بأنها الواقعة بين صدور أول خط (مرسوم) في ١٨٣٩ وهو خط كلخانة وصدور الدستور العثماني على يد مدحت باشا أبو الأحرار الأتراك في ١٨٧٦ .

وبين هذين التاريخين صدر خط هام جدا هو (الخط الهمايوني) في أعقاب حرب القرم (١٨٥٦) ، وكان ينص على مساواة الرعية في الحقوق ، والواجبات ، وفي ادخال الإدارات والنظم الأوروبية في مختلف أجزاء الدولة العثمانية . ولكن في الوقت الذي كانت فيه حكومة الدولة العثمانية تحاول أن تدخل هذه النظم التجديدية واجهت عدة عقبات عنيفة للغاية حالت دون تحقيق الأهداف من ورائها :

١ - استمرار الضغط العسكري على أجزاء الدولة العثمانية بشكل جعلها تولى المشكلة العسكرية أهمية أكثر بشكل عرقل عجلة الإصلاح .

٢ - أن الدول الأوروبية الكبرى كانت توجه الإصلاح إلى النواحي التي تخدم مصالحها الاستعمارية حتى ولو أضر ذلك بمستقبل الدولة العثمانية ومن ذلك استخدام القروض في النواحي الاستهلاكية دون الانتاجية .

٣ - في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية تنادي بضرورة تطبيق المساواة بين مختلف رعية السلطان العثماني ، كانت تتير النعرات الطائفية خاصة في لبنان الأمر الذي أدى إلى الحوادث الدامية في لبنان (١٨٦٠) وفي جدة (١٨٥٨) وفي العراق حوالي ذلك الوقت .

يعتبر عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) من أخطر عهود الدولة

العثمانية لانه وضعها أمام المشكلة القومية وأمام المشكلة الدستورية وأمام المشكلة الاستعمارية وأمام المشكلة الاقتصادية .

والمعروف أن الدولة العثمانية منذ حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) قامت بجهود كبيرة من أجل تطبيق وتنفيذ الإصلاحات وقد طبقت فعلا مجموعة كبرى من الإصلاحات على رأسها تنفيذ نظام الأراضي (الطابو) وتنفيذ قانون الولايات .

وكان يقصد من قانو الأراضي التخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام وتحسين حال الفلاح بتملكه قطعة من الأرض ولكن عندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت النتيجة أن الفلاح ظل بلى أرض وأن أصحاب رؤوس الأموال وشيوخ العشائر هم الذين تحولوا الى ملاك كبار وقد سجل شيوخ العشائر الأراضي باسمهم .

أما قانون الولايات وقد تزعمه مدحت باشا فكان يقضى بإنشاء مجالس محلية في كل ولاية وتطبيق النظام الضرائبي ولكن قانون الولايات كان ينجح عندما كان الوالى مصلحا مثل مدحت ويفشل عندما وضعت الولاية في يد موظفين غير جديرين ، هذا فضلا عن أن العصبية العشائرية ظلت خطرا على هذا النظام .

دعا مدحت باشا كذلك لتطبيق الدستور ورفع البلاد الى مستوى العصر عن طريق نظام حكم دستوري خاصة وأن السلطان عبد العزيز كان مسئولاً عن التدهور الاقتصادي ، في البلاد الأمر الذي جعل مدحت باشا يعمل على تنفيذ نظامه الدستوري بأية وسيلة . ولهذا عزل مدحت السلطان عبد العزيز وأسند الحكم والعرش الى عبد الحميد الثاني .

جاء عبد الحميد الثاني بعد وعد قاطع باصدار الدستور ولكنه كان يضمن الوصول الى الحكم المطلق لا الى الحكم الدستوري . وبتولى عبد الحميد العرش بدا وكأن دعاة الإصلاح سيتفوقون في الدولة العثمانية وانهم باصدار الدستور سيوحدون البلاد ويقضون على الفتن ، الا أن القوى الأوروبية الطامعة في الشرق الأدنى كانت ترى في التطور الدستوري خطرا على اطماعهم ، فلا يكاد مدحت باشا يتخذ الخطوات الأولى نحو اصدار الدستور حتى أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية واستطاعت روسيا أن تهزم جيوش الدولة العثمانية واستولت على باطوم وقارص وبايزيد وأصبحت تهدد أرمينيا ، وبالتالي أصبحت المنطقة الواقعة في أعالي نهر دجلة في متناول الروس ثم جاء

الانتصار الكبير في بلفنا ، الذي جعل الروس على مشارف الاستانة ، ولما فرضت روسيا معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٧ — ١٨٧٨) على الدولة العثمانية وأصبحت بلغاريا نتيجة لتلك التطورات أكبر وأقوى من اللازم بدا كأن الدولة العثمانية على وشك الانهيار ، وكان هناك اعتقاد بان انجلترا تحافظ على كيان الدولة العثمانية وانها لا بد وأن تتدخل الى جانبها ضد روسيا ولكنها في هذه الظروف لم تتمسك بتلك السياسة .

حقيقة قررت بريطانيا القضاء على معاهدة سان استيفانو التي فرضتها روسيا على السلطان العثماني بعد تلك الحرب القصيرة سنة ١٨٧٧ ، ولكن انجلترا التي أيدت الدعوة الى أن يكون الصلح المفروض على الدولة العثمانية مشرفا عن طريق مؤتمر دولي نجدها تسير في تيار تمزيق الدولة العثمانية في هذا المؤتمر الدولي (مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨) . وهناك مجموعة من الأسباب يسوقها المؤرخون في هذا الصدد لتبرير سياسة انجلترا نحو تمزيق الدولة العثمانية وهي : أن الدولة العثمانية أصبحت عاجزة عن التطور وانها أصبحت عاجزة عن تسديد ديونها المتراكمة وأن البلقان تحت الحكم العثماني ان يتراجع فحسب بل سيصير مسرحا للمعارك الدموية وكان هناك من يدعوا من الزعماء الانجليز الى طرد العثمانيين من البلقان باسم الحضارة وباسم المسيحية .

الى جانب هذا كانت انجلترا تسعى الى تكوين عصبة البحر المتوسط من كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لمنع انتشار الروس في حوض البحر المتوسط ولكنها لم تنجح في هذه السياسة فكان البديل أمامها هو الاتفاق مع كل من فرنسا وإيطاليا على اقتسام ولايات الدولة العثمانية .

وحينذاك كانت انجلترا قد اشترت أسهم قناة السويس وبدأت تخطط لاحتلال مصر وكان دزرائيلي يسعى الى السيطرة على قبرص وكريت كما كان هناك سياسى مصرى (نوبار باشا) يبحث دزرائيلي على احتلال الانجليز لمصر وكان نوبار قد اتصل أيضا ببسمارك الذى كان يرى أن الدول الأوروبية يجب أن لا تحارب بعضها البعض من أجل اقتسام ولايات الدولة العثمانية وانما عليها أن تقسمها على مائدة المفاوضات .

وفعلا عقد المؤتمر واصدر مجموعة من القرارات أدت الى أن تفقد الدولة العثمانية معظم البلقان . أما فيما يتعلق بالبلاد العربية فقد اكتشفت فرنسا أن انجلترا قد اقتنصت

سرا قبرص من الدولة العثمانية ، ولكى تهدىء انجلترا من ثورة فرنسا وجهتها الى تونس ولما كانت إيطاليا تطمع في تونس وجهتها الى طرابلس .

هذه هى بعض من المشاكل الكبرى التى واجهها السلطان الخليفة عبد الحميد الثانى . واجه متناقضات ضخمة ، الحكم الدستورى والهزيمة العسكرية والمذلة الدبلوماسية فى أروقة مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ .

فأدى كل هذا الى ان يفكر السلطان عبد الحميد فى أن يتولى بنفسه مهمة انقاذ الدولة واعتقد أنه هو — لا الدستور — القادر على ذلك ، وفى اعتقادنا أن الحكم الفردى المطلق لكى يكون ناجحا ولمصلحة الدولة يجب أن يكون مؤقتا ولاجتياز فترة حرجة تتطلب تركيزا فى القوة وتتطلب قرارات حاسمة سريعة . ولقد كانت الدولة العثمانية حينذاك فى حاجة الى مثل هذا الحكم الفردى لمواجهة مثل هذه الأزمات الكبرى .

ولكن السلطان عبد الحميد استمر فى حكمه المطلق بل سار فيه الى أبعد المراحل كما أنه اعتمد على فكرة سامية من أجل توطيد حكمه المطلق واعنى بذلك فكرة الجامعة الاسلامية على اعتبار أن الخلافة العباسية التى يدعى العثمانيون وراثتها كانت تعطى الخليفة كل السلطات دون قيد .

لقد كان عبد الحميد نفسه شخصية متناقضة مليئة بالخير مليئة بالشر مليئة بالشجاعة مليئة بالجبن صاحب مروءة ومكر قاتل كانت أمه جارية قوقازية تعمل راقصة وعاش هو طفولته بين الارقاء وفقد أمه فى وقت مبكر بعد مرض قاص وهو الدرن . ومات أبوه وهو فى التاسعة والثلاثين ومات عمه السلطان عبد العزيز منتحرا وعمه الآخر مراد الخامس الذى كان مخلولا ثم جىء به سلطانا دستوريا .

وسرعان ما التف حوله جماعات من المنتفعين بالسلطين وهى جماعات تعيش على الدس والمؤامرة وسلب الأموال وتطلع عبد الحميد حوله وتساءل كيف يستقر على عرشه فى هذا الجو العجيب الملىء بدسائس المقربين وعادات السفراء اللطيفة السامة والعسكريين الوطنيين المتخاذلين ورجال الدين المتشددقين بالإسلام الجاهلين بتعاليمه . فقرر أن يضع نفسه فوق كل هؤلاء . فكانت فكرة الجامعة الإسلامية تهىء له تكوين شخصيته القائمة على الزعامة والانفراد والفكر الإسلامى .

ولا شك أن مؤتمر برلين والأزمات التي واجهته قوت في نفسه فكرة الجامعة الإسلامية وسنشير الى هذه الأزمات بسرعة .

١ - كانت الدولة العثمانية تعاني من أزمة مالية مشابهة لأزمة مصر . لولا أن أصدر
عبد الحميد المرسوم المعروف باسم مرسوم محرم سنة ١٨٨١ الذي قضى بإنشاء
صندوق الدين العثماني العام الذي أشرف على مالية الدولة فنظم عملية تسديده
ديونهما .

٢ - الأزمة الأرمنية التي ترتبت عن ثورة الأرمن من أجل الاستقلال وما أعقب ذلك من مذبحة على يد الأتراك ربما بتدبير السلطان نفسه .

٣ - الأزمة الكويتية التي اثارها اليونان لتحصل على كريت وأدت الى حصول كريت على الحكم الذاتي في سنة ١٨٩٢ تمهيدا لضمه لليونان .

٤ - الأزمة المقدونية بسبب طمع بلغاريا واليونان في مقدونيا العثمانية .

٥ - الأزمة التونسية التي أدت الى احتلال فرنسا لتونس .

٦ - الأزمة الدستورية في مصر ، وكان السلطان يكره أن يكون لمصر دستور حتى أنه أسهم في اغراق الثورة العراقية .

٧ - الأزمة الكويتية التي اثارها الانجليز بعقد اتفاقهم مع مبارك الصباح لمنع ألمانيا من اىصال خط حديد بغداد الى الخليج ، ومثيلتها أزمة طابا لمنع الدولة العثمانية من السيطرة على هذا المنفذ الاستراتيجي .

ليست فكرة الجامعة الإسلامية من ابتداء السلطان عبد الحميد وإنما هي دعسوة
كرس جمال الدين الأفغانى نفسه لها تهدف الى قيام حكم إسلامى دستورى .

كان الأفغانى يكره الاستبداد ولهذا عارض استبداد الشاه واستبداد الخديوى اسماعيل . كلن الأفغانى يهدف الى حياة إسلامية ديمقراطية تهدف الى مقاومة الاستعمار الاوروبى وكان يؤيد أية حركة ضد الاستعمار مثل الثورة العرباية ، والثورة المهدية فى السودان .

وحيث أن عبد الحميد كان يقاوم التغفل الأوربي فان فكرة الجامعة الإسلامية كانت تركز على هذا الهدف ، ولكن كان عبد الحميد يرفض الاتجاه الدستوري لهذه الفكرة ، ولهذا أخذ عبد الحميد بالمفهوم الايدولوجي السطحي دون المفهوم الدستوري الديمقراطي هذا التمسك بالاتجاه الايدولوجي السطحي دون الديمقراطية الدستوري خلق قوى معارضة من داخل البلاد نفسها ، بعضها كان أصيلا نابعا من فكر وتقليد إسلامي عربي وبعضها كان مطعما بفكر غربي ، وبعضها كان شديد الارتباط بالفكر العربي وكان عبد الرحمن الكواكبي من الطراز الاسلامي .

وظهر نجيب عازوري الذي طالب بخلافة عربية أيضا ولكنه في نفس الوقت كان يدعو الى استقلال العرب وارتباطهم ارتباطا شديدا بأوروبا وخاصة فرنسا .

لقد أدى ظهور هذه الاتجاهات الى اهتزاز مكانة السلطان عبد الحميد وتهيأت الأذهان لاحداث تغيير جوهري في أوائل القرن العشرين . لقد كانت الأوضاع العامة في العالم العربي كله تشير الى أن هذا الوطن يواجه فترة دقيقة واجتياحا استعماريًا في مختلف جوانبه في مصر والسودان ، وفي الجنوب العربي وشمال أفريقيا وجنوب اليمن . أو تصاعد في المصالح الأوروبية بشكل يمهّد للاستعمار مثل احتكار شركة لينش للملاحة في العراق وتضخم أعداد المبشرين في الشام . وكان أن ظهر شعور عام في البلاد العربية المتقدمة والمتخلفة يحث على إعادة النظر في شكل الحكومة القائمة خاصة وأن العلاقة بين العرب والترك منذ القرن السادس عشر وكانت تقوم نظريا على أساس المشاركة ولكن منذ أواخر القرن التاسع عشر ومنذ ظهور مراسيم المساواة في الحقوق والواجبات بدأ العرب يرون أنهم ليسوا على قدم المساواة مع الترك .

فلا غرو أن ظهرت المعارضة العربية للاحتكار التركي للحكم منذ دستور ١٨٧٦ ذلك الدستور الذي صدر على يد مدحت باشا وانشأ مجلس المبعوثان (مجلس النواب) ، في هذا المجلس تعرض حكم عبد الحميد الثاني لنقد خشيته السلطان كل الخشية ، فكانت هذه المعارضة من الأسباب التي جعلت عبد الحميد يوقف العمل بالدستور وفي البرلمان .

ولم يكن من اليسير على السلطان عبد الحميد أن يقضي على هذه المعارضة فمع أنه سيطر على الصحافة في داخل الولايات العثمانية ، إلا أن صحف لبنان ومصر كانت

شديدة الوطأة عليه . فمن لبنان ومصر خرجت قوى المعارضة يشد أزرها الانجليز في مصر والفرنسيون في لبنان .

كان الكواكبي يعمل ضد السلطان العثماني من مصر دون أن يعمل على تقويض الدولة العثمانية أما الانجليز في مصر فكانوا يرون في حركة الكواكبي تقويضا للدولة العثمانية .

كانت هناك فرصة كبرى لصهر المقاومة العربية والتركية للاستبداد الحميدى في بوتقة واحدة واعنى بذلك الانقلاب الذى وقع على يد رجال جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ . فهى جمعية — وان كانت تركية — الا أنها تهدف الى انقاذ الدولة العثمانية كلها من الرجعية .

لقد وضع العرب ثقتهم في حكومة الاتحاديين ووقف الزعماء العرب من أمثال رفيق العظم وياسين الهاشمى وعزيز على المصرى وعبد الرحمن الشبنندر ، وسليم الجزائرى وقفوا موقف التأييد من الاتحاديين .

ولكن الأتراك الاتحاديين كانوا يخشون من ظهور أغلبية عربية في مجلس النواب الجديد، لقد كان الاتحاديون دستوريين ولكنهم كانوا أتراكا أولا . وأصرت جمعية الاتحاد والترقى أن تظل أمور الدولة في يد الأتراك بل بلغ من بعض متطرفي الأتراك أن نادى بأن تصبح كلها تركية وأنه على العرب أن يغادروا لغتهم وهذا ما يطلق عليه (سياسة التتريك) . وقد اتخذت فعلا اجراءات في هذا الاتجاه :

١ — فاللغة التركية أصبحت لغة المحاكم في الولايات العربية .

٢ — الصحف التركية الرسمية أصبحت تصدر بالتركية فقط .

وعندما اجريت انتخابات مجلس المبعوثان الجديد ١٩٠٨ نجح المرشحون الذين ساندتهم جمعية الاتحاد والترقى ، وبينما كان ٥/٢ الدولة العثمانية من العرب كان عدد النواب عن العرب هو ٥٠ نائبا مقابل ١٥٢ معظمهم كانوا مياالين الى الترك او من أصول تركية . وعندما حاولت مصر أن تنتهز فرصة صدور الدستور عام ١٩٠٨ وانشاء مجلس المبعوثان عندما أرادت مصر انتهاز هذه الفرصة لاعادة ارتباطها بالدولة العثمانية تخلصا

من الحكم الانجليزى ابى الاتحاديون ذلك وأعلن الصدر الأعظم حلمى باشا أن الدولة العثمانية موافقة على بقاء مصر تحت الحكم الانجليزى .

وحملت الصحف التركية حملات شعواء على الحزب الوطنى المصرى وهى حملة لم تكن صادرة عن هذه الجمعية (الاتحاد والترقى) وانما كانت بتوجيهه مخطط ضد اى تفوق عربى فى مجلس المبعوثان أو فى الهيئة الحاكمة العثمانية .

ومع هذا لم يتخل المصريون عن ارتباطهم بالدولة العثمانية فعندما انتزعت النمسا اقليمى البوسنة والهرسك قاطع المصريون البضائع النمساوية ، وأيد المصريون الكفاح العثمانى ضد الاحتلال الايطالى لليبيا سنة ١٩١١ .

وظهرت فى دمشق اتجاهات عربية مناهضة لتفوق الأتراك فى الحكومة الجديدة ، ومع أن الأتراك احتكروا المناصب العليا وسيطروا على مجلس المبعوثان فقد فضل العرب عدم رفع المشكلة الى مستوى المواجهة بين عربى وتركى وانما افوا جمعية الآخاء العثمانى الداعية الى تعاون عربى تركى ، وبعد الجلسات الأولى التى عقدها مجلس المبعوثان بدأت تظهر افتراءات سخيفة من جانب الأتراك المتعصبين ضد العرب وأخذ الجفاء يتصاعد وحاول الأتراك اخراج النائبين العربيين نصيف المؤيد وطالب النقيب من المجلس ولكنهم فشلوا .

وزادت حدة التحدى التركى للعرب فى أعقاب المحاولة الفاشلة التى قام بها السلطان عبد الحميد لاستعادة سلطانه كاملة فى ١٩٠٩ فلاحظ أن الأتراك اتهموا العرب بأنهم أعوان السلطان عبد الحميد وأبعدوا الوزراء العرب وأحلوا محلهم وزراء متعصبين للتركية .

لقد خشى العرب من نوايا الاتحاديين الذين فاجأوا العرب بعقد الصلح مع ايطاليا فى الوقت الذى كان فيه العرب يعتقدون أن استمرار الكفاح هو السبيل الوحيد لانقاذ ليبيا .

وتصاعد الموقف بسبب الجمعيات التى تألفت مثل « المنتدى » التركى الذى دعا الى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، كما تألفت جمعية الوطن التركى التى شاركت فيها الأدبية التركية المشهورة (خالدة أديب) والأديب المشهور (ضياجوك الب) الذى يوصف بأنه أبو القومية التركية فكانت هذه الجمعية تدعوا الى تجميع الأتراك من حدود الصين الى البلقان .

كانت خيبة أمل العرب كبيرة في جمعية الاتحاد والترقي، وكانت سبب العرب عن هذه الجمعية ، بل أقدموا على خطوات لمعارضة هذه خطوة يقوم بها الأتراك تتعرض لمستقبل العرب ولكيانهم . فـ الجمعيات والأحزاب ، كلها تخدم الفكرة العربية . وهذه الأنوار والجمعيات :

(أ) جمعيات سرية مثل (القحطانية ١٩٠٩) ، والعهد (١٩١٠) .

(ب) حزب الحرية والائتلاف في العراق والشام وكان حزبا يعمل داخل الدولة العثمانية .

(ج) جمعيات وأحزاب عربية في لبنان وفي مصر وهما بعيدتان عن متناول أيدي السلطات العثمانية حيث أن لبنان كان قد حصل على نظام حكم خاص به بحماية الدول الكبرى الأوروبية . وكان « حزب اللامركزية والادارة العثمانية » — الذي تأسس في ١٩١٢ — من أنشط الأحزاب العربية ، كما كان حزب الحرية والائتلاف أول ضربة قوية موجهة توجيهها مباشرة ضد سياسة الاتحاديين .

ومع أن حزب الحرية والائتلاف كان مفتوحا للعرب وللأتراك على حد سواء إلا أنه أصبح مركزا للحركة العربية . كذلك ظهر المنتدى الأدبي الذي ضم الطلاب العرب في الاستانة وضم معظم زعماء الحركة العربية من أمثال عبد الكريم الخليل الذي آمن بالقضية العربية وبأنها لا تحل بالخطب أو الاجتماعات وإنما بالتربية والتعليم وغادر إلى مصر ليقتنع زعماءها بقيمة التعليم العربي في توحيد العرب كما حدث العرب على توحيد المناهج التعليمية . هذا المنتدى الأدبي أيضا فتح الوحدة السياسية أمام العرب لأنه كان يتيح للزعماء العرب فرصة التحدث والمناقشة في مختلف مصالح العرب وفي بيروت تألفت الجمعية الإصلاحية البيروتية ١٩١٣ ، وهي تعمل على ترقية العرب وأضافت إلى هذا استخدام المستشارين الأجانب لاستصلاح حال الإدارات الحكومية وفيما عدا ذلك تتفق مع الجمعيات الأخرى في المطالبة بالحكم الدستوري وبأن تكون اللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة التركية .

وكانت المناداة بتلك المبادئ حينذاك تثير في الأتراك أشد مظاهر الحنق والغضب لأن الزعماء الأتراك كانوا قد وطدوا العزم على سياسة التتريك فحاربوا تلك الجمعية وأغلقوا أبوابها ولكنها كانت قد تركت أثرا قويا في نفوس العرب حتى أن جمعية مشابهة لها تأسست في الطرف الأقصى من البلاد العربية أعنى به البصرة .

أما حزب اللامركزية فتأسس في ١٩١٢ في القاهرة بعيدا عن متناول يد السلطات التركية، وكانت له فروع في الشام والعراق ومفتوحا أمام العربى والتركى على السواء ، ولكنه أصبح معقلا للعرب ، وظهرت أيضا جمعيات سرية أهمها الجمعية القحطائية التى أسسها سليم الجزائرى وعزيز على المصرى ومع انهما كانا من مؤيدى جمعية الاتحاد والترقى الا انهما تخليا عنها عندما انحرفت عن أهدافها الأولى وأسسنا تلك الجمعية القحطائية . الا انها لم تعيش طويلا ، كذلك شكل عزيز على المصرى جمعية عرفت باسم جمعية العهد وكانت قاصرة على الضباط العرب ومع ذلك كانت تعمل من أجل العرب ومن أجل الدولة العثمانية .

ومن هذا كله يتبين لنا أن العرب كانوا أكثر لينا وأقل تعصبا عندما أسسوا جمعياتهم العلنية والسرية بعكس الأتراك . ونلاحظ أيضا أن القيادات التى تزعمت الحركة العربية في أوائل القرن العشرين أصبحت عربية اسلامية وكانت من قبل عربية مسيحية وساعد هذا التحول على انتشار الفكر السياسى العربى .

ومع ذلك فعندما وقعت الحرب العثمانية البلقانية في سنة ١٩١٣ وقف العرب الى جانب الأتراك ولكن بعد تلك الحرب وجد الاتحاديون أن ممتلكاتهم أصبحت قاصرة على قسمين واضحين هي الأناضول ، وبلاد العرب وأصبحت الولايات العربية في المشرق تمثل غالبية الدولة العثمانية وظهر هنا سؤال لماذا اذن تمسك الأتراك بالمراكز القيادية ؟

وزاد الموقف سوءا عندما تألفت وزارة محمود شوكت عام ١٩١٣ التى لم تضم أى وزير عربى بل ثلاثة من الوزراء اليهود ، ووجد العرب أنه لا بد من أن يجتمع الزعماء العرب ليتدارسوا هذا الموقف وفعلا عقد المؤتمر العربى الأول في باريس ١٩١٣ .

وكانت الرغبة في تطبيق اللامركزية هدفا واضحا من أهداف هذا المؤتمر ليحمى العرب من التتريك وليحمى العرب من المخططات الأوروبية بشأن اقتسام ولايات الدولة

العثمانية • ولقد كانت هناك فعلا مشروعات لاقتسامها ومن ذلك مشروع طرح خلال المباحثات بين الانجليز والألمان بشأن خط حديد بغداد على النحو الآتي :

- أن تحصل روسيا على ارمينيا وما حولها
- أن تحصل فرنسا على الولايات السورية
- أن تحصل بريطانيا على أجزاء من آسيا الصغرى والعراق
- أن تحصل ألمانيا على بقية آسيا الصغرى

وكان العرب خارج الدولة العثمانية أكثر اطلاعا على تلك النيات التي كانت لدى الدول الكبرى وفعلا عقد المؤتمر في باريس وتعرضوا للموضوعات التالية • (١٩١٣) :

- التضامن الإسلامي المسيحي •
- الولاء التام للرابطة العثمانية •
- المحافظة على حقوق العرب القومية وعلى اللغة العربية •
- تطبيق اللامركزية •
- نبذ التدخل الأجنبي وخاصة فرنسا في سوريا •

فكان طبيعيا أن تقاوم الحكومة العثمانية المؤتمر فجمعت عددا من كبار أعيان العرب وجعلتهم يشنون حملة شعواء على المؤتمر وأعضائه • ولكن تبين أنهم أضعف من أن يقوضوه واضطر الأتراك الى تغيير سياستهم الى التفاهم مع أعضاء المؤتمر واتفق الطرفان العربى والتركى على انقرارات الرئيسية التالية :

١ — أن تكون اللغة العربية لغة المدارس في الولايات العربية مع استمرار اللغة التركية لغة البلاد الرسمية •

٢ — أن يتولى ثلاثة من العرب المناصب الوزارية وأن تسند بعض المناصب العليا الى موظفين عرب •

٣ — اعطاء صلاحيات واسعة للمجالس المحلية في الولايات العربية •

٤ — أن يظل الضباط العرب والجنود العرب في ولاياتهم خلال فترات السلم •

٥ — استخدام الخبراء الأجانب في اصلاح أمور الولايات العربية •

ولكن هذا الوفاق العربي التركي لم يلبث أن تدهور لأنه كان يحمل في طياته بوادر فشله كما ساعدت التطورات السياسية العالمية والمحلية على فشله وذلك للأمور التالية :

١ - كان المؤتمر قاصرا على المندوبين من الولايات العربية العثمانية فقط ومن ثم فهو لا يمثل كل العرب ، ولقد حاول شاب عربي مصرى أن يشارك في المؤتمر العربي باسم مصر ليرفع صوتها في هذا المؤتمر فرد عليه عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر قائلا أن مصر عربية عثمانية وبما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأى العثمانيين وكذلك للبلاد العثمانية إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأى المصريين لذلك أرجو أن يكون هذا عذرا لبقاء مناقشة الأمور العثمانية الداخلية منحضرة فيمن ورائهم حق التأثير على أحوالهم .

وبذلك يكون المؤتمر قد أبعد القوى المكافحة في مصر والسودان وشمال افريقيا من مجال التضامن العربى . بل انه لم يستجب لنداء عرب فلسطين من أجل مناقشة الخطر الصهيونى عليها .

٢ - وضعت الأمور في يد عبد الكريم الخليل والزهراوى على أمل تنفيذ قرارات المؤتمر ونحن لا نشك في وطنيتهما ولكن يجب أن تكون الفكرة الوطنية موجهة أيضا بعقلية دبلوماسية قادرة على مواجهة المناورات السياسية وهذا ما كان ينقص عبد الكريم الخليل والزهراوى ولهذا كانا أقل خبرة من زعماء جمعية الاتحاد والترقى وكان على رأسهم طلعت باشا وأنور وجمال وهؤلاء الثلاثة سيطروا على جمعية الاتحاد والترقى . وكانت محاولة الاتحاديين تسوية خلافاتهم مع العرب في ١٩١٣ هو جزء من سياسة عامة لهم لتسوية مشكلاتهم المعقدة في مختلف المجالات فأصبح عام ١٩١٣ عام التسويات . تسويات بشأن خليج العقبة ، وشط العرب ، وشركة لينش ، وسكك حديد بغداد ، والمحميات ، وحضر موت .

فبالنسبة للخليج العربى كان الانجليز قد نجحوا في عقد اتفاقية ١٨٩٩ مع مبارك الصباح لمنع الألمان من توصيل مشروع خط حديد بغداد الى الخليج العربى ، حتى اذا ما أراد العثمانيون والألمان توصيله الى الخليج فيجب أن يكون ذلك تحت السيطرة الانجليزية ، وعندما علم عبد العزيز بن سعود أن انجلترا تسعى الى الوصول الى تسوية

مع الاتحاديين وألمانيا بشأن خط حديد بغداد أسرع هو الى استرداد الاحساء ١٩١٣ ولعل عبد العزيز خشى أن يتنازل الأتراك عن الاحساء للانجليز فأسرع هو للسيطرة عليها . ومع هذا سنجده أن الانجليز في التسوية التي عقدها عام ١٩١٣ يعترفون بأن الاحساء تابعة للأتراك .

ولهذا كانت مشكلة الكويت وخط حديد بغداد من أهم نقاط المفاوضات بين انجلترا والاتحاديين ليجاد تسوية عامة بين الطرفين واتفق الطرفان على أن تكون الكويت مستقلة استقلالاً ذاتياً وأن تعترف الحكومة العثمانية باتفاقية ١٨٩٩ وأن تتولى شركة انجليزية مد الخط الحديدي المزمع انشائه الى البصرة والكويت . وترتب على هذا الاتفاق تخلي الألمان للانجليز عن هذا الجزء من الخط الحديدي كما اتفقت الدولتان على تكوين شركة للنفط . من ثم يمكن أن نقول ان الاتفاقية الانجليزية الألمانية عبارة عن تقسيم للنفوذ بين الدولتين في الدولة العثمانية ، وبالنسبة لقطر والبحرين اعترفت الحكومة العثمانية بانها لن تتدخل في شئونها وفيما يتعلق بشط العرب اتفق الطرفان على اعتبار هذا الشط مفتوحاً للملاحة الدولية .

أما بالنسبة الى حضر موت : فقد حددت الحدود بين اليمن من جهة وعن والمحميات من جهة أخرى .

أما التسوية الفرنسية العثمانية : فنصت على معاملة المدارس الفرنسية في الدولة العثمانية على قدم المساواة مع مدارس الدولة وعلى اعتراف ضمنى بالحماية الفرنسية على شمال افريقية وأن تتولى الشركات الفرنسية مد الخطوط الحديدية في الشام .

من كل هذا يتبين أن الاتحاديين كانوا يريدون الوصول الى تسوية عامة لمشاكل الدولة ، ولكن هذه التسويات أعطت لألمانيا وفرنسا وبريطانيا امتيازات دون أن تحصل الدولة العثمانية على مقابل لها . ومع أن هذه التسويات توحي بانها أوجدت توازناً بين الدول الكبرى الأوروبية في الشرق العربي إلا أن حكومة الاتحاديين أخذت تميل نحو الألمان وذلك لشعور الاتحاديين بحاجتهم الى مساندة دولة كبرى لهم ، خاصة وأن ألمانيا كانت أقل الدول الأوروبية طمعاً في الدولة العثمانية ، كما أنها كانت أقربها الى الدولة العثمانية وإن امبراطورها كان يبدو كصديق شخصي للدولة العثمانية . هذا الى أن

العسكرية الألمانية كانت ذائعة الصيت . وكانت ألمانيا حينذاك فى حاجة الى الدولة العثمانية .

١ - كانت الدولة العثمانية هى المفضلة لدى الحكومة الألمانية لانطلاقة استثمارية واسعة النطاق تفتح أبوابا كثيرة أمام الألمان .

٢ - كانت ألمانيا فى حاجة الى الدولة العثمانية استراتيجيا ، فالمعروف أن الدول الكبرى الأوروبية كانت قد انقسمت الى كتلتين متعاديتين ، الأولى مشكلة من (دول الوفاق) وهى فرنسا وانجلترا وروسيا . والثانية هى (دول الوسط) وهى ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وانضمت اليهما إيطاليا .

وحيث أن الدولة العثمانية ذات حدود مشتركة مع روسيا ، فان تحالفا ألمانيا عثمانيا يهيىء الظروف لفتح جبهة عسكرية جديدة ضد روسيا . وحيث أن فرنسا وانجلترا كانتا تسيطران على ولايات عديدة عثمانية سواء فى شمال أفريقيا (تونس والجزائر) وفى وادى النيل (مصر والسودان) وفى شبه الجزيرة العربية (الخليج العربى) فان تحالفا ألمانيا عثمانيا ربما يستطيع طرد الانجليز والفرنسيين من هذه المناطق لتستردّها الدولة العثمانية ولتصبح مجالا للاستثمارات الألمانية تمهيدا لتحويلها الى مستعمرات ألمانية .

ومن عوامل التحول التركى نحو ألمانيا أن القوميين الأتراك الطورانيين أصبحوا هم الذين يحكمون الدولة العثمانية ويعتمدون على شعب وجيش تركى يدعو الى الرابطة الطورانية على اعتبار أن هذه الرابطة هى التى ستعيد للأتراك كياناتهم وقوتهم وتستطيع بالتحالف مع ألمانيا الانتصار على دول الوفاق ، ثم انه كان هناك اتجاه عام فى الشرق يؤيد ألمانيا ضد دول الوفاق فمصر كانت تميل الى ألمانيا عاطفيا لأن بريطانيا كانت تحتل البلاد ولأن فرنسا خانت القضية المصرية بعقدها الوفاق الودى ١٩٠٤ م ولكن هذا الاتجاه نحو الطورانية كان يؤدى الى عداة سافر مع العرب ولقد بلغ ميل الاتحاديين الى الألمان ذروته عندما عقدوا اتفاقية سرية مع ألمانيا فى ١٩١٤ ولم يلبث الأتراك أن دخلوا الحرب الى جانب الألمان . فماذا كان موقف العرب من دخول تركيا الحرب ؟

كانت ليبيا ودارفور وحائل، اقاليم جندت نفسها لقتال الحلفاء بينما أعلن الشريف حسين شريف مكة الثورة على الدولة العثمانية وأيده فيها الأدريسى فى عسير .

وكانت اليمن قد وقعت اتفاقا مع الأتراك سنة ١٩١١ وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى حاول الانجليز اقناع إمام اليمن بأن يعلن الحرب على الأتراك دون جدوى ، فتحول الانجليز من الضغط الدبلوماسي على الإمام الى الضغط العسكري واحتلوا ميناء الحديدة ، وبدأ وكان الانجليز قد خنقوا الدولة اليمنية بعد فشل هجمات اليمنيين على عدن ، واغلب الظن أن الفكرة الإسلامية كانت الدافع الأول للإمام لكي يتعاون مع أعدائه الأتراك ضد الانجليز .

أما في الداخل فكان ميل الانجليز واضحا الى جانب آل سعود والأدريس ، وكان عبد العزيز بن سعود في مواجهة آل رشيد حكام حائل وكانت تدعمه الدولة العثمانية . وأدى ذلك الى عقد اتفاقية مع الانجليز عرفت باسم اتفاقية دارين في ١٩١٥ بين عبد العزيز والانجليز .

أما الشريف حسين فلعب أخطر دور خاصة وأن الانجليز كانوا يبحثون عن زعيم عربي حيث أن الخليفة العثماني أعلن الجهاد الديني وأصبحوا في حاجة الى دعوة دينية مضادة ومن ثم فإن دعوة بالكفاح العربي يمكن لها أن تنادد دعوة الجهاد ، ولكن كان من العسير جدا أن تشب ثورة عربية في داخل الولايات العثمانية العراقية والشامية بسبب سيطرة الأتراك عليها سيطرة عسكرية واذا قامت هذه الثورة في إحدى ولايات الدولة العثمانية الواقعة تحت الاستعمار الانجليزي مثل مصر ، فإن مثل هذه الثورة ستتهم بسرعة بأنها دسيسة انجليزية وسرعان ما تفقد قيمتها ، بل الملاحظ أن الجمعيات العربية السرية في داخل ولايات الشام والعراق نفسها كانت غير راضية على قيام تعاون عربي انجليزي ضد الدولة العثمانية ، وقد حاول الانجليز كسب ثقة هذه الجمعيات فاتصلوا بعزيز على المصري في القاهرة والزعيم العراقي طالب النقيب وبالزعيم العربي رشيد رضا، وطلب منهم الانجليز التعاون معهم لاشعال نيران ثورة كبرى عربية ولكن هؤلاء الزعماء خشوا من أن يؤدي هذا التضامن العربي الانجليزي الى وقوع البلاد العربية في قبضة الانجليز، ولقد أبدى عزيز على المصري استعدادا للتعاون مع الانجليز بشرط أن يصدروا تصريحاً واضحاً يعترفون فيه باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بعد الحرب ، كذلك اشترط عزيز على المصري أن لا يبعث الانجليز بقواتهم الى العراق أو سوريا وأكد أنه كفيلاً بأن يحرر العراق من الأتراك اذا ما قدم الانجليز له السلاح فقط ، ولكن الانجليز وجدوا في

عزيز على المصرى عقلية متنورة قادرة على فهم اهدافهم وصعبة المراس ولهذا فهو لا يخدم اهدافهم فبحثوا عن شخصية اخرى . واثناء ذلك اتصل بهم عبد الله بن الشريف حسين وعرض عليه الانجليز التعاون معهم ضد الأتراك واصبحت امامهم فرصة ذهبية بان يحثوا الشريف حسين وهو من سلالة آل البيت على ثورة توقف مفعول دعوة الجهاد التى اطلقها الخليفة العثمانى . لقد كان الشريف حسين ملتقى المتناقضات .

فهو لم يكن على المستوى الفكرى لذلك العصر . وكان الرجل معنيا بأمور العرب ومستقبلهم دون أن يكون لديه مخطط واضح .

واذا بالشريف حسين يجد نفسه فجأة ملتقى آمال الأتراك الذين يعملون على جذبه الى جانبهم ومحط آمال الانجليز الذين يحثونه على الثورة ومحط آمال الزعماء العرب الذين يحثونه على الضغط على الأتراك من أجل الحصول على حياة افضل تحت الحكم العثمانى .

ولقد حاول الأتراك أن يجذبوا الشريف حسين الى جانبهم عن طريق التأكيد بان الأمانى التركية والعربية غير متعارضة ولكن كان هذا قبل حملة جمال باشا على قناة السويس . وبعد فشل هذه الحملة تحول الأتراك الى نوع من التهور اذاء العرب وشنقوا عددا من زعمائهم فى سنة ١٩١٥ رغم المجهودات التى بذلها الشريف حسين لتخفيف حكم الاعداء . وانتهاز الانجليز الفرصة وأعلنوا انهم يقاتلون الأتراك من أجل تحرير العرب .

وزادت الاتصالات بين الشريف حسين وكنتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ، ورأى الشريف حسين أن يأخذ رأى الزعماء العرب ، وكان رأى هؤلاء الزعماء هو أن التفاهم بين الشعوب العربية والأتراك أصبح عسيرا للغاية وأكدوا أن استقلال البلاد العربية هو السبيل الوحيد ودارت المراسلات المعروفة باسم مراسلات حسين - مكماهون ، وقد طالب الشريف حسين فى رسالته المؤرخة فى ١٤ يوليو ١٩١٥ باعلان استقلال العرب مع اعتراف بريطانيا به من مرسين واطنة الى الخليج العربى ومن الحدود الفارسية الى البحر الأحمر . ورد مكماهون على هذه المطالب باخراج مرسين والاسكندرونة والأجزاء الواقعة غربى دمشق وحماة وحمص وحلب من الدول العربية وطالب بإدارة بريطانية لولايتى بغداد والبصرة واحترام الشريف حسين المعاهدات المعقودة بين بريطانيا والامارات العربية واعترف مكماهون باستقلال العرب .

حقيقة تشبث الحسين بوحدة المشرق العربي ومؤكدا أن الدولة العربية المستقلة ستضع الرعايا بغض النظر عن الدين على قدم المساواة ، فلا حاجة لان تحكم فرنسا لبنان مثلا وتشبث بأن ما هو غربي حلب وحمص وحماة ودمشق عربي خالص الا أنه تساهل بالنسبة للعراق .

لقد كان هدف الحسين الحصول على موافقة صريحة من الانجليز على استقلال البلاد العربية أما الانجليز فكانوا يهدفون الى ثورة يعلنها الحسين لا تغير من مخططاتهم الاستعمارية في المنطقة ولا من اتفاقاتهم السرية مع حلفائهم وخاصة فرنسا .

واستطاع الانجليز أن يحققوا هدفهم هذا حيث أن الشريف كان يعتقد ان تلك التحفظات يمكن أن تزول بعد الحرب ، ولكن في الوقت الذي كان فيه الانجليز يتفاوضون مع الشريف حسين ، كانوا يتفاوضون مع حلفائهم حول اقتسام الولايات العثمانية ووضعوا عدة اتفاقيات أشهرها اتفاقية القسطنطينية التي نصت على :

١ — أن تحصل روسيا على ولاية ارضوم ووان ، وبتليس في شرق الأناضول وعلى المنطقة الواقعة شمالي جزيرة بن عمر والعمادية في شمال العراق .

٢ — كما نصت على حصول فرنسا على لبنان وسوريا وولاية اطنة وكيليكية والموصل .

٣ — وتحصل انجلترا على مينائي حيفا وعكا وعلى ولايتي بغداد والبصرة .

٤ — أن تقسم المنطقة الواقعة بين الشام والعراق الى مناطق نفوذ بين فرنسا وبريطانيا يقام فيها مستقبلا ولايات مستقلة .

٥ — أن تكون الاسكندرونة ميناء حرا وتسویل فلسطين .

ولكن بخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى في ١٩١٧ استبعدت من الاتفاقية التي أصبحت تعرف باسم اتفاقية سايكس — بيكو . وظلت اتفاقية سايكس — بيكو سرية حتى بعد اعلان الشريف حسين ثورته ١٩١٦ وشاركت القوات العربية بقيادة فيصل بن الحسين قوات الانجليز في الحملة على الشام ولكن عمل الانجليز على ابعاد هذه القوات العربية عن الساحل وحصر عملياتها الحربية على الداخل ، حيث أن الانجليز كانوا يعملون على ضوء اتفاقية سايكس — بيكو .

وهكذا عرف الانجليز كيف يسيطرون بأنفسهم على البلاد العربية دون أن يظهروا هذه النوايا الا في حدود معينة . وعندما استولوا على بيت المقدس اسندوا بعض المناصب العليا المباشرة الى الصهيونيين كخطوة لتنفيذ وعد بلفور الذي صدر في ١٩١٧ ، ويعتبر هذا العام هو اسوأ أعوام القضية العربية ففيه اذاعت روسيا نصوص اتفاقية سايكس - بيكو .

واسرع الانجليز الى اقناع الشريف حسين بأن الحلفاء لن يفرضوا حكما على أهل البلاد بل سيأخذون موافقة السكان عند تحديد مستقبل الحكم في البلاد العربية وقبل الشريف حسين هذا التفسير الغامض .

أما بالنسبة لوعد بلفور فأكدوا له أن الوعد لا يتنافى مع حرية السكان العرب في فلسطين ، وشعر الزعماء العرب بخطورة السياسة البريطانية على مستقبل العرب واستقلالهم وقدم ٧ من الزعماء العرب مذكرة بهذا المعنى الى المسئولين الانجليز في سنة ١٩١٩ فأكد لهم الانجليز أنهم يعملون من أجل استقلال العرب وقيمة هذا الوعد انه صدر بعد اتفاقية سايكس - بيكو وبعد وعد بلفور .

وقد كانت الولايات المتحدة تتحدث كثيرا عن حق تقرير المصير، ولكن ثبت بعد ذلك أن كل هذه الوعود كانت خداعة ، حيث أن انجلترا وفرنسا تصورتا فكرة استقلال العرب بأنها قاصرة على الحجاز ، بل أن انجلترا ، التي كانت تسيطر على المشرق العربي عند انتهاء الحرب ، أخذت تعمل على التخلص من فكرة منح العرب استقلالهم بل التخلص كذلك من اتفاقية سايكس - بيكو نفسها . فدارت مفاوضات بين الأطراف المعنية : انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والشريف حسين . وكان الانجليز قد ادركوا فعلا أن الموصل يجب أن تبقى في يدهم بسبب البترول ، وكذلك فلسطين التي اعتبرها الانجليز خطا دفاعيا عن قناة السويس حيث أن سيطرتهم على فلسطين يبعد الفرنسيين عن قناة السويس .

وجدت انجلترا نفسها أمام تحديات رئيسية :

١ - أولها رغبة العرب في الاستقلال .

٢ - رغبة فرنسا في الحصول على حقها كاملا طبقا لاتفاقية سايكس - بيكو .

٣ - اتجاه الراى العام العالمى الى تطبيق مبدأ حق تقرير المصير .

ومن حيث رغبة العرب فى الاستقلال نجد انجلترا تترك فيصل ابن الشريف حسين حاكما على سوريا الداخلية ، وتتفاوض مع فرنسا بشأن الموصل وفلسطين . وحيث أن الشام والعراق كانت فعلا تحت سيطرة الانجليز فان بريطانيا كانت تتفاوض مع فرنسا من مركز القوة . وعقد فى سنة ١٩١٩ مؤتمر ضم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة حضره الأمير فيصل للتداول فى مستقبل الأمة العربية . وأبدت كل من فرنسا وبريطانيا روحا استعمارية واضحة استهدفت وضع البلاد العربية فى منطقة الهلال الخصيب تحت الانتداب البريطانى والفرنسى بينما طالبت الولايات المتحدة بضرورة موافقة العرب على الدول المنتدبة عليها . وكانت فكرة الانتداب هذه قد شاعت حينذاك ، والتقط فيصل هذا الوضع وعقد مؤتمرا فى دمشق سنة ١٩١٩ وأعلن فيه الاعتراف بسوريا وفلسطين دولة واحدة ذات سيادة وأن يكون فيصل ملكا عليها . والاعتراف باستقلال العراق وتفضيل المعونة الأمريكية على المعونة الانجليزية . وعندما أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية بعثة « كنج كرين » لتقصى الحقائق فى سوريا وفلسطين وجدوا شعورا معاديا لفرنسا وأوصت هذه البعثة باستبعاد فرنسا من مركز الانتداب على سوريا وأوصت بأن يكون الانتداب اما أمريكيا أو انجليزيا ، ولكن تجاهلت انجلترا وفرنسا هذه المجهودات الأمريكية ، واتفقوا مؤقتا فى سنة ١٩١٩ على أن يحل الفرنسيون محل الانجليز فيما هو غربى حلب وحمص وحماة ودمشق وأن تكون العقبة وحمص وحماة وحلب ودمشق تحت حكم فيصل وأن توضع فلسطين تحت الانتداب الانجليزى .

فرد العرب على ذلك باعلان استقلال سوريا وليكسبوا ثقة عرب لبنان أكدوا احتفاظه باستقلاله الذاتى ورشحوا عبد الله لعرش العراق . لكن الانجليز والفرنسيين عقدوا مؤتمر سان ريمو فى ابريل سنة ١٩٢٠ وفيه أصبحت حلب وحماة وحمص ودمشق تحت السيطرة الفرنسية وتخلت فرنسا عن الموصل فى مقابل حصولها على نصيب من بترونها وتركت فلسطين والعراق للانتداب الانجليزى ووافقت الولايات المتحدة على هذه الانتدابات بل وعلى الحماية الانجليزية على مصر ، وأصبح الانتداب هو الفلسفة الاستعمارية الجديدة التى تبرر للدول الاستعمارية سيطرتها على الدول العربية أمام (١٧ - الشعوب الاسلامية)

الرأى العام العالمى • ونزلت القوات الفرنسية فى سوريا وانشأت لبنان الكبير سنة ١٩٢٠
ثم فرض الفرنسيون حربا على فيصل ودارت معركة ميسلون التى انتهت بالقضاء على
حكومة فيصل فى دمشق كما سيطرت انجلترا على بقية المشرق العربى فيما عدا الحجاز
واليمن وأراد الانجليز الانتقام من اليمن باعطاء الحديد لحاكم عسير وأعطوا الفرصة
لظهور شرق الأردن • وهكذا أصبح على العرب بعد الحرب العالمية الأولى أن يعملوا ضد
القوى الاستعمارية ، والعمل على انقاذ فلسطين والتطلع الى مصر كقوة عربية فى المنطقة،
ورغم تلك المشاعر العربية الواحدة الا أن التعبير عنها لم يكن منظما فقامت الثورات فى
الوطن العربى ولكن فى اوقات مختلفة ودون تنسيق بسبب السيطرة الاستعمارية ، وعلى
رأس هذه الثورات ثورة ١٩١٩ فى مصر التى كانت من أسباب تشجيع العراقيين على
ثورة ١٩٢٠ ، وثورة سوريا سنة ١٩٢٥ والثورات المتتالية فى فلسطين •

★ ★ ★

الباب الثاني

تاريخ فارس الحديث

الفصل الأول

عهد الأسرة الصفوية في فارس

١٥٠٠ - ١٨٢٢

مقدمة :

لإيران تاريخ قديم مجيد ، وبعد أن انتشر فيها الإسلام أصبحت قوة حضارية كبيرة ساعدت على انتشاره ، وعندما سعت الى نهضة حضارية جديدة مطعمة بالحضارة الأوروبية كان لنهضتها أهمية كبيرة في المجالات المحلية ، والعربية ، والإسلامية ، والدولية .

وتاريخ الشعب الإيراني ، كأحد الشعوب الإسلامية الكبرى ، يعتبر ركنا أساسيا من تاريخ الإسلام وشعوبه في العصر الحديث . فباستثناء العالم العربي تعتبر فارس وتركيا وأفغانستان وباكستان والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي من أهم الشعوب الإسلامية الآسيوية ، وإيران بينها أهمية خاصة ، حيث انها هي التي تربط بين هذه الشعوب كلها ، كما انها تقع على الطرف الشرقي للبلاد العربية .

وكلمة إيران مشتقة من اسم الشعوب الآرية التي هاجرت اليها في التاريخ القديم، ومعناها (موطن الآريين) ولم يستخدم هذا الاسم في العهد الإسلامي وانما استخدمت كلمة « فارس » للدلالة على إيران القديمة .

ويجب أن نفرق بين فارس ككل واقليم فارس . وهذا الاقليم هو الذي فرض اسمه على كل الهضبة الإيرانية . وظل مستخدما في مختلف الدوائر المحلية والعالمية حتى ١٩٣٥ عندما عمم الشاه رضا بهلوي اسم إيران تأكيدا للفكر القومي الذي تزعمه هذا الشاه المجدد .

وإيران بصفة عامة . عبارة عن هضبة مرتفعة ، تتعدد فيها سلاسل الجبال ، وأهمها سلاسل جبال الزاجروس وهي التي توازي الحدود العراقية وتمتد الى ساحل الخليج العربي ، وكانها حائط هائل تتخلله بعض الممرات ، على مسافات متباعدة . وتميل الهضبة من جهة الشرق الى الانحدار حتى تصبح صحراء ممتدة الى أفغانستان وباكستان . كما توجد منطقة سهلية نهريّة خصبة في قمة الخليج العربي ، هي خوزستان (عربستان) وهي في الحقيقة امتداد للسهل العراقي سواء من ناحية السطح أو من ناحية

التشكيل البشرى حيث يعيش العرب — من آل كعب وغيرها من العشائر العربية — منذ
ازمنة بعيدة في هذه المنطقة (خوزستان) • وفي خوزستان نهر كارون (قارون) الذى
يصب فى كل من شط العرب والخليج العربى ، ويعتبر من أهم منافذ فارس الى الخليج
العربى (١) •

وتطل إيران على بحرین أحدهما مغلقة هو بحر قزوين والثانى مفتوح على المحيط
الهندي ، وهو الخليج العربى الذى كانت حكومة طهران تصر على تسميته خليج فارس
لاعتبارات توسعية فى المنطقة • هذا مع أن السواحل الشرقية للخليج العربى ، وهى
سواحل إيرانية ، كانت تسكنها ولا تزال عشائر عربية ، لها تاريخ طويل يكاد أن يكون
مستقلا عن الحكومة الفارسية المركزية فى طهران •

أما بحر قزوين ، فهو أكبر البحار المغلقة ، وهو ينكمش تدريجيا منذ عدة قرون
مضت ، وكانت البلاد القوقازية الواقعة بين هذا البحر والبحر الأسود محل صراع بين
القوى العظيمة على المنطقة : روسيا وتركيا •

ومع أن الطابع العام هو الهضبة ، إلا أن فى إيران صحراوات واسعة قاسية مثل
صحراء دشت لوت (الصحراء الخالية) ودشت كوير (الصحراء المالحة) •

ويقدر تعداد إيران بحوالى أربعين مليون حاليا معظمهم على المذهب الشيعى
الاثنى عشرى ، منهم حوالى أربعة ملايين نسمة منهم القبائل ، والباقى مستقرين فى المدن
والقرى والوديان الزراعية • هذا فى الثمانينيات من القرن العشرين ، أما فى القرون
السابقة فقد كان التشكيل القبلى هو السائد فى مختلف أجزاء فارس ، ولعل ذلك يرجع
أساسا الى النقص الشديد فى مساحات الأرض الصالحة للزراعة •

ومع أن الآريين هم الذين انتشروا أولا فى إيران ، إلا أن البلاد تعرضت لموجات
متتالية من الهجرات التركية والعربية • ولكن رغم هذا التعدد فى الأصول العرقية ، فإن
هناك حضارة عامة فارسية تلف الشعب بأسره حولها ، باستثناء الجزء العربى، المعروف
باسم (عربستان) أو (خوزستان) •

(١) أنظر :

Lorimer: Gazetteer of the Persian Gulf. Vol. 1, Part 1. Culwta 1908.

فلقد توالى على إيران فى القرون القديمة هجرات عديدة الا ان اهمها هجرة آرية (أندو - أوروبية) استوطنت ايران وعمرت فيها القرى والمدن ومن بين هذه العشائر الآرية من لعب دورا كبيرا فى التاريخ بل وأسس امبراطوريات ذائعة الصيت مثل : (الميديين ، والفرس ، والبارثيين ، والباكتيريين ، والسيزيين) .

ولمعت فى تاريخ فارس القديم اسماء كورش مؤسس أكبر امبراطورية فى الشرق فى القرن السادس قبل الميلاد وقمبيز ، ودارا الذى بعث بجيوشه حتى قلب اليونان ، وزور دشت (Zorathushtra) الذى وضع القواعد الدينية على أساس ان هناك صراعا ازاليا بين الخير والشر .

وتعرضت إيران - مثل بقية أجزاء الشرق الأدنى - لغزوة الاسكندر الكبرى . وما تبع ذلك من ظهور دولة يونانية فى فارس وأخرى فى مصر وسوريا . وعلى أنقاض الدولة اليونانية فى فارس ظهرت الدولة البارثية فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد . وكان البارثيون يتكلمون لغة فارسية ويدينون بالزركية (المجوسية) ، ومن بعد هذه الدولة المجوسية جاءت آخر الدول الإيرانية قبل الإسلام ، وهى الدولة الساسانية التى تغلب عليها العرب ، وانتشر الإسلام بسرعة فى فارس وازدهرت حضارتها الإسلامية الى مرتبات عالية من التفوق خلال العهد العباسى بصفة خاصة .

وبضعف الخلفاء العباسيين أصيبت الدولة بعدة انقسامات سياسية وظهرت عدة أسرآت شبه مستقلة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى : كالأسرة الطاهرية ، والصفارية ، والسامانية ، والبويهية ، والسلجوقية ، وأخيرا دهم فارس غزو خطر شنه المغول . فاستولوا عليها ثم لم يلبثوا أن استولوا على بغداد نفسها (١٢٥٨) لتنتقل الخلافة العباسية بعد ذلك الى القاهرة (١) . بينما أصبحت تحت حكم وثنى مغولى شديد العداء للإسلام وللمسلمين .

واذا كان المغول قد فتحوا فارس بالسيف ، فقد أخضعت الحضارة الإسلاميه هؤلاء الفزاة لها حتى أسلم الملك المغولى غازان وبدأت البلاد الفارسية تسترد تدريجيا بعض

(١) ستستمر بها حتى ١٥١٧ ثم تخفت أصواتها ليدعى من بعد العثمانيون أنهم هم

ورثة الخلافة العباسية الشرعيين .

مكائنها في مجالات التقدم الحضارى تحت حكامها الايلخانيين (المغول) ، وكان من أبرز مظاهر هذا التقدم ظهور الشعارين الكبارين جلال الدين الرومى صاحب كتاب المثنوى الذى يعتبر أساسا للتصوف الفارسى ، « وسعدى الشيرازى » صاحب « كلىستان » وهو أرفع أنواع النثر الفارسى ، أو بمعنى آخر لقد أصبحت الحضارة هناك إسلامية فارسية .

تعرضت إيران لموجة مغولية جديدة على يد تيمورلنك الذى استولى على فارس في العقد الأخير من القرن الرابع عشر . وكانت دولته التى أسسها بالسيف والنار تركية ذات حضارة إيرانية .

ولم تلبث امبراطورية تيمورلنك أن تفككت بسرعة بعد موته (١٤٠٤ م / ٨٠٧ هـ) ، فأفادت قبائل « القره قوينلو » من هذه الفرصة واستولت على أذربيجان وانحدروا الى أصفهان والعراق وظلوا يحكمون فارس والعراق حتى قضت عليهم قوة قبلية أخرى هي « الآق قوينلو » في ١٤٦٩ م / ٨٧٤ هـ ، بينما كان القسم الشرقى من إيران تحت حكم شاه رخ بن تيمورلنك ، وكانت عاصمته في هراة وأخيرا استطاع اسماعيل الصفوى أن يصفى الموقف كله في فارس لمصلحته مؤسساً الأسرة الصفوية (١٥٠٠) التى تعتبر بدايتها بداية لتاريخ فارس الحديث . وهذا ما سنفصله فيما يلى .

ظهور الأسرة الصفوية :

ففى الوقت الذى أصبحت فيه فارس ، خلال حكم أسرة الآق قوينلو، مرتعا للحروب بين المطالبين بالعرش وبالولايات ، كانت تنمو في الشمال ، في منطقة (أردبيل) أسرة تركية تخصصت في الوعظ على أساس الفكر الشيعى وعرفت باسم الأسرة الصفوية التى يقال أن نسبها يرتفع الى الإمام موسى الكاظم وتنتسب الأسرة الصفوية الى رجل تقى ورع هو صفى الدين الذى توفى (١٣٢٨ م) . وكان ابنه - صدر الدين - لا يقل عنه تدبيرا ونشاطا من أجل نشر المذهب الشيعى وتعاليمه . ولقد حظى خوجا على (حفيد صفى) بمقابلة تيمورلنك ، واستطاع الشيخ أن يحصل منه على عفو عن الأسرى الأتراك الذين كانوا لديه (١) . ومن نسل هؤلاء الأسرى من لعب أدوارا هامة في تأسيس الدولة الصفوية وتثبيت أركانها .

(١) انتصر تيمورلنك خلال عملياته الاجتياحية على السلطان التركى العثمانى في موقعة أنقرة وحبس في قفص (١٤٠٢) .

وتوالى بعد ظهورهما عدد من رجال الدين من الأسرة الصفوية اتصفوا بالقدرة على المشاركة في الأحداث السياسية في المناطق التي يقيمون فيها وبالقيام بأعمال تخلد ذكراهم ولكن كان نشاط جنيد هو المهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة .

كان جنيد يسعى الى تكوين عصبية مذهبية مرتبطة به ، فاجتذب العديد من الاتباع ، وأصبح يشكل قوة محلية قادرة على العمل - عندما تسنح لها الفرصة - ضد الحكومة القائمة حينذاك، الأمر الذي أقلق أمير القره قوينلو حتى أمر بنفيه خارج البلاد .

وحينذاك كانت هناك منافسة محتلمة بين قوة القره قوينلو - التي كانت تعاني آخر أيامها - والقوة الصاعدة على حسابها (الآق قوينلو) . فذهب جنيد الى اوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الآق قوينلو في ديار بكر ، فرحب به الرجل على اعتبار أنه معول هدم للقره قوينلو . وأقام لديه حوالي ثلاث سنوات (١٤٥٦ - ١٤٥٩) وزوجه من اخته واتصل جنيد كذلك بالسلطان العثماني .

وتابع حيدر نشاط أبيه جنيد وتزوج من ابنة حسن الطويل في منفاه ، بل شارك في أحداث المنطقة وجمع حوله أعوانا من التركمان ، ولم يلبث أن لقي مصرعه في بعض الصدامات التي وقعت في منطقة شيروان (١٤٨٨) .

وبدأت سلسلة من الاضطهادات للأسرة خرج منها اسماعيل الصفوي وقد صقلته التجارب وجعلته قادرا على الانتقال من مجال الحركات المحلية الى مجال الحركات العامة .

★ ★ ★

فارس في عهد الشاه اسماعيل الصفوى (الدولة الصفوية في دور التأسيس)

اعتلاء الشاه اسماعيل العرش :

كان اسماعيل يدبر أموره على أساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مخلصنة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن قائلها وعن معتقداتها .

وحيث أن العصر كان عصر العصبية العشائرية (١) ، وإن المذهب الشيعى كان قد بدأ ينتشر في البلاد حينذاك ، وحيث أن اسماعيل كان من أصل تركى ، فقد أصبح من اليسير عليه أن يعتمد على قوى عشائرية تركية (٢) متعصبة للمذهب الشيعى . وكانت هذه الصفات متوفرة في القبائل التركية الساكنة فيما وراء القوقاز عند الشاطيء الجنوبي لبحر الخزر وإلى الغرب من خراسان وهذه القبائل عرفت باسم (القبائل السبعة) وهى :

- ١ - اوستاجلو ، ٢ - شاملو ، ٣ - نكالو ، ٤ - بهارلو ،
٥ - ذو القدر ، ٦ - قاجار ، ٧ - افشار .

وكانت هذه القبائل قد هاجرت من أواسط آسيا فى أول الأمر مع من كان يهاجر من السلاجقة . وأصبحت فيما بعد دعامة من دعائم الشاه اسماعيل أولا ، ثم سنداً رئيسياً للأسرة الصفوية .

جمع اسماعيل لنفسه قوة عسكرية ليقوم بأولى عملياته التى مهدت له الطريق

(١) كانت أهم العشائر المؤثرة فى تاريخ إيران هى : عشائر البختيارى والار والقشقاوى والأكراد والبلوش .

(٢) كان الأتراك مشهورين بتعصبهم للمذهب السنى فيما عدا أتراك تلك البقاع الواقعة الى الشمال من إيران لظروف خاصة بهم .

الى عرش فارس ، وكان حينذاك لا يزال فتيا . فشن أول حملة ضد باكو وشماقة Shamaka . وكان يهدف من وراء هجومه عليهما أن يؤسس لنفسه اقليما يستطيع أن ينطلق منه الى ما وراءه .

نجحت العمليات العسكرية الأولى التي قام بها فضاغف من قدراته العسكرية ، وبدأ يهاجم قوات الآق قوينلو . وكانت هذه تعاني خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر فترة الاحتضار رغم اتساع ملكها من إيران الى العراق . وانتصر اسماعيل على (الوند) أمير الآق قوينلو ، وزحف بعد ذلك الى تبريز واستولى عليها وأعلن نفسه هناك « شاها » على فارس . ثم انتصر بعد ذلك بوقت قصير على « الشاه على مراد » أخى « الوند » ولما استسلم اليه أعدمه (١٤٩٩) وانتهت الآق قوينلو كآسرة حاكمة في إيران .

كان ارتقاء اسماعيل عرش فارس يختلف في طبيعته عن ارتقاء أى من شاهات الايلخانيين ، أو الجلائريين أو من زعماء القره قوينلو ، أو الآق قوينلو عرش فارس . فقد كان اسماعيل يجمع في نفسه صفة الشاه و (المرشد الأكبر) للدعاة للمذهب الشيعى الاثنى عشرى ، فهو زعيم روحى ودينوى فى آن واحد ، واتخذ من السيف والقلم والدعوة باللسان أساليب متكاملة لتحقيق أهدافه الخاصة والعامة . ومن هنا كانت أهمية حركته واعتلائه العرش الفارسى . فاتخذ من المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهباً رسمياً للدولة ، واخذ يوطده فى داخل فارس .

كان ارتقاء الشاه اسماعيل عرش فارس ، لا يعنى أن الأمور قد توطئت ، أو أن طموحه البعيد قد توقف عند هذا الحد . ومن ناحية أخرى كانت الأمور من حوله تسير فى اتجاهات تفرض عليه أن يصطدم بها أو يعمل على تطويعها واخضاعها ليستمر مع أهدافه وآماله .

فبصورة عامة كانت القوى المعادية للشاه الصفوى تحيط به . وكان عليه - الى جانب الوصول الى حدود آمنة - أن يشبع حماسه الدينى على حساب القوى الأخرى المناهضة للمذهب الشيعى . وكانت هذه القوى المناهضة تحيط بدولته من أكثر من جانب . وكان هو معنياً بعناية خاصة بنشر المذهب الشيعى ، لا بين من صادقه فقط ، وإنما فى أراضى أعدائه أيضاً .

ويجدر بنا أن نحدد هذه القوى المحيطة بفارس عند مطلع حكم الشاه اسماعيل :
(أ) فمن الغرب كان يوجد العراق ، الذي لاذ به مراد بن يعقوب آخر أمراء الآق قوينلو ،
هذا فضلا عما للعراق من مكانة مذهبية خاصة في قلوب الشيعة . وإلى الشمال
كانت توجد إمارة تابعة أيضا للآق قوينلو يطمع فيها الشاه اسماعيل وهي إمارة
البستان وكان عليها علاء الدولة .

(ب) ومن جهة الشمال والغرب كان الأناضول قلب الدولة العثمانية الفتية ، بلادا تركية
سنية مجاهدة في البلقان ضد القوى الأوروبية .

(ج) في مياه الخليج العربي في أقصى الجنوب الغربي من بلاده ظهر الأسطول
البرتغالي — بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح — كقوة تتحكم في مقدرات
الخليج بأسره .

(د) من الشمال الشرقي كانت توجد قبائل الازوبك بزعماءة محمد الشيباني الشديد
البأس . وكان يسيطر على خراسان وعلى أجزاء من شمال شرقي فارس .

(هـ) وإلى الشرق توجد القبائل الأفغانية الشديدة المراس النازلة في مناطق صعبة
المسالك .

نشاط اسماعيل الصفوي في اتجاه الغرب :

كان على الشاه اسماعيل أن يصفى دولة الآق قوينلو سواء في داخل فارس أو
خارجها . وكانت هناك منطقتان أحدهما العراق الذي اعتصم بها آخر أمراء هذا البيت
المتداعي وهو مراد بن يعقوب ، والمنطقة الأخرى هي البستان التي كانت إمارة صغيرة ،
ولكن هامة ، تحت حكم علاء الدولة .

وكانت حملة الشاه اسماعيل ضد علاء الدولة من أولى حملاته الهامة فيما وراء
فارس . وقعت هذه الحملة في عام ١٥٠٧ ، وتغلب فيها الشاه على الأمير ، وأصبح هو
المتنفذ في الإمارة .

ومنذ تفوق الشاه اسماعيل الصفوي في البستان أصبح محتكا احتكاكا مباشرا
بأكبر قوتين في هذا القسم من الشرق الأدنى : (الأتراك العثمانيين ، والمماليك) . وكان

العثمانيون يمتدون من طوروس والأناضول الى قلب أوروبا الشرقية وكانوا في جهاد ضدها ، بينما كان المماليك يمتدون من طوروس والشام حتى مصر والحجاز ، وكانوا في جهاد ضد البرتغاليين في المياه الجنوبية الإسلامية . فبدأ الشاه اسماعيل بالاستيلاء على العراق (١٥٨) .

وكان استيلاء الشاه اسماعيل على العراق من أهم العوامل التي وجهت أنظار الدولة العثمانية نحوه ، وتحرك ضده السلطان سليم الأول وهزمه في موقعة جالديران ١٥١٤ (١) .

اكتفى السلطان العثماني سليم الأول بهذا الانتصار الكبير ، ولم يشأ أن يتوغل في قلب الهضبة الإيرانية وذلك لعدة أسباب :

١ - كانت وعورة مسالك الهضبة تعطي للشاه اسماعيل فرصة للنيل من الجيش العثماني فتهدد بضياع ثمرة النصر على السلطان سليم وتطيل أمد الحرب الأمر الذي يعطي للمماليك مصر فرصة لاجراج مركز العثمانيين العسكري والسياسي في المنطقة .

٢ - وقوع نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقق السلطان هدفه وخض شوكة اسماعيل الصفوي .

٣ - أن السلطان سليم الأول نفسه كان يرى أن العمل في الجبهة الشامية - المصرية هو الذي يجب أن يستقطب كل جهوده .

أدى هذا الى أن يستمر الشاه اسماعيل الصفوي قويا في داخل إيران ولكن مكانة الحكم الفارسي في العراق كانت قد اهتزت بعنف في بغداد . فقد أعلن حاكمها الولاء للسلطان العثماني سليم الأول ، وأصدر السلطان العثماني مرسوما بذلك . ولم يستطع الشاه اسماعيل الصفوي أن يقوم بعمل جدي ازاء العراق حتى توفي ١٥٢٤ .

مما سبق يتبين لنا أن هزيمة الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران كانت إقاسية ، ولكنها لم تكن قاتلة . ومن ناحية أخرى كان الحكم الصفوي يقوم على أساس

عقائدي مذهبي . ولذلك لم يلبث ان استعاد الشاه كيانه ، وجمع جيشه ، واستعد لمناوشة العثمانيين ، وان كان أضعف من أن يخوض الحرب المكشوفة مرة أخرى ضد العثمانيين . وشجعه على ذلك أن السلطان العثماني لم ينتظر طويلا بعد جالديران اذ اقحم السلطان سليم حربا على مماليك مصر وبعد انتصاره عليهم في موقعة مرج دابق ١٥١٦ ، تتبعهم الى مصر حتى استولى عليها . فكان غياب السلطان سليم في مصر وطول مدة الحرب بين العثمانيين والمماليك (١٥١٦/١٥١٧) من أهم العوامل التي شجعت الشاه اسماعيل على التحرك مرة أخرى ضد السلطان سليم . ويعلل عدد كبير من المؤرخين عودة السلطان سليم من مصر الى الأناضول في وقت مبكر بأنه كان يريد العمل على علاج الموقف الناشئ عن تهديد الشاه اسماعيل الصفوي للأناضول اثناء غيابه عنه .

ويبدو أن مجرد عودة السلطان سليم من مصر الى الاستانة منتصرا كان كافيا لأن يكف الشاه عن مناوراته على الحدود الفارسية — التركية حتى لا يعرض نفسه لحملة شاملة عثمانية أخرى . الا أن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول الى البحر المتوسط . وكان مستعدا لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطرا على العالم الإسلامي حينذاك . وهكذا بينما كان البرتغاليون يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم في المياه الإسلامية ، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم . ومع أن ملك هرموز — الجزيرة الصغيرة التي أضيرت بشدة في اقتصادياتها التجارية بمجيء البرتغاليين — وضع نفسه تحت سيادة الشاه لعل الأخير ينقذه من سطوة البرتغاليين المريعة ، الا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحققه الشديد على الأتراك العثمانيين في مقدمة أية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت السيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الاحساء . ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه . وكانت النتيجة ان ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالي على الخليج العربي .

الشاه اسماعيل والأوزبك :

كانت سيطرة الشاه اسماعيل على إيران في ١٥٠٠ لا تعني أنه أصبح سيد البلاد كلها ، بل ظلت الأجزاء الشرقية ، والشمالية الشرقية وخاصة خراسان بعيدة عن متناول

حكمه ، ولهذا كان طبيعيا ان يعد العدة لكى يضع يده على كل فارس . وادى هذا الى أن يضطدم الشاه بقوة فتية ناشئة الى الشمال الشرقى منه وهى قوة الأوزبك (١) بزعامة محمد الشيبانى .

كانت قبائل الأوزبك الرحالة تموج فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس . وكانت وثنية ثم اعتنقت الإسلام على المذهب السنى . ونظرا لتفكك هذه القبائل لم يكن لها تاريخ واضح حتى اذا ما استطاع (محمد الشيبانى) أن يسيطر على قسم كبير منها برزت هذه القبائل فى تاريخ المنطقة .

ويعتبر محمد شيبانى من أشهر زعماء الأوزبك ، ويطلق عليه أيضا (شاه بخت / أى ملك الحظ) . ولقد كانت تسنح له فعلا فرصا طيبة لابرار تفوقه ، وكانت له مهارة فى انتهاز هذه الفرص ، والاقدام عليها بجرأة وقوة ، والجرأة والقوة هى من طابع الزعماء الذين يتولون أمور قبائل أو عشائر ، خاصة فى ذلك الوقت .

استطاع محمد شيبانى أن يبنى — معتمدا على قوة رجال الأوزبك — ملكا لنفسه على حساب الدولة التيمورية المحتضرة — وبذل جهودا كبيرة حتى استولى على سمرقند (٩٠٦ هـ / ١٥٠٠) . ولكن سمرقند — عاصمة الأسرة التيمورية المحتضرة — كانت قد استنجدت بظهير الدين بابر — امبراطور المغول فى الهند (٢) — وهو أيضا من سلالة تيمورلنك . فلبى بابر النداء وصعد بجيوشه من الهند حتى سمرقند ، وخلصها من يد محمد شيبانى ورجال الأوزبك .

لم يكن شيبانى بالقائد الذى يتقاعس بعد الفشل ، وانما كان شديد الاصرار ، خاصة وأن هناك من العوامل ما شجعه على أن يخوض جولة أخرى ضد بابر وجيوشه . وفى هذه الجولة الثانية كان النصر حليف شيبانى رغم استماتة بابر ورجاله فى القتال . وسقطت سمرقند للمرة الثانية فى يد شيبانى ودالت دولة التيموريين منها نهائيا . وتابع شيبانى خطواته التوسعية ، فمد سيطرته على (هراة) فى ١١ محرم ٩١٣ / ٢٤ مايو ١٥٠٧ واستولى كذلك على خراسان .

(١) كلمة أوزبك تعنى (سيد نفسه — أى المستقل) .

(٢) أنظر الباب الثالث من هذا الكتاب .

وهكذا أصبح شيباني وجها لوجه أمام قوة فتية جديدة في إيران (الشاه اسماعيل) تكرر أن ترى خراسان بالذات تحت حكم الأوزبك . فقد كان هناك تراشق مذهبي متطاوّل بين علماء (ما وراء النهر) السنة ، وعلماء إيران الشيعة ، وأصبح الصراع بين شيباني والشاه ، لا على الأرض فقط وإنما كذلك كان صراعا عقائديا ، كل منهما يعتقد أنه هو الذي يسير على الحق . وأخذ محمد شيباني في استعلاء ظاهر يدعو الشاه اسماعيل الى العودة الى (إجماع أهل السنة) ، مهددا إياه بحرب ضروس في قلب إيران ذاتها . وأصبحت الحرب لا مفر منها ، وشرعت قوات الأوزبك تهاجم أطراف إيران الشرقية وتتوغل في البلاد (١٥٠٨) .

وبينما كان الشاه اسماعيل يعد قواته للزحف شمالا لملاقاة جيش الأوزبك بقيادة محمد شيباني ، وقعت عدة تطورات سريعة أخرجت مركز زعيم الأوزبك أيما احراج . فقد مار أهالي فيرzkوه على شيباني ، وهؤلاء كانوا عبارة عن قبيلة إيرانية تقطن منطقة وعرة جبلية أعجزت شيباني عن إخضاعها . بالإضافة الى ذلك وقعت عدة اضطرابات ساعدت على تشتيت قوات شيباني .

كان شيباني يتصف بالجرأة والاقدام ، ولكنه في نفس الوقت لم يكن على مستوى عدوه اسماعيل من حيث الخداع والتكتيك ، فاستغل اسماعيل صفات الجرأة والاقدام في شيباني وجره الى ميدان معركة سيطر عليه اسماعيل بقواته سيطرة كاملة حتى اباد جيش شيباني ، وسقط شيباني نفسه في المعركة . لتدفن بقاياه في مدرسته التي بناها في سمرقند (٩١٩ هـ - ١٥١٠ م) .

ويعتبر شيباني في نظر عشائر وسط آسيا شهيدا ، وقصص بطولاته واستماتته في القتال جعلت اسمه علما من أعلام تاريخ المنطقة ، ولا يزال قبره يزار على اعتبار أنه من أعظم الشهداء .

ويعتبر شيباني آخر الفاتحين العظماء الذين ظهوروا كقادة لعشائر قوية في وسط آسيا : قادرين على تكوين امبراطورية كبيرة ، من أمثال جنكيز خان ، وتيمور لنك ، وكان شيباني فعلا يتخذ من جنكيز خان مثله الأعلى ، ففي رسالة بعث بها الى اسماعيل الصفوي يتهدده ويتوعده قال :

« أنا ورثت السيف والملك من جـسـدى جنكيز ذائع الصيت ، فإن لم تقنع بعكاز الشحاذ فعليك أثم ما تفعل » .

وبسقوط شيبانى ضعفت دولته ، وتعرضت لأخطار كبيرة من جانب الهند و فارس .
على حد سواء .

فلم يتخل بابر — امبراطور المغول — عن الاستحواذ على سمرقند ووطن أجداده ، وكان مستعدا لأن يعيد الكرة بعد الكرة ، وأن يضع يده فى يد القوى الأخرى المهادية للأوزبك . وكان الشاه اسماعيل الصفوى مستعدا لأن يضع يده فى يد امبراطور المغول ، رغم اختلاف المذهب .

فقد اتفق الشاه اسماعيل مع بابر — امبراطور المغول — على أن يزود جيش المغول بما يلزمه من مؤن خلال العمليات العسكرية ضد الشيبانيين . فزحف بابر على رأس جيش كبير ، واستولى على سمرقند مرة أخرى ، إلا أن قائد الأوزبك الجديد كان رجلا صعب المراس عرف كيف يستغل ظروف المنطقة لصالحه .

كان عبيد الله قد تولى زمام الأمر ، واعد جيش الأوزبك ليخوض معركة كبيرة ضد جيش امبراطور المغول قرب بخارى . وهناك أنزل عبيد الله خان هزيمة قاسية بجيش بابر ، استعاد فى أعقابها عبيد الله خان مدينة سمرقند (٩١٨ هـ — ١٥١٢ م) .

كانت هزيمة بابر تلك تعنى أن الأوزبك استعادوا قدرتهم على توجيه الضربات الى الأجزاء الشمالية الشرقية لإيران ، هذا فضلا عن أن تلك الهزيمة كانت تعنى كذلك ضياع آمال الشاه اسماعيل فى السيطرة على تلك الاقاليم الشرقية . وإذا كانت الآمال معقودة فى تحقيق هذا الهدف على تحالف قوى بين امبراطور المغول ، والشاه الفارسى . فإن تحقيق تلك الآمال سيصبح بعيد المنال لو تمكنت القوات الأوزبكية من الانفراد بالجيش المغولى و ارغامه على الانسحاب من الحرب .

وكان الشاه اسماعيل الصفوى يدرك قيمة هذا التعاون ، ويدرك أن هذه الفرصة على جانب عظيم من الأهمية ويجب انتهازها لقيام تعاون عسكرى كبير بين المغول و الفرس قبل أن يصبح عبيد الله خان فى مركز يستطيع منه أن يرغم المغول على الخروج نهائيا من الحرب أو أن يصبح قادرا على أن يضرب هذا الطرف تارة وذاك تارة أخرى .

لهذا كله أسرع الشاه اسماعيل الى ارسال النجيدات القوية الى جيش بابر .
والتقى الحليفان فعلا عند « ترمذ » ، وبدأ أن كفة الحرب ستتحوّل بسرعة ضد عبيد الله
خان . ولقد كان الأمر كذلك في البداية . وأحرز الحليفان نصرا عندما استولت جيوشهما
على مدينة « قارشى » . ولكن كان الاستيلاء على هذه المدينة وما وقع لحاميتها على يد
« نجم ثانى » - القائد الفارسي من العوامل التى أدت الى تحول جوهرى فى الموقف .

كان قائد حامية (قارشى) من أبناء عمومة عبيد الله خان ، ولما وجد أن الدفاع عنها
أصبح مستحيلا ، استسلم وسلم المدينة فما كان من « نجم ثانى » الا أن قتل كافة رجال
الحامية ، وسكان المدينة حتى ذلك العالم الشاعر العظيم « ملا بنائى » . فكان لذلك صده
العميق لدى بابر .

حقيقة كان عبيد الله ورجاله بمثابة ألد أعداء بابر ، ولكن بابر كان مقاتلا كريما
وفيا لعهوده اذا قطعها ، مقدرًا للعدو الشجاع ، ومحتقرا للمنتصر المنتقم ، خاصة اذا كان
انتقامه بلا مبرر . ولقد كان انتقام « نجم ثانى » ، وانزاله سيف العقاب الصارم على
الجند وغير الجند دون تمييز بين محارب وعالم ، مثار ازعاج لنفسية بابر العظيمة .
خاصة وأن بابر أدرك أن وراء تلك القسوة تعصبا مذهبيا ضد السنة ، وكان بابر سنيا ،
ولكن كان يحترم الى حد كبير مذاهب الآخرين ، كان ينتقدها ، دون أن يهزأ منها ، كان
يُنَظَر أهلها ، دون أن يفرض عليهم رأيه أو معتقده . ومن ثم كانت اجراءات (نجم ثانى)
الانتقامية عاملا جوهريا فى أن يعيد بابر النظر فى أمر التحالف مع الشاه اسماعيل
الصفوى .

لقد كان التحالف بين بابر والشاه اسماعيل تحالفا محدود الأهداف ، لمجرد كسر
شوكة الأوزبك ، واستعادة بابر عاصمة التيموريين . وكانت الأهداف العاطفية الأسرية
هى التى تحت بابر على ارسال الجيوش ضد الأوزبك ، وكان بعد المسافة ، يرغمه على
أن يتعاون مع القوة الأخرى المناهضة للأوزبك . ولكن لم يكن هناك تقارب مذهبى بين
المغول والفرس ، فى وقت كانت فيه للفكرة المذهبية أهمية بالغة فى عقد التحالفات أو شن
الحروب . لقد كان بابر مسلما غير متعصب ، كانت له آفاقه الفكرية البعيدة عن نظرية
التعصب المذهبى ، بعكس الشاه اسماعيل الصفوى . ولذلك طالما كانت المصلحة المشتركة

— وهى العمل ضد الأوزبك — قائمة ظل هناك تحالف بين بابر والشاه اسماعيل ، على ألا تظهر خلال ذلك مشاكل مذهبية أو انسانية بين الرجلين .

فلما تجلت قسوة ، القائد الفارسى (نجم ثانى) ازاء أهل (قارشى) ، وأنها قسوة صادرة عن نفس متعصبة كل التعصب لمذهبها بدا لباير أن هذا التحالف مع المتعصبين يجب أن ينحل . خاصة و ن هذا لم يكن رأى بابر وحده ، بل كانت كل عشائر وسط آسيا تنظر فى وجل وخوف شديد ، الى توسع الشاه الصفوى ، اذ كانوا يقدررون ان هذا التوسع ليس مجرد ظهور فاتح جديد ، أو تولى ملك عليهم بقوة السلاح فقط ، وانما كانوا يدركون أن وراء ذلك سيفاً سيكون مسلطاً على رقابهم باستمرار اذا هم ظلوا متمسكين بمذهبهم السنى .

لقد كانت الظروف تلح على بابر أن يعيد النظر فى التحالف مع الشاه ، ولم يلبث أن قطع علاقاته معه وغادر المنطقة الى الهند ، ليتصارع الأوزبك والفرس عليها .

ويبدو أن « نجم ثانى » كان قائدا مغرورا ، ولم يدرك أن قدراته العسكرية — بعد رحيل المغول — أصبحت أوهن من أن تتفوق على الأوزبك فى أرضهم . فتابع مهاجمته للقلاع الأوزبكية ، وأحرز عدة انتصارات محلية . وكان الأوزبك يراقبونه عن كثب ، ويفسحون له الطريق ليتوغل داخل بلادهم حتى اذا ما نزل فى منطقة أحكم الأوزبك دراستها ، أطبقوا عليه ، وكان جنده قد أرهقهم طول المسير ، فدارت معركة كانت اقرب الى المذبحة منها الى الكر والفر وسقط (نجم ثانى) نفسه صريعا ، فى هذه المعركة التى عرفت باسم معركة غجديوان (١٥١٣) .

ولكن المنتصرين فى هذه المعركة لم يكونوا جيشا ضخما ، ولم يكن المهزومون يمثلون جيش فارس كلها ، ومن ثم كان لا بد من معارك أخرى طاحنة بين الطرفين .

أدى انتصار عبید الله خان فى غجديوان الى النتائج التالية :

١. — لقد بدا واضحا أن التعصب للموى الشيعى ضد السنة الأوزبك يجب أن يواجه بتعصب مذهبى مماثل . وكان أن تصاعدت حرب التدمير والابادة بين الطرفين .
٢. — كانت هزيمة القائد الفارسى (نجم ثانى) تعنى أن بلاد الأوزبك قد تحررت من الفرس ، وفعلا أصبحت مساحة البلاد التى يحكمها عبید الله خان بعد موقعة غجديوان تعادل تقريبا تلك التى كان يحكمها محمد شيبانى فى أوج قوته .

٣ — أما وقد استعاد الأوزبك بلادهم ، فإن الدوافع عديدة لكي يعملوا على اجتياح اقاليم فارس الشمالية والشرقية ، وخاصة خراسان . وفعلوا بدأ الضغط الأوزبكي الشديد على تلك الاقاليم في وقت كان فيه الشاه اسماعيل يواجه أدق فترة في تاريخ حكمه عندما تولى السلطان العثماني سليم الأول العرش في ١٥١٢ وشن حملته ضد الفرس وانتصر عليهم في موقعة جالديران (١٥١٤) .

وقبيل وقوع هذه المعركة كان هناك زحف كبير يقوم به الأوزبك في اقاليم فارس الشرقية . ودخلت جموع الأوزبك خراسان وأخذوا يخربون مدنها وقراها وينهبونها .

ولكن بعد هزيمة جالديران تغير الموقف . فقد أصيب الجيش الفارسي بضعف شديد ، اذ تحطمت قوته الرئيسية في تلك المعركة . وكان المعتقد ان عبيد الله خان سيجد الطريق الى النصر — بعد ذلك — سهلا . وفعلوا قام جيش الأوزبك بزحف كبير في اتجاه فارس . واستولى على ما هو شرقي هراة ، ثم ضرب الحصار على هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بالنسبة لفارس بصفة خاصة . ولقد ابرز الأوزبك الكثير من ضروب الشجاعة والجرأة التي اتصفوا بها ، كما كان الحماس المذهبي يحثهم على العمل على تقويض القوى الشيعية التي تتصدى لهم وضربها بشدة ، ونهب الأراضي التي تقع تحت ايديهم وتخريبها . ورغم كل هذه الجهود ، لم يحرز الأوزبك نصرا واضحا . ومع هذا ساروا في عملياتهم التدميرية وزادوا منها في أعقاب وفاة الشاه اسماعيل الصفوي في ١٥٢٤ م .

وأغلب الظن ان الأوزبك اعتقدوا ان وفاة الشاه اسماعيل ستهز كيان فارس هزا عنيفا ، وأن دولته ستتقوض من الداخل ، وأن الفوضى ستجتاحها فتكون فرصة للاجهاز عليها بواسطة جيش الأوزبك ، أو على الأقل يكون في استطاعة الأوزبك أن يضموا اليهم اقاليم شرق فارس التي يتطلع اليها زعماء الأوزبك باستمرار . ولهذا شن عبيد الله خان حملات ضارية استولى بها على « مرو » و « مشهد » و « استراباد » ، ولكن دون أن يحرزوا نصرا يفتح أمامهم الطرق المؤدية الى قلب فارس .

والسبب في هذا يرجع الى ان الأوزبك بالفوا جدا في النتائج المترتبة على وفاة الشاه اسماعيل الصفوي ، ولم يدركوا أن الرجل كان من بناء الأمم ، وأن الأسس التي

أقام عليها دولته كانت كفيلة بأن تستمر من بعده وأن تمد خليفته بمقومات النهوض من الكبوة ، والظهور مرة أخرى كقوة كبيرة في المنطقة . هذا فضلا عن أن مقومات فارس الطبيعية والبشرية والاقتصادية قادرة على إعادة تكوين نفسها كنولة بعد كل تدهور ، ولذلك سيعود الصراع عنيفا بين الفرس والأوزبك بعد وفاة الشاه اسماعيل ، وسيتولى قيادة فارس في الجولات القادمة ابنه طهماسب .

★ ★ ★

الشاه طهماسب

١٥٢٤ - ١٥٧٦

علاقة طهماسب بالأوزبك والعثمانيين :

تولى طهماسب العرش على قاعدة وراثة الابن لأبيه ، وكان لا يزال في العاشرة من عمره ، واستمر في حكم البلاد زهاء نصف قرن اذ توفي في (١٥٧٦) ، ومن ثم كانت مدة حكمه طويلة وهى ميزة هامة حينذاك .

ونظرا لصغر سنه ، كان طبيعيا أن يتولى زعماء (القزلباش) مهمة إدارة الدولة حتى يتولاها هو بنفسه . وفى مثل هذه الظروف يكون هناك أكثر من زعيم ، وأكثر من رأى ، وأكثر من واحد يريد أن ينفرد بالأمور . ومع هذا كله استطاع طهماسب بعد سنوات قليلة أن يشارك مشاركة فعلية فى توجيه أمور البلاد، وبدأت الأمور الداخلية تأخذ شكلا مستقرا يؤكد تحرك الدولة الفارسية ضد القوى المعادية لها سواء فى الشرق (الأوزبك) أو فى الغرب (شاه بغداد) ذو الفقار الكردى .

وكما تناولنا أوجه نشاط الشاه اسماعيل فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب سنتناول نشاط طهماسب كذلك ضد الأوزبك (الشرق) وضد العراق (الغرب) .

كانت حملة طهماسب على الأوزبك من أولى جهوده خارج إيران وكانت معظم الظروف غير مواتية لاحتراز نجاح كبير، ولكن عبيد الله خان، كان يدرك أن ارتقاء طهماسب العرش وهو لا يزال صغير السن سيدفعه الى أن يثبت ذاته وقدراته ، وإن الرجال المتففين حوله كل سيحاول أن يثبت له مدى إخلاصه للعرش عن طريق حملة كبيرة ناجحة . ومثل هذه الحملة تكون فى الغالب موجهة الى الأوزبك على اعتبار أنهم كانوا الخطر المباشر المهدد لفارس حينذاك .

هذا التوقع ، جعل عبيد الله خان . وزعماء الأوزبك يعملون على حشد جيوش كبيرة

لمواجهة الغزو الفارسي المنتظر . وكان عبيد الله خان يرى أن الهجوم في مثل هذه الأحوال خير له من البقاء في موقف الدفاع فقاد جيشه الى خراسان (١٥٢٨) .

كانت هذه هي الحملة الرابعة التي شنّها عبيد الله على خراسان ، لكنها اختلفت عن سابقتها من حيث ضخامة الحشود ، واشتراك الغالبية العظمى من عشائر الأوزبك فيها . وزحفت هذه الجيوش الى المنطقة الفاصلة بين أفغانستان وفارس (أي بين هراة وخراسان) لتلتقي بجيش الفرس في سهل هناك معروف باسم « جام وزور آباد » ، ووقعت المعركة ولكنها كانت موقعة من طراز جديد لم تشهده أقاليم وسط آسيا .

لقد كان تشكيل جيش الأوزبك هو نفسه الذي كان عليه زمن محمد الشيباني : جيش يعتمد على القوى العشائرية ، وعلى القيادة الماهرة ، والكثرة العددية ، والقدرة على الكر والفر ، والشجاعة والاقدام . أما الجيش الفارسي المستعد لمعركة (جام وزور آباد) فقد كان مختلفا عن ذلك الجيش الذي قاتل جيش محمد الشيباني وعن ذلك الجيش الذي انهزم في موقعة جالديران أمام السلطان سليم العثماني .

كانت هزيمة الجيش الفارسي في موقعة جالديران ترجع أساسا الى أن الجيش العثماني كان مزودا بالمدفعية وبحملة البنادق بحيث أنزل هؤلاء خسائر فادحة في جيش الشاه الفارسي . وأصبح ذلك درسا وعاء الفرس . وأدركوا أنهم ان أرادوا المحافظة على دولتهم ، ومتابعة سياستهم التوسعية فعليهم أن يرتفعوا الى مستوى العصر من الناحية العسكرية الى جانب التمسك بالعقيدة والمذهب . وكان الارتفاع الى مستوى العصر عسكريا يتطلب استخدام الأسلحة النارية . الجيش الفارسي . وفعلا زود القادة الفرس جيوشهم بهذه الأسلحة ، واستعملوها أول ما استعملوها ضد الأوزبك في معركة (جام وزور آباد) .

في معركة (جام وزور آباد) قاتلت جموع الأوزبك بكل حماس وانقضت فاتكة بالجيش الفارسي ، ولكن الأسلحة النارية في كل مرة كانت تفتك بشدة بالمهاجمين ، ثم انقض حملة البنادق ، والمدفعيون على مؤخرة الجيش الأوزبكي المهاجم ، فقضوا عليها لتشييع من بعد ذلك الفوضى في جيش الأوزبك، وهو تكتيك اقتبسه الفرس من العثمانيين وأحرزوا به نصرا حاسما .

كان نصرا كبيرا للشاه طهماسب في (جام وزور آباد) ولكنه لم يكن قادرا على أن يضرب الأوزبك في عقر دارهم ، وذلك لأن تنفيذ مثل هذه الخطة يتطلب نفقات ضخمة وجهودا مضيئة لا يكسب من ورائها الشاه الصفوى الا أرضا معادية مرهقة لقوات الاحتلال بينما كانت آماله هو ، وآمال قواده متجهة بقوة الى استرداد العراق من يد ذى الفقار الكردي الذى أعلن خضوعه للسلطان العثمانى فبعث الشاه بجيش كبير الى العراق استولى على بغداد وتخلص من ذى الفقار في ١٥٣٠ م . ولكن لم يلبث أن رد السلطان العثمانى بهجوم كبير شامل أدى الى طرد الفرس من العراق ١٥٣٤ م (١) ، وتوقف القتال بين الطرفين ، ليتفرغ الشاه طهماسب مرة اخرى من الالتفاف الى الخطر الأوزبكي .

في نفس العام الذى استرد فيه طهماسب بغداد ١٥٣٠ شن الأوزبك غزوة خامسة على أقاليم شرق فارس مبتدئين بهراة ومشهد واستراباد ، وأخذت قواتهم تجوس في أرجاء خراسان زهاء عام ونصف ناهية مخربة . ولم يستطع طهماسب أن يلتفت الى أقاليمه الشرقية الا بعد أن توقف القتال بين الفرس والعثمانيين ١٥٣٤/١٥٣٥ .

ولا يكاد طهماسب يبعث بجيشه الى الأقاليم الشرقية حتى سارعت القوات الأوزبكية الى التراجع عنها حاملة ما تستطيع حمله من المنهوبات والأسرى .

ان تلك الصورة من الصراع بين الفرس والأوزبك تكشف عن النواحي الهامة التالية :

١ - أن الأوزبك من بعد محمد سيبانى كانوا قادرين فقط على الحفاظ على دولتهم دون أن يتحولوا من المحافظة على الدولة الى توسيعها ، فأصبح موقفهم دفاعيا أكثر منه هجوميا . وتلك الهجمات التى كانوا يشنونها على الأقاليم الشرقية الفارسية كانت أشبه بالفارات الكبيرة التى لا تهدف الى استمرار السيطرة بقدر ما تهدف الى النهب والسلب .

(١) انظر الصراع بين الفرس والعثمانيين الذى أدى الى استيلاء السلطان سليمان القانونى على العراق في ١٥٣٤ في الباب الأول .

٢ — ان قدرات الدولة الفارسية انتقلت من مرحلة القوقعة بعد جالديران الى مرحلة التوسع مستخدمة الأسلحة النارية ، وأصبحت قادرة — الى حد ما — على أن تقاتل في الجبهتين الشرقية والغربية . ومع أن طهمسب خسر العراق نهائيا ، الا أن هذا كان يعنى أن جيشه في الجبهة الغربية أصبح قادرا على دعم الجبهة الشرقية وقادرا على أن يسهم في منع عبث القوات الأوزبكية بتلك الأقاليم الشرقية بل وعلى نقل القتال الى قلب اراضى الأوزبك أنفسهم .

٣ — بعد أن عقد طهمسب الصلح مع العثمانيين ، أصبحت الجبهة الفارسية الغربية آمنة ولم تعد فارس مهددة بخطر الحرب في جبهتين واسعتين في آن واحد ، بل لقد أصبح الأوربك مهددين بأن يجدوا أنفسهم فجأة معرضين لغزوات من الشرق ومن الغرب في آن واحد . فقد أدت تدهور دولة الشيبانيين الى أن تطمع فيها القوى المجاورة لها من الشرق ولكن استطاعت قوى الأوزبك أن تثبت وسط هذه العواصف لفترة ليست بالقصيرة حتى واجهت الشاه عباس الأول .

ولا شك أن هذا الهدوء في الجبهة الشرقية وطول الحروب بين الفرس والعثمانيين قد حث طهمسب على عقد صلح مع السلطان العثماني سليمان القانوني . وقد كانت الظروف مهيأة لعقد صلح آماسيا Amassia في ١٥٥٤ وهو يكشف عن بعض نيات وآمال الطرفين . فتنص اتفاقية الصلح على ما يلي :

١ — تترك ولاية قارص وقلعتها للدولة العثمانية .

٢ — تحدد حدود ولاية شهرزور (١) منعا لوقوع الحوادث المعكرة لصفو السلام بين الدولتين .

٣ — تأمين سلامة الحجاج الفرس الزاهبين الى زيارة العتبات الشيعية المقدسة في العراق والى الأراضى الاسلامية المقدسة في الحجاز .

هذه الاتفاقية على بساطتها ، وقلة موادها تكشف لنا عن الأسباب التي أدت الى نزاعات متطاولة بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين المتجاورتين :

(١) كان العراق مقسما الى عدة ولايات هي (شهرزور والموصل وبغداد والبصرة) .

١ - كانت الدولة العثمانية تسعى بجهد لأن تطمئن على حدودها شرق الأناضول ، وكانت قارص من القلاع والمواقع الحصينة التي تعطى العثمانيين فرصا أوسع لصد الغزوات لا من جانب الفرس ، كما هو الحال في القرن السادس عشر والسابع عشر ، بل من جانب الروس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

٢ - ان مشكلات الحدود العثمانية الفارسية كانت مثار أزمات متطاولة وكانت أعقد هذه المشكلات وأوضحها في أول الأمر هي تحديد الحدود الشمالية بين الطرفين في المناطق الجبلية التي يسكنها الأكراد .

٣ - ويعتبر كذلك تأمين سلامة الحجاج الفرس الشيعة الى العتبات المقدسة الشيعية في العراق والى الأراضى الحجازية المقدسة باستمرار واحدا من أسباب المنازعات بين الطرفين لانهام الفرس السلطات العثمانية الحاكمة وكذلك السلطات المحلية في العراق ، والعشائر العراقية بابتزاز أموال هؤلاء الحجاج الفرس ومعاملتهم معاملة سيئة . ومع أن العثمانيين كانوا يعملون على حماية الحجاج الفرس ، لما في ذلك من كسب مالى ودخل للخزينة العثمانية الا أن أوضاع العراق العشائرية كانت تحول دون استمرار هذه الحماية فعالة ، ففى بعض الظروف تنتقم بعض العشائر الثائرة من الحكومة عن طريق مهاجمة قوافل الحجاج على قدم المساواة مع مهاجمتهم لقوافل التجار . وكان هذا يحدث سواء لقوافل الحج الفارسي أو لقوافل الحج الشامي .

سلرت العلاقات بين طهمسب وسليمان القانونى على نوع من الهدوء . وكان الطرفان يريدان هذا الهدوء فعلا ليتفرغ كل منهما لمواجهة المشاكل الكبرى المسئول عنها . وبدأت هذه العلاقات طيبة عندما فر بايزيد بن السلطان سليمان الى طهمسب ومعه عدة كتائب عسكرية (١٥٥٩) . ومع أن طهمسب استقبله بحفاوة الا انه سرعان ما أدرك أن الرجل لن يفيد كثيرا وأن أباه سليمان القانونى قوى الشسكيمة . ولذلك نجحت المفاوضات التى دارت بين الطرفين العثماني والفارسي لتسليم بايزيد الى أبيه في مقابل مبلغ كبير من الذهب وتمت الصفقة ، ودخل الذهب خزينة الشاه والقى بايزيد في قبره بعد أن أمر والده سليمان بقتله .

حادثة أخرى بينت أن الشاه طهماسب كان معنيا بالابقاء على همد العلاقات بينه وبين السلطان سليمان القانوني . فقبيل وفاة طهماسب جاءه سفير من البندقية هو فنسنتيود السندري Vincentiod Alessandri يحذر من أن العثمانيين يستعدون للاستيلاء على قبرص . وكان هذا في الواقع ضربة قاسية للبندقية جعلها تسعى الى التحالف مع أعداء السلطان بأي شكل ولما كانت أوروبا مشغولة بأمورها عن استتصارات البندقية بها، اتجهت البندقية الى حث الفرس — أعداء العثمانيين الألداء — على التحالف معها . ولكن كانت الانتصارات العثمانية الكبيرة في أوروبا الشرقية وفي فارس تحول دون أن يصل البنادقة الى أي نتيجة مجدية في هذا الصدد . فلم يتحرك طهماسب رغم تشديد البنادقة على أن قبرص ان سقطت ، فإن الهدف الثاني للعثمانيين سيكون فارس نفسها .

كان الجزء الأخير من حياة طهماسب على نوع من الهدوء السياسي وكانت في نفس الوقت عوامل الفوضى والاضطراب تتجمع . وطهماسب نفسه مسئول عن كثير من الاضطرابات التي وقعت من بعد وفاته في ١٥٧٦ م / ٩٨٤ هـ .

ففي عام ١٥٨١ م / ٩٥٧ هـ وقعت مجاعة كبيرة مروعة في البلاد صاحبها طاعون كان يبيد بعض القوى ويخرب القوى البشرية ، ورغم هذا كله ظل الشاه منهمكا في اشغاله الخاصة وبأمواله دون أن يلتفت الى شعبه في هذه المحنة .

وكانت معاملة الشاه لأولاده على نفس الأسلوب الذي كان سائدا لدى البلاط الإسلامي في الاستانة . كانت عداوة مريرة بين الشاه وأولاده . ولعل ذلك كان أقوى الأسباب في أن يلقي الشاه طهماسب مصرعه بالسهم في ١٥٧٦ .

تولى العرش بعد طهماسب ابنه الذي عرف في التاريخ باسم اسماعيل الثاني . وكان مكروها من أبيه ، فوضعه في الحبس ، وظل به زهاء ربع قرن . وها هو بعد طول شقاء يصبح شاهاً ، ويصبح قادراً على أن ينفس عما عاناه من آلام السجن المريرة خلال تلك الفترة الطويلة . ان مثل هذا الشاه ينتظر منه أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب ، حتى على أقرب المقربين اليه من أفراد أسرته . فانهال بسيفه على أفراد أسرته ، وصرع العديد من أعيان دولته ، ومثل هذه الحماقات لا تتوقف غالباً الا اذا تحركت القوى الأخرى الخائفة من الشاه أو الطامعة في العرش .

وفعلاً كانت مدة حكمه القصيرة عبارة عن سلسلة من المآسي انتهت بمصرعه هو في ١٥٧٨ .

فارس في أيام الشاه عباس الكبير

١٥٨٧ - ١٦٢٩

لقد بدا مستقبل البلاد الفارسية كئيبا سواء خلال حكم الشاه اسماعيل الثاني ، أو في أعقاب مصرعه . فقد وقعت حرب أهلية متشعبة الأطراف ، بين أولاد طهماسب وهم : (حيدر ميرزا ، اسماعيل ميرزا ، ومحمد ميرزا وابنه عباس) ، في الوقت الذي انتهز فيه العثمانيون هذه الفرصة وبعثوا بجيشهم الى فارس واستولى على (تبريز) وتفليس وداغستان (١٥٩٠ م / ٩٩٨ هـ) . حقيقة بذل القواد الفرس جهودا كبيرة لاسترداد تبريز من العثمانيين ، وإن هذه الجهود لم تحقق الهدف ، ولكنها أثبتت أن العثمانيين - وقد منوا خلال ذلك بهزائم متتالية وخسائر فادحة - إنما يحتفظون (بتبريز) لأن فارس تعاني من الحرب الأهلية ، وأنه متى توقفت الحرب الأهلية وظهر رجل قوى يمسك أمور البلاد بأسرها بين يديه ، فإن ارغام العثمانيين على الانسحاب من تبريز يصبح مسألة وقت لا أكثر ولا أقل .

استطاع عباس أن يتولى العرش وسيعرف في التاريخ باسم (الشاه عباس الكبير) وقد حكم من (١٥٨٧ - ١٦٢٩ م) (٩٨٥ - ١٠٣٨ هـ) ، أي حوالى أربعين عاما، وهو عمر طويل في تاريخ الحكام وكان يافعا عندما اعتلى العرش ، فكان تحت توجيه كبار الشخصيات الراغبة في أن يكون لها اليد الطولى في حكم البلاد . ولكن هذه الزعامات المتصارعة كانت تعمل باسم الحفاظ على عرش الشاه عباس . وكان أشد المتنافسين ضراوة (على قولى خان) زعيم (الشاملو) ، (ومرشد قولى خان) زعيم الاوستجلو . وادى هذا الصراع بين هذين الزعيمين الى أن يضعف كل منهما الآخر ويتمكن الشاه عباس من أن يضع الأمور تدريجيا في يده هو وحده .

وفي مطلع أيام حكمه كان العثمانيون قد هزموا الفرس ، وتوسعوا على حسابهم في هورستان وخوزستان بينما كان الأوزبك يقومون بغزوات جديدة للأقاليم الشرقية

الفارسية • ووجد الشاه انه بين المطرقة والسندان • وأصبح مهددا بحرب في ميدانين متباعدين في آن واحد ، وهذا يعتبر خطر داهم عليه ولذلك آثر أن يعقد صلحا مع الأتراك العثمانيين عرف باسم (معاهدة فرهاد باشا) في ١٥٩٠ م • وفي هذه المعاهدة تنازل الشاه عن (تبريز) وعن سيروان بمينائها على بحر قزوين وعن جورجيا ولورستان • ونصت المعاهدة على عدم قيام الإيرانيين بالاستفزازات العقائدية ، وعلى أن يبقى حيدر ميرزا (ابن أخى الشاه) رهينة في الاستانة حتى لا ينكث الشاه بتعهداته • والتفت الشاه عباس من بعد الى خطر الأوزبك ، ومن بعدهم التفت الى السيطرة على العراق منتهزا تمردا وقع في الحامية العثمانية في بغداد ، كما التفت الى السيطرة على هرمز منتهزا فرصة ظهور منافس خطر للبرتغاليين في الخليج العربى ، ونعنى بذلك الانجليز • وسنحاول أن نعالج هذه الموضوعات كل على حدة •

الشاه عباس والأوزبك :

جاءت وفاة طهماسب فرصة كبيرة أمام الأوزبك ، بسبب التنافس الذى وقع في البلاط الفارسى من بعده ، وهو تنافس لم يهدأ الا بارتقاء الشاه عباس الكبير عرش البلاد فاستولى عبد الله خان — زعيم الأوزبك — على (هراة) ، وأنزل الدمار بخراسان ، ثم استولى عبد المنعم بن عبد الله على (مشهد) وبها ضريح الامام الرضا فأعمل جند الأوزبك سيوفهم في المدينة ونهبوها وأصبح عبد الله خان مسيطرا على بلاد الأوزبك بالاضافة الى هراة ومشهد ومرو فضلا عن خراسان التى تعتبر شوكة غائرة في جسد الدولة الصفوية • وكان هذا ذروة مجد عبد الله خان وبدأت الأمور تسير ضده من مختلف الجوانب :

- (أ) فقد ثار عليه ابنه عبد المنعم ووقعت البلاد في حرب أهلية •
- (ب) اندحرت قواته باستمرار أمام غزو عشائرى من الشمال قام به (القالموق) •
- (ج) انضمام أمراء خوارزم (الأوزبك) الى الشاه عباس ضد عبد الله خان • حيث أن عبد الله خان كان يضغط بقوة على بنى عمومته في خوارزم فتحالف هؤلاء مع الد أعداء عبد الله ، وكان طبيعيا أن يرحب الشاه عباس بهذا التحالف الذى يهدد الدولة الأوزبكية تهديدا مباشرا • وبدأ عبد الله خان يفقد الكثير من أرضه أمام الشاه عباس حتى مات عبد الله في ١٠٠٦ هـ / فبراير ١٥٩٧ في الفترة التى كان فيها نجم الشاه عباس يصعد •

بل لقد وقعت فتن كبيرة بعد موت عبد الله خان ، فان ابنه عبد المنعم - الفليظ القلب - لم يلبث أن قتله بعض رجاله وتصارع الطامعون من بعده على العرش . فلا غرو أن هزم الشاه عباس الأوزبك هزيمة دموية . وأصبحت الدولة الأوزبكية معرضة من جراء تلك التطورات الى الانهيار . وأغلب الظن أن بقاء دولة الأوزبك لسنوات أخرى حول بخارى يرجع الى عدد من الملوك عنوا بالسلم أكثر من الحرب ، وإن كان هذا لا يعنى تعرض البلاد من وقت لآخر لحروب أهلية . ولكنها على أى حال لم يعد لها ذلك المجد الكبير الذى كان على أيام محمد شيبانى وعبيد الله .

إخراج العثمانيين من الولايات الفارسية :

امضى الشاه عباس زهاء خمسة عشر سنة حتى أقدم على الحرب ضد الدولة العثمانية . وقبل أن يشن هذه الحرب أبدى جهدا كبيرا فى إعادة تشكيل جيشه وتزويده بمقومات جيوش العصر ، ألا وهى الأسلحة النارية والمدفعية ، وأصبح الجيش الفارسى على مستوى الجيش العثمانى من حيث التسليح ، ولكن اختلف الجيشان اختلافا لصالح الجيش الفارسى . فقد كانت القدرة على نقد الذات واصلاح العيوب لدى الفرس أيام الشاه عباس الكبير واضحة بعكس حالة الاستعلاء المزمنة التى أصابت الجيش العثمانى وقادته وجعلتهم يتجنبون استقدام أو استخدام الخبراء الأجانب لتطوير جيوشهم .

فقد انتهز الشاه عباس وجود أحد الضباط الانجليز وهو انتونى شيرلى Antony Sherley وأفاد من خبرته فى تجديد الجيش الفارسى بل أسند اليه واجبات قيادية فى المعارك .

بدأ الشاه عباس بمهاجمة معاقل الأتراك العثمانيين فى الولايات الفارسية فاسترد منهم (تبريز) فى ٢١ أكتوبر ١٦٠٣ ثم اريفان وشيروان وقارص . وأثبت التجديد - الذى أجراه الشاه عباس - فى هذه المعارك فعاليتها الكبرى . ثم عندما سنحت له الفرصة لكى يتوسع على حساب العثمانيين لم يتوان عن انتهاز الفرصة .

محاولات الشاه عباس الاستحواذ على العراق :

كان العراق تحت الحكم العثمانى ، قد تأثر بسرعة بمظاهر ضعف الدولة العثمانية خاصة من حيث ظهور قيادات عسكرية عمدت الى الاستناد على قوتها من أجل الانفراد

بالحكم في اطار التبعية الاسمية للسلطان العثماني ، ظهر هذا في العراق عندما استطاع آفراسياب وهو كاتب من كتاب الجند في البصرة في ١٥٩٦. أن يشتري حكم البصرة من واليها العثماني ، وأن يؤسس فيها أسرة حاكمة امتدت الى ١٦٦٢ ، وعندما استطاع بلوك باشي (اي رئيس كتيبة) أن ينفرد بحكم بغداد في ١٦٠٣ / ١٦٠٤ ، فكان هذا كله نذير تطورات خطيرة في البلاد العراقية . اذ أصبح في الامكان أن يقع تمرد يعلن انفصاله عن الدولة العثمانية . وحدث هذا فعلا على يد بكر صوباشي - أحد ضباط حامية الإنكشارية في بغداد ١٦٢١ م / ١٠٣١ هـ - عندما عهد بأمر اخضاعه الى جيش عثماني كبير . وأدرك بكر صوباشي انه أضعف من أن يصدّه فبعث الى الشاه عباس معلنا خضوعه له . فكانت فرصة ذهبية انتهزها الشاه وبعث بجيش كبير الى العراق .

وبسرعة أدرك بكر صوباشي انه لن يحتفظ بمكانته تحت الحكم الفارسي ، بينما يستطيع أن يحتفظ بها لو وصل الى تفاهم مع القائد العثماني . وفعلا وافق القائد العثماني على أن يحتفظ بكر صوباشي بالحكم على أن يعلن الخضوع التام للسلطان العثماني ، وكان بكر صوباشي مستعدا تماما لذلك وتم الاتفاق بين الطرفين ، ولكن بقي الخطر الفارسي على ما هو عليه بل لم يعترف الشاه عباس بتلك التدابير وأصر على أن العراق قد أصبح تابعا له سواء رضى بكر والعثمانيون ، أم لم يرضوا . وشن الشاه حملات قوية ضد بغداد ولكنها لم تحرز نصرا ، فلجأ الى استخدام الخيانة ، فدبر مؤامرة فاجحة في داخل بغداد ضد بكر صوباشي قضت عليه وفتحت أبواب المدينة للجيش الفارسي .

بعد أن استولى الشاه عباس الكبير على بغداد أصبح عليه أن يستكمل فتح العراق بالاستيلاء على البصرة التي كانت تحت حكم آل آفراسياب . وكان الحكم الافراسيابي عميق الارتباط بالأهالي ، معتمدا على نفسه في الدفاع عن البصرة ، وكان الشاه مصرا على أن يفتح البصرة . لأهداف اقتصادية جوهرية :

١ - كان البرتغاليون مسيطرين على تجارة البصرة والقطيف والاحساء ، حتى بعد ن تعاون الشاه مع الانجليز في اخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز ١٦٢٢ (١) . ومن

(١) سندرس هذا الموضوع بعد قليل .

ثم لم يكن طردهم من هرمز كافيا لأن يركز التجارة الخارجية في أيدي إيران ،
وحيث أن الفرس لا يملكون أسطولا في مياه الخليج فقد كان من المستحيل عليهم أن
يوقفوا نشاط البرتغاليين التجاري الا عن طريق حصار برى بالاستيلاء على الموانئ
التي كانوا يتعاملون معها ، وبوجه خاص البصرة .

٢ - ان منفذ العراق (وقد أصبح معظمه في يد الشاه) هو البصرة ، ومن ثم لا بد من
استكمال الفتح بالسيطرة عليها ، والا ظلت شوكة في جنبه خاصة وأن أعداءه الألداء
البرتغاليين مستعدون للتعاون مع الحكم الافراسيابي الى أبعد مدى . لقد كان
اخراج البرتغاليين من هرمز على يد الحلف الفارسي الانجليزى ضربة قاضية
للوجود البرتغالي في المنطقة وأصبح على البرتغاليين أن يبذلوا أقصى ما يستطيعونه
من أجل البقية الباقية من نفوذهم في الخليج العربي .

بعث الشاه الى حاكم البصرة آفراسياب « خلعا فاخرة والقبابا معظمة يستميله
اليه » وطلب منه أن يصك العملة باسم الشاه وأن يعقد أهل البصرة عمائمهم على الطريقة
الإيرانية . وفي مقابل هذا وعد آفراسياب بالابقاء على حكم البصرة في أسرته وراثيا .
وأن يعفيه من الجزية ، وأن يترك أمر تصريف أمور المدينة له بحرية . ولكن على حد قول
أحد معاصري تلك الأحداث :

« لم يجد رسول الشاه الا الطرد قبل اللقاء » .

كان آفراسياب يدرك حقيقة واحدة جوهرية هي أن الفرس لا يمكن أن يتركوه
حاکما اذا ما استتبت الأمور لهم ، وانه سيقاثلهم ان أجلا أو عاجلا ، خاصة وأن التعصب
المنهبي كان واضحا في أعمال الشاه عباس وهو أمر يرفضه آفراسياب بعنف . وفوق
هذا وذاك كان الأسطول البرتغالي قد لبى نداء آفراسياب وقدم الى البصرة وأصبحت
قوى الفريقين متوازية ، فرغم التفوق العددي للفرس كان الدفاع عن البصرة والاستيلاء
عليها يتطلب استخدام قوة بحرية مناسبة (١٦٢٥) .

واستعد الطرفان للمعركة ، ولكن الذي حدث هو عدة مناوشات دون أن يفزوا
الجيش الفارسي الرئيسي البصرة ، بل - لأمر غير واضح حتى الآن - غادر الجيش
الفارسي معسكره ، تاركا الكثير من أحماله عائدا من حيث أتى (٢٣/٣/١٦٢٥) ، ولم

تتبدل الأوضاع في العراق تبديلاً جوهرياً إلا بارتقاء السلطان مراد الرابع عرش الدولة العثمانية وعزمه الأكيد على طرد الفرس من العراق ، ولكن هذا الصدام المروع بين العملاقين الكبيرين : الشاه عباس الكبير ، والسلطان مراد الرابع آخر السلاطين الفاتحين العثمانيين ، لم يقع إذ توفي الشاه عباس الكبير في (١٦٢٩) .

شن مراد الرابع حملته الشاملة الكبرى على الفرس في العراق في ١٦٣٨ وتمكن من طردهم منها واضطر الفرس إلى عقد معاهدة ١٦٣٩ التي تعتبر من الأسس التي قامت عليها معاهدات الحدود بين إيران والعراق فيما بعد .

وقد نصت معاهدة ١٦٣٩ على تحديد الحدود بين فارس والعراق على اعتبار أن بكرة وجسان ومندي ودرتنك والسهول الواقعة بين تلك المدن وعشائر الجاف وعشائر قطور تابعة للدولة العثمانية وأن الممر المؤدى إلى شهرزور هو الحد الفاصل بين الدولتين إلا أن صياغة هذه المعاهدة ما كان ليحسم الخلافات بين الدولتين حول الحدود فضلاً عن إهمال الإشارة إلى طبيعة الحدود بين الدولتين في المناطق الجنوبية وبوجه خاص منطقة (عربستان) .

ومع ما لمعاهدة ١٦٣٩ من أهمية بالغة في تطور العلاقات بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين فليس لدينا نسخة موثوق بها كل الثقة بالنسخة التركية احترقت خلال أحد الحرائق الكبيرة التي تعرض لها الباب العالي في الاستانة . كذلك فقدت نسختها الفارسية خلال واحدة من الاضطرابات العديدة التي وقعت في طهران . وانما عثر على بعض نصوصها في مؤلفات مؤرخين عثمانيين . وأخيراً عثر على نسخة منها في أرشيف فيينا Vienna . هذه صورة من صور المتاعب التي تواجه الكتابة التاريخية لإيران .

ومن ناحية أخرى فإن صياغة هذه المعاهدة كانت كفيلة بأن تفجر المشاكل عندما تنهيا الفرص لذلك وهذا يرجع إلى أن المعاهدة كانت تنص على «مناطق حدود» إذ لم تكن عقلية السياسة الفرس أو العثمانيين قد ارتفعت بعد إلى مستوى كتابة معاهدة على أساس « الحدود الدقيقة » لا مناطق الحدود . على أنه من الواضح تماماً في هذه المعاهدة أن منطقة كردستان كانت ضمن العراق .

علاقات الشاه عباس بالانجليز :

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصول الأسطول البرتغالي الى المياه الإسلامية الجنوبية في وقت كانت قد تصاعدت فيه الأزمة بين الفرس والعثمانيين ، فلا غرو أن مد الشاه اسماعيل يد التعاون مع هؤلاء القادمين الجدد الصليبيين . ولكن كانت المكاسب للجانب البرتغالي دون الجانب الفارسي . ولم يكن هناك من قوة قادرة على كسر شوكة البرتغاليين في المياه الإسلامية الجنوبية الا اذا كانت قوة بحرية ، وفارس لم تكن قوة بحرية ، وبندلت الدولة العثمانية جهودا كبيرة لكسر شوكة البرتغاليين في المياه الإسلامية الجنوبية دون جدوى، فاكثفت الدولة العثمانية بالمحافظة على البلاد الإسلامية من الخطر البرتغالي ، تاركة أمور البحر لهم .

ولكن الدول البحرية الأوروبية الناشئة أبت أن تترك للبرتغاليين أمر احتكار المواصلات العالمية حول رأس الرجاء الصالح والتجارة العالمية مع الشرق الأقصى . وحيث أن الأسطول البرتغالي كان متفوقا على غيره من أساطيل الدول الأوروبية لجأت بعض هذه الدول الى استخدام الطرق البرية للوصول الى فارس ، ومن ذلك محاولة الانجليزى انتونى جنكنسون Anthony Jenkenson .

كان انتونى جنكنسون هو المسئول عن السفن التابعة لشركة موسكو Moscow Co. ومن روسيا قام جنكنسون برحلات كشفية في اتجاه فارس نحو بخارى وخيوه . ووصل الى هناك في الوقت الذى كان فيه عبيد الله خان يستعد لغزو كبيرة ضد اذربيجان (١٥٥٩) . ثم عاود جنكنسون الكرة في محاولة لفتح طريق للتجارة بين روسيا وفارس ، وبالتالي بين انجلترا وفارس . فعلا وصل جنكنسون الى شمال فارس والتقى بالشاه طهماسب في قزوین في الوقت الذى كان يستعد فيه الأخير لتسليم بايزيد الى أبيه سليمان القانونى .

دارت المفاوضات بين طهماسب وجنكنسون ، وكانت الآمال قوية لدى تجار شركة موسكو في أن يتمكنوا بالاتفاق مع شاه فارس على أن يوصلوا تجارتهم الى الهند عن هذا الطريق البرى الطويل . وتلقى جنكنسون من الشاه فرمانا يمنح الانجليز حق المتاجرة في البلاد الفارسية وأعفاهم من الضرائب ولكن لم يوضع هذا فرمان موضع التنفيذ من

الجانب الفارسي أو الانجليزي لأسباب غير واضحة . وهناك من يقول أن السبب في هذا يرجع الى التعصب الديني من جانب الشاه طهمسب وهذا ما يذهب اليه مارك سايكس^(١). وان كانت الشواهد السابقة واللاحقة تؤكد أن شاهات فارس ، بل وطهمسب منهم لم يكونوا يتورعون عن التحالف مع القوى الأوروبية (الصليبية) ضد الدولة العثمانية .

ولكن هناك عوامل أخرى ساعدت على اقناع جنكنسون نفسه بأن الوقت لم يحن بعد لفتح التجارة — وان ثبت امكانية ذلك — مع فارس عبر روسيا ، وأهم هذه العوامل :

١ — الاضطرابات العديدة التي كانت تتعرض لها فارس حينذاك .

٢ — انتشار القراصنة في بحر قزوين .

٣ — ان طبيعة محاولة جنكنسون كان يغلب عليها شكل المغامرة عن كونها محاولة تجارية محددة الأهداف .

وقعت بعد ذلك الاتصال بين جنكنسون وطهمسب أحداث وتطورات عالمية جعلت اتصالات الانجليز بفارس تنتقل من المجال الفردي الى المجال الدولي ، وعلى رأس هذه الأحداث والتطورات :

١ — المعاهدة العثمانية الانجليزية ١٥٨٠ : لقد كانت محاولات الانجليز لفتح التجارة مع فارس غير قاصرة على هذه الدولة الإسلامية بل كان نشاط جنكنسون في بلاط السلطان العثماني لا يقل قوة عن نشاطه لدى الشاه ، وحصل كذلك من السلطان العثماني على فرمان بحرية التجارة دون أن ينفذ تنفيذا كاملا ، ولكن تزايد النشاط التجاري الانجليزي مع الدولة العثمانية الى الدرجة التي أصبح من الضروري وضع اتفاقية تنظم العلاقات التجارية بين الدولتين العثمانية والانجليزية وتم هذا في معاهدة ١٥٨٠ .

٢ — وفي العام التالي لعقد تلك المعاهدة البريطانية العثمانية تشكلت شركة الليفانت^(٢) كنتيجة لتلك المعاهدة . وأخذت العلاقات الاقتصادية الانجليزية العثمانية تنمو بسرعة .

M. Sykes, A History of Persia, Vol. 2.
The Leuant Co.

(١)

(٢)

٣ - بعد ذلك بسبع سنوات فقط هزم الأسطول البريطاني الأسطول الأسباني (الارمادا) في ١٥٨٨ وفتحت البحار على مصراعيها أمام الأسطول البريطاني سواء البحر المتوسط أو الالتفاف حول أفريقيا بطريق رأس الرجاء الصالح الى المياه الإسلامية الجنوبية والى الشرق الأقصى، وتآلفت في أعقاب ذلك بعدة سنوات (اى ١٦٠٠) شركة الهند الشرقية البريطانية East India Co. التى سيكون لها دور ضخم فى بناء أكبر امبراطورية استعمارية انجليزية فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى .

بعد هزيمة الارمادا وبعد ان أصبحت البحار مفتوحة أمام الانجليز ، تعددت رحلات المغامرين والتجار وأصحاب الأعمال الى مختلف أجزاء بلاد الشرق بحثا عن الأعمال المجزية المرتب أو التجارات المربحة . ومن بين هؤلاء المغامرين المحترفين اثنان من الأخوة هما انتونى وروبرت شيرلى Anthony & Robert Sherley اللذين رحلا الى بلاط الشاه عباس الكبير ، والتقىا به فى الوقت الذى كان فيه يستعد لغزو الأوزبك .

كان الشاه عباس الكبير على ذكاء يمكنه من أن يدرك أن (الفرنجة) أصبحوا متفوقين فى ميدان الحرب ، وخاصة فى ميدان الأساطيل البحرية المدججة بالمدافع ، والجيوش التى تعتمد على سلاح المدفعية . وكان أمام عينى الشاه عباس الكبير سلسلة من الأدلة الواضحة التى ثبت فيها أن الجيش الذى يعتمد على الأسلحة النارية هو الذى يكسب المعركة حتى ولو كان قليل العدد : كانت هناك جالديران ، وهزيمة الأوزبك بفعل المدفعية ، وتفوق البرتغال بفعل أسطولهم الملىء بالمدافع ، وتفوق أكبر امبراطور المغول فى الهند - بفضل مدافعه (١) .

لقد كان الشاه عباس الكبير فى حاجة الى خبراء ليتولوا إعادة بناء سلاح المدفعية فى جيشه ويدربون رماة البنادق فيه . وها قد أتى اثنان على هذه الصفات العسكرية . فأسند اليهما أمر إعادة تنظيم سلاح الخيالة والمدفعية . وكان من نتيجة ذلك أن أحرز الجيش الفارسى انتصارات كان مشكوكا فيها بدون هذا التجديد .

أدى نجاح انتونى شيرلى فى المهمة العسكرية ، الى أن يسند اليه الشاه عباس

مهمة سياسية خطيرة ، ألا وهى الاتصال بالملوك الأوروبيين • وحثم على عقد تحالف مع شاه فارس ضد الدولة العثمانية • وغادر انتونى شيرلى فارس فى ١٦٠٩ مزودا بفرمانات تعطى للأوروبيين امتيازات تجارية واسعة • وزار انتونى شيرلى بولندا وألمانيا وروما ووصل الى انجلترا فى ١٦١١ ولكن هناك فى انجلترا واجه معارضة شديدة من جانب شركة الليفانت البريطانية Levant Co. اذ كانت تعتقد أن جهوده السياسية والتجارية تهدف الى فتح باب التجارة مباشرة بين انجلترا وفارس بشكل يضر بتجارة الشركة فى منطقة حوض البحر المتوسط • ولقد كانت خطط (شيرلى) التجارية تهدد فعلا مصالح الشركة سالفة الذكر • وعاد (شيرلى) الى فارس دون أن يحقق شيئا جديرا (١٦٢٣) •

وكانت هناك اتصالات انجليزية من جهة أخرى بالشاه عباس الاول • عن طريق الجناح الانجليزى الذى وصل الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واعنى بذلك شركة الهند الشرقية • فقد اثبتت الشحنات التجارية الأولى التى قامت بها هذه الشركة أن المنطقة تستطيع أن تستوعب الكثير من الانتاج البريطانى ، ولكن كانت تقديراتهم الأولية لكمية البضائع الانجليزية اللازمة لأسواق الهند مبالغيا فيها حتى لقد تراكت فى (وكالاتهم) فى موانئ الهند دون تصريف الأمر الذى جعل رجال الشركة يبحثون عن موانئ جديدة لتصريف منتجاتهم ، وتطلعوا الى موانئ الخليج العربى ، على اعتبار أن فارس والعراق يمكنهما استيعاب هذا الفائض من اكساد التجارة الانجليزية •

وكان من أسباب قلة اقبال أهالى الهند على البضائع الانجليزية — رغم جودتها — أن الأقمشة الصوفية تشكل جانبا كبيرا منها ، بينما مناخ القارة الهندية الحار يجعل الرواج للأقمشة القطنية البيضاء الرخيصة لا للأقمشة الصوفية الغالية الثمن •

وأثناء ذلك علم رجال شركة الهند الشرقية البريطانية من أحد الانجليز الذين خبروا فارس ويدعى Steel ، شئيل أن مناخ هذه البلاد القارص على المرتفعات يتيح فرصا واسعة لبيع الأقمشة الصوفية البريطانية • هذا فضلا عن أن الشتاء على الهضبة الفارسية أطول نسبيا مما يتيح فرصا أوسع للاستهلاك •

لم تكن نصائح ستيل Steel بقاصرة على فرص بيع الصوف فقط بل فتح أعين

التجار الانجليز الى مجال هام من مجالات التجارة مع فارس ، الا وهى تجارة الحرير .
كان الانجليز يشترون من قبل الحرير الفارسى من حلب وكانت أسعاره هناك
غالية ، وأشار ستيل Steel الى أن الاتصال المباشر بفارس يمكن الانجليز من شراء
الحرير بنصف ثمنه فى حلب ، فضلا عن انه يمكن بيع الصوف وشراء الحرير بثمنه .
التقط مدير وكالة الهند الشرقية البريطانية فى سورات (بالهند) هذه النصيحة ،
وبعث ستيل Steel نفسه وآخرون الى فارس فى بعثة للتفاوض مع الشاه عباس الكبير
من أجل الحصول على فرمان بحق المتاجرة فى بلاد الشاه .

دارت المفاوضات بين البعثة الانجليزية والشاه فى ظروف ملائمة حيث أن الشاه
كان قد حصل على مكاسب عسكرية كبيرة بفضل الخدمات التى قدمها اليه السير
(انتونى شيرلى) . وكان طبيعيا أن يبذل انتونى شيرلى ما فى وسعه من أجل اقناع
الشاه بالأرباح المجزية التى سيحصل عليها اذا ما فتح بلاده للتجارة الانجليزية .

ونتيجة لهذه المفاوضات وتلك الجهود أصدر الشاه عباس الكبير فرمانات ثلاث
للانجليز . واختار الانجليز جزيرة (جسك) الواقعة على مقربة من الشاطئ الفارسى فى
الخليج العربى لتكون ميناء تصديرهم واستيرادهم ، وذلك لأن البرتغاليين كانوا يسيطرون
على هرمز ، ومستعدين لكى يضعوا ما يستطيعونه من عقبات أمام التجارة البريطانية .
ولكن التجار الانجليز كانوا يريدون كذلك أن يشتروا كميات كبيرة من حرير
فارس . وكانت تجارة الحرير تجارة يحتكرها الشاه الذى كان معنيا جدا بتصديره عن
طريق الخليج العربى لسببين رئيسيين :

١ — حرمان الأتراك العثمانيين من الضرائب الجمركية التى كانوا يجبرونها على تجارة
الحرير المارة بممتلكاتهم .

٢ — مساعى الشاه عباس الكبير للحصول على أسعار أعلى وقد عرض سير انتونى شيرلى
على الملك فيليب الثالث — ملك اسبانيا والبرتغال حينذاك — أن يشتري الحرير
الفارسى ، ولكن الملك الأسباني لم يستجب لهذه الدعوة .

وعندما درس تجار شركة الهند الشرقية البريطانية الموضوع رأوا أن الطرق طويلة

وخطيرة ، وان التجارة غير مأمونة ، بل وقد تضر بالمصالح التجارية البريطانية في الدولة العثمانية .

وعندما عاد ستيل Steel الى أصفهان كان شيرلى قد عاد اليها كذلك ، وكان مستعدا لأن يبدأ بعثة جديدة الى بلاط أسبانيا .

والذي حسم الموقف هو أن المسؤولين عن الوكالات الانجليزية في الهند اجتمعوا في (سورات) لدراسة الموقف على الأسس والظروف التالية :

١ — الحرب الفارسية العثمانية .

٢ — مغادرة سير انتوني شيرلى فارس الى أسبانيا ، وكان المسئولون عن شركة الهند الشرقية البريطانية يشكون في نواياه ازاء مصالح الشركة التجارية في فارس .

٣ — الحاجة الملحة الى أسواق لبيع الأقمشة .

قرر هؤلاء المسئولون أنه لا بد من ارسال البضائع الى فارس كمحاولة اختبارية لعلها تنجح، وبعثوا بالسفينة جيمس James الى جسك وبدأت الأمور في الخليج العربي بين الشاه والبرتغاليين تزداد تعقيدا .

فبينما كان سير انتوني شيرلى في مدريد يفاوض البلاط الأسباني بشأن العلاقات التجارية الأسبانية الفارسية ، كانت هناك بعثة سياسية أسبانية تزور بلاط الشاه عباس الكبير وكانت هذه البعثة برئاسة (دون جارسيا دي سلفاي فيجارول Don Garscia de Silvay Figuerol) ومكلف بالحصول من الشاه على تأكيد باحترام السيادة الأسبانية (البرتغالية) على جزيرة (هرمز) .

قابل الشاه البعثة بمقابلة طيبة ، ولكنها لم تحصل منه على الغرض المنشود . فقد كان الشاه يضمّر لهرمز أمرا .

لقد أدرك الأسبان والبرتغاليون أن هناك تطورات جديدة تتوالى على منطقة الخليج العربي قد تضر بمصلحتهم خاصة بعد أن علموا بأمر وصول السفينة البريطانية جيمس James الى جسك ، فارسلوا حملة بحرية الى هناك الا أن الصدام لم يقع لمجرد أن السفينة جيمس كانت قد غادرت جسك عائدة الى سورات . ولكن بدا واضحا أن الصدام

البرتغالى الانجليزى أصبح وشيك الوقوع • فضلا عن أن الصدام الفارسى - البرتغالى كان قد بدأ فعلا بين الأسطول البرتغالى والموانئ الفارسية المطلة على الخليج العربى • وتحولت الأزمات المحلية بين الفرس والبرتغاليين الى هجمات متبادلة بين الطرفين حتى لقد أصبح من المعتاد أن ينهب أسطول البرتغال ميناء فارسيا ، بينما يكون جيش فارسى فى مكان آخر قد ضرب الحصار على قلعة برتغالية • وكان الفرس يركزون على طرد البرتغاليين من قلعتهم الحصينة فى (قشم) ويبحثون عن وسيلة لطردهم من معقلهم الحصين فى (هرمز) وخلال هذه الصراعات المتفرقة أدرك المسئولون الفرس حقيقة هامة وهى أن التغلب على البرتغاليين يتطلب أسطولا وحيث أنه لم يكن للفرس أسطول فى مياه الخليج العربى أصبح من اللازم أن يستعينوا بأسطول شركة الهند الشرقية البريطانية فهو الذى يمكن الاعتماد عليه فى مثل هذه الظروف التى أصبح فيها البرتغاليون يمثلون العدو المشترك للطرفين •

كان « الله وردى خان » حاكم (اقليم فارس) رجلا سياسيا محنكا • وأخذ يحذر الانجليز من أن تقاعسهم عن تقديم المعونة اللازمة ضد العدوان البرتغالى لن يضر فقط بالعلاقات الفارسية الانجليزية ، وإنما سيحرم الانجليز أنفسهم من تجارة الحرير • بل لقد عددهم بأنه سيصادر كميات الحرير التى كانت فى طريقها عبر فارس اليهم •

كان هذا التهديد بالنسبة للانجليز خطيرا للغاية اذ سيحرمهم مصدر ربح وفير ، ووجدوا أن التعاون مع الفرس ضد البرتغاليين فى هذه الظروف سيفيدهم لو انتهى الأمر بهزيمة البرتغاليين •

دارت المفاوضات بين الفرس والانجليز عما ستكون عليه هذه المحالفة العسكرية ، وأخيرا توصل الطرفان الى اتفاقية عقدها الانجليز مع المندوب الفارسى (امام قولى خان) •

نصت الاتفاقية البريطانية - الفارسية على :

- ١ - يدفع الفرس نصف تكاليف الحرب ويدفع الانجليز النصف الآخر •
- ٢ - اقتسام متساو للدخل الجمركى فى هرمز بعد الاستيلاء عليها •
- ٣ - اقتسام متساو للفنائم •

٤ — تسليم الأسرى المسيحيين للانجليز وتسليم الأسرى المسلمين للفرس .

لم يكن هناك ما يمنع الشاه من أن يعلن الحرب على البرتغال ، الا أن مديري شركة الهند الشرقية البريطانية وجدوا في شن الحرب على البرتغال حرجا كبيرا ، اذ كانت البرتغال وأسبانيا حينذاك في حالة سلام مع بريطانيا ، ومن ثم يجب على الشركة التزام سياسة حكومتها ، ولكن هنا التزمت الشركة مصالحها أولا وقررت مقاتلة البرتغاليين فان نجحوا كسبوا عطف حكومتهم لما سيحصلون عليه من أرباح ، وان فشلوا عليهم أن يتحملوا مسئولية هذه المجازفة السياسية والعسكرية .

اتجه الاسطول الانجليزي الى هرمز أولا على احتمال أن الاسطول البرتغالي سيواجه التحدي بمثله ، ولكن الاسطول البرتغالي تجنب الاشتباك ، فصعدت وحدات الاسطول الانجليزي الى قشم وقصفت قلعتها البرتغالية حتى استسلمت . ثم عاد الاسطول الانجليزي الى (هرمز) وخاض معركة كبيرة ضد الاسطول البرتغالي في الوقت الذي كان فيه جيش برى كبير فارسي يستولى على الجزيرة قطعة قطعة . وانتهت المعارك باندحار البرتغاليين (١٦٢٢) وانتقلوا من هرمز الى مسقط ولكن لم يلبث أن تعاون الهولنديون — الوافدين الجدد — مع الانجليز ضد البرتغاليين ومع أنهم لم يكسبوا معركة حاسمة — الا ان قوة البرتغاليين أخذت في التدهور وخاصة بعد أن طرد (اليعاربة) البرتغاليين من مسقط في ١٦٥٠ م .

لقد بدأ الشاه عباس الكبير في عام ١٦٢٢ / ١٦٢٣ وكأنه في أوج عظمته . فقد طرد البرتغاليين من هرمز ، واستولى على العراق من يد العثمانيين وببذل الجهود ليستولى على البصرة ، وبدا كذلك أن الانجليز أحرزوا نصرا حاسما ، ولقد كان طرد البرتغاليين من هرمز حدثا ضخما لدى الانجليز . وأرسلت الحكومة الانجليزية الى الشاه بعثة سياسية كبيرة برئاسة سير دودمور كوتون Sir Dodmore Cotton ومعه سير انتوني شيرلي لتهنئة الشاه على ذلك الانتصار الذي كان ثمرة التحالف الفارسي — الانجليزي ، ولتهنئته كذلك على استيلائه على العراق ، وليعرض على الشاه خططا جديدة لزيادة مجالات النشاط التجاري الانجليزي في بلاد الشاه .

ولقد أبدى الشاه تفهما لرغبات الانجليز في زيادة حجم تجارتهم في الحرير بالذات

ووعده كوتون Cotton بأن يتسلم الانجليز في مطلع كل كانون ثاني (يناير) في بنسدر عباس عشرة آلاف بالة من الحرير .

وأغلب الظن أن هذه العروض السخية التجارية من جانب الشاه إنما كانت لتحقيق الهدف السياسى والعسكرى الذى كان يسعى اليه منذ زمن طويل الا وهو تحالف بينه وبين ملوك أوروبا ضد الدولة العثمانية . لقد كان الشاه يدرك ، عن حق ، أن جولاته مع السلطان العثمانى لم تنته ، وأن الخير له كل الخير فى أن يفتح على العثمانيين جبهة جديدة تخفف من وطأتهم على الجبهة العراقية . ولكن أوروبا لم تكن مستعدة لمثل هذا التحالف باستثناء الامارات الايطالية الصغيرة وخاصة امارة تسكانا والبابوية اللذين كانا يضعان الآمال الكبار على تحالف يتم بينهم وبين فخر الدين المعنى — أمير لبنان — وشاه العجم لشن حرب كبرى ضد السلطان العثمانى ، ولكن هذه المخططات ظلت فى حيز الآمال والمكاتبات ولم تخرج الى حيز التنفيذ .

ومن ناحية أخرى لم يكن البلاط الانجليزى نفسه مستعدا لأن يصعد علاقاته مع الفرس الى مستوى التحالف الكامل ضد جميع أعداء الشاه ، خاصة وأن للانجليز مصالح تجارية حيوية فى الدولة العثمانية ترتبط بنشاط شركة الليفانت . ولذلك لم يستطع الشاه أن يكسب تحالف الانجليز ضد العثمانيين . بل لقد آثر الانجليز فى الخليج العربى — بعد أن حققوا أهدافهم بطرد البرتغاليين من هرمز — أن يعيدوا الهدوء الى المنطقة بقدر الامكان ، حيث أن الازدهار التجارى لا يتم الا فى أوقات السلم ، واستمرار العمليات العسكرية يعنى ضياع فرص التجارة مع فارس ، وهو السبب الذى خاض من أجله الانجليز الحرب ضد البرتغال ، ولذلك عقدوا صلحا مع البرتغال فى ١٦٢٥ أدى الى ازعاج الفرس والى فتور العلاقات بينهم وبين الانجليز .

ومما زاد من تعقيد الموقف أمام الانجليز فى الخليج العربى ظهور الأسطول الهولندى هناك بعد هزيمة البرتغاليين فى هرمز . حقيقة تعاون الهولنديون مع الانجليز فى فترة من الفترات ضد البرتغاليين ، ولكن كان عمر هذا التحالف مرتبطا بكون البرتغاليين خطر مشترك على الطرفين . فلما ضعف البرتغاليون جدا فى الخليج العربى ، ونمت التجارة الهولندية فى فارس اصبح الصدام بين الهولنديين والانجليز أمرا لا مفر منه .

كان نشاط الهولنديين التجارى فى فارس فى أول الأمر على حساب البرتغاليين ،
وفى ١٦٢٣ حصل هيبيرت فينش Hubert Vinich على فرمان (١) من الشاه عباس الكبير
يعطيه حق فتح وكالة فى بندر عباس ، الميناء الفارسى الناشئ فى الخليج العربى .

والشاه عباس عندما سمح للهولنديين بمقتضى ذلك فرمان بأن يشتروا ويبيعوا
فى مختلف أجزاء دولته دون أن يدفعوا ضرائب جمركية يكون قد اضر — من وجهة نظر
الانجليز — بالمصالح الانجليزية ضررا بليغا . فضلا عن أن ذلك يعتبر — من وجهة نظرهم
أيضا — اخلالا بشروط اتفاقيتهم معه فى ١٦٢١ . بل تصاعد التفوق الهولندى بسرعة
كبيرة فى مجالات التجارة مع فارس لانهم نجحوا فى تحويل حق المتاجرة الى شبه احتكار
لتجارة تصدير الحرير من فارس ، ولعل الحرب الأهلية فى انجلترا هى التى أعطت
الهولنديين فسحة كبيرة من الوقت تمكنوا خلالها من توطيد علاقاتهم مع فارس وتوسيع
نطاق تجارتهم معها . ولكن هذا التفوق الهولندى لم يلبث أن تلاشى بعد أن استعاد
الانجليز قدراتهم على العمل فى مياه الخليج العربى وفى فارس . ولكن لم يلبث أن ظهر
منافس جديد قوى للانجليز فى الخليج العربى وهو الأسطول الفرنسى ، ولكنه لم يستمر
طويلا ، وإن كان الفرنسيون سيظهرون بقوة فى فارس بعد ذلك .

هكذا كانت علاقات الشاه عباس الكبير بالقوى الأوروبية التى ظهرت فى الخليج ،
وبالدولة العثمانية ، وبدا أنه كسب جولات مهمة ، ولكنها لم تكن الجولات الحاسمة .

وشهرة الشاه عباس الكبير لا تكمن فقط فى انتصاراته العسكرية ، وإنما كذلك فى
اصلاحاته الإدارية ، وفى العناية بخطط المواصلات عبر الامبراطورية اذ شيد العديد من
الخانات على طول طرق لقوافل .

وأما بناء عاصمة جديدة (أصفهان) فمن أعماله المجيدة . وفى ضاحية لها وضع
الشاه عباس أساس قرية أرمنية أصبحت فيما بعد مقر البعثات الدبلوماسية الأجنبية
ومقر البيوتات الأوروبية الكبيرة . ولا شك أن تسامح الشاه الدينى كان عاملا جوهريا
فى نمو هذه القرية ، وفى نمو التجارة الأوروبية فى البلاد .

(١) أنظر نصه فى :

والى جانب تسامحه الدينى ازاء مسيحيى أوروبا ، كان متشسبثا كل التشبث بالمنهب الشيعى الاثنى عشرى ، ولكن كان تفكيره بدأ يتحول الى نوع من الاقليمية حتى فى مجال التعصب للمذهب الذى يعتنقه . فقد كان يلح فى جعل (مشهد) - وبها ضريح الإمام الرضا - المزار الأول والأقدس للشيعه . فكان يذهب اليه ماشيا على قدميه قاطعا مئات الأميال فى سبيل الدعاية لتحقيق هدفه المذهبى الذى كان وراءه دوافع اقتصادية وسياسية واضحة .

فان تحويل تيار الحج من العتبات المقدسة العراقية الى مشهد يبقى على كميات ضخمة من النقد الذهبى والفضى فى داخل البلاد ، فضلا عن أن ذلك سيجلب أعدادا أكبر من الحجاج الشيعة الى مشهد . وهذا كله بالتالى يؤدى الى حرمان العراق العثمانى من الدخل الكبير الذى كان يحصل عليه من وراء قوافل الحجاج الفرس التى كانت تتوافد على العراق .

بينما كان الشاه عباس ناجحا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، كانت معاملته لأفراد أسرته ، وحتى معاملته لأولاده تدل على تطرف شديد للغاية ، وان كان هذا التطرف قد أصبح مألوفا فى البلاطات الإسلامية فى القرن السادس عشر المغولية والعثمانية بصفة خاصة . فقد قتل الشاه عباس الكبير ابنه (صفى ميرزا) وسمل عينى اثنين آخرين من أولاده .

لقد كان الشاه الكبير يخشى من صميم قلبه أن يظهر من أسرته من يفرض نفسه عليه وينتزع العرش منه . وكانت سياسته تلك من الشدة والقسوة لدرجة أعمت الشاه نفسه عن الكوارث التى ستحل بدولته من بعده حيث لن نجد من هو كفء ليتولى الحكم من بعده ، وهذا ما حدث فعلا . فقد أوصى بأن يخلفه على العرش حفيده (صفى) الذى حكم فارس من (١٠٣٨ - ١٠٥٢ هـ) (١٦٢٩ - ١٦٤٢ م) ولكن متأثرا بفظاظة جده وسار على خطته المريضة .

فبعد أن وضع مقاليد الحكم فى يده ، أمسك صفى بالسيف وانهال به على أفراد أسرته أمراء كانوا أم أميرات . وقتل الغالبية العظمى من مستشارى جده ، حتى لقد قتل إمام قولى خان المخطط الحقيقى لطرد البرتغاليين من هرمز .

وكان طبيعى أن تسير الدولة الفارسية نحو الانحدار فى عهد خلفاء الشاه عباس :

- ١ - صفى ١٦٢٩ - ١٦٤٢
- ٢ - عباس الثانى ١٦٤٢ - ١٦٦٧
- ٣ - سليمان ١٦٦٧ - ١٦٩٤
- ٤ - حسين ١٦٩٤ - ١٧٢٢

ومن أهم الأحداث الرئيسية التى وقعت أيام الشاه صفى تلك الحملة الكبرى التى شنّها السلطان مراد الرابع لاسترداد العراق ١٦٣٨ .

أما عباس الثانى فقد عاش فى اللهو دون أن يلتفت الى مصالح الدولة الا قليلا . ولم يحرك الشاه سليمان ساكنا عندما علم أن الهولنديين استولوا على قشم ، ولا عندما سمع عن اجتياح غارات الأوزبك لاقليم خراسان ، ولا عندما هدد اسطول اليعاربة - الذين حرروا بلادهم من البرتغاليين - ميناء بندر عباس نفسه . اذ فضل حياة الحريم على مسئولياته كحاكم اعلى للبلاد .

وعاشت إيران فترة هدوء أيام الشاه سلطان حسين ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة . وعندما هبت العاصفة لم يكن فى مقدور رجال الفرس أن يتصدوا لها ، ونعنى بذلك الغزوة الأفغانية الكبرى لفارس .

واذا ما قمنا بعملية تقييم للأسرة الصفوية فاننا نجد :

١ - ان الأسرة الصفوية بدأت على يد شخصية مؤسسة نشطة (الشاه اسماعيل) ، وبلغت الذروة أيام عباس الأول الذى وطد دعائمها ، وبعدها اخذت تنهار حتى سقطت فى عام ١٧٢٢ . وهذا هو شأن الأسرات الحاكمة .

٢ - ان الأسرة الصفوية لم تكن ذات اهداف توسعية كبرى كتلك التى كانت لدى جارتها الدولة العثمانية ، وكانت غزوات الأسرة الصفوية خارج إيران لا تتعدى العراق وأفغانستان والأوزبك .

٣ - ركزت هذه الأسرة المذهب الشيعى الاثنى عشرى على أساس سياسى يكاد أن يتخذ

شكلا قوميا • الأمر الذي منح هذه الأسرة مكانة هامة في قلوب الشعب وفي تاريخه •

٤ — ان هذه الأسرة كانت تدير على أساس الحكم المطلق الإسلامى فى القرون الأخيرة الذى يعطى الشاه كل السلطات دون أن تكون هناك مؤسسات لتراجعه •

٥ — ان عهد الأسرة الصفوية جعل من إيران حدا فاصلا بين قوى السنة فى الشرق منها وقوى السنة فى الغرب منها •

٦ — ان تعاون الأسرة الصفوية أو رغبتها فى التعاون مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية جعلها — بمقارنتها بالدولة العثمانية — فى الدرجة الثانية فى ترتيب الدول الإسلامية الكبرى •

★ ★ ★

الفزوة الأفسانية لفارس

(مير محمود وأشرف)

(م ٢٠ الشموب الاسلامية)

١ - مير محمود

توصف افغانستان (١) أحيانا ، ومع تجاوز كبير ، بانها سويسرا آسيا من الناحية الجغرافية . رغم الطبيعة الجبلية فرضت نفسها بقوة على تاريخ افغانستان بصفة خاصة . وتاريخ المنطقة بصفة عامة . فقد كانت موطن قبائل تعتصم بالجبال كلما شعرت بخطر غزو كبير ، وتهبط السهول غازية كلما استشعرت ضعفا في جيرانها . كذلك شهدت افغانستان في الماضي الجيوش الكبيرة التي كانت تريد الوصول الى الهند من أبوابها الشمالية ، أما بعد استخدام طريق الرجاء الصالح بين الشرق والغرب . أصبحت الغزوات الموجهة الى الهند تضرب أبوابها البحرية ايضا .

ومن بين قبائل افغانستان العديدة توجد قبيلتان رئيسيتان هي :

١ - الدوراني Durrani في الأجزاء الشرقية من افغانستان وأطلق عليهم اسم العبدلي فيما بعد .

٢ - غيلزاي Ghilzai في الأجزاء الجنوبية من افغانستان . وهم عشائر مختلطة الجنس وكانوا من اقوى عشائر قندهار .

بينما سكان المناطق الواقعة الى الشمال من الهند فمن الأوزبك ، وأما قلب افغانستان فتسكنه القبائل المغولية الرئيسية التالية :

١ - هـازار Hazara

٢ - نايماني Taimany

٣ - شهر أيماك Chahar Aimack

(١) يطلق على سكان افغانستان اسم (الباثان Pathan) ويتكلمون البشتو Pashtu وهي لهجة أكثر منها لغة ، فالفارسية هي اللغة الرسمية ولغة الأدب ، ويتكلمها كل الأفغانيين .

وتسكن منطقة هراة قبيلة آرية هي طاجق Tajik ، كما توجد تشسكية من القبائل الآرية القديمة الى الشرق من كابول في واخان ، وروشان ، وكافرستان ، هذا الى جانب بقايا عشائر آرية لجأت الى جبال أفغانستان وفي وديانها .

والغالبية العظمى من هذه العشائر ، وخاصة القبائل الآرية ، والأوزبك يدينون بالإسلام على مذهب السنة . بينما نجد العناصر الفارسية في عشيرة (هازار) من الشيعة . وكما كانت هناك اتصالات قوية بين الفيلزاي وأباطرة الهند من السنة ، كانت هناك علاقات بين الفرس والعناصر الشيعية القليلة في أفغانستان .

وكانت قوى أفغانستان العشائرية قد وجدت نفسها بين عملاقين كبيرين أحدهما الى الجنوب والآخر الى الشرق : امبراطورية المغول في الهند ، والأسرة الصفوية في فارس . وكانت قوى أفغانستان خلال القرن السادس عشر والسابع عشر مفككة غير قادرة على دفع أى من هاتين القوتين عنها الا بشق الأنفس ، وغالبا ما تقع في يد مغول الهند تارة ، وشاهات الفرس تارة أخرى .

فقد كانت منطقة أفغانستان هدفا لبابر ، ولاكبر ، وهميون آباطرة دولة المغول (١) . واستطاع هميون أن يستولى على قندهار بمساعدة جيش فارسي في ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م ، وليرد له الشاه طهماسب الجميل تنازل له عنها دون أن يفرط فيها تفريطا كاملا . وتمكن الشاه عباس الكبير من أن يسيطر على قندهار . ونظرا لضعف فارس من بعده ، تمكن الأوزبك من الاستيلاء عليها ، ليطردهم الامبراطور المغولي «شاه جهان» منها في ١٠٢١ هـ / ١٦٣٤ م ، ليسلمها للشاه عباس الثاني في ١٠٣٨ هـ / ١٦٥٠ م . كذلك شن عليها امبراطور المغول (أورانجزيب) حملة كبيرة قادها بنفسه ، الا أن حصانة المدينة والاستماتة في الدفاع عنها حالت دون وقوعها في يده . ومع هذا لم تكن قندهار قد استكملت بعد قدرتها على استقلال ، وكانت تعتبر في عهد « الشاه حسين » جزءا من الدولة الفارسية . ولكن حدثت تطورات في المدينة أدت الى ارتفاع الأصوات المطالبة باستقلالها .

(١) أنظر تفاصيل تاريخها فيما بعد .

فقد أسند الفرس حكم قندهار الى أمير جورجيا المسيحي (جوركين) الذى كان تابعاً للشاه الفارسى . وزحف جوركين على رأس جيش فارسى . وحيث أن قوة الجيش المهاجم كانت متفوقة للغاية على قدرات المدافعين فقد قبلوا الخضوع للسيطرة الفارسية . ولكن المنتصرين عاملوا المدينة وأهالى المنطقة على اعتبار أنهم فى أرض فتحتها القوات الفارسية عنوة . وأصبح الأهالى كان لا حقوق لهم . وجار الأهالى بالشكوى وبعثوا بالمكاتبات العديدة الى بلاط أصفهان ضد طفيان (جوركين) .

ونظرا لأن البلاط الفارسى لم يستمع الى تلك الشكايات ، وأن أمور قندهار تركت ليدبرها جوركين كيفما شاء ، قرر جوركين أن يقضى على هذا التمرد عن طريق القضاء على الزعامات التى تحرك الأهالى . وكان من أبرز المتمردين ميرويس الذى كان مسئولا عن إدارة أمور بلده قندهار . فقبض عليه (جوركين) وأبعده الى فارس . ولكن ميرويس كان رجلا ذكيا . وكان الحق الى جانبه ، فضلا عن تمتعه بشراء كبير واستعداده للانفاق من أجل اثبات حقه وحق أهالى المدينة فى أن يعيشوا أحرارا بعيدا عن سيف الانتقام الصليبي . ولقد نجح فى أن يصبح - خلال اقامته فى أصفهان - رجل الشاه المفضل . ولم يلبث أن غادر فارس الى مكة المكرمة . وهناك عرض قضيته على رجالات الدين فكتبوا له فتوى بأن الحكم الصفوى أصبح خطرا يجب مقاومته والقضاء عليه قبل أن يقضى على الإسلام فى المنطقة .

وعاد ميرويس الى وطنه ، وصادف حينذاك وجود بعثة أرسلها القيصر الروسى المشهور بطرس الأكبر ، ورحبت به تلك البعثة ، واستطاع أن يقيم معها علاقات ودية ، بل استطاع بمهارته الشخصية أن يبعد (جوركين) عن الحكم وأن يحل هو محله (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) .

ولكن جوركين كان رجلا طموحا ، لا يترك الأمور هكذا تسير ضد رغباته . فقرر أن يفرض حربا على « ميرويس » قبل أن يستكمل استعداداته . وقدم طلبا كان من المستحيل أن يلبيه ميرويس ، مع العلم أن ميرويس كان فى الواقع مستعدا للوصول الى اتفاق سلمى مع خصمه « جوركين » ، ولكن الأخير أبى إلا أن يحسم الخلافات بحد السيف . ومن ثم كان على ميرويس أن يتخلص من جوركين بأية وسيلة فاستخدم الحيلة حتى قتله قُدرا . ولقد كان مصرعه فعلا من العوامل الرئيسية التى ثبتت أقدام ميرويس فى قندهار .

فلقد كان البلاط الفارسي غير مستعد لأن يبعث بالجيش ضد ميرويس ، وإنما كان يسعى الى التوصل الى اتفاقية تترك الحكم « لميرويس » ، وتضمن بقاء قندهار في اطار الدولة الفارسية . الا أن « ميرويس » شعر أن استعداداته قد استكملت وأن البلاط الفارسي أصبح أعجز من أن يزعجه ، بل تحول « ميرويس » الى توجيه الاتهامات والتهديدات لبلاط الشاه نفسه .

فعندما بعث البلاط الفارسي مسئولاً لمفاوضة « ميرويس » رفض الأخير أن يتفاوض معه وحمله تهديداً للشاه جاء فيه :

« لتكن واثقا من أن ساعة الانتقام قد أزفت . وأن الأفغانيين البواسل هم من اختارهم الله لمعاينة الفرس المارقين » .

لقد أدرك البلاط الفارسي أن الحرب آتية لا ريب فيها بينه وبين « ميرويس » . ومع هذا لم يتخذ إلا اجراءات ثانوية منها تكليف حاكم خراسان باخضاع المتمردين الأفغان ، إلا أنه هزم أكثر من مرة .

ومرة أخرى سلط الشاه الفارسي حاكم جورجيا لضرب ميرويس للاستيلاء على قندهار . وكان خسرو خان — حاكم جورجيا — ابن أخى جوركين ، ومن ثم كان مستعداً لأن يقوم بتلك المهمة للانتقام من ميرويس ثأراً لعمه .

أدرك ميرويس ، والأفغانيون من ورائه ، أن الحرب القادمة حرب حياة أو موت ، خاصة بعد أن طالت فترة حصار خسرو خان لقندهار وخاصة عندما رفض خسرو خان استسلام المدينة وعندما رفض أن يصدر أى امان للأهالى فى حالة استسلامها . فاستماتوا فى الدفاع وردوا الهجمات الفارسية على أعقابها . ولم يلبث أن وضحت قوة المدافعين ، فتحولوا من الدفاع الى الهجوم ، واستطاعوا أن يبيدوا ٢٤ ألفاً من جيش « خسرو » المؤلف من ٢٥ ألف مقاتل ، بل لقد سقط خسرو نفسه صريعاً فى المعركة (١٧١١) .

حاول الشاه الفارسي أن يعيد نفوذه الى المنطقة بقوة السلاح ، ولكن الجيش الذى أرسله بقيادة محمد رستم لم يلبث ان حلت به هو الآخر البريمة ، ليعيش « ميرويس » .

من بعد هذا كله حاكما مطلقا في قندهار ، واستمر كذلك حتى وفاته في ١٧١٥ م .
وأصبحت هذه الامارة في عهده قوية فتية ، وأصبحت ذات تطلعات أبعد مما هو
وراء حدودها .

ومع هذا ، بدت الأمور وكان قندهار تكسب الكثير من وراء تلك الانتصارات بعد
وفاة ميرويس ، واستبداد أخيه عبد الله بالحكم دون الوريث الشرعى له ، وهو محمود
الذى لم يبلغ بعد الثانية عشرة من عمره ، فقد كان عبد الله ميالا الى عقد الصلح مع
الفرس . ولعله كان يدرك أن قندهار تستطيع أن تدافع عن نفسها ضد الجيوش
الفارسية ، ولكن الى متى تستمر في رد الجيش الفارسى تلو الجيش . هذا الى جانب
أطماعه في الانفراد بالعرش ، وهو أمر يتطلب أولا وقف الحرب ضد فارس . الا أن
شروطه لعقد الصلح كانت لا توحى بأن كفة الأفغان خلال تلك المعارك هي التى كانت
رائجة اذا اكتفى بما يلى :

١ - الغاء الجزية لفارس .

٢ - عدم ارسال أية قوات ضد قندهار .

٣ - أن يكون الحكم وراثيا فى أسرته .

فادى هذا الى تنمر بين صفوف رجالات الأفغان ، ولم يلبث (محمود) واعوانه
أن قتلوا (عبد الله) لأنه لم يسلب محمود حقه فى العرش فقط ، بل لأنه وضع شروطا
لا تليق بالأفغانيين المنتصرين . وهكذا أصبح فى حكم قندهار جناح قوى الشكيمة مستعد
لتوجيه الضربات الى فارس . ومثلما فعل هؤلاء الفيلزاي فعل الدوراني (العبدلى) .
فمن بين النتائج الهامة التى ترتبت على انتصارات « ميرويس » على الفرس ،
واعلانه استقلاله ، أن القوى العشائرية السننية الكبرى فى المنطقة حذت حذوه . اذ أعلنت
عشائر (العبدلى) الثورة وتحالفت مع الأوزبك على غزو خراسان .

وكان تحت قيادة أسد الله (زعيم العبدلى) وحاكم هراة جيش يقدر بخمسة آلاف
مقاتل ، كما كان لدى الأوزبك ١٢ ألف مقاتل . حقيقة كان الفرس قد أحرزوا انتصارا
على الأوزبك ، الا أن « أسد الله » أصر على أن يخوض معهم المعركة . ومع أن الجيش

الفارسي كان مزبوا بالمدفعية إلا أن هذه المدفعية التي قامت بواجبها في أول الأمر لم تلبث أن أخطأت أهدافها وضبت قنابلها على فرق الخيالة الفرس ، فتطايرت الاشاعات عن أن هناك خيانة دبرت للايقاع بالجيش وابادته ، فتشتت الجيش الفارسي متكبدا خسائر فادحة تاركاً مدفعيته تسقط في يد العبدلي الأفغان ، وبذلك حصل هؤلاء مثل منافسيهم « الغيلزاي » على استقلالهم وظهرت امارة أفغانية جديدة على حدود فارس الشرقية في هراة ولكنها لم تكن على علاقات ودية مع شقيقتها قندهار .

شرعت قوات العبدلي في اجتياح خراسان ، كما قامت عشائر الليجيان Lesghian باجتياح شيروان (١٧٢١ م / ١١٣٤ هـ) وتعاونت الزلازل مع الفزاة في تدمير المنطقة حتى أصيبت تبريز بأضرار فادحة نتيجة أحد الزلازل حينذاك ، وأشاع المنجمون النذر في الناس عندما رددوا أن دور أصفهان آت لا ريب فيه .

ورغم فداحة الخسائر ، وعظم الأخطار ، كان الشاه لاهيا عن ذلك ، وكان رجاله غير جديرين بتحمل مسئولية هذه الشدة ، هذا فضلا عن أن معنويات و اخلاقيات شعب فارس كانت قد تدهورت خلال السنوات الأخيرة حينذاك ، حتى انه يمكن القول بأن فارس حينذاك كانت أشد بلاد العالم ضعفا سواء من جانب الحكومة أو الشعب .

في مثل هذه الظروف ، يكون لدى هؤلاء الأفغان فرصا واسعة لا للاغارات على الأقاليم الشرقية لفارس فقط ، بل كذلك التوغل في قلب فارس نفسها . فعبر محمود بجيشه الصحراء . وأخذ يستولي على المدن الفارسية الواحدة بعد الأخرى . وكان اذا صادفته مدينة حصينة تعرقل من استمرار زحفه تركها كجيب مقاومة محاصر (١) وتابع سيره ضوب أصفهان .

وبينما هو في طريقه الى أصفهان قابلته سفارة فارسية ، عرضت عليه مبلغا كبيرا نسبيا من المال في مقابل عودته برجاله الى أفغانستان . ولكن هذه المحاولة جعلت (محمود) يعتقد أن الفرس ما كانوا ليقدّموا على هذا الأسلوب الضعيف الا اذا كانوا فعلا يدركون أنهم أضعف من ان يصدروا الجيش الأفغاني ، خاصة وأن هذا الجيش الأفغاني أصبح فعلا في قلب الامبراطورية الفارسية .

(١) هذا ما فعله بالنسبة ليزد .

قرر محمود الأفغانى متابعة المسير حتى عسكر على بعد اثنى عشر ميلا من اصفهان وكانت حالة الجيش الأفغانى حينذاك ، غير مشجعة على خوض المعارك الكبرى ، بسبب الخسائر التى منى بها خلال زحفه الى اصفهان ، وامام مقاومة كرمان ويزد ، وبسبب تخلف بعض القوات عن متابعة الزحف .

وخلال هذه المسيرة الطويلة لم تنضم الى جيشه أية قوات جديدة ، وانما انضمت فقط اليه قوة من رجال زردشتيين .

وبينما كانت مدفعية الأفغانيين المحمولة على الجمال من نوع (الزنبرك) التى تطلق قنبلة أقل من رطلين ، كان الجيش الفارسى المجتمع فى اصفهان يحوى مدفعية أكثر فعالية ، وكان عدد الجيش الفارسى نفسه يعادل ضعف الجيش الأفغانى . هذا فضلا عن أن المدينة كانت كثيرة السكان وأصبحت تدرك أنها مقبلة على معركة مصيرية لا بالنسبة للعاصمة فقط بل كذلك بالنسبة لفارس بأسرها .

كان هناك اتجاهان لدى القيادة الفارسية :

الأول : كان يطالب بأن يتخذ الفرس جانب الدفاع وراء أسوار المدينة .

الثانى : تزعمه حاكم عربستان الذى هز المشاعر بقوله أنه من العار على الشاهنشاه أن يتقاعس عن مقارعة السيف بالسيف وعن مقاتلة شرذمة من قطاع الطرق الأفغان فى ميدان معركة مفتوحة . وكسب والى عربستان ببلاغته وقدراته الجدلية المسئولين الى جانبه . ومما ساعده على ذلك أن مشاعر العنجهية لدى القواد الفرس أحيانا تصبح من القوة لدرجة تجعلهم أقرب الى الحمق منهم الى القسواد .

خرج الجيش الفارسى لملاقاة الجيش الأفغانى فى معركة جلناباد Gulnabad فى ١٣٣٥ هـ / ١٧٢٢ م . وبدأ الفرس بالهجوم ولكن رد الأفغان الهجوم ليتحول من بعد ذلك الى انهزام المدفعية ، والى وقوع المدفعية الفارسية نفسها فى يد الأفغان الذين لم يتوانوا عن إدارة هذه المدفعية لضرب المشاه الفرس . وتحول التراجع الى فرار من جانب الجيش الفارسى وبشكل مخزى جعل الأفغان يكسبون بسرعة نصرا كبيرا .

والملاحظ أن ظروف اقتفاء الجيش الأفغانى للجيش الفارسى الفار كانت مواتية تماما . ولكن هذا لم يحدث ، ولم ينطلق الجيش الأفغانى لمطاردة الفارين وهناك تفسيرات لهذا :

١ - ربما كان محمود - وهو يعمل على أرض معادية - يخشى من أن يقع جيشه في كمين .

٢ - وربما كذلك لأن جيش محمود آثر أن يجمع الأسلاب بدلا من مطاردة العدو ، وهذا فعلا من صفات القوات العشائرية .

٣ - ربما أن محمود كان ينوى العودة الى بلاده ثم غير رايه بعد ذلك .

ومع هذا كله ، فلا شك أن اهمال محمود ورجاله في توجيه الضربات المناسبة للفرس ، شجعت هؤلاء على أن يعودوا الى ميدان المعركة نفسه ليستردوا مدفعيتهم .

شملت أصفهان فوضى كبيرة بعد سماع أهلها بأنباء كسرة الجيش الفارسى ، وشجع هذا محمود الأفغانى ليصر على فتح العاصمة الفارسية . ولكن قبل أن يركز جهده في هذا السبيل عمل على اخضاع بعض المعقل الرئيسية . فوضع يده بسهولة على (فرح آباد) (١) بسبب انسحاب الحامية الفارسية ، ثم هاجم محمود جلفا Julfa الواقعة على الضفة الغربية لنهر (زندارود) . وحيث كانت القوى التى كانت مستعدة للدفاع هناك منقسمة الى قسمين أحدهما أرمنى والثانى فارسى عربى وكان الصراع المذهبى بين القسمين شديدا اضطربت الأمور، واستسلم الأرمن وفرض عليهم المنتصرون شروطا قاسية من حيث غرامة تبلغ ١٤٠ ألف جنيه استرلينى، ورضخ الأرمن للشرطين ، وتابع محمود هجومه على أصفهان محاولا أولا ضمان تحكمه في جسر استراتيجى يؤدى اليها . فلما فشل في ذلك خفف من مطالبه وكان أهمها :

١ - غرامة حربية .

٢ - زواجه من أميرة فارسية .

(١) بناها الشاه حسين على هيئة قلعة .

٣ - تنازل الشاه له عن قندهار وخراسان وكرمان ولكن رفض الشاه هذه المطالب
بينما طفق الجيش الأفغانى فى جماعات ينهب القرى والمدن الصغيرة ، الأمر الذى جعل
سكان هذه القرى والمدن يفرون الى صفهان . وكان هذا يحدث دون أن يهب الجيش
الفارسى ليقف الأفغانيين عن متابعة عمليات النهب المروعة .

وبينما كان الجيش قد تقاعس عن انقاذ البلاد من نهب الأفغانيين لها ، قام الشعب
بالدفاع عن نفسه وعن ممتلكاته ، واستطاعت المقاومة الشعبية أن تهزم بعض القوات
الأفغانية ، بل استطاعت قوات تابعة لقرية (١) فارسية أن تأسر أخا وعما وأثنين من أبناء
عمومة محمود ، وعندما اتصل محمود بزعماء القرية ليتوصل الى اطلاق صراح ذويه
علم بأن القرية أعدمّت أسراها ، فما كان من محمود الا أن أمر بإعدام ما تحت يده من
أسرى الفرس ، وكانوا يعدون بالآلاف .

أخذت الأمور تزداد سوءا بين صفوف الجيش الفارسى ، وفى مختلف أرجاء
البلاد ، الأمر الذى كان يزيد من ضعف الفرس أمام الأفغان . ومن ذلك أن الشاه لم
يعرف كيف يستفيد من العرض الذى تقدم به أمير « جورجيا » لمساعدته ضد الأفغان .

ولم يكن فى استطاعة الشاه كذلك اكتشاف حقيقة رجاله المخلصين خلال هذه
الأزمة الطاحنة . فقد كان (أحمد أغا) من رجاله المخلصين فعلا وقاد جزءا كبيرا من
شعب أصفهان فى حملة ناجحة ضد الأفغان . وكان الشعب الجائع قد حث (أحمد أغا)
على أن يشن هذه الحملة . ولكن الشاه لم يكافئه ، بل حقد عليه فما كان من (أحمد أغا)
الا أن انتحر بتناول السم .

وقام ولى العهد - طهماسب ميرزا - بمحاولة يائسة لتجميع جيش جديد من نواحى
قزوین ولكن هذه المجهودات كانت غير واضحة النتائج حينذاك .

وخلال هذه الفوضى الضاربة فى أرجاء البلاد ، كان من الطبيعى أن تنتهز بعض
الزعامات المحلية الفرصة لإعلان استقلالها عن حكومة الشاه . ومن أولئك الذين أقدموا

(١) تسمى هذه القرية بن أصفهان Ben Asfihan

على هذه الخطوة (مالك أحمد) الذي جمع جيشا من (تون Tum) وقاتل زعيم الأفسار وقتله وأعلن « مالك أحمد » استقلاله في (تون) .

وبينما كان الجيش الأفغاني يحاصر أصفهان زحف « مالك أحمد » على رأس جيش كبير الى كنباد Gulnabad فارتفعت معنويات الفرس ولكن رشاه الأفغان بمقاطعات خراسان وسستان وبعض الهدايا القيمة فعاد أدراجه ليفرض سيطرته على الولايات التي حصل عليها :

حاول الشاه أن ينقذ عاصمته بأية وسيلة . فعاد ووافق على الشروط التي سبق وقدمها محمود . الا أن محمود رفض أن تكون هذه الشروط أساس الصلح على اعتبار أن الظروف قد تبدلت لصالحه . وخلال هذه المفاوضات ظهر (مالك أحمد) على مسرح الأحداث فكان انسحابه ضربة قاضية للشاه ، وحيث أن أصفهان كانت تمسوت ببطء بسبب المجاعة التي جعلت الناس يأكلون لحوم بعضهم قرر الشاه التنازل عن العرش لمحمود وتسليم المدينة (١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م) . وهكذا سقطت عاصمة الصفويين وكانت ايذانا بانتهاء الأسرة الصفوية نفسها كاسرة حاکمة .

كان مير محمود يعيد النظر في توجيه سياسته بعد أن فتح العاصمة أصفهان . وأصبح - كما يبدو له - صاحب الحق الشرعي في أن يحكم البلاد ، فقد عمل على أن يستمر دولاب العمل الحكومي في مسيرته دون توقف . ولهذا أبقى الموظفين الفرس في وظائفهم ، وانما أبقى بعض المراقبين الأفغان معهم ليتأكدوا من أن الأمور لا تسير في اتجاهات مضادة للحكم الجديد الأفغاني .

وعامل الأوروبيون ، أفرادا ، ووكالات ، معاملة طيبة ، معطيا الفرصة لهم بمتابعة أعمالهم التجارية مبقيا على الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها أيام العهد الصفوي .

بل ذهب مير محمود (الشاه محمود) الى أبعد من هذا في سياسته المعتدلة هذه . فقد كافأ أولئك الزعماء الفرس الذين استمروا على وفائهم للشاه السابق حسين ، وأنزل العقاب بأولئك الذين خانوه . ولا شك أن مثل هذه السياسة كانت مفاجئة للفرس ، حتى لكاد يبدو أن إيران مقبلة على عهد جديد من الهدوء والسلم البناء الذي هي في أمس الحاجة اليه منذ زمن طويل .

لقد كانت آمال مير محمود (شاه محمود) هي هذه فعلا . ولكن الاستيلاء على شرق فارس ووسطها ، والجلوس في قلب العاصمة الفارسية أصفهان واتباع تلك السياسة المعتدلة — التي كانت في نظر الغالبية العظمى من الشعب مجرد رياء وخداع من جانب فاتح بربري — والدعوة الى التعاون معه على اعتبار أنه هو الوريث الشرعي للأسرة الصفوية ، كن هذا ما كان ليعطيه أملا واضحا في أن الأمور قد تستتب اليه ان عاجلا أو آجلا . فقد كانت هناك قوى عديدة محيطة بفارس قد عازمت على أن تفرض نفسها على الأحداث ، فاذا كان الأفغانيون قد غزوا إيران من الشرق ، فليغزوها العثمانيون من الغرب ، وليغزوها الروس من الشمال . ثم هناك في الشمال كذلك ولي العهد الصفوي (طهماسب) الذي كان يعمل على تكوين جيش كبير للدفاع عن بلاده وللوصول الى العرش الذي أصبح من حقه وأصبح عليه أن يكافح من أجله والحصول عليه بحد السيف .

ثم ان ذلك التعدد في القوى المتوثبة على إيران ، وذلك التفكك في قلب الدولة الإيرانية نفسها ، جعل من اليسير على زعماء العصابات العشائرية الفارسية والكردية أن تنفصل عن الحكومة المركزية ، وان تصبح وحدات سياسية على نوع من الاستقلال لتجنب نفسها — من بعد ذلك — مغبة الولاء للشاه الأفغاني الجديد (مير محمود) وتجنب نفسها كذلك الارتباط غير المجدي — من وجهة نظرها — بالأسرة الصفوية المتناحية .

وكان على « مير محمود » (الشاه محمود) أن يتغلب على كل هذه القوى ليثبت أنه فعلا حاكم إيران الحقيقي . وأن مثل هذه الأمور لتبدو بسرعة وكأنها فوق قدراته ولكن حمسه وانتصاراته السابقة كانت تعطيه الدافع والأمل في تحقيق تلك الأهداف .

بدأ مير محمود (الشاه محمود) بتصفية النزاع على العرش لمصلحته نهائيا عن طريق القضاء على المطالب الوحيد بعرش الأسرة الصفوية (طهماسب) على اعتبار أن ذلك سيجعل الولاء كله لمحمود . وفعلا بعث (مير محمود) حملة كبيرة الى شمالي فارس ضد (طهماسب) كما كان من أهداف هذه الحملة كذلك « قزوين » و « قم » و « كاشان » . ولقد نجحت الحملة في الاستيلاء على هذه المدن الهامة ، دون أن تتمكن من القضاء على طهماسب نفسه .

وخلال هذه الحملة بدأت بوادر تنذر بتدهور خطير في جانب الأفغان . فقد كانت

هذه المسئوليات الجسام تتطلب من (محمود) أن يجيش جيوشا كبيرة للغاية . وحيث أن الفرس أنفسهم كانوا غير مستعدين للانخراط في سلك الجندية تحت الأفغانين ، أصبح على محمود أن يستجلب القوات الجديدة من أفغانستان نفسها .

بعث محمود بالأموال الى قندهار لجمع جيش كبير من هناك . ولكن لا الأموال وصلت الى من كان يجب أن يتسلمها، ولا أتت من أفغانستان امدادات جديدة الى إيران . فقد استولى حاكم سستان على مبلغ يصل الى ٣٠٠ ألف جنيه استرليني كان في طريقه الى قندهار لذلك الغرض . وحتى لو وصلت الأموال الطائلة الى أفغانستان ، فقد كان من المتعذر جدا تجييش جيوش جديدة من أفغانستان وارسالها الى إيران .

فعندما قام محمود بهجومه على إيران ، وخلال عملياته العسكرية العديدة في إيران كان محمود قد استخدم الغالبية العظمى من طاقة أفغانستان البشرية المستعدة للجندية .

ومن ناحية أخرى ، كان انقضاؤ أفغانستان على إيران يعنى انقضاؤ قوة أصغر على أخرى أكبر . وبالتالي كان المجهود الذى يتطلبه ذلك للهدف ضخما جدا خاصة وأن الأفغانيين سبوا الى تحقيقه دفعة واحدة ، وليس على أساس اقتطاع جزء بعد الآخر من فارس .

ولهذا كانت خسائر (مير محمود) العسكرية لا تعوض ، وكانت الثورات التى تنشأ ضده تشير فيه أشد معانى القلق . ولقد كان كثير من المدن الإيرانية مستعدة للثورة على الأفغانيين المتغترسين ، وكانت مدن الأطراف أكثر المهن استعدادا وامكانية للتمرد الناجع ضد الأفغانيين . وكانت ثورة قزوين من أنجح ثورات المدن عليهم . اذ طردت الحامية الأفغانية منها .

ومن الظواهر ذات الدلالة خلال ثورة قزوين أن الحامية الأفغانية التى طردت لم تذهب للانضمام الى مير محمود (الشاه محمود) وإنما عادت مهزومة الى قندهار . الأمر الذى يكشف لنا كم كانت قوى (مير محمود) العسكرية تنهار بسرعة .

استطاع (مير محمود) خلال هذه الفترة العصيبة من حكمه أن يجتنب اليه الأكراد، وأن يجندهم ويصبحوا قوة لها فعاليتها . وهذا الاقبال الكردى على الانخراط في سلك

الجنديّة الأفغانيّة يرجع أساسا الى التقارب المذهبي بين الطرفين ، فضلا عن أن الأكراد في مثل هذه الظروف يصبحون في مكانة الصدارة • واستطاع (مير محمود) بعد جهد أن يبعث بعدة حملات ضد المراكز الرئيسيّة الثائرة عليه في (خونساران) و (كاشان) و (شيراز) و (بندر عباس) و (يزد ، وبهبان) • وكانت معظم حملاته ناجحة في بدايتها ولكن نتائجها كانت سيئة • بل لقد صدّت الوكالات الانجليزيّة والهولنديّة الهجمات التي شنت على بندر عباس بما كان لديها من مدفعية يحسن الانجليز والهولنديون استخدامها •

في هذه الظروف أبدى قيصر روسيا بطرس الأكبر نيته في أن يتوسع في إيران • ووضع خطته السياسيّة على أساس عدم الاعتراف بالشاه الأفغاني (مير محمود) والتمسك بالشاه (الشرعي) حسين • ولهذا بعث بطرس الأكبر بسفارة الى (الشاه حسين) • وادعى الروس أن الغرض الظاهري من هذه السفارة هو المطالبة بتعويض عما أصاب قافلة روسية من خسائر تكبدتها على يد خان (خيوه) التابع لإيران • وأما الغرض الخفي فقد كان محاولة لجس نبض قوى فارس • تمهيدا للقيام بعمل عسكري ضدها • وخلال هذه السفارة الروسية أدركت الدبلوماسية الروسية أن (مير محمود) على جانب كبير من الجهل السياسي والاستراتيجي وذلك عندما شكّا اليه الدبلوماسيون الروس من اختلال الأوضاع في شمال فارس • فبدلا من أن يؤكد عزمه على السيطرة والتحكم في تلك الجهات قال للروس أنه لا يملك القدرة على السيطرة على الأوزبك أو على الليجيان • فما كان من بطرس — بعد أن علم بذلك — إلا أن هبط الفولجا على رأس ٢٢ ألف مقاتل معلنا أنه لم يزحف على فارس طمعا في أراضيها ، وإنما انقاذا لها من الطاغية الأفغاني • واستولى على (دربند) واتجه الى شماكا ، إلا أنه بينما كان في طريقه اليها وصل مبعوث عثماني معلنا احتلال الجيش العثماني لشماكا ، وحذر المبعوث العثماني المسؤولين الروس من أن أي تقدم من جانب الجيش الروسي على حساب الدولة الفارسيّة يعني حالة حرب ضد الدولة العثمانيّة • ولما كان بطرس الأكبر لا يرغب في الاشتباك في حرب ضد العثمانيين أثر التوقف عند دربند تاركا فيها حامية كبيرة •

وهناك عامل عسكري جعل بطرس لا يفامر بحرب ضد العثمانيين هو أن الجيش العثماني كان لا يزال قوى الشكيمة ، وكانت سمعته لا تزال رهيبة • وفوق هذا وذاك

كانت خطوط مواضلات بطرس طويلة ومرهقة للغاية وإلى جانب هذا ، كان بطرس قد فقد الكثير من سفنه الباقلة للمؤن اذ غرقت في النهر الأمر الذى شل قطاعات كبيرة من جيشه عن العمل .

ولم تلبث أن دارت المفاوضات بين الروس والعثمانيين خاصة وأن تطورات خطيرة كانت تحدث على حدود الدولتين المشتركة مع فارس . فبينما كان الأفغانيون يضغطون على (رشت) استنجد حاكمها الفارسى بالروس فاستولوا عليها ، وعقد طهمسب مع الروس معاهدة ليستميلهم إلى جانبه تنازل بمقتضاها للروس عن الأقسام الشمالية من فارس (سنسروان ، داغستان ، جيلان ، مازندان ، استراباد) ، واستنجدت شروان التى تسكنها أغلبية سنية — بالسلطان العثمانى . ولهذا لم يلبث أن اتفق الطرفان على تقسيم فارس فيما بينهما (١٧٢٤) على النحو التالى :

١ - تحصل روسيا على سواحل بحر قزوين وجيلان ومازندان إلى ما هو شمالى المجرى الجنوبى لنهر آراس . أو بمعنى آخر تعترف الحكومة العثمانية بما سبق أن تنازل عنه (طهمسب) لروسيا .

٢ - تحصل الدولة العثمانية على الولايات الغربية الفارسية .

٣ - اذا اعترف طهمسب بهذه المعاهدة اعترف به شهاها على فارس .

٤ - يتخالف الروس والعثمانيون ضد أية محاولة يقوم بها طهمسب لاسترداد ما يسيطر عليه الطرفان (الروس والعثمانيون) . بمقتضى هذه المعاهدة .

وبعد توقيع معاهدة التقسيم هذه استولت روسيا على الأجزاء الشمالية من فارس . وأصبح على العثمانيين أن يضعوا يدهم على نصيبهم من فارس . فبعث السلطان العثمانى إلى العراق بوالى قوى الشكيمة ، هو حسن باشا ، الذى حكم العراق من ١٧٠٤ - ١٧٢٤ وخلفه ابنه (أحمد باشا ١٧٢٣ - ١٧٤٧) (١) . وكلف السلطان حسن باشا بالتوسع فى فارس ، واستطاع أن يتوغل حتى همدان ، واطلق عليه (فاتح همدان) .

(١) سيتولى أحمد باشا بعد أبيه مهمة الكفاح ضد الفرس وخاصة على أيام نادر شاه ، وسنتعرض بعد ذلك لهذا الموضوع .

هذا بينما فشل جيش عثماني - زحف داخل فارس من جهات أريقان - في الاستيلاء على تبريز ، ولم يحتلها الا بعد استعدادات جديدة ضخمة ومعارك دموية .

هذه التطورات الداخلية والخارجية أوهقت محمود ، ليس عسكريا فقط بل كذلك ذهنيا . اذ لم تستطع قدراته العقلية أن تواجه هذه الأعباء الجسام ، وبدأت قسوة العقلية تتداعى ، وانعكس هذا على تطور سياسته المعتدلة الى نوع من العنف والقسوة ثم الى نوع من الجنون والانتحار السياسي .

اصر (مير محمود) على أن يحتفظ بالعرش وبأصفهان رغم أن كل الشواهد كانت تدعو الى التخلي عنها والعودة بما تبقى لديه من جيش الى أفغانستان . وبسبب شعوره بالضعف تخلى عن سياسة الاعتدال ولجأ الى الارهاب . فأولم لنبلاء الفرس ووزرائهم وليمة انتهت بمذبحة عامة لهم . ثم أصدر أوامره بقتل ثلاثة آلاف مقاتل من قوة الحرس الفارسي ، وأمر كذلك بقتل كافة من خدم الشاه حسين . ولم يلبث أن أمر بقتل كافة أفراد الأسرة المالكة الصفوية باستثناء الشاه حسين . واستمرت هذه المنابر زهاء أسبوعين ادت الى أن يهبط عدد سكان المدينة الى الحضيض . وفرض ضرائب جديدة على الأراضي ، وامتدت يد جنده الى متاجر الهندو نهيا ومصادرة ، ولم تسلم من ذلك الوكالات الانجليزية والوكالات الهولندية التي كانت في متناول يدهم .

أدرك كبار رجال الأفغان أن محمود بدأ يفقد قدراته العقلية ، وأنه لو استمر على هذا النحو سيقضى على ما تبقى تحت يده . ولهذا استدعوا الأمير أشرف من أفغانستان، واسندوا اليه أولا ولاية العهد ، ثم رفعوه الى العرش بعد أن أصيب محمود بالجنون تماما . (١٧٢٥ م / ١١٣٧ هـ) .

★ ★ ★

٢ - اشهر

ولا شك أن الظروف كانت أقوى من قدرات محمود . وأن الظروف أيضا هي التي فتحت أمامه مجالات أوسع من امكانياته فأدى ذلك الى تدهور حكمه . ولكن الى جانب هذا توجد عدة عوامل أخرى أدت الى هذا التدهور .

١ - منذ أن أصبح محمود غير قادر على استقدام قوات جديدة من أفغانستان وعجزه عن تجنيد المزيد من الجند من داخل إيران نفسها ، أصبح الأفغان يعيشون في أرض معادية ، وأصبحوا أقلية تعيش بتماسكها كجزيرة صغيرة وسط محيط مضطرب . ولم يكن في استطاعة محمود أن يسيطر على كل إيران ، ولا حتى على الجزء الأكبر منها ، لا بقوة السلاح ، ولا بدعوى الحق الشرعي . إذ أصبحت فارس عبارة عن قوى متعددة إذا سيطر على إقليم ثار آخر وهكذا ، هذا فضلا عن القوى الأخرى الكبرى المتربصة بفارس ، وعن استمرار الأسرة الصفوية ممثلة في (طهماسب) تكافح ضده وفي سبيل حقها الشرعي في العرش .

٢ - كان (مير محمود) قائدا شجاعا ، جريئا . وكان قاسيا في تدريب جنوده على الأعمال العسكرية ، وكان محبوبا من هؤلاء الجند ، خاصة بعد تلك الانتصارات الكبرى التي حققها . ولكنه أجهد هؤلاء الجند بطاقات تفوق قدراتهم . ويرجع السبب الحقيقي في انتصاراته الى قوة الاندفاع الكبيرة التي كان يتميز بها مير محمود وجنده . ولكن مهمة السيطرة على فارس كانت تتطلب قوات أكبر ، خاصة إذا كانت هذه القوات غير فارسية .

٣ - أن فارس كانت ضعيفة ، وأن القوى العسكرية كانت مفككة . وظن مير محمود أن قوته وملكاته العسكرية هي العامل الأول والأخير في الانتصار وغرر به ذلك الانتصار حتى اصطدم بأن استمرار السيطرة على فارس أكثر إرهاقا له وأن الأمر يتطلب منه قدرات أخرى .

٤ — كانت قدرات محمود العسكرية تفوق قدراته التنظيمية والإدارية . شأنه في هذا شأن القادة الأعظم الذين خرجوا من أواسط آسيا . كان غازيا عظيما ، دون أن يكون صاحب فكر إداري وتنظيمي ، الأمر الذي أفقده أهم عنصر من عناصر بناء الأسرة الحاكمة .

كان على أشرف أن يواجه هذه الأزمات الكبيرة التي تعرض الوجود الأفغاني في فارس للخطر . ولكن تكون الصورة أمامنا واضحة يجدر بنا أن نحدد القوى الكبرى التي تتحكم حينذاك في مقدرات فارس .

١ — كان أشرف يسيطر على أصفهان وشيراز وجنوب شرق إيران . ولكن من العسير جدا القول بأنه كان يدير أمور هذه البلاد . كما أن تعدد القوى الخارجية ، وتعدد الثورات الداخلية جعلت أشرف — وهو الذي يعتمد على إمكانيات بشرية محدودة — يركن إلى الأساليب الدفاعية .

٢ — كان طهماسب يردد باستمرار أنه صاحب الحق الشرعي في العرش (١) وكان مركزه في مازندان . ونظرا لقلّة ما تحت يده من جند كان يراقب تطورات الأمور ومحاولة الإفادة منها . ولكن بعد أن انضم إليه (فتح علي خان) زعيم (القاجار) أصبح طهماسب قادرا على المشاركة في توجيه مصير البلاد إلى حد ما .

٣ — استمرت روسيا في اتباع سياسة القيصر بطرس الأكبر بعد وفاته . وهناك دعاية واسعة النطاق حول وصية كتبها بطرس الأكبر يحث فيها الروس على مضاعفة الجهد من أجل التوسع وتنمية الامبراطورية الروسية على حساب فارس . وستصبح روسيا قوة خطيرة ازاء فارس بل وازاء الدولة العثمانية في عهد كاترين الثانية قيصر روسيا المشهورة .

٤ — الدولة العثمانية كانت ترى في نفسها صاحبة الحق الشرعي في حكم فارس وحمايتها سواء من الأفغانيين أو الروس . وكانت قد توغلت قواتها في داخل فارس إلى

(١) خاصة بعد تنازل الشاه حسين خلال تلك الأحداث عن عرشه لمحمود . ولم يقتل الا بعد هزيمة أشرف — خليفة محمود — أمام (نادر خان) .

مسافات بعيدة • وأن حسن باشا — والى بغداد — توفي فى همدان ، الا أن ابنه أحمد باشا حل محله • وكان شخصية قوية على نمط أبيه •

اتجه أشرف فى أول الأمر الى دفع الجيش العثمانى الى ما وراء الحدود الفارسية العراقية • وبعث الى السلطان العثمانى محتجا عليه بسبب تلك المعاهدة التى عقدها مع دولة مسيحية (يقصد روسيا) ضد دولة إسلامية أخرى بقصد تقسيم فارس • ولقد كانت الميول العامة فى دوائر الاستانة الى جانب الأفغانيين ، ولكن الأفغانيين ما كانوا ليعرفوا الأسلوب اللين الدبلوماسى الا قليلا • فكانت طريقتهم فى الاحتجاج غير لائقة ، وكان أسلوبهم فيه عنيفا قاسيا ، الأمر الذى جعل الباب العالى يعلن الحرب على أشرف • ووجه الباب العالى جيش والى بغداد الى الزحف صوب أصفهان نفسها، ولكن « أشرف » ضرب مقدمة الجيش العثمانى وأوقف زحفه •

وشن (أشرف) حرب أعصاب ضد العثمانيين ، فبعث اليهم بعدد من كبار العلماء الأفغان السنة (١)، والتقى هؤلاء العلماء بأحمد باشا وبعدد من كبار علماء العراق ، وطرح العلماء الأفغان السؤال التالى :

« لماذا يشهر سنى السيف فى وجه سنى آخر ؟ » •

حقيقة رد العلماء العراقيون على ذلك بأن أوامر الخليفة يجب أن تطاع لا من قبلهم هم فقط بل كذلك من قبل « أشرف » نفسه على اعتبار أنه تابع للخلافة العثمانية •

وعلى أى حال ، فهذه المناورات المذهبية كان المقصود من ورائها أهدافا عسكرية وسياسية • ولذلك نجح علماء الأفغان فى تحقيق جزء من هذه الأهداف • فقد انفصلت قوة لها فعاليتها من الأكراد العاملين فى جيش أحمد باشا ، وانضمت الى جيش أشرف •

لم تلبث أن دارت المعركة الكبيرة بين الطرفين (أشرف ووالى بغداد أحمد باشا) ، وفيها أحرز أشرف انتصارا كبيرا وساحقا على العثمانيين • وفرت فلول الجيش العثمانى • وكان فى مقدور أشرف أن يتعقب هذه الفلول ولكنه رفض ذلك ، لأنه كان فى حاجة الى الوصول الى تفاهم مع السلطان العثمانى ، بسبب نمو قوة عدوه طهماسب

(١) معروف عن العلماء الأفغانيين تضلعهم فى الفقه والشريعة الإسلامية غلنى المذهب السننى •

الذى كان يتعاون معه حينذاك نادر خان (نادر شاه فيما بعد) . ولهذا لم يكتف « أشرف » بترك الجيش العثماني ينسحب بل رد الى العثمانيين الكثير من الغنائم التى استولى عليها من الجيش العثماني .

كانت هذه المعاملة الكريمة سببا فى أن يدخل العثمانيون مع أشرف فى مفاوضات للصلح . واتفق الطرفان على عقد معاهدة فى ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م قضت بأن يعمل العثمانيون على حماية قوافل الحجاج الى العتبات المقدسة فى العراق والحجاز ، وعدم قبول المجرمين أو الفارين من دولة لأخرى ، وبعدم التدخل فى شئون الطرف الآخر . وأهم ما ورد فى هذه المعاهدة :

- ١ - أن تستبقى الدولة العثمانية ما فتحته تحت يدها .
- ٢ - أن تدخل الحويزة فى اطار الدولة العثمانية .
- ٣ - واعترف أشرف بأن السلطان خليفة المسلمين ، واعترف السلطان بأشرف شاهها على فارس .

وهكذا ظلت فارس قسمة بين :

- ١ - أشرف .
- ٢ - قيصرية روسيا .
- ٣ - السلطان العثماني .
- ٤ - طهمسب .

وإذا كان أشرف قد وصل الى وضع مستقر فى الجبهة العثمانية عن طريق هذا التنازل الواسع النطاق ، فقد كان عليه أن يواجه القوى الأخرى المتعددة التى تناصبها العداء . وكان العدو المباشر التالى هو طهمسب الصفوى .

وكانت أمور طهمسب خلال السنوات الثلاث التى أعقبت معاهدته مع روسيا قد تحسنت الى حد كبير ، لا بسبب انضمام (فتح على قاجار) اليه ، وإنما كذلك بانضمام نادر خان اليه ، وهذا الرجل هو الذى سيعرف باسم (طهمسب قولى خان) ، وأخيرا سيشتهر باسم (نادر شاه) ، بعد أن يتولى عرش فارس .

الفصل الثاني

فارس

في عهد نادر شاه وكریم خان زند

نادر شاه

يعتبر نادر شاه آخر الفاتحين العظام الآسيويين . ولا تزال أساطير بطولته على الألسن في موطنه الأصلي . وهو من قبيلة كيركلو Kirklu ولم تكن هذه القبيلة ذات سطوة أو مكانة كبيرة ، ولم تكن تشكل عصبية عشائرية قوية ، ولهذا كانت عرضة لأن تقع تحت سيطرة العشائر الكبرى ، أو أن تفضل هي من نفسها الانضواء تحت عشيرة كبيرة تتمتع في ظلها بالحماية من عشيرة أو عصبية أخرى تريد أن تفرض نفسها عليها . ولهذا فضلت عشيرة كيركلو أن تنضوي تحت لواء عشيرة كبيرة مجاورة لها هي عشيرة الافشار .

كانت الأسرة التي خرج منها (نادر) فقيرة الحال ، فهو ابن لراعى أغنام قرب (محمد آباد) ، وتُدعى حالياً قلعة كهنة (القلعة القديمة) . وكانت ولادته في ١٦٨٨ م / ١١٠٠ هـ . وامتحن مهنة أبيه من رعى وجمع للاخشاب ونقلها على جمل وحمار ورثهما عنه . عاش في شيفظ العيش وعاناه ، وصبر عليه . ولكنه فوجيء بأشد ما يصيب المرء ، فبينما هو لا يتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمره ، قبض عليه الأوزبك هو ووالدته في واحدة من حملاتها الاجتياحية العديدة . ونقلوهما الى (خيوه) ، وبعد أربع سنوات ماتت أمه في الأسر . ثم تمكن هو من الهرب والعودة الى وطنه والى عشيرته الكبرى (الافشار) . وحيث أنه كان قوى البنية ، طموحاً ، قادراً على العسكرية ، وجد أن الدخول في الخدمة العسكرية هو اللائق به . وكان حاكم ابيفارد Abivard عاصمة المقاطعة حينذاك في حاجة الى شباب يعملون في فرقه العسكرية ، فقبله بين رجاله المقاتلين . وكان حاكمها حينذاك هو (بابا على بك) . وأسدى (نادر) الى (بابا على بك) خدمات كبيرة جعلته يزوجه ابنته . ولكن تطلع نادر بعد ذلك الى حكم ابيفارد نفسها ، ويقال انه تعجل الوصول الى الحكم عن طريق التخلص من صهره بالسسم . وعلى أى حال ، فقد تولى نادر خان حاكم المدينة من بعد الوفاة المريبة لحاكمها .

لم تكن هذه هي آمال نادر خان الطموح، بل تطلع بسرعة الى أن يحكم كل خراسان، فكان أن اصطدم بحاكمها ، ولم يستطع الصمود أمامه ، ففر من مدينته ليتحول ببساطة وبسرعة الى مجرد قاطع طريق . ولظرا لأنه كان على ذكاء كبير ، وكانت الظروف تمكنه من أن يجمع بعض القوات حوله ، اثناء الاضطرابات العديدة والحروب المتتالية التي اجتاحت ايران، استطاع أن يتحول من مجرد قاطع طريق الى قوة عسكرية قادرة على أن تشارك في الأحداث ، أولا في خراسان ، وبدأ يصبح له مكانا صغيرا في الأحداث في أعقاب استيلائه على (قلعة) التي عرفت بعد ذلك باسمه (قلعة نادري) .

ومن قاعدته ، شرع يوسع دائرة نفوذه ، واتجه أولا الى نيسابور . وقد أدهقته الجهود التي بذلها من أجل فتحها . وعندما تم له ذلك أعلن أنه لم يفتحها لنفسه ، أو أنه يؤسس لنفسه إمارة ، وإنما أعلن أنه من رجال الشاه الشرعى على البلاد « طهماسب » ، وأنه فتح نيسابور باسم الشاه .

لقد كان نادر خان يدرك أن «الحكم الشرعى الوراثى» مبدأ له قيمته في ذلك الوقت وأنه عليه أن يعلن تبعيته لواحد من الأسرتين الحاكميتين المتنافستين في البلاد ، فاختر الأسرة الوطنية ، وأعلن أنه يعمل باسم الشاه طهماسب . ولكن الى حين .

وهناك نبؤة رددت أن (نادر) هو الذى سيحرر فارس ويتوسع على حساب أربع ممالك . ومع أن الدراسة التاريخية لا تعنى كثيرا بمثل هذه الأمور ، إلا أن صيغة النبؤة هي التي تهمنا لأنها على الأقل تعبير عما كان يجيش في صدر (نادر خان) من آمال . وفعلا سنجده باستمرار معنيا كل العناية بتحرير فارس من الأفغانيين ، ويعمل على التوسع في الشرق والغرب وعبر الخليج العربى .

وواضح مما سبق أن سياسة (نادر) ستسير في الاتجاهين التاليين لفترة ليست بالقصيرة :

١ — أن يتوسع في الأقاليم الشمالية الفارسية باسم الشاه طهماسب محررا تلك البلاد من الأفغانيين .

٢ — أن يحتفظ لنفسه باستمرار باليد العليا في التحرك السياسى والعسكرى .

• ركن. نادر خان جهوده في منطقة خراسان ، ونصح (نادر) طهماسب بأن يسيطر أولا على مشهد وهرآة وكانت تحت سيطرة الأفغانيين • ويبدو أن (فتح على قاجار) كان على خلاف مع (نادر خان) ، وما كان نادر ليرك الأمور تسير على هوى منافسيه ، فدبر بسرعة مصرع منافسه (فتح على قاجار) عندما كانا في الطريق الى الاستيلاء على مشهد وهرآة • ونجحت جهود نادر خان ، وسقطت مشهد وهرآة في يده (١٧٢٧) •

أدى استيلاء « نادر خان » على مشهد الى أن يرتفع قدره ، كما ارتفعت مكانة طهماسب فأصبحا على مستوى المنافسة الكبيرة ضد « أشرف » • وأدرك أشرف نفسه ذلك ، وأن الفرس سينضوون بسرعة تحت لواء هذا التحالف بين نادر وطهماسب فهم من الفرس ، وأصحاب الحق الشرعى فى الحكم ومن هنا فكر أشرف فى أن يسرع الى خراسان ، ويرغم خصومه على خوض معركة كبيرة ينتصر فيها قبل أن تتجمع قوات كبيرة لدى هذا التحالف • ولكن نظرا للاضطرابات التى كانت تجتاح أفغانستان ومنطقة (قندهار) بصفة خاصة ونظرا لتوزيع قطاعات كبيرة من جيشه على المدن الكبرى كحاميات ، كان الجيش الذى جمعه للزحف الى خراسان لخوض المعركة الفاصلة لا يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ، لم يكن كله من الأفغانيين ، ولكن كانت لديهم ميزة هامة وهى أن انتصاراتهم السابقة على الجيش العثمانى أعطت لهم قدرات معنوية عالية •

وكان نادر خان هو الآخر يدرك أن المعركة القادمة ضد أشرف هى الفاصلة بين الأسرتين الحاكمتين المتنافستين • وكان قد أعد قواته لمواجهة هذه المعركة بأساليب أحدث ، إذ اعتمد على فرقة من رماة البنادق دربها تدريباً جيداً ، ووضع خطته على أساس أن يكسر حماس الجند الأفغانيين عن طريق حصد صفوفهم الأولى برصاص جنده • وعند دامغان Damghan دارت المعركة ، وسارت وفق الخطة التى وضعها (نادر خان) الذى أصبح يعرف منذ دخوله فى خدمة طهماسب باسم (طهماسب قولى) أى عبد طهماسب •

تحولت المعركة - التى عرفت باسم (مهماندوست) - الى كارثة للأفغانيين ولم تقم من بعدها لهم قائمة • (١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م) • فقد انكفأ أشرف الى أصفهان وجمع فلول جيشه وكذلك الأسرات الأفغانية فى (القلعة) • وعزم على أن يدافع عن عرشه • ولكن كل العوامل كانت تسير ضد آماله •

أسرع (طهماسب قولى) الى أصفهان ، وتوافدت عليه الجموع على اعتبار أنه منقذ البلاد من الأفغانيين ، وفرض الحصار على أصفهان ، ولم يقاوم الأفغانيون الا فترة قليلة ، ثم انهارت قواهم ، وفر أشرف وقلول جيشه صوب شیراز . وقبل أن يفادر أشرف أصفهان ، قتل الشاه السابق (حسين) . بينما دخل كل من طهماسب ، وطهماسب قولى العاصمة ، وبكى طهماسب عندما شاهد قصور أمراء البيت الصفوى مدمرة منهوبة . ولكن أدهشه كل الدهشة اقتراب سيدة عجوز منه ، فيها ملامح يعرفها ، كان قد فارقها منذ زمن طويل ، لقد كانت أمه التى كانت قد اختفت فى شكل جارية لتنجو من المذبحة التى دبرها (مير محمود) للأسرة الصفوية ، واتقنت السيدة دورها خلال تلك الفترة فلم يكتشف أحد أمرها حتى دخل ابنها طهماسب العاصمة أصفهان منتصرا .

تلك صور مآسى الأسرات الحاكمة ، وتلك صورة من الخراب الذى كانت تسببه الحروب الأهلية . ولقد كانت إيران مسرحا لما هو أشد وأمر من تلك الصور . فهناك من القرى ما أحرق ومن المدن ما أصبح مجرد أكوام من الأحجار لها مسميات فى التاريخ .

وعلى أى حال ، أدرك طهماسب شاه أنه لكى يصفى الموقف كله لمصلحته ، عليه أن يقطع دابر الأفغانيين نهائيا . وكان نادر أى (طهماسب قولى) يدرك هو الآخر أهمية ذلك لتسيده . فما أن طلب طهماسب شاه من قائده نادر (طهماسب قولى) أن يقتفى أثر الفلول الأفغانية المذعورة وأن يقضى على أشرف ، حتى طالبه (طهماسب قولى) بالمكافأة التى تليق بقائه منتصر فتح لسيده عاصمته . وما كان فى استطاعة طهماسب شاه الا أن يلبنى رغبات قائده الطموح اذ كانت القوة العسكرية الرئيسية تحت يده ، وما كان تحت يد طهماسب شاه من جيش لا يمكنه من فرض إرادته على قائده . لقد لعب (نادر) دوره بمهارة ، وحصل منه - كمكافأة على جهوده تلك - على حق جمع الضرائب من البلاد . فأصبح بذلك هو المسيطر على القوات العسكرية وعلى القدرات المالية للبلاد .

زحف نادر بجيشه صوب الجنوب ، وعند زارغان Zarghan على بعد عشرين ميلا من شیراز - انتصر على الأفغانيين . وحاول أشرف أن يحصل من (طهماسب قولى) على صلح مشرف دون جدوى ، بل أعلن (طهماسب قولى) أنه مصمم ليقتلن جميع الأفغانيين ما لم يسلموه أشرف نفسه .

أسقط في يد اشرف ، وممر من شيراز على رأس مئتين من رجاله فقط . فكان ذلك نذيرا بتفكك الجيش الأفغاني الى عدة جماعات ووحدات متفرقة كل منها اتخذت طريقها بنفسها صوب (قندهار) . وكانت هذه الجماعات تعاني خلال ذلك من الجوع وهجمات خيالة الفرس . فقدت الكثير من رجالها ولم تصل الا أعداد قليلة منها الى قندهار . اما اشرف فقد حاول أن يفرض سيطرته في منطقتي (اللار) و (كرمان) فثارت عليه تلك الأقاليم . وأدرك أن وجوده في تلك الأقاليم النائية ربما يؤدي الى القضاء عليه . فاتخذ طريقه مع شردمة من رجاله راجعا الى قندهار . ولم يلبث أن سقط اشرف صريعا وارسلت رأسه الى الشاه طهماسب (١١٤٢ هـ / ١٧٣٠) وحاولت جماعة من الأفغانيين الخروج من إيران عن طريق البحر فمرت بالبحرين وتعرضت للهجمات حتى كادت أن تتلاشى .

وبذلك انتهت المحنة التي عاشها الأفغانيون في إيران ، والمحنة التي عاشتها إيران خلال الغزوة الأفغانية ، لينتهي ذلك دون أن تحصل إيران من وراء ذلك على تقدم حضارى يذكر .

كان على نادر بعد ذلك أن يواجه القوى الأخرى التي كانت لا تزال تحتل أجزاء من فارس هي :

١ - الدولة العثمانية .

٢ - الدولة الروسية .

وبدا نادر (طهماسب قولى) بالأتراك العثمانيين، وهزمهم في موقعة عند «همدان» ، واستطاع أن يسيطر على أذربيجان وعلى أجزاء من العراق . وبينما كان يحاصر (أريقان) جاءته أنباء ثورة في خوراسان ، فترك (طهماسب قولى) الجبهة التركية مؤقتا والتفت الى خوراسان .

وثارت حمية (طهماسب شاه) - بعد تلك الانتصارات الكبيرة لقائده - وأراد أن يثبت وجوده ومكانته ، فانقض على الجيش العثماني في هجوم كان يعتقد أن الجيش العثماني المهزوم منذ وقت قصير لن يقوى على الصمود له . ولكن الهزيمة القاسية كانت

من نصيب طهماسب شاه (١٧٣١ م / ١١٤٤ هـ) . وفقد بذلك الفرصة لكي يحتفظ بمكانته . وشعر طهماسب شاه بذلك فعمل نفس ما سبق أن أقدم عليه أشرف من قبل وهو شراء سكوت العثمانيين بمعاهدة يتنازل فيها عن الكثير من الأراضي الفارسية لهم .

فقد عقد طهماسب شاه معاهدة الصلح مع السلطان العثماني على الأساس التالي :

- ١ - اعتبار نهر آراس حداً لفارس .
- ٢ - تنازل الشاه عن جانجا Ganja وتفليس وأريقان ونخشاوند وهمدان ولارستان ، أو بمعنى آخر عن معظم الولايات الغربية لفارس التي كانت تطمح فيها السلطنة العثمانية .
- ٣ - تسهيل التجارة وتبادل السفارات بين كل من العاصمتين أصفهان والاستانة . ولكن يلاحظ أنه لم تشر هذه المعاهدة الى اطلاق سراح الأسرى .

رأى (طهماسب قولى) - الطموح - فى هذه المعاهدة الفرصة المناسبة جداً ليضرب ضربه ، اذ أعلن اعتراضه على هذه المعاهدة متخذاً من اغفال الإشارة الى اطلاق الأسرى الفرس وسيلة للتشنيع على طهماسب شاه ، ومؤكداً أن هذه المعاهدة تتعارض مع مكانة الامبراطورية الفارسية العظيمة الشأن ، والتي يجب أن تكون كذلك . بل قال أن هذه المعاهدة تتعارض مع ارادة الإمام على ، ومع ارادة الله . وكتب بهذه المعانى الى حكام الولايات الفارسية محذراً من التقاعس عن بذل كل الجهود من أجل انقاذ البلاد من هؤلاء الذين تهاونوا بحقوقها الى هذا الحد المشين ومن أولئك الذين يطمعون كل الطمع فى إيران من أمثال السلطان العثماني . بل لقد بعث (طهماسب قولى) الى السلطان العثماني نفسه محذراً اياه من الانسياق وراء الشاه طهماسب على اعتبار انه لم يعد ممثلاً للبلاد ، ومطالباً السلطان باعادة الولايات التي وضع يده عليها الى أصحابها الشرعيين (الفرس) .

أسرع السلطان نادر ، وكان قد حصل على هذا اللقب من قبل ، الى العمل ضده طهماسب فزحف الى أصفهان ، وقبض على الشاه ورفع ابنه الطفل الى العرش وفرض (نادر) نفسه وصياً على الشاه الطفل (١٧٣٢ م / ١١٤٥ هـ) .

تابع نادر من بعد ذلك قتال العثمانيين فى العراق وضرب الحصار على بغداد

والموصل . واستماتت بغداد في الدفاع عن نفسها بينما بعثت الدولة العثمانية جيشا ضخما بقيادة واحد من أحسن قوادها طوبال عثمان باشا . ويحدثنا لوريير في موسوعته عن الخليج العربي (١) عن هذه المعارك بقوله :

« حدث اشتباك من أعنف الاشتباكات التي دارت بين الإيرانيين والأتراك . . وانتهت المعركة بهزيمة تامة ساحقة لقوات نادر . . الذي لم يكف عن التراجع حتى وصل همدان . . وخلال ثلاثة شهور قام نادر - الذي لم تضعف هذه الكارثة من روحه - بهجوم على الأقاليم التركية في جيش جديد . ودارت معركة أخرى انتصر فيها الإيرانيون هذه المرة . وكان عثمان طوبال بنفسه بين القتلى » .

ان هزيمة طوبال على تلك الصورة القاسية لا ترجع الى أخطاء من الرجل فقط وإنما انعكست مساوئ البلاط العثماني والباب العالي على الموقف . فقد توقفت الامدادات العثمانية عن الوصول اليه ، ولم يستطع أن يدفع مرتبات الجند . ومن ثم كان عليه أن يتجنب خوض المعركة ، ولكن صفاته كقائد منتصر ، وخشيته من أن يتهم بالجبن جعلاه يدخل معركته الخاسرة .

وأراد نادر - بعد ذلك الانتصار الكبير - أن يضع يده على مفتاح العراق الجنوبي (البصرة) . ولكنه وجد أن ذلك يتطلب منه استخدام أسطول . ولم يكن لديه حينذاك شيء منه . فاتجه الى شركة الهند الشرقية البريطانية طالبا اقراضه بعض السفن . ولكن هذه الشركة كانت تخشى من انتقام الأتراك العثمانيين ولذلك رفضت أن تمدّه بمسا طلب .

ولا شك أن نادر كان مستعدا لاطالة أمد الحرب في العراق لو لم تأت أنباء ثورة ضده في (اقليم فارس) . فآثر نادر أن يعقد معاهدة مع أحمد باشا والي بغداد على أساس إعادة الأمور الى ما كانت عليه قبل التوسع العثماني في إيران .

أغلب الظن أن تلك الاتفاقية بين السلطان نادر وأحمد باشا كانت محاولة من الأول لتهدئة الأمور في الجبهة العراقية حتى يفرغ من اخماد تلك الثورة وغيرها ليعود الى

(١) دليل الخليج العربي ص ١٧٨٢ وما بعدها .

العراق مرة أخرى. ومن ناجية أخرى لم يرض السلطان عن تلك الاتفاقية وعزم على أنه يستعيد فتوحاته في إيران بالقوة مرة أخرى. ويعتد السلطان العثماني بجيش جديد بقيادة عبد الله كوبرلي. فما كان من نادر إلا أن استدرك جيش كوبرلي إلى منطقة عرفت باسم (باغواند) Baghuand ورغم تفوق الجيش العثماني في العدد إلا أن نادر أحرز نصرا كبيرا جعل « تفليس » و « أريفان » و « جانجا » في قبضته. وكانت هذه الهزيمة سببا في أن يتخلى السلطان عن تصليه وفي أن يوافق على ما سبق أن توصل إليه نادر مع أحمد باشا من تفاهم.

ولقى نادر نجاحا في الجبهة الروسية لا يقل عن نجاحه في الجبهة العراقية. فلقد توفي بطرس الأكبر. وتوقفت من بعده - ولفترة ليست بالقصيرة - سياسة التوسع الروسي. إذ لم تكن القيصرية آن Ann من ذلك النوع الطموح الذي سنشاهده في كاترين الثانية. فقد وافقت آن Ann على أن تتخلى عن الولايات الفارسية وتعيدها إلى إيران وتم الاتفاق في معاهدة رشت Recht ١٧٣٢ على استرداد فارس لكل من مازندان واستراباد ، وجيلان (١).

ولم يلبث نادر أن استرد من الروس أيضا « باكو » و « دربند » مهددا بالتحالف مع الدولة العثمانية ضد روسيا. وكانت الحرب حينذاك على وشك الوقوع بين الدولتين العثمانية والروسية الأمر الذي عجل بتنازل روسيا عن هذين المكانين.

وهناك عامل آخر جعل روسيا تترك باكو ودربند لفارس بسهولة ، وهو أن مصلحة روسيا باستمرار إبعاد الدولة العثمانية عن مثل هذه المناطق خاصة وأن إيران لم تكن حينذاك بمثل الخطورة التي كانت عليها الدولة العثمانية بالنسبة لروسيا.

وقعت هذه الانتصارات الكبيرة قبل وفاة الشاه الطفل (١٧٣٦) بثلاث سنوات فقط. الأمر الذي جعل من نادر الرجل الأول بلا منازع عسكريا أو شرعيا على اعتبار أنهم

(١) تقول الرواية الفارسية أن نادر هو الذي طلب من الروس إخلاء تلك الولايات القزوينية. فبعث البلاط الروسي سفارة للتفاوض مع نادر. وعندما دخل المفاوضات الروسي على نادر كان الأخير قد تعمد أن يتناول طعامه ويديه مخضبتيه بالدماء مؤكدا للروس أنه لن يتنازل عن جيلان فحصل عليها.

هو الذى أصبح المسئول عن البلاد بصفته الوصى على العرش . ولا شك أن نادر كان يطمح فى أن يكون هو صاحب اليد العليا فى البلاد ، أما أن يكون شاهها فهذا ما لم يتطلع اليه الا بعد أن استمر فى منصب الوصى لفترة ليست بالقصيرة جعلته يعيش حياة الملوك ولم يعد ينقصه الا اللقب . ومع هذا أبدى زهدا فى العرش .

وفى احتفال النوروز — وهو أهم احتفال إيرانى سنوى — دعا نادر أعيان ونبلاء الدولة ، وطلب منهم أن يختاروا شاهها من بين أبناء البيت المالك . ولكن الأعيان والنبلاء رفضوا الا هو شاهها على البلاد . فرفض غير مرة ، ولمدة شهر ظل يرفض العرش حتى استجاب أخيرا وقبل العرش لانقاذ فارس ولتابعة رفعها الى أعلى المستويات .

ونادر شاه على هذا النحو ليس مرتبطا بسياسات الأسرة الصفوية ولا بتراتها ، ومن هنا كانت قدرته على أن يقدم على تغييرات جذرية فى البلاد من الناحية المذهبية . فقد كان يعتقد أن المذهب الشيعى مسئول الى حد كبير عن تدهور البلاد ، وعن عزلتها عن بقية جيرانها . ولكن الانقلاب الكامل نحو المذهب السننى كان أمرا عسيرا للغاية لأن ذلك سيضعه فى مصاف الزعامات السننية الأخرى فى الدولة العثمانية وفى أفغانستان ، فضلا عن أن ذلك يثير عليه شيعة فارس وشيعة العراق . فاتجه نادر الى حل وسط وهو اعلان المذهب الجعفرى — نسبة الى الامام جعفر الصادق — مذهبا سننيا خامسا . والمعروف أن لجعفر الصادق منزلة كبيرة فى قلوب المجتهدين الشيعة . ثم ان اعلان هذا المذهب ربما ينسى الناس تراث الصفويين المذهبى (المذهب الاثنى عشرى) ويجعله قادرا على كسب اهل العراق — وهو قبسمة بين الشيعة والسنة — اليه ، وهو الذى يطمح طمعا كبيرا فى السيطرة على العراق .

ويبدو أن النبلاء والأعيان كانوا أكثر تفهما للأهداف السياسية وراء هذه الفكرة المذهبية الجديدة فوافقوه على ما ذهب اليه . وربما كانوا مفتونين بالانتصارات التى أحرزها فمنحوه الثقة فى مختلف المسائل . ومن ناحية ثالثة لا شك أنهم كانوا يخشون معارضته ، خاصة وهو فى أوج قوته .

بعد أن جلس على العرش اتجه نادر شاه الى التوسع على حساب جيرانه ، توصلا الى مجده الجديد . وهناك عوامل أخرى حثته على التوسع العسكرى . فهو شاه جديد ، ومن (م ٢٢ الشعوب الاسلاميه)

شيمة الملوك الجدد التوسع وضم البلاد . ولقد كانت جهوده العسكرية في البلاد المجاورة تؤكد له أنه يستطيع السيطرة عليها وضمها الى إيران . ولما كان نادر شاه قد شكل جيشا كبيرا لتحرير بلاده من القوى العديدة التي كانت تسيطر عليها فإن هذا الجيش كان فوق طاقات إيران الاقتصادية وبالتالي لا سبيل الى المحافظة عليه الا بالتوسع والحصول على دخل جديد من وراء الفتح وضم الأراضي وجمع الأسلاب من الأعداء المقيمين .

اتجه نادر شاه أولا صوب قندهار ، وكانت حينذاك تحت حكم حسين (أخيه محمود الأفغاني) . وكان حسين يدرك أنه أعجز من أن يتصدى لجيش نادر شاه في معركة مكشوفة فأثر أن يغلق أسوار المدينة على جيشه بعد أن شحنها بالمؤن اللازمة . ف ضرب نادر شاه عليها الحصار وطال أمده الى حوالي العام حتى سقطت في يده .

لم يعامل نادر شاه (قندهار) بقسوة ، وإنما كان حكيما نحوها . وأدخل عددا من الأفغانيين في جيشه ، وأصبحوا بعد ذلك من أكثر الجند إخلاصا له .

ولكى يكسر شوكة العصبية العسكرية في قندهار نقل نادر شاه أعدادا كبيرة من الغيلزاي الى نيسابور وأحضر مكانهم أعدادا مماثلة تقريبا من عشيرة (العبدلي) لتقيم في قندهار .

ولما كان حاكم بلخ قد وعد (حسين) بالوقوف الى جانبه ضد غزوة نادر شاه له ، وجه الأخير جيشا ضده بقيادة ابنه رضا قولي ميرزا ، فاستولى على بلخ ثم هزم جيشا للأوزبك . ويبدو أن ميرزا قولي كان ينوي متابعة الزحف صوب بخارى ولكن نادر شاه سحبه ومنعه من متابعة سياسة التوسع في أراضي جنكيز خان والتزكمان . ومع هذا فقد عمد الى فتحها هي وخيوه بعد عودته من حملة في الهند (١٧٤٠) .

وخلال تلك العمليات وجدت القوات الأفغانية المهزومة طريقا بسرعة الى الهند الأمر الذي كان يمثل خطرا على استمرار أفغانستان تحت يده .

وأغلب الظن أن نادر شاه عندما كان يدير الحرب في قندهار كان يفكر في ارسال حملة الى داي . فللهند جاذبية كبيرة لكل من يقترب منها ، وبالذات لكل من يضع قدميه بقوة في أفغانستان ، فهي مفتاح الهند الشمالي .

ولقد كانت أحوال الهند نفسها تغرى نادر شاه بالتوجه إليها • فلقد توفي آخر الملوك المغول الكبار أورانجزيب في ١٧٠٧ تاركا وراءه امبراطورية واسعة تمتد من كابول الى خليج البنغال • وكان يسيطر على الغالبية العظمى من الهند نفسها وان كانت سلطاته ضعيفة في الجنوب بصفة خاصة • ومن بعده أخذت هذه الامبراطورية المغولية الذائعة الصيت تتفكك وتظهر على حسابها قوة منافسة لها عسكريا ومنهيا هي قوة الماراثا الهنديوس •

جلس على العرش في ١٧١٩ م / ١١٢١ هـ محمد شاه ولم يكن رجلا جديرا بعرش المغول اذ القى بنفسه بين النساء والخمر ، ولم يعد جيشه قادرا على خوض المعارك وبدأ واضحا أن دولته على شفى الانهيار •

أزعجت هذه الأحوال عددا من كبار رجال دولته • وبحثوا عن شخص يستطيع أن ينقذ البلاد • وكانت أنباء نادر شاه قد بلغت الهند ، فكان بطلا من أبطال المسلمين ، ومن ناحية أخرى كانت فارس وأفغانستان ملجأ ملوك المغول لكي يعيدوا تنظيم قواهم ، ولكي يستعينوا بفارس ضد أعدائهم • ولهذا كان تطلع رجال (الشاه محمد) الى نادر شاه أميرا طبيعيا • فكاتبوا نادر شاه لكي يقدم عليهم ، وهونوا عليه أمر فتح البلاد ، وقاموا باضعاف سيطرة رجال (محمد شاه) على القلاع الرئيسية في المناطق المتطرفة •

ومن ناحية أخرى ، بعث نادر شاه الى بلاط دلهي محذرا من خطورة اللاجئين الأفغانيين في الهند على مستقبل العلاقات الطيبة بين الدولتين • ولكن حكومة الشاه محمد كانت واهية ، وما كانت لتعتنى بمثل هذه الأمور فكان أن قامت القوات اللاجئة الأفغانية بعبور الحدود الى كابول وغزنة في حرية تامة ، بل وقد تجرأ (محمد شاه) على قتل مبعوث أرسله نادر اليه ليتفاهم معه على حل للمشكلة • ويبدو أن (محمد شاه) ما كان ليعتقد أن نادر شاه يستطيع أن يفكر في غزو الهند • ولذلك عندما بدأت غزوته للهند كانت مفاجأة قاسية لمحمد شاه ورجاله جعلتهم في حالة ارتباك شديدة •

انقض نادر شاه أولا على كابول ، وغنم منها أموالا دفعها لمرتبات لجنوده ، ثم استولى على بيشاور وعبر نهر السند والتقى بجيش محمد شاه فهزمه هزيمة مروعة ثم

استولى على دلهي (وعرش الطاوس) وعلى مغانم وصلت الى حوالي ٨٧ مليون جنيه
استرليني على الأكثر او ٣٠ مليون على الأقل ، وهو مبلغ ضخم للغاية حينذاك .

ويبدو ان نادر شاه كان يود ان يظهر بمظهر الفاتح القوي العادل الذي لا تمتد يد
جنده الى رقاب السكان . ولكن لم يلبث أن أمر بمذبحة بشعة لسكان دلهي لمجرد هجوم
وقع على عدد قليل من جنده .

ولا شك أن تطرف وقسوة نادر شاه هذه ترجع الى أنه وجد نفسه في محيط
غريب عليه ، مترامى الأطراف ، يكاد أن يضيع هو وجيشه فيه . ومن ثم كان في حاجة
الى استخدام الارهاب حتى يحافظ على كيان قواته فكان أن وقعت تلك المذبحة وحتى
الآن لا تزال مثلاً يتداوله الناس على القسوة البشعة .

ولعل هذا الشعور بالضيق في خضم الهند هو الذي حدا بنادر شاه الى أن يعلن
نفسه شاهاً على الهند ، اذ أبقي محمد شاه على عرشه ، وأمر الرعية بطاعته ، ولم يضع
نادر شاه يده الا على ولايات شمالي السند . وهذا تصرف سياسى حكيم (١١٥١ /
١١٥٢ هـ) (١٧٣٩) .

بعد أن فتح نادر شاه بعض الهند ، عاد الى فارس واستولى على بخارى وخيوه ، وذهب
الى « قلعة نادري » وبنى فيها قصراً وضع فيه كنوزه ومجوهراته . ثم ذهب الى مشهد
واحتفل هناك بانتصاراته . ويكون بذلك قد بلغ نادر شاه ذروة مجده وقوته (١٧٤٠ /
١٧٤١) . ولكن ابتداء من ١٧٤٢ بدأت الأمور تتغير ضده ، وبدأ هو نفسه يتغير ويفقد
كثيراً من ميزاته السياسية والعسكرية . وكانت اول أزمة وقع فيها تورطه في حرب
الليزغيان Lesghian .

هناك مثل ايراني يقول انه اذا كان هناك ملك فارسي غبي فليزحف ضد الليزغيان .
وهو مثل سيثبت نادر شاه صحته . فهذه العشائر تقطن منطقة وعرة للغاية ، يصعب
الوصول اليها . وقد اثاروا نادر شاه ضدهم عندما انتهزوا فرصة غيابه في الهند .
فأخذوا يجتاحون داغستان وشروان وغيرها من المناطق الهادئة ، حتى لقد قتلوا الاخ
الوحيد لنادر شاه وهو (ابراهيم خان) . فاقسم نادر شاه لينتقم لأخيه . وبعث بحملة

كبيرة ضدهم . وسارت الأجزاء الأولى من خطة الحملة حسب ما هو مرسوم لها من حيث إخضاع القبائل على طول مسيرة الحملة ونقل بعض عائلاتها إلى خراسان ، ثم وضع ثمانية آلاف جندي على حراسة خطوط تموينه ، ثم سار متعقبا المتمردين عبر الجبال الوعرة وغاباتها ، حتى حانت الفرصة لتلك القبائل لتضرب ضربتها بالطريقة التي اتقنتها .

وفي الموقع المناسب انقضت قوات المتمردين على جيش نادر شاه ، وأبادت قطعات كبيرة منه ، وتشتت شمله ، وبلغ جند الليزغان الخيام الملكية ، واستولوا على بعض النساء والمجوهرات .

أزاء هذه النكبة العسكرية المفاجئة أثر نادر شاه أن يتراجع إلى قواعده الخلفية ، وكاد الجيش أن يهلك جوعا خلال تفهقره لولا أن وصلتته إمدادات من استراخان .

ومما ضاعف من مظاهر هزيمة نادر شاه أن الروس كانوا قد نظروا بعين القلق الشديد إلى تحركات الجيش الفارسي في أراضي الليزغيان ، لدرجة أن روسيا بعثت إليهم بقوة عسكرية تشد أزرهم ، وتحثهم على طلب الحماية الروسية . وكان المفروض أن يثبت نادر شاه أنه قادر على مواجهة هذه التحديات ولكنه كان يدرك أن هناك في فارس من ينتظر يوم هزيمته ليثور عليه .

وفعلا وقعت محاولة فاشلة لاغتياله عقب عودته من حملته الفاشلة تلك . وأشارت أصابع الاتهام إلى ابنه رضا قولي ميرزا . وكانت هناك سابقة توحى بأنه لا يتورع عن ذلك . فقد سبق له أن انتهز فرصة شائعة ضعيفة تقول أن نادر شاه مات في الهند وأعلن نفسه شاهاً على فارس . ورغم أن رضا قولي خان كان يكرر براءته ويؤكد لها أن أباه كان في حالة قلق شديد من جراء هزيمته أمام الليزغيان ، فأمر بسمل عيني ابنه فقال له رضا قولي :

« ليست عيناى هما اللتان تطفئ نورها ، إنما أنت الذى تطفئ نور فارس » .

وأصبح الأمير ضريرا ، وأصبح نادر شاه أكثر قلقا وعنفا وقسوة وشراسة حتى أنه لم يلبث أن أمر بسمل عيني كل من حضر مشهد سمل عيني ابنه رضا قولي .

كانت ثورة الليزغيان الناجحة الأولى من الثورات التي هدت من كيان نادر شاه .
فقد وقعت ثورات عدة في كل من شيرون وفارس واستراباد .

فقد ظهر في شيرون من ادعى انه ابن الشاه حسين ، وقدم له الليزغيان مساعدة قيمة وهزموا قوة فارسية فرد نادر شاه على ذلك بأن أرسل حملة كبيرة ضد شيرون .
واسال دماء المنطقة انهارا ، وقبض على الثائر نفسه ووقع إحدى عينيه ليرسله الى السلطان العثماني مصحوبا برسالة تقول أن نادر شاه لم يعد هذا المتمرّد الذي لا يساوى شروى نقيروا الذي وافقه السلطان العثماني على ثورته .

وتمرد (تقى خان) حاكم اقليم فارس لفشله في تنفيذ سياسة نادر شاه في الخليج العربي بنجاح فأدبه . والواقع أن ظروف الخليج كانت تشجع نادر على السيطرة عليه .
وذلك عندما استنجد الامام سيف بن سلطان (الثاني) امام عمان اليعربي في ١٧٣٧ .
بنادر شاه لمواجهة التمردات ضده . وانتهاز نادر شاه هذه الفرصة للاستيلاء على عمان وبعث بحملة اليها (١٧٣٧) واجتاح الايرانيون عمان واستولوا على مسقط وضربوا الحصار على صخار وبها أحمد بن سعيد (مؤسس دولة البوسعيد في عمان) . وبينما مات الامام سيف بن سلطان ظل أحمد بن سعيد صامدا حتى استطاع أهل عمان أن يوحّدوا قواهم ويشنوا حربا شعواء على الفرس حتى هزمهم واجهز عليهم أحمد بن سعيد في (١٧٤١) .

وفي استراباد وقعت ثورة بزعامة (القاجار) فهزمهم نادر وقسما عليهم ودمر منطقتهم وقضى على امكانياتها الانتاجية .

ثم شن حربا ضخمة على الدولة العثمانية لعدم اعترافها بالمذهب الجعفري مذهبها خامسا سنيا ولصدور فتوى باعتبار اتباع هذا المذهب مارقين عن الدين . واصبح بذلك موقف نادر شاه صعبا للغاية فهو مكروه من السنة ، وكذلك كان من العسير جدا على المجتهدين في العراق ، وعامة الشعب الفارسي ان يأخذوا بنظريته .

اجتاحت الحملة الفارسية شرق العراق ، وحاصرت الموصل ، كما حاصرت في أقصى الشمال « قارص » وكان الجيش الفارسي متنوقا في البداية ولكن بتوالي الهجمات من

جانبه على الجيش العثماني كان يفقد الآلاف المتتالية التي تضعف من قوة الجيش بسرعة ولكنه لم يلبث أن انتصر انتصارا كبيرا في معركة مكشوفة ضد الجيش العثماني اضطرت السلاطات العثمانية إلى عقد صلح في ١٧٤٦ على أساس معاهدة ١٦٣٩ .

وكما كان نادر شاه فاشلا في معظم تحركاته العسكرية بعد ١٧٤١ ، كذلك كانت الأمور الاقتصادية لا تحرز الا النجاح القليل . فقد كان الانجليز معنيين بفتح التجارة مع فارس عن طريق روسيا وميناء رشت Recht ، ولكن خشيت روسيا من تفوق التجارة البريطانية على التجارة الروسية وفشل المشروع نهائيا بعد مصرع نادر شاه (١٧٤٧) .

كذلك فشلت جهود نادر شاه في انشاء أسطول فارسي كبير في بحر قزوين أو في الخليج العربي . وكانت روسيا تعارض هذا النمو البحري الفارسي في بحر قزوين ، كما كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تعارضه في الخليج العربي .

أما في مجالات الادارة والتنظيم فلم يكن له نشاط يذكر ، ولم يخفف الضرائب ، وإنما اوقع البلاد في أواخر حكمه في فوضى الخوف والارهاب والتمردات .

كانت الأيام الأخيرة لنادر شاه مليئة بالجماح ، والضحايا بالآلاف ، وفر كثير من الناس الى الكهوف والصحاري خوفا من بطشه ، واصبح هناك سخط عام عليه . فتمرد عليه عمه وأعلن نفسه شاها في سستان ، وثار الأكراد في كوشان فذهب لتأديبهم فلقى مصرعه — وهو على بعد قليل منهم — على يد أحد أبناء عشيرته ، ولفظ أنفاسه وهو يصارع قاتله (١٧٤٧ م / ١١٦٠ هـ) .

ولو كان نادر شاه مات خلال غزوته للهند أو بعدها لربما ظل بطلا اسطوريا لفارس . ومع هذا فهو من عداد شاهات فارس العظام .

ولقد رضى قواد نادر شاه عن مصرعه بعد تلك الأعمال المتطرفة التي قام بها في أواخر أيامه . ولكن ظل قائد كبير واحد معارضا لبقية القواد في هذا الصدد هو « أحمد خان » الدوراني الذي كان يقود فرق الأفغان والأوزبك . ودارت المعركة بين الطرفين وانهمز أحمد خان الى قندهار ليؤسس فيها مملكة له . فسيطر على أفغانستان تقريبا

واستولى على هراة ومشهد ، وغزا الهند واستولى على كشمير والسند وعلى جزء من البنجاب ، بل لقد وضع يده على دلهى لفترة قصيرة .

أسند العرش بعد مصرع نادر شاه الى ابن أخيه (على قولى) الذى عرف فى التاريخ باسم (عادل شاه) .

وكانت أولى أعماله أن أعلن أنه هو المسئول عن مصرع عمه نادر شاه متذرعاً بأنه كان ينقذ البلاد من بربرية ووحشية نادر شاه ولكن عادل شاه سلك نفس الطريق الوحشى مبتلياً بأسرة نادر شاه نفسه اذ بعث بقوة عسكرية الى (قلعة نادرى) فأباد حاميتها واستولى على كنوزها وأذل أسرة نادر شاه بين قتيل وشريد فى مذبحه لم يستثنى منها الا صبى فى الرابعة عشرة من عمره هو (شاه رخ مرزا) (١) .

كان « عادل شاه » من ذلك النوع القادر على تدبير المؤامرات دون أن يكون قادراً على الاحتفاظ بعرش . ومن هنا بدأت فارس تتعرض لمشكلات معقدة وتتفكك بسرعة .

ولم يمكث « عادل شاه » طويلاً فى العرش . اذ كانت فترة حكمه فترة ضعف للسلطة المركزية . ولم يلبث أن سملت عيناه بواسطة أخيه ابراهيم الذى هزم هو الآخر وقبضت عليه قواته وقتل وهو فى طريقه الى مشهد كما قتل « عادل شاه » وارتفع الى العرش « شاه رخ » .

كان من المعتقد أن أصله الملكى ودماثة اخلاقه كفيلاً بأن تعطيه حكماً طويلاً ولكن برز منافس قوى له فى شخص ابن أحد المجتهدين المشهورين وهو (مرزا سيد محمد) وكان مرزا سيد محمد ابن أخت الشاه حسين . وأعلن مرزا سيد محمد أن شاه رخ سيسير على نفس سياسة عمه من حيث القضاء على المذهب الشيعى وجمع جيشاً هزم به شاه رخ وقبض عليه وسمل عينيه وأعلن نفسه الشاه سليمان .

ولم يلبث أن ظهر على المسرح « يوسف على » قائد جيش « شاه رخ » الذى كان غائباً خلال تلك الأحداث فقبض على سليمان وسمل عينيه ثم قتله هو وولديه .

(١) هو ابن رضا قولى - السىء الحظ - من فاطمة ابنة الشاه حسين .

ارتقى « شاه رخ » مرة أخرى العرش وأصبح « يوسف علي » وصيا • ولكن لم يلبث أن شن قائدان هما « علم خان » وكان يقود قوات عربية ، « وجعفر خان » ويقود قوات كردية ، حملة هزت كيان « يوسف علي » وسملت عيناه ، وأخذ شاه رخ مرة أخرى الى السجن •

ولم يلبث أن تشاجر القائدان ، وانتصر « علم خان » وسمل عيني منافسه « جعفر خان » ، وأصبح علي « علم خان » أن يواجه تقدم أحمد شاه قندهار الذي سبق أن استولى علي « هراة » ولكن انهزم « علم خان » وقتل واستولى أحمد شاه علي « مشهد » وحاول أن يحصل علي خراسان — بعد أن ضم هراة ومشهد وسستان — علي أن تظل ولاية مستقلة تحت السيادة الاسمية للأفغان ١٧٤٩ •

★ ★ ★

كريم خان الزندي

مهدت هذه الفوضى لظهور شخصية تستطيع أن تسيطر على الموقف ولو سيطرة جزئية . وكان ذلك هو دور كريم خان الزندي .

كان كريم خان الزندي واحدا من الذين سعوا الى الحكم والسيطرة خلال فترة الفوضى تلك . وهو من قبيلة لك *Lak* ، وكان قد عمل جنديا في جيش نادر شاه دون ان يكون لنفسه حينذاك مكانة ذات قيمة . وبدأ نجمه يرتفع عندما تحالف مع « على مردان » زعيم البختياري . ولكن لم يلبث أن دب الصراع بين الطرفين ، وبعد مصرع الزعيم البختياري أصبح كريم خان سيد جنوب فارس ، واستطاع بشخصيته وكرمه ، وعدله أن يكسب القلوب هناك .

أصبح الموقف في فارس معقدا فخراسان كانت في يد « شاه رخ » بينما كان كل من « كريم خان الزندي » و « محمد حسين خان » و « أسد » يتصارعون على العرش ، وبدأ لكل منهم أن فرحة النجاح باتت في متناول يده . ولكن الذي كسب الجولة الأخيرة هو كريم خان . فقد دارت المعركة الافتتاحية بين كريم خان الزندي والقاجار على حدود « مازندان » وكانت الغلبة لكريم خان ، ولكنه لم يستطع مطاردة المهزومين بسبب تقادم الأفغان . وكان هؤلاء الأفغان قد غزوا « جيلان » ولكنهم عندما سمعوا بأنباء انتصار كريم خان على القاجار تراجعوا .

وخلال ذلك كان كريم خان قد أعاد تنظيم جيشه ولكنه بدلا من أن يهاجم محمد حسين خان - كما كان معتقدا - هاجم « أسد » فاعلق هذا الأفغاني « قزوين » على نفسه . ومن موقعه هذا أخذ يعمل على طرد كريم خان من المنطقة . ومنى كريم خان بعدة هزائم حتى اضطر الى التراجع الى بوشهر وطارده الأفغان حتى استطاع أن يوقع بهم بمساعدة رستم سلطان رئيس « كشت » وأبادهم وعاد كريم خان من بعد الى شيراز .

سارت الأمور لصالح كريم خان ، اذ تساقط منافسوه الواحد بعد الآخر اذ لم يصمد أي من حسين خان أو أسد أمامه . وشرع كريم خان في حكم فارس وهو حكم امتد

حوالى تسعة وعشرين سنة (١١٦٣ - ١١٩٣ هـ) (١٧٥٠ - ١٧٧٩) • ولمدة عشرين عاما كان حاكما لفارس دون منازع ، ولكن دون أن يطالب بالعرش اذ اكتفى بوضع يده على كافة السلطات معلنا نفسه « وكيلا » عن الشاه الذى كان محتجزا لديه ، واتخذ من شيراز عاصمة له التى عنى بها كل العناية • وكان معنيا برفاهية شعبه ، وكان اذا عرف - أن قسما من أهالى المدينة لا يستمعون الى أنغام الموسيقى يستفسر ويبحث ويدفع الأموال للموسيقيين ليعزفوا موسيقاهم الشجية لهم • وشاعت روح المحبة والحبور بين الأهالى •

ولقد أعطى كريم خان فعلا فارس المتعبة التى ملأت ارجاءها أقاصيص البؤس والقتل الجماعى وتلال الجماجم ومآسى الاعتداء على المحصنات وسمل العيون ، لقد أعطى إيران هذه ثلاثين سنة من نعمة الهدوء والاستقرار •

وكان الاستقرار الذى نعمت به فارس على يد كريم خان سببا فى أن يتجه الانجليز الى اعادة علاقاتهم المباشرة الاقتصادية مع فارس • فمنذ الغزو الأفغانى والفوضى التى أعقبته من الأمور الرئيسية التى أدت الى اغلاق الوكالات الأوروبية فى فارس وبعد انتهاء موجة الفوضى العارمة لم يعد فتح بعضها • وقد أغلق الانجليز وكالتهم فى بندر عباس فى ١٧٦١ بسبب الضغوط التى كان يمارسها حاكم لار (لرستان) • وفى ١٧٦٣ أختيرت بوشهر - ميناء شيراز - لتكون مركزا للنشاط التجارى البريطانى • ولما كان كريم خان الزند معنيا كل العناية باستمرار الانجليز فى توسيع نشاطهم التجارى فى بوشهر أصدر فرمانا يتضمن امتيازات مشجعة لتنمية النشاط التجارى البريطانى هناك •

نص فرمان كريم خان الزند لشركة الهند الشرقية البريطانية فى يوليو ١٧٦٣ على ما يلى : -

« للجانب البريطانى الحرية فى اقامة وكالة فى بوشهر أو أى ميناء آخر فى الخليج وله أن ينصب فيها من المدافع بالقدر الذى يشاؤه على ألا تكون هذه المدافع أكثر من عيار ستة أرطال وأن يبنى فيما يتعلق بهذا الغرض فى أى جزء من المملكة أى عدد من الأبنية العادية كما يجب أن تعفى تجارتهم من رسوم الاستيراد والتصدير الداخلية فى كل من بوشهر أو أى ميناء آخر ، كما يجب أن لا يتقاضى

شيخ بوشهر والحكام المحليون الآخرون أكثر من ٣٪ كضريبة تصدير على البضائع البريطانية التي تشتري من قبل التجار الإيرانيين كما يجب أن يكون للبريطانيين حق احتكار توريد البضائع الصوفية الى إيران كإجراء ضد جميع الجنسيات الأخرى . كما يجب على الحكام المحليين مساعدتهم في استيفاء ديونهم المشروعة في إيران . وفي حالة فشلهم فان للبريطانيين الحق في اتخاذ اجراءاتهم ضد المستدينين منهم . وأن تجارتهم يجب أن تكون حرة من جميع القيود في أنحاء إيران كما يجب على التجار الوطنيين عدم شراء بضائع من أى سفينة بريطانية تصل الى ميناء إيراني بدون معرفة وموافقة الممثل البريطاني الرسمي . كما أنه يجب على السلطات المحلية عدم نهب أى مركب بريطاني في الخليج اذا ما ضاع أو قذف الى الشاطئ ، بل عليها مساعدته بدون مقابل وأن يتمتع البريطانيون ومن هم تحت حمايتهم بتسامح ديني في جميع أجزاء البلاد وعلى السلطات الإيرانية أن تسلم للبريطانيين الأشخاص الفارين من الخدمة سواء أكانوا بحارة أو جنودا أو خدما . . وأن يعفى المترجمون والوسطاء وخدم الوكالة من الضرائب الإيرانية ، وكذلك رعايا الادارة البريطانية . كما يجب تحديد بقعة من الأراضي في أى مكان يعينونه كمقبرة لهم . واذا ما رغبوا في أرض كحديقة لهم فيجب أن تقدم سواء كانت بدون ثمن من أراضي التاج الإيراني أو بدفع ثمن زهيد لأرض ليست من أملاك التاج كما يجب أن تعاد اليهم الدار السابقة التي تمتلكها شركة الهند الشرقية في شيراز وما يتبعها من حديقة وما يخصها من مياه . ويرغب الوكيل في الاشتراط بالاضافة الى البنود السابقة بأن يأخذ البريطانيون المنتجات الإيرانية مقابل دفع كامل أو جزئي بالبضائع ، وعدم تصدير قيمة مبيعاتهم نقدا وألا يسيئوا معاملة المسلمين كما يجب تفضيل التجار الرئيسيين والرجال الموثوقين عند بيع مستورداتهم كما يجب عليهم عدم ايواء الأشخاص الثائرين على السلطات الإيرانية بل يجب على العكس تناول الموضوع بالدراسة للتأكد من أنهم لم يعاقبوا للمرة الأولى أو الثانية . واخيرا يجب على البريطانيين عدم مساعدة أعداء حاكم إيران سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .

حقيقة لم توافق مقيمة بومباي - المسؤولة عن تلك الاتصالات مع كريم خان -

عن بعض تلك الشروط ولكن سارت الأمور بين كريم خان والانجليز نحو التطور والتعاون .
فقد كان كريم خان في حاجة الى الأسطول البريطاني في الخليج العربي لاختضاع مير مهنا
الذي كان يشكل قوة بحرية كبيرة متمركزة في (بندر رق) ، أو الى الأسطول الهولندي
في (خرج) (١) ، ولقد قدم الانجليز بعض المساعدات وهاجموا عبثا جزيرة (خرج) ،
ولكن خلال ذلك وقع سوء تفاهم وتباعد بين كريم خان والانجليز ووصلت هذه الأزمة
ذروتها عندما سحبت الشركة ممثليها من بوشهر الى البصرة .

كانت هناك عوامل عديدة تلح على كريم خان لكي يستولى على البصرة بالاضافة
الى ارغام الانجليز على العودة الى بوشهر ، وهى عوامل تقليدية متعلقة بتعدييات العشائر
على الأراضي الايرانية . وكانت ذكريات النجف وكربلاء والمعاملة السيئة التى يعامل
بها حجاج العتبات المقدسة الايرانيين من الدوافع القوية لان يعيد الفرس المبررات
لاعلان الحرب على العراق العثماني لامتلاكه .

وكان كريم خان نفسه كرديا ، فمالت اليه العصبية الكردية في شهرزور . واعطى
النزاع الأسرى العنيف الذى لا ينقطع في الامارات الكردية فرصة لتدخل كريم خان في امور العراق
في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تجاهد في الوقوف على قدميها عسكريا امام جيوش قيصرية
روسيا الطموحة (كاترين الثانية) المنتصرة . ولذلك لم يكن لدى الدولة العثمانية جيوش
لتوجه الى العراق لانقاذه . هذا الى أن قوات والى بغداد المملوكى (عمر باشا) نفسها
وامكانيات الشعب كان قد ارهقها الطاعون .

كان من الطبيعى ، والحالة كذلك أن تنهار مقاومة عمر باشا - والى بغداد
المملوكى - امام الهجوم الفارسى في شهرزور . اما البصرة فقد حمل لواء الدفاع عنها
متسلم على جانب عظيم من المقدرة هو سليمان آغا . والذى عرف فيما بعد باسم سليمان

(١) خلال فترة الفوضى اسيئت معاملة كنبهاوزن (الهولندي) وسجن . ثم
استولى على جزيرة (خرج) عند مدخل الخليج العربى واستطاع بذلك أن يتحكم في
مدخل شط العرب وارغم حاكم البصرة أن يدفع ثمن معاملته السيئة له . وبفضل الوجود
الهولندي في (خرج) تحولت هذه الجزيرة القاحلة الى جزيرة عامرة ، ولكنها لم تلبث أن
فقدت أهميتها بعد أن استولى عليها مير مهنا .

باشا الكبير (١) وكان المتسلم محبوبا من أهل البصرة ، فتفانوا في الدفاع عنها واستنجدوا بكافة القوى التي كانت مستعدة للتعاون معهم فجاءتهم امدادات بحرية من مسقط وقدم المقيم البريطاني مساهمة بحرية فعالة . واستمات المدافعون حتى استنفدوا طاقتهم ، وحتى آتاهم من أخبرهم بان بغداد لن تمتد يدها اليهم في الدفاع عن ميناء العراق . ولكن كانت الضربة القاصمة لقوى الدفاع على المدينة على يد المقيم البريطاني في البصرة .

فعندما اشتد حصار الإيرانيين للبصرة أثر المقيم البريطاني هناك أن ينسحب فجأة وان يتفق مع الإيرانيين ففتح الطريق أمام الإيرانيين وسقطت المدينة في يدهم ، ولم يلبث أن أعاد الانجليز فتح وكالاتهم في البصرة تحت الحكم الفارسي .

وكان لما حل بالعراق صدى قوى في الاستانة وكان السلطان قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرية روسيا كاترين الثانية فالتفت الى العراق وأرسل جيش انقاذ اليه . ولكن الباب العالي اقتنع بان تبعة ما حدث تقع على عاتق (عمر باشا) والى بغداد فصدر الحكم بقتله دون أن يعنى العثمانيون العناية الكافية بانقاذ البصرة ، لأن السلطان كان ينوي أن يعيد العراق الى الحكم العثماني المباشر بالقضاء على حكم المماليك، ولكن اثبت رجال الباب العالي في العراق عجزهم عن السيطرة على العراق أو عن اخراج الفرس من البصرة واستمرت تحت حكم صادق خان - أخى كريم خان الزند - زهاء خمس سنوات . ولم يخرج الفرس منها الا نتيجة لتطورات الأحداث في داخل إيران نفسها في أعقاب وفاة كريم خان في ١٧٧٩ .

بعد وفاة كريم خان الزندى (الوكيل) وقعت سلسلة من الصراعات حول العرش، وكانت هذه الصراعات ليست بقاصرة على أسرة الزند فقط بل اشتركت فيها أسرة (قاجار) التي كانت خصما عنيفا للزنديين . فكان ان ضعفت الأسرة الزندية ودالت دولتها لصالح الأسرة القاجارية .

كان لكريم خان أخ من أمه يدعى (زكى خان) . وكان الرجل عنيفا . وتجلى ذلك عندما وجهه كريم خان ضد القاجار برئاسة (حسين قولى خان) استخدم زكى خان

(١) حكم واليا على العراق من ١٧٧٩ - ١٨٠٢ ، وكان قبل ذلك متسلما (حاكما) على البصرة .

أساليب بربرية قاسية جدا ضد الثوار الأمر الذي جعله مكسروها ومخيفا في مختلف أرجاء فارس .

وعقب وفاة كريم خان استبد زكى خان بالحكم (مارس ١٧٧٩) وكان عليه أن يواجه عددا كبيرا من المنافسين له . فقد وضع بعض أفراد الأسرة الزندية ايديهم على شيراز ورفعوا أبا الفتح خان (ابن كريم خان) الى العرش . فلعب زكى خان لعبة سياسية ناجحة حين أعلن أنه هو نفسه يعمل من أجل (أبو الفتح خان) . وعلى هذا الأساس تفاعم مع الزعماء المسيطرين على قلعة شيراز . وما أن استسلم هؤلاء حتى أعمل فيهم السيف وقد ساعده في تنفيذ هذا الانقلاب ابن اخته مراد خان الرجل الطموح الشكوك .

أما صادق خان ، فقد أسرع خارجا بقواته من البصرة الى إيران مستعدا لحمل السلاح في وجه كل مدعى للعرش . الا أن زكى خان هدد بانه سيقتل أسرات كل من يميل الى صادق خان ومع هذا استطاع صادق خان أن يلعب دورا عسكريا وسياسيا على مسرح الأحداث خاصة وإن كريم خان قد اسند اليه — وهو على فراش الموت — الوصاية على ابنائه من بعده . . .

على أن القوة الخطيرة المهددة لحكم زكى خان كانت نمو قوة أغا محمد (قاجار) . فبعث بجيش الى اصفهان بقيادة (على مراد خان) ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن ثار على زكى ، فزحف بجيش كبير ضده ولكنه — أى زكى خان — اغتيل في سبتمبر ١٧٧٩ وهو في الطريق اليه وبعد أن أقدم على مذبحة وحشية فى « يزدخاست » .

بعد مصرع زكى خان ارتقى العرش أبو الفتح الصبى غير الطموح ، الضائع الشخصية ، ولكنه كان مشهورا بدمائة الخلق . واذا بأول عمل قام به الشاه الجديد هو أن سجن أكبر خان (ابن زكى خان) واخاه (محمد على خان) الذى تزوج ابنة زكى خان .

وفى أوائل يوليو ١٧٧٩ ظهر صادق خان فى شيراز ونجح فى أن يفرض نفسه على الشاه . وكان نظام الحكومة بهذا الشكل مزدوجا ، وهو نظام لا يؤدى فى الغالب الا الى الصراع بين الطرفين فاقصى صادق خان منافسه (أبو الفتح) وسمله (١٧٧٩) بعد حكم مزدوج لم يزد عن شهرين .

أصبح صادق خان بذلك رجل فارس الأول ، وان كان هناك منافسين خطرين له ، وعلى وجه الخصوص « علي مراد خان » . ويبدو أن صادق خان اغتر بنجاحه الأولى ، ومن ناحية أخرى ، كان هو نفسه لا يتمتع بالكثير من حسن التدبير ، وان كانت فترة حكمه في البصرة قد اثبتت أنه حاكم إداري كفء . ولعل هذا النقص في القدرات الذهنية يرجع الى أن ادارة مدينة ليست مثل ادارة مملكة مضطربة .

كانت هناك منازعات شخصية بين علي مراد خان وصادق خان منذ أيام كريم خان نفسه . كان علي مراد خان يطمع في الزواج من ابنة كريم ، وكان صادق خان هو العقبة في سبيله إذ كان يدرك ما سيترتب عن ذلك من أفول نجمه وارتفاع نجم علي مراد خان . ولهذا تصدى علي مراد خان لصادق خان في أعقاب انفراد الأخير بالحكم ، وطالب بالعرش لنفسه .

وحوالي يناير ١٧٨٠ (كانون الثاني) كان مراد خان قد استولى علي أصفهان بينما استولى صادق خان علي شيراز بما فيها من ثروة وأسرة علي مراد خان نفسه . واستطاع (تقي خان) أن يحرز نصرا كبيرا علي (علي مراد خان) ولكن لم يفد تقي خان من هذا النصر الذي أسكره وراح يتنقل معربدا بين قصور أصفهان ، فكانت فرصة لم (علي مراد خان) خلالها شعته ، وانقض علي أصفهان فاستولى عليها ثم علي شيراز نفسها التي كان يتحصن فيها صادق . ولما انتصر (علي مراد خان) واستسلم له صادق وأولاده أذاقهم عذاب الموت باستثناء جعفر الذي سبق له أن تفاهم مع (علي مراد خان) ١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م . انها لصورة مفزعة لفوضى الصراعات المحلية .

كانت لا تزال الأسيرة القاجارية هي القوة الرابضة في وجه الزنديين خاصة بعد أن سيطروا علي مازندان ، وزاد موقف (علي مراد خان) سوءا عندما زحف بجيش كبير ضد القاجار ، ولكن أعلن جعفر بن صادق خان الثورة ضد (علي مراد خان) وكانت ثورته في زنجان ، فعاد أدراجة وزحف ضده ولكن علي مراد خان مات وهو في الطريق اليه . فكان موته هو العامل الجوهرى في أن أصبح الطريق الى العرش ممهدا أمام (آغا محمد قاجار) . إذ كان جعفر خان أقل مقدرة من (علي مراد خان) . وظهر هذا جليا لما أصبح الرجلان وجها لوجه جعفر خان في مواجهة آغا محمد . وكانت الظروف معقدة أمام

الطرفين . فالزعامات العشائرية والمحلية انتهزت هذه الفرصة ، خاصة غياب السلطة المركزية القوية ، وحاولت أن تستقل بنفسها أو تلعب على الطرفين . ولذلك كانت جهود جعفر خان وأغا محمد ضد العصبية المناهضة لا تقل عن جهودهما الواحد ضد الآخر .

فلقد انتصر أغا محمد على جعفر خان واستولى على أصفهان ولكنه انهزم أمام البختياري ، فكانت فرصة لجعفر كي يستولى على أصفهان ليجد نفسه مضطرا لقتال ابن عمه اسماعيل خان المتمركز في همدان فانتصر عليه (١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م) . ثم وجه جعفر خان قواته ضد يزد الثائرة دون جدوى ، ويحاول أن يفرض سلطته بقوة في لرستان وكرمان وأصفهان ، ولكن انتهت جهوده عندما دس له السم في الطعام ومات (١١٩٩ - ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٥ - ١٧٨٩) .

لما سمع (لطف علي خان) ابن جعفر خان نبأ مصر أبيه ، فر إلى بوشهر ليجد سنداً قويا له في شخص أحد زعماء القبائل العربية . ولكنه لم يكن قادرا على الصمود بقوة أمام أغا محمد قاجار ، وإن كان قادرا على إثارة المتاعب الكثيرة في وجهه بسبب شجاعته وقدرته على الانتقال السريع من ميدان لآخر . واضطر في نهاية الأمر إلى التراجع إلى كرمان ، وحاول التحالف مع تيمور شاه - الأمير الدوراني - ولكن عاجلت المنية الأمير قبل أن يحزم لطف علي خان امتعته للسفر إليه . فاستمر في الصراع المستميت ضد أغا محمد قاجار حتى استسلم إليه فسلم عينيه ثم قتله (١٧٩٤) .

أما مصير كرمان وأهلها على يد أغا محمد وجنده فكان صورة من أبشع صور الانتقام . أباد أغا محمد في مذبح دموية أسرة الزند ثم أمر ضباطه وجنده بأن يأتوا إليه بعشرين ألف زوج من عيون أهلها وهدد قائد هذه العملية بأنه إذا جاءه بأقل من هذا العدد باثنين فقط فلن يكمل العد إلا بسمل عيني القائد نفسه . فقام القائد بأبشع مهمة ، وأحال بذلك ذكور المدينة كلها إلى ظلام العمى ، أما الفتيات والنساء فكانوا متعة للجند إذ جمعن وسلمن إليهم سبيا . ومن قتلى المدينة شيد أغا محمد تلا من الجماجم في المكان الذي قبض فيه على « لطف علي خان » . فكانت تلك البربرية المتناهية الضربة القاضية لكرمان .

وأصبح أغا محمد من بعد هذا كله أقوى رجل في إيران ، ورفع نفسه إلى عرش إيران مؤسساً أسرة جديدة - الأسرة القاجارية - استمرت في الحكم حتى أسقطها انقلاب رضا بهلوي في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

★ ★ ★

(م ٢٣ الشعوب الإسلامية)

الفصل الثالث

الأسرة القاجارية

أهم مشكلاتها الداخلية

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

الشاهات الأول : آغا محمد وفتح على شاه ومحمد شاه

يعتبر آغا محمد مؤسس الأسرة القاجارية ، رغم أنه لم يتول العرش سوى فترة قصيرة للغاية . ولكن جهوده العديدة من أجل التغلب على كافة المنافسين جعلته قادرا على أن يضع نفسه على العرش بقوة وأن تنتهى فوضى الصراعات العديدة الجوانب على العرش .

كان آغا محمد هذا أكبر أخوته التسعة . وكان قد وقع فى قبضة « عادل شاه » عندما كان فى الخامسة من عمره . وكان ما قاساه خلال سننى أسره وتحوله الى خصى هو السبب فى قسوته الشنيعة .

كان كريم خان الزند قد تزوج من اخت (آغا محمد) وعامل كريم خان صهره بكل ترحيب خلال وجوده رهينة فى قصره . وما أن علم آغا محمد بوفاة (الوكيل) حتى فر الى الشمال الى موطنه . وبينما هو فى طريقه استولى على قافلة محملة بالأموال وما أن وصل الى عشيرته حتى وجد أخاه يعترض طريقه اذ أعلن نفسه ملكا . ومع هذا أصر آغا محمد أن تكون له اليد العليا فى منطقته ونجح فعلا فى أن يسيطر على الولايات القزوينية . ثم أصبح رجل فارس الأول والشاه فى (١٧٧٩) .

ولكن المعضلة الكبيرة التى كانت لا تزال تواجهه هى التفكك الشائع فى الدولة ، خاصة بسبب تعدى القوى شبه المستقلة ، وعدم التزام الولايات المتطرفة بسياسة الحكومة المركزية . فقد كانت خراسان تحت الحكم الاسمى « لشاه رخ » ، ولم تلبث أن توزعت الى اقسام متعددة يحكمها مفتصبون متقاتلون .

أما مشهد فكانت مسرحا للقيادات الانتهازية التى لا تتورع عن نهب الأضرحة ، ثم سيطر عليها مامش خان الشيرنان — وهو كردى — استمر فى حكمها خمس سنوات حتى عادت سيطرة شاه رخ اليها بواسطة تيمور شاه الملك الدورانى . واستبد اسحق خان « كراى » بمنطقة ومير حسين خان بأخرى ، واستولى البيات — وهم عشيرة كردية — على نيسابور ، وقعت منطقة أخرى فى يد زعيم عربى ينحدر من خزيمة ، وعربى آخر حكم فى « تورشيز » ، وأكراد يحكمون فى « كوشان » وأكراد آخرون فى « بوجنورد » ،

وأترك يحكمون في « سبزار » ، « وسستان » في يد مغتصب قوى « ويلوخستان » في قبضة ناصر الأول (١٧٩٣) . و « اردلان » في يد خسرو خان أقوى الحكام الأكراد والمتمركز في عاصمته (سنه) ، وكان حليفا لأغا محمد قاجار . هذه هي فارس التي أصبح أغا محمد قاجار يتطلع أن يكون شاهها عليها .

ومع هذا بدأ تفوق الشاه محمد أولا في مجال السياسة الخارجية عندما اصطدم بالروس وبجورجيا وحاكمها هرقل وكان جيران فارس لا يرغبون — بصفة عامة — في الاصطدام بأغا محمد باستثناء هرقل حاكم جورجيا . فتيهور شاه — ملك أفغانستان — ومن بعده زمان شاه كانا يكرسان جهدهما للأمور الداخلية خاصة في زمن الأخير الذي كان يواجه تمردات داخلية عديدة وعدوانا من القوى المحيطة به . وكان حكام بخارى من الأوزبك يفكرون في ضم خراسان ولكنهم شعروا بعدم قدرتهم على المحافظة عليها تحت يدهم فآثروا تركها تحت الفرس على أن يتولوا عملية غزوها واجتياحها من وقت لآخر دون أن يبسطوا عليها حكمهم المباشر . أما الدولة العثمانية فانشغلت بالصراعات الداخلية والقتال في البلقان ضد النمسا وروسيا تاركة أمور فارس لأهلها . وكان على حكم بغداد (العراق) منذ ١٧٧٩ حتى ١٨٠٢ والي مملوكي مشهور هو سليمان باشا الكبير الذي كان معينا بتوطيد علاقاته السلمية مع الفرس .

حكم محمد شاه مدة قصيرة لم يلبث أن قتل . ولقد اثبت أنه القوة الأولى في البلاد ، ولكن دون أن يفرض سيطرته كاملة على كل الزعامات المحلية في إيران .

وكما هي العادة دبب الفوضى في البلاد بعد مصرع الشاه ، وتفكك الجيش ، ولكن استطاع فتح علي شاه — ابن عم الشاه السابق ، وحاكم اقليم فارس — أن يجلس على العرش (١٧٩٧ — ١٨٣٤) . وكان عليه من بعد ذلك أن يقضى على المنافسين له ، وكانوا متعسدين .

كان صادق خان شكاكي — قد جمع مجوهرات أغا محمد (الشاه محمد) وخمسة عشر ألف — كردى ، وتصدى لفتح علي شاه ، ولكن الأخير انتصر عليه ، ففر من وجهه . أما محمد خان بن زكى خان الزندى فكان قد وضع يده على أصفهان ، ولكن طرده منها فتح علي شاه وطارده حتى تخلص منه .

كان حسين قولي خان — أخو فتح علي شاه — طامعا في العرش ، واعتقد منافس ثالث هو سليمان خان قاجار أن في صراع الأخوين فرصة له ، ولكن سرعان ما توصل فتح علي شاه مع أخيه قولي خان الى تفاهم على يد أمهما • وما أن شعر سليمان خان بأن قضيته هي الخسارة فر واختفى، ولكن عفا عنه فتح علي شاه واسند اليه حكم اذربيجان •

وكان نادر ميرزا — وكان ثائرا فارا من وجه أفا محمد الى أفغانستان — قد عاد وأغار على خراسان بعد أن سمع بوفاة أفا محمد قاجار • واستولى نادر ميرزا على مشهد فزحف ضده فتح علي شاه بجيش كبير، وتيقن نادر ميرزا أن قضيته خسارة فخضع فنال عفو الشاه • وفي أيامه ظهرت بوادر الضعف أمام الضغط الأوروبي •

حكم فارس بعد وفاة فتح علي شاه ، الشاه محمد (١٨٣٤ — ١٨٤٨) وفي عهده تجلى هذا الضعف أمام روسيا وبريطانيا وأما في الصعيد الداخلي فقد واجه ثورات ولكن أخطرها ظهور الحركة البابية ثم البهائية كنتيجة لها •

كان وصول محمد شاه الى العرش سهلا — الى حد ما — فقد كان هناك منافسين له على العرش ، ولكن لم يكن هناك خطورة كبرى اذ كانت كفة محمد شاه منذ البداية هي الراجحة سواء بسبب الأوضاع الداخلية في إيران أو خارجها •

فمن الناحية الداخلية ، كانت لدى محمد شاه قوة عسكرية مدربة هي أحسن ما كان في إيران ، وكان هو نفسه قد تدرب على بعض العمليات العسكرية الواسعة النطاق • وكانت قواته تضم عددا من الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون من أجل رفعه هو بالذات الى العرش على أمل أن يكون على علاقات طيبة مع الانجليز • ولذلك كان موقف المتمردين عليه دقيقا ، وهم :

١ — عمه علي ميرزا — حاكم فارس — وكان معروفا باسم فارمان فارما •

٢ — عدد من أمراء البيت المالک •

٣ — ثورة أفا خان (١٨٣٨ — ١٨٣٩) •

٤ — ثورة محمد علي الباب (١٨٤٤) •

ويتضح من هذا ، أن المتمردين يمكن أن يقسموا الى قسمين • الأول : من المطالبين بالعرش من البيت المالك نفسه • والثاني : من الزعامات الدينية ذات الاتجاهات المتعارضة مع الاتجاهات الشيعية والسنية الشائعة حينذاك • ولقد كانت ضربات محمد شاه العسكرية السريعة موفقة ضد المطالبين بالعرش ، واضطر عدد منهم الى الفرار من فارس الى خارجها ليستقر بهم المقام في بغداد وليشكلوا من بعد مشكلة متواصلة بين الحكومتين الفارسية والعثمانية بسبب استغلال هؤلاء لموقعهم القريب في اثاره المشاكل في وجه الشاه الحاكم • ومع هذا يجب التأكيد على أن اتفاق كل من روسيا وبريطانيا على أن يكون محمد شاه هو صاحب العرش ، وعدم التدخل العنيف في مشكلات وراثه العرش كان من العوامل التي أدت الى أن تسير الأمور لصالح استقرار محمد شاه على العرش •

★ ★ ★

ثورة اغاخان

أما ثورة اغاخان فكانت ثورة عصبية دينية بدأت ارهاصاتها في مطلع القرن التاسع عشر بعد وفاة رئيس الطائفة الاسماعيلية ، وظهور أزمة في المنطقة التي ينزلها الاسماعيليون الذين كانوا يعتقدون أن الوقت قد حان لكي تصبح لهم اليد العليا في توجيه أمور البلاد على اعتبار أن الحكم القاجارى قد فشل في الحفاظ على سلامة البلاد أو سلامة الدين ، من وجهة نظر الاسماعيلية . ولذلك فبعد فشل حملة محمد شاه على هراة (١٨٣٧ - ١٨٣٨) (١) ثار اغاخان (الجديد) في اقليمى كرمان ولار . ولكنه لم يصمد طويلا أمام جيش محمد شاه ففر الى كراتشى في ١٨٤٣ . وتكررت الاعتداءات من جانب الاسماعيليين من قواعدهم في الهند على الأراضى الفارسية دون أن تحقق هدفا أو نتيجة ، الا أنها كانت تؤكد باستمرار للحكومة الفارسية أن الانجليز هم الذين يحثون ويساعدون الاسماعيليين على ارهاق فارس وجعلهم شوكة مستمرة في جانبها .

وإذا كانت ثورة اغاخان والاسماعيلية قد أمكن التغلب عليها بسرعة الى حد ما ، فإن حركة محمد احمد الباب كانت أشد وطأة وأبعد أثرا في تاريخ فارس في تلك الفترة ولذلك يجدر بنا أن نلقى عليها ضوءا .

(١) سنتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل .

الحركة البائية

لقد ابتلى العالم الإسلامى منذ القرن السادس عشر بالجمود الفكرى والتأخر الاقتصادى وأصيب المجتمع الفارسى بنكبات عنيفة خلال الصراع الذى دار فى إيران بين المطالبين بالعرش . حقيقة ظهر فى إيران شاهات فاتحون نهضوا بالبلاد من أمثال عباس الأول ونادر شاه ، ولكن النكسات التى كانت تأتى فى أعقاب أمثال هذين الملكين كانت تدفع بالبلاد الفارسية الى الوراء . كما تدهورت قوة الدولة العثمانية ازاء الدول الأوروبية وخاصة روسيا . وضعفت قوتها فى الداخل بسبب استبداد العصبية بالحكم فى معظم ولاياتها وأقهرت أسواق الأدب والعلوم الدينية مثلما أقهرت أسواق التجارة العالمية فى مدن الشرق الكبرى .

وخلال فترات التدهور هذه انتشرت الطرق الصوفية . وبعض هذه الطرق قام على أسس سليمة ولكن كثيرا منها لم يلبث أن بعد عن الإسلام كل البعد وترك الناس الصراط المستقيم الى الطريق الضال . وهذا الضعف فى التكوين الدينى للمسلمين يفسح المجال لنشاط هذه الطرق وبخاصة المتطرف منها فلا غرو أن تمخض القرن التاسع عشر عن ظهور عدد من المهديين لم يظهر مثله من قبل فى وقت متقارب . فقد ظهر (على محمد الباب) فى العراق وإيران ، و (المهدي محمد السنوسى) فى الصحراء الغربية ، و (ميرزا غلام أحمد القاديانى) فى البنجاب و (محمد أحمد المهدي) فى السودان وكلهم فى القرن التاسع عشر . وجميعهم عدفوا الى فكرة واحدة ، هى تكتل قوى العالم الإسلامى تحت يد واحدة وإقالته من عثرته التى تردى فيها بيد أنهم حين أرادوا تحقيق تلك الأهداف لم يتخذوا الطريق السوى فى كثير من الأحيان . حيث أنهم جروا وراء فلسفات تهتم العتيدة الإسلامية من أساسها وهى فلسفات ليست بجديدة على أهل المذاهب والنحل . وقد اشرت تلك الفلسفات بليلة وجدلا طويلا فى الدوائر الدينية الإسلامية . والذى يهمنا هنا أسباب انتشار هذه الدعوة الجديدة والآثار السياسية التى خلفت عن انتشار الحركة البائية .

قبيل ظهور هذه الحركة البابية سرت في العراق اشاعات عن قرب ظهور المهدي المنتظر . وخرجت هذه الاشاعات اول ما خرجت من النجف وكربلاء .

ولقد كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية في العراق من العوامل الرئيسية التي جعلت العراق يلعب الدور الرئيسى في التمهيد لظهور هذه الحركة . فالعراق يتميز بتعدد المذاهب الدينية . سواء الإسلامية أو المسيحية . وكان مسلمو العراق - ولا يزالون - قسمة تقريبا بين المذهبين السنى والشيعى . والعراق - كما هو معروف - كان منذ الفتنة الكبرى بين على ومعاوية معقلا من معاقل الشيعة وحفظت له العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) قداسة جليلة الشأن لدى الشيعة أينما كانوا ، وبوجه خاص في قلوب شيعة إيران . ولا شك أن وجود ايران الى جوار العراق من العوامل القوية التي حفظت للشيعة قوتهم في العراق . ومع ان العراق كان تحت الحكم العثمانى السنى منذ ١٥٣٤ الا أن آمال الفرس حكومة وشعبا كانت دائما تتطلع الى الاستيلاء عليه لتكون العتبات المقدسة تحت عيونهم . كانت الحكومات الفارسية تبعث بجيوشها الى العراق كلما شعرت بقوة . ودار صراع طويل بين إيران والدولة العثمانية لم تحرز من ورائه ايران الا مكاسب أرضية يسيرة ولكنها كانت في كل مفاوضة أو معاهدة تطالب بحماية الحجاج الفرس الى العتبات المقدسة ، وبتخفيض الرسوم المفروضة عليهم وتسهيل أمر دفن الفرس الى جوار ضريحى الامامين على والحسين وكانت حكومة بغداد من جانبها تعمل على تسهيل زيارة الفرس وغيرهم للعتبات المقدسة لما يدخل الخزينة من وراء ذلك من مبالغ وفيرة .

وكانت كربلاء والنجف المراكز الأولى الشيعية التي خرجت عددا من كبار مجتهدى المذهب الشيعى . وكانت هذه العتبات أمل طلاب العلم من الشيعة ، فكثرت بها مجالس الدرس والوعظ وذاع صيتها وصيت علمائها لا في العراق وإيران فقط بل كذلك في الهند . ولذلك شعر مجتهدو العتبات بقيمتهم العظمى وترفعوا عن أن يكونوا تحب الحكم العثمانى خاصة وأن عددا من سيدات ورجال الأسرة المالكة القاجارية يعيش في كربلاء ويلبى مطالب أولئك المجتهدين وعاشت كربلاء بمنأى عن الحكم العثمانى المباشر حتى اقتحمها نجيب باشا - والى بغداد ٤٢ - ١٨٤٧ بالقوة في ١٨٤٣ .

ومن بين المجتهدين الكبار الذين طار صيتهم في العراق وفي إيران الشيخ أحمد الاحسائي (١١٥٧ - ١٢٤٢ هـ / ١٧٤٣ - ١٨٢٦ م) وهو من بنى صخر إحدى العشائر العربية الشهيرة اتخذ مجلس علمه في كربلاء . وكان متعمقا في الدراسات الدينية ، واعتقد الشيخ الاحسائي أنه يسير بهدى خاص من الأئمة الاثني عشر وبتوجيه من الامام جعفر الصادق حيث أن هؤلاء الأئمة في نظره خالقة . وردد الشيخ الاحسائي أن الوقت حان لظهور المهدي ، بل ينسب اليه قوله « فليُنظر الناس حولهم ، إذ أن المهدي بينهم » فقد كانت آمال عدد كبير من الشيعة بل ومن السنة كذلك متعلقة بظهور المهدي ليملا الدنيا عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا . وينتظر الشيعة عودة محمد بن الحسن العسكري آخر الأئمة الاثني عشر الذين احتفى في سامراء . وما ذكره الشيخ أحمد الاحسائي بشأن قرب ظهور المهدي كان له صدى قوى في قلوب الشيعة . وتابع هذه الدعوة بعد وفاته تلميذه كاظم الرشتي في كربلاء أيضا .

كان كاظم الرشتي من علماء العراق المبرزين ذوي النشاط العلمي والسياسي الكبير . ونظرا لاجتراس علماء الشيعة عليه في بعض ما ذهب اليه من آراء دينية انفصل عنهم وأسس الطريقة التي عرفت بالكشفية . وتابع دروسه في كربلاء مبشرا مرديه بقرب ظهور المهدي . وخلال ذلك حضر الى مجلسه شاب فارسي يدعى علي محمد وهو مؤسس الحركة البابية .

ولد علي محمد في غرة محرم ١٣٣٥ هـ / ١٨١٩ م بشيراز من عائلة معروفة بالسادة الحسينية . وتوفي والده محمد رضا قبل فطامه فكفله خاله الحاج مير سيد علي التاجر الشيرازي . وكان علي محمد من الصبية العابدين ، وتنقل سعييا وراء التجارة بين مدن بوشهر وشيراز . ولكنه كان ميالا الى الرياضات الذهنية الشاقة ، وهي رياضات تقود المرء الى مجال الاستشراق الفسيح . وأرهق علي محمد بسبب ذلك كل الارهاق حتى خبا وميض شبابه وأصيب بشيء من الاضطراب الذهني جعل خاله يخشى عليه فبعث به الى كربلاء لينال بركة الحسين عليها تشفيه مما ألم به .

وفي كربلاء استمع الى حديث كاظم الرشتي عن قرب ظهور المهدي واستمع الى اوصافه ، وكان من اوصاف المهدي التي ردها الرشتي تنطبق عليه ، فقد قيل أن المهدي أمي شريف النسب ذو فطرة آلهية ، واعتقد الباب انه هو صاحب الزمان الذي طال على

الناس انتظاره . وعاد الى شيراز وهو يعتقد تماما انه صاحب رسالة كبرى . وبينما عاد على محمد الى شيراز كان عدد من مريدي كاظم الرشتي قد اعتقدوا ان المهدي قد ظهر . فتركوا كربلاء وانتشروا في الأرض بحثا عنه . وبطريقة غير واضحة التقى الملا حسين - أحد علماء بشروية - بعلي محمد في شيراز ١٨٤٤ . وأعلن الباب دعوته له وظهر بمقام المهدي والقائمة وبأنه الباب .

ويجدر بنا أن نحدد معنى هذا اللفظ لما سيصبح عليه من دلالة فيما بعد . فمن الأحاديث الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » والباب في نظر أتباعه الموصل الى جنة الايمان ، وأنه هادي العباد الى العقيدة الحققة ، وأنه صاحب دين جديد . ولكن هناك من فسر هذا اللفظ بمعنى آخر وقال ان الباب ليس الا الواسطة بين حجة الله الموعود وبين الناس . وأنه المبشر بظهور المهدي ، وليس المهدي نفسه . وأيما كان الأمر فقد دعا الباب الناس الى ترك معتقداتهم والايمان به .

بدأ الباب دعوته سرا ، وكان الرجل كان يترسم خطي سيدنا محمد (١) لينشر دعوته بأسلوب مشابه للأسلوب الذي اتبعه صلى الله عليه وسلم . ادعى انه يوحى اليه بكلمات معجزات ، وخرج على الناس بكتابات اسميه (البيان) أراد به ان يكون قرآنا جديدا ، أسلوبه ركيك ، ولحنه لا يمكن ان يحصى لكثرتة ، ومعانيه قليلة ولكن كيف حظيت دعوة كهذه بالقبول لدى عدد ليس بالقليل من الفرس ومن الشيعة في العراق ؟ الواقع ان الجور كان مشمخونا في الأوساط الشيعية بأن المهدي على وشك الظهور . فالرأي العام كان مستعدا لقبول الفكرة . بسبب الدعايات التي بثها دعاة الشيخية والكشفية . وكانت الظروف العامة للمسلمين تدعو الناس الى نقد أوضاعهم بقوة والى التطلع الى حكومة جديدة والى لتخلص من رواسب قرون لتخلف . فالقرن الثامن عشر الميلادي ، قرن الحركة في المشرق ، قرن نمت فيه قوة النقد الذاتي لدى مسلمي الشرق . ونمت هذه القوة بصورة اكبر في القرن التاسع عشر . كان الناس لانتعاش بعض قدراتهم الفكرية والاقتصادية ونتيجة للاحتكاك بالدول الأوروبية قد أدركوا ان الفارق بين مسلمي الشرق ومسيحي الغرب قد اضحى كبيرا . وأن اللحاق بالركب يتطلب اعادة النظر في أساليب

(١) كان يتعبد في خلوة ، وادعى انه يوحى اليه وأنه أمي . الخ .

الحياة التي يتبعها الناس ، سواء في حياتهم اليومية أو في إدارة أمور الدولة أو في أساليب العبادة . وهذه الأوضاع تضع امكانيات كبيرة تحت تصرف أية داعية لاصلاح أمور البلاد لا تقاؤها مما تردت فيه . وهذا هو السر في اقبال عدد ليس بالقليل من الفرس ومن شيعة العسراق على « الباب » .

ودعا الى الحركة البابية في العراق عالم عراقي هو علي البسطامي وسيدة فارسية لقبت بقرّة العين واسمها الحقيقي « زرّين تاج » أي ذات الشعر الذهبي . وهي فارسية من أسرة علمية . وكانت أسرتها موزعة بين تأييد الشيعة وعدائها ، ويبدو أنها كانت تتبادل المكاتبات مع كاظم الرشتي عندما كانت لا تزال في فارس . وقيل انه أشار اليها في إحدى مكاتباته بأن « فتنة آخر الزمان على وشك الوقوع » فقررت أن تغادر وطنها الى كربلاء . وبعد وفاة كاظم الرشتي جلست للدرس في تلك المدينة ، فحازت اعجاب الطلاب بذكائها وعمق دراساتها . واستغلت هذه المكانة في الدعوة الى البابية ، بينما كان الداعية البسطامي يقوم بنفس البعثة . وادى نشاط الملا البسطامي وقرّة العين الى قلق حكومة بغداد بسبب ما اثاره من فتن في دوائر بغداد العلمية . فقبضت الحكومة على البسطامي ورحلته الى الاستانة ولكنه مات في طريقه اليها فتابعت قرّة العين الدعاية للباب في العراق . ونظرا لما كانت عليه قرّة العين من فصاحة وعلم استطاعت أن تجمع حولها عددا من الاتباع . فخشي نجيب باشا - والي بغداد - مغبة الجدل الديني الذي اثارته ، والواقع كان من آرائها ما يثير عليها غضب المسلمين حيث إنها رددت القبول بانتهاء زمن التكاليف وبأنه يوحى للكمال وحي تعليم لما شرع من قبل . وهي دعوة تهدم أسس الدين بعكس الدعوات المهدوية السابقة لها التي كانت تتخذ من الدين الإسلامي قاعدة أساسية لها . كذلك اهتمت قرّة العين حينذاك بأنها دعت الى رفع الحجاب ، وهي فكرة لم تكن مقبولة على الاطلاق في ذلك الوقت .

ومما اهاب بالحكومة أن تسرع الى التحفظ عليها وتحديد اقامتها ان الحركة البابية في فارس كانت قد اتخذت شكلا عنيفا وطاردت الحكومة أتباع الباب وقبضوا عليه وسجنوه وكانت العلاقات السياسية بين الدولتين الفارسية والعثمانية تتحسن بسرعة بسبب اتفاق الدولتين على كثير من نقط الخلاف بينهما تمهيدا لعقد معاهدة ارضروم

وكان ذلك التفاهم وحسن الجوار بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين يتطلب من وإلى بغداد وضع حد للنشاط البابي حتى لا يصبح العراق - المجاور لإيران - شوكة تقض مضاجع حكومة الشاه . ومن ناحية أخرى كانت البابية - مثلها مثل أية حركة مهدوية - موجهة كذلك ضد الخليفة العثماني . فالمهدي كان يضع نفسه في مرتبة أعلى من مرتبة السلاطين حتى ولو كان السلطان خليفة المسلمين . والسلطان العثماني كان يسعى في ذلك الوقت إلى القضاء على مثل هذه الحركات التي تضعف من قوة سيطرته على الولايات التابعة له خاصة وأن سلاطين آل عثمان في القرن التاسع عشر - وفي النصف الثاني منه بصفة خاصة - كانوا يعملون بجاهدين على إعادة قبضتهم قوية على كل الولايات وجمع المسلمين تحت راية السلطان العثماني على اعتبار أنه خليفة المسلمين . ومن ثم كانت الحركة البابية سواء من حيث دعوتها إلى مهدوية الباب أو من حيث مناداتها بتعاليم منافية للدين الإسلامي كانت تدفع أولى الأمر العثمانيين إلى أن يجتثوها قبل أن تستفحل . ولذلك قرر نجيب باشا - وإلى بغداد - أن يضع حدا للنشاط البابي في العراق . فقبض على قرة العين وحشد اقامتها في بيت أبي الثناء الألوسي - مفتي بغداد .

فأبعد قرة العين عن بغداد إلى إيران . وهناك واجهت قرة العين نقمة الحكومة الفارسية على الباب وأتباعه وذلك بسبب ارتقاء ناصر الدين شاه عرش فارس في ١٨٤٨م وكان منذ ولايته للعهد من أشد الناس مقاومة للباب ولحركته فحاول أولا أن يعيد إلى الباب رشده ، وأن يعيده إلى سواء السبيل ولكن دون جدوى فصدر ضده حكم بالاعدام ، ولقصة اعدام الباب أهمية خاصة من حيث أنها ساعدت على انتشار عقيدته .

تؤكد المصادر العديدة التي تعرضت لموضوع اعدام الباب أنه أحكم وثاقه ثم اصطف إمامه قوة من رماة البنادق ثم أطلقت عليه النيران . وبعد انكشاف الدخان المنبعث من البنادق إذا مكان الباب خال فبحث الجند عنه حتى عثروا عليه مختبئا في مكان قريب دون أن يصاب بأي طلق نارى . فاقتيد مرة أخرى إلى ساحة الاعدام ، وأطلق عليه الرصاص مرة أخرى فسقط قتيلا (١) .

(١) استولى بعض البابيين على جثة الباب لاختفائها عن أعين أعدائهم .
أنظر ظروف مصرع الباب والقصص التي دارت حوله في : عبد الحسين أواراة :
الكواكب الدرية ، ج ١ ، ص ١٩١ - ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٩١ ، ٤٥٠ .

كيف وقع هذا الحادث الذي اعتبره البابيون معجزة كبرى للباب ؟ هل حدث تواطؤ من جانب فرقة الاعداء لانقاذ الباب ؟ أم أن ذلك وقع قضاء وقدر ؟ انه امر لا يزال يحير الباحثين وان كنا لا نستبعد وجود نوع من التواطؤ بين فرقة الاعداء وبعض البابيين ولكن لم يتم انقاذ الباب بسبب العثور عليه بعد فراره .

نشطت العناية البابية بعد مصرع الباب ، وبالتالي نشطت الحكومة الفارسية في اخماد تلك الحركة ، فدبر البابيون مؤامرة لاغتيال ناصر الدين شاه في ١٨٥٢ وفشلت المؤامرة ودار قتال بين البابيين وجند الحكومة وتعقبته الحكومة الفارسية أنصار هذه العقيدة فقتلت وسجنت واعتقلت ، ومن بين أولئك الزعماء البابيين الذين قبض عليهم حسين على النوري . وكان النوري من المشتركين في قتال جند الحكومة ونظراً لأنه يمت الى اسرة عريقة حوكم بمحضر عدد من الوزراء وبمحضر السفير الروسي . ولا شك أن وقوف السفير الروسي الى جانب حسن على نوري ومكانة أسرته كانا من العوامل الرئيسية التي انقلبت رقبته من المشنقة . اذ اكتفى بنفيه خارج البلاد فاختار العراق منفى له ولم يتبعه .

وانه لأمر ذو مغزى أن يدافع السفير الروسي عن حسين النوري ، وأن يكون الحاج أحمد — الذي خبثت لديه جثة الباب من المشمولين بالحماية الروسية .

وصل حسين على النوري وعدد من البابيين الى منفاهم في العراق في اوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر . وفي العراق دب النزاع بين الزعماء البابيين . وكان حسين على النوري يأمل في أن يتولى هو قيادة هذه الجماعة في منفاهما وأن يدير أمورها على يستطيع أن يجعل لها شأنًا في العالم ولكن صادف حسين على النوري مقاومة شديدة من جانب الزعماء الطامعين في القيادة . بل كادوا يفتكون به ففضل أن يغادر مجتمعهم الى مكان قصي . وذهب الى مكان يسمى « سركلو » في كردستان أمضى فيه مدة من الزمن وضع خلالها كتابه « ايقان » ويعلل حسين على النوري عيونه الى كردستان الى بغداد بأنه لم يفعل ذلك الا بعد أن « صدر الحكم من مصدر الأمر بالرجوع » . وهذا هو الطور الجديد الذي دخلته الحركة البابية .

هبط حسين على النوري من كردستان وهو يزعم أن ينسخ الدعوة التي نادى بها

الباب ، وبأن يقول أنه هو المهدي ، وما الباب الا مبشر ومنج له من أعدائه . وليست هذه الفكرة حديثة على المسلمين بل هي قديمة ، وظهرت في اجلى صورها في المذهب الاسماعيلي . إذ ردد دعاة هذا المذهب أن هناك اماما مستترا وآخر ظاهرا ، فالامام الظاهر ليس سوى داعية للامام المستتر الحقيقي وكانت هذه الفكرة مدار جدل شديد حول مؤسس الدولة الفاطمية والأخير هو المعرض للتعذيب والمشاق بل والاعدام حتى لا يصاب الامام الحقيقي بأذى .

ادعى حسين على النوري أن الباب كان يهوى الطريق أمام شخص أعظم منه وأن مؤلفات الباب وتفسيراته للقرآن انما اوحى بها الى الباب الذي كان ينفذ ارادته ، وردد حسين على النوري أن كل خطوة خطاها الباب انما كانت بوحي منه وأن مصرع الباب كان لكي يظل حسين على النوري بعيدا عن أيدي الناقمين حتى يتم رسالته (١) . وأخذ حسين على النوري بعد اذهان البابيين في العراق لهذه الفكرة تمهيدا لأن يعلن نفسه المهدي الجديد الحقيقي . ولم يتسرع الرجل في اعلان دعوته هذه حتى وقعت الطائفة البابية في العراق في أزمة جديدة .

فخلال السنين التي قضاها حسين على النوري واتباعه من البابيين في العراق كانوا يقومون بدهايات نشطة لمذهبهم سواء في العراق أو في إيران واشتد ضجر حكومة الشاه من هذا النشاط الذي اتخذ من العراق قاعدة له . وزادت مخاوف الشاه من هذا النشاط عندما وثق البابيون صلاتهم بعدد من أفراد الأسرة المالكة القاجارية في العراق . فخلال القرن التاسع عشر كان الصراع على العرش الفارسي لا يكاد ينقطع، وكانت العراق ملاذ كل من يفشل في محاولته لارتقاء العرش . ومن العراق كان هؤلاء الأمراء يدبرون المؤامرات المتتالية ضد ناصر الدين شاه الأمر الذي كان يثير أزمات حادة بين الدولتين الفارسية والعثمانية (٢) . وكان طبيعيا أن يتدخل بزرك خان القنصل العام في العراق

(١) أسلمنت : بهاء الله والعصر الجديد ص ٢٥ - ٣١ .

E. G. Brown; The Episode of the Bap Cambridge 1891 .

Brown; Babis of Persia. Royal Geographical Society of London.
Vol. xx1, P. 931 .

(٢) انظر دكتور عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ١٨٣١ - ١٨٣٢

الدار القومية . القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(م ٢٤ - الشعوب الاسلامية)

مطالباً بوضع حد لنشاط هؤلاء البابيين . وتعاون بزرك خان مع عدد من شيوخ الشيعة في العتبات المقدسة للقضاء على نشاط تلك الطائفة . وكان بزرك خان في معاملته للبابيين يعتبرهم رعية للشاه . ولما كان هذا الوضع يضر بمصالح البابيين حيث يضعهم تحت رحمة القنصل الفارسي قرر حسين علي النوري أن يخلع عن نفسه الرعية الفارسية وأعلن تبعيته السلطان العثماني (١) . على أن هذا التصرف لم يضع حداً لمتاعب البابيين من المعارضة الفارسية أو الشيعة . ويرجع ذلك الى تعارض اتجاهات الطرفين تعارضاً جوهرياً سواء من حيث انكار الشيعة في العراق أن الباب هو المهدي أو من حيث اتباع البابيين تقاليد تتنافى مع التقاليد الشيعية .

فقد كان البابيون يحتفلون في أول المحرم من كل عام بفرح زائد بمولده الباب ، والمعروف أن الأيام العشرة الأولى من المحرم هي أيام يكفر فيها الشيعة عن تقاعسهم عن نصرة أبي الشهداء ويكون خلال ذلك القتل العطشان . فشق على الشيعة ذلك ، وعقدوا الخناصر على التخلص من البابيين ، وبدأت في الأفق نذر شر مستطير . والتقت رغبة البلاطين العثماني والقاجاري عند إبعاد هذه الطائفة عن بغداد حتى لا يمتد نشاطها بسهولة الى إيران وحتى لا تستغل قوة المذهب الشيعي في العراق في نشر دعاياتها . فصدرت الأوامر من الباب العالي الى والي بغداد بأن يشرف بنفسه على ترحيل حسين النوري واتباعه الى الاستانة .

انتهر حسين علي النوري هذه الأزمة الجديدة التي احاطت بالبابيين ليضرب ضربته التالية . فالطائفة في تلك الحالة أصبحت ذات معنويات منهارة وتحتاج الى دفعة جديدة وقوة فتية تعينها على تحمل مشاق الغربة والارتحال بعيداً عن الأوطان . ولا شك أن النفي الى العراق بالنسبة للفارسي ليس عقاباً شديداً بل على العكس كان العراق أمل الفرس . أما أن ينفي فارسي الى أرض تركية مثل الاستانة فهو أمر شاق حقاً عليه .

أعلن حسين علي النوري أنه « البهاء » الذي بشر به الباب (١٨٦٣) وكان ذلك في حديقة نجيب باشا ببغداد وهي التي عرفت باسم حديقة الرضوان لدى البهائيين .

(١) مقالة سائح في البابية والبهائية : ١٠٧ - ١١٣ / ١٣٨ - ١٣٩ .

وتعتبر مبادئ البهاء أوسع نطاقا من المبادئ التي دعا اليها الباب وهناك من يؤكد أن المبادئ التي دعا اليها البهاء لم تكن من وضعه هو وإنما دبجها نجله عباس - الشهيد بعد البهاء - ونسبها الى أبيه ليرفع من شأن مؤسس الطائفة . وعلى أي حال فإن اتجاهات البهاء العقائدية لم تتبلور الا بعد مغادرته العراق . على أن البهاء بدأ منذ أن أعلن دعوته يترسم خطى أصحاب الرسالات . فطفق يكتب الى رؤساء الدول الكبرى داعيا الى الايمان به . وهو في رسائله الى كل من تيساه فارس والى السلطان العثماني كان يستخدم أسلوبا قرآنيا في مظهره ركيك العبارة في مخبره . وقد تجاوز في بعض عباراته صفة النبوة اذ استخدم تعبيرات شبيهة ببعض تعبيرات الحلاج التي اثارت الكثير من الجدل . فبينما يقول الحلاج ما في الجبة الا الله ، يقول البهاء أنه لا يرى في هيكله الا هيكل الله . وبينما البهاء يبذر البذور الأولى لدعوته في منقاه الجديد في الاستانة تصدى له اخوه يحيى مخالفا ، اذ انكر يحيى - الذي عرف باسم صبح ازل - أن اخاه هو المهدي وادعى أن البهاء هو الامام الظاهر وأنه هو الامام الباطن الحقيقي وشنع على البهاء بأنه غدر به واستولى على صفات لا حق له فيها . واستمر هذا النزاع بين الأخوين ولكن كفة البهاء كانت هي الأرجح . وهذا الاضطراب الجديد في تحديد من هو المهدي يؤكد لنا مرة أخرى أن الأسس التي قامت عليها الدعوة البابية والبهاية كانت واهية . حقيقة كسبت الحركة البهاية بعض الاتباع في العراق ولكن كانت أعدادهم قليلة في بغداد والموصل ومعظمهم من اللاجئين الفرس (١) رعرضة للضغط السياسي من جانب فارس من وقت لآخر . فعندما قدم الشاه ناصر الدين العراق زائرا في ١٨٦٩ قرر مدحت باشا - والى بغداد - أن يبعده البابيين عن بغداد .

وأخيرا لماذا فشلت الدعاية البابية والبهاية في أن تحصل على تأييد واسع النطاق في العراق وفي الشرق العربي بصفة عامة ؟

كان الدعاة البابيون والبهاثيون غالبا من الفرس وكانت مؤلفاتهم بالفارسية في الغالب ، وما صدر عن الباب وعن البهاء باللغة العربية كان قليلا ركيك العبارة .

★ ★ ★

(١) : ١٩٤٩ / ١٩٥ : F. O. 195 ; T. 11, P. 779. Culnet; La Turquie d'Asie. August 17, 1870. No. 15. Herbert To Fillet;

الفصل الرابع

فارس القسارية

في خضم الصراع الدولي ضد نابليون

فارس والصراع الدولي ضد نابليون

كانت مخاوف الانجليز في الهند من وصول قوات روسية أو فرنسية أو دفع فارس إلى غزو الهند بواسطة الفرنسيين كبيرة جدا ومبالغ فيها . فالى أى حد كان هذا الخطر الفرنسي أو الروسي أو الفارسي يهدد الهند ؟ ولماذا بالغ الانجليز في تصوير هذا الخطر ؟ لقد كانت هناك فعلا شواهد تشير الى أن الهند كانت معرضة لغزو أوروبي فضلا عن الغزو الفارسي .

١ - فقدرات نابليون بونابرت في مجالات الحرب والسياسة في أوروبا وفي مصر واتصالاته ببعض الزعامات الشرقية (العربية والهندية) أثارت مخاوف الانجليز في الهند خاصة وأن مركز الانجليز في الهند لم يكن من القوة لدرجة تمنع من ظهور قوى خطيرة معادية للانجليز متعاونة مع الفرنسيين اذا ما حانت الفرصة .

٢ - كانت هناك اتجاهات تشير الى احتمال تعاون روسي فرنسي يوجهه كل من بول - قيصر روسيا المعجب بنابليون - ونابليون نفسه . ولقد أمر بول فعلا فرق القوقاز المشهورة في روسيا بالتقدم الى الهند في ١٨٠١ ، ولكنهم توقفوا عن متابعة الزحف بعد أن علموا بوفاة القيصر في نفس السنة . ولكن كان احتمال الحصول على نصر من الأمور البعيدة بسبب وعورة وطول المواصلات وعداوة العشائر على طريق الهند .

ومن ناحية أخرى كان من مصلحة حكومة الهند البريطانية أن تضخم من خطورة الغزو المشترك الفرنسي الروسي حتى لا تتحمل وحدها تبعات الاجراءات المضادة للنشاط الفرنسي في الشرق الأوسط ، وحتى لا تعطى فرصة للنمو الروسي أو الفرنسي في مناطق حساسة بالنسبة للهند وبوجه خاص في فارس والخليج العربي وبالتالي في أفغانستان .

وابتداء من هذا الوقت دخلت فارس في دوامة العلاقات الدولية والصراعات. الامبريالية بين الدول الأوروبية الكبرى . ولذلك يجدر بنا أن ندرس علاقة إيران بها كل على حدة مع دراسة علاقة فارس كذلك - زمن فتح علي شاه - مع الخليج العربي. والعراق (الدولة العثمانية) .

وجاء اعتلاء فتح علي شاه العرش قبل نزول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون. بونابرت الى مصر بعام واحد . ولقد ادخلت هذه الحملة الفرنسية المنطقة كلها الممتدة من فارس حتى شمال افريقيا في حلبة الصراع الدولي العنيف بين الدول الكبرى الأوروبية . ونظرا لموقع فارس وقوتها ولأنها تجاور روسيا التي كانت تتحالف أحيانا مع فرنسا الثورة وخلال حكم الامبراطور نابليون (١٨٠٣ - ١٨١٤) ، فقد كان لها أهمية خاصة من حيث امكانية استخدامها لا كطريق مؤد الى الهند فقط بل كذلك كقوة تفتح هذا الطريق اليها .

حينذاك كان لورد ولزلي Wollseley - حاكم عام البنغال - مشغولا بشوزة تيبو الذي حرضه بونابرت على الثورة ضد الانجليز في الهند ، وفي هذه الظروف وصلتته من « زمان شاه » صاحب افغانستان رسالة تتحدث عن رغبته في ارسال حملة من قبله ضد الماراتا لطردهم من المناطق الشمالية واعادتهم الى هضبة الدكن .

وجد ولزلي أن قيام زمان شاه بغزوته في شمال الهند في الوقت الذي تكون فيه القوات البريطانية مشغولة ضد تيبو صاحب ميسور فرصة طيبة للتفرغ ضد تيبو بينما ينشغل الماراتا (الهندوس) في قتال الأفغانيين . ولذلك وافق ولزلي على ما خططه زمان شاه . وهبطت القوات الأفغانية المناطق الشمالية ، ولكنها لم تستطع أن تتحكم في المنطقة القلقة . وحاول زمان شاه أن يصل بالدبلوماسية الى ما لم يحققه بالسيف فدخل في مفاوضات معقدة مع أمراء مسلمين ومهراجات هندوس . وخلال ذلك كان ولزلي قد انتهى من تيبو الذي لقي مصرعه عند سقوط سر نجاباتام .

لم تعد هناك حاجة لدى « ولزلي » لأن يستمر « زمان شاه » في نشاطه في شمال الهند . لقد انتهى دوره ، وعليه - من وجهة النظر البريطانية - أن يغادر البلاد الى مملكته افغانستان . واتبع ولزلي في ذلك نفس سياسته وهي ضرب القوى بعضها ببعض . فحرض (فتح علي شاه) على ضرب افغانستان في هذه الظروف .

كان باب النزاع بين فتح على شاه وزمان شاه مفتوحا على مصراعيه بسبب المنافسات المعتادة بين مملكتين شرقيتين متجاورتين غير منظمتين • فادعى كل منهما أنه يحتل جزءا من أرض الآخر • وبالغ فتح على شاه في الادعاء عندما أصر على أن يستعيد كافة الأراضي التي كانت تحت يد الأسرة الصفوية أي أن يضم إلى مملكته كلا من كابول وقندهار وهرارة ، وهذا يعنى أن فتح على شاه يطالب بضم أفغانستان إليه •

كانت لدى فتح على شاه عدة أوراق يستطيع أن يلعب بها ضد أفغانستان وأهمها أنه كان يحمي لديه اثنين من أحوة زمان شاه • وهما (محمود و فيروز) • فبعث بهما على رأس قوة إلى أفغانستان إلا أنهما لم يصلا إلى نتيجة عسكرية ايجابية • فتولى فتح على شاه بنفسه المعركة ضد أفغانستان ، مبتدئا بتطهير خراسان من الثوار قاضيا على آمال زمان شاه فيها • وكانت تحركات فتح على شاه هذه هي السبب الرئيسى فى انسحاب زمان شاه من لاهور وبيشاور ليدافع عن بلاده ضد غزوة فتح على شاه • ولم يلبث أن وقعت اضطرابات عنيفة فى أفغانستان اسقطت شاه زمان عن العرش ليتمكن بعد سنتين شاه شجاع من حكم أفغانستان (١٨٠٣ - ١٨٠٩) •

ومع هذا كانت هناك دعايات واسعة بريطانية تقول أن الخطر على الهند أصبح داهما لا من ناحية الروس والفرنسيين فقط بل كذلك من ناحية الفرس •

وما أن وصلت أنباء نزول الحملة الفرنسية فى مصر حتى أسرعته حكومة بمباى (البريطانية) إلى إرسال مبعوث إلى بلاط فتح على شاه فى أوائل سبتمبر ١٧٩٨ • وكان هذا المبعوث هو مهدي على خان ، وهو فارسى من خراسان ، وكان متمتعا بثقة حاكم بمباى (جوناثون دنكان) Jonathan Dankan وكلفه دنكان بالعمل على إبعاد أى نفوذ فرنسى من بلاط إيران وإنما كذلك من مسقط — وكان بونابرت قد كاتب امامها البوسعيدى — ومن أى مكان يمكن أن يصل إليه النفوذ الفرنسى فى الخليج العربى • كذلك كلفه دنكان بأن يجعل العلاقات الفارسية الأفغانية فى خدمة المصالح البريطانية وضد النفوذ الفرنسى الساعى إلى المنطقة •

استطاع مهدي على خان أن يصل إلى تفاهم سريع مع فتح على شاه بشأن الفرنسيين فى بلاده ، ومن قد يصل منهم إليها ووافق الشاه على القبض عليهم ولكن كانت حكومة

الهند (البريطانية) تريد أن تصل الاتفاقات مع الشاه الى درجات أقوى من تلك التي توصل اليها مهدي على خان فارسلت بعثة أخرى برئاسة مالكولم أحد ضباط جيش شركة الهند الشرقية البريطانية ، والذي كان يشغل حينذاك منصب مساعد المعتمد البريطاني في حيدر أباد (الدكن) . وبينما كانت مهمة مهدي على خان موجهة بوضوح ضد الفرنسيين ، فإن مهمة مالكولم كانت تستهدف وضع حد للخطر الأفغاني على الهند والوصول الى معاهدة تجارية سياسية مع شاه ايران . والسبب في اختلاف أهداف كل من البعثتين هو أن الخطر الفرنسي المباشر تقلص بسرعة في أعقاب تدمير الأسطول الفرنسي في أبي فير وفشل بونايرت أمام عكا .

لقد كانت مهمة مالكولم هي ربط فارس بعجلة الامبراطورية البريطانية ، وإيجاد قاعدة بريطانية في الخليج العربي تستطيع أن تطعن منها فارس ان هي اقدمت على تهديد الهند سواء بمفردها ، أو بتحريض أي من الفرنسيين أو الروس . ولعل هذا هو السبب الوحيد من وراء محاولات مالكولم للحصول على جزيرة (خرج) أو (هنجام) أو (قشم) من الفرس الا أن الشاه رفض ذلك رفضا باتا اذ كان يعلم أن الاستعمار البريطاني في الهند بدأ بصورة مشابهة لهذه الواقعة .

نجح مالكولم في عقد معاهدة سياسية مع فتح على شاه في ٢٨ يناير كانون الثاني ١٨٠١ . وكانت هذه المعاهدة تتضمن استمرار التعاون الفارسي البريطاني ضد أي غزو أفغاني للهند ، وان لا يعقد الشاه صلحا مع الأفغان الا بعد أن يكون الأفغانيون قد اخلوا أية اراض احتلوها في الهند . وعلى بريطانيا أن تمد ايران بالمدافع والعتاد الحربي في حالة اعلان الأفغانيين أو الفرنسيين الحرب على الشاه ، وان تتعاون السلطات الفارسية والبريطانية في حملات مشتركة ضد أي وجود عسكري فرنسي في أية جزيرة من جزر الخليج العربي حتى يطردوا منها الفرنسيين ، أما الشروط التي تضمنتها المعاهدة التجارية الموقعة في نفس اليوم فكانت على نسق معاهدات الامتيازات التي سبق أن عقدتها بريطانيا مع الدولة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر وهي المعاهدات التي تعطي للأجانب حقوقا تكاد تجعلهم أكثر قدرة على التحكم في مقادير البلاد الاقتصادية وبالتالي مقاديرها السياسية . وهذا يزداد وضوحا كلما ضعفت الدولة الفارسية أو العثمانية .

نصت المعاهدة التجارية على : —

- ١ — أن يتمتع تجار الطرفين بالحماية في أرض الطرف الآخر .
- ٢ — حرية الإقامة ، والتنقل والتجارة .
- ٣ — حددت التعريفة الجمركية لصالح التجار الانجليز .
- ٤ — حق الانجليز في اقامة القنصليات .

وردا على سفارة مالكولم هذه بعث الشاه سفيراً الى الهند ، ولكن لم يلبث ان اصيب بعيار نارى قاتل خلال مشاجرة بين خدمه وحرس الشرف الهندى المخصص له في بمباى (١٨٠٢) وتعطل التصديق على أى من المعاهدتين سالفتى الذكر . فكان ذلك من العوامل التى جعلت التقارب بين الفرس والفرنسيين يزداد يوما بعد يوم . خاصة وأن الانجليز كانوا يتهربون من الموافقة على مساعدة ايران ضد الغزو الروسى فى الوقت الذى كان فيه مبعوثون فرنسيون يؤكدون للشاه رغبة فرنسا فى ذلك التعاون مع ايران ضد روسيا العدو المشترك حينذاك (١٨٠٤ — ١٨٠٥) .

وأصبحت المساعى الفرنسية على المستوى الرسمى عندما اعطت الحكومة الفرنسية للكولونيل روميو فى طهران تفويضا بالتفاهم مع الشاه على أساس تحالف فرنسى — فارسى ضد روسيا (١٨٠٥) حقيقة قوبل روميو بمقابلة جافة من السلطات الفارسية ، ولكنها تركت أثرا هاما فى نفس الشاه .

استمرت الجهود الفرنسية لكسب الشاه مستمرة ونجحت على يد المبعوث الفرنسى الجديد جوبرت M. Jaubert (مايو ١٨٠٦) وأدت جهوده الى أن يبعث الشاه بسفارة إيرانية الى فرنسا تولاهما (ميرزا محمد رضا) والذى منح حق عقد معاهدة تحالف مع فرنسا تكون فيها الدولتان على قدم المساواة . وتم ذلك فعلا وعرفت باسم معاهدة فنكنشتين التى وقعها نابليون فى ١٠ مايو ١٨٠٧ أى قبل صلح تلسيت مع روسيا بشهرين فقط .

لقد أصبح من المتعذر جدا على نابليون أن يطبق مواد معاهدة « فنكنشتين » بعد أن وقع صلح تلسيت Tilsit ١٨٠٧ مع قيصر روسيا ذلك الصلح الذى يطلق فيه

الامبراطور الفرنسي يد روسيا للتوسع على حساب الدولة العثمانية والدولة الفارسية (١) . لقد أصبح على الامبراطور نابليون أن يعيد النظر في معاهدة فنكنشتين . وتفتق ذهن نابليون عن خطة تقوم على أساس ارسال بعثة على مستوى عالى الى الشام تقوم بدور الوساطة فيما نشب من منازعات بين ايران وروسيا وحل المشاكل بينهما في منطقة جورجيا بدلا من امتشاق الحسام الذى يجرج فرنسا كل الاحراج بين حليفها .

اسندت هذه البعثة الفرنسية الى الجنرال جاردان Gardanne وهناك استقبل بحفاوة ، وحصل من الشاه على تنازل عن جزيرة خرج لفرنسا ولكن عندما وقع الهجوم الروسى على اريغان في ١٨٠٨ الروسى على اريغان في ١٨٠٨ ، وفشل جاردان حتى في وقف التحركات الروسية ، وبدا واضحا للفرس أن فرنسا لا ترسل قواتها ضد روسيا من أجل فارس ، هبطت مكانة الفرنسيين بسرعة ، وتلاشت أمورهم . وكان هذا أمرا طبيعيا حيث لا توجد قواعد قريبة يمكن أن يعتمد عليها الفرنسيون في الاتصال المباشر الدائم مع الشاه بينما كانت قوة بريطانيا هي الواضحة التفوق في المنطقة .

كان وصول جاردان الى طهران كفيلا بأن تتحرك الدوائر الانجليزية بسرعة وبقوة أكبر عن ذي قبل . وكانت هذه الدوائر لا تخشى فقط من هذا النمو في النفوذ الفرنسي في ايران ، بل كانت تخشى كذلك من امتداد هذا النفوذ بنفس القوة الى أفغانستان - مفتاح الهند الشمالى . فبعث المسئولون الانجليز في الهند سفارة الى شاه شجاع ادت الى عقد معاهدة معه موجهة ضد أى غزو فارسى - فرنسى ضد أفغانستان ، وتعهد الانجليز في مثل هذه الحالة بامداد شاه شجاع بالأموال والأسلحة ، كما تعهد الجانب الأفغانى بتطهير بلاده من أى وجود فرنسى .

أما بالنسبة لفارس فقد أعدت لها بعثتان احدها صادرة عن حكومة الهند واسندت الى مالكولم والثانية صادرة عن حكومة لندن واسندت الى بريدجز H. J. Brydges أحد كبر موظفى حكومة الهند .

(١) يقال أن آمال الامبراطور نابليون في تكوين امبراطورية شرقية كانت لا تزال قوية حيث يقال أنه فكر في فتح فارس واسناد عرشها الى أخيه لوسسيان ويبدو أن هذا من تصورات الانجليز ولكنه يكشف لنا عن مدى ما وصلت اليه مخاوف الانجليز أو ادعاءاتهم .

وذهب مالكولم الى ايران في ربيع ١٨٠٨ في مظاهرة عسكرية مقصودة الأهداف
ومع هذا فشلت بعثته فشلا واضحا لأن الشاه لم يكن قد نفّض يده تماما من الفرنسيين .
أما بعثة هارفورد جونز بريدجر Brydges فقد طالت فترة وجوده دون طائل
بينما كانت حكومة الهند تعد حملة لاحتلال جزيرة (خرج) . فآثرت أن تطلب منه
الانسحاب من ايران ، ولكن لم تلبث حكومة الهند أن غيرت سياستها وقضت الحصول
على خرج بالطرق السلمية ، بل أن الحصول عليها لم يعد سياسة بريطانية مقررّة بعد أن
وصلت أنباء هزيمة الفرنسيين أمام الأسبان في ١٨٠٩ فتابع برджер جهوده مع بلاط
فارس حتى عقد معاهدة تمهيدية في ١٢ مارس آذار ١٨٠٩ .

وأهم ما ورد في معاهدة ١٨٠٩ امتناع الشاه عن السماح لاية قوة بالمرور عبر
ايران لغزو الهند وبمساعدة بريطانيا للشاه عسكريا اذا ما تعرض لغزو من جانب دولة
أوروبية . ومن ثم فهي معاهدة موجهة ضد فرنسا ومنحت المعاهدة تسهيلات عسكرية
للقوات البريطانية في الموانئ الإيرانية ، وأن تتوسط بريطانيا بين فارس وأفغانستان
في حالة وقوع حرب بينهما ، أما اذا هاجمت أفغانستان الهند (البريطانية) فعلى الشاه
أن يتخذ اجراءات عسكرية ضدها .

أدت هذه المعاهدة الفارسية - الانجليزية الى وضع حد نهائي للنفوذ الفرنسي في
طهران ، واستغنى الشاه عن خدمات جاردان Gardanne كما أدت هذه المعاهدة الى
ارسال بعثة بريطانية جديدة الى بلاط الشاه ، أسندت الى مالكولم أيضا ، فأصبحت
هذه هي بعثته الثالثة الى البلاط الفارسي . ورحب به الفرس ، وأسندت قيادة الجيش
الفارسي الى أحد الضباط الانجليز .

ولكن بعد هزيمة فارس أمام روسيا وعقد معاهدة كلستان دخلت الدوائر الانجليزية
مرة أخرى في مفاوضات مع الشاه للحصول على معاهدة تعطي لبريطانيا حقوقا مساوية
لما حصلت عليه روسيا في معاهدة كلستان ، وعلى أسس المعاهدة التي سبق أن عقدها
هارفارد جونز بريدجر مع الشاه في (١٨١٢) . وأخيرا وقعت المعاهدة البريطانية -
الفارسية في ٢٥ نوفمبر ١٨١٤ . وهي في اتجاهها وملابساتها موجهة ضد روسيا .
وقد أورد نوريمر Lorimer ملخصا لها على هذا النحو :

« في المادة الأولى أعلنت الحكومة الإيرانية أن محالفاتها المعقودة مع دول أوروبية في حالة عداء مع بريطانيا تعتبر لاغية وارتبطت بعدم السماح لأي جيش أوروبي بالدخول إلى الأراضي الإيرانية أو أن يتقدم برا أو بحرا تجاه الهند . وتعهدت بأن لا تسمح لأفراد ينتمون إلى دول أوروبية بالتردد على إيران إذا كانت لهم خطط ضد الهند أو عداء مع بريطانيا . وفي نفس المادة تعهد شاه إيران أن يستعمل جميع الوسائل التي تكون تحت تصرفه ليقنع دول آسيا الوسطى في منع أي غزو أوروبي للهند عن طريق أراضيها .

والمادة الثانية تنص على إيجاد صداقة دائمة بين بريطانيا وإيران وتلزم بريطانيا بأن تمتنع عن التدخل في النضال الداخلي في إيران وتطلب سلامة أراضي المملكة الإيرانية .

والمادة الثالثة حددت طبيعة المعاهدة بأنها دفاعية تماما وقررت أن الحدود بين إيران وروسيا يجب أن تقبلها بريطانيا .

والمادة الرابعة تشير إلى الالتزامات التي فرضتها المعاهدة التمهيدية سنة ١٨٠٩ على بريطانيا في حالة غزو إيران بقوة أوروبية وحددت قيمة المنحة التي تدفعها بريطانيا لإيران إذا كانت المساعدة تقدم على شكل منحة بمبلغ ٢٠٠ ألف تومان سنويا . وأضيف إلى ذلك أن المنحة لا تدفع إذا كانت الحرب التي أدت إلى غزو إيران كان فيها استفزاز باعتهاء من جانب إيران ويحجب أن يقدم برهان أيضا على أن المنحة ستنفق على الأغراض الحربية التي دفعت من أجلها .

والمادة الخامسة سمحت للحكومة الإيرانية بتوظيف ضباط أوروبيين لتدريب قواتها بشرط أن مثل هؤلاء الضباط لا ينتمون إلى دول تكون في حرب أو عداء مع بريطانيا . وفي حالة وجود قوة أوروبية في سلام مع بريطانيا وأعلنت الحرب على إيران فعلى الحكومة البريطانية أن تتوسط . فإذا فشلت الوساطة فإن الشرط الذي يقيد بريطانيا بمساعدة إيران أما بقوة عسكرية أو بمنحة يجب أن يبقى ساريا . والمادة السابعة تنص على أنه في حالة دفع المنحة يجب أن تدفع على شكل أقساط عاجلة بقدر الامكان .

وتنص المادتان الثامنة والتاسعة على انه اذا ما قامت حرب بين بريطانيا وأفغانستان فعلى الشاه أن يقوم بعمل ضد الأفغانيين ويتلقى من الحكومة البريطانية منحة لتغطية نفقاته وفي حالة قيام حرب بين ايران وأفغانستان فعلى بريطانيا أن لا تتدخل الا اذا كانت كوسيط بناء على طلب الطرفين .

وتنص المادة العاشرة على طرد وابعاد المجرمين السياسيين وأخيرا بموجب المادة الحادية عشرة فان الحكومة البريطانية تتعهد أن تساعد الشاه في الخليج . . بالسفن الحربية والقوات والنفقات .

ومن هذا يتبين لنا أن الانجليز حصلوا على امتيازات ستكون فاتحة عهد التغفل البريطاني السريع اقتصاديا ، وفاتحة عهد من التحكم البريطاني في سياسة فارس .

لم تلبث هذه المعاهدة أن تعدلت في أعقاب هزائم فارس امام روسيا في حربها ١٨٢٦ — ١٨٢٨ . فعندما بدأت الحرب طالب الايرانيون من الانجليز أن يقدموا لهم المساعدات بمقتضى ١٨١٤ . ولكن امتنع الانجليز عن ذلك متذرعين بأن فارس هي التي اعلنت الحرب على روسيا وليس العكس . وبذلك تخطت بريطانيا عن فارس ، وحررت نفسها من قيود معاهدة ١٨١٤ في العشرينات . والواقع ان خسائر فارس امام الروس خلال العقدین الثاني والثالث كانت هي الأخرى باهظة .

★ ★ ★

الآزمات الفارسية الروسية

أما العلاقات الفارسية الروسية خلال تلك الأزمة الكبرى الدولية (الثورة الفرنسية وحروب نابليون) فكانت هي الأخرى شديدة التوتر ، وكان هذا واضحا منذ الأيام الأولى من حكم « أغا محمد قاجار » مؤسس الدولة القاجارية .

فلقد شذت جورجيا عن كافة جيران أغا محمد (الشاه محمد) وشرعت في تهديد فارس من الشمال . وهذا راجع الى تحريضات القيصرة الروسية كاترين الثانية . وكان هرقل (هراقيلوس) حاكم جورجيا مستعدا لأن ينفذ تابعيته لفارس في أى وقت . وفعلا انتهز فرصة الفوضى التى أعقبت مصرع نادر شاه واستولى على بعض الأراضى الفارسية وضمها الى ممتلكاته . وحيث أن هرقل كان يعلم تماما أن فارس لن تلبث أن تشن عليه حملة كبيرة بعد أن تسترد وحدتها وقوتها ، أسرع في ١٧٨٣ الى عقد معاهدة دفاعية هجومية مع كاترين الثانية نافضا يده من أى نوع من أنواع التبعية لفارس ، وتعهدت كاترين الثانية بحماية جورجيا . ولكن الملاحظ هو أن هذا التعهد كان كلاميا أكثر عمليا حيث لم تذهب حكومة روسيا الى حد ارسال قوات روسية لجورجيا لتكون هذه الحماية فعالة .

بعد أن انفرد أغا محمد باليد العليا في البلاد وجد أن من واجبه مواجهة هذا الموقف الخطير في شمال البلاد . وكان أغا محمد ضد أى تسلط أجنبى — خاصة اذا كان صادرا عن جورجيا أو روسيا — على أراضيه فبعث أغا محمد بجيش كبير ، ولكنه عجز عن أن يحسم الموقف بالقوة العسكرية لمناعة قلاع جورجيا ووعورة طرقها . الا انه في معركة مكشوفة دارت بين الطرفين تفوق أغا محمد تفوقا حاسما واستولى على تفليس التى أخذ منها عشرين ألف من شبابها وفتياتها أرقاء ، ثم استولى على أريقان وان كان قد عجز عن فتح شيشه (كانون أول ١٩٧٥ / ديسمبر) . الا أن المظهر العام لجهوده في جورجيا كان الانتصار .

رفع هذا الانتصار من مكانة أغا محمد ، وأصبح بطلا وطنيا لا مجرد مطالب بالحكم ولذلك بعد أن عاد من حملته في جورجيا اتجه الى تتويج نفسه شاهاً على البلاد (١٧٩٦ م / ١٢١٠ هـ) وشرع في توطيد حكمه في الاقاليم شبه المستقلة ، وكان ناجحاً في أن يحصل على خضوع الواحد بعد الآخر في خراسان ، وفر بعض منافسية الى أفغانستان والبعض الى روسيا . ومن بين من فروا الى روسيا أخوة مرتضا قولى خان . فكانت فرصة انتهزتها حكومة كاترين الثانية للانتقام من الفرس خاصة بعد أن وقفت الحكومة الروسية مكتوفة اليدين ازاء انتصار الشاه محمد قاجار على هرقل في جورجيا من قبل .

وفي ١٧٩٦ زحف جيش روسى كبير يقدر بأربعين ألف مقاتل واستولى على (دربند) وباكو وعلى غير ذلك من القلاع الحصينة هناك وعسكر الجيش الروسى في وادى مورغان Morgan وتحت يده كل الأراضى التى كانت تقع وراء هذا الوادى (شتاء ١٧٩٦) .

واستعد أغا محمد لخوض المعركة في الربيع التالى ، الا ان كاترين الثانية توفيت ، ولم تكن سياسة بول Paul - خليفته - تؤيد هذا الاتجاه وسحب الجيش من الأراضى الفارسية . وانتهى الخطر الروسى على فارس مؤقتاً . فكان ذلك فرصة انتهزها الشاه محمد فغزا جورجيا وتوغل فيها واستولى على شيشه . ولم يلبث الشاه أن لقى مصرعه بعد قليل . (١٧٩٧ م / ١٢١١ هـ) .

كان ذلك النفوذ القوى الذى احززه أغا محمد (الشاه محمد) في جورجيا (١) سبباً من الأسباب الرئيسية في الصدام بين روسيا وفارس . ولكن في أعقاب اعتلاء فتح على شانه العرش اتجه جوركين Gurgin - خان جورجيا - الى أن ينفذ يده من ايران ويفتح أبواب جورجيا امام الروس وهذا ما حدث فعلاً في ١٨٠٠ ، فاستبدلوا على بانجا (اليزابشبول) ، ولكن لم تقع الحرب الا بعد أن حاصر الروس اريقان ، وبعد سلسلة من المعارك تابع الروس تقدمهم ، وكسبوا معركة اسلاندوز Aslandus في ٣١ تشرين أول أكتوبر ١٨١٢ ، وكشفت هذه المعركة عن ارتفاع عدد الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون

١) - انظر فيما سبق .

في جيش الفرس • واضطر الفرس الى عقد معاهدة كلستان ١٨١٣ في الوقت الذي كانت فيه تعاني من غزوة نابليون الكبرى •

نصت معاهدة كلستان على تنازل فارس على الكثير من اراضيها على النحو التالي : —

١ — يتنازل الشاه عن دربند ، باكو • شيروان شاكي ، قره باغ ، جزء من تاليش ، كل جورجيا ، داغستان ، منجوليا ، امريتيا ، انجاسا •

٢ — ألا يكون لفارس أسطول في بحر قزوين •

٣ — أن تساند روسيا عباس ميرزا في اعتلاء العرش •

وهكذا ، ومن أجل أهداف شخصية أضاع ولي العهد عباس ميرزا — المفاوض مع الروس — تلك المساحات الشاسعة من الأراضي الفارسية • وهناك من يرى أن فارس كانت تستطيع الحصول على حقوق وشروط أفضل بكثير من تلك لو أنها استمرت في القتال قليلا لتصبح روسيا بين شقي الرحى : بين جيش نابليون الضخم والجيش الفارسي •

لقد كان الفرس ، وخاصة ولي العهد عباس ميرزا ، مصرا على أن تلك جولة من الجولات ، وأنه يجب أن يستعد استعدادا جديدا وعلى أسس أكثر اوروبية خاصة في اعداد الجيش وتدريبه ، وعلى أساس الاستعانة بأكبر عدد من الضباط الانجليز • ولكن يبدو أن الحكومة الروسية كانت تعرف هذه الاتجاهات ، ولذلك عازمت على أن تولى وجه الفرس الى جهة أخرى ، والى العراق بالذات • فكان أن بعث الروس في ١٨١٨ بعثة برئاسة الجنرال يارمولوف Yarmoloff الى الشاه لحثه على عقد حلف مع القيصر ضد السلطان العثماني ، مقدما في نفس الوقت مطالب روسية جديدة : —

١ — السماح للقوات الروسية بالمرور عبر استراباد لمهاجمة جيوه •

٢ — انشاء وكالة روسية في رشت Recht ، وكان الشاه محمد (أغا محمد) قد منعهم من ذلك •

٣ — تقديم مدربين روس للجيش الفارسي .

حقيقة رفض الفرس تلك المطالب ، ولكنهم لم يلبثوا أن شنوا حرباً بالحدود العثمانيين في العراق (١٨٢٠ — ١٨٢٣) وبعدها حاول عباس مما فقده في معاهدة كلستان ، بل حاول أن يبعد الجيش الروسي وجه حق . ولم تلبث أن وقعت الحرب مرة أخرى ، وحاول القيا إلى تفاهم مع الشاه وبعث بسفارة جديدة برئاسة ————— في أعقاب اعتلائه العرس . لكن استمرت الأزمة واسترد مقاطعاتها القزوينية ، ولكن لم تلبث القوات الروسية المدربة أن هزمت الجيش الفارسي بقسوة في معركة شمكار Shamkar ثم في جانجا في ٢٦ سبتمبر ايلول ١٨٢٦ بسبب سوء قيادة عباس ميرزا . وتقدم الجيش الروسي حتى تبريز فاستولى عليها وعلى اوريفان وأملت روسيا على الشاه معاهدة تركمان جاي في ١٨٢٨ . ولا شك أن شروط هذه المعاهدة كانت مخففة بسبب تصاعد الأزمة بين القيصر والسلطان العثماني .

في معاهدة تركمان جاي (١٨٢٨) تنازلت فارس لروسيا عن اريفان ونخشوند الخصبتان ، ودفعت خمسة ملايين تومان (٣ مليون استرليني) لروسيا ، وحصلت الأخيرة على حق تعيين القناصل ، وتحديد الضرائب على الواردات والصادرات بـ ٥ ٪ . ولكن تباطأ الشاه في توقيع المعاهدة فهدد الروس بالزحف إلى طهران فحثه وزير بريطانيا في طهران على توقيعها فوقعها .

لقد انتهت هذه المعاهدة عهداً كانت فيه فارس على قدم المساواة مع الدول الكبرى الأخرى . وأصبحت البلاد الفارسية محط أطماع الدول الكبرى ، وأصبح لهم فيها امتيازات أجنبية وقضائية .

الفصل الخامس

الأزمات الفارسية العثمانية

خلال القرن التاسع عشر

استمر العراق غاية من غايات الفرس وكان العثمانيون والایرانیون — على السواء — يقرعون السيف بالسيف أو المؤامرة بالمؤامرة فكانت الحروب عديدة ونتائجها في كثير من الأحيان لا تدانى تكاليفها . فايران تقذف بالجيش اثر الجيش والدولة العثمانية تحض ولايتها على الدفاع وتشحن المدن بالحاميات وتدفعها الى اجتياح الاراضى الايرانية اذا اشتمت ریح ضعف في حکامها أو قواتها الدفاعية ، فكان أن اجتاح حسن باشا — والى بغداد ١٧٠٤ — ١٧٢٣ مقاطعات ايران الغربية فلقب بفتح همدان وارتفع بذلك الى مصاف العظماء في تاريخ العراق . ومن بعده نال ابنه أحمد شهرة مدوية لواقف البطولة التي وقفها خلال استماتته في مقاتلة نادر شاه .

ومع ما كان عليه ذلك الصراع من عنف فقد وقعت معاهدتا سنة ١٦٣٩ و ١٧٤٦ ولم تشأ العقلية الايرانية أو العثمانية أن تعين الحدود العراقية — الايرانية أو أن تحدد تبعية العشائر الكردية الشاتية في ايران الصائفة في كردستان . وكانت المعاهدات بين البلدين قد شطرت الشعب الكردي بينهما ، كما كانت ثغرات كبيرة تسبب نزاعا لا يفتقر وتجعل المعاهدات وقتية وغير ذات قيمة فعلية . ومعاهدة ١٦٣٩ م — وهي التي اتخذت أساسا للمعاهدات التالية لها حتى ١٨٤٧ م — خير مثال لما أقول فقد تركت سقر وزهاب ودرنة في هذه المعاهدة دون أن تعين حدودها بدقة كما كانت الهجرات تثير ارتباكا شديدا في تحديد تبعية القبائل وهذا الارتباك في التحديد كان فرصة لتقلب القبائل على الطرفين، وكان هناك نوع آخر من الهجرات الموسمية يثير أيضا مشكلات معقدة بين حکام العراق وايران ففي العراق مزارات الشيعة المقدسة . هذا الى أن بغداد والبصرة أصبحتا أسواقا كبيرة للتجارة الأوروبية الايرانية — الهندية فيتقاطر التجار الى العراق في قوافل ضخمة ، كما تتقاطر عليه قوافل الزوار التي تحمل رفات من أسعدهم الحظ — في نظر الشيعة — بتحقيق أمنيتهم وهي أن يدفنوا بجوار حفيد النبی عليه الصلاة والسلام وكان هؤلاء الزوار يعاملون أحيانا معاملة سيئة من فرض رسوم باهظة الى تهديد القبائل لهم بنهبهم مما كان يثير في نفوس حکام الفرس روح الانتقام وهم العاقدون على ما يتمتع به الحکام المالیک من أموال العراق الكثيرة . ويوضح لنا عدد الزوار السنوى لمزارات

العراق وهو بين ١٥ - ٢٠ ألف زائر مدى خطورة هذه المشكلة من الناحيتين الدينية والاقتصادية . على أن هذه الناحية الحساسة التي كانت في كثير من الأحيان مصدر تهديد للسلام بين البلدين - كانت أقل خطورة من المشكلة الكردية . فمنذ فتح سليمان القانوني العراق كان الأمير الكردي الذي لا ينال مأربه في بغداد يفر الى إيران لينال هدفه بحد السيف الإيراني وعلى هذا النحو سارت الأمور خلال العهد العثماني والمملوكي . وكانت السياسة الإيرانية ترمى من وراء ذلك الى أن تشارك الأتراك في حكم شيرزور وبأن يكون لها رأى فيمن يتولى باشويتها . فكانت هذه الأمانى من أسباب كثرة الاصطدام حتى أصبحت محكا لقياس قوة استعداد الحكام في بغداد لمواجهة المواقف .

وفي عهد عبد الله باشا (١٨١٠ - ١٨١٣) - والى بغداد - كان الشاه أشد رغبة من ابنه محمد على ميرزا في الاستيلاء على بغداد ويعبر أحد ساسة الفرس عن مشاعره في هذا الصدد فيقول : وا أسفاه على وقوع تلك البلاد الجميلة بين أيدي ذلك الشعب ؟؟ لو أنها كانت لنا (والله سيمنعنا إياها) فيالها من بلد ستصير فردوسيا .

وكانت التيارات السياسية في أوروبا من العوامل التي أشعلت نار حقد الإيرانيين على الأتراك لأن السلطان عقد معاهدة صلح مع قيصر روسيا فنكزت إيران لتتصيد العراق . لكن السفير الانجليزي استطاع أن يلفظ الجواب بين الدولتين بأن أقنع الشاه بسحب ترشيح عبد الرحمن بابان للسليمانية وهكذا كانت للانجليز قدرة على وقف أو تأجيل حرب بين إيران وبغداد . فقد كان نفوذهم في إيران قويا وكذلك كان في بغداد أيام سعيد ، فهذا الباشا الضعيف سمح للنفوذ الانجليزي الفارسي أن يشتد في العراق حتى ان الشائعات كانت تتردد هنا وهناك عن أن العراق على شفا الوقوع بين يدي الشاهزادة محمد على ميرزا حاكم كرمنشاه .

ولما كانت العراق محط آمالهم ، وما كان الشاه لينسى كارثة كربلاء (١٨٠١) عندما هاجمها الموحدون (الوهابيون) ، وكانت الثمرة قد آن اقتطافها ، فان الشاهزادة محمد على ميرزا أخذ ينظر من جديد الى فتح العراق كله لا السيطرة على شيرزور فقط . وكانت مقدمات هذا الاتجاه عدوانا إيرانيا مستمرا على الحدود العراقية - الإيرانية منذ

انتصار داود (١) في موقعة كفري (١٨١٢) على عبد الرحمن الباباني ، وكلما ظهرت النية لعقد الصلح ازدادت العراقيل في وجه المفاوضات العثمانية . وكانت العقبات الكبرى التي تواجه المتفاوضين هي :

- (أ) مطالبة ايران بأن يكون لها رأى في تعيين حكام السليمانية .
- (ب) دفع حكام السليمانية مبالغ سنوية لايران .
- (ج) مشكلة القبائل الرحل المتنقلة بين الأراضي العثمانية والایرانية .
- (د) مشكلة معاملة حجاج العتبات المقدسة .
- (هـ) المشكلة الكردية وقبول اللاجئين .

ونظرا لتعقد تلك المشكلات كانت المفاوضات غالبا ما تنتهي دون الوصول الى الهدف المنشود فتظل بذرة النزاع نابتة .

على ذلك النحو دارت المفاوضات بين الباب العالي والشاه بشأن تلك المنازعات ، وانتهت المفاوضات دون أن تبت باتا قاطعا في أية مشكلة من تلك المشكلات الا من حيث تنازل ايران عن الأموال التي كانت تأخذها سنويا من عبد الرحمن بابان وكانت حوالى عشرة آلاف تومان .

وفي حياة عبد الرحمن نالت ايران نفوذا كبيرا جدا في كردستان حتى انها كانت تحتل معظم المناطق المشكوك في تبعيتها لكل من الطرفين وبعض المناطق التابعة للعراق . فقد كانت تحتل لواء حلوان وهو يشمل (زهاو) ودرتنك وقصر شيرين (٢) .

وكان عبد الله باشا وسعيد باشا اضعف من أن يقفا موقفا حازما من ايران وكانت سياسة داود مناهضة منذ البداية لايران فتحالف داود مع محمود الباباني ضد سعيد على أساس تخلى محمود عن الايرانيين . ومنذ أن تولى داود باشا الحكم لم يحضر في أية مناسبة يحتفل بها معتمد الشاه في بغداد . وكانت أسس حلفه مع محمود بابان مضيعة للنفوذ الايراني في كردستان وقد منحه داود كوى وحريير مكافأة له عن تخليه عن

(١) والى بغداد من ١٨١٧ — ١٨٣١ .

(٢) جودت : ج ١٠ ، ١٢٢ .

ايران (١) . وكانت ايران متحفزة لتلتهم العراق ، وتحول هذا التحفز الى رغبة جامحة .
اثارتها السياسة الروسية ، التي بدأت تنفيذ سياسة مرسومة في الشرق الأدنى . وكانت
ايران قد تلقت منذ وقت وجيز صفقة معاهدة كلستان المهينة حتى أصبحت كاتبة
لسانبطرسبرج (٢) وهذا هو العامل الجديد الذي ظهر في المشكلة العراقية الايرانية واعنى
به مؤمرات عملاء روسيا في ايران لاثارها ضد الدولة العثمانية .

ففى سنة ١٨١٧ لم يكن هناك أمل للايرانيين في أن يستردوا شيئاً من ممتلكاتهم
المفقودة بمساعدة حلفائهم القدماء (الانجليز) . بينما أرسل القيصر الجنرال يارمولوف
Yarmoloff الحاكم الجبار والقائد العام للقوقاز على رأس بعثة دبلوماسية مهيبة الى
طهران ، وبذل أن يتنازل الجنرال عن شبر من الممتلكات التي استولت عليها روسيا من
ايران قدم اقتراحا بعقد حلف ايراني - روسي ضد الدولة العثمانية . وطالب في هذا
الحلف بآ تمنح القوات الروسية ممرا عبر الأراضي الايرانية في استراباد وخراسان
لتصل هذه القوات الى جيوه ، كما اقترح أيضا امداد الجيش ايراني بالضباط وبالقيادة
الروسية . ولكن كل هذه المقترحات رفضت في هدوء وعادت البعثة الروسية الى
بطرسبورج محملة بالهدايا وان كانت ممثلة غيظا من ايران (٣) ، ولا شك أن هذه
التلميحات عن التوسع في ناحية الغرب كان لها صداها في البلاط ايراني .

على أن العوامل الأخرى المؤدية الى النزاع بين ايران والدولة العثمانية كانت على
صورة أشد خطورة لأن خطة كرمشاه لم تقف عند مؤامراتها في كردستان فقد نشطت
كرمشاه في جمع الأعوان من كبار الحكام ومن الزعماء العرب أيضا وهي ترمى من وراء
ذلك الى السيطرة على كردستان بالضغط العسكري والسياسي . وبشفل الباشا في بغداد
بالمؤامرة تلو المؤامرة حتى يعجز عن منازلة كرمشاه ويضج العراق من عجز الباشا فيثور
ويضطرب ويخلع الباشا ليأتي آخر ربما يكون من المماليك المواليين لايران . ومصدق ذلك

(١) جودت : ج ١١ ، ٣٠ .

(٢) Hoskins, British Routes to India. London 1926.

وانظر نصوص معاهدة كلستان في Hurewitz, op. cit, Vol. I. وظروف عقدها في

Sykes; A History of Persia. London 1951, Vol. 11, P. 313, 315.

Ibid.

(٣)

أشتداد المؤامرات الايزانية داخل بلاط داود نفسه ، ولذلك قضى على الرءوس الخائنة وعمل على أن يبعد محمودا عن الشاهزادة بالنصح والترهيب فارسل مهرداره عناية الله أغا اليه النصيحة بالابتعاد عن الشاهزادة وعبثا حاول المهردار لأن محمودا كان يعتقد أن قوة كرمشاه عظيمة بينما تولى داود الحكم منذ وقت قصير بحد السيف الكردي ثم أن الباشا لا يستطيع أن يشن ضده حربا في هذه الظروف ولكن محمودا أخطأ التقدير لأن داود باشا كان مصرا كل الاصرار على ضرورة القضاء على النفوذ الأجنبي في العراق ايا كان مصدره ، الفرس أم الانجليز . وكان الباشا قد زود مهرداره بالتعليمات التي يجب أن يسير عليها اذا ما رفض محمود العودة الى حظيرة الدولة العثمانية فكلفه بالاستيلاء على كوى وحرير في هذه الحالة ، فقام عناية الله بمن معه من قوات معرزة بجند اربل وغشائر الشمامك وديزه بي واستولى على كوى وحرير، واسندها الى حليفه حسن - أخى محمود الباباني - الذي انضم الى داود .

وكان من الطبيعي أن يستنجد محمود بحليفه الشاهزادة فأمدّه هذا بعشرة آلاف مقاتل وكانت هذه العمليات العسكرية السياسية المبدئية الناجحة التي وجهها داود - والى بغداد - الى محمود تنذر بأن محمود يكاد يهتلق فاستنجد مرة أخرى بالشاهزادة فلباه هذا بسرعة ليضمن السيطرة على الموقف واخذت قوات الشاهزادة تفرغ أبواب العراق بغنق (١) .

وهكذا أصبح لزاما على داود أن يخوض الحرب مرغما مع جارتها الكبيرة ومن ورائها ايران بأسرها . وكانت ايران في ذلك الوقت قد سبقت الدولة العثمانية في ادخال النظم العسكرية الحديثة في جيوشها بالقدر الذي سمحت به ظروف ايران ، وبخاصة أنه لم يكن لديها فرق انكشارية لتعرقل هذا التطور . فكان لدى الشاهزادة محمد علي ميرزا - وأخيه عباس ميرزا - من الجيوش النظامية والمدفعية المدربة ما يستطيعان أن يخوضا بها معركة ناجحة ضد حاكم شرقي . ولا شك أن توزيع الولايات على اولاد الشاه قوى الرغبة في أن يستولى الفرس على العراق . وكانت بغداد هي الاتجاه الذي يمكن أن يسير فيه محمد علي ميرزا ان أراد التوسع . ولتتحقق امنيته هذه يجب أن يخوض حربا عنيفة

(١) محمد امين زكى : تاريخ السليمانية ، ١٤٠ .

ضد الدولة العثمانية ، وهذا يحتاج الى اعداد وتنظيم جيوش كبيرة . نعم ان نشاط الشاهزادة مجمد علي ميرزا وأخيه عباس في تنظيم الجيوش انما كان نتيجة درس تلقوه من الروس خلال المعارك التي خاضها الفرس ضد الروسيا في العقد الأول والثاني من القرن التاسع عشر ، واستغلوا هذه القوات الحديثة التنظيم أولا في قتال الدولة العثمانية (١) ، فأخذ الفرس يعملون على استبدال فرق نظامية بالقوات العشائرية ، واعتنى عباس ميرزا بالمدفعية . وكان تحت قيادته وحدة جيش قدر تعداده بحوالي ١٠٠ ألف مقاتل ، عدا القوات غير النظامية أما اذا خاض الشاه الحرب بنفسه فان عدد الجيش الإيراني يرتفع الى ١٠٠ ألف وبل والى ٣٠٠ ألف مقاتل . وهذه جيوش كفيلة في الحقيقة باجتياح العراق تماما . فلم يكن في العراق من الباشوات منذ سليمان الكبير من إستقر في حكمه هادئا لمدة كافية يستطيع خلالها أن ينظم جيشا على الطراز الحديث (٢) . ولذلك كانت قوى بغداد هزيلة أمام عدوتها كرمشاه . ويصور لنا الرحالة الإنجليزي « هود Heude » قوة بغداد العسكرية تصويرا يؤكد أن العراق سيجثو على ركبتيه عند أول لقاء بين الجيشين البغدادي والإيراني وأن قوة العراق أضعف من أن تقف في وجه المؤامرات الداخلية العنيفة .

إن هذه الحرب التي استعد لها أمير كرمشاه بقواته الكثيفة لم تكن حربا على نطاق ضيق مثلما حدث أيام أسلاف داود منذ أيام سليمان الكبير ، وانما كانت حربا على نطاق واسع . ونطاقها كان أكبر من نطاق تلك التي شنّها كريم خان الزندي وان اتفقت معها في الدوافع والأسباب . حرب قصد بها الوصول الى بغداد والاستيلاء عليها لتكون عاصمة الشاهزادة الواسع الآمال . ولا شك أن هذه النيات هي التي طورت أساليب العلاقة بين الإيرانيين والعراقيين ، فلقد تكشفت المؤامرات الفارسية في بلاط سعيد ثم في بلاط داود من بعده عن أن تيار النفوذ الإيراني بعد أن ملأ كردستان بدأ يصب في بغداد لتفمرها مؤامرات لفظت دواماتها علاقات لحمتها المنفعة الشخصية وسداها خيانة مصالح البلد . أما لعدم تقدير خطورة تلك الخيانات او لمصلحة دولة اجنبية . وكان على رأس

A. Wilson; Persia. London 1929. P. 321.

(١)

(٢) تفصيلات وافية عن الجيش الإيراني في :

Fraser; Narrative of a Journey in Korassan. PP. 211, 225-227;
Wilson, Persian Gulf. P. 321; Heude; op. cit. P. 186.

المتصلين بالشاهزادة القنصل الانجليزى ريتش ، وكانت لهذا القنصل اهداف تتعارض مع مصالح داود والى بغداد .

شن الفرس هجومهم على العراق في وقت كانت فيه الجبهة الداخلية فيه مفككة ، واستطاع الفرس أن يضعوا على حكم الامارات الكردية من يميل اليهم ، ولم تلبث هذه الحرب المحدودة أن تحولت بعد وقت وجيز الى حرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود باشا - والى بغداد - في موقعة (باريكة) فطلب داود من السلطان أن يمدّه على جناح السرعة بالقوات اللازمة لصند جيوش ايران . وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت منهكة في حربها مع ايران في الجبهة الشمالية وفي حروب المورة وثوزات باشواتها ولم يكن في وسعها ان تمد داود بجيش كبير . ولذلك اتجه السلطان الى جلب العون من والى النى شبق طريقه الى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعا ذلك هو محمد على والى مصر . اذ ليس في استطاعة أحد من ولاة الدولة سواه أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة : وهذا ما قيل في محمد على باشا قبل أن يفتح الجزيرة العربية ويصل الى الاحساء . وقد تألق نجمه بعد ذلك ، وتفوق على غيره من باشوات الدولة العثمانية بتغلبه على الموحدين (الوهابيين) ، وكان محمد على يعمل على اعداد جيش وطنى واسطول كبير .

واغلب الظن أن السلطان عرض على محمد على باشا أن يقدم المعونة لوالى بغداد (١) لنفس الأسباب التى من أجلها كلف السلطان محمد على بمحاربة ثورة المورة (٢) وبخاصة أن محمد على أصبح مسامتا للبصرة فعلا لأن قواته التى فتحت البلاد السعودية وصلت الى قرب أطراف العراق الجنوبية وهذه المنطقة من الناحية الفعلية وقعت تحت الادارة المصرية فهو بذلك من اقرب وأقرب الولاة من ميدان المعركة في العراق . اما من الناحية

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صحيفة ٣٥ . أمر رقم ٧٦ من محمد على باشا الى الصدر الأعظم بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ .
(٢) كانت الدولة العثمانية تلقى عبء القضاء على الثورات والحروب التى تشن ضدها على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة لتلك الحروب وهى في الوقت نفسه تستخدم هذا التكليف في اضعاف الولاة ليستجروا خاضعين للسلطان العثمانى .

العسكرية فان خطوط المواصلات بين العراق ومصر طويلة جدا ، فكانت تكاليفها ضخمة هذا الى أن محمد علي في ذلك الوقت لم يهتم لا بالاحساء ولا بنجد وانسحب منهما على اعتبار أن ادارتهما ترهق الحكومة المصرية .

وكان محمد علي قد شعر بأن السلطان على وشك أن يكلفه بمهمة مساعدة داود . ونلاحظ هذا فيما جاء في كتاب محمد علي لابنه ابراهيم :

« ان . . عباس ميرزا قد نقض العهد وأعلن الحرب . . وان ما هو مجمع للأشقياء من جزرالمورة وكريد . . قد غص الطرف عن النظر في أمرها . . وأن مسألة على باشا ال تبه دللى (١) لما تنته على صورة يمكن وصفها بها . فتبين لنا من كل ما تقدم ان قد نفخ في بوق الحرب ضد العجم وأن قد ألقى حبل الجزائر المذكورة على غاربها وأنه بهذه الصورة قد هبت علينا ريح العمل في سبيل الدولة والملة وتبدت لنا صفحات الخدمة اما في احدى هاتين الجهتين أو في كليتهما معا . . غير أنه لما كان أمر تأدية هذه الخدمات وتسوية هذه المصالح متوقفا على وجود العساكر الوفيرة فالآن همّتكم وان أعز مأمولى أهو أن تفضلوا بالمبادرة وتوجيه العناية الى تحريك ابننا اسماعيل باشا . . و . . والدفتردار . . للقيام بغزوات طيبة نافعة لكى ترسلوا هؤلاء السودانين (٢) في هذه الأيام على الوجه المطلوب وأن تصرفوا لآلى همّتكم فى عمل ما فيه الخير لنا (٣) .

وكان لهذا التوقع اثره الكبير فى فتح أبواب جديدة أمام محمد على فكان عليه أن يحدد بالضبط الخطر الذى يتهدد العراق ، ومدى تقدم الايرانيين . ومن الحليف ومن العدو وهو من وراء (٤) هذا كله يرمى الى هدف ثان وهو حماية نجد والبلاد الواقعة

(١) باشا عثمانى ثائر على الدولة العثمانية فى البلقان .

(٢) كان محمد على يبحث أولاده فى السودان لكى يجمعوا أعدادا كبيرة من السودانين لتكوين جيش منهم ثم فشلت التجربة واعتمد على الفلاح المصرى فى تكوين جيشه الحديث .

(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معية تركى ، أمر رقم ٤٠ تحريرا فى ربيع الأول ١٢٣٧ (٢٠ نوفمبر ١٨٢٢) من محمد على الى والى جدة .

(٤) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معينة سنية ، وثيقة ٤٦ صفحة ٢٩ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٣٧ من محمد على الى محافظ المدينة المنورة حسن بك .

تحت الحكم المصرى من المؤامرات التى قد يدبرها له الفرس لأنه عضو فى قوة الدفاع العثمانية ، بل عضو خطير (١) .

ولذلك أصدر محمد على أوامره بالتحفظ على الإيرانيين الذين يوجدون فى بلاد تحت الحكم المصرى (٢) وكتب الى عماله فى البلاد العربية محذرا من المؤامرات الإيرانية ، وطلب منهم فى الوقت نفسه أن يمدوه بما لديهم من أنباء القتال فى الجبهة العراقية . وهذا كل ما فعله محمد على بالنسبة للقتال ضد الفرس ، فعندما طلب من السلطان بعد ذلك أن يبعث بابنه ابراهيم باشا — والى حدة — الى بغداد عمل « محمد على » على التخلص من هذه المهمة ولذلك كتب للصدر الأعظم يقول :

« . . ان سفر المشار اليه بأمورة الى جهة بغداد مع عساكر كثيرة يكون منتجا لفوائد عظيمة ، ولكن بما أنى مشغول بـ . . مشكلة كريد و . . » مخا » فان ذلك الصدد يلزم الذهاب بعساكر كثيرة وتداركات قوية واجراء التدابير الضرورية لدى المقابلة نظرا لبعده مسافة بغداد وكثرة الأعجام وقوتهم . فاذا صدرت الارادة السنية بتهيئة لوازم السفر والمهمات الحربية فى هذه السنة المباركة والذهاب بعساكر ومهمات كثيرة فى السنة الآتية فانى اذعب فى السنة الآتية بنفسى (٣) .

وهكذا أمسك محمد على حتى نهاية الحرب عن امداد داود باشا فى حربه ضد أعداء الدولة العثمانية ولعل السبب فى التخلص من هذه المهمة أن ولايات العراق لا تعنيه كثيرا فى ذلك الوقت الا فيما يتعلق بنجد وما يهددها من أخطار ، فموقفه من هذه الحرب سلبي تماما ، يجمع الأخبار عن طريق رجاله فى بلاد نجد ويهتم جدا بتتبع ما يحدث فى العراق . ولكن كل هذا دون أن يقوم بعمل ايجابى فى الحرب العراقية — الإيرانية .

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معية سنية ، وثيقة ٤٥ ، صفحة ٢٩ بتاريخ ربيع الأول ١٢٣٧ . من محمد على الى حسن بك محافظ المدينة المنورة .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى . صحيفة ٣٥ — ٣٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ .

(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صحيفة ٣٥ امر ٨٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ ع . من محمد على باشا الى الصدر الأعظم .

نخلص من هذا كله الى أن محمد علي باشا لم يطلب منه رسمياً التدخل العسكري لتأييد داود الا في شعبان ١٢٣٨ (ابريل ١٨٢٣) (١) وأن محمد علي حتى في هذا الوقت المتأخر من الحرب مع ايران تخلص من هذا التكليف .

فكان على داود أن يوطن نفسه منذ البداية على مواجهة الموقف وحده ، فان وصول الامدادات الى داود في بغداد من مصر او من الاستانة يتطلب وقتا ليس بالقليل ، وهذا اذا كانت هناك امدادات . فتحصن داود وراء أسوار بغداد .

على أن الامتحان الذي كان يمكن أن يكشف لنا مدى قوة داود الدفاعية لم يقع ، فان الحصار لم يلبث أن أخذ يخف شيئا فشيئا لأن الكوليرا وقد أصبحت من العوامل الحاسمة في الحروب العراقية تفشت بين الجيش الايراني وقامت بالمهمة التي عجز عنها جيش داود .

ومن حسن حظ داود أن الكوليرا لم توهن قوى الشاهزادة محمد علي ميرزا فحسب ، بل أصابته هو نفسه أيضا .

وكان هذا التطور من الأسباب التي دعت الشاهزادة محمد علي ميرزا الى طلب الصلح مع داود باشا ، ولم يلبث أن توقف القتال في كافة جبهات القتال بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، وأدت المفاوضات الى عقد معاهدة أرضروم الأولى (١٨٢٣) .

تقضى هذه المعاهدة بتأكيد معاهدة سنة ١٦٣٩ وبعد تدخل إحدى الدولتين في شئون الأخرى ، وبخاصة فيما يتعلق بالكرد ، والا تقوم الدولة الإيرانية بفرض سيطرتها على الرعايا التابعين للدولة العثمانية . واذا ما عبرت إحدى عشائر الدولتين الحدود الى الدولة الأخرى خلال هجراتها الصيفية أو الشتوية فعلى باشا بغداد وممثل ولي العهد الإيراني أن يتفقا على الضرائب التي تفرض على هذه العشائر وايجار المرعى حتى لا يترتب على ذلك سوء تفاهم بين الدولتين .

ونصت المعاهدة على أن يؤخذ من التجار والحجاج الرسوم المعتادة دون أن يطالبوا

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركي ، صفحة ٣٥ امر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ من محمد علي باشا الى الصدر الأعظم .

بأى شىء من المغارم فلا يدفع الحجاج الذين لا يحملون متاجر شيئاً من الرسوم ، وأما الذين يحملون معهم تجارة فتجبى على هذه التجارة الضريبة الجمركية فقط . وكذلك تعامل إيران التجار العثمانيين بالمعاملة نفسها .

ويدفع الرعايا والتجار الإيرانيون الضرائب نفسها التى يدفعها رعايا وتجار الدولة العثمانية وهى ٤٪ من قيمة التجارة ، ويمنح التاجر تذكرة تثبت دفعه للضرائب القانونية المطلوبة منه .

ولما كان انتقال العشائر سبباً جوهرياً أدى الى هذه الحرب فقد وضعت فى المعاهدة نصوص تقضى بأن تضع الدولتان حداً لتذبذب العشائر بين إيران والدولة العثمانية . كما نصت المعاهدة على اتفاق الدولتين على عدم قبول أى دولة منهما للأشخاص الفارين من الدولة الأخرى ، كما اتفق على أن تعاد ممتلكات الإيرانيين فى الأستانة الى أصحابها وأن البضائع التى تحت التحفظ (تحت الحراسة) أو صودرت بأوامر من باشوات الدولة العثمانية ترد الى أصحابها بعد اثبات حقهم فيها .

كذلك نظمت المعاهدة طريقة حصول الوارث الإيراني على ارث الأب المتوفى ببغداد ، والتحفظ عليه . ولكى تتم الأمور فى بساطة وعلى بساط البحث المتبادل الودى اتفق على أن يرسل كل بلاط كل ثلاث سنوات وزيراً الى بلاط الطرف الآخر .

كذلك نصت المعاهدة على اعلان العفو عن أولئك الذين فروا من إحدى الدولتين الى الأخرى على ألا يعاقبوا على خيانتهم السابقة وعلى ألا تطالب إحدى الدولتين الأخرى بتعويضات عن الخسائر التى سببتها الحروب أو تكاليفها (١) .

لم تأت هذه المعاهدة بشىء جديد ، ووضعت فى صورة خطوط عامة بينما كانت الحدود العراقية - الإيرانية فى حاجة الى نظرة جغرافية دقيقة من حيث طبيعة هذه الحدود ومناخها واسلوب حياة العشائر الكردية النازلة هناك ومدى قوة الحكومة المركزية وتبعية تلك العشائر لها . ولم تكن العقلية السياسية والعثمانية حتى ذلك الوقت

(١) كانت المفاوضات بين إيران وبغداد تتم أحياناً بوساطة كبار رجال الدين فى الدولتين مثلما حدث أيام نادر شاه - حديقة الزوراء : ٢٤٠ ٢٦٣ .
(٢٦ - الشعوب الإسلامية)

قد ارتفعت بعد لتضع معاهدة تفصيلية للحدود المشتركة . فلم يشر انتباه الدولتين الى مشكلة العشيرة التي كانت السبب المباشر في الحروب وأما تنظيم أمر العشائر على حدود العراق مع ايران والتدخل الايراني في كردستان فانه كان يتطلب تحديدا دقيقا ينص على تبعية كل عشيرة وعلى اراضيها ووضع خريطة مفصلة للحدود لتكون مرجعا عند الخلاف .

فكان من الطبيعي أن تعود الخلافات بين بغداد وكرمنشاه بشأن المشكلة الكردية وبشأن الحدود بين الدولتين . فلقد بقيت القوات الايرانية تحتل لواء حطوان مع أن معاهدة ١٨٢٣ تجعله تابعا لبغداد وكانت زهاو وحدها تؤدي عشرة آلاف تومان للشاهزادة وهو مبلغ جسيم نسبيا . على أن النزاع الذي دب في كردستان بين محمود باشا وعمه عبد الله باشا وما ترتب عليه من تدخل ايراني سافر حطم ركنا هاما من هذه المعاهدة . وزاد المشكلة تعقيدا ظهور « قوة راوندوز » في ذلك الوقت وتوسعها على حساب البابانيين ولقد شكّا داود هذا التدخل الايراني الى الباب العالي فبعث الباب العالي بأسعد أفندي للتحقيق في هذه المشكلة .

ويروى لنا أسعد أفندي بالتفصيل المحادثات السياسية التي دارت بينه وبين داود والايرانيين وهي محادثات أظهرت أن المشكلة الكردية لم تكن مستقلة في حد ذاتها ، وإنما كانت مرتبطة بمشكلة زوار العتبات المقدسة . فقد اتهم المفاوض الايراني داود باشا بأنه يأخذ « الباج » على الزوار الايرانيين ويفرض ضرائب مستحدثة على رفات من يدفنون في العتبات المقدسة . وقام أسعد أفندي بتحقيق المسألة وكان من الطبيعي أن يرى داود رسابحته في هذا الصدد . ولا شك أن المهمة التي كان يرمى اليها أسعد أفندي من هذه المفاوضات لم تكن فقط لاقرار الأمور بين طرفي النزاع داود والشاهزادة ، بل كان يهدف الى كسب ايران عضوا في الجامعة الاسلامية التي تعمل الدولة العثمانية على تحقيقها للوقوف في وجه التكتل الأوروبي ، ذلك التكتل الذي ظهر بأجلى معانيه الدينية والسياسية في ثورة اليونان ، وبرزت فيها روسيا كأعنف خصم للدولة العثمانية وأن الدول الاسلامية يجب أن تتعاون ضد هذا الخطر المشترك (١) . محادثات تبودلت فيها الآراء السياسية العالمية ونوقشت المشكلات بكل صراحة ومودة، وكان التحالف على وشك

(١) تاريخ جودت : ج ١٢ ، ٢٩١ — ٢٩٢ .

أن يوقع وإذا بالسفارات تذهب وتعود دون الوصول إلى حل غملي للمشكلات أو إلى قيام تعاون حقيقي بين الدولتين وهذا يرجع إلى عدة أمور :

١ — عدم الثقة المتبادل بين الدولتين .

٢ — أن الحكم في كل من الدولتين موزع على حكام لهم سياستهم شبه المستقلة عن سياسة الحكومة المركزية .

٣ — عمق الأزمة المذهبية بين الشيعة والسنة حينذاك .

٤ — عدم وضع الفريقتين يدهم على الداء نفسه وعلاجه بدقة واستخدام عبارات « عدم التدخل » و « عدم قبول اللاجئين » . فقد كانوا ينظرون إلى النتائج قبل أن يدرسوا مسببات هذه النتائج . أن علاج المشكلة الإيرانية ليس في المعاهدات التي تعقد بين إيران والدولة العثمانية ، وإنما في دراسة مسببات تلك النتائج أولاً ، وهذا هو الذي حدث بعد ذلك على يد خورشيد باشا ودرويش باشا عندما درسوا شئون العراق من الناحية الجغرافية والاقتصادية والبشرية والسياسية . . الخ ووضعوا التقارير والبحوث في ضوء هذه الدراسات الدقيقة التي نظمت الحدود بين الدولتين سنة ١٨٤٧ م (١) .

وعلى الرغم من أن الباب العالي كان يعمل على توحيد كلمة المسلمين لقتال الكفار ، وعلى وجه الخصوص الروسيا ومع أن الظروف كانت تخدم الباب العالي في مسعاه هذا نظراً للتوتر الشديد الذي وضع بين القيصر والشاه الذي كان ينظر إلى معاهدة كلستان نظرتة إلى وصمة عار في جبين الدولة الإيرانية ، أقول أنه على الرغم من كل هذا ظلت سياسة كرمشاه ثابتة نحو كردستان وبغداد من حيث قبول اللاجئين وإمداد البابانيين بالقوات . وكان من الطبيعي أن تتوزع قوى الإسلام في حرب بين روسيا وإيران منذ ١٨٢٦ — ١٨٢٨ لا يشترك فيها السلطان ، وأخرى بين روسيا والدولة العثمانية بعد موقعة نافارينو لا يشترك فيها الشاه ونتيجة كل من الحربين كانت نصراً عسكرياً

(١) . يعتبر كتاب سياحنامه حدودو كذلك تقرير درويش باشا دراسة قيمة للعراق ولمشكلة الحدود الإيرانية العراقية .

ودبلوماسية لروسيا (١) وتمثل ذلك في معاهدتي تركمانجاي (فبراير ١٨٢٨) ومعاهدة أدرنة سبتمبر ١٨٢٩ (٢) .

كان من المنتظر أن تقع أزمات جديدة بين الدولتين ، وبسبب التوسع المصري ، وبسبب الحرب الأفغانية لم تركز الحكومة الفارسية جهودها في اتجاه العراق وإنما اتخنت سياسة نشطة نحو المحمرة وعربستان لأسباب سياسية فقط وإنما لأسباب اقتصادية كذلك فقد كانت الحملة التي قام بها والي بغداد ضد المحمرة ١٨٣٧ موجهة للفرس الذين كانوا مشغولين في حملتهم ضد هراة ، وشعرت حكومة طهران الى جانب هذا أن سيطرة العثمانيين على المحمرة يفقدهم ميناء يستطيعون به أن ينافسوا البصرة بكل قوة. ولهذا توالت احتجاجاتهم على الدولة العثمانية بسبب تلك الحملة على المحمرة .

ويبدو أن الانجليز بعد أن عقدوا معاهدتهم التجارية مع فارس ، وبعد أن وضعوا بواخريهم بقوة في أنهار العراق وفي نهر قارون وفي الخليج العربي وجدوا أن من مصلحتهم عدم وقوع المحمرة والبصرة معا في يد واحدة وأن مصلحتهم أن تكون المحمرة شبه مستقلة وبعيدا عن متناول العثمانيين ، ولذلك كانت احتجاجات الفرس على العثمانيين بشأنها تلقى ترحيبا من الجانب البريطاني .

ولم تقتصر الجهود الفارسية على تلك الاحتياجات ، بل كلفت منوشرخان معتمد الدولة بالسيطرة على منطقة جنوب غربي فارس التي تنزل فيها عشائر البختياري وعشائر كعب . فوجه معتمد الدولة الفارسي قواته أولا الى عشائر البختياري وأخضعها ثم تابع معتمد الدولة زحفه صوب عربستان واستولى عليها وعلى المحمرة وفر ثامر — شيخ عشائر كعب — الى العراق بعد أن أغرق البلاد .

ثم بدأ (معتمد) يتطلع الى ما وراء عربستان والمحمرة ، ورفضت السلطات العثمانية في بغداد والبصرة تسليم ثامر الى معتمد الدولة فما كان منه الا أن زحف صوب البصرة . وضغط على بني لام — العشيرة العربية الكبيرة — فاضطرت الى الفرار تاركة مراعيها عند سفوح جبال لورستان كما هبطت عشائر الفيلية الفارسية من جبالها منقضة على مضارب بني لام فأشاعت الفوضى والدمار بينها .

Morfill; The Story of Russia, 1930, pp. 286—287

(١)

Hurewitz; op. cit, Vol. I.

(٢) انظر المعاهدتين نصوص في :

ونظرا لما كانت عليه منطقة عربستان من أهمية للمشروعات البريطانية التجارية ولخطوط المواصلات العالمية والمحلية عنى تيلر - القنصل البريطاني في بغداد - بإبلاغ سفير بريطانيا بالاستئانة تطورات الموقف في عربستان أولا بأول واستقى ستراتفوردي كاننج - السفير البريطاني في الاستئانة - أخبار تلك المنطقة من مصادر أخرى (١) ، وكان الوصول الى حقيقة الأوضاع أمرا صعبا للغاية نظرا لأن الشيوخ الذين عينهم على رضا على الفلاحية والمحمرة بعد حملته ١٨٣٧ والشيوخ الذين عينهم « منوشرخان » (معتمد الدولة) ١٨٤٠ - ١٨٤٢ بعد حملته سالفة الذكر على عربستان لم يستطيعوا الصمود أمام ثامر شيخ كعب أو جابر شيخ المحمرة ولعب ثامر وجابر بالفرس والترك كلما عن لهما ذلك في سبيل الاحتفاظ ببلاده بعيدة عن متناول أيدي الدولتين الطامعتين فيها . واضطرت السلطات الفارسية والعثمانية على السواء أن تستخدم ثامرا أو جابرا في سبيل تأكيد سلطتها في المنطقة (٢) .

وفي ١٨٤٢ حمى وطيس المناورات الفارسية والعثمانية حول عربستان . ولا شك أن تسوية المسألة المصرية ١٨٤٠ - ١٨٤١ جعل الدولة العثمانية تتفرغ بدرجة أكثر لمشكلات الحدود الفارسية العراقية . وكانت تولية نجيب ولاية بغداد (١٨٤٢ - ١٨٤٧) مقدمة لاحتدام النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول عربستان ، خاصة بعد فرار ثامر الى العراق للمرة الثانية ، وحول السليمانية في كردستان التي كان الفرس يطالبون بها هي الأخرى .

Layard: Early, Vol. II, pp. 367—370.

(١)

Taylor to Sec. Dep.; 24 Ap. 1842. F.O. 195/204.

(٢)

وكان نجيب باشا شديداً في معاملته للشوار على الدولة العثمانية ومصر على أن يكافح من أجل فرض السيادة العثمانية على كل جزء من الأجزاء المشكوك في ولائها للسلطان . وعقب استلامه العمل في بغداد لوحظ أن متسلمه على البصرة أخذ يساند بقوة مطالب ثامر في حكم المحمرة . فرد الفرس على ذلك بأن طالبوا بعربستان حتى القرنة . وشعر الفرس بأن العثمانيين سيتابعون ضغطهم على كعب والمحمرة فبنوا قلعة على أسوار المحمرة . فاحتج العثمانيون على هذا الاجراء على اعتبار أن المحمرة تتبع البصرة التي يفصلها عن الأراضي الفارسية نهر كارون وأن الحفار الذي تقع عليه المحمرة ليس منفذاً طبيعياً لنهر كارون وإنما هو قناة صناعية تابعة للدولة العثمانية . ويبدو أن جابر وجد أنه لن يصل إلى شيء من أغراضه إلا عن طريق الاتفاق مع الفرس ، وكان الفرس هم أيضاً في حاجة إلى جابر إذ عجز رجالهم عن إدارة ديار كعب حيث أن هجرة العشائر الكعبية — بايعاز من شيوخهم — إلى الأراضي العراقية هدد منطقة عربستان بأن تصبح خالية من عشائرها إن لم يغير الفرس موقفهم من جابر . وفعلاً نجحت المفاوضات الفارسية مع جابر وعاد إلى الحكم ومعه عشيرته . وكان انتقال هذه العشائر وتلاعب الشيوخ بالدولتين سبباً في تزايد حدة أزمات الحدود .

وأدت هذه المصادمات بين السلطتين العثمانية والفارسية في عربستان وكذلك في منطقة السليمانية وبنى لام وزهاب إلى أن تستعد الحكومة الفارسية لخوض حرب مع العثمانيين . وهددت السلطات الفارسية بإرسال جيش لاحتلال البحرين والكويت ، وطالبت بلواء السليمانية وعربستان حتى القرنة ، وبإبعاد الأمراء الفرس الذين كانوا يتآمرون ضد الشاه عن بغداد . فردت السلطات العثمانية بتعبئة قواتها على الحدود ودعت عشائر المنتفق وبنى لام العربية والبابانيين الأكراد لخوض المعركة المقبلة وبدأت المناوشات العنيفة فعلاً على الحدود خاصة في منطقة السليمانية . ولكن ضغطت روسيا

(١) كان هؤلاء الأمراء خطراً جسيماً على الشاه . كانوا يتعاونون مع الانجليز خلال حرب ١٨٣٧ . وكانت الاشاعات تؤكد أن الانجليز يعملون على رفع أحد هؤلاء الأمراء إلى العرش الفارسي (يونيو ١٨٤٠) هذا إلى أن الدولة العثمانية كانت تدفع مرتبات لعدد من هؤلاء الأمراء وكان الانجليز يدفعون لبعضهم كذلك .

وبريطانيا على فارس والدولة العثمانية وأرغمتها على قبول وساطتهما (١) لحسم ما بينهما من خلاف ، وعلى تشكيل لجنة رباعية تضم مندوبين من الفرس والترك والروس والبريطانيين لهذا الغرض . فقد دأبت بريطانيا - منذ حركة التوسع المصرى فى الشام ونجد والخليج العربى ١٨٣١ - ١٨٤٠ - على أن تمنع الدولتين الفارسية والعثمانية من الاشتباك فى حرب حتى لا تتعرض المنطقة لهزات سياسية أو عسكرية شديدة من شأنها أن تقلب ميزان القوى فى الشرق الأدنى مما يكلف بريطانيا الاحتفاظ بجيش وأسطول قويين على أهبة الاستعداد باستمرار لا لمواجهة نيات فارس العدائية فقط ، بل كذلك للحد من النشاط الروسى المتزايد فى تلك المنطقة . وتشكيل هذه اللجنة سيحول كل أزمة بين الدولتين الى مجال الدراسة والمفاوضة والمساومة والضغط الدبلوماسى حتى تتلاشى نذر الحرب وتحل الأزمة ، بطريقة أو بأخرى ، ولذلك كانت المهمة الرئيسية لهذه اللجنة هى وضع خريطة دقيقة للحدود يمكن الرجوع اليها عند اللزوم .

وكان اول مشروع بريطانى للحدود من وضع الانجليزى لا يارد (٢) . وفى هذا المشروع جعل لا يارد المحمرة تابعة للدولة العثمانية وجعل نهر بهماشير المنفذ المائى الوحيد لفارس فى عربستان مؤكدا أن الحفار قناة صناعية معترضا على أى حق للدولة الفارسية فى الملاحة فى شط العرب لأن بهماشير - فى نظره - يسد حاجات الفرس كمنفذ لفارس الى الخليج العربى .

وكان كاننج Canning مقتنعا بوجهة نظر لا يارد ورشحه ليمثل بريطانيا فى اللجنة الرباعية ، واستفلت السلطات العثمانية المشروع وضغت قدر طاقتها على حكومة بريطانيا لتأخذ به . ولكن تحطمت كل هذه الجهود أمام اعتراضات أبردين - وزير خارجية بريطانيا - الذى كان مقتنعا بوجهة النظر الروسية الخاصة بضم

(١) كان السلطان معترضا فى أول الأمر على تدخل الدولتين الروسية والبريطانية فيما بينه وبين الشاه من منازعات على اعتبار أن هذه أمور تخص المسلمين وحدهم ولا شأن للدول المسيحية فيها .

(٢) رحالة انجليزى مفامر له نفوذ كبير فى الدوائر السياسية البريطانية وتولى منصب سفير بريطانيا فى الاستانة فى السبعينيات من القرن التاسع عشر .

عربستان للدولة الفارسية . ويرجع هذا الاتفاق في الآراء الى أن روسيا كانت تريد أن تؤيد المطالب الفارسية بصفة عامة وكانت بريطانيا تسعى الى فتح منطقة نهر كارون وجنوب شرقى فارس للمشروعات التجارية والملاحية البريطانية .

اتخذت لجنة الحدود مدينة أضرور مقرا لها . وأخذت تجمع الوثائق المتعلقة بالحدود وتعمل على استدعاء من يستطيع أن يعاونها على أداء مهمتها ، ولذلك قامت اللجنة باستدعاء ثامر — شيخ كعب وكان لاجئا في البصرة — لمناقشته في الوضع القديم والجديد في منطقة المحمرة ، وكلفت اللجنة في الوقت نفسه المستر جونز Felix-Jones (١) بأن يتولى وضع خريطة تعين اللجنة على تحديد خط دقيق للحدود .

كان أول اجتماع للجنة الحدود في ١٥ من مايو ١٨٤٣ ولم تستمر الأعمال التحضيرية سوى أيام قليلة توقفت بعدها أعمال اللجنة بسبب توتر العلاقات الى درجة شديدة الخطورة بين الدولتين العثمانية والفارسية على اثر هجوم قوات نجيب باشا على كربلاء واستيلائه عليها عنوة وتطبيق نظم الحكم العثماني فيها (١٨٤٣) . وهول الفرس من عند القتل الشيعة في معركة كربلاء كي يستغلوا ذلك سياسيا على مائدة المفاوضات المعقودة لتحديد الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية . وبعد أن درس الانجليز والعثمانيون الأزمة على الطبيعة تبين لهم أن الفرس فعلا هولوا في الموضوع وأنه لم يكن يستحق هذه الضجة الكبرى . ومع ذلك تقدمت فارس بمطالب شديدة الى الحكومة العثمانية . وأهم هذه المطالب :

- ١ — أن يدفع السلطان تعويضا لمنكوبى كربلاء .
- ٢ — أن يعلن الباب العالي عدم رضاه وعدم موافقته على حملة نجيب على كربلاء وأن نجيبا لم يحصل على التصريح بذلك .
- ٣ — أسف الباب العالي لأسالة الدماء .
- ٤ — أن يعيد نجيب ما تخرب من العتبات المقدسة .

(١) قبطان انجليزى فى العراق ثم قنصلا فى الخليج العربى .

٥ — أن يحكم بالعدل ويحمي الفرس في المدينة والحجاج اليها .

٦ — أن يهتد نجيب بالعزل ان هو أساء التصرف فيما بعد .

٧ — أن تعلن هذه القرارات لجميع السفراء .

أما عن طلب الفرس أن يعزل نجيب باشا عن ولاية بغداد فلم يوافق عليه الباب العالي ولا السفير البريطاني في الاستانة . ومن اليسير أن يفهم هذا الرفض . فالباب العالي وافق على شروط فيها ما يكفي لترضية فارس ، وأما عزل الوالي ففيه تدخل صارخ في شئون الدولة لا يرضى الباب العالي عنه حتى لو كان نجيب قد أساء التصرف .

بعد أن توصلت الدول الأربع الى تصفية أزمة كربلاء عادت لجنة الحدود الى النظر في مواد النزاع . وكانت المطالب الفارسية على النحو التالي :

١ — إعادة الأمراء الفرس اللاجئين الى الأراضي العثمانية الى البلاد الفارسية ، وامتناع السلطات العثمانية عن مساندة أمثالهم في اتخاذ الأراضي العثمانية قواعد لاثارة الفتن ضد الشاه .

٢ — حق اشتراك الشاه مع السلطان في تعيين حاكم على السليمانية .

٣ — حق الشاه في تعيين قناصل في الدولة العثمانية وإن يمنح القنصل الفارسي حق حماية الرعايا الفرس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين . وإن يسمح لهؤلاء القناصل بمغادرة البلاد والعودة اليها وقتما يشاءون .

٤ — احترام رعايا الشاه الذين يوجدون في الدولة العثمانية وعدم توجيه الاهانات اليهم والمساواة بين السني والشيعة في الدولة العثمانية . وتسهيل أمر التزاوج بين السني والشيعة .

٥ — إعادة العشائر التي هاجرت الى الأراضي العثمانية .

٦ — دفع تعويضات عن :

(١) هجوم الحاكم الكردي لمدينة راوندوز على الأراضي الفارسية .

- (ب) الخسائر التي منى بها الفرس خلال أزمة كربلاء سنة ١٨٤٣ .
- (ج) الخسائر التي منى بها الفرس خلال فتح « على رضا » المحمرة .
- ٧ — معاقبة العشائر العثمانية التي تهاجم الأراضي الفارسية .
- ٨ — تسهيل الحج وحريته للخجاج الفرس الى العتبات المقدسة في العراق والى الأراضي المقدسة في الحجاز .
- ٩ — تخفيض الضرائب المفروضة على الفرس في الطرق التي تربط بين فارس وطرابزون .
- ١٠ — الغاء الضرائب المفروضة على دفن الجثث في العتبات المقدسة وعلى عبور الأنهار ودخول الخانات أو عند الحصول على جواز السفر (تذكرة السفر) . والغاء أية ضريبة داخلية فيما عدا ٤٪ المفروضة على البضائع الواردة الى الدولة العثمانية . ورفع كل الضرائب غير المشروعة التي فرضت على الفرس .
- ١١ — دفع متأخرات ايجار الرعى في الأراضي الفارسية .
- ١٢ — رفع القضايا بين الفرس والعثمانيين الى محاكم تأخذ بالشرعية الاسلامية وحتى القضايا التجارية يجب أن ترفع الى مثل تلك المحاكم لا الى المحاكم التجارية التي تطبق القوانين العثمانية الجديدة .
- أما مطالب السلطان فكانت أقل عدداً ، ولكن أكثر تعقيداً وخطورة . فقد طالب بانسحاب الفرس من المحمرة ومن زهاب (١) وأن يوافق الشاه على معاهدة بلطة ليமான المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية . واحترام المواد الواردة في معاهدات ١٦٣٩ ، ١٧٤٧ ، ١٨٢٣ . كذلك طالب السلطان بأن يدفع الشاه تعويضات عن الخسائر التي منيت بها بلاد لواء السليمانية من جراء الهجمات الفارسية عليه . هذا فضلا عن تحديد
-
- (١) كانت زهاب تشرف في ذلك الوقت على آخر طريق استراتيجي بين فارس والعراق وذلك بعد أن أصبح طريق مندلي — فارس — المحمرة في يد الفرس . فسيطرة الفرس على طريق زهاب يعرض العراق لأخطار كثيرة (انظر تقرير درويش : ٢٣ — ٢٤) .

تبعية مجموعة من العشائر المنازلة على الحدود واعادة بعض العشائر الموجودة فعلا في الاراضي الفارسية الى حظيرة الدولة العثمانية .

وطالب العثمانيون بأن تكون لهم وحدهم تبعية مجموعة من العشائر الكردية والعربية المتنقلة عبر الحدود وأهم هذه العشائر هي :

سنجابي والهورامان والكلهر والجاف ومحاسن ومنكور وبنو لام .

ولكن خلال المفاوضات تبادل المنسوبون الفرس والعثمانيون أشد الكلم . ويبدو ان الدولتين الوسيطيتين شعرتا بأن عمل اللجنة أصبح عبثا بعد أن تطورت المناقشات خاصة بين المنسوبين الايراني والعثماني الى تبادل الاتهامات ومجرد ادعاءات الى تشعب الموضوعات بدلا من أن تكشف عن حقيقة الأوضاع .

وبسبب هذه التطورات عمدت الدولة العثمانية الى أن تخطو خطوة جريئة لسلب فارس مكاسبها في منطقة كارون وعربستان بأن أرسلت سفينة حربية في ١٨٤٦ لترابط عند مدخل الحفار لا لتجمي السفن العثمانية من عدوان كعب عليها فقط (١) وانما لتحويل تجارة المحمرة الى البصرة ، خاصة وقد أصبحت معظم التجارة الهندية وتجارة البحرين ومسقط وجدة ومكة مع المحمرة (٢) وكانت هذه السفينة ترغب القوارب الناهبة الى المحمرة على أن تصعد النهر أولا الى البصرة لتدفع ما عليها من رسوم جمركية ثم لتذهب بعد ذلك الى حيث شاءت واحتجت الحكومة الفارسية على هذا الاجراء وايدتها في ذلك الحكومة البريطانية . ولم تقبل المبررات التي قدمتها السلطات العثمانية القائلة بأن وضع السفينة عند مدخل الحفار لن يؤثر على تجارة المحمرة (٣) . بل ادعت السلطات العثمانية أن السفينة تمنع من است شراء القرصنة ، ولكن ظل الانجليز متمسكين بأن وجود

(١) Richard Rogers; British Agent at Bassora to Col. Gen. at Bagdad.

17 Jan. 1861. F.O. 195/676; Per. & Per Gulf., Vol. 85; pp. 15—18.

Rawlinson to Secret Committee. 27 Ap. - 1846 (Pol. & Sec. Dept. (٢)

Recs. Ltrs. Pol. Agt. and Cons. Vol. 14, pp. 125—131.

Lorimer, op. cit., Vol. I, Pt. I, pp. 1378-1380.

(٣)

السفينة مخالفا لما تسعى اليه الدول المعنية نحو حرية الملاحة في شط العرب ، واستمروا يضغطون على الباب العالي حتى اضطر الى ان يصدر أوامره الى نجيب باشا (والى بغداد) بأن يسحب السفينة الى مكان يقع شمالي الحفار . وبذلك أصبح الطريق أمام السفن الى المحمرة سالكا لا يعترضه معترض (١) .

ولما وجدت الدول الأربع ان مشكلات الحدود ستحتاج الى وقت طويل للبت فيها حتى يمكن ان يرسم خط واضح بين الدولتين يقضى على أى نزاع فى المستقبل ويحدد تبعية كل عشيرة على وجه الدقة فضلت الدول ان تعقد معاهدة تنص على حل لبعض المشكلات القائمة وأن يترك البعض الآخر تحت الدراسة والتسوية وعلى هذا الأساس قدمت المعاهدة التى عرفت باسم معاهدة أرضروم الثانية (١٨٤٧) للحكومتين الايرانية والعثمانية لابداء الرأى فيها (٢) .

اتفق فى هذه المعاهدة على أن يكون لفارس قناصل فى الدولة العثمانية لهم نفس الحقوق التى حصل عليها قناصل الدول الأخرى . كما تحددت قيمة الضرائب والجمارك المفروضة على التجار الايرانيين بما كان متفقاً عليه من قبل فى اتفاقية أرضروم الأولى . ونصت المادة الثانية من هذه المعاهدة على أن « تتعهد الحكومة الايرانية بأن تترك للحكومة العثمانية جميع الأراضى المنخفضة . . الكائنة فى القسم الغربى من منطقة زهاب ، وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقى منه أى جميع الأراضى الجبلية من المنطقة المذكورة » . فوضعت بذلك حدا لمشكلة زهاب التى استمرت حوالى ربع قرن . وكان هذا التقسيم فى الواقع عادلا ، فقد تركت الاقاليم الجبلية المكملة للهضبة

Rawlinson to Walleseley, Jan. 20, 1847 - F.O. : 195/272; Rawlinson (١) to sheil-Jan. 1847. No. 2 Ibid.

(٢) أنظر نصوص هذه المعاهدة فى المراجع التالية :

(١) قضية الحدود العراقية الايرانية . والنص هنا باللغة العربية .

Aitchison; A Collection of Treaties.

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols.

الایرانية لايران في معظم المناطق ، والسهول ظلت ضمن العراق وذلك لارتباطها بداخل العراق اكثر من ارتباطها بداخل ايران .

كما نصت مسودة المعاهدة على أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة الحكومة
الفارسية على :

أولاً : ١ - مدينة المحمرة ومينائها .

٢ - جزيرة الخضر (جزيرة عبادان) •

٣ - الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية من شط العرب من مصبه الى اتصال حدود الدولتين قرب المحمرة (عند التقاء كارون بشط العرب) .

ثانيا : وعلى أن تتنازل الحكومة الفارسية عن كل ما لديها من ادعاءات في مدينة السليمانية ومنطقتها وبعدم التدخل في شئون هذه المنطقة .

واتفق الطرفان كذلك في هذه المعاهدة على تشكيل لجان مشتركة (١) من الجانبين المتعاقدين لتسوية المشكلات التي تنشأ بين البلدين ، وعلى تبادل تسليم المجرمين الفـــرارين .

وعندما قُسمت المعاهدة (أ) في صورتها النهائية إلى الباب العالى، ادعى أنه تنازل عن ميناء المحمرة فقط وأن ما حولها من أراضٍ فهو تحت السيادة العثمانية . فرد المندوبان الأوروبيان على هذا الاعتراض بأن المحمرة تقع على ضفتى قناة الحفار وأن كليهما سيكونان ضمن الأراضى الفارسية ، وكذلك الأراضى الواقعة شرقى شط العرب . وأن الفرس لن يحصلوا على أية بقعة على الضفة الغربية لشط العرب حتى لو كانت فيها

(١) تألفت لجنة الحدود المشتركة من : (١) الكولونيل وليامز بطبل قارص Williams of Kars (ب) الكولونيل Tcherikoff. (ج) درويش باشا المندوب العثماني وكان يعرف لغة أوروبية والكيمياء وعالم في اللغة Loftus; op. cit. p. 3 (د) ميرزا جعفر خان المندوب الإيراني وكان يعرف لغة أوروبية . أنظر المصدر السابق .

(٢) أنظر مذكرة « السيد محمد أمين على » - مندوب الدولة العثمانية في وضع وتوقيع معاهدة أرضروم المؤرخة ٢٩ جمادى ١٢٦٣ هـ - ١٨٤٨ م .

عشائر فارسية • ومع أن هذا الحل كان لتسوية الأزمة بعد أن أعلنت الدولة العثمانية تنازلها عن المحمرة فقد تمادت الدولتان الإسلاميتان في المطالبات المتطرفة على طول الحدود • ولذلك قررت الدول أن توقع الدولتان الإسلاميتان المعاهدة على أساس تسوية المشكلات المتعلقة فيما بعد • ووقعت المعاهدة ونصر فيها على أن تؤلف لجنة لتحديد الحدود بين الدولتين ، وعلى أن تقتسم الدولتان منطقة زهاب بالطريقة سالفه الذكر وعلى أن تتنازل فارس عن أية مطالب لها في السليمانية في مقابل تنازل السلطان عن المحمرة وجزيرة الخضر وأن تكون الضرائب المفروضة على التجار ٤٪ • ثم شكلت لجنة لتسوية مشكلات الحدود كلها من مصب شط العرب حتى الحدود المشتركة عند الأناضول • وأخذ المسئولون العثمانيون بدورهم يحددون خط الحدود حسب مطالبهم ليعارضوا المطالب الفارسية ، مستخدمين لتحقيق ذلك كل الوسائل الممكنة لتدعيم وجهة نظرهم (١) •

وإذا بالموقف على الحدود يعود الى أسوأ مما كان عليه قبل توقيع معاهدة ١٨٤٧

(١) فيما يلي بيان مفصل عن الوسائل التي استخدمت لاثبات الحقوق العثمانية في المناطق المتنازع عليها :

- ١ — أقوال الناس والمأثور عن القدامى وما يوقعون عليه من رغبتهم في أن يكون تحت حكم السلطان •
- ٢ — القرمانات والبيورولديات والأوامر الصادرة عن الولاية والموظفين •
- ٣ — الحجج الشرعية والقضائية •
- ٤ — سجلات (دفاتر) الضرائب •
- ٥ — محفوظات خزانة البصرة •
- ٦ — تاريخ المنطقة •
- ٧ — المراجع التركية (مثل دوحة الوزراء) والفارسية مثل (تاريخ وصولي) •
- ٨ — مذهب العشيرة •
- ٩ — وحدة العشيرة •
- ١٠ — خطوط تقسيم المياه •
- ١١ — ذرا الجبال •
- ١٢ — الأنهار وروافدها وفروعها وتاريخها •

واستمرت روسيا تؤيد مطالب الشاه وبريطانيا في صف السلطان، وتبادلت هذه الأطراف الاتهامات ، وخاصة عندما وضعت الحكومة الفارسية حامية في جزيرة الخضر (عبادان) دون أن تستشير اللجنة أو الدولتين الأوروبيتين الوسيطتين (١٨٥١) .

وهكذا استمرت اجتماعات لجنة الحدود خلال ١٨٤٩ - ١٨٥١ دون جدوى حتى اقترح بالمرستون أن تدور المفاوضات بين حكومات هذه العواصم بدلا من أن يترك أمر فض المنازعات الى لجنة الحدود وحدها . فانتقلت المفاوضات الى عواصم الدول الأربع بينما قامت لجنة فنية بدراسة الحدود ووضع خريطة لها . وخلال قيام اللجنة بعملها نشبت حرب القرم فتوقفت اللجنة عن العمل .

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية في تاريخ أوروبا الحديث وفي تاريخ الدولة العثمانية . ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تكن بصدى هذه الحروب في ولايات العراق العثماني . كانت الدولة العثمانية أكبر قوة اسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان أوروبا على الشرق الأدنى .

ولكن ضعف الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر ومحاولات الباب العالي اصلاح امور البلاد على أساس الحضارة الغربية أدى الى ظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية ومللها . فقد اعتقد المسلمون أن ذلك الاصلاح سيؤدي الى تحول الدولة الى جانب الدول المسيحية الأوروبية . بينما اعتقدت الملل المسيحية في الدولة ان ذلك الاصلاح ايدانا بانتصار قريب للمسيحية على الاسلام ، وان الوقت قد أوفى لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم في أيدي مسيحي أوروبا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية ، ولهذا رأى المسيحيون في الدولة العثمانية في ذلك الاصلاح حقوقا لهم ، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة ، فامتنعوا عن الدخول في الجندية ، ورحب المسلمون بذلك .

والملاحظ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية والكنيسة الأوروبية بمسيحي الشرق العثماني ، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون في قناصل انجلترا وفرنسا وفي المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستانت الانجليز

والأمريكيين قوة يعتمدون عليها في التخلص من الواجبات المفروضة عليهم ، وفي الحصول على حقوقهم ، بل وفي الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين المحليين .
وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتنا هوجاء ، وهذا ما حدث في شمال العراق بين النساطرة (١) والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحة للنساطرة كان لها دوى كبير في دوائر الدولة والدوائر العالمية .

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت أزمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة في العتبات المقدسة وحكومة فارس من جهة والحكومات العثمانية من جهة أخرى (٢) .

وخلال الصراع بين محمد علي (والى مصر) والسلطان محمود الثانى مد شاه فارس يده الى « محمد علي » لعله يتفاهم معه من أجل استحواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على انسليمانية والمحمرة والعتبات المقدسة . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثماني في العراق ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية .

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ م) الذى دعا الى المذهب الذى عرف باسمه والذى يجعل للمسيح طبيعتين احدهما لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحدا كيرلس بطريق الاسكندرية حتى نفاه ومات في المنفى (٤٥٠ م) .
وخلال العصر العباسى كانت أكثرية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات مقصودة حتى القرن التاسع عشر . وقد درسنا الصراع الدموى بين النساطرة والأكراد في ١٨٤٢ في كتابنا تاريخ العراق الحديث الفصل السادس .

(٢) العراق قسمة تقريبا بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع في السيطرة على المدينتين سيطرة كاملة .

وبنشوب حرب القرم في يونيو ١٨٥٣^(١) كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب الى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الانجليز احتمالات قوية أيضا عن أن النشاط الروسي سيتزايد في اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب . وكان الانجليز كذلك يخشون من أن يستخدم الروس حكومة فارس في إثارة المشاكل في وجه الحكومة العراقية ، خاصة وأن علاقات فارس الانجليزية لم تكن أقل سوءا من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقد أن الانجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها . كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوى بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط^(٢) .

وكانت ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو انجلترا الحرب ضد روسيا الا في مارس ١٨٥٤ . وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة اذا ما طعنت فارس طعناتها في العراق . وكان احتمال انهيار الدولة العثمانية قويا جدا لدى هنري رولنسون - القنصل الانجليزي في بغداد - فطفق يدبر أمره على هذا الأساس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء انجلترا على العراق وكان يرى أن الانجليز قد فاتتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة التوسع المصري في المشرق العربي (١٨٣٢ - ١٨٣٩) ، وأن الفرصة قد وابت الانجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتهزوها .

(١) لن نخوض في تفاصيل حرب القرم فهي أشهر من أن تعاد . ودراستنا هنا قاصرة على دور العراق في هذه الحرب ويكفي أن نشير الى أن الصراع الفرنسي الروسي السياسي المذهبي كان عاملا رئيسيا لتلك الحرب . على أن آمال روسيا في المضائق بل في الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى للروس . ونشبت الحرب في يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى . ولما دمر الأسطول الروسي القطع البحرية العثمانية الراسية في سينوب دخلت انجلترا الحرب . وكانت الأخيرة قد عازمت على منع روسيا من أن تتوسع على حساب الدولة العثمانية .

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ - ١٨٥٦) أكبر حليف لبريطانيا في الخليج العربي واشترك معها في العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربية المطلة على الخليج العربي في ١٨٠٩ وفي ١٨١٩ .

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التي يجب أن تستعمرها بريطانيا هي ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى « وعنه » ومصب شط العرب . وأخبر رولنسون يحث حكومته على الإسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الكبرى على طريق الهند . ولأن أهل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركي على يد الانجليز (١) .

لكن هذه المخططات التي وضعها رولنسون لم تكن تتماشى مع سياسة حكومة لندن التي أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسي من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن أنظار قنصلها في بغداد الى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية في دائرة اختصاصه ، وأهم ما يجب عليه أن يفعله في هذا الصدد هو منع فارس من استفلال ظروف الحرب لاقتناص العراق (٢) .

ومع أن المسؤولين الانجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان في ظهره وأنه لن يثير مطالبه في قطور وكردستان وعربستان وكريلاء في هذه الظروف إلا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماما بالحكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف الى اغتصاب العراق بالقوة (٣) .

والملاحظ أنه في أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة من حوادث الحدود فسرتها السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسي للعراق . فقامت هاجمت عشائر بني لام الشيعية العربية (٤) القوات العثمانية ثم فرت الى الأراضي

(١) H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853 - F.O. 195/957

(٢) Clarendon to Rawlinson. November 3, 1853. F.O. 195/957.

(٣) Thompson to Clarendon. Nov. 20, 1853 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106

pp. 237-239; Rawlinson to Redcliffe, June 29, 1853 F.O. 195/367.

(٤) من كبريات عشائر العراق . أنظر عنها عباس العزاوي : عشائر العراق

جزء ٣ ، ص ٢١٠ وما بعدها .

الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية . كذلك أثارت بعض عشائر الجاف الكردية السنية الفوضى على الحدود العثمانية - الفارسية . وكانت لدى الممثلين الانجليز في طهران معلومات تؤكد أن بعض الممثلين للروس في البلاط الفارسي على اتصال بعشائر الحدود بقصد اثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفاً عن جبهات القتال الرئيسية التي تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة في البلقان والآناضول (١) .

وكان رشيد باشا الكوزلكلي قد تولى باشوية بغداد في ١٨٥٢ . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشنون هجوماً على العراق آجلاً أو عاجلاً . وتبعاً لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسي المنتظر . وكان على رشيد الكوزلكلي أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالي الذي لم يكن لديه أي احتياطي من المال أو القوات لارسالها الى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التي واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزلكلي الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية، فلجأ الى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالي لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية .

وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجاً لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث انكار الذات وبذل الأموال في مثل هذه الظروف المحرجة . ولكنه عندما شرع في جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع الا من أولئك الذين يقعون مباشرة تحت سيطرة الحكومة . مثل الموظفين ، وأصحاب المنازل والتجار والأعيان ، والعلماء ، أما العشائر العربية والكردية التي تؤلف أغلبية سكان العراق - فلم تسهم في تقديم المعونات المالية أولاً لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جداً ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة الا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكلي كذلك في الاضرار اقتصادياً بفرس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءاً

Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853. F.O. 195/362 Thompson to Clarendon. July 22, 1854; Aug. 21, 1854. (I.O.R., F.R., p.p G.) Vol. 108, pp. 594 - 602.

مفتوحا فتتحول اليه السفن ولا تذهب الى المحمرة فيعود الى البصرة ازدهارها (١) ، كما فكر في اقامة تحصينات رهيبة في زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة ارضروم الثانية ، ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع . وباقامة تحصينات عثمانية في المنطقة يمكن اغلاق اخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق . الا أن الانجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضا ستؤدي الى أن يتخذ الفرس اجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية في هذا الوقت العصيب (٢) .

كذلك اتجه رشيد الكوزلكلي الى وضع نقط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشئ محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا الى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة الى جانب انها يمكن أن تستخدم في منع المتسللين من اجتياز الحدود من ايران الى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الاجراءات ، واعتبرتها أقرب الى الأعمال السياسية منها الى أعمال الصحة الوقائية الدولية (٣) . ويبدو أن رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم شير حشد حينذاك عشرين ألف مقاتل (٤) . ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هي الأمر الملح في مثل هذه التطورات .

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكلي سوى ١٦ ألف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية . ولكن لم يكن في استطاعته أن يطلب المساعدة

Rawlinson to Redcliffe : July 25 - 27, 1853, F.O. 195/367 Rawlinson to Sheill, Jan. 29, 1853. F.O. 78/957.

Ibid : Turco - Persian Boundary Negotiations Parts I - III. (1843 - 1844).

وانظر عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد ج ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

Rawlinson to Redcliffe : No. 36. Dec. 13, 1853 - F.O. 195/367.

Rawlinson to Redcliffe : No. 37. Dec. 28, 1853 - F.O. 195/367.

العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التي استنجد بها السلطان محمود الثاني من قبل لانقاذ العراق من الغزو الفارسي سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد أرسلت جزءا من قواتها الى جبهة البلقان ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة في شمال العراق والشام والأناضول الى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أي هجوم من تلك النواحي . بل لقد طلب السلطان العثماني من والي الموصل — في وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لارسالهم الى جبهة القرم وأثرت القيادات العثمانية الا تسحب أية قوات من تلك التي تحت قيادة رشيد الكوزلكلي حتى تمكنه من مواجهة أي هجوم مفاجيء فارسي .

كان رشيد الكوزلكلي في نفس الوقت لا يستطيع أن يلقي بكل ما لديه من قوات في الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التي يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة في مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن في وسع رشيد الكوزلكلي سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندي فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسي وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . الا أن رشيد الكوزلكلي عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندي — سالف الذكر — في مواجهة الغزو الفارسي فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية الى جانب جيش الحكومة دفاعا عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكلي يعتقد انه بذلك يستطيع أن يكسب هدوء العشائر وبالتالي يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات في جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجعل من العسير على الفرس التدخل في أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه (١) . ويبدو أنه لقي نجاحا في هذه الخطة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب (١٨٥٣ — ١٨٥٦) (٢) . بل انه استطاع أن يدعو

(١) Ibid.

(٢) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٧ ، ص ١٠٥ — ١١٦ .

عشائر شمر الجربا (١) وعشائر عنزة (٢) الى الانضمام الى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق (٣) أن تكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلكلى بالأسرات الكردية الحاكمة سابقا ، لجمع قوات اضافية . فقد طلب رسول بك (آخر أمراء راوندوز) أن يتوجه الى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الاستانة عبد الله بابان - آخر حكام السليمانية - وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية (٤) .

وخلال الحرب اكتشف الكوزلكلى قيمة استخدام البواخر في النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومي والنصف الثاني أهلى لشراء باخرتين لتعملا في أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلكلى أحد المصانع البلجيكية (٥) لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول أن حرب القرم هي أول حرب أوروبية استخدمت فيها البواخر (٦) وأنها أيضا أول حرب أدت الى استخدام البواخر الوطنية في المياه العراقية .

(١) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٢) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل في الصحراء بين العراق والشام .

(٣) دائر المنتفق في جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد في الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٤) Rawlinson to Redcliffe. No. 34, 35. Nov. 1b., 30, 1853. Ibid.

(٥) نلاحظ أن رشيد الكوزلكلى لم يطلب بناء الباخرتين في المصانع البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الامكان عن مصادر النفوذ الانجليزى في العراق . انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق ، ج ٧ ، ص ١١٠ - ١١٤ .

T. Quinet, La Turquie J. Asie. Paris. T. B., p. 249.

(٦) ١. جرائد و هـ . تمبرلى : تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمى ومراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ، ص ٤١٧ .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسؤولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن اعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم في مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثماني لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران أن لم توقف تلك الاستعدادات . ولكن دون جدوى (١) . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وأن القنصل الفارسي في العراق كان في الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التي كان يعاني منها الفرس في العتبات المقدسة حينذاك (٢) . ومما زاد في حدة التوتر أن الفرس عينوا خيرا روسيا في الجيش الفارسي الم رابط في (بوشهر) واقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديدا مباشرا للعراق حيث أن العثمانيين كانوا في حرب فعلية ضد الروس (٣) .

ثم أن الفرس بعثوا بقواتهم الى جزيرة (خرج) فرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه في شط العرب لمنعهم من عبوره (٤) . ومع أن المحمرة كانت قد أصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية ، إلا أن رشيد وجد أن الخطر الذي يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وأنه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفعلا عرض الكوزلكلي على الشيخ جابر - شيخ المحمرة - أن يتعاون مع حكومة بغداد (٥) .

(1) Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R. F.R., P.P. G., Vol. 106, pp. 237 - 9.

(2) Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 84, November 30, 1853, F.O. 195/367.

(3) Thompson to Clarendon. November 20, 1858 (I.O.R. F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237 - 239.

(4) Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G.; Vol. 107, pp. 83 - 90.

(5) Rawlinson, to British Embassy : January 28, 1854, No. 2 (Saldanha : Precis of Turbish - Arabia,, Calcutta 1904, Paragraph No. 71.

ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلوا الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسي ، وهو امر كان يراه الانجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم وأطماعهم في المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح في قبضتهم ، وأن السفن الانجليزية العاملة بين بغداد والبصرة والخليج العربى والهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق الى الهند فى يد فارس المعادية للانجليز حينذاك ولهذا لم يكتف الانجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وإنما ارسلوا الى شط العرب احدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لاقحام حرب على الدولة العثمانية (١) . وأغلب الظن أن الاتفاق - الذى توصلت اليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية اللحاق بها - كان بوساطة الانجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين (٢) .

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التى وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسى السفن العثمانية الراسية فى ميناء سينوب فى وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد أحرزت تقدما كبيرا ، ولكن تلك الحادثة أدت الى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تكن كثيرا بنواحي العراق فى المراحل الأولى من الحرب اعتمادا على المفاوضات الجارية لعقد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على إثارة المشاكل فى وجه العثمانيين فى العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا الى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثمانى فى العراق وكانت

(١) Rawlinson to British Embassy: January 25, 1854, No. 2 (Saldanha: Precis of Turkish-Arabia, Calcutta 1904, Paragraph No. 7).

(2) Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I. O. R., F.R., P. P. G. Vol. 108, p. 703).

بعض هذه القوى مستعدة فعلا لأن تمتد يدها الى الروس ومن ذلك أن شيخ عشيرة (بانيانزلي) الكردي ثار على الحكومة العثمانية وانضم الى الروس (١) . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بعشائر كردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهيين للحكم العثماني (٢) . ولكن هذه الاتصالات جاءت في وقت متأخر جدا من الحرب ولعل هذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة في أن يقوم الفرس بعمل ايجابي ضد العراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدي سقوط سباسبول (١٨٥٥/٩/٨) في يد الخلفاء الى التخفيف من النشاط الروسي نحو العراق ، إلا أن سقوط قارص في يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس امكانات وفرصا لزيادة نشاطهم في أنحاء العراق . وفلا خشي الانجليز من تزايد هذا النشاط الروسي بين عرب واكراد العراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكلي أشد تخوفا من الانجليز في هذا الصدد حتى أنه طلب من الانجليز أن يبعثوا الى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشاركة في الدفاع عن البلاد (٣) .

وليست هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها قوات هندية الى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سنة ١٨٥٥ وهم في طريقهم الى جبهة القتال الروسية العثمانية في قارص (٤) ولكن القوات التي طلبها رشيد الكوزلكلي لم تعد هناك حاجة اليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيدا لعقد الصلح وبالتالي توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا ان الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبي الحدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون ان تقع اشتباكات بين الطرفين وظل الهدوء مهيما على المعسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصلح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات .

بعد حرب القرم ، وبعد الحرب الفارسية — البريطانية ، عادت الجهود الرباعية العثمانية الفارسية البريطانية الروسية الى النشاط لتحديد الحدود العراقية الايرانية .

(1) Rassam to Redcliffe: No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394.

(2) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5 February 4, 1856, F.O. 78/1212.

(3) Ibid.

(4) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. 781 1212.

وتمكنّت اللجنة الرباعية من وضع خريطة مبدئية للحدود ، ومع ذلك لم تحسم المشاكل كلها ، وإن كانت قد خفت الى حد كبير ، وبدأت العلاقات بين ايران والعراق العثماني تسير بسرعة الى التحسن في عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٨ - ١٨٩٦) ، وأيام ولاية مدحت باشا في العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ، وتوج ذلك زيارة ناصر الدين شاه للعراق ، فما هي الظروف التي أدت الى ذلك التحسن في العلاقات ؟

عندما جاء مدحت الى العراق كان مصمما على تنفيذ توصيات الباب العالي له بأن يراعى دواعي السلم مع جارته . وكان من مصلحة مدحت أن يضمن سلامة حدوده الشرقية خلال أزماته الشديدة مع عشائر الدغارة وحملته على الخليج العربي . وكانت عوامل المنازعات في عهد مدحت هي نفسها التي واجهها ولاء العراق بعد عقد معاهدة ١٨٤٧ ، وأهمها مشكلة العشائر المترددة بين الدولتين عبر الحدود ، وحماية خطوط البرق من تعدى هذه العشائر عليها ، وتسهيل الحج للفرس الى العتبات المقدسة .

كانت أول مشكلة صادفها في هذه الناحية هي تعدى عشائر « الهماوند » على مناطق السليمانية تحت حماية حاكم زهاب « زهاب » الفارسي (١) ، كما كانت عشائر السنجابية (٢) الفارسية تعتدى على خطوط البرق (٣) ، وفي هذا أشد الإحراج لمكانة الباشا لأن هذه المشكلة كانت سريعا ما ترتفع الى مصاف الأزمات العالمية . كذلك أشاعت عشائر « الفيليه » الفوضى على الحدود المشتركة ، فقد هاجمت هذه العشائر نواحي « شهربان » و « وقزلرباط » الجبلية وأوقعت بالقوافل (٤) ، وكانت مشكلة الهاورامان أشد مشكلات الحدود خطورة في عهد مدحت .

ونظرا لخطورة تلك الأحداث اتفقت الدولتان على تبادل وجهات النظر في مشكلات الحدود ووصل الطرفان الى وضع بروتوكول في ١٨٦٩ وقعته السلطات العثمانية

Lorimer; op. cit. Vol. I. Pt. I p. 1421.

(١)

(٢) عشائر . على الهى يشتون في العراق . فكانوا من موارد خزينة بغداد الهامة .

العزاوى : تاريخ العراق ، ج ٧ ، ص ١٨٢ وصحيفة الزوراء ، عدد ٦ في ١ من

ربيع الأول ١٢٨٦ هـ .

(٣) العزاوى : تاريخ ، ٧ ، ص ٢٢٤ وكذلك الاعداد ٧ ، ٨ ، ١٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٠٥ .

والفارسية والبريطانية والروسية فعلا يضمن اعتراف الدولتين المتنازعتين بخط الحدود المبين على الخريطة التي وضعتها لجنة الحدود . ووفق هذا البروتوكول ظلت المنحدرات الجبلية الغربية في بشتكوه قرب دجلة على ما كانت عليه حتى تقرر الحدود بدقة على الا تبني أية مبان أو حصون على هذه الأراضي (١) .

وبدأت فرصة جديدة لاستئناف المفاوضات بصورة أكثر تفاؤلا عندما تقرر أن يزور الشاه العتبات المقدسة (٢) . وقد انتهز مدحت والباب العالي الفرصة فأوفد من لدنه مبعوثا — وهو قدرى بك — لمفاوضة الجانب الفارسي الذي تولى رياسته محب علي خان . وأعد مدحت من الاحتفالات الفخمة — برغم ما كانت تعانيه البلاد من قحط شديد — ما يليق بزيارة هذه الشخصية الخطيرة للعراق وما يمهّد الجو لمفاوضات تسودها روح التفاؤل بقيام علاقات أكثر ودية بين البلدين .

خرج الشعب البغدادي لاستقبال الشاه وارتدى تلاميذ المدارس ملابسهم الجديدة واصطفوا في الشوارع . ووضعت في كل جانب من جوانب المدينة زينة . وأضيئت المدينة بالأنوار كما أطلقت الصواريخ ليلا . واجتمع الشاه بقناصل فرنسا وبريطانيا والوكيل الايطالي ، ثم زار العتبات المقدسة (٣) (النجف وكرلاء وسامرا) وخلع على علماء الشيعة هناك ومنحهم هبات كثيرة (٤) واستغرقت الزيارة ثلاثة أشهر كلفت خزانة بغداد ٣٠ ألف ليرة عثمانية (٥) وخلال ذلك دارت المفاوضات بين الطرفين حول مشكلة الحدود وحول المشكلات الأخرى وهي :

(١) Aitchison; A Collection, Vol. XII pp. 21—22.

(٢) وصل الشاه الى خانقين حيث استقبله مدحت في شعبان ١٨٢٧هـ / ١٨٧٠م . وكان مدحت باشا حينذاك والي بغداد منذ ١٧٦٩ حتى ١٨٧٢ .

(٣) تبصرة عبرت : ١٦٩ .

Lorimer, op. at. Vol. I. Pt. I. p. 1421.

(٤) جعفر آل محبوبة النجفي : ماضي النجف : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٥) وزاد من مشكلات مدحت في هذه الظروف أن السنة كانت سنة قحط ، وأن مرافقي الشاه كانوا عشرين ألف شخص منهم ستة آلاف فقط من اتباع الشاه وحده .

١ — دفن الموتى : واتفق في هذا الشأن على ألا تدفن في العتبات إلا بعد مرور ثلاث سنوات على الوفاة (١) .

٢ — كنز النجف : فقد دفنت في تربة النجف منذ ثمانين عاما تقريبا مجوهرات عندما هدد الوهابيون مدينة النجف وخشى أهلها من أن يحل بها ما حل بكريلاء وبلغت قيمة المجوهرات حوالي ملايين الليرات العثمانية واقترح مدحت على المفاوض الفارسي أن يستخدم المبلغ لصالح الحجاج الفرس بأن يمد خطا حديديا بين فارس والنجف (٢) أو لإنشاء مستشفيات وملاجئ وخانات على طول طريق الحجاج الى العتبات . فلم تنجح هذه المقترحات التلقضية واضطر مدحت الى إعادة الكنوز الى مكانها وان يختتم هو ورفاقه من وزراء فارس على باب المخبأ (٣) .

وأما مشكلة الحدود فكانت أكثر المشكلات تعقيدا ، خاصة في مناطق زهاو وأهوار عربستان (٤) التي عاد حكماء المحمرة فيها الى إثارة الفوضى . فاشترك مدحت ومبعوث الباب العالي في دراسة مشكلة الحدود وفي مفاوضة ممثلي الجانب الفارسي وعلى رأسهم محب علي خان بشأن تحديد الحدود وبشأن تسليم الفارين من فارس الى العراق . وبجانب هذه المفاوضات التي اشترك فيها مدحت عقد المندوبان الفارسي والعثماني اجتماعات قرب الحدود عند شهربان ، ولكن كل هذه المفاوضات انفضت دون الوصول الى نتيجة مجدية .

وإذا كانت أساليب المفاوضات وتبادل الرأي قد أخفقت فقد اتبع مدحت أساليب عسكرية هجومية ودفاعية ، كان لها أثرها في وقف مشكلات الحدود عند حدها بعض الوقت . فبنى عند المنافذ بين العراق وفارس بعض القلاع . ثم وضع خطة لضرب الهماوند والسنجابية بالتعاون مع عشيرة ربيعة وقبض على بعض المشاغبين وأعدمهم (٥) ،

(١) تبصرة عبرت : ١٧٠ .

(٢) A.H. Midhat; The Life of Midhat. p. 58.

(٣) تبصره عبرت : ١٧٠ .

(٤) العزاوى : تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ .

(٥) العزاوى : تاريخ ، ٧ ، ١٨٢ .

وفي ١٨٧١ استؤنفت المفاوضات ويبدو أن الطرفين اتفقا في هذه المفاوضات على أن ينتقل اللاجئين والمشايخون على الحدود الى مناطق بعيدة داخل كل من الدولتين كوسيلة لوقف حوادث الحدود الى حد ما . كذلك تقرر في هذه المفاوضات أن يعقد مؤتمر فارسي عثماني في الاستانة لوضع معاهدة أرضروم في موضع التنفيذ ، كما تقرر أن يحضر ممثلون عن الحكومتين البريطانية والروسية هذا المؤتمر ، ولكن لم يجتمع هذا المؤتمر . ويعلل اتشيسون عدم اجتماع المؤتمر بمماطلات الحكومة العثمانية . وفي ١٨٧٦ م عادت مشكلات الحدود الى الظهور عند « قطور » و « زهاو » واستمرت المنازعات وقدمت فارس مذكرة جاء فيها :

١ — ان استمرار احتلال الترك لقطور التي احتلها درويش باشا سنة ١٨٤٩ عندما كان في طريقه للانضمام الى لجنة الحدود فضلا عن احتلالهم لعدة أماكن أخرى يعتبر خروجاً على نصوص معاهدة ١٨٤٧ .

٢ — سوء معاملة الزوار الفرس .

٣ — عدم تنفيذ أمر نقل عباس ميرزا من بغداد وكان العثمانيون قد وعدوا بذلك . وكان عباس ميرزا من مثيرى الفتن في ايران .

٤ — المماطلة في تحديد الحدود .

٥ — مشكلة جزيرة شهلة في شط العرب ١٨٧٦ (١) .

والملاحظ أن الأزمات العثمانية الايرانية بشأن الحدود — خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى — كانت هادئة . ويرجع ذلك إلى أن الدولتين أصبحتا تعانيان من ضغوط اوروبية أكثر من أن تحتلها أي منهما . فلقد ساعد التدهور الداخلى في ايران على أن تسوى الحكومتان البريطانية والروسية مشكلاتهما عن طريق اقتسام فارس ١٩٠٧ فيما عرف باسم (الوفاق الودى الروسى البريطانى) . ذلك الوفاق الذى وضع النصف الشمالى من ايران تحت التسلط الروسى

ووضع النقيب الجنويزي تحت التسلط البريطاني، باستثناء قسم في الوسط ترك للشاه المهيض الجناح .

كذلك كانت الدولة العثمانية تعاني من ضغوط اوروبية قاسية منذ اذلالها في مؤتمر برلين ١٨٧٨ . وحتى بعد ثورة جمعية الاتحاد والترقي الناجحة على السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨ ، ظلت حكومة الاتحاديين (١) تعاني الكثير من الأزمات في داخل الدولة العثمانية وبسبب الضغوط الاستعمارية الأوروبية أيضا .

الى جانب هذا كان نمو الحركة العربية في العراق من العوامل التي شغلت اذهان حكومة الاتحاديين . فقد كانت في العراق حركة عربية ضد سياسة التتريك التي اتبعها رجال جمعية الاتحاد والترقي المتحكمين في توجيه السياسة العثمانية ، فادى هذا الى ضعف مكانة الحكم التركي في العراق . ولكن في نفس الوقت بدأ نوع من التقارب بين حاكم عربستان العربي (خزعل خان) والزعامات العربية الناشئة في العراق . حتى لقد ظهرت محاولات لانشاء دويلة عربية تمتد من عربستان الى البصرة الى الكويت ، وكان المتنفذون في تلك البلاد حينذاك من الزعماء والحكام العرب المناهضين للاتراك وهم على التوالي : خزعل خان ، وطالب النقيب ، مبارك الصباح . ولكن ظلت هذه الاتجاهات في حيز الأفكار ولم تهبط الى مجال الواقع .

وخلال ذلك كانت حكومة الاتحاديين تريد أن تضع حدا لكافة المشكلات الدولية التي تواجهها حتى تستطيع أن تفتح صفحة جديدة من السياسة القائمة على أسس واضحة ، ولهذا كانت مستعدة للوصول الى تفاهم يضع حدا لمشكلة خط حديد بغداد مع بريطانيا والمانيا ، والى تفاهم مع الحكومة الفارسية لتسوية مشكلة الحدود ، خاصة وأن العديد من الحوادث على الحدود كانت تقع في مطلع القرن العشرين وتحتاج الى علاج لها . وكانت لدى حكومتي الدولتين الفارسية والعثمانية النيات للوصول الى اتفاق ، وكذلك كانت لدى الحكومتين الروسية والبريطانية الرغبة في التوصل الى اتفاق جديد بشأن الحدود الايرانية — العثمانية (العراقية) .

(٢) نسبة الى جمعية الاتحاد والترقي .

من بين الظروف التي أدت الى الوصول الى تسوية ما بشأن الحدود العراقية ،
الایرانية ، أن سياسة حكومة الاتحاديين كانت في ١٩١٣ تهدف الى الوصول الى تسوية
جميع المشكلات التي تعرض الدولة العثمانية لحرب أو أزمة كبيرة ومن ذلك التسويات
التالية :

١ — الاتفاق مع زعماء الحركة العربية التحريرية في أعقاب نجاح المؤتمر العربي الأول
١٩١٣ على خطة تعاونية بين العرب والأتراك ووقف تيار سياسة التتريك .

٢ — تسوية المشاكل المعلقة بين الدولة العثمانية والاستعمار البريطاني في الخليج
العربي .

٣ — الوصول الى اتفاق مع كل من انجلترا وألمانيا وفرنسا على توزيع مشروعات مد
خطوط السكك الحديدية عليهم ووضع تسوية بشأن خط حديد بغداد .

٤ — تسوية عثمانية فرنسية بشأن شمال أفريقيا والنشاط التعليمي في ولايات الدولة
العثمانية وخاصة العربية منها .

ولما كانت حكومة الاتحاديين تعاني ضغطا شديدا من جانب الدول الكبرى
الاستعمارية سواء الصديق منها (ألمانيا) أو المعادي لها (انجلترا وفرنسا) كانت سياسة
الاتحاديين في هذه الظروف هي التنازل عن بعض الحقوق من أجل الوصول الى تسوية
ما مع إحدى الدول الكبرى . وكانت هذه التنازلات في الواقع على حساب الوطن العربي ،
سواء في العراق أو الخليج العربي أو شمال أفريقيا . وبالتالي أن التنازل من جانب
الاتحاديين — وهم دعاة سياسة التتريك — يمكن أن نفهمه بشكل آخر . فالأتراك
العثمانيون المدافعون عن تمامية الدولة التركية العثمانية على استعداد لأن يحافظوا على
أراض تركية صحيحة حتى الموت ، ولكنهم أقل استعدادا اذا كانت المسألة متعلقة بأرض
عربية ، خاصة وأن الحركة العربية ضد الأتراك والتتريك كانت على أشدها في المشرق
العربي . وعلى هذا الأساس يجدر بنا أن نضع في الاعتبار عند تقييم بروتوكول ١٩١١ ،
١٩١٣ اللذين عقدا بين الدولتين الفارسية والعثمانية أن الأتراك الاتحاديين كانوا
مستعدين للتفريط في حقوق عربية ما كانت لتفرض فيها حكومة وطنية واعية .

فماذا نص عليه بروتوكول ١٩١٣ وهو أهمها ؟

١ - في صدر البروتوكول كان النص على اجتماع مندوبي الدولتين العثمانية والفارسية ومعهما مندوبي الدولتين الوسيطيتين : بريطانيا وروسيا (١) .

٢ - تعتقد حكومة روسيا أن تنفيذ مواد معاهدة ١٨٤٨ « بمنزلة الرجوع الى الوضع الذي كان سائدا في ١٨٤٨ » .

٣ - تسير الحدود مع ذرى أكمات الجبال .

٤ - أما فيما يتعلق بالحويضة وحدود شط العرب فقد نص على أن تستمر الحدود الى قناة خيان حتى « نقطة اتصال القناة المذكورة بشط العرب عند مصب نهر ناز الله » ومن هذه النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب لحد البحر تاركة النهر وجميع الجزر فيه تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية :

(١) يعود ما يلي الى ايران :

١ - جزيرة محلة والجزيرتين الواقعتين بين جزيرة محلة والضفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الايراني) .

٢ - الجزر الأربع بين شطيط وماوية الجزيرتين الكائنتين مقابل منكوحى والتابعتين لجزيرة عبادان .

٣ - جميع الجزر الموجودة الآن أو التي قد تتكون فيما بعد مما يتصل عند هبوط الماء بجزيرة عبادان أو بالأراضي الايرانية الى أسفل نهر ناز الله .

(ب) يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديشين - الى فوق وإلى أسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب تحت السلطة الايرانية عملا بما جاء في معاهدة أرضروم . يبدو أنه ليس لهذا الأمر مساس بحق تركيا في استعمال هذا القسم من النهر كما أن سلطة ايران لا تتناول اقسام النهر والواقعة خارج المرسى .

(ج) لا تتناول السلطة العثمانية اقسام الساحل الايراني التي قد تغطيها المياه مؤقتا عند ارتفاعها أو من جراء عوامل عرضية أخرى ولا تمارس السلطة

(١) هذا تأكيد قوى بدور الدولتين الوسيطيتين .

الايرائية - على جانبها - على الأراضى التى قد تصبح مكشوفة بصورة وقتية
أم عرضية عندما يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادى .

أما أقسام الحدود التى لم تذكر بالتفصيل فى خط الحدود فى بروتوكول ١٩١٣ فقد
نص على « بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا وذلك عملا بمنطوق المادة الثالثة من
معاهدة أرضروم .

كذلك نص فى بروتوكول ١٩١٣ على أنه « حالما يتم تحديد قسم من الحدود يعتبر
ذلك القسم كأنه مثبت نهائيا ولا يكون عرضة لأى تدقيق أو تعديل فيما بعد » .

ويمكن أن نلخص الحقوق العراقية (العثمانية) من هذا البروتوكول ١٩١٣ على
النحو التالى :

١ - أن ايران اعترفت بأن شط العرب تحت السيادة العثمانية الكاملة ، باستثناء جزر
مواجهة للشط الايرانى او تمتد مسافات قصيرة من شط العرب . وبناء عليه
فلميناء البصرة المسئولية الكاملة فى ادارة الأمور الملاحية فى شط العرب .

٢ - أن الحكومة الايرانية اعتمدت على معاهدة أرضروم ١٨٤٧ فى وضع هذا البروتوكول،
والاعتراف بما سبق أن اتفق عليه فى معاهدة أرضروم ١٨٤٧ .

ولم تلبث أن وقعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وسرعان ما نزلت
الجيوش الانجليزية فى (الفاو) ثم تقدمت لتستولى على البصرة ثم على بغداد ١٩١٧
والموصل ١٩١٨ ، وبذلك سيطرت بريطانيا على العراق ، كما كانت بريطانيا وروسيا
تسيطران على ايران (١) .

★ ★ ★

(١) سन्दرس بالتفصيل التطورات التى أدت الى اقتسام روسيا وبريطانيا لايران
فى ١٩٠٧ .

الفصل السادس

المشكلة الأفغانية

والأزمات الفارسية البريطانية

كانت للشاه محمد قبل اعتلائه العرش في ١٨٣٤ خبرات وأوجه نشاط متعلقة بأفغانستان وهرارة . ولقد سبق أن قام بهجوم على الأخيرة في ١٨٣٣ ، وحصل من عمران - الحاكم الأفغاني لهرارة - على جزية إلا أنها لم تدفع للشاه . ولما تولى العرش وجه الشاه أنظاره إلى هرة وأفغانستان بقوة ، وكانت ذكريات الامبراطورية الفارسية الممتدة من حدود الهند إلى العراق تثير في الشاه روح التوسع في الشرق . ومن ناحية أخرى كانت أفغانستان وهرارة في حالة اضطراب شديد ، وكانت القوى الأجنبية الانجليزية والروسية تتحكم في إدارات تلك البلاد الأمر الذي جعل الشاه محمد يشعر بمسئولية فارس نحو انقاذ المناطق الشرقية من مصير هو أقرب إلى مصير الهند .

ولقد كانت أفغانستان وهرارة كذلك مسرحا للمناورات البريطانية والروسية الخطيرة على مستقبلها ومستقبل جيرانها . فقد كان دوست محمد على حكم أفغانستان منذ ١٨٢٦ . وحاول دوست محمد أن يثبت نفسه في الحكم عن طريق التحالف مع الانجليز . وكان الروس يدركون أن في هذا الاتجاه خطرا على أهدافهم في المنطقة فسعوا هم أيضا إلى كسبه لصفهم . فاتخذ دوست محمد إجراءات ضد الروس وعمل على تقوية هرة على أمل أن تؤدي هذه الأعمال إلى كسب الانجليز إلى جانبه . ولكن ظلوا على نوع من الحياد حيث أن الأمور لم تكن تستدعي في نظرهم تدخلا بسبب أن الأحداث كانت داخلية محدودة . إلا أن الأمور تطورت بسرعة في أعقاب توغل قوات دوست محمد في سستان اذ رد الشاه محمد على ذلك بالزحف ضد هرة . وهنا تحرك الانجليز لشد أزر دوست محمد ، وحاكم هرة ضد الفرس كذلك يلاحظ أنه في هذه الظروف الدقيقة تحرك على باشا رضا والي بغداد العثماني لاحتلال المحمرة (١٨٣٧) . ولعل ذلك حدث بمحض المصادفة دون توجيه بريطاني ، ولكنه أدى إلى أن يوغر صدر الشاه وبلاطه بشدة .

على أي حال ، نظر الانجليز إلى هذا التحرك الفارسي ضد هرة على أنه كان بتوجيه من الروس أو على الأقل برضايتهم لأنه كان في مصلحتهم على طول الخط سواء انتصر الشاه الفارسي في حملته لفتح هرة أم فشل في مهمته .

وقد عرض أحد الوثائقين الانجليز كيف أن هذا التحرك الفارسي ضد أفغانستان كان مفيدا جدا للروس من مختلف جوانبه بقوله :

« إن الحملة الايرانية على هرات كانت تخدم المصالح الروسية . فلو نجحت لكان لروسيا الحق بموجب معاهدة تركمان جاي أن تعين قنصلا في هراة ، أو بمعنى آخر وكيل سياسي ، وبهذه الوسيلة ستسهل عملية اتمام تخطيط حدود الأراضي الهندية ، وإذا فشلت الحملة فان ايران ستكون منهكة ، وذلك يجعلها أكثر خضوعا للنفوذ الروسي . وإذا عطلت الحملة أو منعت عن طريق التدخل البريطاني فسينشأ العداء بين ايران وبريطانيا ، وبذلك تجنى روسيا الثمرة . ويبدو أكثر من ذلك أن الكونت سيمونس قدم ٥٠٠.٠٠٠ خمسين ألف تومان ، أي حوالي ٢٥ ألف جنيه انجليزي إلى الشاه لمصاريف الحملة ، على شريطة أخذ هراة . وأن يتجاوز عن باقي حساب تعويضات الحرب المطلوبة لروسيا من ايران ، وأنه تفاضى عن فرقة من الفارين الروسيين تحت قيادة الكولونيل سيمونس في خدمة الجيش الايراني واستفاد منها الايرانيون في الحملة ضد هراة » .

كان التحرك العسكري الفارسي في اتجاه هراة مثيرا للانجليز خاصة بعد أن استولى الفرس على « غريان » ثم حاصروا هراة نفسها . وكان الانجليز يعتقدون أن هراة لن تصمد طويلا . ولكن أثبت المدافعون عنها صلابه ، فضلا عن أن جيش الغزو الايراني غير كبير . ومع هذا استخدمت بريطانيا كافة امكانياتها لارغام الشاه محمد علي سحب جيشه من هراة ، وعلى عقد معاهدة مع بريطانيا تعطى لها امتيازات تجارية وسياسية واسعة في ايران تمكن بريطانيا من السيطرة بطريق غير مباشر على البلاد . ونظرا لرفض الشاه لهذه المطالب وجهت اليه الحكومة البريطانية انذارا بأن تحركه ضد (هراة) في نظرها عدوان على بريطانيا وانسحب الوزير المفوض البريطاني من طهران في نفس الوقت الذي تحركت فيه القوات البريطانية لاحتلال (جزيرة خرج) . واحتلت الجزيرة منذ يوليو - تموز ١٨٣٨ حتى فبراير ١٨٤٢ .

ومن (خرج) أخذ الانجليز يهددون الساحل الايراني ، وبوجه خاص ميناء بوشهر ، بينما لم يكن في استطاعة السلطات الفارسية ازاء هذا الاحتلال البريطاني لأرض فارسية سوى مقاطعة جزيرة (خرج) اقتصاديا ، وفكر بعض المسئولين الانجليز في وقف التعامل البريطاني مع بوشهر ردا على ذلك ولكن اللورد بالمستون - وزير خارجية بريطانيا -

« اعتبر أن هذا الاجراء المقترح غير مناسب لأنه يضر بمصالح التجار الهنود الذين يتاجرون مع بوشهر كما يضر بالتجار الايرانيين الذين كانوا يرغبون في البريطانيين ، كما أنه سيعطى للشاه سلاحا لوقف استيراد البضائع الانجليزية في ايران الشمالية ومن المحتمل ايضا انه غير فعال لا تأثير له » .

وكان طبيعيا أن يتصاعد التوتر بين الانجليز والفرس بسبب هذا الاحتلال المفاجيء لجزيرة خرج ، وبسبب تلك المضايقات التي يسببها الانجليز للسلطات الفارسية على الساحل ، وادى الأمر الى أن تنتقل الوكالة البريطانية في بوشهر الى جزيرة (خرج) في ٢٩ - ٣٠ مارس ١٨٣٩ . وبدأت الدوائر الانجليزية تفكر في طريقة تحتفظ بواسطتها بهذه الجزيرة تحت يدها .

فجزيرة خرج كانت قد أصبحت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للاستراتيجية البريطانية الجديدة في الخليج العربى . وهى استراتيجية أصبحت تعتمد على البواخر المسلحة ، وهذه البواخر فى حاجة الى قاعدة ملائمة للرسو ، وتصبح مخزنا للفحم الذى تحتاجه هذه البواخر .

كذلك تستطيع البواخر - التى تتخذ من خرج قاعدة لها - أن تراقب باستمرار أى تحرك فارسى معادى فى المنطقة وتتمكن بسرعة من محاصرة الموانئ الرئيسية الفارسية وبوجه خاص بوشهر . ولكن - فى اعتقادنا - أن هناك علاقة جد وطيدة بين الاحتلال البريطانى لخرج فى ١٨٣٨ والجهود العسكرية والدبلوماسية التى كانت تبذلها الحكومة البريطانية من أجل ارغام حكومة مصر على سحب قواتها واداراتها من مختلف مناطق الشام وشبه الجزيرة العربية .

فقد دخلت الأزمة بين محمد على - والى مصر - والسلطان العثمانى محمود الثانى مرحلة خطيرة فى ١٨٣٨ ، وأصبح الصدام متوقعا ، فعلا وقعت الحرب فى يونيو ١٨٣٩ ، وهزم الجيش العثمانى شر هزيمة فى موقعة نزيب ، ولم يعد هناك من وسيلة أمام السلطان العثمانى الجديد (عبد المجيد) الا أن يتشبت بالتدخل الدولى العسكرى ، وكانت بريطانيا تتزعم هذا الاتجاه وكونت تحالفا أوروبيا ضد مصر من روسيا وبروسيا والنمسا ثم لم تلبث أن انضمت اليه فرنسا .

كانت بريطانيا — بصفة خاصة — تشعر أن مسئولياتها في الدفاع عن الدولة العثمانية تمتد الى العراق حتى تمنع من وقوع أى اتصال بين قوى العراق الوطنية والمصريين في الشام (١) ، وحتى تمنع من أى تفاهم بين حكومتى طهران ومصر ضد العدو المشترك (بريطانيا والدولة العثمانية) . فقد كان الشاه شديد السخط على تحرك والى بغداد العثماني من قواعده في البصرة لاحتلال المحمرة في ١٨٣٧ التي كان يعتبرها الفرس تابعة لهم .

وكان محمد علي مستاءا من اسناد منصب قبطان البصرة الى احد الضباط الأتراك الثائرين عليه ، وكان يدعى تركجة بيلمز . وانه لأمر ذو مغزى أن يكون الانجليز هم الذين انقذوا بكر « تركجة بيلمز » هذا من الوقوع في يد القوات المصرية في السواحل اليمنية ، وأنهم هم لذين نقلوه الى بمباي ثم الى البصرة . لقد كان هذا في نظر المسئولين في حكومة مصر استفزازا صارخا حتى أن خورشيد باشا — قائد الحملة المصرية في شبه الجزيرة العربية — أصبح يتطلع الى البصرة خاصة وأن القوى العربية في تلك الجهات كانت تكاتبه وتدعو اليها . ومن ثم أصبحت منطقة عربستان (المحمـرة) والبصرة المتجاورتين محط انظار كل من المسئولين الفرس والمصريين .

ولقد كان خورشيد باشا . قائد الحملة المصرية في شبه الجزيرة العربية وفي الخليج العربي — يشعر أن من واجبه انقاذ منطقة الخليج العربي من التسلط البريطاني . وفي رسالة قيمة كشف خورشيد هذا عن وجهة نظره فقال :

« ان الانجليز يرمون منذ خمسين او ستين سنة الى الاستيلاء على مقدار من سواحل بلاد العجم حتى يأمنوا شر الدولة الروسية وحولوا أغراضهم الى الاستيلاء على سواحل عمان والبحرين والاحساء والقطيف والكويت والبصرة لتكون عقبة امام الدولتين الروسية والايرانية . هذا هو ما يضمرونه فلا يبقى من جزيرة العرب ولا بغداد خبر . اما البحرين فهي بمثابة مفتاح خليج العجم اذا استولت عليه الانجليز فانها في خمس عشر سنة تصير عظيمة ومعورة مثل جزيرة مالطة » .

(١) لن نتعرض هنا لطبيعة هذه العلاقات بين القوى الوطنية في العراق والمصريين في الشام فقد بحثناها تفصيلا ووثائقيًا في كتابنا « تاريخ العراق الحديث » .

وهكذا كان خورشيد باشا يدرك حقيقة أهداف بريطانيا في المنطقة ، وكان يسعى إلى احباط المخطط الانجليزى هناك ، ولكن المرقعة كانت قد اتسعت على حكومة مصر وكان فتح جبهة جديدة في الخليج العربى فوق امكانيات مصر . وكان لا بد من قيام تعاون كبير بين حكومتى طهران والقاهرة اذ لا يريد لهما أن يعملتا على اخفاق المخطط البريطانى .

في هذه الظروف بعث شاه ايران الى محمد على والى مصر برسالة « جس نبض »
اليه يقول فيها :

« ان تقوية الجامعة الاسلامية ، واحكام رابطة الصداقة والمودة المنوطة باتخاذ
الأفكار والآراء . . . وأنه اذا اقتضت المصلحة بمطالبتنا بأى تعضيد ومظاهر فاننا
مستعدون لآدائها » .

ولقد شعرت الدوائر البريطانية في العراق بأن الشاه يريد أن ينتهز فرصة نمو قوة
مصر في الشام وفي شبه الجزيرة بالقيام بهجوم كبير على العراق فتوالت التحذيرات
الصادرة من روبرت تيلر الوكيل السياسى البريطانى الى حكومة لندن من ان الفرس
يستعدون لغزو العراق بتحريض لا من الروس فقط ولكن بتحريض من الفرنسيين .
ولعل الوكيل السياسى البريطانى بالغ في هذه الموضوعات ولكن هذا هو أسلوب الانجليز
في تضخيم بعض الأمور البسيطة لتحقيق أهداف معينة . فعلى فرض أن الروس كانوا
يحرضون الشاه على مهاجمة العراق - وهذا أمر لم يظهر الا في بعض الوثائق الانجليزية
القليلة - فان كان من المستبعد أن يحرض الفرنسيون الفرس على مهاجمة العراق ، حيث
أنه كان من الثابت فعلا أن القنصل الفرنسى فيكتور فونتانييه Victor Fontanier
هو الذى حث والى بغداد على احتلال المحمرة في ١٨٣٨ .

بل في اعتقادنا أن روسيا كانت حذرة ازاء هذه القضية الحساسة . فقد كان هناك
شبه تفاهم بريطانى - روسى حول الطريقة التى ستعالج بها المسألة المصرية ، وأنه ليس
من مصلحة روسيا أن تقوض هذا التفاهم في الموقف الذى كانت فيه حكومة بريطانيا
مستعدة للدخول في حرب ضد أية قوة تتحرك الى العراق ، فضلا عن أن الشاه كان عاجزا
عن أن يستولى على « هراة » ومن ثم لا يستطيع أن يفتح على نفسه جبهة جديدة ليس في

استطاعته التحكم في تطوراتها أو على الأقل لا يستطيع أن يقدم على خطوات واضحة ضد العراق إلا إذا كان هناك تنسيق بينه وبين محمد علي باشا . وهذا التنسيق كان في مرحلة « جس النبض » فقط .

حقيقة عرض الشاه في رسالته فكرة « التعضيد » و « المظاهرة » ولكنها عبارات تشجيع أكثر منها ارتباطات واضحة فالأمر كان يحتاج أكثر من تبادل مثل هذه الرسائل ، ولم تنتقل المسألة من مرحلة إرسال مثل هذا الخطاب الى مرحلة الجلوس على طاولة المفاوضات والتباحث حول امكانيات التعاون .

والواقع أن أكثر ما كان يخشاه الانجليز هو قيام القوات المصرية في شبه الجزيرة العربية بالتحرك صوب البصرة ومن هناك تصبح قادرة على الاتصال المباشر بالفرس وبالتالي وضع المنطقة تحت ظروف دولية معقدة فقد كانت الحكومة البريطانية تعتقد أنه لم يحدث شيء من هذا فان القوات الروسية ستهبط الى الأناضول . وتتدخل ايران في العراق مباشرة .

لقد وضع المخطط البريطاني لمواجهة هذه الظروف واحتمالاتها المعقدة ونفذ على النحو التالي :-

١ - تعاونت كل من الحكومتين العثمانية والبريطانية على شن حملة دعاية ضد ايران ، وتحذيرها من أي تحرك نحو العراق سواء أكان هذا التحرك بمظهر سياسي ديني أو عسكري فقد بعثت حكومة الاستانة برسالة الى محمد علي تقول فيها :

« ان أعداء الدين والوطن قد طمعوا فينا من جميع الجهات ولا سيما ان الايرانيين انتهزوا الموقف الحالي فرصة للتفكير بتدبير هجوم على بغداد بأسباب مصطنعة وأن الأمر قد يؤدي الى حرب بين الدولتين العثمانية والايرانية » .

٢ - بعث بالمرسئون - وزير الخارجية البريطاني - الى الشاه محمد برسالة ينصحه ، أو بمعنى آخر يحذره ، من أن ينتهز فرصة ضعف الدولة العثمانية ليهاجم العراق ، وطلب من الشاه عدم اللجوء الى السلاح في هذه الظروف فيما يتعلق بالمشكلات الفارسية العراقية ، وانما اذا كانت هناك مشكلات ملحة فلترفع الى مستوى المباحثات بين الطرفين العثماني والفارسي .

٣ — كان الاجراء البريطاني الثالث هو أكثرها قوة ، ومفاجأة • فقد صممت الحكومة البريطانية على الا تدع الأمور في منطقة العراق دون تدخل مباشر من جانبها ، وأسرعت الى اعداد ثلاث بواخر مسلحة (مكفكة) بعثت بها بواسطة سفينة (١) دارت حول رأس الرجاء الصالح لتصل — في سرية تامة — الى جزيرة « خرج » في أواخر أكتوبر ١٨٣٩ ، وانزلت فيها حمولتها ، وركبت البواخر الثلاث على عجل ، وسلحت بالمدفعية وانطلقت صاعدة شط العرب لتربط في نهر الفرات ولتصبح — من بعد — حاجزا بين القوات المصرية والعراق .

ومن هذا يتضح أن الاحتلال البريطاني لجزيرة خرج لم يكن سببه قاصرا على الأزمة البريطانية — الفارسية حول هراة وانما كانت رغبة بريطانيا في اتخاذ جزيرة (خرج) قاعدة بحرية لبواخرها من أهم أهداف استمرار الاحتلال البريطاني لتلك الجزيرة . فمن خرج تستطيع بريطانيا التحرك ضد الساحل الفارسي وضد العراق اذا ما وجد الانجليز أن مصالحهم في المنطقة تتطلب ذلك •

وعندما شعر الشاه بوطأة الانجليز عليه هدد بأنه سيستعين بروسيا ضد بريطانيا اذا استمرت الأخيرة في انتهاج سياسة عدوانية ضده ، ولكن بريطانيا كانت تدرك أن هذه هي الفرصة التي تضرب فيها ضربتها في الوقت الذي كانت فيه روسيا غير مستعدة للدخول في حرب ضد بريطانيا من أجل فارس حينذاك • ومن ثم كانت سياسة روسيا عموما هي عدم الوصول الى حافة الحرب مع بريطانيا • ومن هنا كانت المطالب البريطانية الموجهة الى الشاه لتسوية الأزمة الشديدة (١١ يوليو — تموز — ١٨٣٩) اذ كانت على النحو التالي : —

- ١ — أن يقدم الشاه اعتذارا كتابيا عن الاهانة التي لحقت لساعي السفير البريطاني •
- ٢ — اصدار فرمان في ايران يضمن حماية جميع الأشخاص الذين تستخدمهم البعثة البريطانية •

- ٣ — يجب أن يتم الجلاء عن غريان والأماكن الأخرى في أفغانستان التي ما زالت تحتلها قوات الشاه •

٤ — اعتذار كتابي يجب ان يقدم بسبب الاستيلاء على منزل أحد الضباط البريطانيين في طهران .

٥ — يجب أن يعاقب جميع الأشخاص الذين لهم علاقة باهانة صراف المعتمدية البريطانية في بوشهر .

٦ — ان حاكم بوشهر الذي اهان الاميرال سيرف . متيلاند يجب أن يعزل من وظيفته وأن تعلن الحكومة الايرانية السبب في عزله علنا .

٧ — يجب تصفية قضايا الرعايا البريطانيين بسبب بعض مصانع الحديد في « قره داغ » .

٨ — يجب دفع المبالغ المستحقة للضباط البريطانيين الذين كانوا يعملون أخيرا في خدمة الحكومة البريطانية .

٩ — يجب توقيع معاهدة تجارية بين بريطانيا العظمى وايران لتصحح تجديد العلاقات السياسية بين الدولتين .

وهذه المطالب تحتوي على محاولة واضحة لاطهار حكومة فارس وكأنها أذعنت للحكومة البريطانية .

بل لقد اتجهت الحكومة البريطانية الى شراء (جزيرة خرج) لعلها تستطيع أن تتحقق أهدافها بالمفاوضات السلمية والأموال . وبحث الدوائر السياسية البريطانية موضوع شراء الجزيرة فعلا ، وخرجت بنتيجة هامة هي :

« أن الحصول على (خرج) بواسطة الشراء سيعطي لروسيا الفرصة للحصول على تنازل عن جيلان كلها أو جزء منها في الشمال في مقابل تخفيض ميزان تعويضات الحرب المستحقة لها من ايران وهذه نتيجة غير مرغوب فيها وأنه من الأفضل ألا يتم شيء يمكن أن يعرض سلامة (١) ايران للخطر » .

(١) مفهوم هذه الكلمة يجب أن يتحدد على النحو التالي : أن سلامة ايران في ذلك الوقت من الخطر الروسي عليها كان في مصلحة بريطانيا . ولذلك فهي تدافع عن سلامة ايران من أجل سلامة المصالح البريطانية .

كان الخوف من روسيا أحد الأسباب الرئيسية في امتناع الانجليز عن الاستمرار في احتلال (خرج) أو في شرائها . وكان نجاح التحالف الأوروبي ضد مصر في إرغامها على الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية عاملاً رئيسياً ثانياً جعل الوجود البريطاني في خرج غير ذي موضوع (١٨٤٠) . ثم إن المفاوضات بين المسؤولين الانجليز والفرس كانت تتقدم ، وأن كان التقدم بطيئاً ، في اتجاه تحقيق تلك المطالب التي عرضها بالمرستون منذ يوليو ١٨٣٩ . وفعلاً حصلت بريطانيا على مطالبها وأعيد تأسيس المفوضية البريطانية في طهران في أكتوبر ١٨٤١ وعقدت معاهدة تجارية بين الدولتين وشرعت بريطانيا في الجلاء عن (خرج) في أواخر ١٨٤١ وتم في أوائل ١٨٤٢ .

لم يلبث الانجليز أن وصلوا إلى اتفاقية بشأن مشكلة هراة بعد اعتلاء ناصر الدين العرش في ٢٠ أكتوبر ١٨٤٨ وقد وقع الاتفاق في يناير ١٨٥٣ على النحو التالي :

« إن الحكومة الإيرانية لا يجب في المستقبل أن ترسل قوات إلى هراة إلا إذا كان ذلك لصد هجوم أجنبي وحتى في مثل هذه الحالة فإن القوات الإيرانية لا يجب أن تدخل مدينة هراة ، بل تعود إلى إيران بمجرد زوال الخطر ، وأن علاقات إيران مع هراة يجب أن تكون على أساس المساواة . . أو بمعنى آخر ، أن الحكومة الإيرانية لا يجب أن تحاول أن تقيم حكماً مباشراً في هراة أو تتدخل في شئونها الداخلية ولا يجب أن يوجد أثر للتبعية لإيران مثل سك العملة أو أن يطلب حاكم هراة القاء الخطبة باسم الشاه ، وأنه لا يجب أن يكون أي ممثل إيراني دائم في هراة أو أي ممثل من هراة دائم في طهران ويمكن أن يقوم حاكم هرات بالتطوع بالمساعدة من حين لآخر للشاه بغرض إخضاع التركمانيين أو إخماد الاضطرابات أو الثورات في إيران نفسها . . لا يجب الاحتفاظ بالزعماء الهراتيين في إيران بغير إرادتهم كسجناء سياسيين أو مشتبه في أمرهم أو يقدم لهم ملجأ في إيران » .

لقد فرضت اتفاقية ١٨٥٣ فرضاً على إيران ، وكانت بريطانيا متشددة في شروطها تلك ، وذلك بسبب قرب وقوع الأزمة الكبرى بين روسيا وبريطانيا بسبب اصطدام مصالح كل من الدولتين في الدولة العثمانية الأمر الذي تطور إلى ما عرف باسم حرب القرم (١) (١٨٥٣ - ١٨٥٦) .

(١) انظر فيما سبق الأزمة الناشئة بين بريطانيا والدولة العثمانية من جهة وفارس من جهة أخرى خلال حرب القرم .

وكفا كانت فارس تنوى استغلال أزمة الدولة العثمانية خلال هذه الحرب ، سعت كذلك الى استغلال أزمة بريطانيا خلالها ، وذلك عن طريق تكوين حلف رباعى تشترك فيه هراة وكابول وقندهار . وكان دوست محمد خان — حاكم كابول — شديد المخاوف من تدخل حكومة طهران فى أموره والسيطرة على بلاده ، ولذلك كان ميالا بشدة نحو السلطات البريطانية فى الهند ويميل الى التحالف معها (١) . ولذلك فشلت جهود طهران فى تحقيق سياستها ، وشرعت فى اتباع سياسة أشد عنفا نحو أفغانستان ، فعملت على إثارة المشاكل بين هراة وكابول وقندهار، ولما شعر دوست محمد بأن موقفه بدأ يضعف، وبأن الانجليز من جانبهم مستعدون للوقوف بجانبه ضد فارس حماية لسياستهم الاستعمارية فى المنطقة ، اتجه الى عقد معاهدة سلام وصداقة مع شركة الهند الشرقية البريطانية فى ٣٠ مارس آذار ١٨٥٥ .

سرعان ما تصاعدت الأزمات البريطانية الفارسية، سواء فيما يتعلق بسياسة فارس ازاء أفغانستان ، أو بعلاقاتها المباشرة مع بريطانيا . وكانت أقل المشكلات تفاقمة كقيلة بأن تصبح مشكلة معقدة بين الطرفين . ومع اعترافنا بتفاقمة المشكلة التى أدت الى انسحاب الممثل البريطانى من طهران فى ٢٠ نوفمبر ١٨٥٥ فتجدد الاشارة اليها لى نذكر كم كانت الحكومة البريطانية تستخدم أساليب تعسفية شديدة ضد حكومات الشرق الاسلامى بقصد اخراجها ، وفى هذا يحدثنا أحد الوثائقيين الانجليز وهو لوريمر فيقول أن رجلا فارسيا ، كان متزوجا من أخت لواحدة من زوجات الشاه ناصر الدين — الذى تولى العرش منذ ١٨٤٨ — قد عينه السفير البريطانى فى طهران فى سكرتارية السفارة ، وعندما رفضت حكومة الشاه الموافقة على ذلك ، على اعتبار أنه موظف فى الحكومة الفارسية رفضت السفارة البريطانية ، وأصرت على تعيينه فى السكرتارية ، بل عندما اعتقلت السلطات الفارسية زوجة ذلك الرجل الفارسى — وكان يدعى هاشم خان — دافعت عنها السفارة البريطانية على اعتبار أنها زوجة « موظف بريطانى » . وأصر كل على موقفه ، حتى انسحب الممثل البريطانى من طهران الى بغداد .

استمرت الأزمة لهذا السبب ولأن فارس ظلت مستمرة فى استعداداتها ضد هراة سعيا الى الاستيلاء عليها ، وكان سقوطها فى يد الفرس هو السبب فى أن تتماذى بريطانيا

(١) أنظر فيما سبق عن موقف دوست محمد .

في ضغطها بشدة على فارس ، خاصة وأن حرب القرم كانت قد انتهت . وهذا يفسر تطرف الانذار البريطاني الموجه الى الشاه في اواخر ١٨٥٦ وكان هذا الانذار ينص على :

١ - انسحاب القوات الايرانية من هراة وعدم تدخل ايران مطلقا في امورها ، وأن أية مشكلة ايرانية معها يجب أن تدخل فيها بريطانيا كوسيط لحلها .

٢ - عقد معاهدة بريطانية فارسية تعطى لبريطانيا حق تعيين قناصل في أية بقعة ايرانية .

٣ - ترتيب عملية استئجار بندر عباس لسلطان مسقط (١) .

٤ - عزل الصدر الأعظم (الفارسي) على اعتبار أنه هو المسئول عن الأزمات التي وقعت بين المسئولين الفرس والموظفين الانجليز في السفارة البريطانية في طهران .

كانت هذه الشروط لا تسمح للحكومة الايرانية بالوصول الى اتفاق سلمي مع الانجليز ، بل هي بمثابة فرض الحرب على فارس . وفعلأ أعلنت الحرب عليها في نوفمبر ١٨٥٦ . والى جانب العمليات الحربية التي كانت تسير فيها الحكومة البريطانية ، وسلطات الاستعمار البريطاني في الهند ، سعت هذه السلطات بسرعة الى التحالف مع دوست محمد خان - أمير كابول الأفغاني - وعقدت معه معاهدة في ٢٦ يناير ١٨٥٧ ضد ايران ، وبمقتضاه زودت السلطات البريطانية دوست محمد خان بالأسلحة والأموال ، كما قدمت الأموال لشيوخ العشائر في المناطق الفارسية المطلة على طول الخليج العربي (٢) . وذلك لأن الأسطول البريطاني كان قد أنهى استعداداته لانزال حملته الكبيرة على الساحل الايراني وفي عربستان (المحمرة) . كذلك كانت هناك اتصالات انجليزية بكبار تجار فارس المتعاونين مع الانجليز لاثارة المشاكل في وجه الحكومة الفارسية خلال الحرب ، واثارة الروح الانهزامية بين الشعب .

(١) كان تحت السيطرة البريطانية المقنعة .

(٢) عمد الانجليز الى طمس هذه الحقيقة بشكل شديد وهذا واضح من حديث لأحد المسئولين الانجليز اذ قال « أن الصفة كلها يجب أن تُلغى وأن تعدم الوثائق المرفوضة وأن يزال أثر المراسلات من سجلاتنا » . لوريمر : دليل الخليج ، ص ٢٧٥٣ .

وحتى لا تعتقد الحكومة الايرانية أنها تستطيع الاعتماد على فرنسا — التي اشتهرت بالنزاع مع بريطانيا في مجالات التسلط الاستعماري في الشرق — وافقت فرنسا على ارسال سفينة حربية لها الى المياه الايرانية لكي « تظهر للايرانيين أن التفاهم الودي بين فرنسا وبريطانيا ما زال تاما » وظلت هذه السفينة الفرنسية الحربية في المياه الايرانية حتى وضعت الحرب أوزارها . بذلك تكون فارس قد وقفت وحدها أمام بريطانيا ، حيث أن روسيا كانت عاجزة عن أن تمد يد المساعدة اليها بعد هزيمتها في حرب القرم ، كما كانت الحكومة العثمانية مغتربة من هذا المأزق الذي وقعت فيه فارس لعلها بذلك تكسر شوكة ايران التي كانت تريد أن تفيد — فيما سبق — من المأزق الذي وقعت فيه الدولة العثمانية عندما نشبت حرب القرم .

أما في الجانب الايراني فقد أجريت استعدادات كبيرة نسبيا لمواجهة حرب من جبهتين : أفغانستان ، والحملة البريطانية من جهة الخليج العربي . وكانت امكانيات الدفاع الايرانية غير قادرة على كسب المعركة منذ البداية ، وخاصة في منطقة عربستان والساحل الايراني .

استطاعت القوات البريطانية أن تستولي بسرعة على بوشهر ، وهزمت القوات الفارسية في (فبراير ١٨٥٧) أو احتلت المحمرة (٢٦ مارس — آذار ١٨٥٧) وتلقت القوات البريطانية العاملة في عربستان معونات — غير رسمية — من العراق . وبدأ واضحا أن الفرس لن يكسبوا الحرب . ومع هذا بدا كذلك واضحا أن الانجليز لا يريدون الاستمرار في الحرب أو الزحف مثلا الى داخل قلب ايران ، وإنما يرغبون في عقد صلح سريع يحقق أهدافهم وهذا يرجع الى عدة أسباب :

١ — لم يكن الغرض من الحرب كسب أراضي جديدة وضمها الى حكومة الهند البريطانية ، وإنما ارغام حكومة طهران على قبول شروط معينة للصلح .

٢ — كانت فارس في نظر الانجليز دولة حاضرة خاصة بالنسبة لروسيا . واضعاف فارس الى حد كبير يؤدي الى ضعف فارس عن صد التوسع الروسي في المستقبل .

٣ — كانت نفقات وتكاليف الحرب سترتفع جدا لو أوغلت القوات البريطانية في زحفها الى الداخل .

٤ — كانت الثورة الهندية قد بدأت تندلع ومن ثم أصبح من مصلحة الانجليز انهاء القضية الفارسية للتفرغ للثورة الهندية .

انتهت المفاوضات بعقد صلح في ٤ مارس — آذار ١٨٥٧ وكان يقضى بالشروط التالية : —

١ — اقامة سلام دائم وصداقة بين بريطانيا وايران تبدأ من تاريخ تبادل التصديق عليها الذى كان سيتم في خلال ثلاثة شهور ، واطلاق سراح أسرى الحرب من كل من الجانبين ، والعفو التام عن جميع الرعايا الايرانيين الذين ارتبطوا بعلاقات مع القوات البريطانية أثناء الحرب .

٢ — انسحاب القوات الايرانية من هراة ومن كل أفغانستان خلال ثلاث أشهر من التصديق على المعاهدة، وتتخلى ايران عن أية مطالب لها في السيادة على أفغانستان والاعتراف باستقلال هراة وأفغانستان وعدم التدخل في شئونهما .

٣ — انسحاب القوات الانجليزية من الأراضي الفارسية .

٤ — عودة العلاقات الدبلوماسية البريطانية — الفارسية .

وفعلا نفذت شروط هذه المعاهدة ، وتصاعدت بعد ذلك المشروعات الاقتصادية البريطانية في ايران .

فقد مدت خطوط التلغراف — على يد الانجليز — عبر الأراضي الايرانية خلال الفترة بين ١٨٦١ — ١٨٧٠ وربطها بجيرانها والدول الأوروبية . وحصل البارون يوليوس دي رويتر Julius de Rauter على امتياز مد خط حديدي من بحر قزوين الى الخليج العربى (٢٥ يوليو ١٨٧٢) ، وفتح نهر قارون للملاحة البخارية (البريطانية) بصفة خاصة في ١٨٨٨ ، وكان طبيعيا أن يفتتح الانجليز لهم بنكا ضخما في ايران لنمو مثل هذه المشروعات الاقتصادية الضخمة وهذا يفسر لنا ظهور بنك ايران الامبراطورى الذى منح امتياز انشائه الى البارون دي رويتر نفسه (١٨٨٩) ، وحصل الانجليز كذلك على امتياز مد خطوط حديدية في جنوب ايران خاصة بين طهران وششتر . وذلك رغم معارضة روسيا الشديدة لهذه المشروعات البريطانية .

(م ٢٩ — الشعوب الاسلامية)

ومن بعد ذلك ستتوالى المشروعات الروسية في إيران وهذا سيؤدي الى وقوع تنافس وتسايق انجليزى روسى للاستحواز على اقتصاديات فارس الأمر الذى سيؤدي الى وقوع فارس فى هوة الديون الأوروبية ، ثم السيطرة الأوروبية فى مواجهة حركة وطنية شعبية ضد الحكم المستبد وضد التدخل والتغلغل الاستعماري فى البلاد . وقد تجلت هذه الحركة الوطنية على صورة معارضة قوية ضد الشاه ناصر الدين ، واشتد بساعده هذه المعارضة الوطنية نتيجة للدعاية الكبيرة التى كان يشنها المصلح الإسلامى الدستورى جمال الدين الأفغانى .

★ ★ ★

الفصل السابع

الحركة الوطنية
والتقسيم البريطاني الروسي لفارس
عام ١٩٠٦ - ١٩٠٧

شعرت البلاد الإسلامية بوطأة الضغوط الاستعمارية الأوروبية بقسوة ، واكتشف المحتكون بالشئون السياسية بأن البلاد الإسلامية قد ساعدت - بضعفها وعدم ارتفاعها الى مستوى العصر - على تعاظم التحكم الاستعماري في الشعوب الإسلامية . وكانت نظرة سريعة على خريطة الشعوب الإسلامية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب تؤكد بسرعة أن هذه البلاد أصبحت في متناول يد الاستعمار الأوروبي ، وأن بعضها أصبح فعلا تحت قبضته المروعة .

ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ضاعفت امبراطورية المسلمين العظمى فى الهند اذ أصبحت امبراطورية المغول فى أعقاب ثورة ١٨٥٧ مجرد مستعمرة بريطانية (١)، والدولة العثمانية أصبحت عرضة للتقسيمات الأوروبية منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) ، والعراق أصبح للانجليز فيه بواخر حربية وبواخر تجارية تسيطر على استراتيجية وتجارة العراق ، والخليج العربى أصبح تحت رحمة الأسطول البريطانى بعد أن فرضت بريطانيا على امراء الخليج ومشايخه سلسلة من المعاهدات التى ربطتهم بعجلة الامبراطورية وفصلتهم عن بقية البلاد العربية ، واضعفت بريطانيا دولة البوسعيد حتى وضعت عمان تحت حمايتها وكذلك زنجبار فى شرق أفريقيا، ووضعت مشيخات حضر موت تحت حمايتها أيضا ، واستعمرت عدن ، وطوقت اليمن الشديد التخلف ، واقتسمت الصومال مع ايطاليا وفرنسا والحبشة ، وكبلت مصر بالقيود واستغلت أزمته المالية فاحتلتها وفعلت فرنسا بتونس مثلما فعلت بريطانيا فى مصر ، وسعت فرنسا الى اباداة للاسلام أو المسلمين من الجزائر لتجعلها مقاطعة فرنسية وامتدت يد الاستعمار الفرنسى والبريطانى الى الشعوب الإسلامية فى غرب ووسط أفريقيا .

فكان أن بحث بعض المصلحين المسلمين أسباب هذا الضعف الذى أصاب الشعوب الإسلامية ، ووجدوا أن الدين نفسه ليس مسئولا عن ذلك وإنما تغاضى الناس والحكام عن تعاليم دينهم ، واستبداد الحكام بأمور الشعوب دون الاستئناس برأى الشعب رغم

(١) انظر الباب الثالث .

أن الدين الاسلامى ينص على أن الأمر « شورى بينكم » . فبدأ ظهور عدد من المصلحين الداعين الى انقاذ الشعوب الاسلامية مما وقعت فيه . وكان من أشهر هؤلاء المصلحين وأبرزهم « جمال الدين الأفغانى » .

كان جمال الدين الأفغانى مصلحا اسلاميا ، لا يستقر له قرار . يذهب الى أى منطقة يشعر انها فى حاجة الى التحرك ضد التسلط الأوروبى ، وضد استبداد الملوك . وكان عدو الاستعمار الأول ، وكان له الفضل فى تأسيس الحزب الوطنى فى مصر فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل باشا ، وكان يحث زعماء مصر الوطنيين على توطيد نظام الحكم فى مصر على اسس دستورية على اعتبار أن الحكم المطلق المستبد هو المسئول عن تدهور بلدان الشرق قاطبة ووقوعها تحت برائن الدول الاستعمارية الأوروبية . فكان طبيعيا ان أسرع الخديوى توفيق — عدو الحركة الدستورية فى مصر — الى طرده من البلاد ١٨٦٩ .

كان الشاه ناصر الدين قد سمع عن جمال الدين الأفغانى ، وكان الشاه فى قرارة نفسه يريد أن ينقذ نفسه وبلاده من التسلط الأوروبى، ولهذا دعا جمال الدين الى فارس فى ١٨٨٦ ، ولكن لم يطب المقام لجمال الدين هناك ، لأن نشاطه كان مقيدا . فغادر ايران، ثم التقى به الشاه مرة أخرى فى ميونيخ فدعاه مرة أخرى الى طهران ، وهناك بدأ الأفغانى مرة أخرى نشاطه من أجل الاصلاح . وهو اصلاح يستهدف أمرين :

١ — التخلص من التسلط الأوروبى بكافة اشكاله عن طريق ترقية أحوال المسلمين الى مستوى العصر . وهذا ما كان يريده ناصر الدين شاه .

٢ — اقامة حكم دستورى فى البلاد يرفع مستوى الشعب الى المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه فى مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفى مجالات القوة العسكرية . وهذا ما كان لا يرضى عنه الشاه .

ويوما بعد يوم كان الشاه يتأكد أن استمرار وجود جمال الدين الأفغانى فى فارس سيؤدى الى تكوين حزب قوى يدعو الى الاصلاح ، ويدعو الى القضاء على القوى المناهضة للاصلاح أيضا . ولهذا خشى رجال الشاه على انفسهم وعلى مستقبل وجودهم متسلطين على الناس ، وخشيت الدوائر الاستعمارية على احتكاراتها من أن تنهاوى بقوة نمو الحزب

الاصلاحى الذى كان يتكون حينذاك • ولهذا عزم الشاه على طرد جمال الدين الأفغانى من البلاد •

شعر جمال الدين بما يدبره له الشاه ، ولم يكن جمال الدين بالرجل الذى يختفى بمجرد سماعه بما يدبر له حتى ولو كان القتل • وكان يبحث عن كل وسيلة يستطيع بها الاستمرار فى دعوته ، وكشف حقائق استهتار الحكام بمقدرات الشعوب ، ووجد أنه لو اتخذ مقرا له فى أحد مساجد — طهران — ذات المكانة الخاصة فى قلوب رجال الدين والشعب ، لن يستطيع الشاه — وقد عزم على القبض عليه — الوصول اليه • ونفذ جمال الدين الأفغانى خطته ، وتابع من مقره الجديد فى أحد مساجد طهران دعوته الى تقويض الاستبداد بالشعب •

وصلت نداءات الأفغانى الى اسماع الكثيرين ، وكانت البلاد مستعدة للتحرك ضد الاستبداد والاستعمار فى آن واحد • ومن ثم وجد رجال الشاه أنه لا بد من التخلص من هذا الداعية الشديد الوطأة على الحكم القاجارى ، فالتقوا القبض عليه وأخرجوه من فارس (١) ولكن حركة جمال الدين الأفغانى لم تكن لتنتهى بطرده من البلاد ، فلقد وضع أساس الحركة ، قد تضعف أو تشتد ، ولكنها أصبحت حقيقة لا يمكن تجاهلها • وبينما اعتقد الشاه ورجاله أنهم باخراجه قد تخلصوا — الى حد كبير من أكبر خطر يتهدد استمرارهم فى الحكم — كانت الحقيقة غير هذه •

ففى لندن ، وعلى صفحات جريدة (القانون) شن جمال الدين الأفغانى هجوما شديدا على الشاه • وكان يكتب فى هذه الجريدة عدد من ذوى الأسلوب النارى المعادى للشاه وكانت هذه الجريدة تدخل خلصة الى فارس • ولهذا لم يتعد تأثيرها الدائرة المثقفة والجماعات المعادية للشاه من داخل البلاط القاجارى نفسه • وهى جماعات غير قادرة على أحداث ثورة كبيرة ضد الشاه •

(١) بعد حياة غير مستقرة هنا وهناك يدعو الى تحرير الشعوب الاسلامية من الاستعمار والملوك الطغاة استطاع السلطان عبد الحميد الثانى أن يدعو الى الاستئناس (استنبول) ليعاونه فى الدعاية للجامعة الاسلامية ولكن استطاع السلطان عبد الحميد الثانى أن يشمل عمل الأفغانى ونشاطه وظل هناك حتى توفى فى مارس / آذار ١٨٩٧ •

وبصفة عامة تنفجر القلاقل الشعبية والثورات بعد أن تتجمع الأزمات الاقتصادية والسياسية معا . ولقد أحدثت نداءات جمال الدين الأفغانى أزمة سياسية بين البلاط والشعب المثقف وأحدثت الضرائب والضغوط — التى يتعرض لها التجار والرأسمالية على يد الشاه الذى كان يسعى الى ابتزاز الأموال منهم (١) — أزمة كانت كافية لتكوين ثورة على الشاه . وقد يبدو من هذا أن التجار والمثقفين هم الذين سيثمنون حملة كبيرة ضد الشاه ، وضد الاستبداد ، وضد الاحتكارات الأجنبية . والحقيقة هى أن التجار عندما يشعرون ، وعندما يطالبون بوقف سلطات الملك والبلاط عند حد إنما يفعلون لخدمة مصالحهم بفض النظر عن مصالح الشعب ككل ، وهم فى ثورتهم ضد الملكية والبلاط ، وفى دفاعهم عن ثرواتهم مستعدون للتعاون مع أشد العناصر خطورة على مستقبل البلاد ، ونعنى بذلك المؤسسات الأجنبية السياسية والاقتصادية على السواء .

وعلى أى حال كانت سياسة الشاه ورجاله المالية سيئة للغاية وكانت هى المسئولة عما وقع فى البلاد من اضطرابات استغللتها المؤسسات الأجنبية والسياسية لمصلحتها ولتحقيق مآربها بالتعاون مع قوى الثورة ضد الشاه . وكان تدمير الشاه ورجال الحاشية خاصة خلال رحلاته الى أوروبا من عوامل التحرك الثورى ضد ناصر الدين الشاه . فبينما كانت رحلات الشاه العديدة الى خارج البلاد ترافقه حاشية باهظة التكاليف — كان الشعب يتضور جوعا ، ويصور لنا أحد الكتاب حالة البلاد فى عهده بأنها كانت كثيرة الثورات ، وكانت المحاصيل رديئة الانتاج « وكانت هناك معارك بين الناس على الخبز فى طهران ، وبسبب الجوع دارت المعارك فى شيراز وانتشرت مجاعة مروعة بين ١٨٧٠ — ١٨٧٢ » .

وأشوأ من هذا أن الشاه سار على سياسة اقتصادية خطيرة كانت تعطى للأجانب امتيازات كبيرة مثل ذلك الامتياز الذى حصل عليه الانجليز منه باحتكار الطباقي (الدخان) ١٨٩٠ الأمر الذى أدى الى ثورة واسعة الهبها الأفغانى ومجتهدوا الشيعة ، وقاطع الشعب (الطباقي) واضطر الشاه الى سحب الامتياز . وبعد سنوات قليلة لم يلبث أن سقط الشاه نفسه صريعا برصاص رجل ايرانى آمن بأفكار الأفغانى الاصلاحية .

(١) ليس معنى هذا أن هؤلاء التجار جمعوا أموالهم بالطرق المشروعة ، وإنما هم كانوا يبتزون أموال الشعب .

(١٨٩٦) وتولى بعده مظفر الدين الشاه (١) . وفي عهده سارت ايران شوطا بعيدا في سياسة عقد القروض من بريطانيا وروسيا .

وهكذا سارت ايران في نفس الطريق الذي ادى بكل من مصر وتونس ومراكش (المغرب) والصين الى وقوع هذه البلاد اما تحت الاحتلال المباشر الأوروبى ، أو تحت التسلط غير المباشر .

وكانت ايران — مثل بقية تلك الدول — تسعى الى رفع مستواها الى مستوى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان القائمون بذلك حفنة صغيرة مؤلفة من الشاه والبلاط وكبار رجال الدولة ، فكان الأخذ بالمظاهر العامة للتحضر على النسق الأوروبى هو الأكثر وضوحا ، ولكن ذهبوا في طريقهم نحو الافادة من اختراعات العصر الى حدود طيبة كان يمكن أن تؤدي الى نتائج جيدة تعود على الشعب كله بالفوائد لو لم تكن ايران بين برائن قوتين كبيرتين متنافستين على استغلال ايران لمصلحتها بغض النظر عن مستقبل الشعب الايرانى .

كانت الاستدانة هى السبيل الذى سلكه الشاه ورجال حكومته من اجل توفير الاموال ، ولننظر في تطور هذه القروض وكيف أصبحت هذه القروض وسيلة للتحكم والتسلط الأوروبى وسببا من اسباب الثورة الوطنية .

ففى ١٨٩١ . أى قبل مصرع ناصر الدين شاه بخمس سنوات ، كانت موارد الدولة تزيد قليلا عن مصروفاتها ، ولكن فى ١٨٩٢ عقد أول دين ايرانى فى لندن بواسطة البنك الامبراطورى الايرانى (البريطانى) وذلك لمواجهة تعويض (شركة الطباقي) بسبب الغاء امتيازها ، وكان هذا التعويض يبلغ نصف مليون جنيه استرلينى . وتوالت القروض ، وتصاعدت الديون حتى بلغت فى ١٨٩٨ حوالى مليون جنيه استرلينى ، وفى نفس الوقت لم تكن مرتبات الموظفين ورجال الجيش قد دفعت بعد .

وفى ١٩٠٠ عقدت الحكومة الفارسية قرضا من بنك روسى بواسطة بنك دى جرو دى برس Banque de Grots de Perse وهو فرع لبنك الدولة الروسى . وكانت

القيمة الاسمية للقرض ٣٤٠٠ ر. ر. جنيها استرلينيا بضمان دخل جمارك ايران باستثناء جمارك اقليم فارس وجمارك موانئ الخليج ، على ان لا ينتقد هذا الشرط الا في حالة العجز عن سداد الدين فقط . ومع هذا فان مجرد وجود هذا الشرط كفيلا بان يؤكد كم كان مظفر الدين شاه ورجال حكومته مستعدين للتفريط لا باقتصاديات البلاد فقط بل وباستقلالها على نفس المستوى الذي كان عليه كل من الخديويين اسماعيل وابنه توفيق في مصر .

لقد أدت تلك القروض الروسية الى نوع من الاشراف الروسى على اقتصاديات ايران ، ومع هذا كلما فرغت الخزينة ، وعاد الشاه من رحلته في أوروبا أسرع الى البحث عن قرض جديد ينقذه من اعلان الافلاس . وفعلا قدم البنك الروسى قرضا جديدا ، وبلغت مجموع الديون الروسية في ١٩٠٣ أربعة ملايين جنيه وتوالت القروض البريطانية على فارس خلال الفترة بين ١٩٠٣ - ١٩٠٥ . وحيث أن « الجمارك الايرانية كانت تشكل المصدر الوحيد الذى يمكن اعتماده ضمنا لرد الديون فقد اثر ذلك في الأمور التجارية والاعتبارات الدولية . لذلك كان طبيعيا أن تكون مجالا للخلافات بين بريطانيا وروسيا . وكانت الحكومة البريطانية ترى أن من أهم الأمور بالنسبة اليها أن لا تتسلط روسيا على جمارك جنوب ايران وأنه اذا كان لا بد لهذه الجمارك أن تقع تحت اشراف اجنبى فان ذلك يجب أن يكون لبريطانيا . وأن روسيا يجب أن لا يكون لها من السيطرة في سياسة ايران التجارية ما يجعلها تتحكم في التعريف الجمركية وذلك حتى لا تسخرها لمصالح تجارتها وحتى لا تلحق الضرر بالمصالح البريطانية التجارية والسياسية .

هكذا بدأ الاصطدام بين القوتين الكبيرتين الطامعتين في ايران ولكن كانت هناك عوامل أخرى أشعلت من هذا التسابق التسلطي الاستعماري بين الدولتين . وتسابق المؤلفون والاستراتيجيون والدبلوماسيون في اصدار الكتب والتصريحات بشأن الخطر الروسي على ايران ، وكان الروس هم الذين يشكلون خطرا أما الانجليز فلا يضعون اقدامهم في ايران الا لحماية مصالح ايران وبريطانيا . والواقع ان روسيا وبريطانيا كانتا على قدم المساواة من حيث الاطماع الاستعمارية والفرض من اثاره هذه الزوبعة هو تهيئة الأذهان الى التغير الذي طرأ على السياسة البريطانية ازاء فارس . فقد كانت بريطانيا من قبل تعمل على المحافظة على كيان الدولة الفارسية سليما لكي تكون عقبة شديدة أمام

التوسع الروسى جنوبا ، ولكن بعد ١٩٠٥ تبدلت هذه السياسة وأصبحت بريطانيا تفكر جديا فى أن يكون النصف الجنوبى تحت نفوذها اذا ما وضع الروس النصف الشمالى من ايران تحت سيطرتهم .

كذلك عكف المختصون الانجليز فى وزارات الحرب والخارجية وحكومة الهند البريطانية على دراسة امكانيات قيام روسيا بهجوم كبير على فارس ، ومدى تأثير مثل هذا الهجوم على المنطقة بأسرها من الهند الى مصر . وكانت لدى الانجليز مخاوف من أن تهبط القوات الروسية من منابع دجلة الى شط العرب ، ومع ما فى هذه التوقعات من بعد عن الحقيقة ، فقد فكر الانجليز فى السيطرة على كرمنشاه لتكون قاعدتهم ضد أى وصول عسكرى روسى الى منطقة عربستان (المحمرة) وشط العرب والخليج العربى .

كذلك عنى الانجليز بدراسة احتمالات وصول قطع من الأسطول الروسى الى مياه الخليج العربى ، ولكن أكد بسهولة قواد البحرية البريطانية أن مثل هذه القطع ستكون عديم الجدوى أمام تفوق بريطانيا البحرى ، بل ستكون أسيرة الحصار البريطانى عليها .

لقد كانت حكومة روسيا القيصرية تتطلع حقيقة الى أن تصل الى مياه الخليج العربى عبر فارس والعراق ، ولكنها كانت تتخذ عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف . وايا كان الأمر الذى تهدف روسيا القيصرية الى تحقيقه من وراء الوصول الى الخليج العربى فالأمر المشكوك فيه جدا أن هذا كان هدفا رئيسيا من أهداف السياسة الروسية . وأن الأمر الذى لا شك فيه هو أن روسيا كانت تدرك أن سيطرتها على نصف فارس الشمالى هو ما يجب أن تعمل من أجله دون الاشتتاط وراء المخططات السياسية البعيدة الاحتمال وأغلب الظن أن مناورات الروس السياسية فى منطقة الخليج العربى فى أواخر القرن التاسع عشر كانت من قبيل الرد بالمثل على المناورات السياسية البريطانية فى شمال ايران ضد المصالح الروسية . وعلى هذا يجدر بنا أن ننظر الى المشروعات الروسية فى جنوب فارس وفى منطقة الخليج العربى .

ولقد كانت هناك مشروعات روسية عن خط حديدى من الشمال الى الكويت ، وبالتالى كان الانجليز يفضلون القضاء على هذا المشروع فكان ذلك من أسباب عقد معاهدتهم المشهور مع شيخ الكويت ١٨٩٩ التى التزم فيها مبارك الصباح بعدم التنازل

عن اية قطعة من امارته بأية صورة لأية حكومة غير بريطانية . وكانت سياسة بنساء السكك الحديدية — في نظر بريطانيا — ستؤدي الى أن يصبح جنوب ايران هو الآخر تحت رحمة روسيا .

وحيث أن ألمانيا كانت هي الأخرى تسعى الى تنفيذ مشروع مماثل — بمد خط حديدى من برلين الى بغداد الى الكويت فان بريطانيا تكون بذلك قد ضربت باتفاقيتها مع الكويت عصفورين بحجر واحد . بل ذهب بعض الدبلوماسيين الانجليز الى فكرة ترك باب ايران مفتوحا أمام الألمان حتى يصطدموا هم بالروس هناك . وكانت ألمانيا قد بدأت توطد علاقاتها مع فارس وحصل بعض الألمان على امتياز من الشاه بمد خط حديدى من طهران الى خانقين ، فرحب بعض الدبلوماسيين الانجليز بذلك لضرب روسيا بألمانيا .

ولكن اللورد كيرزون Lord Curzon — نائب الملك فى الهند — حسم الموقف وأعلن تصريحه المشهور بأن بريطانيا وحدها ، وليس اية دولة أوروبية أخرى ، هى التى يجب أن تظل صاحبة اليد العليا فى الخليج العربى ، وأنه على بريطانيا أن تمنع روسيا من أن يكون لها ميناء ارتكاز فى الخليج العربى ، ولا ألمانيا كذلك . وهدد بأنه اذا رفع الروس علمهم فى بندر عباس فسيفعل الانجليز ذلك فى جزر هرمز وهنجام وقشم التى تتحكم فى الخليج العربى بصفة عامة وبسواحل فارس بصفة خاصة . وشرعت أجهزة الاعلام فى بريطانيا تتحدث عن (حق) بريطانيا فى الخليج ، وعن أن بندر عباس « ميناء بريطانى منذ أيام شركة الهند الشرقية » وذلك ردا على تصاعد النفوذ الروسى فى طهران . فكان ذلك مقدمة لسياسة اقتسام كل من بريطانيا وروسيا للنفوذ فى ايران .

ولا شك أن الحكم الملكى المطلق مسئول الى حد كبير عما تطورت اليه الأمور بسرعة فى ايران ، فلقد كان ناصر الدين شاه مستبدا بالأمور مسرفا فى رحلاته الى خارج البلاد ، وكان خليفته على العرش كذلك . بل كان أشد منه . كان مظفر الدين شاه (١٨٩٦ — ١٩٠٦) لا يتمتع بأية خبرة تجعله أهلا لقيادة البلاد فى خلال الأزمة الطاحنة الاقتصادية والسياسية التى أصبحت تعيشها ايران بمرارة . وحيث أنه كان غير معنى بانقاذ البلاد من الافلاس المالى الذى كانت تعانيه ، فقد كان رجال حاشيته وكبار موظفى الدولة على نفس المستوى من اهدار مصالح البلاد المالية فى سبيل الاثراء . وكانت فرص

الاثراء أمام حكام الولايات واسعة للغاية ، حيث أن حاكم الولاية كان سيدها المطلق ، .
وكان هو المسئول أمام الشاه عن المبلغ المقرر على ولايته لتدفعه سنويا الى خزينة الشاه ،
والحاكم من بعد ذلك أمامه فرصة كبيرة — دون رقابة واضحة — لجمع مبالغ كثيرة من
الأهالى لجيبه الخاص .

وانتشر بسرعة الفساد بين موظفى الدولة ، وخاصة بين الصغار منهم ، اذ كانت
منزباتهم لا تدفع اليهم بانتظام ، وكان الطريق المعروف لدى الموظف لتأمين حياته هو
الحصول على الرشاوى . ومن أجل ابتزاز عدة مئات من التومانات (١) كان بعض الموظفين
لا يتورعون عن تقويض العمل فى بعض المشاريع الاقتصادية .

وكانت خزينة الشاه لا تختلف عن خزينة الدولة حتى ذلك الوقت . وبالتالي كان
هناك تشديد فى جمع الأموال ، كما كان هناك تراخى والضح فى تنفيذ المشروعات
الاقتصادية .

وكانت الرأسمالية الوطنية الناشئة ، وكبار الملاك هم أقدر القوى الاقتصادية
— بعد الشاه — على القيام باصلاحات ذات أثر فى انقاذ البلاد من التدهور الاقتصادى ،
ولكن هذه الرأسمالية الوطنية وكبار الملاك كانوا على مستويات متدنية من الفكر
الاقتصادى ، كما أن الفكر العشائرى كان هو الذى يسيطر على معظم أثرياء وملاك
إيران حينذاك .

ولقد انتشرت روح التدمير بين أفراد الشعب ، واندلعت ثورات محلية ضد تعسف
رجال الشاه ، وطلبوا لقطعة خبز ، كما أن الجماهير الفارسية عانت من نقص فى قيمة النقد
أدت الى ارتفاع تكاليف المعيشة الى درجات خطيرة . ومما زاد من هذه الأزمة النقدية
حدة تلك المضاربات المالية التى كانت تتعرض لها العملة النحاسية . وكان الشعب يقارن
بين حالته التى تردى فيها والشاه الذى يسافر من سنة لأخرى الى أوروبا ، وكبار
الموظفين والملاك الذين يزدادون ثراء بينما يزداد الشعب فقرا ، وبينما كان الموظفون
الأجانب (البلجيكيون) يحصلون على المرتبات العالية ، والبيوت المالية البريطانية
والروسية تحصل على الأرباح الخيالية دون أى اعتبار لمستقبل البلاد كان التجار

(١) التومان عملة إيرانية .

والشعب يجد من العسير عليه دفع الضرائب أو منافسة هؤلاء الأجانب الاحتكاريين لمصلحة الشعب فلقد سيطر الانجليز سيطرة شبه كاملة على الاقتصاديات موانئ فارس المطلة على الخليج العربى ؛ وحول الروس تجارة افغانستان — الناهية الى ايران — الى روسيا . واقفلت في وجه الرأسمالية الوطنية الفارسية ابواب العمل وفضلا عن ذلك زاد الحاح الحكومة على جمع الضرائب المتزايدة سنة بعد أخرى .

حقيقة كانت هناك أعمال اصلاحية مجددة قام بها شاهات فارس ، ولكن هناك فرق شاسع بين الاصلاحات العشوائية العفوية ، والاصلاحات الشاملة وهذا النوع الأخير هو الذى كان يعوز الشاهات والصدور العظام الفرس .

وحيث أن مثل هذه المشاريع الشاملة الاصلاحية هي التى كانت قادرة على نقل الطبقة الفقيرة — التى تمثل أغلبية الشعب — الى مرتبة أكثر تقدما، وحيث أن الاصلاحات كانت عفوية فقد عاش الشعب الفارسى فى بؤس شديد . ولكن فى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك وسائل عديدة يمكن أن يعبر الشعب بواسطتها عن آلامه وهي وسائل لم تكن متوفرة من قبل ، واعنى بذلك ظهور الصحافة (١)، وتطور أساليب الكتابة والتأليف والنشر بما جعل الأفكار الغربية أكثر انتشارا بين أفراد الشعب . هذا فضلا عن نمو عدد المدارس ، وظهور جماعات من المثقفين الراغبين فى انقاذ الشعب من أحواله المتدنية ، ومن استبداد الشاه ، وفى ادخال أساليب الحكم الحديثة (الديمقراطية) البرلمانية فى ايران .

وهكذا ، فى الوقت الذى كانت فيه تلك المشاعر الاصلاحية تنتشر بسرعة بين أفراد الشعب الايرانى ، كان التغلغل الاقتصادى الأوروبى — الروسى والبريطانى — يتصاعد بشكل يضر ضررا مباشرا بالدخل البسيط للمواطن الايرانى ، ويجعل ميزان الصادرات والواردات لصالح الروس والانجليز بصفة خاصة .

ولقد كانت هذه الأحوال المالية المتدهورة سببا فى أن يعيد كبار موظفى الشاه النظر

(١) ليس معنى هذا أن الصحافة كانت تدخل كل بيت تقريبا كما هو الحال الآن وإنما كانت لا تزال محدودة الانتشار جدا ، ومع هذا كان لها دور هام فى نشر الأفكار الحرة بين المثقفين بصفة خاصة .

في سياستهم المالية ، فظهرت بعض النظريات القيمة في هذا الصدد مثلما حدث ١٨٩٨ عندما أعلن أحد المصلحين الإداريين الفرس في ١٨٩٨ — وهو أمين الدولة — ضرورة فصل أجهزة الصرف في الحكومة عن أجهزة تحصيل الضرائب والأموال ، وبذلك يمكن أن توضع موازنة (ميزانية) واضحة الى حد ما أمام المسؤولين . ولكن هذا الاقتراح لم يلق موافقة من المسؤولين . كذلك يلاحظ أنه في الوقت نفسه طلب أمين الدولة في معرض خطته لانقاذ البلاد من الافلاس فرض ضريبة جديدة على الأرض الزراعية وتخفيض الجيش النظامي وتكوين شرطة نظامية .

ومعنى هذا أن هذا المصلح ألقى مثالب واخطاء الشاه ورجاله على كاهل الشعب الفقير ، وهذا هو أسلوب الفكر الاصلاحى التقليدى حينذاك الذى يضع الشعب فى خدمة البلاط ، ويحمل الشعب مسئولية اخطاء الحاكم المستبد .

كذلك يلاحظ أن تخفيض عدد الجيش النظامي كان بلا شك سيؤدى الى تخفيض ملحوظ في مصروفات الدولة ، ولكن هل كان هذا مقبولا في وقت كانت فيه الدولة الفارسية تشعر بضغوط عسكرية متعددة من جانب كل من روسيا وبريطانيا ؟ حقيقة كان الجيش الايراني طوال تلك الأزمة أضعف من أن يصمد أمام أى من القوتين البريطانية والروسية . ولكن مجرد التفكير في انقاص نفقات الجيش — وتجريده من فرص التطوير — من أجل انقاذ ميزانية (الشاه) من التدهور يعتبر — في اعتقادنا — أسوء مثال على أساليب الاصلاح وعلاج مشاكل الدول التى تعاني من مثل ما كانت تعانيه فارس .

بلغت الأحوال في ايران درجة الغليان والتمرد في الفترة الواقعة بين ١٩٠٤ — ١٩٠٦ ، وكان في استطاعة الشاه ورجال حكومته أن يضربوا بقوة أولئك الذين يعلنون تمردهم وسخطهم ، وكان الحكام الفرس « ملكيون أكثر من الشاه نفسه » . وكانت قوى المثقفين في المدينة غير قادرة على تكوين جبهة وطنية كبيرة قادرة على التصدي لاستبداد الشاه . ولكن كانت هناك مؤسسات وهيئات أجنبية في داخل ايران مستعدة لأن تضى حمايتها على أولئك المتمردين ضد الشاه مثل السفارة الانجليزية والروسية ، كما كانت العتبات المقدسة الشيعية في العراق معقلا من معاقل المعارضة ضد الشاه ، ولا يمكن له ولا لرجاله من الوصول اليها بسيف الانتقام .

وعندما شعر الشاه مظفر الدين أن القلاقل توشك أن تنفجر أسند الحكم الى رجل مخلص له هو (عين الدولة) . وكان الرجل يضع مصالح الشاه فوق مصالح الأمة . وكان شديد الوطأة على كل من يتحرك ناقدا تصرفات الشاه أو الحكومة . وأدت سياسته المالية الجائرة ، وأساليب العنف والقسوة ضد التجار الى أن يعلن هؤلاء نوعا من العصيان المدني وزادت حدة الحركة بسبب تزعم رجال الدين لتلك الثورات المتأهضة لسلطة الشاه المطلقة . واعتصم بعضهم في المساجد ، وبدأت الأمور تتحرج (ديسمبر - كانون أول ١٩٠٥) . ووجد الشاه أن الأجدى له هو أن ينحني للعاصفة فأقال (عين الدولة) وأصدر بعض القرارات الإصلاحية ، ومرت الأزمة الأولى بسلام . ولكن كل من الطرفين كان يتوجس خيفة من الآخر وبدأ واضحا أن الشاه يستعد لتوجيه ضربة قاضية ضد الحركة الشعبية عندما عاد (عين الدولة) الى منصب الصدارة ، بينما كان الشاه يعاني من المعاناة من مرض شديد ألم به ١٩٠٦ .

لقد كان (عين الدولة) فعلا يضمن ضربة شديدة للمعارضين له وللشاه ، واستعد لتنفيذ سياسة قمع متطرفة ، وامتدت يده هذه المرة الى مجتهدى الشيعة وأدى ذلك الى انتشار روح الثورة ، وامتلات بعض المساجد بالمعتصمين بها ، بينما قامت القوات الفارسية بمحاصرة هؤلاء ، وضيقوا عليهم حتى وجد المجتهدون أن من الأوفق لنجاح حركتهم أن يغادروا طهران الى « قم » . وعندما كانوا في طريقهم الى المنفى حذروا الشاه من أنه اذا لم يصدر دستورا، ويشكل حكومة برلمانية يمثل فيها الشعب فانهم سيفادرون البلاد . وكان هذا التهديد خطيرا حيث أن المجتهد صاحب مكانة دينية كبيرة لدى الشيعة وخروجهم كلهم مرة واحدة سيترك البلاد معطلة من حيث تنفيذ احكام الشرع كما سيؤدي هذا الى تكوين جبهة قوية ضد الشاه خارج البلاد .

وفي طهران استمرت الأزمات بين (عين الدولة) والتجار الذين كانوا يصرون على تضامنهم مع المجتهدين ومع دعاة الإصلاح ، فافلقوا حوائيتهم ، ووقفوا المعاملات التجارية ، وعندما هددهم (عين الدولة) بفتح محلاتهم بالقوة ، طلبوا الالتجاء الى المفوضية البريطانية . وهنا وجدت الحكومة البريطانية أن تقف بجانب الحركة الوطنية ضد الشاه ، فعلا قبلت دخول حوالي ثلاثة عشر ألف مواطن إيراني الى المفوضية البريطانية في طهران . وبدأت وكأنها أصبحت معقل الثوار على الشاه . وأصبحت مكانة

الشاه وحكومته متدهورة بشدة أمام العالم ، ولذلك آثر الشاه مرة أخرى أن يوافق على طلبات الثوار ، فأبعد (عين الدولة) عن الحكم ، وأسس نظاما قضائيا حديثا ، وعمل على عودة المنفيين في (قم) .

اما وقد تراجع الشاه أمام الثورة ، فعلى الثوار أن يخطوا الخطوة التالية الأكثر أهمية وهي التركيز على مطالبة الشاه بأن يصدر دستورا للبلاد، وان يدعو مجلسا برلمانيا منتخبا الى الانعقاد .

ولم يكن الانجليز فقط هم الذين يؤيدون هذه الحركة الدستورية ، بل كذلك كانت السفارة الروسية تؤيد هذه الحركة . وذلك نتيجة لتطورات وقعت في داخل روسيا نفسها . فقد هزمت روسيا في حربها ضد اليابان (١٩٠٤ / ١٩٠٥) ، واشتدت المطالبة من جانب الشعب بتحقيق حكم برلماني . وكان هناك سبب جوهري آخر يدفع الروس الى التعاون مع الحركة الدستورية في ايران . فقد كان نجاح رجال السفارة البريطانية في جذب تلك الأعداد الغفيرة من الايرانيين التقدميين اليها، يعني أن تلك السفارة أصبحت حامية للدستوريين ، فتصبح في أعين الشعب الإيراني في مستوى أعلى من مكانة السفارة الروسية .

ولقد كان الدور الذي لعبه رجال السفارة البريطانية — في هذه الأزمة بين الشاه وشعبه — كبيرا . فلقد رفض الدستوريون التفاوض مباشرة مع الحكومة ، وبعد وساطة الممثل السياسي البريطاني في طهران أصدر الشاه أول فرمان بشأن الحياة البرلمانية في البلاد ، ذهب مارك سايكس — في كتابه عن فارس — الى مقارنته بالعهد الأعظم الانجليزي الذي صدر في منتصف القرن الثالث عشر . وقد ورد في فرمان الشاه سالف الذكر أنه من أجل طمأنينة الرعية وسلامتها ، ومن أجل تقوية تماسك مؤسسات الدولة ستجرى اصلاحات شاملة في البلاد .

وفيما يتعلق بالحكم الدستوري أشار الشاه الى الحاجة الى مجلس منتخب من ممثلى الشعب . ولقد حدد الشاه في الوثيقة من له حق الانتخاب وهم : — .

- ١ - الأنسراء .
- ٢ - المجتهدون .
- ٣ - الأسرة القاجارية .
- ٤ - الأعيان .
- ٥ - الملاك .
- ٦ - التجار .
- ٧ - أصحاب الحرف .

كما حدد الشاه مكان اجراء الانتخابات بطهران .

وحدد الشاه اختصاصات هذا المجلس التمثيلي، بأن له الحق في الاستفسار والبحث والتدقيق في كل أمر يتعلق بمصالح البلاد والشعب ، وسيقدم المساعدة اللازمة لمجلس الوزراء في مجالات المشاريع التي تخدم تقدم الشعب ورفاهيته .

وحدد الشاه كذلك اسلوب تقديم توصيات وقرارات المجلس التمثيلي ، اذ اصر بالشاه على أن تقدم اليه مثل هذه التوصيات عن طريق رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ليقعها الشاه حتى تصبح سارية المفعول .

ان هذا فرمان الشاهاني في الواقع يضع بداية هزيلة للحكم الدستوري . فالمجلس المنتخب سيكون العوبة في يد الشاه ، حيث أن من له حق الانتخاب معظمهم من انصار الشاه .

ومن ناحية اخرى ، كان الشاه يضع في يده حق اصدار التشريعات ، وبذلك يستطيع أن يشل عمل المجلس . ان قيمة هذا (العهد الأعظم) هو أنه فتح باب العمل الايجابي في اتجاه الحكم الدستوري ، وباب تكوين الأحزاب السياسية .

وفعلا صدر الدستور ، ولكنه ظل تحت سيف الشاه ورجاله ، الأمر الذي سيؤدي الى تعقيد المواقف في ايران بعد ذلك .

ويجدر بنا هنا أن نشير الى وجهة نظر أوروبية شبه محايدة الى ذلك الدستور التي أصدره الشاه مظفر الدين ، والى التطورات التي لا يست اصداره .

يقول المؤرخ الفرنسي رنوفن :

« الم يضمن دستور ٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٠٧ الحريات الشخصية والحريات السياسية ، ويعلن مبدأ فصل السلطات ، وينشئ حتى نظام برلماني ؟ » والحكومة الم تستدع مستشارين اجانب لاعادة تنظيم المصالح الادارية ، والقانونية والمالية ؟ ولكن هذا التقليد ظل سطوحيا . ولكي نقيس التشويه الذي يصيب الآراء السياسية الأوروبية ، يكفي أن نرى مدى ثقل السلطات الدينية ، في الحياة البرلمانية الفارسية : فالدستور كان يمنح للعلماء حق الاعتراض على القوانين التي يصدرها المجلس الوطني ، في حالة اذا ما رأوا أن هذه القوانين التي يصدرها المجلس الوطني تتعارض مع المبادئ المقدسة للإسلام » (١) .

وفي اعتقادنا أن المشكلة هنا ليست في اعتراض رجال على بعض القوانين المنافية بالتشريع الاسلامي ، ولكن في مدى استخدام رجال الدين لهذا الحق وفرض اتجاهاتهم السياسية — تحت ستار الدين — على البلاط والشعب خاصة وأن رجال الدين — رغم أنهم كانوا في طبيعة الثوار ضد الشاه — لم يكونوا حينذاك قد بلغوا درجة من العلم الحديث ما يمكنهم من احداث نقلة حضارية في البلاد الفارسية .

كذلك نلاحظ أن رجال الدين بتعاونهم في ذلك الوقت مع التجار ضد الشاه قد وضعوا أنفسهم — دون ادراك حقيقى — في خدمة مصالح الرأسمالية الوطنية المتعاونة مع المؤسسات الأجنبية الاستعمارية في ايران .

وعلى أى حال ، لم يعيش الشاه مظفر الدين بعد توقيع الدستور الا فترة قصيرة ، فقد كان اشتد عليه المرض حتى انه حضر حفلة افتتاح المجلس التمثيلي بصعوبة بالغة . وبعد وفاته أسند العرش الى الشاه محمد على (يناير ١٩٠٧) . وكان أن دخلت الحركة الدستورية الوطنية في مرحلة جديدة ودقيقة .

كان محمد على شاه يدرك أن التطور الدستوري يعنى أن عمر اسرة القاجار في الحكم أصبح قصيرا ، وكان في نفسه يرى أن الحكم المطلق هو الخير لبلاده ، وبالتالي فعليه أن يركز كافة السلطات في يده لا في اية مؤسسة أخرى، ولهذا عمل على تعطيل المجلس النيابي

(١) يقصد الشريعة الاسلامية .

وعلى إلغاء الدستور ، وكان يدبر القضاء على البرلمان وعلى الحركة الدستورية عندما وقع.
الوفاق الروسى البريطانى بشأن اقتسام فارس (١٩٠٧) .

كانت الهزيمة الكبيرة التى منيت بها روسيا على يد اليابان ، عاملا جوهريا فى أن.
تركز روسيا جهودها التوسعية فى اتجاه فارس بالذات . وكان هذا الاتجاه الروسى يعنى.
حربا بين روسيا وبريطانيا اذا وصلت الأمور الى حد المواجهة . وكانت روسيا وكذلك.
بريطانيا لا ترغبان فى وقوع هذا الصدام بينهما . حيث أن وقوع حرب بين بريطانيا.
وروسيا سيجعل العلاقات البريطانية الفرنسية فى منتهى التدهور . وهو أمر كانت.
تتجنبه الحكومة البريطانية خاصة منذ أن عقدت مع حكومة فرنسا الوفاق الودى ١٩٠٤
الذى يطلق يد فرنسا فى مراكش ، ويد بريطانيا فى مصر . ومن ثم كان لا بد من إيجاد.
تسوية معقولة بين القوتين المتنافستين فى ايران . وحيث أن فرنسا كانت متحالفة مع.
روسيا ضد الخطر الألمانى الذى يهددهما معا ، وحيث أن فرنسا كانت متعاقدة مع.
بريطانيا فيما عرف بالوفاق الودى ، قامت الحكومة الفرنسية بدور الوسيط بين.
الحكومتين الروسية والبريطانية لتسوية ما بينهما من مشاكل بنفس الطريقة التى أدت.
الى تسوية ما بين بريطانيا وفرنسا من مشاكل فى ١٩٠٤ .

وفوق هذا وذاك ، كانت بريطانيا قد أدركت تماما أن الخطر الحقيقى الذى يهددها،
هو نمو قوة ألمانيا البرية والبحرية ، وبالتالي فإن وقوع أى صدام بين بريطانيا وروسيا،
فى أية منطقة احتكاك بينهما لن تخدم إلا المصالح الألمانية . فكان أن عازمت كل من.
الحكومتين البريطانية والروسية على تسوية المشاكل المعلقة بينهما فى فارس عن طريق.
اقتسام مناطق النفوذ فيها ، وصدرت بيانات بذلك فى ١٨ ، ٣١ أغسطس ١٩٠٧ .
والطريف أنه فى هذه البيانات تصر على تأكيد قوى ووطيد بشأن احترام سلامة واستقلال.
فارس ، وتنتقل من هذه التأكيدات الى اقتسام فارس ، الجزء الشمالى لروسيا ،
والجنوبى لبريطانيا ، وقسم فى وسط البلاد للشاه . وهكذا كان مصير القوى الشرقية.
بصفة عامة لأنها لم تكن على مستوى قوة الدول الأوروبية عسكريا أو اقتصاديا أو.
حضاريا .

حقيقة كانت أغلبية الشعب لا تضع ثقتها فى القوى الأجنبية ولا فى الشاه وبلاطه.

وانما كانت الجماعات المثقفة فقط هي التي ترى في المساندة الأوروبية قوة تستطيع (الاعتماد) عليها ضد سياسة الشاه الجديد الاستبدادية . ولهذا مرة أخرى وضعت السفارة البريطانية يدها في يد التقدميين ضد الاستبداد الشاهاني . وتعطى هذا عندما احتدمت الأزمة بين الشاه محمد علي والمجلس النيابي بشأن حق الأخير في مناقشة القضايا المتعلقة بخزينة الدولة في الوقت الذي كانت فيه أنباء الوفاق الودي البريطاني الروسي قد أصبحت معروفة في الأوساط الدولية والإيرانية . لقد عرفت السفارة البريطانية كيف تنفذ هذا الوفاق الودي بين روسيا وإنجلترا في نفس الوقت الذي احتفظت فيه بالتعاون بين التقدميين والسفارة البريطانية في طهران . هذا الاتجاه العام الانجليزي نحو تأييد تلك الحركة الدستورية الوطنية ضد الشاه جعل الحكومة الروسية ترى أن من مصلحتها أن تقف الى جانب الشاه ضد الدستوريين ، وذلك في لعبة توازن القوى بين الدولتين المتفقتين على استغلال فارس .

ومن ثم كان هذا التقسيم في القوى الوطنية هو جزء من السياسة العامة التي كانت تطبق في إيران على يد الانجليز والروس . وليس معنى هذا أن الانجليز بسبب اتجاهاتهم البرلمانية ، وبسبب إيمانهم بالتححرر على أسس دستورية هو الذي دفع الانجليز الى الوقوف بجانب الحركة الدستورية الناشئة في إيران وليس بصحيح أيضا أن روسيا وقفت بجانب الشاه لأنها كانت تؤكد على حقوق الملك في الحكم والسيطرة . ان المسألة لا علاقة لها بتلك الأمور الا من حيث المظهر . فكأساس لا يمكن أن يتفق الاستعمار مع الحكم البرلماني ، فهما على طرفي نقيض . ان السياسة البريطانية المؤيدة للحركة الدستورية مجرد اساليب للتحكم والسيطرة البريطانية على البلاد ، ولقد سبق ان قامت حركات برلمانية أكثر تقدما من تلك التي ظهرت في إيران ، ووقفت بريطانيا بكل قوة وعنف ضدها . بل لقد حشدت بريطانيا جيوشها وأساطيلها للقضاء عليها وتم لها ذلك فعلا في مصر عندما قامت الحركة العربية بزعامة أحمد عرابي مطالبة بالحكم الدستوري . في البلاد لمدة نصف قرن تقريبا .

ان الهدف الانجليزي الروسي كان استمرار التقسيم الاستعماري لإيران ، ولا قيمة لطبيعة العلاقات الروسية أو البريطانية بالقوى الحاكمة أو المحكومة الا من حيث تأثيرها على استمرارية هذا التقسيم .

لم يكن في استطاعة الشاه محمد على أن يوقف الحركة الوطنية ، أو يوقف سيل المنشورات المتدفق عبر الحدود العراقية الايرانية . فقد تحولت العتبات المقدسة الشيعية في العراق الى مراكز ثورية شديدة الوطأة على الشاه وبلاطه ، وعلى روسيا وبريطانيا . وكانت هذه هي أعقد العضلات التي تواجه الشاه ورجاله ، وطالبت الحركة الوطنية والمجلس النيابي الشاه بأن يستبعد مستشارية الدين وضعوا البلاد على حافة الاحتلال الكامل . وكان الشاه يترك أن هدف المجلس هو أن يفرض كلمته عليه ، وكان الشاه مستعدا لأن يبعدهم ولكن في مقابل ذلك طالب رجال الحركة الوطنية أن يوقفوا الحملة العنيفة التي يشنونها ضده في الصحف ، وفي مختلف مجالات الدعاية . وفي مثل تلك الظروف — التي يجد فيها الجناح الدستوري تأييدا من جانب الانجليز ، ويجد الشاه تأييدا من جانب الروس — لا يمكن التوصل بسهولة الى اتفاق نهائي خاصة وأن الشاه كان مستعدا لأن يسحب كلمته في أية فرصة تحين له لتوجيه ضربة قاضية للحركة الوطنية .

ولذلك وجد الشاه أن الفرصة مواتية لضرب الحركة الوطنية عسكريا ضربة سريعة حتى لا تكون لديها الفرصة لتمويل المعارضة الدستورية ، والمظاهرات الى حركة مسلحة ضده . وكان مستشارو الشاه يؤكدون له باستمرار أنه كلما تأخر في ضرب الحركة الوطنية عسكريا اعطاها الفرصة لتوطيد نفسها وتكوين قوة تستند اليها ضد قوات الشاه ، خاصة وأن السفارة البريطانية مستعدة لتمويل الحركة الوطنية بالأموال والسلاح .

استعد الشاه ليضرب ضربته ، وقوى صلاته بالدوائر الروسية التي كانت ترى في انتصار الشاه انتصارا لسياستها هي في ايران على المنافس الآخر (بريطانيا) . والواقع ان بريطانيا كانت معنية بتطورات الأحداث في طهران بدقة ، ولكن دون أن تتحرك بقوة طالما كانت المسائل محصورة بين الشاه والدستوريين . ولكن خلال استعدادات الشاه لضرب الحركة الوطنية في طهران بدأت الأمور تسير مرة أخرى نحو التعقد ونحو تصادم المصالح البريطانية الروسية في المنطقة .

أراد الشاه أن يوجه ضربته الأولى الى الوزراء ، واعادة الحكم كله الى يده هو ، فألقى القبض على عدد منهم ، ويقال أنه كان يستعد لتنفيذ حكم الاعدام فيهم ، لولا أن

علمت السفارة البريطانية في طهران بالأمر ، فاسرع أحد موظفيها - المستر تشرشل السكرتير الشرقي بها - الى مقابلة الشاه في قصره ، وظل وراءه حتى جعله يعدل عن تنفيذ انتقامه المروع الذي كان من الجائز جدا أن يثير في كل البلاد الايرانية حركة ثورية ليس من اليسير على الشاه أو على الانجليز أنفسهم السيطرة عليها الأمر الذي يشكل خطرا على الوجود الاستعماري البريطاني (الهادي) . ولكن الشاه ظل يبحث عن الاساليب التي يستطيع بواسطتها القضاء على الدستور وعلى الدستوريين . وقرر في نهاية الأمر أن يستخدم القوة ضد المجلس التمثيلي وبعث بقوة عسكرية ضد المجلس ، وأخذت هذه القوة في ضربه بالقنابل ومع أن الموظفين المدافعين عنه كانوا غير مدربين الا أن حماسهم الشخصي جعلهم يصمدون مدة طويلة نسبيا أمام القصف .

خلال هذه العملية بدت الأمور تتعقد . فقد كان الشاه يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على القوات الفارسية وحدها في تنفيذ عملية ضرب البرلمان . وكان يرى أن استخدام القوات الروسية لا يجعله فقط مطمئنا الى تنفيذ الخطة كما يريد ، وانما يفرس في نفوس المدافعين عن البرلمان بعدم جدوى الصمود أمام قوات روسية مدربة . ولقد وافقت السفارة الروسية على أن تشارك القوات الروسية - التي كانت في خدمة الشاه - القوات الفارسية في تحركاتها وفي استعداداتها ، ولكن كانت تعليمات السفارة الروسية صريحة لقائد القوات الروسية بأن لا يشترك في القتال الا بعد الحصول على موافقة منها .

ان السبب في امتناع السفارة الروسية عن السماح لقواتها الموضوعة تحت يد الشاه في تلك الأحداث يرجع الى اعتراض السفارة البريطانية على ذلك حيث أن الوفاق الروسي - البريطاني يقضى بأن المنطقة الوسطى المتروكة للشاه يجب أن لا تتفوق أي من بريطانيا أو روسيا فيها تفوقا يضر بمصالح الطرف الآخر . وفعلا سارت الأمور حسب ما كانت تريده كل من السفارتين .

لم يؤد ضرب الشاه للمجلس بالمدافع ، وظهوره متفوقا في هذه الحادثة ، الى حسم الموقف بل بات الدستوريون يؤمنون بأن هذا الشاه يجب أن يخلع أو يقتل . وحيث أن الشاه كان موافقا على ترك التفوق الروسي البريطاني في البلاد دون اعتراض من جانبه فقد كان من مصلحة الطرفين الروسي - البريطاني أن تستمر الأزمات الدستورية دون أن تصل الى حد خلع الشاه الا في ظروف ملائمة لمصالحتهما . ولذلك عندما اتجهت بعض

الجماعات السرية الى قتل الشاه بالقاء قنبلة عليه في اول حزيران / يونيو ١٩٠٨ وجهه الطرفان البريطاني والروسي انذارا الى رئيس المجلس النيابي بتحميله مسئولية حوادث العنف ضد الشاه .

وجد الشاه ان فرصته الأخيرة في استعادة حكمه المطلق تتركز في أن يضع نفسه في جانب الروس الذين كانوا يؤكدون له انهم مستعدون للقتال بجانبه ضد الدستوريين . بينما كان الانجليز يقفون بقوة الى جانب هؤلاء . وهذا يفسر لنا لماذا فر الشاه من طهران في اوائل حزيران / يونيو ١٩٠٨ الى قزوین في أقصى الشمال ، وهي منطقة واقعة — بمقتضى الوفاق الروسى — البريطانى تحت تسلط الروس . فيستطيع منها الشاه ان يعيد تنظيم قواته ، ويعيد النظر في امكانياته المالية عن طريق عقد القروض من الروس الذين كان يعتقد انهم لن يخلوا عليه في هذا الموقف . ولقد اثبت الروس انهم فعلا يعملون على تثبيت الشاه محمد على على العرش ، وحثوا الحكومة البريطانية على انتهاج سياسة مماثلة ، وطلبوا منها اصدار بيان مشترك روسى — بريطانى بشأن حماية الشاه وحق الأسرة الفاجارية في العرش . كذلك احتج الشاه لدى الحكومة البريطانية على معوناتا وتأييداتها للحركة الوطنية المتمردة على السلطات (الشرعية) ، وعلى اصرار الحكومة البريطانية وسفارتها في طهران على ضرورة اقامة نظام برلمانى يحد من سلطات الشاه .

ولكن الحكومة البريطانية رفضت أن تسير في نفس الاتجاه الذى كان يريده الروس والشاه . وكانت حجة الحكومة البريطانية في ذلك هي أن الشعب الايرانى يعارض مثل هذه الاتجاهات الاستبدادية . والواقع أن الحكومة البريطانية كانت تؤيد الحركة الدستورية ، خاصة وان هذه الحركة كانت ضد الشاه وضد الروس . كذلك كان الانجليز لا يقدمون الى الدستوريين الا معونات محدودة للغاية ، وتجلى ذلك في موقف السفارة من طلب الدستوريين من الانجليز التدخل ضد الشاه وضد الروس ، خاصة عندما أسند الشاه حكم طهران الى الضابط الروسى لياخوف (١) وعندما اطلق هذا الضابط مدافعه على مجلس النواب وعلى الجامع الكبير في طهران . فقد أكد المسئولون للدستوريين

ان قيمة هذه الثورة اساجحة في هذه المدن الكبرى الفارسية هي انها اثبتت عجز القوات الملكية عن السيطرة بقوة السلاح على الشعب . واثبتت كذلك ان الثوار قادرين على ادارة البلاد التي تقع في يدهم ، ويرفعوا يد الحكم الملكى نهائيا منها اذا ارادوا ذلك . ولهذا كان المظهر انعام للبلاد حينذاك انها تسير نحو حرب اهلية طاحنة . وربما كانت فرصة الشاه اوسع واكثر ملائمة لنجاحه عسكريا ضد الثوار لو كانت الثورة في الشمال فقط ، او في الجنوب فقط . وانما وجد الشاه نفسه امام تحرك عسكري ثورى من الشمال صوب طهران بقيادة سبهدار (١) ، وامام تحرك آخر عسكري من الجنوب الى الشمال بقيادة سردار اسعد زعيم عشائر البختياري الكبرى .

كانت الامور في ايران قد اصبحت على النحو التالى : —

١ — القوات الروسية في الشمال ، شعرت ان الامور ستخرج من يدها بسبب تفوق الحركة الوطنية في رشت وتبريز ، ولذلك تحركت بسرعة الى تبريز ، بحجة حماية ارواح الأجانب فيها ، وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي ان تبريز خرجت من يد الشاه تماما ، ولم تعد معقلا للثوار الا في مجالات محدودة . الامر الذى جعل سردار اسعد يطلب من الطرفين الروسى والبريطانى عدم القيام بتدخلات اخرى في امور البلاد الداخلية . وكان الثوار يأملون في استخدام الانجليز ضد الروس على اعتبار ان الانجليز يرفضون تسلط المباشر الروسى على طهران بالذات . ولقد كان الانجليز فعلا يحذرون الروس من ذلك .

٢ — قامت القوات البريطانية في اتجاه المناطق الفارسية المطلة على الخليج العربى بعمليات عسكرية مشابهة لتلك التى قام بها الروس في شمال البلاد الفارسية . ولكنهم في نفس الوقت كانوا يريدون كبح الحركة الوطنية ، واقناع سردار اسعد بأن الحكومتين البريطانية والروسية تزمعان الضغط على الشاه من اجل القيام باصلاحات تعيد الدستور والمجلس وتوطد الاستقرار في البلاد عن طريق قرض مالى . ولقد وافق الشاه فعلا على اعادة الحياة الدستورية . ولكن المشكلة هي ان الثوار كانوا قد فقهوا الثقة نهائيا في الشاه ، وأصرروا على ان يفرضوا حكمهم على

طهران بقوة السلاح ، ونجحت جهودهم واستولوا على طهران بينما فر الشاه لاجئاً الى السفارة الروسية ، ثم أبعد عن البلاد بعد أن رصد له مرتب سنوي كبير بشرط ألا يعمل على العودة الى البلاد . ورفع الى العرش ابنه الصبي (أحمد) تحت وصاية نائب ملك ، وحاول الشاه المعزول العودة الى العرش ولكنه هزم هزيمة شديدة كانت خاتمة حياته السياسية ١٩١١ / ١٩١٢ .

وحيث أن تقدم الجيوش الروسية الى داخل ايران خلال تلك الأزمة كان يعطى الروس تفوقاً أكثر مما يحتمله الوفاق الودي ، فقد دخلت الحكومتان البريطانية والروسية في مفاوضات أدت الى أن تنسحب القوات الروسية من الأراضي الفارسية لتعود الأمور الى ما كانت عليه من قبل . كذلك عدلت الحكومة البريطانية من موقفها بالنسبة للمنطقة الجنوبية . ولكن ظلت مناطق النفوذ لكل من روسيا وبريطانيا على ما كانت عليه . واضطرت الحكومة الفارسية الى أن تدبر الأمور في هذه الظروف الصعبة .

كانت المشكلة المالية هي اعقد المشكلات التي تواجه الحكم ، وكان هناك اعتقاد عام انه لن يستطيع اخراج البلاد من ورطتها المالية الا اذا اسندت الى خبير اقتصادي مالي كبير . وتجنب الايرانيون أن يسندوا مهمة دراسة واصلاح أوضاع البلاد المالية الى خبير بريطاني أو روسي لحكمة واضحة ، واتجهوا الى أن يطلبوا من رئيس الولايات المتحدة الامريكية تزويد الحكومة الايرانية بخبير يستطيع أن يقوم بتلك المهمة ، فوقع الاختيار على W. M. Shuster شستر ووافقت الحكومتان الروسية والبريطانية على تعيينه في الحكومة الفارسية .

وقصة الجهود التي قام بها شستر في ايران ، وموقف الحكومتين البريطانية والروسية منه تحتاج منا نوعاً من العناية لأهميتها في فهم سياسة هاتين الدولتين من محاولات الوزارة والمجلس التمثيلي لانقاذ اقتصاديات البلاد .

كان شستر يشعر أن طبيعة كونه امريكياً تعطيه ميزة كبرى من حيث القدرة على التصرف بقوة دون أن توجه اليه تهمة العمل لمصلحة القوى الاستعمارية . وكان هذا صحيحاً الى حد كبير، خاصة وأن الوزارة والمجلس وافقا على أن تعطى له كافة الصلاحيات

والسلطات التي تمكنه من القيام بواجبه على خير وجه ، وكان شستر قد درس أوضاع إيران المالية والاقتصادية ، وحيث أن مهمته كانت انقاذ البلاد من تدهورها الاقتصادي ، فإن الاعتبارات الاقتصادية هي التي أولاهها كل عناية حتى لو اصطدمت مع الاعتبارات السياسية الخاصة التي كانت تفرض نفسها على إيران فرضا بواسطة الحكومتين الروسية والبريطانية . وكان شستر يعتقد أن الإصلاح الاقتصادي لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق وضع برنامج يسلب من كل من السفارتين البريطانية والروسية امكانيات التحكم في اقتصاديات المناطق التي تحت أيديهما بمقتضى الوفاق الروسي - البريطاني لعام ١٩٠٧ .

عقد شستر سلسلة من الاجتماعات مع المسؤولين الفرس ، وأبدى خلالها ملاحظات معينة جعلت هؤلاء المسؤولين أكثر تشبثا به لأنه وضع مصالح البلاد فوق أية اعتبارات أخرى، وهو من جانبه كان حريصا على أن يحصل من المسؤولين لا على تفويض بصلاحيات واسعة فقط وإنما كذلك بعدم وضع عقبات في وجه الخطوات التي يقدم عليها، وهدد بأنه في حالة شعوره بأن هناك عقبات تلقى في طريقه لن يتوانى عن أن ينفذ يده من المسألة كلها .

كان شستر يرى أنه لا بد من أن يزود بقوة صغيرة ترافقه في عملياته التفتيشية ، واقترح اسناد قيادة هذه القوة الى الملحق العسكري السابق في السفارة البريطانية . وما كان الروس ليوافقوا على مثل هذا الاقتراح الأمر الذي جعل شستر يتغاضى عن هذا الطلب .

كانت مهمة شستر تقتضى منه اجراء عمليات تفتيشية في المنطقة الشمالية الواقعة تحت النفوذ الروسي طبقا للوفاق الودي لسنة ١٩٠٧ . ومن هنا بدأت المشاكل المعقدة تواجه مهمة شستر . فقد كان مجرد قيام شستر بمهمة في منطقة النفوذ الروسي كفيلا بأن تنقص من هيبة الوجود الروسي في تلك المنطقة خاصة وأن شستر كان يبلى اصرارا على تجاهل هذا الوجود ، وحصل من وراء ذلك على تأييد الوطنيين الفرس ، وبدأ كأن حركة شستر تسير الى أن تصبح جزءا من الحركة الوطنية الأمر الذي لا يهدد الوجود الروسي فقط بل كذلك الوجود البريطاني .

تحركت الحكومتان البريطانية والروسية بسرعة ، وتفاوضا بشأن ما سيترتب عن أعمال شستر في إيران ، واتفقتا على تنفيذ سياسة مشتركة ضده ، فلم تكتف الحكومتان بمنعه من القيام بجولاته التفتيشية اللازمة لاتمام مهمته ، بل تقدمتا بمذكرة رسمية الى رئيس الوزارة الايرانية طلبتا فيها انهاء خدمات شستر .

كانت هذه المذكرة تحديا بريطانيا روسيا لسلطات الوزارة الفارسية ، وكانت عملا صارخا من أعمال التدخل في أدق شئون البلاد الداخلية ، وكان قبول هذا المطلب الروسى البريطانى يعنى أن الوزارة الايرانية ليست سوى جهازا للحكم المحلى لا يستطيع أن يبرم شيئا من تلقاء نفسه . ولقد كانت حكومتا بريطانيا وروسيا تريدان ذلك فعلا ، ولا تتورعان عن استخدام القوة لفرض ذلك على الوزارة ومجلس النواب الفارسى .

ونظرا لخطورة ما سيترتب على انصياع الحكومة لمطالب الحكومتين البريطانية والروسية دارت مباحثات متعددة الجوانب بين مجلس الوزراء الايرانى وزعماء الحركة الوطنية الدستورية وأعضاء المجلس التمثيلى للنظر في هذا الموقف الذى جعل طهران ايضا تحت رحمة الدولتين المتنفذتين في إيران .

وظهرت في مجلس العموم البريطانى أصوات تدافع بعض الشئ عن حق إيران في النظر في مثل هذه الأمور الداخلية الخاصة بها بعيدا عن التدخلات الروسية البريطانية ولكن وزير الخارجية البريطانية أكد أن لتدخل الانجليزى الروسى انما يهدف الى عدم وقوع اصطدام بين بريطانيا وروسيا في إيران ، والى منع تجدد المنازعات بينهما هناك . ولقد صرح وزير الخارجية البريطانية بأن شستر قام بما أملاه عليه واجبه ، وأنه لم يكن مدفوعا بدوافع سياسية عندما كان يقوم بجولاته التفتيشية في الأراضى الايرانية الواقعة تحت النفوذ الروسى بمقتضى الوفاق الودى لسنة ١٩٠٧ ، ولكنه لم يراع خلال ذلك الاعتبارات الخاصة التى أصبحت تؤثر على أحوال وأوضاع فارس نتيجة لعقد ذلك الوفاق الودى . وبين وزير الخارجية البريطانية انه وجد نفسه في موقف شديد الحرج ازاء حكومة روسيا عندما كان شستر يشن عليها حملة دعاية شعواء بسبب مسلكها المعارض لمهمته في المناطق الايرانية الشمالية ، ومحاولتها منعه من اتخاذ أية اجراءات لا تتفق مع السياسة والأهداف الروسية هناك .

وفي معرض الحديث هذا ، فسر لنا وزير الخارجية مفهومه لاستقلال فارس . ولعله اضطر الى ذلك لأن مقنعة الوفاق الودى تنص على ضرورة احترام سلامة واستقلال ايران ، فقال ان استقلال فارس يجب أن يراعى بقدر ما تراعى مصالح ما يجاورها من الدول وهكذا تكون المراعاة المطلوبة تعنى وضع فارس تحت سيف التسلط البريطانى الروسى . وذهب فى تحليله فى هذا الصدد الى انه لولا الوفاق الودى لعام ١٩٠٧ لكان استقلال فارس متعرضا لأخطار أكبر من تلك التى يتعرض لها فعلا بعد عقده .

وأوضح وزير الخارجية البريطانية بصراحة انه اذا كان من حق حكومة فارس أن تخلص نفسها من ذلك الشاه المعارض للحركات الاصلاحية فى البلاد ، فليس لها الحق فى أن تتخلص من النفوذ الروسى ، وانما عليها أن تتخذ فورا سياسة ودية ازاء روسيا .

بهذا المنطق يرى وزير خارجية بريطانيا أن الاحتلال الثنائى البريطانى الروسى لفارس خير لفارس من أن تحتلها دولة واحدة . والحقيقة هى أن الأمور فى كلتى الحالتين فى منتهى السوء ، ويبرر وزير الخارجية البريطانية فى نفس الوقت حق حكومته فى احتلال أجزاء فارس الجنوبية على اعتبار ان ذلك نتيجة حتمية لمراعاة فارس لمصالح الدول المجاورة لها ! .

كذلك يعلل وزير الخارجية البريطانية هذا التصلب فى تأييد روسيا فى موقفها من قضية شستر بأنه كان يرى أن صداقة روسيا لبريطانيا يجب أن تستمر قوية ، وأن لا تعكرها مثل هذه الأمور البسيطة ، اذ أن بريطانيا فى حاجة ماسة الى روسيا لمواجهة قوة المانيا النامية ، وأنه مسئول عن تقوية الوفاق الودى وليس عن اضعافه .

لقد وجدت الحكومة الفارسية ، وكبار المسئولين فى البلاد أن الضغط الروسى شديد ، وأن بريطانيا تقف باصرار الى جانب روسيا ، بل هددت روسيا بأن تبعث بقواتها الى طهران ان أصرت الحكومة الفارسية على التمسك بشستر ، وحاولت الحكومة الفارسية أن تصل الى اتفاق ما يحفظ لايران كرامتها دون جسدوى . ومع أن المجلس

التمثيلي رفض الرضوخ لهذا التدخل الصارخ في أدق أمور البلاد الداخلية فقد حققت كل من الدولتين أهدافهما عن طريق اقناع شستر نفسه بمغادرة البلاد .

اما المجلس التمثيلي الذي ظل متشبثا بموقفه من هذه القضية فقد تخلصت منه أيضا الدولتان المتنفذتان (بريطانيا وروسيا) اذ لم يلبث أن صدر قرار حله . ولم ينعقد المجلس الا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وفي جلسة الانعقاد هذه ألقى الشاه الجديد الشاب خطاب العرش الذي أكد فيه وقوف فارس على الحياد خلال هذه الحرب .

★ ★ ★

الفصل الثامن

نهاية الأسيرة الفاجارية

تعتبر ظروف الحرب العالمية الأولى ، والأزمات التي تعرضت لها إيران خلالها المقدمة الطبيعية لسقوط هذه الأسرة القاجارية التي كانت تحنصر منذ ثورة ١٩٠٦ ومنذ الوفاق الروسي البريطاني .

حقيقة وقفت الحكومة الإيرانية خلال الحرب العالمية على الحياد . وكانت هي نفسها مغلصة في هذا الموقف . ولكن الظروف العسكرية كانت أقوى من إيران .

فالى الغرب من إيران يقع العراق العثماني الذي أصبح منذ الأيام الأولى من تلك الحرب ميدانا من ميادينها بين الأتراك والانجليز . وكان الانجليز قد أعدوا قواتهم في الخليج العربي للعمل بسرعة في منطقة شط العرب ، وفي منطقة عربستان التي كانت آبار الزيت فيها (عبادان) هي المصدر الرئيسي لتزويد قطع الأسطول البريطاني بالبتروول .

ولقد عمدت السلطات التركية في العراق منذ أن نشبت الحرب الى تحريض قوى العشائر ضد خزعنل خان أمير عربستان الذي اخذ جانب الانجليز ، كما استعدت وحدات من الجيش التركي للتقدم عبر الحدود العراقية الفارسية صوب همدان المدينة الاستراتيجية الهامة التي تمكن الأتراك من بعد ذلك من قطع وسط فارس ، وتستطيع القوات التركية بذلك من منع الزاحف الروسى من الشمال الى الجنوب من الالتقاء بالقوات البريطانية الزاحفة من الجنوب الى الشمال .

وهكذا وجدت إيران نفسها ميدان حرب لم تشارك هي فيها ، وليست لديها الرغبة في هذه المشاركة . ولكن مما لا شك فيه أن مشاعر الشعب الفارسي بصفة عامة كانت ضد الانجليز والروس وكانت مشاعره الى جانب المانيا ، لا حبا في ألمانيا ولكن بغضا للانجليز والروس الذين غدروا بالحركة الوطنية منذ ١٩٠٧ .

ورغم أن عدد الألمان العاملين في فارس كان ضئيلا للغاية فقد كان لهم تأثير محسوس في تحريك بعض القوى الوطنية ضد الانجليز ، سواء أكانت فئات مثقفة في المدن أم كانت عشائر فارسية تضم كراهية شديدة للانجليز . وكانت عشائر البختيارى من أشد القبائل

رغبة في القيام بثورة ضد الروس والانجليز ، وضد الشاه القاجارى نفسه . ولعل شدة الحماس هذه كانت ترجع الى فشل البختيارى في عزل الأسرة القاجارية قبيل الحرب العالمية الاولى ، فتطلعت الى تحقيق هدفها هذا خلال الحرب . ولكن كانت الجهود العسكرية التى بذلها الانجليز ضد البختيارى كبيرة أدت الى القضاء على تحركاتها الثورية ، ولكن ظلت ايران الوسطى والشمالية عرضة للحركات العسكرية المتبادلة بين القوات الروسية والعثمانية ، ولم تتوقف هذه العمليات الا بعد اندحار الجيش العثمانى في العراق خلال ١٩١٧ ، وبعد وقوع لثورة البلشفية في روسيا (اكتوبر ١٩١٧) .

انتهزت بريطانيا فرصة تدهور الجيش التركى في العراق ، وخروج روسيا من الحرب فعملت على أن تراث روسيا في المنطقة الشمالية من ايران . ان هذا التحرك الانجليزى السريع بعد انسحاب الروس من تلك الجهات يشهد لنا أن الوجود البريطانى في جنوب فارس لم يكن مرتبطا فقط بالتنافس البريطانى الروسى في المنطقة وانما كان نتيجة لسياسة استعمارية بريطانية تستهدف السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من فارس كلما سنحت الظروف لذلك ، وعندما توقفت الحرب ، وعقدت الهدنة ، وشرع الحلفاء في إعادة رسم خريطة جديدة للعالم كانت بريطانيا هى صاحبة اليد العليا في ايران سياسيا واقتصاديا وعسكريا .

ففى الفترة الواقعة قبل الحرب العالمية الاولى كانت روسيا وبريطانيا تتنافسان على السيطرة على ايران ، أما بعدها وجدت ايران نفسها بين جارين قوي لا يريد أن يتابع تلك السياسة الاستعمارية التى سار عليها قياصرة روسيا ، لقد أعلنت روسيا السوفيتية أنها لا تقبل أبدا أن تحتل أرض دولة أخرى ، وانها لا يمكن أن تسير فى نفس ذلك التيار الاستعمارى البغيض الذى سار عليه قياصرة أسرة رومانوف ، والذى كان يسير عليه الاستعماريون الانجليز . فاعلنت حكومة روسيا السوفيتية تخليها عن كافة الامتيازات غير الطبيعية التى كانت فارس قد ارغمت على التنازل عنها لروسيا ارغاما ولم يلبث أن أدت المفاوضات التى دارت بين الدولتين الفارسية والسوفيتية الى عقد معاهدة جديدة بينهما في ١٩٢٠ تقوم على أساس الاحترام المتبادل بينهما وعلى أساس احترام استقلال فارس ، والتنازل لها عما سبق أن استولت عليه روسيا القيصرية من اراضى فارسية ،

فكان أن استردت فارس من وراء ذلك أراضى كانت قد فقدتها منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

أما سياسة بريطانيا ازاء فارس فكانت على النقيض من ذلك تماما . كانت بريطانيا قد خرجت من الحرب منتصرة ، وكانت قد أصبحت هي الدولة الأوروبية الوحيدة التى تتحكم فى المنطقة الممتدة من الحدود الصينية شرقا حتى العراق . ورأت أن فى وجود بريطانيا كدولة منتدبة على العراق وتحكم الأسطول البريطانى فى مياه الخليج العربى ، وتعاون الشيخ خزعل — أمير عربستان — معها كل التعاون ، ووجود بعض العشائر التى تميل الى بريطانيا ، كل هذا جعل بريطانيا تسعى الى تحويل فارس الى ما يشبه الدولة التابعة لها عن طريق تكبيلها بمعاهدة تفرض فيها التزامات قاسية على ايران . ونجحت بريطانيا فى سياستها هذه عندما عقدت معاهدة ٩ أغسطس / آب ١٩١٩ مع الحكومة الفارسية .

نصت هذه المعاهدة — على عادة الانجليز فى معاهداتهم مع فارس من قبل — على الاحترام الكامل المطلق لاستقلال فارس ولسلامة اراضيها .

وأما فى المادة الثانية ، فقد بدأت حكومة بريطانيا تفرض قيودها التى تؤدى بالتدريج الى جعل ذلك الاستقلال مجرد حبر على ورق . فقد نصت المادة الثانية على أن تزود الحكومة البريطانية مختلف الادارات وأجهزة الحكم فى فارس بالخبراء والمستشارين الذين سيتمتعون بصلاحيات معينة تجعل كلمتهم هى النافذة فى دوائر العمل الحكومى .

وحددت المادة الثالثة بريطانيا بانها هى التى تزود الجيش الفارس بالضباط والمدربين والأسلحة والذخائر ، أو بمعنى آخر يصبح تحت سيطرة الانجليز .

وفى المادة الرابعة قدمت بريطانيا قرضا لفارس لتمكينها من القيام بالاصلاحات اللازمة المشار اليها فى المواد السابقة بضمان دخل الجمارك وبذلك تكون المسائل الاقتصادية تحت سيطرة بريطانيا .

واذا اضيف الى هذا أن شركة البترول التى تستغل آبار الزيت فى عربستان بريطانيا ، فيمكن القول أن مقدرات ايران الاقتصادية كانت فى يد بريطانيا أيضا .

أما المادة الخامسة فقد أشارت الى رغبة بريطانيا في المساهمة في مشروعات مد
المواصلات الحديدية عبر فارس من أجل رفع مستوى فارس الاقتصادى .

وبصفة عامة فهذه المعاهدة واحدة من المعاهدات غير المتكافئة التى تنتج عن فرض
دولة كبرى لما تريده على احدى الدول المهيضة الجناح .

وكان طبيعيا أن يعمل الشعب على تخليص نفسه من هذه المعاهدة . ووجد الشعب
في روسيا السوفيتية قوة نقد شديدة لتلك المعاهدة . كما أن الدول الأوروبية انتقدت
بريطانيا بشدة لأنها انفردت وحدها بالسيطرة على فارس ، وكان هذا النقد موجهًا
لبريطانيا لا حبا في تخليص ايران من التسلط البريطانى ، وانما محاولة لمشاركة بريطانيا
في بعض مكاسبها هناك . ولا شك أن تلك المقارنة بين المعاهدة الايرانية - الروسية ،
والمعاهدة الايرانية - البريطانية كفيل بأن يؤجج الحركة الوطنية ضد حكومة الشاه أحمد
التي قبلت على نفسها معاهدة مذلة مع بريطانيا في الوقت الذى كان باستطاعتها أن تقاوم
وأن تفرض على بريطانيا شروطا تحقق أمانى البلاد الوطنية . وأدى هذا الى تحرك وطنى
في داخل البلاد ، الا أن الجيش كان قد أصبح في يده مفتاح السيطرة على البلاد . ولم تعد
الثورات المحلية قادرة على التفوق على الحكومة والشاه طالما كان الجيش مطيعا له ، ومن
هنا كان ظهور ضابط مثقف مصلح من داخل الجيش هو السبيل الممكن لتغيير اوضاع
البلاد .

كان رضا بهلوى ضابطا من ضباط فرق القوزاق ، وكان من المطلعين على الفكر
الغربى ، ومن الناقمين على تخاذل الشاه وحكومته أمام الانجليز . وكان أن تم تحالف
بين رضا خان ووطنى آخر شديد الحماس هو ضياء الدين طباطبائى ، وزحف رضا خان
بقواته الى طهران ، وسيطر عليها بعد عدة اشتباكات (شباط / فبراير ١٩٢١) ، وفرض
رضا بهلوى على الشاه حكومة جديدة اسندت الى ضياء الدين ، وتولى فيها رضا بهلوى
وزارة الحرب .

عمل ضياء الدين على تطهير الأداة الحكومية ، وتعقب الذين اثروا على حساب
الشعب ، فصادر أموالهم ، وتعاون مع رضا بهلوى في تقوية الجيش ورفع مستواه .

كانت السيطرة على طهران ، وفرض حكومة على الشاه لا تعنى أن الأمور استقرت

وان البلاد مقبلة على عهد جديد دون عقبات من جانب العصبية المحلية القوية . فقد كانت هناك الاقاليم تكرر الحكومة المركزية القوية ، ولذلك كانت هناك ولايات شديدة في مقاومتها للحكومة المركزية الجديدة ، وبوجه خاص : —

١ - جيلان ، ذات التاريخ الطويل من التمردات .

٢ - اذربيجان ، وهى كذلك منطقة صعبة المراس ، بسبب ما تحتويه من عناصر كردية كثيرة ، استطاعت أن تعلن قيام جمهورية كردية .

ان مثل هذه التمردات الداخلية في مثل هذه الولايات الصعبة الحكومة جهدا كبيرا ، وضحايا كثيرين من الجانبين . ولقد كان رضا - يفرض كلمة الحكومة في كل اجزاء البلاد حتى يستطيع بعد ذلك من ادخال اصر عامة فيها . فخاض رضا خان سلسلة من المعارك ضد القوى المتمردة ، استطاع بـ يفرض هيبة الحكومة الى معظم اجزاء ايران .

استطاع رضا خان ان يسيطر على جيلان واذربيجان ، كما استطاع ان يضرب بقوة ثورة في لورستان ، ليركز جهوده من بعد ذلك في اخطر خطوة وهى فرض الحكم المباشر الفارسي على اقليم عربستان الذى كان تحت حكم خزعل خان ، وهو امير عربى استمر في حكم امارته شبه مستقل منذ اواخر التسعينات من القرن التاسع عشر ، وكانت القيمة الكبرى لامارته (عربستان) انها تحتوى على أغنى مصادر البترول في المنطقة فضلا عن ان هذه الامارة تتحكم في طريق شط العرب التجارى الاستراتيجى .

ولا شك ان خزعل خان اعتمد خلال الفترة السابقة على تأييد الانجليز له ، ولهذا عندما وافق الانجليز على توسع رضا خان في عربستان - بعد ان حصلوا منه على بعض التنازلات - تخلوا عن صديقهم خزعل خان ، فبات وقوع امارته في يد الفرس امر وقت ، وتمكن رضا خان من احتلالها فعلا في ١٩٢٥ .

ان الجهود التى قام بها رضا خان خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ - ١٩٢٥ جعلته رجل فارس الاول ، وكان الشاه قد غادر من قبل البلاد الى أوروبا ، وانتشرت في البلاد موجة من الاشاعات القائمة على اساس - تقول ان رضا خان هو شاه البلاد ، ولا يتبقى

من تنفيذ ذلك سوى تتويجه • وعندما ظهرت اتجاهات نحو عودة الشاه من أوروبا إلى فارس ، قامت التمردات ضد عودته ، وترددت بقوة الدعوة إلى خلع أحمد القاجاري ، وتحت ضغط الحركة الوطنية ، تقرر خلع وأعلن المجلس التمثيلي رضا بهلوي شاهًا على إيران في أبريل / نيسان ١٩٢٦ ، وبذلك انتهت الأسرة القاجارية ، وحل محلها رضا بهلوي الذي استمر في الحكم حتى ١٩٤١ وتوفي في ١٩٤٤ وخلفه في ١٩٤١ ابنه محمد رضا شاه • وسنتناول في دراسة مقبلة بأذن الله تاريخ إيران المعاصر منذ الحروب العالمية الأولى •

★ ★ ★

الباب الثالث

مسلمو الهند

الهند مثل بقية البلاد الحضارية تطورت من الحياة البدائية الى العصور الحجرية
فالعصر النحاس والبرونز والحديد ، ومن شعوب محلية وفدت عليها شعوب هاجرت اليها
سواء من الشرق من الملايو أو هبطت الى الهند من الشمال الغربى ، وهى البوابة التى
عبرتها الشعوب المهاجرة الى الهند عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة . فاستقرت
فى الهند العديد من الشعوب ، وهبطت اليها شعوب وافدة استقر بعضها واندمج بعضها .

ومن أشهر الشعوب الأولى التى هبطت الهند من الشمال شعب الدرافيد ، ومن
بعده الآريون الذين سيطروا على شمال الهند وازاحوا الدرافيد نحو الجنوب ، الأمر
الذى يذكرنا بما حدث فى أوروبا فى أوائل العصور الوسطى من هجرات من شرق أوروبا
زحفت الى قلبها دافعة القبائل الأخرى أمامها حتى تغيرت دماء أوروبا . ولقد غيرت
الهجرات العديدة التى هبطت الهند مثل الدرافيد والآريون دماء الهند عبر العصور
القديمة .

وقامت بنفس الدور هجرات أخرى تركية وفدت من وسط آسيا وإيرانية وفدت
من إيران ، سيطرت على النصف الشمالى من الهند .

وهذا النصف الشمالى من الهند يشبه فى مصيره هذا الدلتا المصرية التى تعرضت
لموجات هجرة متتالية عبر العصور بينما ظل صعيد مصر أقل تأثرا بتلك الهجرات مثله
فى ذلك مثل وسط وجنوب الهند .

حقيقة حافظت بعض الشعوب فى الهند على كيائها الا أن العديد من الشعوب فى
الهند تمازجت ، ولكن بدت الهند معظم العصور القديمة وكأنها قطعة متعددة الشعوب
متعددة اللغات ، على أن الآريين القدامى والعناصر التركية والإيرانية التى هبطت الهند
أعطت للهند شكلا (آريا) بل وشكلا ثقافيا قريبا من الثقافة الفارسية ، ومن أبرز هذه
الملامح ذلك الشبه الواضح بين اللغة السنسكريتية واللغة الفارسية .

وكان الآريون يعبدون عناصر طبيعية بحثا عن الاله الأعظم ، فاله الشمس يعبر
السماء من مشرقها الى مغربها باعثا الحياة لما هو على الأرض ، وكأننى بهم على مقربة

شديدة من الاله (رع) وسفن الشمس ومعابد الشمس وكهنتها في مصر . وما فضل
أنهار الكنج والسند على الحضارة في الهند الا مثل فضل النيل عليها في مصر ، فكان أن
عبدوا الأنهار ، وقدم الهنود البقرة بينما قدم المصريون القدامى الثور (ايبيس) ،
والبقرة (حتحور) الا أن الهنود قدسوا النار تقديسا لم يعرفه المصريون ، وعرف الهنود
بعبادة النار .

ويسوقنا مجال التشابه بين العقائد والتقاليد في كل من الهند ومصر الى
اسطورتين خالدين لزوجتين هما سافترى وسيتا في الهند عن وفاء المرأة لزوجها
ومثيلتهما اسطورة ايزيس الوفية لأوزوريس في مصر . حتى أن الطريقة التي أقدمت
عليها (سيتا) لاثبات طهارتها ووفائها لزوجها لا تزال معروفة في مصر باسم (البشعة)
أي أن يلحق المتهم النار فان لم تحرقه اثبت أنه بريء . أما قصة سيتا فقد عبر بها الاله
النار فكانت بردا وسلاما على سيتا ، ذلك ما كانوا يعتقدون .

ولديهم من الأساطير ما يتحدث عن رحلة خيالية من الأرض قام بها ارجونا الى
السماء ، وكان لديهم في تاريخهم الأسطوري ما يشبه الاسراء والمعراج . ولديهم من
مبادئ الفرسان الآريين من شهامة والدفاع عن المرأة والحق ما يشبه مبادئ فرسان
العصور الوسطى في أوروبا .

على أن الهندوسية هي من أقوى المظاهر الحضارية في الهند ، وكانت الهندوسية
لا نبى لها وعبرة عن عبادة الآلة والأصنام زلفى ، حتى تحولت الى فكرة فلسفية . وكان
براهما ابو الآلهة ، والملوك كأنهم آلهة ، وأعلى مراتب التدين هو الوصول الى النرفانا .
وكتبهم المقدسة (الفيد ، البراهمانيات ، الاوبانيشاد) بالسنسكريتية . وبعد التعدد
الكبير للآلهة قصروهم على عدد محدود وتوصلوا في آخر المطاف الى أن (الروح الكونية)
تشمل الكون بأسره ، وأن الأرواح تتناسخ .

حقيقة لا تزال الهندوسية هي الأقوى في الهند ، ولكنها عبر العصور القديمة
والوسطى تعرضت لمعتقدات أخرى انتشرت على حسابها وان انتهى الأمر بها الى الضعف
بالقياس الى الهندوسية ، ونقصد بذلك بصفة خاصة (البوذية) ومؤسسها جوتاما
(٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م) الذي ثار على الهندوسية سواء من ناحية الفكر الدينى او من
ناحية الفكر الاجتماعى .

فقد كانت الهندوسية طبقية ، الكهنة البراهمة يمثلون الطبقة العليا ، فالكاهن
البراهمي الحق ينتهي الأمر به الى الاتحاد بالاله الأعظم (براهما) والنبوذون في
المجتمع فقدوا الكيان الانساني فحرام على الانقياء الاتقياء الهندوس حتى مجرد لمسهم .

أما بوذا وتعاليمه فقد رفضت هذه الطبقة ، وهاجمتها بشدة فأقبل عليه
النبوذون بصفة خاصة حيث وجدوا آدميتهم وانسانيتهم في تعاليم بوذا ، ووجد بوذا ان
اللغة السنسكريتية لا تقدمه للعامة فتحدث اليهم بلغتهم . ورفض كتب الهندوس
المقدسة ورفض الهتهم ، وأصبح للناس مرشدا بشرا زاهدا داعيا الى الفضائل الثمانية
التي لو اتبعها الانسان لحقق أسمى ما تسعى اليه البشرية الا وهو انتشار البشرونة
التعاسة والشقاء ، ولا يتم ذلك الا بالعمل ، فما تزرعه هو الذي يقدم حصادا ، أما
القرايين والتراتيل فما هي بقادرة على أن تنقذ انسانا من تعاسته .

وهذه الفضائل الثمان أو الطريق المثلث :

- | | | | |
|-----------|-------------|-------------|------------------|
| ١ - الفهم | ٢ - التفكير | ٣ - التأمل | ٤ - الكلام |
| ٥ - العزم | ٦ - العمل | ٧ - المجهود | ٨ - الحياة الحقة |

انتشرت البودية عبر عدة قرون انتشارا واسعا في الهند ، وتراجعت أمامها
الهندوسية ، ثم أخذت البودية تتراجع أمام الهندوسية وكان السبب الرئيسي في احتضار
البودية هو أنه فيها تتفوق المبادئ الانسانية الاخلاقية دون اعطاء (الوجدان) حقه بينما
كانت الهندوسية (عاطفية) . فكان أن ضعفت البودية جدا في الهند بينما انتشرت
وترسخت فيما هو شرقي الهند حتى الصين .

وقد قيض للهندوسية زعامات قيادية مذهبية آلت على نفسها لتقوض البودية
ولترفع الهندوسية ، وطورت نفسها حتى لقد أصبحت هي المذهب السائد في الهند ،
وحتى أصبح المذهب مقبولا من حيث البعد عن تعدد الآلهة الى الايمان بروح عالمية واحدة
وان الانسان شعاع من هذه الروح العالمية ، وبالايمان المتعمق تتحد روح الانسان
بالروح العالمية .

ان الهنود في التاريخ القديم مثل قدماء المصريين كانوا يجهدون فكرهم لعلمهم يصلون

الى ادراك خالق هذا الكون ، وضربوا بفكرهم واهتدوا الى طرق ابتعدت واقتربت ولكن الله فضل لحكمة لديه أن يحرمهم من نعمة الأنبياء والرسل حسبما يعتقد حتى الآن .

وكانت البوابة الشمالية الغربية مفتوحة أمام شعوب وسط آسيا وغربها لكي تعبرها كلما تجمعت لها القوة ، وكلما كانت قوى الهند ضعيفة مفككة عاجزة عن الدفاع عن حدودها الشمالية الغربية ، فعبرها هبط (دارا الأول) امبراطور ايران ليمد سلطانه الى الداخل ، ولتمتد امبراطوريتهم من السند عبر ايران والهلال الخصيب (العراق والشام) الى مصر والى آسيا الصغرى (تركيا) حتى أطراف اليونان . وكان من بين جيش دارا مقاتلون من الهند ، وهذا يذكرنا بأنه خلال الحرب العالمية الأولى كان من بين الجيش الانجليزى الذى غزا العراق فى ١٩١٤ مقاتلون هنود ، وكذلك كان مقاتلون هنود مع قوات الحلفاء التى أخرجت جيوش ألمانيا النازية من شمال أفريقيا وحاربت فى فرنسا حتى دخلت قوات الحلفاء ألمانيا ١٩٤٥ .

وبعد أن سيطر الاسكندر الأكبر على الجيوش الفارسية فى موقعة أسوس اجتاح ايران ، ووصل الى الحدود الشمالية الغربية ، وكان ملوك الهند يتصارعون فيما بينهم ، وبعضهم كان على استعداد للتعاون مع الأجنبى ، فوجد الاسكندر حلفاء له فى داخل الهند واستطاع الاسكندر أن يسيطر على معظم حوض السند .

وعاد الاسكندر بجيوشه من هناك ، تاركا الهند لملوكها المحليين ، ولنكبتها فى الصراع بين القوى المتعددة هناك ، وكانت دولة (ماجادها) أكثر الدول قوة بل بلغ بها الأمر أن سيطرت على معظم الهند ، وتبنى أحد ملوكها البوذية فنشرها فى الهند بقوة ، ولكن لم تلبث هذه الامبراطورية أن هزمت ، وهبط الهند من بوابتها الشمالية الغربية شعب (الساكا) ثم (الكوشان) الذى تجددت فى عهدهم على يد (كانشا) البوذية لتصبح (دينا عالميا) ، فمع أن البوذية أخذت تضعف فى الهند الا انها انتشرت وترسخت فيما هو شرقى الهند حتى الصين نفسها .

وضعفت دولة (الكوشان) ، وهبط (الهون) من البوابة الشمالية الغربية ، واتخذوا من (سيالكوت) عاصمة لهم ، وكانت أيامهم أيام مذابح ودماء سائلة ، وساعد ذلك على زيادة تفكك الهند الى دول وشعوب يقاتل كل جار جاره حتى ظهر الملك

(هارشا) (١) في حوض نهر (الكنج) ، وانتصر على دولة مالوا . ولعله أراد أن يوفق بين أكبر مذهبين في الهند حينذاك فاعتنق الهندوسية والبوذية .

أصيب الهند منذ النصف الثاني من القرن السابع بفوضى واسعة ، وظهرت بعض الدول الهامة مثل (الراجبوت) ، الذين هبطوا من بوابة الهند الشمالية الغربية واستقروا ، وأخذوا يستقرون في السند ، ومثل دولة (بالبالا) في البنغال .

وكانت دولة (بالبالا) في البنغال بوذية المذهب في الوقت الذي كانت تتراجع فيه البوذية أمام الهندوسية في الهند . وفي الوقت الذي أخذت فيه هذه الدولة تضعف في القرن الثاني عشر الميلادي كانت قوة المسلمين تتعظم في اتجاه البنغال حتى شنت عليه القوات الإسلامية هجوما اجتياحيا على دولة (بالبالا) ف قضى عليها في ١١٩٧ .

وهكذا بينما كان المسلمون يكافحون من أجل استرداد أرض إسلامية في قلب العالم الإسلامي (الشام) من أيدي المعتدين الصليبيين بينما كان القادة الإسلاميون في الهند يوسعون من دار الإسلام بإضافة بلاد جديدة إليها .

لقد قامت دولة الراجبوت على أكتاف مقاتلين أشداء المقاتلين الراجبوت ، بل لقد كانت الحرب مهنتهم ، اذ تربو على القتال والفروسية . واعتنقوا الهندوسية ، وتصلت دولتهم للفتوحات الإسلامية . وقد امتدت دولة الراجبوت منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر ، حيث قضى على كيائها المسلمون في أواخر القرن الثالث عشر . ولقد كان الراجبوت من أشد المقاتلين مراسا ضد المسلمين .

★ ★ ★

الفصل الأول

دخول وتفوق الإسلام في الهند

كانت العلاقات بين الهند وبلاد العرب قديمة ، الا أن هذه العلاقات اتخذت شكلا جديدا مع انتشار الاسلام ، فلقد كان المسلمون على مستوى عال من الفكر والمكانة الاجتماعية بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، فكما كان من مظاهر الرقى أن يتكلم المثقف الأوروبي اللغة العربية أو يستخدم أدوات الحضارة الاسلامية ، كان بعض حكام الهند يفضلون الافادة من المفكرين العرب في ادارة شئونهم ، وكان للعربي هناك مكانة عليا اجتماعية .

انتشر الاسلام شرقا ودخلته جموع الترك ، وكان فضل الاسلام عليهم كبيرا حيث انه هذب اخلاقهم، وادخلهم في حضارة العصر (الحضارة الاسلامية) واستبقوا فروسيتهم فكان تفوقهم الحضارى وارتفاع مستواهم كمقاتلين اصحاب رسالة سماوية من العوامل الرئيسية التى جعلت القوى الاسلامية التى غزت الهند من بوابتها الشمالية اقدر على اخضاع الهنود .

كان الاندفاع الاسلامى شرقا أشبه بتيار جارف يصعب على القوى المحلية أن تتصدى له بنجاح خاصة بعد أن سقطت الدولة الفارسية بعد القادسية ، واستمر تقدم المسلمين حتى أصبحوا على مشارف الهند الشمالية في أوائل عهد الدولة الأموية ، فكان طبيعيا أن يتطلع المسلمون الى الهند أملا في أن تدخل هي الأخرى تحت مظلة الاسلام . ولقد وقعت بعض المشكلات بين المسلمين وبعض الحكام الهنود أدت الى أن يبعث ابو الحجاج الثقفى بحملة بحرية بقيادة محمد بن القاسم الى حوض السند في ٧١١ م ، ولكنها لم تؤد الى استقرار اسلامى هناك . ومر حوالى قرنان ونصف قرن من الزمان حتى استعاد المسلمون من قواعدهم في افغانستان روح الغزو الى أعماق الهند عبر الممرات الشمالية الغربية .

فقد اقتحم سبكتين - سلطان أفغانستان - الممرات الشمالية الغربية ، وهبط حوض السند ، واستولى على بيشاور وكان (الراجبوت) من أعنف القوى الهندية مقاومة لتلك الغزوة . ولكن بعد ذلك آل محمود الغزنوى ليرسلن الحملة بعد الحملة الى

الهند منطلقاً من (غزنة) ، وأنزل الهزيمة بالراجبوت ، وروع معظم شمال الهند لما صحبت هجماته العديدة من استيلاء مدمر على الغنائم والاسلاب والمجوهرات لفترة غطت العقود الثلاثة الأولى من القرن الحادى عشر .

كانت تلك الضربات العسكرية عاملاً من العوامل التى فتحت أبواب الهند أمام المسلمين وجعلت شمال الهند تحت سيطرتهم الا أن المبادئ الاسلامية غزت عقول الهنود ، حيث أقبلوا من بعد على الدخول فى الاسلام ، وهناك عدة عوامل أدت الى انتشار الاسلام فى الهند والى هزيمة أكبر قوة ضاربة عسكرية هناك وهى (الراجبوت) .

تعتبر (الطبقيّة) فى المجتمع الهندى المسئول الأول عن هزيمة الهنود أمام المسلمين . فالنظام (الطبقي) يجعل مسئولية النصر أو الهزيمة قاصرة على (طائفة) محددة العدد متميزة ومنفصلة عن بقية الشعب . فتصبح الحرب بالنسبة للشعب مسألة غير ذات موضوع .

وكانت المقاومة الهندية للتوسع الاسلامى تعتمد على أساليب اتقنها المحاربون فى الهند ، ولكنها بمرور الوقت فقدت فاعليتها ، ومن ذلك اعتماد المقاومة الهندية على سلاح (الفيلة) الذى أثبت عدم فاعليته فى القتال ضد المسلمين ، بينما كان المسلمون فرساناً ومشاة على مقعدة قتالية عالية أدت الى توالى الانتصارات على الهنود .

وكانت الهند مفككة ، موزعة على عدد من الحكام الذين كانت فيما بينهم أحقاد متوارثة ، كل واحد منهم عينه على جاره وليس على البوابة الشمالية الغربية بل كان منهم من تعاون مع المسلمين . اما الأمر كذلك فقد أصبح التوسع والاستقرار الاسلامى فى الهند امر وقت .

ان التفكك ظاهرة عامة فى كل شعب يتعرض لهزيمة قاسية وكذلك ظاهرة الانفصال بين المقاتلين والقاعدة الشعبية . ولقد حدث مثل هذا خلال الصراع بين المماليك فى أيام السلطان قنصوه الغورى والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول . فقد كانت الأزمات بين التبادات المملوكية متتالية ، وكل أمير منهم يعد العدة لطعن الآخر من خلف ، والشعب ميدان ووقود تلك المؤامرات . فكان أن تغلب العثمانيون على المماليك واستولوا على الشام ومصر دون أن يتحرك الشعب المصرى .

وانه لأمر طبيعي أن تجد الطبقة (المنبوذة) في الاسلام المظلة التي يستعيد تحتها كيانها الانساني ، وأن يجد في المسلم أخا له في الاسلام ، وكان الراجبوت يحتقرون هؤلاء المنبوذين الى درجة افتقادهم لآدميتهم . لقد كان الدين الاسلامي ولا يزال المانع الأول عن (المذبذبون في الأرض) .

ونظرا لما يتفوق به الدين الاسلامي من سماحة واحترام الانسان لانسانيته والأخذ بيد الضعفاء فقد كان من الطبيعي أن يقبل عشرات الألوف من المنبوذين في المجتمع الهندي على الاسلام فاعتنقوه . ولقد كانت القدوة الحسنة واحدة من الأمور التي أدت الى انتماع الشعوب في جنوب شرق آسيا وفي أفريقيا بالاسلام فانضوا تحت لوائه .

ولا شك أن ضخامة الغنائم التي حصل عليها الفزاة المسلمون الأول خاصة في أيام محمود الغزنوي جعلت المسلمين يرون في حملاتهم على (الوثنيين) الهنود في داخل بلادهم مكسبا للحياة الأخرى حيث أنهم يقاتلون مشركين وثنيين أمر الله المسلمين أن يقاتلوهم أينما (ثقفتهم) ومكسبا للحياة الدنيا نظرا لما كان يقع في يدهم من كنوز وثورات الهند .

ثم أن المسلمين في تيار توسعهم كانوا يرون أن أرض الهند لو دانت لهم ستصبح بفضلهم أرضا يعبد فيها الله الواحد القهار ، ومفتوحة أمام المسلمين ليعملوا فيها وليقيموا فيها حضارة انتاجية متقدمة .

وكانت الدوائر العليا المثقفة الهندية أشبه بمشيلاتها في بيزنطة في القرن الخامس عشر من حيث غلبة التيارات الفلسفية الجدلية عليهم حتى لقد سيطرت عليهم وحالت بينهم وبين ادراك القوة الاسلامية الكبيرة التي تنمو شمالي الهند حتى هبطت اليهم وسيطرت عليهم مثلما فعل الاتراك العثمانيون ببيزنطة عندما سيطروا على معظم الامبراطورية البيزنطية بينما رجال الدين فيها مستفرقون في المناقشات (البيزنطية) التي لا تجدى حتى ضاعت دولتهم وامبراطوريتهم وأخيرا عاصمتهم في ١٤٥٣ لصالح العثمانيين .

والاسلام حين دخل وانتشر في الهند ، أقام دولته في نفس المكان الذي قامت فيه من قبل دول في التاريخ القديم ومن هنا يقول (دعاة باكستان) بأن (القومية) الاسلامية في باكستان من منطلق تراثي ، هذا فضلا عن منطلقها الثقافي .

فقد تشبع مسلمو الهند بالاسلام وبمبادئه واخذوا طابعه ، وفي نفس الوقت كان المسلم الهندي منذ دخوله واستقراره يتأثر بالثقافة الهندية ، ومما ساعد على ذلك زواج المسلمين من الهندوسيات وعراقة الحضارة الهندية ، هذا فضلا عن ان انتشار الاسلام لم يكن فقط عن طريق المسلمين الوافدين من الشمال الى الهند ، وانما انتشر الاسلام كذلك بين الهندوس ، ولعب الصوفيون دورا رئيسيا في نشر الاسلام ، وهو دور عالمي قام به المتصوفة الاسلاميون في الهند وفي البلاد الافريقية السوداء . وعلى اى حال فقد انتشر الاسلام في الهند في الشمال (شرقا وغربا) ، وفي الوسط كانت له مكانة قوية ، وأضعف أماكنه كانت في الجنوب . فلقد كانت مناطق (السند) و (البنجاب) و (منطقة الحدود الشمالية الغربية) و (بلوخستان) و (البنغال) هي المناطق التي انتشر فيها الاسلام بدرجات ساحقة اذ أصبح المسلمون هم أصحاب الأغلبية المطلقة فيها .

فخلال القرن الثالث عشر والرابع عشر كثر دخول الهندوس في الاسلام ، واختلفت الحواجز الفاصلة بين المجتمعين الهندوسى والاسلامى تتساقط، واختلط افراد المجتمعين بعضهما ببعض وكثر زواج المسلمين من الهنديات ، وتبادل المجتمعان التقاليد والعادات بل لقد عبر (الفن) عن هذا التعايش اذ ظهر فن اسلامى هندوسى يكاد أن يعبر عن النظرية القومية ، فكانت هذه التطورات السياسية والاجتماعية الى جانب اللغة الاوردية - التى أصبحت لغة المسلمين وعدد كبير من الهنود - كانت هذه التطورات تأصيلا للنظرية القومية الاسلامية حتى يحين الوقت الذى تصبح فيه هذه النظرية هي العقيدة السياسية للمسلمين زعامات وشعبا . فقد ظهر بالتدريج عند من الحكام المسلمين في الهند يعتبرون هذه البلاد (وطننا) لهم وليس لغيرهم من المسلمين وأدى ذلك الى ظهور أمتين متميزتين عن بعضهما وهما : الأمة الاسلامية والأمة الهندوسية .

ويعتبر انتشار اللغة الاوردية بين المسلمين الهنود ظاهرة اجتماعية أعطت هي والاسلام صيغة متميزة تماما عن المجتمع الهندي الهندوسى السنسكريتى اللغة . ومن ثم أصبحت المناطق الشمالية - التى كانت منذ آلاف السنين مقر حكومات ودول - ذات طابع متميز شعبيا وثقافة .

ويرى مؤرخو باكستان الوطنيون أن المنطقة التي تقوم عليها باكستان الحالية (باكستان الغربية) قامت فيها العديد من الدول الكبيرة وانها ذات طابع متميز جعل لها مقومات الدولة ، وان مقومات دولة باكستان لا ترجع الى الفترة الحديثة عندما دعا مفكرو المسلمون الى قيام (باكستان) منذ القرن التاسع عشر ، وانما باكستان قامت في منطقة يجب أن تقوم بها (دول) الى جانب دول أو دولة في (القارة الهندية) . خاصة وانه قد قامت في نفس هذه المنطقة دول اسلامية متعددة .

لتاريخ المسلمين الحديث في الهند مراحل تتميز الواحدة منها عن الأخرى حتى انه يمكن تقسيم تاريخ المسلمين في الهند على النحو التالي :

١ — الحكومات الاسلامية منذ القرن الحادى عشر حتى قيام الدولة المغولية في الهند .

(أ) الدولة الفزنوية .

(ب) الدولة الفسورية .

(ج) دولة الممالك (١٢٠٦ — ١٢٩٠) .

(د) الأمراء الخلجيين (١٢٩٠ — ١٣٢١) .

(هـ) دولة آل تغلق (١٣٢١ — ١٤١٢) .

(و) التيموريون .

(ز) السـادات .

(ح) اللودهيون الأفغان (١٤٥١ — ١٥٢٦) .

٢ — الدولة المغولية خلال القرن السادس عشر حتى وفاة أورانجزيب ١٧٠٧ .

٣ — التغلغل والسيطرة الأجنبية على الهند حتى هزيمة آخر الحكام المسلمين في دلهى بها دور شاه ١٨٥٧ وانتهاء الدولة المغولية الاسلامية في الهند .

٤ — جهود اليقظة الاسلامية في الهند .

٥ — الحركة الاسلامية لانشاء دولة باكستان الاسلامية .

بعد الدولة الغزنوية قامت في الهند الدولة الغورية التي استمرت في الحكم حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى عندما استبد المماليك بالحكم الذى احتكروه لحسوالى القرن من الزمان حتى خلفهم الأمراء .

وكانت حكومة (المماليك) من أولى وأهم الحكومات الاسلامية التى تولت أمر شمال الهند (١٠٢٦ - ١٢٩٠) ، وهى حكومة تتزامن مع حكومة المماليك فى مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧) . وفى عهد مماليك الهند تعرض شمال البلاد الى اجتياح جيوش جنكيز خان ، ومثلما نجح المماليك فى مصر من صد التيار الاجتياحى المغولى فى عين جالوت ١٢٦٠ نجح الطمش عند بيشاور فى صددهم عندهم .

وانه لمن غريب المصادفات التاريخية أن تشتهر سيدتان : (شجرة الدر) عند مماليك مصر ، و (راضية) ابنة الطمش عند مماليك الهند وأن تتشابه نهايتهما بالقتل . ولكن بعد شجرة الدر فى مصر استقرت الأمور فى قبضة المماليك ، بينما انتشرت الفوضى فى الهند بعد (راضية) واستمرت حتى تولى الحكم (علاء الدين) (١) فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر . وقد دار صراع مرير بينه وبين الراجبوت .

من بعد المماليك حكم الأمراء الخلجيين من ١٢٩٠ حتى ١٣٢١ وأعقبهم دولة آل تغلق (١٣٢١ - ١٤١٢) ، وفى عهد محمود الغورى - آخر الحكام من آل تغلق - انقض تيمور لك على شمال الهند فاجتاحه ، وسقطت العاصمة دلهى فى يد أحد القواد التيموريين فى ١٤١٤ . ووقعت عمليات نهب واسعة النطاق تذكرنا بما حدث على يد محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر .

كان الغزو التيمورى سببا رئيسيا فى اشاعة الفوضى فى الدولة الاسلامية ، وادى الى تعدد الدول والولايات . فظهرت فى دلهى (أسرة السادات) على يد (خضر خان) نائب التيموريين واستمر (السادات) فى الحكم حتى ورثهم (اللودهيون) الأفغان فى ١٤٥١ ، واستمر اللودهيون فى الحكم حتى ١٥٢٦ اذ جاء من بعدهم المغول .

(١) علاء الدين .

الى جانب ذلك وجدت مجموعة من الامارات الاسلامية المتفاوتة القوة وأهمها :

١. — جنبور : وكانت امارة مستقلة عن دلهى ثم استولى عليها اللودهيون الأفغان .

٢. — البنغال : استقل به حسين شاه ؛ ويقال أن هذا الرجل دعا الى دين جديد يجمع بين عقائد الهندوكيين والمسلمين الذين انتشروا في البلاد وتولوا الحكم فيها . ولم يلبث البنغال أن وقع في يد الأفغان بعد ذلك .

٣. — امارة كجرات التجارية الثرية ذات الاتصالات الواسعة مع مصر وشرق أفريقيا والخليج العربى . وقد استقلت هذه الامارة في ١٤٠١ م / ٨٤٠ هـ .

٤. — مالوه ، وتقع شرقى كجرات . واستقلت في مطلع القرن الخامس عشر . ولكن استولى عليها بهادر خان أمير كجرات ١٥٣١ م / ٩٣٧ هـ .

٥. — خاندش ، استقلت عن دلهى ثم وقعت تحت سيطرة كجرات .

٦. — بهمنى ، وكانت تشغل مساحات واسعة من نواحى بمباى وحيدر آباد ودار صراع دموى بين امارة باهمنى ودولة فيايانكر ثم تفسخت الى خمس امارات متحاربة هي : بدار ، برار ، بيجابور ، أحمد نكر ، غولكنده .

٧. — أوريا فى أقصى الشرق .

٨. — كشمير .

٩. — دولة « فيايانكر » الهندوكية القوية فى أقصى الجنوب وكانت تقاتل بعنف شديد ضد الامارات الاسلامية ، وعندما وصل البرتغاليون الى الهند وجدوا فى « فيايانكر » حليفا طبيعيا لهم ضد القوى الاسلامية فى الهند .

١٠. — موار : الهندوكية وكان يحكمها راناسنكا وهو من أشهر أمراء الراجبوت .

هكذا كانت الهند مفككة الى عدة دول متحاربة متقاتلة . ولكن من الممكن أن نقول أن التفوق الاسلامى كان حاسما فى الشمال ووسط الهند ، وأن الهندوكية تركز على معاقلها العسكرية والسياسية فى الجنوب .

ويمكن أن نقول أيضا أن مطلع القرن الخامس عشر كان يشير الى حاجة المناطق الوسطى والشمالية الى حكومة قوية تستطيع أن توقف الصراعات المحلية ، وتبلور الموقف في الشمال ليصبح فيه دولة لودھية أفغانية ، وأخرى كجراتية (اسلامية) في الشمال الغربي . وكانت بداية الدولة اللودھية لا تبشر بقدرتها على خلق حكومة قوية يكون لها اليد العليا في حكم البلاد . بل لقد استشرت الصراعات بين رجال الأسرة الحاكمة اللودھية نفسها ، فكانت فرصة واسعة أمام الأمراء الاقطاعيين ليتخففوا من اعباء التبعية للأسرة اللودھية ، وأعلنوا الثورة عليها . فكانت هذه الظروف هي التي مهلت الطريق أمام بابر — صاحب غزنة — ليندفع بجيوشه الى سهول الهند ليستولى على دلهي ، وليؤسس امبراطورية مغولية حضارية في الهند .

وفي ختام استعراضنا لتاريخ الهند الاسلامية قبل دولة المغول يجدر بنا أن نضع الحقائق التالية :

١ — ان انتشار الاسلام في الهند لا يرجع فقط الى الهجرات الاسلامية الى الهند بل كذلك الى دخول الهنود أنفسهم في الاسلام باعداد غفيرة جعلت اعداد المسلمين هناك تصل على الأقل الى ربع سكان الهند بأسرها .

٢ — ان المتصوفين الاسلاميين وكذلك الدعاة من المذهب الاسماعيلي قاموا بأدوار كبيرة جدا في نشر الاسلام بين الهنود .

٣ — ان المسلمين كانوا مركزين في النصف الشمالي من الهند وخاصة في حوض نهر السند (البنجاب) وفي الشرق في البنغال ، وعدة ملايين أخرى من المسلمين في وسط الهند ، وكلما اتجهنا جنوبا قلت أعدادهم .

٤ — ان مسلمي الهند كانوا موزعين على المذهبين الرئيسيين الاسلاميين : مذهب اهل السنة ، مذهب الشيعة .

تلك كانت التطورات التي أدت الى أن يصبح عدد المسلمين في الهند موازيا تقريبا لتعدادهم من الشرق الأوسط بأسره من أفغانستان الى الدولة العثمانية حتى المغرب عندما وصلت الدولة العثمانية الى ذروة توسعها في القرن السادس عشر ، وبمعنى آخر كان للمسلمين دول كبرى رئيسية في القرن السادس عشر .

- ١ - الدولة العثمانية .
- ٢ - الدولة الصفوية في ايران .
- ٣ - الدولة العلوية في المغرب .
- ٤ - الدولة الاسلامية في الهند .

والى جانب هذه الدول الكبرى توجد دول اخرى اسلامية اقل شأنًا فى شسبه جزيرة الملايو وفى شرقها ، وفيما وراء الصحراء الكبرى الافريقية، وبينما كان العثمانيون يتوسعون فى البلقان فى القرن الخامس عشر كان المسلمون يفتقدون الأندلس . ومع ذلك فقد أصبح العالم الاسلامى أكثر اتساعا فى القرن السادس عشر عنه عن ذى قبل .

على أن قيام دولة المغول فى الهند فى أوائل القرن السادس عشر كان من العوامل التى رفعت حضارة الهند الى مستويات أكثر سموا من حضارات الهند السابقة ومن حضارات أخرى معاصرة لها .

الفصل الثاني

امبراطورية المغول في الهند

عصر اللدوة

باب

مهايون

اكبر

اورانجزيب

في المشرق الاسلامي لا يكاد انسان يسمع كلمة مغول حتى تقفز الى ذهنه صورة من المعارك الدموية التي كانت تنتهي باهرامات تبنى من جماجم القتلى عند قدمى خانات المغول وقوادهم ، وحتى يتذكر المرء بسرعة صور الخراب والدمار الذي اصاب بغداد على يد المغول ، وما ترتب عن ذلك من أن تصبح هذه العاصمة الاسلامية الاولى مجرد مدينة تحت حكم وثنى غاشم ، كذلك سرعان ما يتذكر المرء صورة نهر دجلة وقد زاحمت فيه جثث العلماء وكتبهم وتراثيم أشلاء الحامية البائسة التي دافعت عن آخر خليفة عباسي اقام في بغداد (١٢٥٨) .

وهناك اتجاه عام لدى من يكتبون عن المغول وهو اتهامهم بأنهم لم يبنوا امبراطوريتهم الواسعة الممتدة من حدود الصين حتى الشام الا بسبب تفوقهم العددي المهول الذي كان يكتسح أمامه قوى المقاومة كبرها وصغبرها . كذلك يتحدث كثير من الكتاب عن أن انتصارات المغول على أعدائهم كانت ترجع في أغلب الأحيان الى اهتزاز أعصاب قوى المقاومة اهتزازا كبيرا نتيجة للدعايات المروعة التي كانت تسبق الجيوش المغولية ، وتردد أنهم اذا دخلوا مدينة قتلوا رجالها وهتكوا فتياتها ونساءها . وساقوا بقية السيوف عبيدا أو الى الأسواق .

ولا شك أن هذه الدعايات كانت تقوم على حقائق ثابتة ، وأن ما اقدم عليه المغول من مذابح جماعية ، ومن افناء لسكان مدن بأجمعها ، كان كفيلا بأن يثير الرعب في نفوس أعدائهم . ولكن ليس هذه هي فقط أسباب انتصاراتهم . فهناك عامل التفكك الذي كان عليه العالم الاسلامي ، وفي اعتقادنا أن العامل التنظيمي هو السبب الأول في نجاح المغول في بناء امبراطوريتهم الشاسعة ، وفي اعتقادنا أن صور الفزع والرعب والدمار حجبت عن الناس حقيقة هامة هي أن المغول انتصروا بفضل دقتهم في تنظيم الجيوش ، وسيطرتهم عليها ، وهذا ما كان ينقص معظم القوى التي اصطدمت بهم فيما عدا ماليك مصر الذين هزموا المغول في معركة عين جالوت في ١٢٦٠ .

هذه الصورة المفزعة حجبت عن أهل الشرق صورة رائعة من صور الحضارة

المغولية التركية عاشت زهاء خمس قرون ونصف ، ونعنى بذلك الدولة المغولية في الهند .

يعتبر « ببر » من عظماء التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ الهند بصفة خاصة ، فهو مؤسس دولة المغول في الهند التى استمرت تحكم - وان كان ذلك على درجات متفاوتة من القوة والضعف - من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر .

و « ببر » هو الاسم الذى اشتهر به ، وهو يعنى (النمر) ، وأما اسمه الحقيقى فهو « ظهير الدين محمد بن عمر شيخ ميرزا » . وهو ينحدر من ناحية الأب من سلالة « تيمورلنك » ، وكذلك ينحدر من سلالة الفاتح المغولى الشهير جنكيز خان .

ولد « ببر » في ١٤٨٣ م / ٨٨٨ هـ . توفى عنه أبوه صغيرا ، ليصبح على عرش فرغانة (١) مهيبض الجناح بين عدد كبير من الطامعين في عرشه . وكان اثنين من أعمامه مستعدين لأن يخوضا المعارك الدموية من أجل السيطرة على فرغانة ، ولقد عانى السلطان الفتى من العناء من هذين العمين ، ولم يخلصه منهما سوى أنهما توفيا الواحد بعد الآخر . واستطاع ببر من بعد ذلك أن يستولى على « سمرقند » (٢) عاصمة وسط آسيا وحاضرة التيموريين . وكم كان « ببر » يريد أن تظل سمرقند تحت يده ، ولكن كان هناك العديد من القوى الراغبة فيها . فدار صراع طويل مرير بين ببر وشيبانى خان الأوزبك (٣) حتى ثبت أن لا جدوى أمام هذا المقاتل العنيد (شيبانى خان) ، فترك سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، وكاد أن يصبح مجرد أمير يضرب في الأرض على غير هدى .

وكانت شدة ضربات الأوزبك (٤) في المنطقة كفيلا بأن تشتت شمل الكثير من القوى العشائرية هناك ، وكانت هذه القوى لا تجد من وسيلة سوى أن تحافظ على ما تبقى

(١) فرغانة .

(٢) سمرقند .

(٣) انظر الفصل الأول من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل الأول من القسم الأول عن التعاون بين الشاه اسماعيل وببر ضد

الأوزبك .

لها من تماسك ، مثلها في ذلك مثل « ببر » . وعندما تلتقى قوتان من هذا النوع سرعان ما يتفقدان معا نتيجة لتشابه المصير والعدو المشترك . ومن هنا استطاع « ببر » أن يجمع حوله عددا من المقاتلين اعتمد عليهم في أن يؤسس لنفسه ملكا عزيزا بعيدا عن متناول الأوزبك ، ولذلك وضع يده على بلاد كابل وغزنة المضطربة ، فأصبحت هذه البلاد له بمثابة قاعدة أكثر ثباتا ، وقوة يستطيع أن يعتمد عليها لا في صد القوى المحيطة به ، بل جعلته يتطلع الى التوسع في اتجاه الهند ، لا على اعتبار أنها أرض جديدة يريد الاستحواذ عليها ، وإنما على أساس أنه هو وريثها اذ كانت من قبل للتيموريين . فقام بحملات الى داخل الهند ، وتمكن من أن يضع يده على بعض الأقاليم ، وخاصة (بهيرة) في ١٥١٩ . ومن هنا أصبحت أمور الهند مكشوفة أكثر أمام ببر ، وكانت الأوضاع الداخلية هناك تغرى ببر بمتابعة الفتح والتوسع .

فقد كانت الهند - تحت حكم أسرة اللودهي - في اضطراب شديد في أوائل القرن السادس عشر . وتقوى الهندوكيون ، وكونوا جبهة قوية ضد الدولة اللودهيية . وكان « ببر » على دراية بما كان يجري في الهند ، ويدرك أن دولة اللودهي تحتضر ، وأن قوة الراجبوت الهندوكيين تتعاطم وقد تتمكن من أن تفرض نفسها على الحكام المسلمين . وكان الأمراء الأفغانيون في الدولة اللودهيية قد فقدوا الثقة في سلطانهم ، وشعروا أنه لا بد من زعيم قوى يعتمدون عليه ضد السلطان اللودهي . وكان ببر مستعدا لأن يضع يده في يدهم ، فلقد كانت له آماله الخاصة أيضا في الهند .

تحرك ببر على رأس جيشه صوب الهند ، واستولى على لاهور في ١٥٢٤ ، وخاض ضد الشاه اللودهي معركة كبيرة في بانى بت حصدت خلالها مدفعية جيش ببر ورمائة بنادقه جنود الجيش اللودهي الذي منى بهزيمة حاسمة قضت على الدولة اللودهيية ، اذ لم يلبث أن جلس ببر على العرش في اكر (١٥٢٦ م / ٩٣٢ هـ) .

استطاع ببر أن يوحد معظم شمال الهند تحت سيطرته ، ولكن كان عليه ان يتابع الحرب ضد القوى الأخرى في الهند الكارهة له ، العاقلة العزم على كسر شوكتة . وهذه القوى كانت هندوكية ، وبعضها كانت اسلامية .

كان الصدام بين الغازي الجديد والأمراء الأفغانيين الذين استنجدوا به من قبل أمرا لا بد منه . كانوا هم يريدون منه أن يخلصهم من سلطانهم اللودهي ، لا أن يرث هو هذا (٣٣ - الشعوب الاسلامية)

السلطان بينما كان ببر يرى أنه أحق الرجال بالحكم فقد فتح البلاد بحد السيف ، وهي بلاد أجداده . وكانت مشاعر الأمراء أشد سخطا عليه من سخطهم على سلطانهم اللودهي السابق . لقد كان اللودهي ضعيفا يستطيعون فرض كلمتهم عليه ، أما ببر فكان عملاقا ذا طباع قاسية ، ولهذا امتشق الأمراء الأفغانيون السيف ، وكانوا في قتالهم للجيش المغولي على بأس شديد وكانت دقة معرفتهم للبلاد ومسالكتها من الأمور التي أعانتهم على قتال ببر لمدة طويلة .

ولكن حينذاك كان الأمراء الراجبوت (الهندوكيين) يجمعون صفوفهم ضد هذا الغازي الكبير ، وآثر ببر أن يترك أمر هؤلاء الأفغانيين مؤقتا ، ليركز جهوده ضد الراجبوت وزعيمهم « رانا سنكا » الذي كان يسيطر على معظم الوسط والجنوب . وأصبحت المعركة المقبلة بين أكبر قوتين في البلاد ، كل منهما يدعى أنه صاحب البلاد . وكانت جبهة الراجبوت قوية ، وكانوا يعتقدون أن قوة الغازي الجديد ليست بقادرة على أن تفرض نفسها على البلاد كلها ، وأقل من أن تصمد أمام العسكارية الراجبوتية المشهورة . ولكن الراجبوت كانوا من تراث الماضي ، ويعتمدون على أساليب الحروب والقتال التقليدية ، بينما كان ببر أوسع أفقا ، وأكثر من استخدام الأسلحة النارية التي كانت العامل الحاسم في كسب معركة (باني بت) من قبل .

ولكى يقوض الراجبوت ادعاء ببر بحقه في الملك والأرض ، ظلوا وراء الأسراء الأفغانيين حتى أقنعوهم بالتحالف معهم ضد (المختصب) ، وايدوهم في أن يتسولوا السلطنة واحد من الأسرة اللودھية ، وليس مغامرا - مثل ببر - وفد من خارج البلاد . وفعلوا أعلنوا محنود خان سلطانا على البلاد ، وامتشقوا الحسام باسم إعادة صاحب الحق الشرعي إلى عرشه في أكرا .

لقد كان الخطر كبيرا على ببر ، وكانت القوات التي تحت يده قادرة على الصمود فترة ، ولكن ليس على حرب طويلة الأمد ومن ثم كان على ببر أن يخوض معركة يكسر فيها أعداءه كسرة لا قيامة لهم من بعدها ، والا تعرض لسلسلة من الحروب لا يعرف كيف تنتهي . وكان لا بد له من أن يرفع معنويات جنده إلى درجة الاستماتة إلى أقصى حد في القتال ، ودخول المعركة على أسس النصر أو الموت . وهنا لجأ ببر إلى العامل

الدينى ليصبح الدافع القوى الذى يحث جنده على القتال دون رهبة من الموت بل رغبة فى اعلاء كلمة الله .

ولكن ببر كان سكيلا . حقيقة كان مؤمنا بالله ، باستثناء ما يتعلق بالخمير . وكان قواده على شاكلته ، وحيث انه كان فى حاجة الى الفكر الدينى الخالص لكى يلقى فى روع جنده انه مقبل على حرب جهاد فى سبيل الله ، وحيث انه كان فى حاجة الى نفوس متطهرة من كل آثام لكى يضعها على مستوى المسئولية الدينية ، ضرب هو أولا المثل فى التخلص من كل ما يتعارض مع الايمان الكامل واقسم ليركن الشراب ، وليحطم الكؤوس ، وليغفر الله عما سلف ، خاصة وأن التوبة ستعقبها تضحية بالنفس فى جهاد الوثنيين (الهندوكيين) .

وهكذا عبأ ببر جيشه ، واعدته للمعركة الحاسمة . واستطاع أن يخوض المعركة وهو واثق من صلابة جيشه وقدرته على احراز النصر وانتزاعه انتزاعا من يد الراجبوت . فلقد كان بابر يدرك أن الراجبوت ليسوا بالعدو السهل المنال ، وإنما للتغلب عليهم يجب أن تبذل كافة الجهود ضدهم .

وفى معركة « خانوة » وهى من أعنف المعارك التى دارت فى القرن السادس عشر فى ١٣ جمادى الثانى ٩٣٣ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م - انتصر ببر أروع انتصار . ولم تقسم الراجبوت ولا للأفغانيين قائمة فى الهند لمدة طويلة . حقيقة كان هناك من ظل متمسكا من الأمراء الهندوكيين ومن الأمراء الأفغانيين بقلاعهم وحصونهم وبعض اقطاعاتهم ، ولكنهم لم يعودوا قوة كبيرة قادرة على اقتلاع الدولة المغولية التى ثبتت أقدامها بعهد خانوة ، وشرع ببر من بعد فى توسيع رقعة مملكته .

أصبح لببر ملك عريض ، وطفق يعمل لبناء دولة اسلامية قوية . وكان يعيد النظر حين أدرك انه يحكم شعبا خليطا من المسلمين ومن الهندوس ، وما كان له أن يقنن بصلاحيات عامة الا اذا كانت الأمور الداخلية مستقرة وهادئة وألا اذا كانت العلاقات الطائفية غير متفجرة . ومن هنا كانت دعوة ببر الى التسامح الدينى . فكانت هذه من أهم الوصايا - التى أوصى بها ابنه همايون - قبل أن يتوفى فى ١٥٣٠ .

اعتلى همايون العرش خلفا لأبيه ليجد نفسه أمام قوى عديدة تتربص به من داخل أسرته ، ومن خارج مملكته . فقد انقض عليه أخواه « كمران و عسكر » ، وتمزقت

المملكة ، وفقد بيهار والبنجاب ، بل فقد كذلك أفغانستان ليصبح من بعد ذلك طريدا هائما في اقليم السند لا يعرف لنفسه مستقرا .

وخلال هذه الأزمة الحادة جاءته الأنباء بأن زوجته « حميدة » قد انجبت له ولدا (١٥٤٢) ، فاذا بهاميون الطريد يتحول الى مقاتل على أعلى مستويات الصلابة والعنف ، وأقسم ليقاتل ويقاتل حتى يعيد بناء ملك جدير به ليرثه هذا الطفل الملكي من بعده . لقد كانت ولادة هذا الطفل — الذى سمي جلال الدين محمود واشتهر « بأكبر » — قوة دافعة عظيمة لهمايون . فخاض حروبا ومعارك دامية عديدة ، ولكنه خسرها الواحدة بعد الأخرى ، حتى لقد عجز عن أن يجد حصانا ثانيا لزوجته لتفر معه من وجه المطاردين ، فحملها من ورائه تاركا طفله الصغير « أكبر » ليقع أسيرا فى قبضة عمه « عسكر » . ولكن « عسكر » كان كريما نحو ابن أخيه فلم يصبه بسوء .

لم يهدأ همايون ، وأصر أن يتابع الحرب والقتال ، كان يجمع القليل من القوات من هنا ومن هناك ، ولكنه كان مصمما على أن يصل الى هدفه ، وأن يستعيد ابنه ، ويبنى له ملكا . وبعد جهاد متطاوّل استطاع أن يدخل « كابل » فى ١٥٥٥ ، وهناك اجتمع همايون وحميدة — بعد طول فراق وعناء — بابنهما أكبر الذى كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

التفت همايون الى ولده ليربيه ، وليعده لى يحكم من بعده . فاحضر له أعلى الأساتذة كعبا فى العلوم ، وأشهر المربين قدرة على تعليم الصبية والفتيان . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام فتى على غير ما ألفوه من الصبية والفتيان . فيهم العنيد ، وفيهم الصلب الذى لا يلين لعلم أو يتقبل الدراسة ، ولكن كانوا جميعا يقبلون بدرجات متفاوتة — بعد جهد كبير أو قليل — على الدرس والتجصيل فيحصلون على شىء من المعرفة ، وقد يستمرون أو لا يستمرون طويلا ولكن كانوا يحصلون شيئا . أما أكبر فكان كصخرة قدت من جبل ، وذهنه أبعد ما يكون عن الدرس . وبذل الأساتذة جهودهم ، وما هموا فوق طاقتهم أمام هذا الصبى العنيد ، ففشلوا حتى فى تعليمه مجرد القراءة والكتابة .

كان أكبر معتزا بشبابه وقوته ، وكانت له قوة جسمية خارقة ، ورثها عن جده ببر ولكنه تفوق عليه فيها . كان منصرفا كلية الى الرياضة العنيفة ، وكان يعشق الجندية والاقتيال ، فعاش سنوات الفتوة الأولى مع السيف والخيل والعباب الفروسية معرضا

كل الاعراض عن آداب العصر ، وعن أساليب الحكم والادارة . ولكن خلال ذلك مات همايون في ١٥٥٦ تاركاً الدولة التي أسسها بعد جهد جهيد في يد هذا الفتى الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد .

ولكن قيض « لأكبر » أن يقف الى جانبه في هذه السن الحرجة رجل مخلص وهو الوزير بيرم الذي يرجع اليه الفضل في الانتصار الحاسم في موقعة بانى بت الثانية (١٥٥٦) على « آل سور » في (البنجاب) (واورا) . وكان « آل سور » في الواقع هم اخطر القوى على « اكبر » . ولهذا يكون بيرم قد حفظ المملكة والعرش لأكبر . ولكن اكبر لم يلبث أن عزله من منصبه بتأثير المؤامرات التي نصبت ضده ولأن اكبر خشى على نفسه من هذا الوزير القوى الذي أصبح له الفضل عليه . حقيقة ثار بيرم ضد هذا الاجراء الظالم ، ولكنها كانت ثورة نفسية أكثر منها عسكرية ضد اكبر . اذ لم يلبث أن القي السلاح ، وقبل بيرم أن يغادر البلاد وأن يعيش في المنفى في مكة المكرمة .

لم يتول اكبر أمور الدولة مباشرة بعد اقضاء بيرم ، وانما كانت أمور الدولة تدار بواسطة بعض الأميرات المتنفذات وبعض رجال البلاط . فلما تولى اكبر كل السلطات في يده وجد امامه مهمة شاقة للمحافظة على ملكه . فقد كانت الى جواره مجموعة من الامارات القوية تتطلع الى التوسع على حسابيه . ولهذا شن اكبر سلسلة من الحملات المتتابعة على السند والملتان وكشمير وكجرات وخاندش واوريسا وغندوانا والراجبوت (١) .

ونحن لا نستطيع هنا أن نبين بالتفصيل كيف استطاع اكبر أن يتغلب على كل تلك الامارات ولكن سنشير فيما يلي الى بعض الأمور الهامة التي توضح طبيعة الانتصارات والفتوحات التي احرزها :

أولا : لقد كانت المعارك ضارية ودموية ، خاصة في معركة بانى بت الثانية وفي القتال الذي دار قبل سقوط حصون الهنادكة المنيعة الثلاثة : جنور وكلنجر وتنوبهور .

(١) عن حروب اكبر انظر :

Powell - Price : PP. 247-274.

Edwards and Garrett : op. cit. : PP. 23-35.

Lane-Poole : op. cit : PP. 238-258.

ثانيا : ان معظم سنى حكم اكبر - التى امتدت نصف قرن من الزمان (١٥٥٦ - ١٦٠٥) - كانت حروبا ومعارك ضد أعدائه .

ثالثا : ان أسهل الحروب التى خاضها كانت حربه القصيرة ضد أخيه ميرزا حكيم الذى حرضه الثائرون على اكبر وحرضوه على الاستحواذ على العرش . ولكن اكبر سرعان ما اخضعه وندم ميرزا حكيم على ما اقدم عليه فعفى عنه اكبر واعاده الى منصبه .

رابعا : ان اكبر لم يواجه أعداء متكئين وانما واجه كل امانة على حدة ، وكان اكبر يدرك حقيقة الأمور فى الهند من حيث أنه لا احترام فيها الا للقوة . ولهذا عنى بقتوته المسلحة خير عناية فكانت لديه أقوى مدفعية فى الهند وكانت المدفعية هى السلاح الحاسم فى المعارك حينذاك . ولهذا درس طرق صناعة المدافع وادخل تحسينات عليها لتكون سهلة الحركة .

خامسا : كان اكبر شخصية قيادية فذة ، استطاع ان يحتفظ بترباط الجيش حتى فى أدق المواقف . وكان عظيم الثقة بنفسه وفى أن النصر حليفه ولكن دون أن تعميه تلك الثقة عن اتخاذ الاحتياطات اللازمة .

سادسا : كان اكبر يحترم ويقدر عدوه الذى يستبسل فى الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حتى انه بنى تماثيل لعدد من القواد الذين قاتلوه سييفا لسيف ويذا ليد حتى آخر قطرة فى دمائهم . صنع تماثالا للقائد الهندوكى « جمال » الذى دافع عن حصن « جتور » حتى صرعه اكبر برصاصة أطلقا عليه . واقام تماثالا للملكة الوصية على ابنها امير « بتا » ولابنها ولزوجته الشابة الصغيرة ، لأنهم انتحروا بعد ان يسوا من النصر (١) .

سابعا : كان اكبر لا يعامل البلاد التى ينتصر عليها على اعتبار أنها بلاد مفتوحة يعرضها للنهب والاذلال ، وانما كان يحترم حكامها السابقين ، فكان يقرب اليه بصفة خاصة الأمراء الهنادكة . لقد كان اكبر عازما على أن يعيش فى الهند وللهند . ولهذا

Edwards and Garrett : op. cit. : p. 35, and Binyon : op. cit. p. (١)
70. and Powell - Price : op. cit. pp. 250-251.

أشرك هؤلاء الأمراء الهنادكة معه في توجيه أمور البلاد . ثم ان اكبر صاهرهم بما في هذه الكلمة من معانى التعاطف الأسرى والسياسى (٦) .

ثامنا : ان قيمة انتصارات وفتوحات اكبر في انها أقامت امبراطورية واضحة المعالم مستقرة الجوانب . حقيقة لم يسيطر على كل الهند بأسرها ولكنه في الحقيقة سيطر على معظمها فقد أصبح يسيطر على كل شمال الهند ووسطها (٧) ولم تبق سوى دولة فيايانكر الهندوكية في اقصى جنوب الهند خارج دولته .

ولا تقل مغامرات وشطحات اكبر في مجالات التصوف والالهيات أهمية عن حركاته العسكرية . ويمكن تقسيم تاريخ اكبر من الناحية الدينية المذهبية الى ثلاثة فترات .

الفترة الأولى : منذ اعتلائه العرش حتى ١٥٧٨ م - كان مسلما سنيا يؤدي الفرائض وينشر الدين الاسلامي ومتحمسا في بناء المساجد . ومن روائع مساجده مسجد (بلند دروزة) .

الفترة الثانية : بين ١٥٧٨ الى ١٦٠١ وتتميز بمحاولته الانطلاق في أجواء الفلسفات الالهية . وانتهى به الأمر الى اعلان (المذهب الالهى) (٨) .

الفترة الثالثة : تمتد من ١٦٠١ - ١٦٠٥ فكانت فترة من القلق النفسى والأزمات العاطفية ، فقد خلالها ابنه الأصغر وامه الحنون ، واعز أصدقائه وخلصائه أبا الفضل ، وخلالها ثار عليه ابنه سليم . وخلال هذه الفترة ايضا غادر الى الأبد عاصمته الرائعة (فتحبور) (٩) . وأغلب الظن أن هذه الأزمات النفسية الشديدة التى صاحبت ثورة ابنه سليم عليه هى

(١) يذكرنا هذا بالزيجات السياسية بين سلاطين آل عثمان وامسيرات البيت البيزنطى الأمر الذى أعان العثمانيين على التوسع على حساب الامبراطورية البيزنطية .
(٢) أصبحت امبراطورية اكبر تضم ما يلى : أفغانستان ، كشمير ، البنغال ، بهار ، جولكنده ، أحمد نكر ، كجرات ، دهلى ، الملتان ، اجمير ، اوده ، ملوة ، الله آباد .
(٣) سنتناوله بعد قليل .

(٤) مدينة بناها (اكبر) لتكون عاصمته ولتكون ذات طابع خاص .

التي اعادت اكبر الى حظيرة الدين الاسلامي ، فتوفي في ١٦٠٥ وهو يحاول
أن ينطق باسم الله سبحانه وتعالى .

كان اكبر في سبيل بناء تلك الامبراطورية قد خاض معارك دموية كلفت الآلاف
المؤلفة من الضحايا ، فكم من حامية دافعت عن قلعتها حتى أصبح من المتعذر على الجند
أن يتخطوا الجثث والاشلاء ، وكم من اهرامات عالية بنيت من رؤوس القتلى الهنادكة
والمسلمين على السواء ، وكم من أمير قتل أسرته قبل أن تقع في قبضة اعدائه المنتصرين ،
وكم من كنوز من ذهب وفضة جمعها المنتصرون بقسوة من المهزومين ثم يدور عليها من
بعد ذلك صراع مرير بين المنتصرين أنفسهم .

انها في الواقع لمأساة كبرى عاشها اكبر ، واشترك فيها ، ودبر بعض اطرافها ،
وهو كاره لبشاعتها ولقسوتها . وأخذ يطلق العنان لفكره لعله يجد تفسيراً واضحاً لتلك
المذابح البشرية التي بدأت منذ أن دب الانسان على الأرض .

ورأى اكبر أن من بين الهنادكة من دافع عن نفسه وجنسه ومعتقده حتى لقي المنون
وكذلك فعل المسلمون الذين تصدوا لأكبر وحاربوه حتى انتصر عليهم . فهم هنا سواسية
في مقاومته . ثم إن هناك ملايين من الهنادكة تمسكوا بمعتقداتهم البرهمية والزردشتية
والجينية ولا يريدون لها بديلاً .

ويصاب اكبر في بعض الاحيان بشطحات فلسفية فإذا به يرى هذه الضجة التي تملأ
الحياة عجيبة مليئة بالمتناقضات فهو يرى أمامه صورا من صراع لا يهدأ بين خليط من
الأجناس والمعتقدات وكل جنس يرى في نفسه انه هو أسمى الأجناس ، وكل صاحب
عقيدة يعتقد انه هو فقط الذي كسب الحياتين الدنيا والآخرة وان ما عداه في سقر .

فكيف لأكبر أن يحكم شعباً كهذا خليطاً من معتقدات شتى ومن أجناس مختلفة .
ان ادخال جميع الهندوكيين في الاسلام كان أمراً بعيد الاحتمال ، وأن ترك هذه المعتقدات
وتلك الأجناس تتصارع لهو خطر ساحق على مستقبل الدولة التي أسسها .

لقد سعى اكبر الى البحث عن المذهب أو العقيدة الحقة التي يجب أن يتبناها والتي
يجب أن يتبناها أهل الهند . فنظر حوله فإذا بالفرق الاسلامية متناحرة متعادية . وأوضح

مثل على هذا ذلك الصراع الدموي الذي كان بين الشيعة الصفوية من جهة والعثمانيين السنة من جهة أخرى ، وهو صراع اشماز منه اكبر .

اراد اكبر أن يتبين الطريق السوى بين الفرق الاسلامية ولكنه لم يستطع أن يتبين الطريق من شدة الأضواء التي كانت على جانبيه وفي وسطه ولاختلاف ألوانها . ولكنه كان في نفس الوقت طريقا مضرجا بالدماء مليئا بالمآسى التي خلفها صراع متطاوّل بين الفسوق .

كان اكبر خلال بحثه عن الحقيقة يصاب بأزمات نفسية حادة حتى لتجده فجأة قد امتطى صهوة جواده العربي العراقي (حيران) فيطلق له العنان الى أي اتجاه ويظل حيران منطلقا ويظل اكبر يحثه على المضي الى أي شيء حتى يعجز (حيران) عن الركض ، وإذا باكبر في مكان موحش فيعيش فيه مع خيالاته الصوفية الفلسفية ، حتى تهدأ نفسه . وأخيرا يجد (حيران) بين يديه فيعود به الى صخب الحياة وضججتها والى مآسى الحكم والقتال .

ولقد بلغ باكبر الهوس الصوفي والفلسفي الى الدرجة التي جعلته يجمع عددا من الأطفال ويربينهم بعيدا عن تأثيرات المجتمع ليعرض عليهم الأديان والمذاهب فلعل فطرتهم تهديهم الى الدين الأصيل الفطري الحقيقي . فلما عرض عليهم الأديان والعقائد فوجيء بأن عزلتهم عن المجتمع جعلتهم جماعة من البكم لا تعي ما يقدم لها ولا تستطيع التعبير عما تنفعل به (١) .

واتجه اكبر كذلك الى دراسة الكتب السماوية ، القرآن الكريم والانجيل . ولكنه وجد أن الأفضل هو أن يجمع كل صاحب مذهب أو دين في مكان واحد ليتجادلوا في أمور العقيدة ، وليدافع كل واحد عن معتقده لعله يصل الى الطريق الصحيح الى الله . ولهذا بنى اكبر (عبادة خانة) في ١٥٧٤ في عاصمته الجديدة (فتحبور) لتكون مقرا لتلك الندوات الدينية .

وكان اكبر يتساءل : هل يمكن اتحاد الترك والفرس والمسلمين والهندوكيين

Binyon : op. cit. p. 49.

(١)

احمد الساداتى . تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ٢ ص ١٤٣ هامش .

والزردشتيين والجينيين والبراهمة . جميعهم في بوتقة واحد مثلما حدث للغات الهندية والفارسية والتركية عندما خرجت الى الوجود اللغة الأوردية التي أخذت من كل تلك اللغات ؟

فلقد كانت اللغة الفارسية هي لغة الأدب والمثقفين في الهند ، وكانت اللغة التركية هي لغة رجال الجيش المغولي الذي يضم أعدادا كبيرة من الأتراك في العهد المغولي الأول ، ثم أصبح الجيش يضم تركيا وهنودا مسلمين وغير مسلمين ، واختلطت هناك اللغة الفارسية بالتركية بالهندية . ونتج عن هذا الخليط لغة جديدة عرفت الى يومنا هذا باللغة (الأوردية) ، وأصبحت هذه اللغة الأوردية - منذ عهد مغول الهند - اللغة الأولى هناك .

وتساءل اكبر لماذا لا يتفق الناس ويتوحدوا ويمتزجوا - امتزاجا سلميا هادئا - ليشكلوا شعبا متماسكا مترابطا متوحدا من جميع الوجوه ، مثلما تشكلت اللغة (الأوردية) من لغات عدة ١٩

ولقد كان اتحاد اللغات واللهجات مثالا واقعيا أثر على تفكير اكبر تأثيرا كبيرا ، الأمر الذي دفعه الى تعميم الفكرة على مختلف المستويات الاقتصادية والفكرية ، واتجه كذلك الى أن يعمم الفكرة في المجالات الدينية ، على أمل توحيد المعتقدات والأديان ووضعها في إطار واحد يعيش داخله جميع الناس .

دعا اكبر فقهاء الدين الاسلامي من سنة وشيعة ورجال الدين البراهمة وكهنة زرادشت ورجال المذهب الجيني وكذلك دعا ثلاثة من المبشرين البرتغاليين الجزويت (١) ليشاركوا في الندوات التي تعقد في (عبادة خانة) .

كان اكبر يفتح صدره لكل صاحب نحلة، ووطن الآباء الجزويت ان اكبر حين أحاطهم برعايته واستمع بامعان الى أحاديثهم عن المسيح وعن الديانة المسيحية قد مال الى

(١) هم رودلفر اكوافيفا وانطونيو مونزرات وهنري جيز
Rudolfo Aquairva; Antonio Monserrate; Henri-quez.

وكان الأول والثاني من الآباء الجزويت الأوروبيين أما الثالث فكان مسلما فارسيا ارتد عن الاسلام وشهر سلاح التبشير في وجه المسلمين في الهند بالتعاون مع الاستعمار البرتغالي .

معتقدهم وانه على وشك الايمان بالمسيحية وانه لو فعل هذا للعب دورا رائعا في تاريخ المسيحية لا يقل عن الدور الذي لعبه قسطنطين (١) الأول حين اعترف بالمسيحية فانتشرت المسيحية بسرعة في الدولة الرومانية .

ولكن الآباء الجزويت لم يقدروا حقيقة ذكاء اكبر ، فلم يلبث أن انهال عليهم بالأسئلة المخرجة . لماذا هم فئات متناحرة ؟ لماذا هناك تلك التعقيدات العديدة المختلف عليها في العبادات ؟ لماذا هذا الاختلاف الشديد في تحديد طبيعة المسيح نفسه ؟ هل هو طبيعة واحدة أم طبيعتين ؟ وهل الى هذا الحد يختلف الخلق في طبيعة الخالق ؟ . وحاول الآباء الجزويت أن يصمدوا أمام ذكاء اكبر ولكن دون جدوى . وظلوا على معتقدتهم على أمل أن ينتصروا يوما ما .

وأوقع اكبر الفقهاء والعلماء والكهنة والمبشرين في ميدان الجدل والنقاش ، وخلال ذلك الجدل كان اكبر يبتعد رويدا عن جميع تلك المعتقدات وأخذ يكون لنفسه فلسفة قائمة بذاتها ، حتى اذا اكتملت الصورة لديه دعا اليها وهي (المذهب الالهى) .

(والمذهب الالهى) الذى دعا اليه اكبر يطالب بأن يعبدوا ربا واحدا « واكبر » ظله على الأرض ، وأن يعيشوا نباتيين لا يشربون الخمر ، ولا يكذبون . والمذهب يقوم على اساس المساواة التامة بين الرعية لا فرق بين شخص وآخر . فهو مذهب يريد أن يصهر الجميع في بوتقة . ولهذا اصندر اكبر من التشريعات التى تمنع ممارسة بعض العادات والتقاليد المتضاربة مع الانسانية بصفة عامة ومع مذهبه بصفة خاصة . ومن ذلك أنه منع الساتى منعا باتا ، والساتى هو أن تنتحر الأرملة - التى لا أطفال لها - فى أعقاب وفاة زوجها . وأحل اكبر زواج الهندوكيات الأرامل . وكان هذا محرما وفق العقائد البرهمية . ووضع شروطا للزواج ، فلا يتزوج العجائز من هم فى سن أبنائهم أو بناتهم ، ومنع زواج الفتى أو الفتاة الا بعد اكتمال الصفات الجسمية والعقلية والفقارية حتى لا يصاب الزوجان بأزمات نفسية خطيرة وحتى لا يخرج الى الدنيا أطفال مشوهون نتيجة

(١) الامبراطور الرومانى الذى يقال انه اعتنق الديانة المسيحية ، فقد اصدر مرسوم ميلان ٣١٣ م معطيا الحرية الدينية للمسيحيين فانتشرت المسيحية بسرعة في الدولة الرومانية بعد ذلك .

لتلك الزيجات المبكرة . ودعا أكبر الناس الى التزاوج من أسرات لا توجد بينها صلة القرابة ، لأن تزاوج الأقرباء يضعف النسل . وهو أمر أثبتته الطب الحديث . هذا الى أن التزاوج من خارج الأسرة يعين على تحطيم العصبية القبلية ويزيد من سرعة وسهولة التفاهم بين مختلفى أجزاء البلاد . وفي نفس الوقت منع تعدد الزوجات والحق أن الدين الاسلامى أباح التعدد ولكن بشروط شديدة (١) وتطور الأمر الى أن أصبح التعدد مباحا دون مراعاة لشروطه .

ان تلك المشروعات التى نفذها أكبر هى فى الواقع اصلاحات اجتماعية . وهى من ناحية تعتبر ثورة على المذاهب الهندوكية أكثر منها ثورة على الدين الاسلامى . لأن تلك المبادئ التى دعا اليها من مبادئ الدين الاسلامى أيضا . حقيقة الحياة النباتية ليست من الأمور التى دعا اليها الاسلام ولكنها لا تتعارض معه . فعدد ليس بالقليل من علماء المسلمين كان نباتيا .

ولكن هنا من يقول أن أكبر كان شديد الوطأة على المسلمين متسامحا مع الهندوكيين ومع المبشرين المسيحيين . وان بناء المساجد توقف فى أيام اتجاهاه الى فكرة المذهب الآلهى ، وان الناس امتنعوا عن تسمية أولادهم باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) نتيجة لذلك الاتجاها .

ان الأمر الذى لا جدال فيه أن أكبر فى محاولته تجميع الناس كلهم تحت لواء عقيدة واحدة أخذ يبتعد عن تعاليم الاسلام ويقترب من العلمانية ، ولكنه كشرقى كان فى حاجة الى دين سماوى ، وكامبراطور كان فى حاجة الى توحيد الناس تحت لوائه ومن هنا اتخذ الأسلوب الآلهى فى عملية صهر الجميع فى بوتقة واحدة . فاضطرب عليه الأمر ولم يستطع أن يرى الطريق الذى كان يسير فيه لا شعوريا . لقد كان أكبر يسير فى طريق (القومية الهندية) .

فلو استبدل أكبر مذهبه الآلهى بفكرة القومية لكان أجدى وما تعرض لاتهامه بالخروج عن الدين الاسلامى . فالقومية تترك لكل انسان حق عبادة الاله الذى يؤمن به

(١) الشروط على العدل فى المعاملة وهيئات أن يعدل من له أكثر من زوجة .

Edwards and Garrett : op. cit. p. 45.

في حرية تامة ، على أن يكون الولاء للهند . وبذلك تنصهر العناصر والعصبيات في بوتقة القومية وتعيش الأديان والمعتقدات جنبا الى جنب دون صراع . ان هذا هو ما نلمسه الآن في مختلف ارجاء العالم . فالحرية الدينية والقومية شيئان متكاملان ولم يدرك اكبر هذه الحقيقة لا عن قصر نظر وانما لان فكرة القومية لم تكن قد ظهرت بعد في الشرق الأقصى ولأن مفهوم القومية نفسه كان غريبا عند الشرقيين في تلك الفترة .

ان العجيب حقا هو أن الثورة الدينية التي بداها اكبر في الهند عاصرت ثورة دينية كبرى في أوروبا ضد الكنيسة البابوية وأن الفكرة القومية التي سار فيها اكبر كانت هي أساس الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأوروبا منذ عصر النهضة . فهل تأثير اكبر بتلك التيارات السياسية والدينية التي ظهرت في أوروبا حينذاك ؟

الواقع أن اكبر لم يتأثر بالفكر الأوروبي البروستنتي الثائر على الفكر الكاثوليكي البابوي . وإنما تأثر اكبر بأمرين هامين :

١ — واقع الأمور في الهند .

٢ — التيارات الحديثة الدينية في الهند القائلة بأنه على رأس الألف الثانية سيظهر المهدي المنتظر أو المسيح ليعيد العدل الى الأرض بعد أن ملئت ظلما وجورا .

ولا شك أن اكبر علم بتلك التيارات الدينية ، فهل رأى اكبر في نفسه أنه أحق من المدعين النبوة في أن يكون ظل الله على الأرض فهو أكثرهم علما واعرف الناس بالمناهج واقدرهم على توجيه أمور الرعية لما فيه الخير ^(١) .

والحق أن ما قاله الدكتور أحمد الساداتي في هذا الشأن هو خير بلورة للموضوع . فقد نال أن السياسة على دينه ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته ^(٢) . بينما يقول بول — بريس Powell - Price أن اكبر استهدف من منهبه الآلهي أن يصبح خليفة حتى يرتفع مكانته فوق مكانة السلطان العثماني والشاه الفارسي ^(٣) .

Ali : op. cit. : pp. 220, 223.

(١)

(٢) أحمد الساداتي . تاريخ المسلمين ج ٢ . ١٤٣ ويشاركة هذا الرأي كذلك :

Ali : op. cit. : pp. 219-220.

A History of India : p. 262.

(٣)

والمعتقد أن اكبر لم يفكر في موضوع الخلافة ولم يضع نفسه موضع المقارنة بالشاه أو بالسلطان وإنما كان تفكيره قاصرا على الهند والهند ولا يريد الانطلاق الى ما وراء الهند ولا الى المحيط الذى كان يزخر بالأساطيل الأوروبية .

هذا الموقف السلبي من القوى الأوروبية والعالمية فى المحيطات يفسر لنا علاقة اكبر بالبرتغاليين وان موقف اكبر من البرتغاليين يعتبر نقطة ضعف شديدة فى سياسته .

فلقد اطل اكبر على المحيط الهندى بعد استيلائه على اماره كجرات الواقعة على المحيط الهندى فأصبح على مرأى من الأسطول البرتغالى الذى احتكر السيطرة على المحيط الهندى وعلى طريق رأس الرجاء الصالح الى أوروبا وأغلق مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وأخذ كل سفينة عربية أو اسلامية غصبا ، يستولون على ما فيها ثم يحرقونها بمن فيها من حجاج بيت الله الحرام (١) .

ان هذا النشاط الصليبي البرتغالى فى المياه العربية الجنوبية هو حلقة من حلقات الحرب الصليبية التى كانت تشنها شبه الجزيرة الايبيرية ضد المسلمين . فماذا فعل اكبر بالبرتغاليين ؟

تحدثنا أخبار اكبر عن انه اتصل بهم عندما شرعت الاميرة جلبادان فى السفر بحرا الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج (١٥٧٥) . فقد خشى اكبر عليها من عدوان الأسطول البرتغالى ، فطلب من البرتغاليين عدم التعرض للاميرة وفى مقابل ذلك حصلوا على موقع على ساحل (دامان) ولما عادت الاميرة سالمة من رحلة الحج ، انقض جنود الدولة على دامان وديو وسورات وكانت كلها معاقل برتغالية . ولكن لم تستطع تلك القوات المغولية أن تطرد البرتغاليين من تلك المعاقل . وعندما احتج نائب الملك البرتغالى على ذلك الهجوم ادعى اكبر أن ذلك من عمل بعض عماله وانه لم يأمر بذلك . وأرسل اكبر رسالة ودية الى فرديناند الثانى ملك أسبانيا والبرتغال حينذاك مع أحد المبشرين الجزويت ولكن الرسالة لم تصل الى الملك (٢) .

ويقول المؤرخ سميث أن السبب الرئيسى الذى جعل اكبر يتصل بالبرتغاليين هو

Panikkar : Asia and Western Dominance, p. 42.

(١)

Powell-Price : op. cit : p. 264.

(٢)

ورغبته في الحصول على مساعدتهم العسكرية . فلقد وجد اكبر في فتح حصن (عسير) مشقة كبيرة جدا لأن العاملين على المدفعية في ذلك الحصن كانوا من البرتغاليين . كذلك نلاحظ أن سليما — الذي ثار على أبيه اكبر — طلب من البرتغاليين مساعدته في ثورته ضد أبيه .

ومما سبق يتبين لنا أن اكبر كان يدرك مدى قوة البرتغاليين البحرية ولكنه لم يواجه تلك القوة بالاستعدادات اللازمة . أو بمعنى آخر لم يرتفع اكبر الى المستوى المطلوب بالنسبة للسياسات والاستراتيجية العالمية . فالعصر الذي عاشه اكبر كان نهاية القوى البرية وبداية القوى المحيطية .

ان عدم ارتفاع اكبر الى مستوى الأحداث العالمية جعل الهند محاطة بالقوى المحيطية واضطرت الهند الى القوقعة وراء سواحلها ثم أخذت القوى البحرية تطرق أبواب الهند بقوة حتى انتهى الأمر بوقوع الهند بأسرها في قبضة الاستعمار الأوروبي (١) .

وكما كان اهمال اكبر لأمر القوى البحرية المحيطية من الأسباب التي مهدت للاستعمار الأوروبي ، كان تسليم اكبر أمر ابنه سليم الى مبشر برتغالي من العوامل الرئيسية التي أدت الى أن تصبح شخصية سليم مهزوزة والى أن يتحول الى ابن عاق .

ولعل السبب في اسناد أمر تعليم سليم الى أحد المبشرين الجزويت هو أن اكبر وجد فيهم ما لم يجده في المعلم التقليدي الاسلامي الذي حصر نفسه في تعاليم الدين ومناقشة المسائل الدينية والتعقيدات اللغوية دون أن ينطلق في زحمة العلم والاختراع والحياة الحديثة .

أما المبشر الجزويتي الأوروبي فكانت لديه معلومات أوسع في أمور الحياة لما كانت عليه أوروبا من تقدم واضح منذ القرن الخامس عشر وكانت الرحلات الطويلة البحرية والبرية التي يقوم بها المبشرون من أوروبا الى مختلف بقاع العالم تكسبهم خبرات ومعلومات هائلة .

(١) هذا ما حدث لمعظم الدول الشرقية (كالدولة الفارسية والدولة العثمانية) .

The Oxford Hist. of India, p. 353.

(٢)

ولكن اكبر حين اسلم امر تعليم سليم الى احد المبشرين كان في الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار . فالمبشر الجزويتى معروف بشدة تعصبه للكاثوليكية ومقتته الشديد للاسلام والمسلمين ، حتى لقد جر تعصبهم عليهم ثقله على بعض ملوك أوروبا حينذاك . وكانت البرتغال تتزعم حركة صليبية عسكرية تبشيرية واسعة النطاق . وتحت المبشرين على مضاعفة الجهد ضد القوى الاسلامية . ومن ثم حين يقوم مبشر جزويتى بتعليم سليم فان الأهداف الجزويتية التبشيرية ستكون أمامه في كل درس لسليم .

وهذا الأسلوب من التربية يتضمن تعاليم ليست فقط مخالفة لتعاليم الاسلام بل كذلك لطبيعة المجتمع الذى يعيش فيه سليم . فنشأ سليم مهزوز الشخصية مضطرب الوجدان زائف العقيدة . ومما زاد امر اضطراب شخصية سليم فى الضياع ان اكبر نفسه كان لا يثق كثيرا بالأديان والمعتقدات . فعاش سليم فى ضياع نفسى لا يستطيع أن يفهم منه الا بواسطة كؤوس الخمر وقطع الأفيون ، وأخيرا تمرد الابن على أبيه .

على أن ثورة سليم على أبيه وعقوقه هى صورة من صور ذلك العصر المتكررة . فلقد تصارع اولاد ببر بعد وفاته ، ولم يح اكبر هذا الدرس فلم يعمل على القضاء على داء الصراع الاسرى فى بيته . والغريب حقا هو أن ظروف اكبر وابنه سليم كانت تشير بكل تأكيد الى أن صراعا على العرش لن يقع بينهما أو حتى بين اولاد اكبر . فقد توفى مراد الابن الثانى لأكبر كما أن الابن الأصغر دنيال قد أصبح شبه أبله بسبب الخمر التى صرعت مراد وأصبحت تعد دنيال لنفس المصير . وهكذا لم يكن هناك سوى الابن الأكبر سليم الذى يستطيع أن يرث العرش . حقيقة كان سليم مدمن على الخمر ولكنه لم ينحدر الى ذلك المستوى الذى انحدر اليه أخواه مراد ودنيال . ومع هذا ثار سليم مطالبا باقصاء أبيه عن العرش .

هناك من يقول أن السبب فى ثورة سليم هو تحريض بعض الأمراء الهنادكة الحاقدين على اكبر وهناك من يعتقد أن سليما كان يشعر بضعف شخصيته والحاجة الى اثبات ذاته وأنه لا يقل عن أبيه قوة وعظمة وقدرة على أن يبني لنفسه ملكا بحمد السيف .

والواقع أن شخصية اكبر كانت طاغية ، وكان تركيب جسمه ضخما بارز العضلات

وتقاسيم وجهه صارمة وتاريخه مليء بالانتصارات والمغامرات فضاعت شخصية سليم في دوامة شخصية اكبر الطاغية .

كان سليم قد بلغ الحادية والثلاثين من عمره سنة ١٦٠٠ وتشبع بفكرة تأسيس ملك لنفسه بسيفه وجهده وأن يثبت للناس انه لا يقل عن أبيه مقدرة وعظمة . بل انه قادر على اسقاط ذلك الرجل الضخم النى أذل كل من وقف ضده .

ولكن هل يكفي كل هذا لتفسير أسباب ثورة ابن علي أبيه ليرث ملكا عريضا هو له ان أجلا أو عاجلا ؟ اننا نعتقد أن الخمر والأفيون من الأسباب الرئيسية وراء تلك النكبة الأسرية . فالخمر والأفيون ذات تأثيرات متناقضة . فهي تصيب مدمنها بمركب العظمة يغطى خورا في العزيمة وشفافية روحية زائفة مع اشراقات فلسفية يطلقها الخور في العزيمة وتلك العظمة المدعاة .

والحق أن طبيعة الأعمال التي قام بها سليم خلال ثورته ضد أبيه تثبت أن شخصيته كانت مهزوزة ومتناقضة . فقد بدأ عملياته الحربية مستهدفا احتلال اكرا ولكنه لم يلبث أن تحول عنها الى الله آباد لانها كانت في نظره أقرب منالا . وبدأ مترددا لا يثبت على خطة .

سمعت حميدة — جدة سليم — بأنباء تمرده ، وتذكرت سنوات الكفاح التي عاشتها مع همايون حتى استطاع أن يبنى لنفسه ولولده أكبر ملكا ، وخشيت أن يضيع ذلك الملك بسبب هذه الثورة الطائشة . ذهبت حميدة الى سليم وحثته على الكف عن هذه الفتنة طالما ان كل شيء سيكون له وأن ينتظر حتى يرث هذا الملك متكاملا بدلا من أن يحصل عليه ممزقا ملطخا بالدماء .

وعبثا حاولت حميدة اقناعه ، ولم يعد الا الاحتكام الى السيف ، بعد أن عاد أكبر من الجنوب مسرعا لمواجهة تمرد سليم . وبعث أكبر جيشا ضد ابنه بقيادة أبي الفضل ، الذي كان أشد الناس اخلاصا لأكبر ، وأحبهم الى قلبه ، وأكثر علماء ذلك العصر عمقا في التفكير ، وهو صاحب (أكبر نامه) التي تعتبر من روائع الانتاج الادبي والتاريخي في ذلك العصر . وقد كان أبو الفضل أديب القصر وفيلسوفه وقائد جيش أكبر .

أدرك سليم أنه لا شك سيهزم أن هو واجه أبا الفضل في معركة مكشوفة . ولهذا
لجأ سليم إلى الغدر . ودبر خطة لاغتيال أبي الفضل فغزت بنجاح (١) فادى مصرعه على
هذا النحو إلى إثارة ثائرة أكبر . ولكن أكبر كان قادراً على أن يكبح جماح نفسه في مثل
هذه الظروف العصيبة . ورأى أنه يجب التغلب على عقوق سليم بكل الطرق السلمية
والأعرضت الامبراطورية كلها للضياع . فكبت آلامه وبعث إلى ابنه رسولا استطاع أن
يقنع سليماً بالعودة إلى طاعة أبيه .

وأغلب الظن أن سليماً وجد أنه أن تمادى في ثورته قد يفقد كل شيء حيث ظهر
حزب قوى في البلاط ينادى برفع خسرو بن سليم نفسه إلى العرش بعد أكبر . وهكذا
بدأ سليم يشرب من الكأس التي أراد أن يسقيها لأبيه أكبر .

ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت طاعة سليم لأبيه غير صافية ، فقد كان سليم — رغم
تأكيدات أكبر له — يوجس خيفة من أبيه حتى تغلبت عليه أوهامه وشهر السلاح مرة
أخرى ضد أبيه . فعزم أكبر هذه المرة ليزحف على ابنه وليلقنه درساً يعيده إلى رشده .

وخشيت حميدة على سليم من ثورة أكبر الطاغية . ففادرت فراش المرض تستعطف
أكبر ليعود إلى أكرأ وألا يتابع الزحف ضد ابنه . وكان أكبر يعتقد أن حميدة تدعى
المرض استعطافاً له فلم يتأثر لدموعها ولكنها لا تكاد تعود إلى فراشها حتى لفظت أنفاسها
الأخيرة . فعاد أكبر إليها وأشرف على مراسيم دفنها إلى جوار شريكها في الجهاد همايون .
وبعد قليل جاءه نعى ابنه الأصغر دنيال . وكأنها كانت سنة المصائب والمحن بعد أن
طالت الحياة الحلوة بأكبر . وعاش أكبر في عالم كئيب تعس . وكان فقدان الأم الرؤم
والابن وثورة ابن آخر عاق كل هذا قد أثر على نفسية أكبر . وأثر أكبر أن يضمم بعض
الجراح الغائرة قبل أن تستفحل . ولهذا عكف على محاولة جديدة للتفاهم مع ابنه سليم .

راسل أكبر ابنه مرة أخرى ودعاه إلى ترك الخصام وأكد له أنه هو وارث كل شيء
من بعده ولا داعي لاسالة الدماء ونجح أكبر في اقناع ابنه بالعودة إلى طاعته وظل وراءه
حتى قبل سليم وذهب إلى أبيه نادماً ولكن في هذه المرة اعتقله أكبر حتى توسط من أجله
عدد من سيدات البلاط ورجاله . فاطلق سراحه وبعد ذلك مرض أكبر مرض الموت

وظهرت في القصر اتجاهات قوية نحو ابعاد سليم عن العرش واسناده الى خسرو بن سليم . ولكن ذهب سليم الى ابيه المحتضر وذرف دموع التوبة امامه فمد اكبر يده الى سيف همايون وسلمه الى سليم ليتولى به أمر الامبراطورية من بعده .

ومات اكبر بين يدي ابنه سليم الذي حمله الى مشواه الأخير في قلعة اكرا . وتمت مراسيم الدفن بسرعة اذهلت الآباء الجزويت الذين كانوا ينتظرون المشاركة في الوداع الأخير بشموعهم وموسيقاهم الجنائزية فلم يدرك هؤلاء الآباء الجزويت أن من تعاليم الدين الاسلامي في الدفن السرعة مع البساطة في المراسيم الجنائزية (١) .

والملاحظ أن كتابات الآباء الجزويت عن اكبر غير ودية حتى بعد وفاته ، حيث أنهم اعتقدوا أنه غرر بهم عندما مال اليهم دون أن يتحول الى المسيحية واغلب الظن أن نقمة الآباء الجزويت كانت شديدة لانهم لم يظفروا من وراء مجهوداتهم التبشيرية فلم يتحول الى المسيحية الا أفراد قلائل جدا (١) .

لقد عاش اكبر طوال نصف قرن من الزمان والسيف في يده ولكنه كان في نفس الوقت صاحب حساسية فنية دقيقة وصاحب ذوق أدبي راق ولقد كان بهر وهمايون من المفرمين بالفنون والآداب ولكن لم يكن لدهما الوقت والفرصة والامكانيات التي توفرت لأكبر .

وتعتبر مدينة فتحبور أعظم مثال على روعة فن المعمار في أيام اكبر . فقد بناها لتكون عاصمته فاخرجها تحفة من تحف الهندسة ، وأصبح فن المعمار فيها نقطة تحول في تطور ذلك الفن في الهند ونقطة انطلاق جديدة له ، وكانت حدائقها بورودها وأشجارها ونافوراتها تضيف على المدينة جمالا شاعريا شرقيا ساحرا ، وكان طول فتحبور ميلين وعرضها ميل وكانت محاطة بالأسوار من ثلاث جهات . أما الجهة الرابعة فكانت تمتد بحيرة صناعية مترامية . ولا تزال بعض مبانيها قائمة الى الآن شاهدة على روعة ذلك الماضي القريب وصورة تعكس تعاسة تلك المدينة البائسة .

فان عمر تلك العاصمة كان قصيرا جدا لم يتجاوز خمسة عشرة عاما ، ثم هجرها

Binyon : op. cit. pp. 157-158.

(١)

Smith : op. cit. : p. 356.

(٢)

أكبر فاذا بالقصور خاوية ، والحدائق قد جفت أشجارها وأخذت بنات أوى والكلاب والقطط تمرح على القباب الرخامية والقصور القرمزية (١) .

وإذا كنا نجد هنا وهناك بعض بقايا تلك القصور الرائعة في فتحبور فائنا لا نجد أثرا على الإطلاق. (لعبادة خانة) مع أنها كانت قوية البناء مرتفعة وأكثر الأبنية فنا وأبعدها صيتا ، ولعل صدر أكبر في أيامه الأخير كان قد ضاق بذلك الانحراف عن الدين الاسلامي الذي وقع فيه خلال فتوته وجبروته، فانتزع ذلك البناء من أساسه ، حتى تضيع ذكراه . أو لعل بعض خلفائه هم الذين أقدموا على ذلك . الأمر لا يزال محيرا (٢) .

لم تكن احاسيس أكبر الفنية بقاصرة على المعمار وهندسته وانما تعدتها الى فنون الرسم والتصوير . وتعتبر رسوم الفنان عبد الصمد من آيات ذلك العصر . ولشدة ولع أكبر بهذه الفنون أسس مدرسة ابتدعت جديدا في الألوان والرسم وأخرجت لوحات قنيصة عايسة (٣) .

ان رجلا عرف عنه حب فنون المعمار والتصوير لا بد وأن يعشق الأدب وأساليب الفن الأخرى السماعية والوجدانية . فمع أن فنون الموسيقى كانت ضائعة بين فنون الهند الا انها أصبحت في عهد أكبر ذات مكانة ممتازة بين فنون العصر . وكان أكبر لشدة ولعه بالموسيقى يحتفظ في قصره بجوقة موسيقية تعزف له الأنغام كلما استشعر حينا الى الشفافية الروحية .

أما اذا انتقلنا الى الأدب في عهد أكبر فائنا نطرق فنا أصبح من أرقى الفنون حينذاك . فهو عهد ارتقاء الآداب الفارسية والهندية على السواء . فبالفارسية كتب أبو الفضل أروع إنتاج أدبي في ذلك العصر ونعني به (أكبر نامه) .

والى جانبه كان يوجد عبد القادر البدواني صاحب منتخب التواريخ الذي كتب فيه تاريخ أكبر من وجهة نظر أخرى تختلف عن (أكبر نامه) .

(١) Powell - Price : op. cit. : pp. 276-280; Lane- Poole : op. cit. pp.

270-271; Binyon : op. cit. p. 13; Smith : op. cit. : p. 343

Smith : the Oxford Hist. of India : pp. 346-7.

(٢)

Powell-Price : op. cit. p. 280.

(٣)

وأما الشاعر فيضى فكان متعمقا في الدراسات العربية وفي الطب ، وظهر بجانبه عدد من الشعراء الذين غطوا سماء الهند بأغاني الحب والوجد ، ولم تختلف سيدات البيت المفصول عن الخوض في مجال الأدب ، فقد كانت جلبدان بيجوم (ابنة ببر وعمة اكبر) في طليعة المثقفات والأديبات . فهي مؤلفة (هياميون نامة) كذلك السلطانة سليمة (زوجة اكبر) وماهان انكرا من اديبات ومتنوعات الأدب حينذاك . وكان اكبر متعلقا بهن . وانه لأمر عجيب حقا ان يعيش اكبر في بلاط مثقف هكذا رجالا وأمراء وأميرات وسلطانات وأن يكون هو أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان ذا ذاكرة خارقة يحفظ ما يسمع وكان يستمع الى الكتاب ويناقش عويص المشكلات الأدبية والفنية ويقال أن مكتبته الضخمة حوت ٢٤ ألف مخطوط من أنفس المخطوطات .

وكان في بلاطه أعظم الأدباء والشعراء ويحصلون على جوائز كبيرة مقابل ما يتقدمون ولقد كان العصر عصر المجالس الأدبية في البلاطات الكبرى الأوروبية في بلاط اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا وفي عهدها نبغ شكسبير ، وكلاهما كان صاحب ذوق أدبي رفيع . وكذلك كان الحال في الهند على يد اكبر (١) .

لقد كان عصر اكبر آخر عصر من عصور القوة الإسلامية في الشرق . كان عصر السلطان سليمان القانوني العثماني وعصر الشاه عباس الأول في فارس وكان عصر هؤلاء يقابل عصر النهضة الأوروبية الكبرى .

★ ★ ★

الفصل الثالث

تدهور النبوة الإسلامية المفولية

وسقوطها

يعتبر شاه جهانكير (١٦٠٥ - ١٦٢٧ م) - (١٠١٤ - ١٠٣٧ هـ) وأورانكزيب (١٦٦٩ - ١٧٠٧) آخر الأباطرة الكبار المغول ولكنهما لم يكونا على مستوى ببر أو اكبر، وورثا نفس المشاكل الكبرى التي كان يواجهها اكبر وهي الصراع لأسرى والحروب المتصلة ضد الامارات الساعية الى الاستقلال وكان هذان العاملان كالسوس ينخر في عظام الدولة المغولية ، فضلا عن التغفل الاستعماري .

ثار خسرو - بن جهانكير - على أبيه وانضم الى خسرو عدد من الناقمين على أبيه، وعدد من الزعماء الهندوكيين، ومن بينهم (كورو) زعيم السك ، فما كان من جهانكير الا أن قتل (كورو) ، ليصبح من بعد ذلك شهيدا قديسا لدى طائفته التي ستعادي الدولة المغولية على طول الخط ، وسمل جهانكير عيني ابنه خسرو ، وهزم الأمراء الأفغانيين الثائرين ، ولكنه لم يكن شديد الوطأة عليهم ، واصطدم بعنف مع قوة هندوكية ناشئة هي قوة « الماراتا » وستكون في المستقبل قوة لها شأنها في توجيه الأمور .

وثار ابن آخر لجهانكير أيضا وهو (شاهجهان) ، وجاء هذا بعد أن استولى الشاه عباس الكبير (الصفوي) على قندهار . ولكن مما الهب حدة هذا الصراع بين جهانكير وابنه شاهجهان تحريض (نورجهان) الجميلة لزوجها ضد ابنه . وكان الامبراطور جهانكير شديد الوله بزوجته ، وكانت هي ذات شخصية قوية وذهن حاضر وذكاء وعلى علم وسمو فكري وارادة ، حتى لقد أصبحت في فترة من الفترات صاحبة اليد العليا في توجيه أمور البلاد . ونظرا لأن الامبراطور كان سكيراً فقد استغلت ذلك في توجيه أمور البلاد بالطريقة التي تريدها ، الأمر الذي أدى الى نشوب الكثير من الثورات الكبيرة .

ووقعت فتنة كبرى بين الأمراء في عهد شاهجهان بن جهانكير أتت على الزرع والضرع في مواقع الصدام ولن يصل أورانكزيب الى العرش الا بعد سلسلة من المعارك الدموية ضد ذوى قرباه وظلت هذه الحروب الأسرية تتوالى حتى أصبح الامبراطور المغولي العربيه في يد القوى التي يعتمد عليها من أجل الوصول الى العرش في دلهي ، وبلغ هذا الضعف ذروته عندما دخل شاه علم دلهي على أسنة رماح الماراتا الهندوكيين في (١٧٧٢ - ١١٨٥ هـ) .

وفي عهد خلفاء أكبر كانت الجبهة الإسلامية في الهند شديدة التفكك ليس فقط بسبب تلك الصراعات الدموية الأسرية وإنما أيضا بسبب نمو الحركة الشعبية بين مسلمي الهند والمعروف عن المغول أنهم كانوا سنة متحمسين لسنيتهم وأنهم كانوا ينظرون — والألم يعتصر قلبهم — إلى الهند الوثنية وقد تعددت طوائفها تعدد الآلهة المائة والعشرين أو قل المائتين الذين كانوا يعبدون في الهند ، وكانوا يرجون توحيد الهند تحت راية المغول السياسية وتحت راية الإسلام الدينية على المذهب السني أو أن يدخلوا في دين يوفق بين معتقداتهم والدين الإسلامي ولكن فشلت مساعيهم فأقل ما أصبح يرجوه أباطرة المغول هو أن يظل المسلمون متمسكين بوحدهم الدينية والمذهبية ، ولكن بدأت الدعوة (الشيعية) تنتشر في الهند وخاصة في مناطق الدكن وبدأت حركات انفصالية شيعية في تلك الجهات رأى فيها الامبراطور أرانكزيب خطرا شديدا على دولته .

وكان أرانكزيب على عكس « ببر و أكبر » شديد التمسك بالاسلام وبقواعده الأولى وبأن يطبق مبادئ الاسلام الشرعية دون أن ينهج منهج التوفيق ودون أن ينظر إلى الاعتبار الخاصة التي جعلت ببر وهمايون و أكبر وجهانكيز يتبعون سياسة التسامح الديني .

ومع هذا فهناك مبررات خاصة أيضا جعلت من أورانكزيب يضع جانبا فكرة التسامح والمساواة ويفرض الجزية على الهندوس ، ويبعد الأمراء (الراجبوت) عن مناصب الحكم والادارة ، وينقض بسيف الانتقام على الشيعة وعلى الهندوس على السواء في عنف واضح .

فلقد ذهبت أيام ذروة الدولة ، تلك الذروة التي كانت على أيام أكبر ، وبدأت الدولة المغولية تهبط من عليائها ، وكان أورانكزيب يشعر بهذا ، وفي مثل هذه الظروف يحل التطرف محل التسامح ، ولم تكن قوة أورانكزيب على ذلك المستوى الذي كانت عليه على أيام أكبر ، بينما أصبحت القوى المعادية أشد صلابة وأقوى تسلحا ، وتعتمد على فكر حضاري وفلسفي أكثر تطورا عن ذي قبل . وكان هذا حال الماراتا والسيخ والراجبوت بصفة خاصة أيام أورانكزيب .

لقد أحرز أورانكزيب انتصارات كبيرة ضد تلك القوى ، واتسعت دولته حتى كادت أن تصل إلى شبه القارة الهندية الجنوبية ، ولكن نتائج تلك الانتصارات — في اعتقادنا —

هى بداية النهاية بالنسبة لامبراطورية المغول فبالنسبة الى الراجبوت نجد انهم صمدوا، بل أصبحوا بعد ذلك القوة الرئيسية التى اعتمد عليها ابنه (اكبر) لعله يصل بواسطتها الى العرش .

حارب أورانكزيب (المراتا) زهاء ربع قرن أو أكثر فأصابهم بالنكبات ، وأصابوا هم بلاده بالدمار ، وأصابوا خزينته بالخراب ، ومن بعد ذلك دب التحلل فى امبراطورية المغول، كما دب التحلل فى المراتا فى نفس الوقت الذى كانت فيه القوى الشمالية الاسلامية الأفغانية والفارسية تتطلع الى السيطرة على هذه البلاد المفككة .

فقد تعرضت الهند لغزوة كبرى فارسية بقيادة نادر شاه (١) . ثم لغزوة أفغانية . وتختلف هاتان الغزوتان الاسلاميتان الشماليتان عن تلك الغزوات الاسلامية التى هبطت الهند من بواباتها الشمالية . فقد كانت تلك الغزوات الشمالية السابقة عليهما غزوات حضارية يقودها بناء دول وامبراطوريات ، أما غزوة نادر شاه فكانت تهدف الى أن تصبح الهند مصدر ثراء لفارس . كان نادر شاه قائدا عسكريا ناجحا ولكنه لم يكن على المستوى الادارى الذى يمكنه من بناء دولة له فى الهند . فضاعت فتوحاته فى الهند ، كما سقطت أسرته فى فارس فى أعقاب وفاته وتفكك جيشه ، وضاعت آخر فرصة لانقاذ الهند من القوى الأوروبية المتربصة بها ، كما ضاعت آخر فرصة للتخفيف من حدة التيار الشيعى فى فارس .

لقد استطاعت القوى الاسلامية أن تفتح الهند عسكريا وحضاريا ، واستطاع المسلمون أن ينقلوا الهند من مستويات حكم متدنية الى مستويات أكثر تقدما . وكانت حضارة المغول مزيجا من حضارة الاسلام وحضارة الهند ، وكانت سياسة الأباطرة المغول نحو رعييتهم من الهنود لا تختلف عن سياسة أى حاكم اسلامى لرعيته من المسلمين . وركزوا — باستثناء قلة قليلة — على سياسة التسامح الدينى ، وتجنب التعصب والطائفية . فالأباطرة المغول كانوا يبنون ملكا كبيرا لهم ولأولادهم يقوم على اكتاف شعب كبير من الهندوس . ولا شك أن أروع ما فى حكم هؤلاء هو التسامح الدينى . وكان رفعهم الأمراء الهندوكيين الى مناصب الحكم والادارة الى جانب المسلمين واحدة من روائع التسامح الاسلامى لدى المغول .

ولكن الامتزاج بين المسلمين والهندوس لم يتكامل ، وظلت قوى هندوسية متعصبة ، تنظر الى تراث الماضى والى ما كان لهم من يد عليا فى الحكم والادارة ، وتتطلع الى استعادة هذا الحكم من المسلمين الذين احتكروا العرش لأنفسهم . وكان الوسط والجنوب هو أبعد المناطق عن يد الحكام المسلمين ، وكانت فيه دول هندوكية قوية استطاعت أن تقف على قدميها حتى فى وجه « أكبر » . وكان هناك جهود فى هذه الدول الهندوكية لرفع شأنها وتطوير قدراتها .

لقد انتشرت عمليات التطوير والنهضة بشتى الصور العملية والفلسفية بين الطوائف الهندوكية ، وكانت المقارنة بين حضارة وتفوق المسلمين وبين ما كان لدى الهنود من حضارة ، وما صارت اليه من تدهور ، كانت هذه المقارنة تثير فى نفوس المفكرين الهندوس روح البحث والتنقيب عن أسباب التفوق والتدهور ، وناقشوا عقائدهم الموروثة ، واعادوا تقييمها ليخرجوا من وراء كل هذا بأفكار جديدة ، وأهداف جديدة ، بعضها من تراث انهند القديم ، وبعضها أخذوه من الاسلام والمسلمين . وظهرت طوائف عقائدها هندوسية اسلامية أو قل اسلامية هندوكية ، مثل السيخ ، ومثل اتباع مذهب (برهمو سماج) ومثل طائفة (أريا سماج) .

ولكن الى جانب هذا التفوق الحضارى الاسلامى ظلت هناك مناطق وامارات قوية متمسكة كل التمسك بعقائدها القديمة ، ولغتها القديمة ، وترى شخصيتها فى التعلق بتلك العقائد واللغات . ولقد كانت دولة (فيايانكر) واحدة من تلك الدول الهندوسية شديدة التعصب ضد الدولة المغولية سواء من الناحية الدينية أو الناحية السياسية ، بل ومن الناحية الحضارية ايضا . وساعدها على ذلك انها كانت تركز على الطرف الجنوبى من شبه القارة الهندية فكان أن ظلت الهند تعاني من صراع بين الحضارتين الهندية والاسلامية فكان هذا الصراع الى جانب تفكك الدولة المغولية بعد أورانكزيب من العوامل الجوهرية التى مهدت لتفوق قوى خارجية أجنبية جديدة على الهند بعضها استقر على السواحل فترة مثل (البرتغاليين) و (الفرنسيين) وبعضهم انطلق من السواحل الى الداخل مثل الانجليز حتى جعلوا الهند كلها (من ممتلكات التاج البريطانى) .

لا شك أن اقوى عامل ادى الى فتح الهند أمام الأوروبيين — الى جانب تلك

العوامل — هو أن نظم الحكم والادارة والانتاج واتجاهات السياسة الخارجية في الهند لم تكن على مستوى العصر ، كما أن القدرات العسكرية في داخل الهند لدى المسلمين والهندوس على السواء كانت تمت الى القرون السابقة ولم يتجه المسلمون ولا الهندوكيون الى القوة الضاربة الحديثة (البحرية) فظلت متأخرة في عصر أصبحت فيه القوة البحرية والمحيطية هي أداة الحرب والتوسع الأولى . وكانت هناك على الشواطئ الهندية الغربية قوتان كبيرتان اصطدمتا بالبرتغاليين في وقت مبكر وهما :

١ — اماره كجرات في شمال غرب الهند .

٢ — قليقوت (كاليكوت) .

كانت اماره كجرات واحدة من أقوى الامارات الاسلامية منذ القرن السادس عشر وكانت ذات علاقات تجارية على نطاق واسع مع البلاد العربية وشرق أفريقيا . وعندما جاء البرتغاليون ببوارجهم الكبيرة المزودة بصفوف المدافع انقضوا على كل سفينة اسلامية غصبا ، كانوا يستولون على بضائعها ويحرقونها بمن فيها من رجال ونساء وأطفال ويبيعون الأسرى بيع الرقيق ، ففقدوا بذلك على مبدأ هام اسلامي هو حرية البحار . واستصرخت اماره كجرات سلاطين المسلمين وخاصة قنصوه الغوري — سلطان مصر المملوكي — ثم استصرخت السلطان العثماني سليم الأول الذي استولى على مصر سنة ١٥١٧ م ثم دعت السلطان سليمان القانوني العثماني ليتعاون مع مسلمي الهند ضد هذا العدوان الصليبي البرتغالي .

ولقد بعث الغوري بأسطول بحري كبير نازل الأسطول البرتغالي في موقعة ديو الشهيرة سنة ١٥٠٩ . والملاحظ هنا أن الجهد الكبير الذي كان يبذل لانقاذ خطوط التجارة العالمية البحرية أصبح على عاتق مصر ، وأصبح عليا أن تنازل أساطيل البرتغال على مقربة من شواطئ الهند دون أن يبذل حكام الهند مجهودا مماثلا . وذلك لأن حكام الهند في مطلع القرن السادس عشر كانوا لا يعيرون التفاتا كبيرا الى ما يحدث على سطح المحيطات من تطورات في أساليب الملاحة والحرب المحيطية ومن معارك عالمية حاسمة ، وكانت معركة ديو من بين هذه المعارك العالمية الحاسمة ، ولم ينصر فيها أي من الطرفين البرتغالي أو المصري . ومع هذا فالنتائج لصالح البرتغاليين حيث ظلوا محتفظين بمواقع أقدامهم — القليلة ولكن الخطيرة — على الشواطئ الهندية . وتفصلهم جبال

الغات الغربية عما يدور في داخل الهند من حروب كبرى بين أباطرة المغول والامارات الهندية الاسلامية والهندوكية .

انفرد البرتغاليون بخطوط الملاحة العالمية المؤدية الى الهند حوالى قرن ، وبدأت امبراطوريتهم البحرية تنهار تحت ضربات القوى البحرية الأوروبية القومية الناشئة وعلى وجه الخصوص هولندا وفرنسا وبريطانيا . اذ عملت هذه القوى على كسر احتكار البرتغاليين لخطوط الملاحة البحرية الى الهند ، ونجحوا في ذلك عن طريق الشركات التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية التي كانت لها أساطيلها الحربية والتجارية القادرة على التصدي للقوى البرتغالية . ومن أشهر هذه الشركات شركة الهند الشرقية البريطانية التي ظهرت في مطلع القرن السابع عشر .

كانت هذه الشركة تنشئ وكالات (Factory) في أول الأمر على السواحل الهندية وكان يحصل عليها الانجليز في مقابل أموال يدفعونها الى السلطات الحاكمة المحلية .

وكانت بومباي وسورات ومدراس وكلكتا أهم المناطق التي أنشأ فيها الانجليز وكالات لهم . وكان الحكام المغول لا يشعرون بخطورة هذه الوكالات الصغيرة عليهم ، ولم يبركوا أن وراء هذه الوكالات شركة كبيرة بحرية ذات أسطول قوى يستطيع أن يضرب حصاراً شديداً على الهند . وكانت الصدامات الأولى بين تلك الوكالات والسلطات المحلية التابعة لدولة المغول تؤكد لهذه السلطات أن هذه الوكالات تافهة الشأن وظل حكام الهند المسلمين لمدة طويلة يعتقدون ذلك .

كانت شركة الهند البريطانية في أول الأمر تنقل البضائع من الهند الى أوروبا أما بعد الانقلاب الصناعى أصبحت — الى جانب ذلك — تنقل الانتاج الصناعى الانجليزى المتكدس الى الهند ، وهذا هو الذى يفسر لنا انتقال مهمة الوكالات البريطانية من مجرد التبادل التجارى الى الاستعمار المباشر . فقد كان على شركة الهند الشرقية البريطانية أن تباع كميات متزايدة من انتاج بريطانيا ومن ثم كانت في حاجة الى فتح أسواق في داخل الهند وجاء هذا في وقت كانت فيه امبراطورية المغول قد تفككت وحلت محلها — في الاقاليم الشرقية — امبراطورية المراتا وكان مركزها في (بونا) كما كانت هنا وهناك في شبه القارة امارات متعددة اسلامية وراثية ضعيفة متناحرة . هذا التفكك وهذا التصارع يجعل حاجة الأمراء في الهند متزايدة الى الأموال . وكانت قد ظهرت حينذاك طبقة من

الرأسماليين الهنود المرتبطين بتلك الوكالات الانجليزية ، وبدأت هذه الرأسمالية الهندية
بأن تقدمه الى هذا الأمير أو ذاك — تؤثر على توجيه الأمور السياسية .

كانت هذه الرأسمالية الهندية من الهندوس في غالبيتها العظمى . وكانت تكن
كراهية شديدة للمسلمين ولحكام البنغال من قبل الامبراطور المغولي . واستطاعت هذه
الرأسمالية أن تتغلغل في بلاطات الأمراء والحاكم . وأن تثير الفوضى السياسية هنا
وهناك بدافع من الكراهية المذهبية ، وبدافع الحصول على أرباح وفيرة من وراء القروض
التي كانوا يقدمونها الى الأمراء بفوائد عالية للغاية . ونظرا لارتباطهم (بالوكالة
البريطانية) كانت أعمالهم وسياساتهم المالية تستهدف تفويض نفوذ الحكومة المركزية
(المغولية) أو أية شخصية قوية تستطيع أن تفرض كلمتها على المنطقة الساحلية حتى
تظل يد الانجليز مطلقة في عملياتهم التجارية بعيدة عن متناول يد الحكومة . وهذا يفسر
لنا العداء الذي كان بين هذه الرأسمالية الهندية وسراج الدولة نائب الامبراطور في إقليم
البنغال ، فقد عمل سراج الدولة على السيطرة على مراكز الانجليز على الساحل ، وبوجه
خاص معقلهم المنيع في فورت ولیم .

زحف سراج الدولة على فورت ولیم ، وهزم القوات الانجليزية — الهندية
المشتركة ، واستولى على الحصن في ٢٠ يونيو / حزيران ١٧٥٦ . وكان هذا التفوق
الذي أبداه « سراج الدولة » خطرا كبيرا على الوجود الاستعماري البريطاني في الهند ،
وبوجه خاص في البنغال . ولذلك قرر الانجليز أن يعيدوا النظر في سياستهم في الهند ،
وفعلا أسندوا الأمور الى رجل على جانب كبير من الخبرة والذكاء وهو كليف Clive
وتولى الرجل مهمة القضاء على سراج الدولة ، خاصة وان سراج الدولة كان قد اعتمد على
بعض الضباط الفرنسيين في تدريب وتجهيز جيشه . وكانت فرنسا حينذاك تخوض
حرب السنوات السبع (١) ضد بريطانيا وحلفائها .

كان (كليف) يدرك أن الجيش الانجليزي رغم تفوقه في سلاح المدفعية لا يستطيع
التفوق على جيش سراج الدولة الكثيف . ولكن كانت ظروف الهند المتفككة تعطي
للانجليز فرصا واسعة لأن يجدوا لكل أمير عدوا مستعدا للتعاون معهم . بل لقد وجد
الانجليز بين خلاء سراج الدولة من كان مستعدا لأن يخونه طمعا في أن يحل محله . لقد

(١) حرب السنوات السبع من ١٧٥٦ — ١٧٦٣ .

كان (مير جعفر) رجلاً شديداً الانانية لا يقيم وزناً للوطن أو للصداقة أو للملة في سبيل الحصول على الأموال والمنصب الرفيع . فاشترى الانجليز ، واتفقوا معه على أن يخون ولي نعمته سراج الدولة خلال الحرب التي ستقع بين الانجليز وحلفائهم ضد سراج الدولة .

وفي بلاسى Plassy في ٢٣ يونيو/حزيران ١٧٥٧ دارت المعركة . وبينما كانت المعركة تتذبذب بين هذا الطرف وذاك ، ضرب مير جعفر ضربته في الوقت المناسب ، وانقضت القوات الانجليزية وما معها من الحلفاء على جيش سراج الدولة فأبادته ، ولم يلبث أن وقع سراج الدولة نفسه في يد الانجليز فاعدموه ، بينما تولى مير جعفر حكم البنغال .

كان هذا الانتصار الانجليزي الكبير في (بلاسى) نقطة تحول كبيرة في تاريخ الهند بصفة خاصة . ولقد كانت لأنباء هذا الانتصار وذلك المصير الذي لقيه سراج الدولة صدى قوى لدى الحكومة المركزية المغولية الضعيفة في دلهي . وأدركت القوى الاسلامية الحاكمة أن الخطر الانجليزي أصبح أعظم من أن تترك له أبواب الهند هكذا مفتوحة . ولكن هذا الإدراك جاء بعد فوات الآوان بزمان طويل . فارسل الامبراطور المغولي جيشاً ضد الانجليز وحلفائهم . فدارت معركة (بوكسار) Buxar في ١٧٦٤ وفيها كانت الهزيمة الحاسمة للامبراطورية المغولية ، وفقدت الى الأبد البنغال اذ أرغم الانجليز الامبراطور المغولي على أن يمنح الشركة الحق « الديواني » أي « حق التصرف الإداري في الإيرادات في مناطق البنغال وبيهار وأوريسا العريضة الثراء » .

ماذا أصبحت عليه أحوال البنغال بعد أن أصبحت في يد الانجليز ؟ هذا السؤال أجاب عنه المؤرخ الهندي الكبير بانيكار .

« انقضت على تلك الولاية المنظمة عشر أعوام كانت كل قواها فيها توجه نحو غرض واحد . . هو النهب ، كانت دولة لصوص نشأت على ظهر البسيطة وكتب ريتشارد بكر - أحد موظفي الشركة . الى ساداته في لندن بتاريخ ٢٤ مايو ١٧٦٩ يقول : لا بد أن يحز في نفس أي انجليزي أن يكون لديه من الأسباب ما يدعو الى الظن بأنه منذ أن تولت الشركة جمع (الديواني) سارت أحوال الناس في هذه البلاد اسوأ مما كانت عليه من قبل . . فان هذا البلد البديع كان يزدهر

تحت أشد الحكام استبدادا وتعسفا أخذ يشرف على الدمار . وهناك وثيقة تسترعى الأنظار، شكوا فيها بعض البارزين من أصحاب الأملاك الى المجلس وذكروا في ملتمسهم : أن وكالات السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجودة في كل مكان وبكل قرية بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء ولاية البنغال . .
١ . وهم يتجرون . . في جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر من انواع السلع يوجد بالبلاد ، ولكي يشتروا هذه السلع يفرضون نفوذهم فرضا على كل فلاح حتى اذا اشتروا البضائع بهذه الوسائل الاستبدادية بثمان بخس يجبرون السكان وأصحاب الدكاكين على شرائها بثمان مرتفع يزيد على ما يدفع لها في الأسواق . . الواقع انه لم يعد باقيا في هذه البلاد شيء تقريبا .

ذلك كان مصير البنغال على يد شركة الهند الشرقية البريطانية ، ولقد أعان ذلك الانجليز على أن يكرروا نفس خططهم مع بقية القوى العديدة المتناحرة في داخل الهند ، فارغموا (نظام حيدر آباد) على أن يسرح القوات التي كان قد دربها الفرنسيون من قبل ، ثم هاجموا أكبر قوة في الهند حينذاك هي (الماراتا) ، وهزموها شر هزيمة في موقعة (آساي) بالدكن ١٨٠٣ ثم قرب « بونا » في ١٨١٥ . ولم يبق أمامهم من قوة كبيرة قادرة على التصدي للانجليز سوى امارة (ميسور) التي تولاهها حيدر على ثم خلفه عليها ابنه فتح على أشد أعداء الانجليز .

كان حيدر على قد استطاع أن يصبح ملك ميسور خلال منتصف القرن الثامن عشر . وكانت تحيط بميسور قوى عديدة معادية . فالى جانب الانجليز ، كان جاره « نظام حيدر آباد » مستعدا للتوسع على حسابه اذا ما واثته الفرصة بالتعاون مع الانجليز . وكان الماراتا من خصوم (حيدر على) الالقاء . فكان أن شكل الانجليز من هؤلاء الخصوم حلفا ضد ميسور وهاجموها (١٧٦٥) . ولقد استطاع (حيدر على) أن يصمد ضدهم ، وأن يثبت أنه قادر على التفوق . ولكنه كان تفوقا مؤقتا حيث أن قوى الخصوم كانت مستعدة لأن تعيد الكرة جماعة وفرادا ، الأمر الذي كان ينهك قوى ميسور ويحملها أعباء فوق طاقتها . خاصة أن (حيدر على) أدرك أن التفوق على الانجليز تفوقا حاسما لا يمكن أن يتم طالما هو لا يزال متبعا الطريقة التقليدية في اعداد الجيوش ، وأنه لا بد من الاستعانة بالخبراء الأوروبيين في تدريب وتجهيز الجيش بالمدفعية الحديثة .

ونشط (حيدر على) في تحقيق هدفه ، واستخدم الفرنسيون في إعادة بناء جيشه ، واستطاع أن يحقق الانتصارات عندما دخل في حرب ضد الانجليز ، ولكنه كان في حاجة ماسة الى معونة الفرنسيين البحرية ، ولقد قدموا هؤلاء بعض المساعدة التي اعانته على الصمود أمام الانجليز وحلفائهم لفترة ليست بالقصيرة ، حتى اذا ما انتهت حرب الاستقلال الأمريكية ، الى وقفت فيها فرنسا ضد بريطانيا ، نفضت فرنسا يدها من (حيدر على) ، وتركته يواجه الانجليز وحده ، ولذلك تفوقوا عليه واضطروه الى التراجع الى الداخل ، ولم يلبث أن مات في ١٧٨٢ ليخلفه ابنه (فتح على) المشهور باسم « تيبو » ، ليتابع من بعد القتال ضد الانجليز وحلفائهم (نظام حيدر آباد والماراتا) ، فهزموه وأرغموه على عقد اتفاقية (سرنجا باتام) التي فقد فيها الكثير من أملاكه ودفع غرامة باهظة (١٧٩٢) .

ولكن استمر تيبو في العمل على إعادة تنظيم قواته ، وكان يبحث كذلك عن حلفاء يستطيعون الوقوف معه ضد هذا الخطر الضخم . ولكن لم يكن في الهند حليف يمكن أن يطمئن اليه (تيبو) ، وتطلع الى فرنسا التي كانت قد قامت فيها الثورة الفرنسية الكبرى ، وأعلنت بريطانيا الحرب على فرنسا في ١٧٩٣ . وبعد أن سيطر بونابرت على ايطاليا شرع يفكر هو وحكومة الادارة الفرنسية في ارسال حملة الى مصر لتكون قاعدة للوثوب على الانجليز في الهند .

وكانت آمال بونابرت في الاتصال والتعاون مع تيبو كبيرة وهذا ما تبينه الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر . وكذلك كان تاليران وزير خارجية حكومة الادارة متحمسا للاتصال بتيبو والتعاون معه في عمل مشترك عسكري ضد الانجليز . وكان تاليران يعتقد أن سقوط مصر في يد الجيش الفرنسي سيكون سهلا ، ومنها يمكن أن يرسل الفرنسيون قوة مؤلفة من خمسة عشر ألف مقاتل الى تيبو لمعاونته في طرد الانجليز من الهند .

كذلك كان كل من تاليران وبونابرت يعتقدان أن في الهند العديد من الأمراء المسعدين للعمل معهم ضد الانجليز . ولقد كان هناك فعلا العديد من القوى المحلية الهندية الكارهة للوجود الاستعماري البريطاني ، ولكن الشيء الذي غاب عن الفرنسيين ان امكانية تحريك هذه القوى في جبهة متحدة ضد الانجليز كان مستحيلا .

وعلى أى حال ، كان على الفرنسيين أن يستعينوا بكل قوة يمكن أن تتحرك ضد الانجليز أو معادية لهم . ولهذا بعثت حكومة الادارة برسائل الى فتح على حيدر (تيبو) وملك جزيرة سيلان وعدد آخر من أمراء الهند تحثهم على زيادة نشاطهم العسكرى ضد الانجليز والتعاون مع الفرنسيين ضدهم .

ولكن الرسالة التى أرسلت الى تيبو وقعت فى يد الانجليز ، وأدرك الانجليز أنهم فى موقف يتطلب منهم القضاء عليه ، خاصة بعد أن علموا بنزول الجيش الفرنسى الى أرض مصر (١٧٩٨) . فشدد الانجليز حملاتهم عليه وحاصروه فى عاصمته (سرنكا باتام) .

ومثلما حدث مع سراج الدولة ، حدث لتيبو . فقد كان الانجليز على صلة قوية مع (مير صادق) ، أحد قواد تيبو . وأغروه بالخيانة ، فخان تيبو فى أدق موقف ، وفتح للانجليز باب القلعة فاستولوا عليها وظل تيبو يقاتل المهاجمين حتى سقطت السيف فى يده . فتخلص الانجليز بذلك من أخطر قوة وطنية تصدت لسياستهم الاستعمارية . وكان آخر حاكم اسلامى كبير يقف فى وجه الانجليز وقفة صلبة . ولم يلبث أن توسع الانجليز بسرعة فى الهند ، ليضعوها بأسرها تحت سيطرتهم المباشرة بعد أن قضوا على مقاومة الماراتا ، والسيخ والامارات الاسلامية الباقية ، ولكن ظلت هناك آمال لدى هذه القوى لحركة كبرى ضد المستعمر . وتحركت قوى الهند فى ثورتها الكبرى المشهورة فى مايو ١٨٥٧ .

الفصل الرابع

الثورة الهندية

١٨٥٧ - ١٨٥٨

الثورة الهندية واحدة من أهم ثورات (العالم الثالث) التحررية ، وهي - مثل الثورة العرابية في مصر - التي عمل المستعمر الانجليزى على التقليل من شأنها الى أدنى المستويات ، مع أن كلا منهما كان ثورة وطنية استهدفت تخليص البلاد من المستعمر .

ومثل كل ثورة تحررية ناجحة او فاشلة كانت هناك عوامل وظروف أدت الى نشوبها وتطورها ، فما هى الأسباب والعوامل والظروف الرئيسية التي أدت الى ثورة ١٨٥٧ / ١٨٥٨ .

١ - لا شك أن الحكم الانجليزى بعد تغلبه على الامارات الاسلامية الواحدة بعد الأخرى، وعلى القوى الهندوكية المختلفة انكشف وجه الانجليز أمام أهل الهند من حيث أن الانجليز الذين خرجوا فائزين من وراء الحروب الأهلية التي دارت في الهند ، وكانت اللوعة اشد لدى المسلمين لأنهم وجدوا أنفسهم وقد فقدوا تقريبا كافة ما كانوا يتمتعون به من مكانة عالية ، اذ سلب الانجليز الامبراطور المغولى والأمراء حق الحكم ، وأبقوا في يدهم مظاهر تافهة ، واستأثرت شركة الهند الشرقية البريطانية بكل خيرات البلاد . فكان ذلك عنصرا هاما في تكوين قيادة قادرة على اثارة الشعب عندما يشعر الشعب بأن هناك قضية تتطلب منه الثورة .

٢ - كان المسلم البسيط الذى كان يعيش جنبا الى جنب الهندوكى - لا يريد من الدنيا الا هدوء البال واستمراره في أعماله التقليدية وقيامه بما فرضه الله عليه من صلوات خمس وصوم . ولكنه في القرن التاسع عشر شاهد بعينى رأسه أن هناك محاولات خطيرة موجهة ضد مذهب ودينه . فقد أخذ الانجليز جانب الهندوس واطلقوهم على المسلمين يهزأون بدينهم ويسومنهم العذاب . وتوالى ذلك فى أكثر من مكان .

ولكن الأدهى من ذلك أن السياسة الانجليزية تهدف الى (تنصير) (١) الهند .

اذ أعلن رئيس مدراء شركة الهند الشرقية البريطانية مستر مانجر (١) في مجلس العموم البريطانى أن الهدف هو أن يرفع علم المسيحية فوق الهند وأن يصبح الهنود مسيحيين . وبهذا المعنى تحدث كثرة من المسئولين الانجليز . وكان الانجليز في الهند يهزأون من الأسماء الاسلامية والهندية ذات القداسة مثل (محمد) و (رام) . وكانت آلهة الهندوس محقرة والسخرية من الاسلام معتادة بل لقد كان الانجليز يدفعون الهنود والمسلمين نحو احترام الطقوس المسيحية، وذهب بعض المسئولين الانجليز الى أن الفضل في (تنصير) الهند وراء أية مشكلات تحدث فيها . وقد قال مستر مانجر : انه يجب أن يبذل كل انجليزى كل جهده من أجل تحويل الهند الى المسيحية .

لقد كان الانجليز في الهند موقنين أنه لا يمكن تحويل مسلم واحد عن دينه وانه من الخير للسياسة التبشيرية المسيحية أن تركز على تعليم أبناء الهندوس تعليما مسيحيا . ولقد كانت عمليات التبشير بين الأسرات الكبيرة الهندوسية تلقى بعض النجاح، ولكن هذا ما كان ليتناسب مع المبالغ الطائلة التى كانت تنفقها شركة الهند الشرقية البريطانية على المبشرين والمدارس التبشيرية . الا أن وضوح هذه الاتجاهات لدى الحكام الانجليز ، ولدى المبشرين الانجليز كان كفيلا بأن يشير اشجان المسلمين ويدعوهم الى التحرك دفاعا عن أنفسهم أمام جيوش من المبشرين تنفق عليهم الشركة البريطانية ، خاصة أنه في الوقت نفسه حرمت أموال الخيرات الاسلامية على المسلمين وعلى مدارسهم ومساجدهم التعليمية .

لم يعن الانجليز بتعليم أبناء المسلمين أو حتى الابقاء على أساليب التعليم التقليدية سائرة في طريقها ، بل عملوا على تعطيل التعليم الاسلامى فى الكتاتيب والمساجد والمدارس . فقد كانت الأوقاف الخيرية الاسلامية هى الممول الوحيد تقريبا لتلك الكتاتيب والمدارس ، فما كان من الانجليز الا أن استولوا عليها . وفى نفس الوقت فتحو أبواب التعليم أمام الهندوس بصفة خاصة على أسس انجليزية . حقيقة كان عدد المتعلمين الهندوس قليلا فى تلك المدارس اذا قيس بأعداد الهندس المهولة . ولكن النتيجة التى ترتبت عن تلك السياسة التعليمية هى ظهور العديد

من الهندوس القادرين على المشاركة في الدواوين الحكومية جنباً الى جنب مع الانجليز بينما لم يفز من المسلمين بتعليم راق سوى عدد ضئيل جداً بالنسبة للهندوس . وكانت هذه خطة مرسومة بريطانية .

لقد كان التعليم الحديث واحداً من أدوات الانجليز لتحويل المجتمع الهندى المسلمين فيه والهندوس وغيرهم الى الدين المسيحى ، الأمر الذى جعل المسلمين والهندوس ينظرون بعين الريبة والشك الى كافة أدوات الحضارة الحديثة التى كان يدخلها الانجليز فى الهند . حتى لقد أصبحت دفاتر التعليم لدى الوطنيين مجرد دفاتر شيطانية (١) لقد كانت أساليب الحضارة الحديثة من سكك حديدية وتلفراف وبواخر مجرد أدوات دمار أطلقها (الصليبيون) على المسلمين او شياطين سلطها المستعمرون على الهندوس ، تلك كانت رؤية المسلمين حينذاك .

٣ - تكشف بمرور الوقت أن شركة الهند الشرقية أشد قسوة بكثير من جشع واستبداد الحكام الوطنيين ، فالماشى التى أنزلتها الشركة بالوطنيين خلال عمليات جمع الضرائب كانت امورا معروفة على نطاق واسع جداً عبر الهند ، وكان الانجليز انفسهم يتحدثون عن ذلك ، ولكن حديث السيد عن عبد لا يستحق سوى أن يعمل لسيدة مكتفياً بكسرة خبز تافهة سقطت من السماط عند أقدام سيده . فكان هذا السخط السياسى والدينى يؤججه واقع اقتصادى مؤلم حتى لقد قيل : « أن المصائب التى أنزلها الانجليز بالهند هى أعمق بكثير من كل ما حل بها فى الماضى . . فكل الحروب والغزوات والفتوحات والمجاعات أصابت الهند سطحياً ، أما انجلترا فقد دمرت أسس النظام الاجتماعى دون أن تبدى . . رغبة فى بناء أى شئ . . ان الغزاة الانجليز حطموا ودمروا الأنوال والمغازل الهندية ، وبدأت انجلترا بطرد منسوجات القطن الهندية من أسواق أوروبا ، ثم شرعت فى تصدير الخيوط القطنية الى الهند ، وأخيراً أغرقت المنسوجات القطنية (الانجليزية) وطن هذه المنسوجات (الهند) . ومن ١٨١٨ الى ١٨٣٦ زادت صادرات الخيوط البريطانية الى الهند من ١ - ٥٢٠٠ ، فى عام ١٨٢٤ بلغت صادرات المسلمين الانجليز الى الهند أقل قليلاً من مليون ياردة ، وارتفعت فى ١٨٣٧ الى أكثر من

٦٤ مليون ياردة وفي الفترة ذاتها هبط عدد سكان دكا من ١٥٠ ألف الى ٢٠ ألف ، ولم يكن انحطاط المدن الهندية الشهيرة بمنتجاتها أسوأ عواقب السيطرة البريطانية . فقد دمر العلم البريطاني واستخدام الآلة البخارية من قبل الانجليز . . في كل أرجاء الهند الرابطة بين الزراعة والصناعة الحرفية » .

لقد كان هناك سحق عام في الهند على الوجود الاستعماري ولكن كانت الهند مفككة ولم يكن هناك زعيم يستطيع أن يوحد المسلمين والهندوس في حركة عامة كبرى ضد الانجليز ، الا أن الفكرة كانت موجودة في المناطق الشمالية بصفة خاصة . وهي مناطق يكثر فيها المسلمون . ولهذا كانت تلك المناطق تنظر طرفا ملائما كي تثور . وكانت هناك حركات سرية تبث منشورات تدعو للثورة ، وكانت تحت كراسة الطوائف للتحرك ضد العدو المشترك : الانجليز . وبدأت الثورة من مكان لم يكن يتوقعه الانجليز .

٤ — كان الانجليز يعامل المواطن الهندي معاملة سيئة ، وتكاد تكون (الاهانة) هي أبرز مظاهر العلاقة بين الانجليز والمواطن الهندي . لقد كان الانجليز حينذاك على مستوى حضاري عالي بينما كان المواطن الهندي مسلما كان أم هندوسيا على حالة متدنية من الحضارة والفكر ، وكانت التقاليد الاجتماعية والدينية سواء لدى المسلمين أو الهندوس تثير اشمئزاز الأوروبي . ومن ذلك مثلا انتحار الأرملة بعد وفاة زوجها ، وتقديس البقرة واستخدام روثها بطريقة يشمئز منها الأوروبي ، والخرافات التي أزاغت المسلمين عن جوهر الدين الاسلامي . وكان الموظف الانجليزي في الهند يحصل على راتب عالي جدا ، بينما كان الموظف الوطني يتقاضى مرتبا تافها ، بل وكانت الترقيات مفتوحة أمام الانجليز ، موصدة أمام الوطني . واحتكر الانجليز المناصب العليا دون الوطنيين .

٥ — سياسة ضم الشركة للولايات الهندية اليها بشكل متسارع خلال حكم دالهاوزي^(١) ، فابرزت هذه السياسة صورة الاستنزاف المروع الذي كانت تمارسه شركة الهند

الشرقية لثروات ونتائج جهود الهند والهنود . فضلا عن ذلك أن تلك الأموال الطائلة التي كانت تجمعها الشركة على صور شتى وأنواع مختلفة من الضرائب والقوانين - كانت تخرج من البلاد الفقيرة - لرفاهية الشعب البريطاني .

ولقد كان ضم شركة الهند الشرقية لولاية (أودة) من العوامل التي أثارت أشجان (السيبوى) . فلقد وجد السيبوى أنهم في الوقت الذي قدموا فيه خدمات جليلة للشركة وقدموا تضحيات ضخمة اذا بتلك الخدمات والتضحيات تؤدي الى ضياع استقلال (أودة) وقيام الشركة بادارتها وبالتالي ابتزازها .

٦ - كانت شركة الهند الشرقية البريطانية في حاجة شديدة الى أعداد كبيرة من الشباب والرجال الهنود للعمل في قواتها المسلحة خلال القرن الثامن عشر وحتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، وذلك لفرض المخططات الاستعمارية للشركة ، ول منع القوى السياسية العديدة الوطنية المتناحرة من الاقتتال ، حيث كانت هذه القوى الوطنية قد استثمرت الصراعات المحلية بشكل وبائى ، فكان ان أعطوا الفرصة الواسعة لشركة الهند الشرقية لكى ترفع شعارا انسانيا وهو فرض السلام على المتقاتلين والقيام بدور الشرطى ذى العصى الغليظة .

كان ذلك هو مفهوم السلام البريطانى (١) . ان يعيش الجميع في ظل سلام يعيش فيه الانجليز حياة السيادة والحضارة والبذخ والوطنيون - وهم يتمتعون بالسلام البريطانى - في خدمة هذا السيد الأجنبى الانجليزى .

٧ - وقد وقعت تطورات عسكرية على الحدود الهندية الافغانية أدت الى اهتزاز الولاء العسكرى لدى (السيبوى Sipoy) ، فقد انتصرت القوات الافغانية على القوات الانجليزية الأمر الذى أدى الى هبوط هيبة القوات الانجليزية أمام القسرات العسكرية الوطنية (السيبوى) . ويذكرنا هذا بما حدث في مصر في عهد (الدولة البطلمية) ، حيث استبعد البطالمة الوطنيين المصريين من الخدمة العسكرية ، حتى اذا ما عجزت القوات الافريقية البطلمية عن صد غزوات أغريق سوريا لمصر ، فتح البطالمة المحال العسكرى أمام المصريين ، وتشكلت فرق عسكرية مصرية ، واستعاد

البطالة قدرتهم القتالية وخاضوا معركة رفح (٢١٧ ق.م) وانتصروا فيها بفضل القوات المصرية ، ولكن الاغريق البطالة ظلوا يعاملون المصريين معاملة سيئة للغاية ، بينما كان المصريون يستنكرون هذه التفرقة التعسفية ، الأمر الذى أدى الى اندلاع ثورات المصريين ضد المقتصب الأجنبى .

ولقد وجد السيوى فى ضعف الانجليز العسكرى خلال مواجهتهم للأفغان فرصتهم لاشاعة الأمل بين أفراد القوات المسلحة الوطنية ، انه عند المواجهة لن تصمد القوات الانجليزية أمام شجاعة السيوى الذائعة الصيت .

ثم أن السيوى كانوا متمنعين من أن الانجليز كانوا لا يستخدمون قسوات السيوى فى أوطانهم ، وانما كذلك بعيدا عنها ، فقد كان الانجليز يستخدمون السيوى فى (بورما) وغيرها فى الوقت الذى لم يكن لدى السيوى أى سبب مقنع ليقاتلوا بعيدا عن أوطانهم لمصلحة التوسع الاستعماري الانجليزى فقط لا غير .

أدت تلك العوامل الى ظهور العديد من رجال الدين الداعين الى تقوية الدين الاسلامى فى قلوب الناس ، وحثهم على التمسك بأهله وقوانينه ، وحثهم على التكاتف ضد قوى الابداء المسلطة عليهم . فخرجت من هذه الدعوات نداءات الى امتشاق الحسام دفاعا عن المسلمين من سيوف السيخ والمارا وانقاذ الهند من التسلط البريطانى الذى كان فى نظر المسلمين السبب الحقيقى لما أصابهم من نكبات وآلام .

وتعتبر شخصية (سيد أحمد) المشهور بالشهيد نموذجا للزعيم المسلم الهندى الذى آمن بأن الوقت قد حان للجهاد ضد القوى الوثنية ، وضد الحرب الصليبية التى يشنها الانجليز على مسلمى الهند . وكان الرجل متفقه فى الدين وكان من أرباب السيوف ، وكانت لديه اتجاهات قوية نحو العودة الى نقاء الدين الاسلامى ونبتذ كل ما اقحم من خرافات وتحريفات على المذاهب الاسلامية .

وأراد (سيد أحمد) أن يوحد قوى المسلمين ضد العدوان الانجليزى وعدوان السيخ ، وخاض سلسلة من المعارك ضد السيخ حتى خفف كثيرا من ضغطهم على المسلمين . ولكن الجبهة الاسلامية كانت مفككة . وسرعان ما ظهر من رجال الدين من ناقشه فى دعوته تلك ، واتهمه بالخروج عن الدين الاسلامى . ولذلك كانت حركته محدودة

ولكنها كانت ذات آثار قوية في انعاش نفوس المسلمين خاصة بعد استشهاد سيده أحمد في ١٨٣١ .

ولقد عبر الشعب في الهند عن رفضه لذلك الابتزاز وتلك الاهانات بعنف اذ وقعت عدة تمردات قبل الثورة ١٨٥٧ ، ومنها تمرد فلور (١) ١٨٠٦ وفي براكبور (٢) في ١٨٢٤ وفي فيروزبور في فبراير ١٨٤٢ ، كما قامت عدة فرق عسكرية بتمردات في ١٨٤٩ و ١٨٥٠ و ١٨٥٢ وتمرد الكوله في ١٨٣١ - ١٨٣٣ ، وتمرد راجات كانجرا (٤) ، وتمرد سانتال (٥) في ١٨٥٥ - ١٨٥٦ . وكانت هذه التمردات غالبا نتيجة للأساليب الادارية والمواقف السياسية المرفوضة من الجانب الهندي (٦) .

ومن ثم كانت عاصفة تتجمع في الثلاثينيات والاربعينيات حتى انفجرت في ١٨٥٧ .

هناك اجماع عام على أن الجنود المسلمين والهندوس في الجيش البريطاني في العسكريين في ثكناتهم في (ميروت) هم الذين بدأوا الثورة في مايو ١٨٥٧ ، وأن السبب المباشر لثورتهم ارغام الضباط الانجليز لهم على أن يقطعوا بأسنانهم قطعة من دهن مركب من دهون الخنازير والبقر لتشحييم بنادقهم * والمعروف أن المسلم محرم عليه تذوق دهن الخنزير وأن الهندوس محرم عليهم تذوق دهن البقر . ومع هذا تمادى الضباط الانجليز في عقاب الجند الذين تدمروا، ولم يلبث الجند أن انقضوا على ضباطهم الانجليز وقتلواهم، وانطلقوا معلنين الثورة ، وسرعان ما انتشرت سسواء في دلهي أو خارجها وفي المناطق الشمالية بصفة خاصة .

وحين يتكلم الانجليز عن هذه الثورة يصفونها بأنها (تمرد السيپوى) (٧) ولا يستخدمون كلمة (ثورة) * ونرى انها ثورة الهند ضد الاستعمار الانجليزى رغم أنها لم

Vellor

(١)

Barrackpore

(٢)

Kole

* (٣)

Rajas of Kangra

(٤)

Santhal

(٥)

Graver; op. cit. p. 218.

(٦)

(٧) السيپوى Sipoy كلمة محرفة عن (سباهي) الفارسية وتعنى الفارس *

تشمل كل البلاد الهندية . الا أن هذه الثورة شملت معظم القوى الهندية التي كانت قادرة على التحرك . وكانت المناطق الشمالية هي أكثرها تلبية لنداء الثورة .

ونظرا لأن الثورة قامت دون تخطيط مسبق دقيق ، فقد انطلقت الثورة في دلهي دون قيادة منظمة ، وكذلك كان الحال في بقية الأجزاء الثائرة . وكان أول اتجاه نحو خلق قيادة تتحكم في توجيه الثورة هو احياء مكانة الامبراطور المغولي واعادة السلطات كاملة الى الامبراطور (بهادرو شاه) الكهل .

لقد كان الهدف من وراء احياء الامبراطورية المغولية هو العودة الى ما كان من تسامح ديني بين المسلمين والهندوس ، بينما افتقدت الهند هذا التسامح تحت الحكم الانجليزى ، وأصبحت التفرقة والبغضاء — بسبب الانجليز — هي السائدة حتى انفرد الانجليز بالبلاد دون المسلمين والهندوس على السواء .

ولكن هذا الاختيار الذى وقع على الامبراطور بهادور شاه ليقود ثورة المسلمين والهندوس كان اختيارا غير موفق . فلا هو ولا أعوانه كانوا يعرفون أساليب الحرب والقتال الحديثة حينذاك . كانوا متحمسين أكثر منهم قادة معنكون . ولهذا ستكون ثورة المتحمسين الذين يقتلون هنا وهناك ويقتتلون أيضا هنا وهناك . بينما كانت لدى الانجليز فرصة واسعة لتجميع قواتهم وقوات هندية موالية للانجليز من مختلف أجزاء الهند . ثم انقض الانجليز على معقل الثوار الواحد بعد الآخر حتى أخمدها وألقوا القبض على الامبراطور ليسير في موكب السخرية ، وليطلق الضباط الانجليز النار على أولاده في الطريق ثم قدموهم على هيئة وجبة غذائية للأب المهيبض الجناح . ولم يلبث الامبراطور أن قلم للمحاكمة ونفى الى رانجون . ذلك كان مصير آخر أباطرة المغول .

وانقضت القوات البريطانية ومعاونوها من رجال السيخ على المسلمين بشكل وحشى ، فقتلوا مئات الألوف ، وأحرقوا الأسرى . فكانت أبشع مذبحه دبرها الانجليز ، وكانوا يرون في فشل الثورة فرصة للقضاء قضاء مبرما على المسلمين حتى لا يستطيعوا الثورة مرة أخرى .

فما هي أسباب فشل الثورة ؟

١ — لم تشمل الثورة كل الهند . اذ ظلت بعض الولايات الهامة على ولائها للانجليز ،

وظلت السند وراجستان هادئة ، بل قدمت بنبال مساعدة للانجليز أسهمت في اخماد الثورة وظل (دوست محمد) - حاكم أفغانستان - متعلقا بصداقته للانجليز ، كما أن منطقة البنجاب ظلت هادئة تحت سيطرة جون لورنس J. Lawrence . والمنطقة جنوب نار بادا (١) لم تتحرك الا بشكل محدود جدا . أما المناطق التي اشتعلت فيها الثورة بعنف هي : بهار ، اوده ، روهيخانده (٢) ، دلهي وكذلك البلاد الواقعة بين شامبال (٣) ونار بادا .

٢ - كانت الثورة ذات طابع (اقطاعي) ، وخاصة في (اوده) ، و (روهيخانده) ، وفي بعض أجزاء شمال الهند ، ولكن وقف عدد من الامراء الاقطاعيين ضد الثورة مثل راجات باتيالا (٤) وجند (٥) وحيدر آباد و (جواليور) (٦) والوزير سالار جنك وزير حيدر آباد ، وظلت سنديا (٧) هادئة ، وهي التي لو ثارت لقلبت الموازين . وقد حصل الأمراء الذين أيدوا الانجليز على مكافآت سخية جدا على حساب خصوم الانجليز .

٣ - لم يكن لدى الثوار شعار يجمعهم باستثناء شعار (طرد الأجنبي) ، وهو شعار عظيم وجذاب ، ولكن في ظروف التفوق الحضاري الكبير الذي كان يتمتع به الأجنبي (الانجليز) ، وفي ظل التفكك الاجتماعي والسياسي الذي كان يسود شعوب الهند ، ضاع ذلك الشعار العظيم (طرد الأجنبي) في خضم الثورة غير المنظمة والصراعات والاحقاد المذهبية والسياسية . بل لقد كانت الأزمة بين الهندوس والمسلمين عاملا جوهريا من عوامل ضعف وضرب الثورة .

٤ - غاب التنظيم عن الثورة ، فقد فوجيء بها (بهادور شاه) فلم تكن هناك خطة محددة . حقيقة كان الثوار شجعان يضحون بحياتهم في سبيل الاستقلال ، ولكن

Narbada

(١)

Rohikhand

(٢)

Chambal

(٣)

Patiala

(٤)

Jhind

(٥)

Gwalior

(٦)

Sindhia

(٧)

ليست الشجاعة كل شيء خاصة في العصر الحديث الذي أصبح للإدارة والتنظيم فيه دور رئيسي في احراز النجاح في وقت الحرب والسلام على حد سواء .

٥ — كانت موارد الانجليز أعظم بكثير جدا من موارد الثوار ، وكانت لدى شركة الهند الشرقية البريطانية مجموعة من القيادات العسكرية الفسدة (١) ، استطاعت أن تمتص المفاجأة ، حيث أن الانجليز فوجئوا بالثورة وهجمات الثوار ، وصمدوا حتى وصلت النجذات ، وأعادوا تنظيم القوات والتنسيق فيما بينها ، ثم قاموا بسلسلة الهجمات التي أدت الى هزيمة الثوار واخلاد الثورة .

٦ — انتهت حرب القرم في ١٨٥٦ ، وكذلك توقفت الحرب في الصين فتوفرت القوات للانجليز لمواجهة الثورة الهندية . ثم أن تعداد الجيش الانجليزى كان يصل الى ١١٢ ألف وبجانبها قوات هندية تصل الى ٣١٠ ألف هندي ، وسلحت القوات الانجليزية بأحدث الأسلحة مثل بندقية (ليانفيلد) .

لقد كان سوء حظ الثوار أن بريطانيا كانت قد خرجت منذ وقت قصير من حربها الظافرة ضد روسيا (حرب القرم) وأصبحت قواتها حرة في التجمع في الهند ضد الثوار . وكانت فرنسا — حليفة بريطانيا حينذاك — لا تريد أن تستخدم هذه الثورة ضد حليفتها بريطانيا في حرب القرم فلم تجد هذه الثورة موقفا دوليا يدافع عن مطالبها الحققة ، وانما تركت الهند لبرائن الانجليز في ذروة قوتهم الاستعمارية .

ومن الأسباب الجوهرية لفشل الثورة الهندية أنها نشبت في وقت كانت فيه امكانية توحيد البلاد مستحيلة . لقد كانت الهند حينذاك مجرد تعبير جغرافي ، كان تعدادها يبلغ ٤٠٠ مليون نسمة . ومع ذلك فشلت في أن تقف في وجه جيش صغير يقوده الانجليز . وتفسير ذلك أن هذا الجيش الانجليزى كانت قيادته فقط من الانجليز ، وقلة من الجنود الانجليز ، والأكثرية من الهندوس ، ثم أنه كان جيشا هنديا يعيش على نفقة الهند ويفتح البلاد بالسيف أمام الاستعمار الانجليزى .

(١) من أمثال : الأخوة (لورنس) و (أوترام) و (هافلوك) .

ما هي النتائج الرئيسية لثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ؟

١ - كانت النتيجة الرئيسية لهزيمة الثورة الوطنية انها أدت الى زيادة التسلط الانجليزى على البلاد . ومن ثم فهي بالمقارنة بالثورة العرابية فى مصر شديدة الشبه من هذه الزاوية حيث أن فشل الثورة الهندية ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ، وثورة مصر فى ١٨٨١ / ١٨٨٢ أثبتا أنهما وقعتا فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تتحين مثل هذه الفرص لزيادة قبضتها الاستعمارية على بلاد العالم الثالث المهيضة الجناح . ولذلك ستمر العقود بعد العقود حتى تستطيع الهند ومصر أن تحرر من الاستعمار البريطانى ، وهذا لن يتحقق الا بعد خروج بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منتصرة ولكن منهكة كل الانهاك ، وهبوطها الى المستوى الثانى بعد الدولتين العظمتين (الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى) اذ حصلت الهند وباكستان على الاستقلال فى ١٩٤٧ وحصلت مصر على الاستقلال الكامل فى ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .

لقد أدركت الحكومة البريطانية فى لندن أن شركة الهند الشرقية البريطانية قد استنفذت أغراضها ، وفقدت مقوماتها ، وأصبحت غير قادرة على قيادة المسيرة الامبريالية فى القرن التاسع عشر . ولذلك ألغت الحكومة البريطانية الشركة ، وتولى (التاج) البريطانى مسئوليات حكم وإدارة شئون الهند ، وفقا لمرسوم أصدرته الملكة فيكتوريا فى اول نوفمبر ١٨٥٨ . وكان من العوامل التى أدت الى اصدار مرسوم الالغاء هذا أن رسم السياسة البريطانية للهند كان يعانى من ازدواجية الرؤية ، اذ كانت هناك رؤية لمجلس إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية ، بينما كانت هناك رؤية أخرى لحكومة بريطانيا فى لندن حتى لقد بلغ الأمر ببعض الكتاب أن قال أن الهند كانت كعربة يجرها حصانان أحدهما يجرها من مقدمتها ، والثانى يجرها من مؤخرتها .

٢ - كان طبيعيا أن يعيد المسئولون الانجليز النظر فى تنظيم وتكوين القوات المسلحة فى الهند، وفعلا فقد رفعوا من قدرتها القتالية عن طريق زيادة تعداد أفراد الجيش، ولكن بشرط أن تصبح نسبة الأوروبيين الى الوطنيين فيه ١ : ٢ على الأكثر . وان (٣٦ - الشعوب الاسلامية)

تكون المناصب العليا العسكرية جكرا على الأوروبيين . وكذلك وضع المسئولون الانجليز في اعتبارهم أن لا يتمكن الوطنيون في القوات المسلحة من تجميع قواهم تحت قيادة وطنية واحدة .

٣ — بعد أن ضربت القوى القادرة على الحركة عسكريا ، عملت السلطات البريطانية على استعادة ثقة كثرة من القيادات الوطنية حتى لقد اقسمت العديد من هذه القيادات يمين الولاء للحكم البريطاني مثلما حدث في (أوده) إذ أعيدت شخصيات كبيرة عديدة الى مناصبها بعد قسم يمين الولاء حتى لقد وصفوا من بعد بأنهم أصبحوا وكأنهم (بارونات أوده) . ولقد أصبحوا فعلا من أعمدة الحكم البريطاني هناك . وكذلك عمدت السلطات البريطانية الى اصدار عفو عام لم يستثن منه الا أولئك الذين اتهموا بقتل بريطاني .

٤ — تقرر فتح باب الوظائف العليا أما الوطنيين، إذ كان مفتوحا أمام الاجنبي الانجليزى فقط ، ولكن لم يكن ذلك على نطاق واسع حيث وضعت الحكومة البريطانية قيودا تحول دون تولى المواطن الهندي مناصبا رفيعا ، إذ تقرر عقد امتحانات للترشيح لتلك الوظائف العليا ، وكانت هذه الامتحانات تعقد في لندن ، ووضعت لها لوائح معقدة ، وكانت النتيجة هي أن المناصب العليا ظلت في يد الانجليز .

٥ — كان من بين أسباب الثورة ضعف العلاقة بين الحاكم (الانجليزى) والمحكوم (الهندي) ولذلك اتجهت السلطات الانجليزية الى تضيق الفجوة بين الطرفين ، عن طريق اشراك الوطنيين في المجالس التشريعية ، وبذلك يسهمون في ادارة شئون بلادهم وهو مطلب كل مواطن حر ، فكان ذلك خطوة هامة للغاية في الطريق نحو اقامة مؤسسات ذات شكل نيابى، ولهذا الغرض صدر القانون المعروف باسم Indian Council Act 1861 حقيقة يعتبر ذلك ارهاصا نحو البرلمانية الانتخابية ، الا اننا نعتقد أن التمثيل النيابى في ظل الاحتلال لا يخدم الا متطلبات المستعمر او على الأقل ادارة البلاد بما يضمن تحقيق اطماع المستعمر في البلاد .

٦ — عمقت الثورة الفجوة بين العنصرين (الأبيض الأوروبى) و (الهندي) حيث عامل الانجليز الهنود على اعتبار انهم أقرب الى السائمة منهم الى الآدميين ، وأصبح الانجليز يرددون أنهم أصحاب رسالة حضارية يحملها (الرجل الأبيض) لتحرير الهنود ومن هم على شاكلتهم من تخلفهم الحضارى .

واذا كانت القوى الاقطاعية في الهند على جانب كبير من المقدرة على اشعال ثورة ضد الوجود الانجليزى في الهند ، فانها ضربت ضربة قاضية خلال ثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ، وتخلصت السلطات البريطانية من هذا الخطر الذى هدد بريطانيا بالزوال . ولكن الحقيقة هى ان الثورة الهندية أرغمت السلطات البريطانية على ادخال نظم سياسية واقتصادية وثقافية جديدة في الهند ، فتهيأت أذهان الانتلجنسيا الهندية للكفاح الوطنى من أجل الاستقلال . أو بمعنى آخر أصبح التقدم الذى تحرزه الهند على يد الانجليز هو المسئول عن نمو الحركة الوطنية الليبرالية الهندية ، تلك الحركة التى توجت بالنجاح في ١٩٤٧ عام اعلان استقلال (الهند) و (باكستان) .

هل كانت ثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ثورة قومية ؟

أثير هذا الموضوع بكثرة في الغالبية العظمى من الدراسات الاكاديمية التى تناولت تاريخ الهند الحديث بصفة عامة وتاريخ الثورة الهندية بصفة خاصة . وهناك بعض الاعتبارات والمفاهيم يجدر أن نراعيها عند الخوض في مثل هذه الموضوعات ومن أهمها :
١ — ان النظرية القومية نظرية نشأت وقتنت في أوروبا الحديثة ، ومن ثم فان مقومات القومية تنطبق على الشعوب الأوروبية بوضوح بينما هى لا تنطبق بمثل هذا الوضوح على الشعوب الشرقية .

٢ — ان مقومات القومية قد تتوافر لدى شعب من شعوب الشرق ، من حيث حدود دولته ، ولغته القومية ووحدة العناصر أو السلالة ، ومن حيث الشعور بالمواطنة ضمن دولة معينة . ولكن لا تصبح القومية (شعارا) ولا مفهوما ولا ايديولوجية معلنا عنها الا اذا كان الشعب يؤمن بقوميته عن ادراك .

والدينا في الشرق العديد من الأمثلة ، فمصر ذات ممارسات قومية عبر القرون في العصر الفرعونى ، وفي العصر الاسلامى وفي العصر الحديث ، من حيث حدود الدولة وتجانس الشعب ، ومفهوم المواطنة ، ووحدة اللغة ، والدين ، والمذهب ، واقتصاديات الدولة . ولكن دون أن يكون لها (شعار) قومى . وكذلك فارس (ايران) ، فهى عبر التاريخ تمتلك مقومات الدولة دون ان تتخذ القومية شعارا الا في أوائل القرن العشرين ، وكذلك دولة البوسعيد في عمان والأئمة في اليمن .

وبالنسبة للهند فان الثورة الهندية ثورة عبر فيها الشعب الهندى المسلم والهندوسى — وان لم يكن كل الشعب — عن رفضه للاحتلال الاجنبى لبلاده ، وان من

مسئوليات الشعب تحرير بلاده من الاستعمار وأن يتولى أمور نفسه بنفسه ، ومن ثم كان هناك شعور (وطنى) عام يشبه الى حد كبير جدا الشعور (القومى) فى الهند . ولكن المشكلة الخطيرة التى كانت تواجه (القومية) كأيديولوجية فى الهند هى أن الهند كانت تضم العديد من المجتمعات المتباينة تباينا شديدا مثل : الهندوس ، والمسلمون ، والسيخ ، حتى لقد ذهب بعض الكتاب فى تاريخ الهند الى القول بأن الهند فى عهد الثورة الهندية وقبلها كانت مجرد تعبير جغرافى Geographical Expression وهو نفس المصطلح الذى أطلق على ايطاليا قبل أن تتحقق وحدتها وأطلق كذلك على ألمانيا قبل أن تعلن وحدتها فى ١٨٧١ . كذلك كان يرى كثرة من المفكرين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أن (أوروبا مجرد تعبير جغرافى) بينما نلاحظ أن الدولتين الألمانيةيتين يسيران حثيثا نحو الوحدة ، وأن دول أوروبا الأخرى تسعى الى وحدة أوروبية .

نخلص من هذا كله أن القومية كانت ممارسة فى الهند وبلورتها ثورة ١٨٥٧ ولكن دون أن تكون القومية أيديولوجية أو شعارا .

وبسبب تلك الأوضاع كان من بين الباحثين فى تاريخ الهند من يرى أن ثورة ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ثورة قومية ، ومن بينهم من يرى أن القيادات التى قادت الثورة افتقدت المقوم القومى ، وأن هذه القيادات كانت تشارك فى الثورة من أجل مصالحها .

وكثرة من الباحثين فى تاريخ تلك الثورة الهندية يرفضون الفكرة القائلة بأنه كانت توجد حينذاك (أمة واحدة) ، ويرون أن (البنغالى) و (البنجابى) و (الهندوستانى) و (المدارسى) و (الماهاراستارى) لم يكن أى منهم يدرك أنه ينتمى الى (أمة واحدة) .

ويثور جدل عميق حول نتائج هذه الثورة الهندية ، ونتائج الحكم المباشر البريطانى . فلقد ذهب كارل ماركس الى أن الاستعمار البريطانى فى الهند أحدث ثورة اجتماعية فى البلاد .

وهناك من يعارض هذا رأى جوهريا ، فيرى أن الهند لو تركت لنفسها لسارت فى نفس التيار التقليدى نحو حكم البورجوازية وثورة بورجوازية ثم ثورة شعبية .

والحقيقة هى أن الاستعمار البريطانى أحدث ثورة اجتماعية وإدارية قام بها

الانجليز حينما أنشأوا حكومات وإدارات في الهند ، كان موظفوها من الانجليز ، وليس من الهندوس أو المسلمين . وعندما مدوا خطوط السكك الحديدية بواسطة الشركات البريطانية ، وعندما نقلوا حضارة أوروبا ليقوم على غرسها في الهند الانجليز أنفسهم من دون أهل البلاد ، فانهم بتلك الأعمال أحدثوا ثورة اجتماعية وإدارية . وفتح الانجليز باب هذه الحضارة أمام أقلية ضئيلة للغاية إذا ما قيسست بتعداد الهند الضخم .

بعد أن قضى الانجليز بقسوتهم البالغة على الثورة الهندية ، حلوا شركة الهند الشرقية البريطانية وجعلوا الهند تابعة للتاج البريطاني، وأصبحت الهند مجرد مستعمرة بريطانية ، وشرعوا في تطبيق سياسة جديدة تختلف عن تلك السياسة التي كانت تتبعها الشركة .

كانت الشركة لا تعنى إلا بموازين الربح والخسارة إلا من حيث الحصول على أكبر قدر من الأرباح المادية حتى تتختم جيوب الانجليز ، وحتى ترتفع أسهمها في الدائر المالية العالمية . أما بعد أن أصبحت الهند مجرد مستعمرة فقد راعت السياسة البريطانية استثمارية القدرة الهندية على إعطاء دخل كبير للانجليز على المدى الطويل ومن ثم يجب عدم إجهاد الهند ولا تتعرض لافتقار القدرة الإنتاجية العالية .

واتبع الانجليز كذلك سياسة التفرقة بين الهندوس والمسلمين . وكان المسلمون ينظرون بعين الارتياب إلى المؤسسات الانجليزية التعليمية وشجعهم الانجليز على ذلك إذ قربوا منهم البيوتات الهندوكية ، فكان أن تفوق الهندوس على المسلمين في مجالات الوظائف العامة والأعمال التجارية . وستكون هذه السياسة المنحازة عاملاً أساسياً في ظهور تيارات تحررية بعضها إسلامي المظهر ، والبعض الآخر هندوكي .

ونظراً لأن السييوى كانوا قوة ضاربة ثورية متميزة خلال الثورة الهندية ، فقد كان من الأمور التي عنى بها الباحثون تحديد العلاقة بين الثورية لدى (السييوى) والأيديولوجية القومية . ولقد نفى البعض - من أمثال الدكتور (ماجومدار) (١) أية مشاعر (قومية) أو مشاعر الدفاع عن (أمة) ولا حتى الكفاح من أجل (الاستقلال) وتطرف حين قال أن السييوى إنما ثاروا فقط لأسباب متعلقة بمرتباتهم فنفى عنهم دوراً بطولياً قاموا به خلال سنتي الثورة .

وينتهى الدكتور ماجمدار الى القول بأن الثورة لم تكن على الاطلاق حرب الاستقلال الأولى ، وهو قول يرفضه المؤرخ S. B. Chaudhuri اذ يرى أنها فعلا حرب الاستقلال التى شارك فيها الشعب .

ويؤيد البروفسور سن (١) أن الثورة قومية ، ولكن قادتها أقلية على نحو الثورة الأمريكية (١٧٧٥ - ١٧٨٣) والثورة الفرنسية . وأن الثورة الهندية (١٨٥٧ - ١٨٥٨) ثورة قادتها أيضا (الأقلية) . ويرى البروفسور سن أن الشكل الوطنى الاستقلالى للثورة لم يظهر الا بعد أن انضم ثوار ميروت (٢) الى الداعين الى الانضواء تحت راية الامبراطور بهادور شاه كرمز لحكم وطنى يرغبون فى اعادته الى ما كان عليه من استقلال وعظمة وتقاليده الشرقية أضاعها الأجانب فى زحمة اصلاحاتهم الحديثة التى تخدم أولا أغراضهم الاستعمارية .

ولقد انتهى كل من البروفسور (سن) والبروفسور (شودورى) الى أن ثورة ١٨٥٧ هى أول حرب استقلالية هندية ، على عكس ما يقوله (ماجمدار) تماما .

★ ★ ★

الفصل الخامس

الصحة الإسلامية

من الهزيمة إلى الثورة الإسلامية (باكستان)

كان الوجود الاستعماري البريطاني في الهند يعتمد على القوة العسكرية البريطانية وعلى القوة العسكرية الهندية التي كانت تعمل بكفاءة تحت القيادة البريطانية ، وإلى جانب ذلك كانت الأجهزة الادارية التي شكلتها السلطات البريطانية تتحكم بكفاءة في شئون البلاد الداخلية والقضائية والتعليمية . وكانت الشركات والمؤسسات البريطانية الكبيرة تسيطر على الاقتصاد .

حقيقة أعطت تلك الادارة وتلك الشركات سيطرة بريطانية قوية على شبه القارة الهندية ، إلا انها كانت في نفس الوقت مؤسسات تعطي فرصة للهنود للتعرف على الحضارة الحديثة ، ولذلك ساعدت تلك الادارة والمؤسسات والشركات على تفتيح اذهان الهنود على أسس وقيم الحضارة الغربية .

أخذ المثقف في الهند يقرأ روايات (شكسبير وديكنز) والنظريات السياسية لـ (لوك) وأدبيات كارليل ، ووصلت اليه مؤلفات كبار فلاسفة التحرر ، وأخذ قناع التفوق البريطاني ينحسر تدريجيا حتى تبين له أن الانجليز مجرد شعب من شعوب أوروبا التي أصابت من الحضارة قدرا أكبر ، وأن الهندي - مسلما كان أم هندوسيا - يستطيع أن يرتفع الى المستوى الحضاري اللائق وأن يرفع الشعب اليه ، خاصة اذا امتلك الشعب زمام أموره وحرر نفسه من الاستعمار . فكان طبيعيا أن تنمو حركة تحررية تدعوا الى تخليص الهند من الاستعمار .

بل هناك كثرة من المفكرين يرون أن المشاعر الأيديولوجية الاسلامية كانت قد بدأت تتضح منذ اوائل القرن الثامن عشر، بل أن شاه ولي الله الدهلوي (١٧٠٢ - ١٧٦٣) هو الذي وضعها في اطار محدد عندما دعا الى تأسيس كيان خاص بالمسلمين اما تحت لواء (الخلافة) أو (دولة اسلامية هندية) . وقاد ابنه شاه عبد العزيز الحركة حتى توفي في ١٨٢٣ ، فتولاها من بعده (سيد احمد الشهيد) (١) الذي دعا الى تحرير عقول المسلمين من البدع والتقاليد غير الاسلامية ومن الخرافات ، وتحرير ارض الهند من غير المسلمين،

(١) استشهد في ١٨٣٠ .

خاصة من الوثنيين ، وكان (السيخ) في نظره من هؤلاء الوثنيين ، واعلان دولة (الخلافة) ، وليكن هو خليفة المسلمين اذا ما استطاع أن يقوم بهذه المسئولية العظمى .

دعا (سيد أحمد الشهيد) المسلمين الى الجهاد في سبيل الله على مبادئ شبيهة الى حد كبير بالمبادئ التي دعا اليها محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية . ولكن المسلمين في الهند كانوا موزعين على العديد من القيادات ، فلم يصنع الى ندائه سوى عدد محدود جدا ، بينما أشاح الآخرون بوجوههم عنه ، حقيقة أيده (الباتان) الا أنهم لم يلبثوا أن انفضوا عنه ، ولذلك فانه رغم الانتصارات التي أحرزها على خصومه الألداء (السيخ) الا أنهم وجهوا اليه ضربة أجهزت عليه في مايو ١٨٣١ .

لقد كانت حركة المجاهدين بقيادة (سيد أحمد الشهيد) تستلهم الماضي أكثر من تقييمها للعصر ولأدواته الحاضرة .

رفض المسلمون الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة على اعتقادهم أن الأخذ بأدوات الحضارة الحديثة يؤدي الى تشويه الهوية الاسلامية .

أما الهندوس فقد نهلوا من الحضارة الغربية ، وشجعهم الانجليز ، فكان أن ظهرت فيهم كفاءات على مستوى العصر أفادت من الانجليز وافادوا هم منهم . الأمر الذي جعل كفة الأمور تميل لصالح الهندوس . خاصة وأن الانجليز كانوا يضمرون كراهية تقليدية للمسلمين الأمر الذي جعل مصالحهم لدى الانجليز تالية لمصالح الهندوس .

ان ذلك الوضع يذكرنا بما حدث في فلسطين . فقد أخذ اليهود بأدوات الحضارة الحديثة ، وكانوا أقدر على التعامل مع الدول الغربية التي كانت تتحكم — الى حد كبير — في مقدرات الشعوب . بينما رفض المسلمون الفلسطينيون — الى حد كبير — الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وكانوا متخلفين حضاريا عن اليهود ، فكان أن تعاون الانجليز والصهيونية على تطبيق تصريح بلفور لسنة ١٩١٧ بشأن تحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود لا مكان فيه لمسلم أو عربي فلسطيني .

ونلاحظ أن الدولة السعودية الأولى والثانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانتا ترفضان الأخذ بأسباب وأدوات الحضارة الحديثة ، حتى تولى الامامة

عبد العزيز بن سعود ، وعرف كيف يفيد من أدوات الحضارة الحديثة دون مساس بالهوية الإسلامية ، وعلى نهج سار من بعده الحكام من آل سعود حتى الآن .

ووجد المسلمون أنفسهم بعد ثورة ١٨٥٧ - ١٨٥٨ مسئولين عن تلك الثورة وأصبحوا بمرور العقود في مستوى أضعف بكثير من المستوى الذي كان عليه الهندوس . فالمناصب الإدارية والأعمال الاقتصادية أصبحت من نصيب الهندوس ، بينما ظل المسلمون على حالهم رافضين الحضارة الغربية وأصحابها .

وما حدث لمسلمي الهند في هذا الصدد حدث لمسلمي لبنان . فقد كان (شيعة) لبنان هم أصحاب الكلمة العليا في المنطقة المارونية شمال لبنان حتى أزاحهم الموارنة . وكان (للدروز) الكلمة العليا في حكم لبنان حتى أزاحهم الموارنة ، وعندما حاول الدروز استعادة سيطرتهم على الموارنة وعندما حاولوا الحفاظ على تفوقهم انهالت عليهم الضربات من جانب الدولة العثمانية والدولة الفرنسية حتى أصبحت الكلمة العليا للموارنة ، وانزوى الدروز ولكن الى حين .

والحق ، أن الدروز والسنة والشيعة لم يفقدوا مكانتهم العليا لصالح الموارنة الا لأنهم لم يأخذوا بأدوات الحضارة الحديثة ، بينما نهل منها الموارنة وارتفع مستواهم الحضاري فعرفوا كيف يفرضون أنفسهم على غيرهم وعرفوا كيف يحصلون على دعم القوى الكبرى . وعندما ارتفع المستوى الحضاري للدروز والسنة والشيعة خلال النصف الثاني من القرن العشرين عملوا على سحب الكلمة العليا من الموارنة ووضعهم في موضع مواز لهم . وهذه هي سنة الحياة ، ونتاج الصراعات الحضارية .

ولقد كان الموارنة ، وحتى الآن ، يتهمون المسلمين بأنهم خانوا لبنان وأرضه المقدسة خاصة عندما تطلع كثرة من المسلمين الى الارتباط بقوة بالتيار العربي . وقال الموارنة أنهم هم اللبنانيون الحقيقيون ، لأنهم يسعون الى أن يكون الجميع لبنانيين يتمتعون بالديمقراطية ، والانتخابات الحرة ، وذلك لأن الأوضاع العامة والخاصة كانت تعطى للموارنة تفوقا عدديا ، سواء في عدد الناخبين او في عدد الدوائر الانتخابية او في عدد مقاعد البرلمان ، أما المسلمون فكانوا أغلبية عددية في الواقع ولكن محرومة من التمتع بحقوق الأغلبية ، حتى فرضت الأغلبية الإسلامية (الشيعية والسنية وغيرها) نفسها على الموارنة في ثمانينيات القرن العشرين .

ولقد كانت الثورة الهندية ١٧٥٧-١٨٥٨ سابقة على الثورة العراقية في مصر ١٨٨١-١٨٨٢ . وكل منهما قامت ضد الاستعمار الانجليزى ، وكل منهما فشلت في تخليص البلاد من الاستعمار ، وكل منهما أصيب بضربة أذهلت القيادات والشعب ، حتى لقد انكفأ الناس من بعد الهزيمة على أعمالهم الروتينية اليومية ينتظرون أن يزيل الله عنهم هذه (الغمة) ، وما كانت لتزول الا بنعمة الكفاح من أجل الحرية .

كانت الثورة الهندية وأعقابها محنة جد قاسية على زعامات وطنية كانت قد رفعت سيف الجهاد فتكسر على نصال خصوم الاسلام والمسلمين .

لقد عاين المسلمون من قبل الثورة ما كان عليه الانجليز من قوة ، ولكنهم أدركوا كنه هذه القوة ، وشتان بين أن تعانين وأن تدرك . حقيقة وقعت هزة شديدة في نفس مسلمى الهند ، ولكنها كانت صدمة عن قليل من بعدها يفيق البعض ، ويعيدوا تقييم المواقف والقوى والأهداف والأساليب والاستراتيجية والتكتيك . فاذا كانوا قد خسروا معركة ، فانهم لم يخسروا أنفسهم أو أرضهم . وان كان العدو في زمانهم لا يقهر ، فالزمن دوار ، وعوامل القوة غير أبدية . كذلك عوامل الضعف ، ليست أبدية ، وما أن تحددت عناصر القوة والضعف لدى شعب من الشعوب وجد طريقه نحو التحرر والحرية والتقدم . وما أشقه من طريق ، ولكن حلاوة الوصول الى الحق والاستمتاع به لا تفوقها حلاوة أو لذة ، حتى ولو كانت مفروشة بجثث الشهداء والأرض المقدسة تسقيها الدماء .

فلا غرو ان خرج من أبناء عهد النكبة من قاد الحركة التحررية الجديدة أو أعد الناس لها ، فكان لهم شرف اجتياز الصدمة وعلاج الاكتئاب العام الذى أصاب الشعب وأخرجوه منه ، وطرحوا أمام الملاء هدفاً أسمى لا يمكن التخلي عنه ، فهو استراتيجية ثابتة لا محيص عنها ولا بديل ، فالغالبية العظمى من مسلمى الهند كانت بعد النكبة تؤمن بأن الأزمة مؤقتة وانها عن قريب أو عن بعيد ستنفرج فآمنوا بالهدف : حرية المسلم على أرضه واختلفوا في التكتيك ، وفي الأساليب ، وما أعرف شعب يتفق على الاستراتيجية ويختلف في الأساليب سعياً الى تحقيق الهدف الأسمى .

لقد كانت الثورة الهندية ١٨٥٧-١٨٥٨ نقطة انطلاق للإمبريالية البريطانية ، وكانت في نفس الوقت نقطة تحول في الدعوة الاسلامية الى وطن اسلامى فى الهند (باكستان) . أو بمعنى آخر تبلورت المشاعر فى أيديولوجية وطنية .

وانه لمن المتشابهات أن مصر في أعقاب محنتها الكبرى في ١٨٨٢ انطلقت فيها صيحة (مصر للمصريين) ، وان لم تستبعد النظرية الاسلامية السياسية العامة القائلة بضرورة وجود دولة اسلامية عامة هي دولة الخلافة ، وأن مسلمى الهند سـعوا الى دولة لهم اسلامية هندية معلقين الآمال في نفس الوقت على قيام دولة الخلافة الاسلامية . ولكن هذه البلورة وهذه الأيديولوجية استغرقت عدة عقود من الزمن حتى أصبحت جلية واضحة أمام الداخل والخارج ، وقادت الشعب المسلم في الهند الى تأسيس باكستان بعد الحرب العالمية الثانية .

كان حزب المؤتمر الوطنى قد تأسس في ١٨٨٥ وكان يسعى الى تحرير الهند من الحكم الاستعماري الانجليزى ، وان يحكم الهنود — دون تفرقة بين هندوسى ومسلم وسيخ — بلادهم بأنفسهم بتبنى النظرية الديمقراطية الانجليزية القائمة على أساس الدستور والانتخابات الحرة والمجالس البرلمانية . ولكن كانت هذه الديمقراطية النبيلة من وجهة نظر الزعامات المسلمة الهندية نكبة على المسلمين ، وفي ذلك يقول سيد أحمد خان (١٨١٧ — ١٨٩٨) :

« ... لعل مبدأ الحكم الذاتى بواسطة هيئات الممثلين المحليين هو اكبر واعظم وأنبى درس تتعلمه الهند من كرم انجلترا ، ولكننا عندما نقلد انجلترا في نظام هيئات الممثلين ، فانه من الأهمية القصوى بمكان أن نتذكر تلك الأوضاع الاجتماعية والسياسية التى تتميز بها الهند عن انجلترا . »

ان الأوضاع السياسية والاجتماعية الراهنة في الهند ما هى الا نتاج لتاريخ يمتد قرونا من الطغيان ومن فساد الحكم ، وسيطرة جنس على جنس آخر ، ودين على دين آخر .

ان الآثار الانسانية التى جاء بها الحكم البريطانى لم تقض بعد على ذكريات ايام النزاع والشقاق والخصام التى سبقت فترة السلم التى جاءت بها السيادة البريطانية على الهند . »

« ان الهند تعتبر قارة وحدها . اذ تقطنها اعداد زاخرة وهائلة من الناس تنحدر من أجناس مختلفة ، وتؤمن بمذاهب متباينة . ولقد كانت التعاليم الدينية

الصارمة فاصلا يفصل حتى بين الجيران ، وان نظام الطبقات ما يزال الى اليوم سائدا وقويا . وأن المواطنين في منطقة واحدة قد يدينون بمعتقدات ومذاهب مختلفة ، وقد ينتمون الى قوميات متعددة ، بينما يكون قطاع من المواطنين يتحكم في الثروة والتجارة وقد يكون قطاع آخر حائزا للعلم وفارضا للنفوذ ، وقد يكون قطاع من اهل البلاد اكبر عددا من قطاع آخر ، وقد يكون مستوى المعرفة الذي بلغه قطاع ما من المواطنين أعلى بكثير من المستوى الذي بلغته بقية القطاعات . وقد تكون فئة من المواطنين مدركة تماما لأهمية ضمان تمثيلها في المجالس المحلية ومجالس المناطق ، بينما تكون فئة أخرى غير ملقية بالا لمثل هذه الأمور ... » (١) .

« اننى بت قانعا ان هاتين الأمتين (الهندوس والمسلمون) لا يمكن ان تتفقا اتفاقا قلبيا كاملا فى أى شىء من الأشياء ، انه ليس ثمة عداء سافر الآن بين الفئتين ، ولكنه سيزداد مباشرة فى المستقبل بفعل من يسمون بالمتطرفين . ومن يعيش يرى » .

« انهم يريدون تقليد مجلسى اللوردات والعموم البريطانيين فلننتصور الآن أن مجلس نائب الملك يتم تكوينه بهذه الطريقة ، ولنفرض أن جميع الناخبين المسلمين يصوتون لعضو مسلم وأن جميع الناخبين الهندوس يصوتون لعضو هندوسى . ولنعد الآن عدد الأصوات التى يحصل عليها الأعضاء المسلمون ، وعدد الأصوات التى ستكون للهندوس . ان من المقطوع به أن الأعضاء الهندوس سيحصلون على أربعة أضعاف ما يحصل عليه المسلمون ، نظرا لأن عدد السكان الهندوس اكبر أربع مرات من عدد المسلمين . فكيف يمكن للمسلم عندئذ أن يحظى بمصالحه ؟ » (٢) .

(١) Choudhry Khaliquzzaman, Path to Pakistan, pp. 249-270.

نقلا عن بيرزادة : نشأة باكستان ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) اقتطف هذا الاقتباس من مقال لجمال الدين أحمد نشر في (أخبار

الصباح) - ملحق عيد باكستان ٢٣/٣/١٩٦٠ نقلا عن بيرزادة ، نشأة باكستان ،

ص ٧٢ - ٧٣ .

« والآن لنفرض أن كل الانجليز قد غادروا الهند . . فمن ترى سيكون حكام الهند ؟ هل من الممكن في هذه الظروف أن كلتا الأمتين — المسلمين والهندوس — ستجلسان على العرش نفسه ، ويكون لهما سلطة متساوية مستمرة ؟ قطعاً لا . فلا بد لاحدهما من أن تخضع الأخرى وتقهرها . ولأن يأمل المرء أن تظل الأمتان متساويتان فهو انما يرغب في المستحيل » (١) .

لقد كان سيد أحمد خان بعيد النظر حين أبدى تعاوناً كبيراً للغاية مع السلطات الاستعمارية البريطانية في الهند على اعتبار أنها السلطات التي يمكن أن تهيء له الفرص لتحقيق هدفه الأسمى وهو قيام دولة إسلامية وبدلاً من أن يتأثر بالدعوات إلى قتال ومعارضة الانجليز لما أقدموا عليه من آثام بالنسبة للمسلمين بصفة خاصة وللهند بصفة عامة ، اعترف باليد العليا للانجليز في البلاد وفتح قنوات تعاون معهم اكتسب بها ثقتهم وكسبوا هم ثقته ، وسار كل في طريق تحقيق أهدافه الخاصة واضعاً هدفاً أسمى أمامه باستمرار .

وانها لصعوبة بالغة ومجازفة محفوفة بالمخاطر أن يتبنى مفكر مثل هذه السياسة التي يمكن أن تضع صاحبها أمام الاتهام بالعمالة والخيانة والطائفية البغيضة ، وهذا ما حدث فعلاً لسيد أحمد خان ، ولكنه نظراً لإيمانه بالهدف الأسمى شق طريقه وسط مثل تلك الأخطار ساعياً إلى تحرير المسلمين من سيطرة الهندوس على المسلمين ومن السياسة الاستعمارية البريطانية .

أليس من العسير جداً أن يتصدى سيد أحمد خان بالطائفية الإسلامية النظرية القومية الهندية الديمقراطية ؟

بل انها حقاً لصعوبة بالغة أيضاً أن يتصدى لمبدأ الديمقراطية الذي كان ينادى به الهندوس . فالديمقراطية مبدأ إنسانى عظيم من العسير جداً أن يتصدى له مفكر بنجاح . ولكن (سيد أحمد) لم ينكر على الديمقراطية سموها وانما أنكر على الهندوس استخدام الديمقراطية للسيطرة والتحكم في المسلمين ، وان الديمقراطية على الطريقة الهندوسية كفيلاً بأن تمحو الهوية الإسلامية لمسلمى الهند .

وحيث أن اللغة واحدة من أهم مظاهر التعبير عن الهوية الخاصة ، فقد أصبحت اللغة اللاوردية ، عنصرا رئيسيا في الحفاظ على الهوية الاسلامية لمسلمى الهند . وكانت اللغة الاوردية هي لغتهم ، بل كانت هي اللغة السائدة خاصة في المستويات الحكومية قبل رسوخ أقدام الاستعمار البريطانى . واتجه الهندوس الى ضرب اللغة الأوردية والى الأخذ باللغة الانجليزية وبلغاتهم العديدة القديمة ، وحتى لا يعطى (سيد احمد خان) الفرصة لضرب اللغة الأوردية ، طالب بأن تكون هي اللغة الرسمية ، فعارض الهندوس ذلك بشدة ، وازداد تمسكهم بالانجليزية وبلغاتهم ، فكان أن انقسمت الهند ثقافيا الى شطرين رئيسيين أحدهما اسلامى يتكلم الأوردية ، وآخر هندوسى يتكلم لغته الى جانب اللغات الأخرى الهندية المحلية .

وادرأكا منه بالتخلف الحضارى الذى كان عليه المسلمون عمل على احداث نقلة حضارية ، ولا يمكن احداث نقلة حضارية الا اذا ما نهل المسلم من الحضارة الغربية ، ولكن دون أى تشويه لهويته الاسلامية ، وتلك كانت فلسفة التعليم لدى (سيد احمد خان) تلك الفلسفة التى تبلورت فى كلية عليكرة الاسلامية .

ونتيجة لتلك التطورات بدأ المفكرون الانجليز يتصورون امكانية قيام كيان اسلامى وهو أمر كان محض خيال من قبل . ومن هؤلاء الدبلوماسى السياسى ولفرد سكاون بلنت (١) ، وهو المعروف فى مصر بمؤازرة الحركة الوطنية الدستورية قبيل الثورة العربية والمعروف بعلاقاته الوثيقة بالمصلح الدينى الكبير الشيخ محمد عبده .

فى ١٨٨٣ اقترح ولفرد بلنت اقامة (حكومة اسلامية) وأخرى (هندوسية) فى الهند وذلك على شكل أقاليم ذات حكم ذاتى يقوم على أساس الأغلبية المذهبية فى الأقاليم .

انطلقت حركة التنوير بين المسلمين . وكان بعض قادتها قد شرعوا فى إبراز مظاهر التخلف وطرحها كقضية عامة ، حيث أن الاصلاح لا يمكن أن ينطلق الا اذا ما أدرك الجميع حقيقة الوضع المتدنئ الذى يعيشونه وحاجتهم الضرورية الى احداث تغيير حضارى ومن الملاحم الأدبية التى تناولت هذه القضية (ملحمة مسدس) التى كتبها

(١) (حالي) وعبر فيها عن روعة الحضارة الاسلامية عندما كانت في ذروتها، وعن التدهور المشين الذي حاق بجمهرة المسلمين ، تناول ذلك بشكل يهز العواطف والمشاعر ويحرك الأحاسيس وأعطى قوة الى المدرسة الاسلامية الحديثة في الهند ، وحذر في نفس الوقت من استغلال الديمقراطية الغربية لازالة الهوية الاسلامية لصالح الهندوسية .

ولقد ذهب سيد أمير علي (١٨٤٨ — ١٩٢٨) (٢) الى القول بأن الهندوسية نظام اجتماعي لا مكانة للديمقراطية فيه ، بينما الاسلام ديمقراطي أبوابه مفتوحة لمن يريد الدخول فيه ولذلك دعا سيد أمير علي الى انسحاب كل مسلم من حزب المؤتمر على اعتبار أن ذلك الخروج عليه هو واجب على كل مسلم .

ونظرا لأن المسلمين كانت تعوزهم حينذاك منظمة يعملون تحت مظلتها تكون قادرة على التعبير عن آمال المسلمين فقد أعلن عن قيام حزب (الرابطة الاسلامية) (١) في ديسمبر ١٩٠٦ .

حقيقة كانت هناك عناصر قوية اسلامية مؤمنة بحزب المؤتمر الهندي الا أن الغالبية العظمى من القيادات والشعب الاسلامي هناك انضوى تحت مظلة الرابطة الاسلامية . وتبنت هذه الرابطة النظرية السياسية التي اتبعها سيد أحمد خان ، وهي حماية حقوق مسلمي الهند مع الاعتراف باليد العليا للانجليز في توجيه أمور البلاد حتى يحين وقت خروجهم من البلاد ، وخلال ذلك يعمل المسلمون على الحفاظ على حيوية حركتهم .

وحينذاك كانت الدعوة الى الجامعة الاسلامية والى استعادة الخلافة الاسلامية مكانتها العالية التي كانت عليها في العصور الوسطى الاسلامية قد تصاعدت، فكان كل هذا من الأدوات التي استخدمت لرفع شأن المسلمين في الهند . وكان أنصار الخلافة في الهند من أقوى

(١) ولد في ١٨٣٧ .

(٢) رجل قانون اشتهر بكتابه (روح الاسلام) وكان على علاقة وثيقة بجمال الدين الأفغاني ومع سيد أحمد خان وأسس سيد أمير علي (الجمعية الوطنية المحمدية) ، وكان من بين ما دعا اليه القول باشتراكية الاسلام ولكن هذه الفكرة لم تلبث أن تلاشت نظرا لعدم واقعيتها في العالم الاسلامي .

الجبهات دفاعا عن الدولة العثمانية على اعتبار أن سلطانها هو خليفة المسلمين . على أن اندحار الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، والغاء مضطقى كمال أتاتورك الخلافة في ١٩٢٤ أدى الى نوع من الضيق لدى أنصار الخلافة في الهند ، ولكن ذلك لم يشبط همهم في السعى نحو أهدافهم الموضوعة (اقامة دولة اسلامية) . وفي اعتقادنا أن الغاء الخلافة كان من العوامل الهامة في أن تصبح الحركة التحررية الاسلامية في الهند ذات طابع (قومي اسلامي هندي) .

على أن الدور الذي قام به (محمد اقبال) (١٨٧٥ - ١٩٣٨) في حصول المسلمين على حقهم في اقامة دولة اسلامية هو دور من اروع ما عرفه تاريخ المسلمين . كان اقبال يمتلك ناصية الفكر الشرقي والفكر الغربي . كان يميل في أول الأمر - الى (الحلة الهندية) ثم تحمس للخلافة الاسلامية معارضا الاستعمار البريطاني . وتحمس كذلك لحقوق المسلمين الهنود في (التطور الحر) على اساس (ثقافي) ، على اعتبار أن الطائفية في حالتها السامية هي ثقافة ، والهند - كما هو معروف - متعددة (الثقافات) و (الأجناس) و (اللغات) ، ومن ثم فلا مجال (للديمقراطية) على الطريقة (الغربية) ، ولا مجال (للشيوعية) وانما الفكر والمبادئ الاسلامية تبني (دولة) على اساس (ثقافي) . وهذه الدولة يجب أن تقوم في الهند ولا ضير عليها أن قامت في اطار الامبراطورية البريطانية أو خارج هذا الاطار .

ان تاريخ الحركة التحررية في الهند لهو من أعقد فصول التاريخ بصفة عامة ، فقد اختلطت في هذه الحركة صراعات الأديان : مسلمون ضد هندوس ، علماء من المذهب السني أو المذهب الشيعي ضد علماء من العقيدة البراهمية ومن العقيدة البوذية . وإلى جانب ذلك كان هناك مسلمون يدعمون القيادات الهندوسية ويلعبون دورا هاما للغاية في حزب المؤتمر الهندي . وكان هناك هندوس مع المسلمين ضد الانجليز ، وشعوب أخرى وطوائف حائرة بين هذا وذاك . بل كانت مفاهيم التحرر غير واضحة ، فمن المسلمين من كان متعلقا بالوجود الاستعماري البريطاني ومن الهندوس من كان يرى أن الارتباط ببريطانيا لا يمكن فصله حتى لو خرج الانجليز من الهند بل لقد كان هناك من يستبعد خروج الانجليز من البلاد .

وهناك من المفكرين الهنود من كان يرى أن الوجود الاستعماري الانجليزي في الهند ما هو الا رحمة بها لأن غياب هذا الوجود الانجليزي يعنى وقوع مذابح لا يمكن معرفة متى تنتهى .

وكانت السلطات الانجليزية قد ادخلت في الهند بعض اشكال المجالس التمثيلية التى يعبر فيها المواطنون عما يجيش في صدره من آمال وما يعاينه من آلام ومتاعب ، على أن كافة ما تتوصل اليه تلك المجالس هو مجرد توصيات قد يأخذ بها نائب الملك — حاكم عام الهند — أو لا يأخذ بها . ومن هذه المؤسسات (المجلس التشريعى) .

ولا شك أن تأسيس (المؤتمر الهندى) فى ١٨٨٥ كان خطوة ذكية وجريئة انجليزية . حيث أن المؤتمر الهندى هو الذى أفرز الزعامات الوطنية ، مثل المهاتما غاندى . الذى قاد حركة تحرر الهند من الاستعمار البريطانى .

كما أنه لا شك أن تأسيس (الرابطة الاسلامية) فى ١٩٠٦ هى التى قادت المسلمين هناك الى تأسيس (باكستان) .

واذا كان هناك زعيم رائع الدور فى الجانب الهندى مثل المهاتما غاندى ، فهناك زعيم اسلامى على مستواه من حيث الارتقاء الى مصاف (بناء الدول) ألا وهو (محمد على جناح) .

واذا كان لدى الهنود اديب فذ يكاد يكون نسيج وحده مثل (رابندرانات طاغور) . فلهى المسلمون قمة الفكر والأدب فريد عصره (محمد اقبال) .

رجال هم على سمو فى الزعامة نادر المثال ، أصحاب نظريات انسانية سامية ولكن فرقت بينهم رواسب الزمن والدهور واختلاف أدوات الحياة ومقومات المعيشة فى مكان ، وتطورات العلاقات البشرية وما يعتريها من نوازع النفس .

كانت الزعامات فوق التعصب ، وما كانت شعوبهما كذلك فلم تظهر بعد على وجه البسيطة تلك المدينة الفاضلة التى تخيلها الفلاسفة .

لقد رأت الزعامات المثقفة أن الوقت قد حان لتخليص البلاد من الاستعمار البريطانى . ونمت حركات التحرر بين المسلمين والهندوس ، ولكنها لم تستطع أن تتحول الى حركات عامة الا ابتداء من العقد الأول من القرن العشرين .

كان (المؤتمر الهندي) يقود - منذ تأسيسه في ١٨٨٥ - حركة تحرير الهند تدريجيا من الاستعمار . وكانت قيادات اسلامية من داخل المؤتمر نفسه تبذل جهدا رائعا لتحقيق هذا الهدف . وفي نفس الوقت بدأت الخلافات تظهر بين المسلمين والهندوس ، خاصة حول شكل الحكم في البلاد بعد خروج الانجليز منها .

بدأت الانشقاقات الطائفية بين الطرفين تتضح اكثر عن ذي قبل في أعقاب قيام اللورد كيرزون (١) - نائب الملك في الهند - بتقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس . فأعلن الهندوس - زعامة وشعبا - رفضهم لهذا الاجراء من منطلق أن الهند وحدة واحدة ، وامة واحدة ، وجبهة واحدة ضد الاستعمار البريطاني وبعد خروج الاستعمار من البلاد . ورفض الهندوس رفضا باتا هذا التقسيم للبنغال لأنه قام على أساس (طائفي) ، ومعنى هذا - في نظر الهندوس - انسحاب هذا المبدأ على بقية المناطق أي أنه لا توجد (قومية هندية) - وهي التي يؤمن بها الهندوس - وانما توجد طائفية : هندوسية واسلامية . وأن الطائفية تعنى تمزيق المجتمع الهندي .

كان الهندوس يرون في تقسيم البنغال بمثابة اعطاء المسلمين حقوقا لا يجب أن تعطى لهم ، فعلى المسلمين - من وجهة نظر الهندوس - أن يعيشوا تحت سيطرة الهندوس مثلما عاش الهندوس تحت سيطرة المغول المسلمين من قبل .

أدت تلك التطورات الى نمو وزيادة صلابة حركة التضامن الاسلامية ، وهي حركة كانت ترى في (المؤتمر الهندي) أداة تسلط هندوسية على المسلمين . وعجل ذلك من تأسيس (الرابطة الاسلامية) في ١٩٠٦ لتدافع عن مصالح المسلمين ازاء الاستعمار البريطاني وتطلعات (المؤتمر الهندي) . وزاد من تماسك المسلمين وتعلقهم (بالرابطة الاسلامية) انه عندما اقام المسلمون (جامعة اسلامية) في « دكا » (١) ثارت ثائرة الزعماء الهندوس بشكل جعل المسلمين يجدون في (الرابطة الاسلامية) شخصيتهم ومستقبلهم . ولكن ظلت (الرابطة الاسلامية) هيئة سياسية محدودة النشاط عاجزة عن مواجهة تفوق (المؤتمر الهندي) حتى مال (محمد علي جناح) - عضو المؤتمر الهندي - الى الرابطة الاسلامية ابتداء من ١٩١٣ .

Lord Curzon

(١)

(٢) عاصمة بنجلادش حاليا .

« وخلال الحرب العالمية الأولى قويت الدعوات الى استقلال الشعوب سواء قبل صدور مبادئ ولسون الأربعة عشرة أو بعدها » .

والهبت هذه المبادئ مشاعر الشعوب المهيضة الجناح . وفي الهند صعد غاندى من ضغوفة من أجل استقلال الهند ، كذلك كان يسعى المسلمون لنفس هذا الهدف ، وكانوا يعملون على انقاذ (الخلافة) العثمانية الاسلامية من براثن الانجليز (١) .

كانت حركة (الخلافة) قد نمت في الهند وخشى أنصارها هناك عليها من التفوق العسكرى الانجليزى ، فمن المعروف أن الدولة العثمانية دخلت الحرب العالمية الأولى في صف دولتى الوسط (المانيا وامبراطورية النمسا - والمجر) . وفعلا لم تصمد الدولة العثمانية أمام الضغط البريطانى على الدولة العثمانية من أكثر من جبهة : جبهة العراق وجبهة سينا - الشام وجبهة الحجاز وجبهة الدردنيل . وفي الحجاز توصل الانجليز مع الشريف حسين - أمير مكة - الى اعلان ثورة عربية شاملة ضد الأتراك ، وفعلا انطلقت الثورة في ١٩١٦ ، وابتداء من ١٩١٧ توالى الهزائم على الدولة العثمانية حتى اضطرت الى قبول الهدنة في ١٩١٨ ، وادت هذه الهزيمة الى ظهور حركة انقاذ وطنى من القيادات العسكرية التركية وعلى رأسها مصطفى كمال أتاتورك الذى ألغى السلطنة والخلافة . فكان إلغاء الخلافة في (١٩٢٤) بمثابة طعنة وجهت الى دعائها في الهند .

كان الزعيم محمد على جناح لا يرى في إلغاء (الخلافة) أية مساس بالحركة الاسلامية في الهند ، اذ كان يرى أن (حركة الخلافة) تقوم على أساس (عاطفى) ، وأن عهد الخلافة قد مضى وانقضى وأنه على مسلمى الهند أن يحددوا أهدافهم بشكل واقعى .

اتخذ محمد على جناح سبيله في تكوين (كيان اسلامى) في الهند على أساس معارضة الفلسفة السياسية والأساليب التى يتبعها غاندى من أجل تحرير الهند من الاستعمار واقامة دولة هندية كبرى ديمقراطية على اعتبار أن تلك الفلسفة والأساليب

(١) أنظر مجلة معهد البحوث والدراسات العربية العدد سنة ١٩٨٨ عن رؤية

مفكر هندى مسلم لثورة العربية التى نشبت في ١٩١٦ ضد الدولة العثمانية .

تخدم فقط تفوق الهندوس على المسلمين وتجعل اليد العليا في البلاد للهندوس أما المسلمون فدورهم — في نظر غاندى — توابع لمحض كونهم يشكلون ربع تعداد الهندوس ..

هاجم محمد على جناح بكل قواه وحشية الانجليز عندما انقضوا على الثوار الهنود في ١٩١٩ لمجرد أنهم يتظاهرون مطالبين بحق بلادهم في التحرر من ربقة الاستعمار . ولكن أن تكون (الساتيا جراها) أى (العصيان المدنى) والالتجاء الى (المغزل) لمقاطعة البضائع الانجليزية أدوات للتحرير فان ذلك كان في نظر محمد على جناح يضر الشعب الهندى أكثر مما يفيد حركة التحرر الهندية . ف يرى محمد على جناح أن المقاطعة تضر بالشعب الفقير أكثر مما تضر شعبا غنيا مثل الانجليز ، وأن العودة الى (المغزل) — وهى ركن أساسى في سياسة غاندى التحررية — ليس سوى رجعة الى الماضى ، وخير منها — من وجهة نظر محمد على جناح — انشاء المصانع التى تمكن الهند من الوقوف بقوة أمام المصنوعات البريطانية ، فاذا ما أصبح للهند قاعدة صناعية قوية تستطيع مقاطعة البضائع الانجليزية بنجاح دون اضرار بمصالح الشعب . فالساتيا جراها والمغزل ما هى الا أساليب عاطفية لا تؤدى الى نتيجة واقعية .

وانتقد محمد على جناح اصفاء لقب (المهاتما) على غاندى ، على أنه يكرس مسيرة غاندى في خدمة الهندوس وليس في خدمة المسلمين ، فهو يفتخر بالألقاب الهندوسية دون الاسلامية وفي ذلك ما فيه من دلالة سياسية يرفضها جمهور المسلمين .

وانتقد محمد على جناح بشدة التعاون بين حزب المؤتمر الهندى والسلطات الاستعمارية البريطانية في اصدار دستور للبلاد يعطيها طابعا هندوسيا ، ومعنى هذا أنه من بين أهداف تأسيس الحياة الدستورية اذابة السكان المسلمين في البوتقة الهندوسية ، ونظرا لفشل محمد على جناح في اقناع غاندى والزعامات الهندية بوجهة نظرة تلك اصدار هو مبادئه الأربعة عشر التالية :

١ — سن دستور أساسى للهند يخول لكل مقاطعة (ولاية) الصلاحية التامة في الحكم المباشر .

٢ — مساواة جميع المقاطعات في الحقوق والامتيازات .

- ٣ - مراعاة حقوق الاقليات في سائر المقاطعات وتخويلهم حق التمثيل النيابي في سائر المجالس النيابية والتشريعية وحماية حقوقهم ضد ضغط الاكثرية .
- ٤ - أن يكون ربع المقاعد لمثلى المسلمين في المجلس النيابي الذى سيؤسس بمقتضى الدستور .
- ٥ - أن ينتخب الأعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخابا مستقلا مع تمتعهم بالصلاحية التى ينص عليها الدستور .
- ٦ - أن لا يكون فى تغيير النظم التى ستجرى فى سائر المقاطعات ما يمس الحقوق والمزايا التى تتمتع بها الاكثرية المسلمة الموجودة فى مقاطعات البنجاب والبنغال والحدود الشمالية .
- ٧ - أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة المطلقة لجميع الملل والمذاهب من اقامة الشعائر والتعليم وغير ذلك .
- ٨ - أن لا ينفذ أى قانون أو أى لائحة فى مجلس من المجالس التشريعية أو النيابية فى اية مقاطعة من المقاطعات ويكون ذلك القانون أو تلك اللائحة تمس قوما من الأقوام أو طائفة من الطوائف ما لم يوافق على ذلك ثلاثة أرباع الأعضاء من ممثلى تلك الطوائف .
- ٩ - فصل مقاطعة السند عن بمباى فصلا تاما بغير قيد أو شرط .
- ١٠ - أن تنظم مقاطعتا الحدود وبلوخستان تنظيما يتفق والحالة التى عليها سائر المقاطعات .
- ١١ - مراعاة حقوق المسلمين فى سائر الامارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة فى سائر الحقوق والوظائف .
- ١٢ - أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة للمسلمين فى اقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية فى التعليم واللغة فى سائر المقاطعات والولايات المستقلة ، وأن تخصص كل ولاية منحة مالية تصرف سنويا على الشئون الاسلامية .

١٣ — أن لا تؤلف وزارة من الوزارات أو حكومة من الحكومات في المقاطعات الهندية ما لم يمثل فيها المسلمون بنسبة (الثلث) .

١٤ — أن لا يقبل أى تعديل أو تغيير في الدستور الهندي الأساسى بعد تشريعه الا بعد أخذ رأى وموافقة سائر المقاطعات .

ولكن أصر زعماء حزب المؤتمر على أن يسيروا في الحركة التحررية الوطنية بدون محمد على جناح وبدون (الرابطة الاسلامية) . وشجعهم على ذلك أن عددا ليس بالقليل من الزعماء المسلمين كان متعاوننا الى أقصى الحدود مع (المؤتمر الهندي) ، وكان هذا التعاون ليس من منطلق خيانة القضية الاسلامية ولكن اقتناعا بقيمة الهند المستقلة (الموحدة) ولكن ثبت أن كل حركة تحررية لا تحظى بموافقة (الرابطة الاسلامية) تصبح حركة (هندوسية) فلا تحرز نجاحا في اتجاه الهند المستقلة الموحدة .

وعلى أى حال أدت المواجهات المتتالية بين غاندى وحزب المؤتمر من جهة السلطات الحاكمة الاستعمارية من جهة أخرى الى أن يفتح الانجليز باب الاتصال المباشر مع (الرابطة الاسلامية) في ١٩٣١ . ولا شك أن الانجليز ربحوا كثيرا من وراء ذلك . ولكن كافة أوجه النشاط التى كان يقوم بها حزب المؤتمر أو الرابطة الاسلامية كانت تهدف الى اخراج الانجليز من البلاد . فكان أن أصبحت تكاليف الوجود الانجليزى في الهند باهظة مما دفع الانجليز الى تعديل سياستهم بتلبية بعض المطالب الوطنية فصدر الدستور في ١٩٣٥ . وبرزت من وراء ذلك مشكلة خطيرة وهى : هل ستكون الانتخابات النيابية المقبلة (عامة) أم تكون على أسس (طائفية) . وكان الهندوس والمؤتمر الهندي يصرون على أن تكون الانتخابات المقبلة انتخابات (حرة) عامة . ومعنى هذا أن المجلس المقبل سيكون مجلسا هندوسيا يكون فيه المسلمون باستمرار أقلية مهينة الجناح .

وأعلن غاندى رأيه بكل وضوح ، وهو أنه لا توجد في الهند طوائف أو شعوب ، وإنما يوجد شعب واحد له أديان مختلفة . ومن بين ما قيل دفاعا عن وجهة نظر غاندى هذه أن انفصال المسلمين عن الهند يعنى اضعافها اضعافا شديدا خاصة أن التيار العالمى هو اقامة (وحدت سياسية كبيرة) ، بمعنى أن التقسيم نظرية عفى عليها الزمن وأن الوحدة هي تيار العصر . وهناك من يرى أن سبب معارضة الهندوس لقيام دولة اسلامية في

شمال الهند سيعطى دفعة قوية للشعوب الاسلامية نحو التعاون فيما بينها ، فتظهر وحدة اسلامية تضم أفغانستان والبلاد العربية وهذا وضع يهدد كيان الهند .

وفي عبارة موجزة صور (محمد على جناح) أسس الخلاف بين المسلمين والهندوس :
« نحن من الجنس الآرى وهم درافيد ونحن من أهل الكتاب وهم وثنيون يعبدون البقرة ، ويقدمون الحيوانات ، وسنظل الى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله . وسيظلون هم الى آخر الدهر يقدمونه ويعبدونه ، هم يتكلمون الهندوستانية ولا يريدون عنها بدلا . أبطال تاريخنا أعداؤهم لأنهم دحروهم وهزموهم ، وأبطال تاريخهم أعداؤنا لأنهم دحرونا وهزمونا ، ويوم يحتفل أحد الفريقين بذكرى أبطاله يبكي آخر حزنا وحسرة ، ولا يمكن أن تزول الخلافات بيننا وبينهم ، ولم نثق في وعودهم فقد حاولنا دائما ومنينا أكثر من مرة بالخيانة ، وحكومة حزب المؤتمر دليل على صدق قولى ، وفظائعها معنا شهيد على ذلك ، فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس وهم كثرة ونحن قلة . فبمثل ذلك فناءنا النهائي ، وفرصتنا الوحيدة : باكستان . وسنريق دماءنا الى آخر نقطة في سبيل تحقيقها . فالمناطق الاسلامية يجب أن يحكمها مسلمون . والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس . وستبقى أقلياتهم عندنا فيحفظ التوازن ويطمئن الطرفان الى العدالة والمساواة » .

وفي ١٩٤٠ تحقق أمل الفيلسوف اقبال في اعلان المسلمين بتمسكهم بدولة خاصة بهم أطلقوا عليها (باكستان) وكانت فترة الحرب العالمية الثانية واعقابها أخرج فترات الصراع بين الفكرتين التاليتين :

١ - الهند الموحدة .

٢ - الهند المقسمة التى تحصل فيه الولايات ذات الأغلبية الحاسمة من المسلمين على حقها فى أن تكون ضمن دولة اسلامية .

وقد استخدم خصوم محمد على جناح كافة الوسائل من ارهاب دموى الى دبلوماسية المفاوضات معه ومع الانجليز ، وعملوا على اضعاف قوته عن طريق تحريض بعض الطوائف (الشيعية) و (الاسماعيلية) ضده . ورغم ذلك استطاع محمد على جناح أن يكسب الغالبية العظمى من مسلمى الهند الى جانب فكرة تأسيس دولة (باكستان) .

وفي ١٩٤٦ بذلت آخر محاولة لفرض كلمة المؤتمر الهندي على الرابطة الاسلامية .
وحاولت الجموع الهندوسية أن تفرض بالقوة وبالمذابح (الوحدة) على المسلمين ، وكانت
المذابح مروعة ، فكانت واحدة من الأسباب الرئيسية التي قطعت الطريق على دعاة قيام
نظام فيدرالى يعيش تحت مظلتهم المسلمين والهندوس .

وأصبح (التقسيم) هو الهدف الوحيد الذى يسعى اليه المسلمون . وأخيرا
اضطر زعماء حزب المؤتمر الى أن يوافقوا على انفصال المسلمين وظهرت دولة باكستان
(الاسلامية) فى منتصف أغسطس ١٩٤٧ .

وهكذا ظهر نتيجة لسياسة التقسيم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية دولتان
أحدهما اسلامية والثانية صهيونية يهودية . ولكن شتان بين النظرية التى قامت على
أساسها دولة باكستان وتلك النظرية التى قامت على أساسها دولة اسرائيل .

لقد أثير جدل حول التشابه بين النظرية القومية الاسلامية التى دعا اليها (محمد
أقبال) والدعوة التى أطلقها هرتزل : الصهيونية (القومية اليهودية) . ولقد نجحت كل
من الدعوتين فى إقامة باكستان الاسلامية واسرائيل اليهودية .

وبادىء ذى بدء ، لقد أدرك زعماء المسلمين فى الهند ، وزعماء الصهيونية أن العصر
عصر القوميات . ومن يتبنى الفكر القومى هو الذى يعيش على مستوى العصر ، ويستطيع
أن يحقق أهدافه ، خاصة اذا ما أخذ بأدوات الحضارة الحديثة . واتخذت الصهيونية من
قيام باكستان على أساس دينى حجة تبرر بها قيام دولة اسرائيل فى فلسطين حتى ولو
كان ذلك على حساب الفلسطينيين وطردهم من ديارهم .

فالحقيقة هى أن الدولة الاسلامية (باكستان) قامت على أرض اسلامية يعيش
عليها مسلمون فعلا ، بينما الدولة الاسرائيلية قامت ولا تزال تقوم على أساس تهجير
اليهود من مختلف أجزاء العالم الى فلسطين لاسرائيل ، وكان العرب قبل ١٩٤٨ يشكلون
الأغلبية الساحقة لشعب فلسطين ، فطردوا منها لتقوم اسرائيل . انه قياس مع الفارق
الشاسع جدا . وما أكثر الأحيان التى رددت فيه أجهزة الاعلام الاسرائيلية أن قيام

باكستان على أساس ديني يدعم النظرية الصهيونية في اقامة دولة يهودية (اسرائيل)
وانه — كما بينا — لقياس مع الفارق الشاسع بين قيام تلك وفرض قيام اسرائيل وتهجير
اليهود من بلاد نائية ليقيموا على جثث العرب وما خلفه الفارون العرب من وجع
الاستعمار الصهيوني . . دولة .

★ ★ ★

اللاحق

١- اللاحق العربية

ب - اللاحق الانجليزية

أولا — الملاحق العربية :

- ١ — سلاطين الدولة العثمانية .
- ٢ — شهادات فارس .
- ٣ — أباطرة مغول الهند العظام .
- ٤ — مرسوم السلطان سليم بهزيمة اسماعيل الصفوى .
- ٥ — مرسوم السلطان سليم الأول العثماني بفتح الشام ومصر أوائل محرم ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م .
- ٦ — معاهدة أرضروم المؤرخة في ٣١ مارس — أيار سنة ١٨٤٧ .
- ٧ — مذكرة إيضاحية حول بعض الشروط الواردة في معاهدة أرضروم المقترحة قلمها السفيران البريطاني والروسي في الاستانة الى الحكومة العثمانية في السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٤٧ .
- ٨ — بروتوكول طهران المؤرخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩١١ .
- ٩ — البروتوكول الموقع عليه في الاستانة في الرابع (السابع عشر) من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٣ .

سلاطين الدولة العثمانية

التاريخ	اسم السلاطان
١٥١٢	سليم الأول
١٥٢٠	سليمان الأول
١٥٦٦	سليم الثاني
١٥٧٤	مراد الثالث
١٥٩٥	محمود الثالث
١٦٠٣	أحمد الأول
١٦١٧	مصطفى الأول
١٦١٨	عثمان الثاني
١٦٢٢	مصطفى الأول (للمرة الثانية)
١٦٢٣	مراد الرابع
١٦٤٠	ابراهيم
١٦٤٨	محمد الرابع
١٦٨٧	سليمان الثاني
١٦٩١	أحمد الثاني
١٦٩٥	مصطفى الثاني
١٧٠٣	أحمد الثالث
١٧٣٠	محمود الأول
١٧٥٤	عثمان الثالث
١٧٥٧	مصطفى الثالث
١٧٧٣	عبد الحميد الأول
١٧٨٩	سليم الثالث

مصطفى السرايخ	١٨٠٧
محمود الثاني	١٨٠٨
عبد المجيد	١٨٣٩
عبد العزيز	١٨٦١
مراد الخامس	١٨٧٦
عبد الحميد الثاني	١٨٧٦
محمد الخامس	١٩٠٩
عبد المجيد (خليفة فقط)	١٩٢٢

شاهات فارس منذ ١٥٠٠ الى الآن

الأسرة الصفوية :

١٥٢٤ - ١٥٠٠	١. - الشاه اسماعيل الصفوى
١٥٧٢ - ١٥٢٤	٢. - طهماسب الصفوى
١٥٧٨ - ١٥٧٢	٣. - اسماعيل الثانى الصفوى
١٥٨٧ - ١٥٧٨	٤. - محمد خدا بنده الصفوى
١٦٢٩ - ١٥٨٧	٥. - عباس الكبير الصفوى
١٦٤٢ - ١٦٢٩	٦. - صفى الصفوى
١٦٦٧ - ١٦٤٢	٧. - عباس الثانى الصفوى
١٦٩٤ - ١٦٦٧	٨. - سليمان الصفوى
١٧٢٢ - ١٦٩٤	٩. - حسين الصفوى

فترة الغزو الأفغانى :

١٧٢٣ - ١٧٢٢	١٠. - محمود لأفغانى
١٧٣٠ - ١٧٢٣	١١. - اشرف الأفغانى
١٧٣٦ - ١٧٣٠	١٢. - طهماسب الصفوى

أسرة نادر شاه :

١٧٤٧ - ١٧٣٦	١٣. - نادر شاه
١٧٤٩ - ١٧٤٧	١٤. - عادل
١٧٥٧ - ١٧٤٩	١٥. - شاه رخ (وآخرون)

الأسرة الزندية :

١٧٧٩ - ١٧٥٧	١٦. - كريم خان الزند
-------------	----------------------

١٧٧٩ — ١٧٩٦

١٧ — صراع اخوته وأولاده على العرش

الأسرة القاجارية :

١٧٩٦ — ١٧٩٧

١٨ — آغا محمد

١٧٩٧ — ١٨٣٤

١٩ — فتح علي شاه

١٨٣٤ — ١٨٤٨

٢٠ — الشهاب محمد

١٨٤٨ — ١٨٩٦

٢١ — ناصر الدين شاه

١٨٩٦ — ١٩٠٦

٢٢ — مظفر الدين شاه

١٩٠٧ — ١٩١٢

٢٣ — محمد علي

١٩١٢ — ١٩٢٦

٢٤ — أحمد

الأسرة البهلوية :

١٩٢٦ — ١٩٤١

٢٥ — رضا بهلوي

١٩٤١ — ١٩٧٩

٢٦ — محمد رضا بهلوي

اباطرة مفسول الهند المظنام

١٥٣٠ - ١٥٢٦	١ - بابيسر
١٥٥٦ - ١٥٣٠	٢ - هـايون
١٦٠٥ - ١٥٥٦	٣ - اكيسر
١٦٢٧ - ١٦٠٥	٤ - جهانكير
١٦٦٦ - ١٦٢٧	٥ - مساهجان
١٧٠٧ - ١٦٦٦	٦ - ارانكيزيب

مرسوم السلطان سليم بهزيمة اسماعيل الصفوي

« الحمد لله الذى أذل أعداءنا وأجل أوليائنا وأظفر نبيل المأرب رجاءنا وجعل
إيماننا بالإيمان مسفرة ولياليها الميامن مقمرة ومساعينا بالمحامد مثمرة ومعاهد معادينا
بفتور النقم مقفرة » .

« نحمده حمدا كثيرا على أن من على بالفتح الأكبر والنجح الأزهر والنصر الأشهر
واليمين الأنصر والعز الأشهب الاسنى والفوز الأتم الأنمى والسعد الأحمد الاجدى وهو
الفتح الذى يفرح برؤياه مهاب الفتوح وتلوح تبشير بشراه فى لوخ الدهور لكل مؤمن فيتلقاه
بالوجه السافر والصدر المشروح » .

« ونصلى تلبية دائمة على كل ناسخ كل ملة وفاسخ كل نحلة المبعوث بعد امتداد
من الفترة واشتداد من الهترة وانقطاع من الهدايا والدلالة واتساع من الغواية والضلالة
محمد المجتبى من أفخر القبائل والمصطفى من أطهر الفضائل وعلى آله وأصحابه الذين هم
ولاة الخلق ورتقة الفتق وغرر السبق وفتحة الغرب والشرق منهم رد ردة المرتدين من
اسلامها ومنهم من أزال أرجل الأكاسرة عن أسرتها وتيجانها عن همامها ومنهم الأشداء على
الكفار الاسداء اذا زاغت الأبصار ومنهم السابقون والتابعون وسلم تسليمًا دائما ما هبت
الصبا واختلف الصبح والمسا » .

« وبعد فانا ارصدنا هذه المفاوضة الشريفة الى الحضرة العلية للأعلمية والأهمية
الأورعية الأروعية الاكملية الأفضلية الاعدية الاكرمية الأفخمية الاعظمية العونية
الفوئية وهو الذى جمع المحاسن كلها واستولى على المفاخر قلها وجلها والقت اليه المعالى
مقاليدها وارجعت اليه أخبار المكارم أسانيدها حامى الحرمين المبجلين المعظمين كهف
المظلومين ملاذ الملهوفين نصير الاسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين » .

« أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وأيد دولته وأجزل من الخيرات همته ولا اخلى
من نعمه رياضها ممرعة وحياضها مترعة وحدها متمهد وظلها ظليل وخطها جزيل ولا زالت
الأمال به منوطة ويده بالمكارم مبسوطة وما برح لقوام المجد قواما وللزمان ابتساما

ما قرت الأرض قرارها وابقت الأفلاك مدارها تهدي لعلمه ان الرجل الجافي المدعو باسماعيل الصوفي قد خرج من جيلان واجتمع على الملاحنة وأحزاب الشيطان فساد معهم الى سروان ودخله غضبا وأوسعه نهبا ثم هجم اذربيجان عنوة فنال منها حظوة » .

« ثم استولى على ممالك الشرق يوما فيوما قد ناب من استلامهم خطة خراسان التي هي سرّة بلاد ايران ما تاب وأصاب ديار البوارات ما أصاب نزع الله الرافة من قلوبهم فنقلها الى عدو لهم وعذب بهم ما يريد من تعذيبهم واشتعلت نار جمرتهم في فحم ذنوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وأمدهم في طغيانهم يعمهون رفعوا التكاليف وحفظوا الشرعيات وقد تعين الجهاد على كل مسلم ولم يكن أحد يكون له هذا الحلم غير متألم فيتصدى لدفعهم ملوك الاسلام فانتقموا منهم وبلغوا المرام » .

« من حارب هذا العدو الكافر ما غلب بل غلب ومن صادف ذاك الغوى الفاجر ما سلب بل سلب ففجر الناس وتبرأوا من اعتداد العدة والفدر جرى على كل لسان لكل قوم مدة فظلت الآفاق من غياباتهم واشتق الاسلام من نكاياتهم فنادى بلسان الحال كل قوم : أين المؤدون فرض الجهاد المتقين وأين المهتدون في تهيج الرشاد المبين » .

« فلما اقتربت الساعة التي قدر فيها رغم أنفه وحان ظهور الآية التي جعلت سببا لهلاكه وحته الهمة الله أن نهتم لهذا الأمر الخطير فانه من فرض الهام وأهم الفروض واختال في صدورنا أن ننفر في حمل عبء هذا القادم الباهظ بالنهوض فقلنا ان هذه فضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها بل هي بلية جلا علينا وجه نعمه فيها وقضية وفا النجح بعهد قوافيها وثلة اختارنا لدفعها وثائرة كلفنا الله اطفاء جمرها وارداء جمعها اذ لا يرى أحدا ولى من تفريج هذه الغمة وكشف هذه الممة » .

« فدعونا مشايخ الفقهاء ومشاهير العلماء واستفتيناهم عن حالهم وسألناهم عن قتالهم فأفتوا مطابقين وأجابوا متوافقين بأن سعى من جد في قمعهم مشكور وعمل من جاهد في دفعهم مبرور فحكموا لدينا بكفرهم والحادهم وارتدادهم فقوى عزمنا وقمنا على ساق الجدد والاجتهاد فاشتد علينا من جميع الجهات جموع الجهاد واجتمع جم غفير » .

« فعبئت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الشرق في زمن الربيع التضرير فعبرنا بعد الاستعاذة بالله تعالى في شهر صفر ختم بالخيز والظفر من خليج القسطنطينية حماها

الله عن البلية وكتبنا اليه كتابا مستطابا متضمنا للنصيحة والموعظة فأمرنا فيه أن يتوب من جرائمه وجرائره ويستغفر لصغائره وكبائره ويغير ما تعود في الأيام الماضية والأعوام الخالية من سوء الاعتقاد وتعذيب العباد والفعل اللئيم والخلق النميم فقلنا : لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ولیمسنکم منا عذاب الیم ووضحنا المعالي المنيفة باللفظ الوجيز فما وفق لذلك والتوفيق العزيز » .

« فسرت مستعينا بالله الى دياره وبلاده مصمم العزيمة على قتاله وجلاده فمادت الأرض بحركتنا وغامت السماء من غبرتنا واضطربت السهول والوعوث والدغوث وانبعثت الهمم وهجم البعوث والعسكر في كل يوم يعدون ويفتدون وفيما يجدون الطريق اليه من النكاية في العدو يمدون ويجيدون » .

« فلما بلغ السير الى بلده سيواس صانها الله من الاندراش عرضنا عساكرنا المنصورة وكان عرضها مذكرا ليوم العرض ومن شاهدها تلا : والله جنود السموات والأرض فرأينا أن الأرض شاكية من اجحاف الجحافل فانتخبنا منها الأنجاد وجددنا الجود واستجدنا الجياد واعدنا ما وراء البحر بقية الاجناد » .

« ثم ارتحلنا منها من جنود محسورة وبنود منشورة للعدو طالبا وبالغرم غالما وللنصر صاحبا ولذيل العز ساحبا فنزلنا على بلدة أرزنجان فطار الخبر اليه فطارت قلوب من معه رعبا وطاشت وخضعت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت » .

« وأرسلنا اليه منها كتابا آخر داعيا للطعن والضرب مستدعيا منه المقارعة والحرب ومن موضع آخر كتابا رصيف المباني مؤكدا للأول والثاني واردفنا رسولا برسول والزمناه القتال بمعقول ومنقول واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون » .

« فسرنا منها نحو سرير ملكه شهرا وبدلنا ثياب العهود سرها جهرا وخطبنا من الله الكريم يكر فتح وجعلنا بذل المهج لها مهرا وصار العدو المخدول في هذه الأيام يطوف حول القرى من قرية الى أخرى بحيث لا يعرف سأنه ولا يعلم مكانه » .

« فاذا بلغنا المنازل القريبة من بلدة تبريز دعت الضلالة الى المكابرة بحسه وخطارة

بنفسه عين لجنوده وثبت وفوده وبلى ندى جموعه وصب عليهم ماء دروعه فسار بكثرة وقلة وجزئه وكله وجاء والأدبار قائده والخذلان رائده موضعاً يسمى نجالدران فأختره لان يكون معارك القتال ومصارع الرجال ومجامع الأبطال ومطالع اللقاء ومواضع الهيجاء ومصالت الأقدام ومثابت الأقدام ومواقف الصفوف ومصاف الوقوف وأماكن البعوث ومكانم الليوث وقادها هنا تطرح الرءوس وتمسك النفوس وتسفك الدماء وتهلك الدهماء ويسمح بالروح ويصبر على اقتراح القروح واجترأ الجروح » .

« واذ قرع مسامعنا هذا الخبر بذلنا الجهد على مقابلتهم فطوينا المراحل وقطعنا المنازل ذلك اليوم فمزقنا وقت العصر على جبل منيع نرى منه خيامهم وخلفهم وقدامهم فضربت سرادقاتنا وركزت أعلامنا فحجز الليل بين الفريقين وحجرت الخيل على الطريقين » .

« وكان الجمعان في تلك الليلة الظالماء على تعبتشهما واجابة داعى الموت بتلبيتهما وبات الاسلام للكفر مقابلاً والرشد للرفض مقاتلاً والهدى للضلالة مراقباً للباطل مجارياً وهيأت دركات النيران وهنأت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان » .

« فلما تجلى الصبح وعموده وانهزم الليل وجنوده وانكست أعلامه وبنوده نفر النفير غراب الغبار وانتبهت في الجنون الصوارم وسقط النار وكان اليوم يوم الاربعاء وهو اليوم الثانى من شهر رجب المرجب » .

« وماجت خضارمنا وهاجت ضراغمنا وثار غمائمها وسدت الأفق غمائمها وترتبت اطلابنا على قلب وجناح داعين للفوز والنجاح وعين لكل أمير موقف لا يبرح عنه ولا يغيب جمعه ولا أحد عنه فاتحدنا عليهم بهيئة مهيبة وابهة عجيبة والتوفيق مسامرنا والتأييد مؤازرنا والتمكين مقارننا والجد مكاثرننا واليمن محاضرنا والقدر مسامرنا والظفر مجاورنا والاسلام شاكرنا والله عز وجل ناصرنا » .

« وقابلنا العدو والحدور في عدتهم وعديدتهم وقوتهم وحديدتهم بالسلاهب المجنبه والمتواضب المقربة والصوائب المجعبة عارضا لهامة ناير الغنامة باشر الاعلامه فسار عسكريه وثار عنثره ونعرت كوساته وصاحت بوقاته وكانوا في زهاء مائة ألف أو يزيدون ويكيدون ما يكيدون » .

« فلما أحس في نفسه عدم الاستطاعة من ضرب حسامنا وسطوة عبيدنا وخدامنا
جعل جموعه فرقتين وصفوفه شذمتين فعين لاحدهما قسم رأسه وشكيمه يأسه أميرا
هو الحاكم للديار البكرية المعروف بمحمد أستراحالي فارسله على ميمنتنا البارة وهجم
بنفسه وجيشه ومطاعينه وشياطينه على ميسرتنا السارة فتصادم الصفوف وتزاحم
الرجوف واطلقت الاعنة وأشرعت الاسنة وقامت الحروب بين أهل الحق وبين الطائفة
الجافية الفاجرة وقد كانت لهم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة» .

« واشتد الهياج وامتد العجاج وتصافح الصفاح وتشاجر الرماح وتكاثر الجراح
واشتعل الضرام وتطايرت السهام وتضايق المجال وتسابقت الآجال والتفت السساق
بالساق وتلاعبت الأسياف بالاكثاف وخضبت الدماء الخناجر وبلغت القلوب الحناجر » .

« وأما الطائفة التي اتت الميمنة فقام أمير الميمنة في صفوفهم وأشرع الاسنة في
نمورهم وروى اللهازم من تامورهم ورفع صولتهم ومنع سطوتهم وكسر حذتهم فهزمهم
بأذن الله ولم يبق أحد من شريفهم وخسيسهم حتى خر رأس رئيسهم » .

« وأما حال الميسرة فجاء عليه العدو المدبر برمته وكليته وبذل جهده واستفزع
ما في وسعه وقدرته فحمل عليهم حمل الليث الحاذر وسطا عليهم سطوة الأسد الزائر لكن
السيل اذا بلغ الجبل الراسى وقف والليل اذا انتهى الى الصبح انكشف » .

« وتناوبت الحملات وتناوبت الاسلات والصفوف ما خرجت عن مقارها ولا انزعجت
عن محال قرارها وواصل النبال النصال والنصال النبال فثبت في وجههم مناصف
مرصوص البنيان واسرعوا الى نحو تلك الذئاب تعالب الحرصان وقتل جم غفير من الغاوى
فملأت منهم دركات النيران واستشهد منا جماعة استحلوا طعام الطعان وساقهم حنا
الجنسان » .

« وكان أمير الميسرة مقروحا بقروح عديدة ومجروحا بجروح مبيدة فخرج عن
مواضع الهيجا واندرج بعد ساعة في زمرة الشهداء والصالحين والسعداء فما أثر في
أخرا بنا هذا النصب ولا صدمهم عن الطلب ذلك التعب » .

« فبرز الأمر العالى أن يمدهم جماعة من الطوجيين وحزب من الغرباء وثلة من
الآجلين فلما نالهم المدد تسنت للاسلام مناهج ووضحت للسعادة مباحج وتآلفت في الاقدام

مقدمات ونتائج المباحث والتأملت في مد الرحال مدارج واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات
وكانت لنا كسرات ولاعدائنا مساءات » .

« وساعدت الأقدار وتباعدت الأكدار كلما حلوا ردوا وأرادوا وكلما ساروا وشدوا
أسروا وشدوا وناسبهم الشباب فعادت أسودهم قنافذ وسابقتهم السهام فوسعت فيهم
الخرق النافذ وأستعملت الكنيات والصريزايات ورعد ويرق يجعلون أصابعهم في أذانهم
من الصواعق حذر الموت » .

« فصار حسب حالهم ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا
يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون وحل بهم الصغار والذلة والدمار فاووا الى جبل
ليعصمهم من طوفان الدمار » .

« فمن الله علينا بالفتح الجميل وايدنا من عنده بالنصر الجليل فزلت اقدامهم وولت
أعلامهم وانحل عقدهم وانفك حدهم وانتكس تدبيرهم وانعكس تقديرهم فما بقى من تلك
الآلاف آحاد وما نجا من هذه الاعداد اعداد فعاد مجروحا بجراحات مؤلمة في عدد يسير
عاجزين حائرين خائبين خاسرين » .

« وبعد ما رجعوا على هذه الحالة التي زيدت والصفة التي ذكرت لم تثبت في تبعة
اقدامهم ولم تخنق لوقفه أعلامهم بل رأوا النجاة من أيدي الزرايا والخلاص من حبائل
المنايا والخروج عن الولايا فخرجوا عنها هاربين وللنجاة طالبين وقطعوا المنازل
وطووا المراحل وتركوا الدواب والرحال وطرحوا الأحمال والأثقال وعدوا فراسخ القرار
وان امتدت خطوة وأيام الهرب وان طالت لمحة وهذه حالهم وشر منا ما لهم لا يحميه حار
ولا يأويه دار وكل ذلك عاقبة الظالمين والحمد لله رب العالمين » .

« فأما من أسر فلم يكف أطناب الخيام لقيده وشدته وأما من قتل فلقطد حصرت
الأسن عن حصره وعده فلم تقع عين الا على أشلاء طريحة وأعضاء جريحة وأصابع
مقصوفة واشاجع مفصومة وصدور مرصومة ونحور مبصومة وأجساد منصوفة
واعضاد منصوفة وصارت تلك المعركة بالدماء دارا وعادت الغبراء حمراء وجرت أنهار الدم
وسقى بتلك الخبائث وجه الدين المطهر » .

« فتعدنا في ذلك المنزل يوما واحدا ثم أصبحنا على عقبه سائرين مسرورين

محبورين والوجوه سافرة والألسن بانعم الله شاكرة والأنفس للألسنة مسامرة والأقدام بالأقدار متظافرة متظاهرة فحللنا بالطائر الأسعد والمجد الأمجد ببلدة تبريز » .

« وانحسنت الظلمة المستولية بمقدمنا العزيز فطابت قلوب الرعايا وبشرت من الله بما ظهر من الطافة الخفايا لما بدلوا من الظلمات نورا وأعقبوا من الموت نشورا فوجدناهم بلدة أخربت فيها بقاع الخيرات ومساكن العباد وعطلت المساجد فجعل هذا الظالم بعضها اصطبلا للدواب وبعضها مسكنا للشراد والحداد فأمرنا أن تعود كلها الى وضعها القديم ويذكر فيها اسم الله الرحمن الرحيم » .

« فلما دخل يوم الجمعة أصبح الناس يقولون هذا يوم كريم . موسم عظيم يوم تجاب فيه الدعوات وتصب فيه البركات فطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذى انتعش فيه الاسلام وارتأس ما افضل هذه . . فأشرف من هذه الجماعة التى شرفها الله تعالى لتوفيق هذه الطاعة امتلا الجامع واختلفت المجامع وتوحشت الأبصار والمسامع وغصت بالسابقين اليه المواضع واجتمع الزاهد والعابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد والقائم والقاعد وعبد الأحد والواحد وابكى الحفاظ فتلى التنزيل وأسلى الوعاظ بحق الحق وبطلت الأباطيل » .

« وصعد الخطيب المنبر فخطب وأنصتوا ونطق فسكتوا ووعظ فى خطبته وخطب بموعظته وتلاها على مذهب اهل السنة وجماعتهم وذكر الخلفاء الراشدين والأئمة المجيدين رضوان الله عليهم أجمعين بالتعظيم والتبجيل على ترتيب خلافتهم بعد أن يذكروا بالخير أمد مديدا وعهدا بعيدا ورقى القلوب وجفت الكروب وتصاعدت الزفرات وتجذدت العبرات وصاح التوابون وماج الأوابون » .

« فلما دعا بخلود أيام دولتنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ختم بقوله : ان الله يأمرنا بالعدل والاحسان ونزل وصلى بالمحراب وافتتح باسم الله من أول الكتاب فصلينا معه والصفوف على سعة المسجد بها متصلة والأمة الى الله تعالى بدوام نصرتنا متبهلة ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واستمد الناس الايناس وطابت النفوس والأنفاس » .

« فنشكر الله شكرا كبيرا على أن جعل أيامنا للفتوح مواسم وأوقاتنا للزمان مباسم ومآثرها فى ضحو المعالى خالدة ومناقينا على ممر الليالى آيدة ونرجو من لطفه الخفى على أن يجعل سعيينا مشكورا ويجزيينا فى الآخرة جزاء موفورا » .

« ولا خفاء في أن هذا الفتح الجليل العظيم والضيع الجليل الكريم وفقنا الله به أمر بتبييض الأيام السود وأعاد الحسن المعقود وأقر الخير في قراره وأسقط لواء الشر بعد انتصابه واضحك وجه الاسلام وبرد صدور الأنام » .

« فأصبح ولو كانت الفتوح حسبما لحل منه محل القواد ولو كانت أرضا لكان سماؤها ذات العماد وهو جدير بان تواردت نسبة البشرية واليسرى وتدامت الكتب والأخبار على الأكارم والاقانيم وسلاطين الاقاليم سيما على حضرة من كان من مقامنا الشريف وثفره المنيف وشرف الجوار وتفاوت الدار وكمال المودة التي تصفو مشاربها على الأقدار ومناهلها على الأكدار وتكتلب آثارها بسواد الليل على بياض النهار » .

فلهذا أسطرت في اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب المرجب لسنة عشرين وتسعمائة من بلدة تبريز هذه المكتابة الشريفة مبشرة بما أجده الله من الجدة وانجز من الوعد وأجزل من الوفد وحلى وجه المؤمنين ببشراه بشرى وملاً صدور الموحدين منا وقلوب الملحدین ذعرا » .

« واختير لتبليغ هذه البشارة العظمى على سبيل السرعة والاستعجال الى مقامكم العالي المفضال الأميرى الكبيرى الأوحدى الأمجدى الأخص المقربى المؤتمنى خير الدين حضر رزقت سلامته وحملناه من السلام ما هو ألطف من الفمام والله تعالى يديم من عاداته أجملها ونعمة أجزلها ومنحة أكملها ما بث الليل رجاء ونشر الصبح سناء وحسبنا الله ونعم الوكيل (١) » .

(١) أحمد بن طولون : مفاكهة ، ج ٢ ، ص ٤٨ — ٥٧ .

مرسوم السلطان سليم الأول العثماني بفتح الشام ومصر

أوائل محرم ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م

« قدوة الأمراء الكرام ، وعمدة الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام ، كافل مدينة الشام دام عزه ، وأقضى قضية المسلمين ، أولى ولاية الموحدين ، معدن الفضل واليقين ، حجة الحق على الخلق أجمعين ، مولانا قاضي القضية بالشام المحروس ، أبدت فضائله مرسومنا هذا ، يوضح لعلمها الكريم ، أننا توكلنا على الله سبحانه ، وتوسلنا بسيد الكائنات ، محمد صلى الله عليه وسلم » .

وتوجهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات وقسينا الصائبات ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا ، مع هداية الله تعالى ، من الشام مع السعد والظفر أي جهة مصر فوجدنا طومان باي ، الذي تولى سلطنة مصر وأقام جان بردي الغزالي كافلا للشام ، وجهزه غزة وصحبته فرقة من العساكر المصرية .

« وكان قد تقدمنا قدوة الوزراء العظام ، وعمدة الكبراء الفخام ، الغازي في سبيل الله ، المجاهد لوجه الله الوزير الأعظم سنان باشا ، أي جهة غزة ، فوق بهم والتحم بينه وبينهم القتال العظيم ، فبعون الله تعالى وسعادتنا الشريفة ، حصل له النصر والظفر ، وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، ومن سلم من سيفه فر منهزما صحبه الغزالي المذكور الى مدينة مصر » .

« ثم أن ركابنا الشريف جد في السير ، في السعد والاقبال ، بعساكرنا وجنودنا ، واجتمع بنا سنان باشا المشار اليه وصرنا نرحل من مرحلة الى مرحلة مثل السهام » .

« فلما وصل اليهم خبر توجه ركابنا الشريف على هذه الوجهة ، أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأرواحهم فجمعوا عساكرهم السييفية ، والجلبان ، وممالك الأمراء ، والعربان ، نحو الثلاثين ألفا » .

« وجمعوا ما في القلعة المصرية ، وبيوت الأمراء وثمر اسكندرية ، وسائر البلاد والقلاع ، من المكاحل ، والكفيات ، والسيفيات والبندقيات ، واللبوس ، والسلاح » .
« وحفروا خندقا في الريدانية ، من بحر النيل الى الجبل وجمعوا أخشابا جعلوها

تسائر على الخندق ، وأحضروا رمباة من الفرنج وغيرهم ، وسائر آلات الحرب وهيئوها
للقائنا .

« فوصل ركابنا الشريف ، بعساكرنا المنصورة ، الى الريمانية في يوم الخميس
التاسع والعشرين من ذى الحجة الحرام سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وقت الغداة ،
فوجدناهم قد لبسوا السلاح ، وتكملوا العدد ، وتقلدوا بالعدد ، وهم غارقون في الدروع
والزرد ، وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة التي هي بأعداد الرمال ، وأمثال الجبال ،
ولها قلوب الأسنود وشخوص الرجال » .

« فلما وقف الصفان ماج عسكرنا كموج بحر عمان ، فبقى يغلى ويضطرب ،
فرتبنا وزيرنا الأعظم سنان باشا في ميمنة العسكر ودستورنا المكرم ومشيرنا المقخم نمر
ومزبر الهيجاء وزيرنا يونس باشا في الميسرة » .

« وأصطف الجيشان ، وزحف العسكر المصرى على سنان باشا في الميمنة ، ورموا
عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات ، وجاء أعداؤه للقتال ، فما روعه ذلك ،
ولا أزعجه ، بل جال فيهم وصال ، وقطع منهم الأوصال ، ورمى منهم الرؤوس عن
الجثث ، وغنى فيهم السيف ، الى أن خاضت خيولهم في البماء والقلى » .

« ثم ولوا منه منهزمين الى الميسرة ، فتلقاهم يونس باشا المشار اليه ، وجال فيهم
بطعن وضرب ، فأرادوا الفرار ، فناداهم لن ينفعكم الفرار ، ان فررتم من الموت أو القتل ،
فكم من فارس تجندل صريعا ، وكم من أمير أحضروه الينا أسيرا » .

« وأما غالب العسكر المخدول ، فداسهم عسكرنا تحت حوافر الخيول ، واستمر
النزب من أول النهار الى بين الصلاتين ، وصار حرب عظيم ، وجرح سنان باشا » .

« وآخر الأمر بارادة الله تعالى : الا ان حزب الله هم الغالبون ، وصارت عساكرنا
غالبة ومنصورة ، والعساكر المصرية مغلوبة مقهورة ، وقالوا : - أين المفر ؟ والذى سلم
من سيوفنا منهم رمى بنفسه عن فرسه فقبضوا عليه ، ومنهم من قطعوا رأسه وأحضروه
اليينا ، والماصورون منهم عملناهم اشارات لنبلنا وغذاء لسيوفنا ، وصارت أبدانهم
ورؤوسهم وخيولهم كيما » .

« وأقمنا بعد هذه المعركة في الريدانية أربعة أيام بالسعد والاقبال ثم انتقل ركابنا الشريف عن الريدانية الى جزيرة بولاق » .

« وكان قد فضل بقية سيوفنا من العساكر المصرية، فهربوا واجتمعوا هم والسلطان طومان باي ، وجمعوا العربان ، والتموا نحو العشرة آلاف ، ليلا من نهار الثلاثاء خامس شهر المحرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خفية ، ودخلوا البيوت الحصينة ، وحفروا حولها الخنادق ، وسترُوا التساتير ، واجتمعوا في الحارات وأظهروا الفساد ، وأبرزوا العناد ، فعلمت عساكرنا المنصورة بهم ، فربطوا الخيالة لهم الطرقات ، لئلا ينهزم منهم أحد ، وصاحت عليهم مماليكنا أليتكشارية والتفكجية ، وحملت عليهم حملة رجل واحد ، ودخلوا عليهم الى البيوت التي تحصنوا فيها ، ونقبوا عليهم البيوت يمينا وشمالا ، وطلعوا على أسطحة تلك البيوت التي تحصنوا فيها ، ورموا عليهم بالنساق والكفيات ، واستمر الحرب بين عساكرنا المنصورة وبينهم ثلاثة أيام » .

« وفي يوم الجمعة ركب مقامنا الشريف ، وأشتد الحرب ، وصار مثل يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ومثل يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه فخر بنا ما عملوه من التساتير والخنادق ، فالتجئوا الى بعض البيوت الحصينة ، فحرقنا عليهم تلك البيوت التي التجئوا اليها وبقوا في العذاب الأليم ، وأرادوا الهروب فما لقوا لهم طريقا الا بحر النيل ، فأرموا أنفسهم فيه وغرقوا كيوم فرعون » .

« وفي هذه الثلاثة أيام يستمر القتال من الصبح الى العشاء ، وبعون الله تعالى قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضم اليهم من العربان ، وجعلنا دماءهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم وبركهم ويرقهم ثم صارت أبدانهم للهدام » .

« وأما طومان باي سلطانهم ، فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة ، وأطاعتنا بعون الله تعالى جميع العربان والمشايخ والأكابر بمصر بأعمالها ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، والمسؤول من الله سبحانه أن يكون عدونا دائما مقهورا ، وعسكرنا منصورا ، والداعي بدوام دولتنا مسرورا ، الى يوم النشور ، آمين يا معين » .

« وبعد هذه الفتوحات العظمى ، أردنا أن نعلم جميع رعاينا، سكان ممالكنا الشريفة
بذلك ليأخذوا حظوظهم من هذه البشري ، ويبتهلوا الى الله تعالى بالأدعية الصالحة بدوام
دولتنا الشريفة ، ويدقوا البشائر ويعلنوا التهاني ، ويرموا بالبارود في القلعة المنصورة ،
ويعلموا بذلك أطراف البلاد ومقدميها ليكونوا مسرورين بهذه البشري وكتب في أوائل
المحرم ، بمنزلة جزيرة بولاق » .

★ ★ ★

معاهدة أرضروم المؤرخة ٣١ مارس - آيار سنة ١٨٤٧

المادة ١ - تتنازل الدولتان الاسلاميتان عن كل ما للواحدة على الأخرى من ادعاءات مالية في الوقت الحاضر على شرط أنه ليس في هذا الترتيب ما له مساس بالأحكام الموضوعية لتسوية الادعاءات التي تبحث فيها المادة الرابعة .

المادة ٢ - تتعهد الحكومة الايرانية بأن تترك للحكومة العثمانية جميع الأراضي المنخفضة - أي الأراضي الكائنة في القسم الغربي من منطقة زهاب - وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقي - أي جميع الأراضي الجبلية - من المنطقة المذكورة بما في ذلك وادي كرند .

وتتنازل الحكومة الايرانية عن كل ما لها من ادعاءات في مدينة السليمانية ومنطقتها وتتعهد تعهدا رسميا بأن لا تتدخل في سيادة الحكومة العثمانية على تلك المنطقة أو تتجاوز عليها .

وتعترف الحكومة العثمانية بصورة رسمية بسيادة الحكومة الايرانية التامة على مدينة الحمرة ومينائها وجزيرة خضر والمرسى والأراضي الواقعة على الضفة الشرقية - أي الضفة اليسرى - من شط العرب التي تحت تصرف عشائر معترف بانها تابعة لايران . وفضلا عن ذلك فللمراكب الايرانية حق الملاحة في شط العرب بملء الحرية وذلك من محل مصب شط العرب في البحر الى نقطة اتصال حدود الفريقين .

المادة ٣ - لما كان الفريقان المتعاقدان قد تنازلا بهذه المعاهدة عن ادعاءاتهما الأخرى المختصة بالأراضي فانهما يتعهدان بأن يعينا حالا قوميشرين ومهندسين بمنزلة ممثلين عنهما من أجل تقرير الحدود بين الدولتين بصورة تنطبق على احكام المادة المتقدمة .

المادة ٤ - يوافق الفريقان على أن يعينا في الحال قوميشرين من الجانبين للحكم في كل قضية سببت ضررا لأحد الفريقين وتسويتها تسوية عادلة من القضايا التي وقعت منذ قبول الاقتراحات الودية التي وضعتها وقدمتها الدولتان الكبيرتان الوسيطتان في شهر جمادى الأول سنة ١٢٦١ وكذلك للحكم في جميع المسائل المتعلقة برسوم الرعى منذ السنة التي وقعت فيها بقايا في تلك الرسوم وتسويتها تسوية عادلة .

المادة ٥ — تتعهد الحكومة العثمانية بأن يقيم الامراء الايرانيون الفارون في بروسه وبان لا تسمح لهم بمغادرة ذلك المحل ولا بأن تكون لهم علاقات سرية بايران . وكذلك تتعهد الدولتان الساميتان بتسليم جميع المهاجرين الأخر عملا بأحكام معاهدة أرضروم الأولى .

المادة ٦ — على التجار الايرانيين أن يدفعوا الرسوم الجمركية على بضائعهم — عينا أو نقدا — حسب قيمة تلك البضائع التجارية الحالية وعلى المنوال المشروح في المادة المتعلقة بالمتاجرة في معاهدة أرضروم المنعقدة في السنة ١٢٣٨ (١٨٢٣ ميلادية) . ولا يستوفى شىء اضافى ما علاوة على المقادير المعينة فى تلك المعاهدة .

المادة ٧ — تتعهد الحكومة العثمانية بمنح الامتيازات المقتضية لتمكين الزوار الايرانيين وفق المعاهدات السابقة من زيارة الأماكن المقدسة فى الأراضى العثمانية بسلامة تامة ومن غير التعرض لمعاملات مزعجة مهما كانت . وكذلك لما كانت الحكومة العثمانية راغبة فى تقوية وتوثيق عرى الصداقة والتفاهم الواجب بقاؤها بين الدولتين الاسلاميتين وبين رعاياهما فانها تتعهد باتخاذ أنسب الوسائل التى من شأنها أن تؤمن أمر التمتع بالامتيازات المذكورة فى الأراضى العثمانية ليس للزوار فحسب بل لجميع الرعايا الايرانيين وذلك بصورة تحميهم من كل ظلم أو تعرض أو خشونة سواء أكان ذلك فيما يتعلق بأعمالهم التجارية أم بأى أمر آخر .

وفضلا عن ذلك تتعهد الحكومة العثمانية بالاعتراف بالقناصل الذين قد تعينهم الحكومة الايرانية فى أماكن واقعة فى اراضى عثمانية تتطلب وجودهم بداعى المصالح التجارية أو لحماية التجار وسائر الرعايا الايرانيين انما تستثنى من ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة . وتتعهد فيما يخص القناصل الموما اليهم بأن تحترم جميع الامتيازات التى لهم حق التمتع بها بناء على صفتهم الرسمية والممنوحة لقناصل الدول المتحابة الأخرى .

وتتعهد الحكومة الايرانية فيما يخصها بتطبيق اصول المعاملة المتبادلة من جميع الوجوه بحق القناصل الذين تعينهم الحكومة العثمانية فى أماكن واقعة فى ايران ترى تلك الحكومة لزوما لتعيين قناصل فيها . وكذلك تتعهد بتطبيق اصول المعاملة المذكورة على التجار العثمانيين وعلى سائر الرعايا العثمانيين الذين يزورون ايران .

المادة ٨ — تتعهد الدولتان الإسلاميتان المتعاقدتان الساميتان باتخاذ وتنفيذ الوسائل اللازمة لمنع ومعاقبة السرقات واليولب من جانب العشائر والأقوام المستقرة على الحدود وتقومان لذلك الغرض بوضع الجنود فى مراكز ملائمة • وتتعهدان فضلا عن ذلك بالقيام بالواجب المفروض عليهما ازاء مختلف أعمال التعدى كلها كالنهب واللصوصية والقتل مما قد يقع فى أراضيها •

على الدولتين المتعاقدين الساميتين فيما يخص العشائر المتنازع فيها والتي لا تعرف لمن السيطرة عليها أن تتركها حرة فى اختيار وتقرير الأماكن التي سيقطنونها دائما من الآن فصاعدا • أما العشائر التي تعرف لمن السيطرة عليها فترغم على المجيء الى داخل اراضي الدولة التابعة لها •

المادة ٩ — تؤيد بهذا من جديد جميع النقاط والمواد المدرجة فى معاهدات سابقة — ولا سيما المعاهدة المنعقدة فى أرضروم فى السنة ١٢٣٨ (١٨٢٣ ميلادية) والتي لا تعديلها أو تلغيها هذه المعاهدة بصورة خاصة • ويسرى هذا التأييد الى نصوصها كلها كما لو كانت قد نشرت بحذافيرها فى هذه المعاهدة •

وتوافق الدولتان المتعاقدتان الساميتان على أن تقبلا وتمضيا هذه المعاهدة عند تبادل نسخها وعلى أن يتم تبادل وثائق ابرامها فى ظرف مدة شهرين أو قبل ذلك •

★ ★ ★

**مذكرة ايضاحية حول بعض الشروط الواردة في معاهدة أرضروم المقترحة
قدمها السفيران البريطاني والروسي في الاستتابة الى الحكومة العثمانية
في السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٤٧**

تشرف الموقعان في ادناه ممثلا بلاطى بريطانيا العظمى وروسيا الوسيطين بتسلم
المذكرة المطابقة — مع الملحق — المتعلقة بالمفاوضات التركية الايرانية والتي تفضل معالى
على أفندى وزير الخارجية بارسالها اليهما في الحادى عشر في الشهر العالى .

لقد ارتاح الموقعان أشد الارتياح من تصريح معاليه في المذكرة المذكورة بالنيابة عن
الباب العالى بانه قد قر القرار على اصدار التعليمات على الفور الى المندوب العثمانى
المفوض فى أرضروم للتوقيع على مواد المعاهدة المنعقدة مع بلاط ايران غير المعدلة أى وفق
النص الذى وضعه مندوبا البلاطين الوسيطين وكما قمت لموافقة الحكومات المختصة من
قبل وزرائها المفوضين فى أرضروم على شرط أن يقدم ممثلا البلاطين المذكورين الى الباب
العالى الايضاحات عن بعض النقاط التى ترى الحكومة العثمانية انها غير واضحة كل
الوضوح .

أما النقاط التى يريد الباب العالى تقديم ايضاحات عنها فهى كالاتى : —

١ — يظن الباب العالى بان الفقرة الواردة فى المادة الثانية من مسودة المعاهدة والتي
تنص على ترك مدينة المحمرة ومينائها ومرسأها وجزيرة خضر لايران لا يمكن أن
تشمل اراضى الباب العالى المتضمنة (١) خارج المدينة ولا موانيه الأخرى الواقعة
فى هذه الاقاليم .

ويهم الباب العالى كذلك فيما يتعلق بالنص الوارد فى فقرة أخرى من هذه المادة
حول امكان تقسيم العشائر التابعة فعلا لايران أى اسكان نصفها الواحد فى اراضى

(١) قد استعملت كلمة (الواقعة) بدلا من كلمة (المتضمنة) فى النبذة المرسلة الى
المندوب الايرانى فى شهر كانون الثانى من سنة ١٨٤٨ .

عثمانية ونصفها الآخر في اراضي ايرانية أن يعلم هل أن ذلك معناه أن تصبح أيضا أقسام العشائر الموجودة في تركيا خاضعة لايران وبالتالي أن تترك كذلك لايران الأراضي التي تحت تصرف تلك الأقسام وهل سيكون لايران الحق يوما من الأيام في المستقبل في أن تنازع الباب العالي حق التصرف في الأراضي المذكورة .

٢ — يهم الباب العالي فيما يخص في احكام المادتين الأولى والرابعة الحالية أن يعلم هل ان للحكومة الايرانية الحق في أن تدخل التعويضات المالية فيما بين الحكومتين التي تنازلت عنها برمتها ضمن الادعاءات الشخصية . والمفهوم لدى الباب العالي أن هنم الادعاءات لا تسرى الا الى بعض رسوم الرعى والخسائر التي تكبدها رعايا الحكومتين من جراء الأعمال التي ارتكبتها قطاع الطرق وما شاكل ذلك .

ثم ان الباب العالي يستفهم ما اذا كان سيتم الحصول على موافقة الحكومة الايرانية على مسألة الاستحكامات والحصون المضافة الى المادة الثانية وكذلك على الفقرات المختصة بالمعاملة المتبادلة التي سهى عن درجها في المادة السابعة من مسودة المندوبين .

ولما كان المثلان أدناه راغبين وملزمين في ازالة الغموض العالق بذهن الباب العالي حول جميع المسائل المذكورة في أعلاه فانهما يصرحان بهذا كالاتى : —

بخصوص ١ — أن مرسى المحمرة هو القسم الواقع مقابل مدينة المحمرة في قناة الحفار . وهذا التعريف لا يحتمل أن يؤثر أى تفسير آخر في معناه .

وفضلا عن ذلك فان المثلان الموقعان في أدناه يشاطرا الحكومة العثمانية الراى القائل بأن قيام الحكومة العثمانية بتركها لايران مدينة المحمرة ومينائها ومرساها وجزيرة خضر في المنطقة المذكورة لا يعنى تركها أية أراض أو موان أخرى موجودة في تلك المنطقة .

ويصرح كذلك المثلان الموقعان في أدناه بأنه سوف لا يكون لايران الحق بأية حجة كانت في أن تقدم ادعاءات حول المناطق الكائنة على الضفة اليمنى من شط العرب ولا حول الأراضي العائدة لتركيا على الضفة اليسرى حيث تقطن من تلك الضفة أو من تلك الأراضي عشائر ايرانية أو أقسام منها .

بخصوص ٢ — اما بشأن تخوف الباب العالي من احتمال تفسير المادتين الأولى

والرابعة من مسودة المعاهدة تفسيراً غير قانوني بحيث يؤدي بالحكومة الايرانية الى اثاره
مسألة الادعاءات المالية التي بين الحكومتين من جديد فان الممثلين الموقعين في أدناه
يصرحان بهذا بانه كما أن المادتين المذكورتين من مسودة المعاهدة قد صرحتا بالتنازل
الآن وفيما بعد عن جميع الادعاءات التي من هذا القبيل مهما كان منشأها فانه ليس في
الاستطاعة استئناف البحث في هذه المسألة بشأن أية قضية كانت وبانه على الفريقين
ترضية أصحاب الادعاءات الشخصية فقط دون غيرها . وفضلا عن ذلك فان تدقيق تلك
الادعاءات الشخصية والبت في مشروعيتها سيناط بلجنة خاصة تؤلف لهذا الغرض . كما
أن البت في أى هي الادعاءات التي ستعتبر بمنزلة ادعاءات شخصية سيحال كذلك الى
هذه اللجنة .

وللجواب على السؤالين الفرعيين اللذين وردا في ختام مذكرة معالى على أفندي فان
الموقعين في أدناه يعتقدان بأن هنالك ما يسوغ لهما القول بأن الحكومة الايرانية ستوافق
بلا تردد على أن تدرج في المادة السابعة الفقرات المتعلقة بأصول المعاملة المتبادلة التي على
كل من الحكومتين مراعاتها حبا بصالح رعاياها وزوارها وموظفيها القنصليين . أما بشأن
مسألة الاستحكامات والحصون فلا يستطيعا سوى بيان رأيهما الشخصي وهو أن تعهد
الدولتين الاسلاميتين تعهدا متبادلا بعدم تحصين ضفتي شط العرب معناه ضمان آخر
لدوام العلاقات السلمية بين المملكتين كما أنه من شأنه توثيق عرى الاخلاص وحسن
النية وهذا ما ترمى اليه المعاهدة المذكورة .

بناء على ما تقدم فانه في وسع الممثلين الموقعين في أدناه أن يعضدا تلبية رغبات
الباب العالي حول هذه النقطة بواسطة توسط زملائهم في طهران ولهما وطيد الأمل بأن
عملهما هذا سيسفر عن نتيجة مرضية .

وفي عين الوقت يعتقد الممثلان الموقعان في أدناه بانه في الامكان امضاء المعاهدة قبل
ظهور نتيجة المفاوضات حول النقطة الخاصة الآنف الذكر لأنه في الاستطاعة فيما بعد
اضافة مادة جديدة الى المعاهدة .

بيرة في ١٤ (٢٦) نيسان ١٨٤٧

الموقعان
أوسستينوف
أ ج . وليسلى

بروتوكول طهران المؤرخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩١١

لما كانت الحكومتان الإيرانية والعثمانية راغبتين في أن تجتنباً من الآن فصاعداً كل موضوع يفضى بهما إلى الجدل حول حدودهما المشتركة ولما كانتا قد أصدرتا الأوامر الأولى لوزير خارجية إيران والثانية للسفير التركي في طهران لكي يضعاً أسس المفاوضات والأصول التي ستتبع لأجل تحديد الحدود المذكورة فقد وافق الموقعان في أدناه بعهد المداولة على النقاط التالية :-

أولاً - يجتمع قومسيون مؤلف من عدد متساو من مندوبى الفريقين في الاستانة بأسرع ما يمكن .

ثانياً - تصدر التعليمات لمندوبى الحكومتين بعد تزويدهم بكافة الوثائق والأدلة المؤيدة لادعاءاتهما ليقرروا باخلاص وعدم محاباة خط الحدود الذى يفصل بين البلدين . وبعد ذلك يقوم قومسيون فنى بمجرد تثبيت التحديد القطعى على الأرض وفاقاً للأسس التى وضعها القومسيون السابق .

ثالثاً - تكون أعمال القومسيون المشترك الذى سيجتمع في الاستانة على مواد المعاهدة المعروفة بمعاهدة أرضروم المنعقدة في ١٢٦٣ .

رابعاً - اذا لم يتفق مندوبو الفريقين على تفسير وتطبيق بعض مواد المعاهدة فمن المتفق عليه انه عند ختام مدة ستة أشهر المفاوضات المعينة احسم مسألة تحديد الحدود حسماً كاملاً تحال جميع النقاط المختلف فيها معاً الى محكمة التحكيم في لاهى وذلك بغية احسم المسألة برمتها بصورة نهائية .

خامساً - من المفهوم انه لا يجوز لأى من الفريقين أن يتخذ احتلال الأراضى المتنازع فيها احتلالاً عسكرياً كحجة قانونية يدلى بها .

كتب عن نسختين وتم تبادل الأصل بين الموقعين في أدناه بالنيابة عن حكومتيهما .
السفارة العثمانية الامبراطورية في طهران في الحادى والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩١١ .

(الامضاء) ه . حسيب

(الامضاء) وثوق الدولة

**البروتوكول الموقع عليه في الاستانة في الرابع (السابع عشر)
من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٣**

ان الموقعين في أدناه :

صاحب الفخامة السير لويس مالت السفير المفوض والمندوب فوق العادة لصاحب
الجلالة البريطانية لدى جلالة السلطان وصاحب الفخامة مرزا محمود خان قاجار
احتشام السلطنة السفير المفوض والمندوب فوق العادة لصاحب الجلالة شاه ايران
لدى جلالة السلطان وصاحب المعالي المسيو ميشيل ده جيير السفير المفوض
والمندوب فوق العادة لصاحب الجلالة امبراطورية روسيا لدى جلالة السلطان
وصاحب السمو الأمير سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ووزير الخارجية في
الامبراطورية العثمانية .

قد اجتمعوا ليدونوا في هذا البروتوكول الاتفاق الذي تم بين حكوماتهم بشأن
الحدود التركية الايرانية .

بدأ المجتمعون بتلخيص المفاوضات التي جرت لحد تاريخه والتي كانوا قد باشروا
بها في الآونة الأخيرة .

لوحظ أن القومسيون المشترك المنصوص على تأليفه في المادة الأولى من البروتوكول
الممضى في طهران والمنعقد بين سفارة الامبراطورية العثمانية وبين وزير خارجية ايران
للبت في اسس المفاوضات المتعلقة بتحديد الحدود التركية الايرانية قد عقد ثمانية عشر
اجتماعا الأول في ١٢ (٢٥) آذار والأخير في ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ .

وفي ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ ارسلت السفارة الروسية الامبراطورية في الاستانة
الى الباب العالي مذكرة برقم ٢٦٤ تقول فيها « وتعتقد الحكومة الامبراطورية بأنه ليس
في الاستطاعة القول بضرورة وضع الشروط الصريحة الواردة في معاهدة أرضروم موضع
التنفيذ بلا تأخير لأن تلك الشروط تعتبر بمنزلة الرجوع الى الوضع الذي كان سائدا في
السنة ١٨٤٨ » . وفي عين الوقت ارسلت السفارة المذكورة الى الحكومة العثمانية مذكرة

تبين خط الحدود بوجه التفصيل وبصورة تنطبق على الشروط الموضوعة في المعاهدات النافذة العمل . فاجابت الحكومة العثمانية على تلك المذكرة بمذكرة رقمها ٤٦٩/٣٠٤٧ وتاريخها ١٨ (٣١) آذار سنة ١٩١٣ جاء فيها انه « لما كان الباب العالى تواقا للعمل حسب الرغبة التى اعربت عنها الحكومة الروسية وذلك بازالة أسباب الخلاف فى علاقاتها الحبية معها ولما كان كذلك راغبا فى أن تبرهن للحكومة الايرانية على حسن نواياه فيما يخص النزاع القائم حول هذا الموضوع بين المملكتين فقد قرر أن يقبل الخط الوارد ذكره فى مذكرتى السفير الروسى الآنفى الذكر لاجل تحديد القسم الشمالى من الحدود التركية الايرانية من سردار بولاى الى بانه اى الى خط العرض درجة ٣٦ » .

ومع ذلك فان الحكومة العثمانية اقترحت ادخال بضعة تعديلات على الخط المقترح فى المذكرة الملحقة بمذكرة السفارة الروسية المرقمة ٢٦٤ والمؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ . ثم أن الحكومة المذكورة ذيلت مذكرتها « بمذكرة ايضاحية حول مسألة حدود زهاب والتدابير التى تستطيع قبولها بغية التوصل الى تفاهم نهائى عادل مع الحكومة الايرانية حول ذلك القسم من الحدود » .

فاجابت السفارة الروسية على ذلك بمذكرة رقمها ٧٨ وتاريخها ٢٨ آذار (١٠ نيسان) سنة ١٩١٣ قالت فيها انها احاطت علما بالبيان « الذى تعترف فيه الحكومة العثمانية بفحوى المادة الثالثة بالضبط من معاهدة السنة ١٨٤٨ المعروفة كمعاهدة ارضروم كمبدأ لتحديد منطقة اراياط بانه وذلك كما ورد فى المذكرة المرقمة ٢٦٤ والمؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ » . ما بشأن التعديلات التى اقترحها الباب العالى فقد قالت السفارة الروسية (ويتحفظ حول مسألة اكرى جاى) بانه من الضرورة القصوى الا يجرى تغيير ما فى الخط المقرر فى مذكرتها المؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ . وأما فيما يتعلق بقضية زهاب فان السفارة الروسية مع كونها احتفظت بحق تقديم ملحوظات مفصلة عن تلك لحدود لكنها اعربت « عن رأيها حول المسودة العثمانية برمتها وهى على ما يلوح لها لا تضمن حفظ النظام والسلم على لحدود فى المستقبل ضمانة كافية » . وفى اليوم العشرين من نيسان (٣ آيار) سنة ١٩١٣ بعثت السفارة الروسية الى صاحب السمو الامير سعيد حليم باشا بمذكرة مطابقة مشفوعة بمذكرة أخرى تلخص نقطة نظرها بشأن تحديد منطقة زهاب والاقاليم الواقعة الى الجنوب منها .

تم اعقبت هذه المذكرات محادثات بين الميسو ميشيل ده جيير والسير جيرارد لوثر من جهة وصاحب السمو المرحوم محمود شوكت باشا من الجهة الأخرى . ودونت نتائج هذه المحادثات في مذكرة اضافية رفعها السفير الروسى الى الصدر الأعظم في السادس من شهر حزيران سنة ١٩١٣ وكذلك في مذكرة عدد ٣٤٥٥٣ بعث بها الباب العالى الى السفارة الروسية في السادس والعشرين من شهر حزيران (٩ تموز) سنة ١٩١٣ والى السفارة البريطانية في الثانى عشر من شهر تموز من السنة المذكورة .

وفي التاسع والعشرين من شهر تموز سنة ١٩١٣ امضى « تصريح » في مدينة لندن من قبل السير ادوارد غراى و ابراهيم حقى باشا حول تحديد الحدود الجنوبية بين ايران وتركيا . وبعد ذلك شرعت السفارة الروسية في تلخيص أسس ومبادئ التحديد المقرر في المراسلات المتعلقة بالحدود التركية الايرانية وقدمت الى الباب العالى مذكرة عددها ١٦٦ وتاريخها ٥ (١٨) آب سنة ١٩١٣ كما أن السفارة البريطانية قدمت اليه مذكرة مطابقة في عين التاريخ . فأجاب عليهما الباب العالى بمذكرة مطابقة مرقمة ٣٧٠٦٣ / ١١٣ ومؤرخة في ٢٣ أيلول سنة ١٩١٣ .

وقد أسفرت المفاوضات التى دارت فيما بعد عن موافقة مندوبى بريطانيا العظمى وايران وروسيا وتركيا الأربعة المفوضين على الأحكام التالية : —

أولا

لقد تم الاتفاق على تعريف الحدود بين ايران وتركيا على الوجه التالى : —

تبدأ الحدود في الشمال من علامة الحدود رقم ٣٧ على الحدود التركية الروسية الكائنة بالقرب من سردار بولاق على الذروة الواقعة بين اراراط الكبير . ثم تنزل نحو الجنوب عن طريق الاكام تاركة على الجانب الايرانى وادى دربند وسارنوش ومياه يارم قيا التى ترتفع الى جنوب جبل أيوب بك . وتترك الحدود بعد ذلك بولاق باشى في ايران وتستمر متبعة أعلى أكمة كائن طرفها الجنوبى في الدرجة ٤٤ والدقيقة ٢٢ من الطول الغربى والدرجة ٣٩ والدقيقة ٢٨ من العرض الشمالى بوجه التقريب . ثم تسير متاخمة للجانب الغربى من الهور الممتد الى الغرب من يارم قيا وتقطع جدول صارى صومارة بين اقريتى كرده باران (التركية) وبازركان (الايرانية) وبعد صعودها الى الاكمة الكائنة

إلى جنوب بازرگان تتبع الأسباب المسماة صارانلى وزندهولى وكركلمة وقانلى بابا
وجدوكة خاسينا ودوه جى .

وبعد دوه جى يقطع الخط وادى اكرى جاى فى مكان يعينه قومسيون التحديد
وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا تاركا قرىتى نادو ونفطو فى ايران .

وتقرر ملكية قرية قزىل قيا (بلاسور) بعد تدقيق وضعها الجغرافى على أن تعطى
تركيا الجانب الغربى من الصب الموجود فى تلك المنطقة وتعطى ايران الجانب
الشرقى منه .

واذا ترك خط الحدود النهائى قسما من الطريق الذى يمر بالقرب من قزىل قيا
ويوصل منطقة بيازيد بمنطقة وان خارج الاراضى العثمانية فمن المفهوم بان الحكومة
الايرانية ستجعل المروء فى القسم المذكور من الطريق حرا للبرد العثمانية وللمسافرين
والبضائع انما تستثنى من ذلك الجنود والقوافل العسكرية .

وبعد ذلك يصعد خط الحدود الى الاكام التى تتكون منها الأسباب الآتية : قزىل
زيارت وصارى جمنة ودومانلو وقره بورغا والتل الكائن بين حوضى ايرى جاى
(الايرانى) ويللى كول (التركى) واودال داشى ورشكان والتل الكائن بين اخورك
وتافرا وبواره بك زادان وجورى ماهينة وخضر بابا وآورستان .

اما بشأن منطقة كوتور فيطبق البروتوكول المؤرخ فى ١٥ (٢٨) تموز سنة ١٨٨٠
المعروف باسم بروتوكول صارى قامشى بحيث تبقى قرية كه ولك فى تركيا وقرى بيله
جك ورازى وغراتيل (هراتيل) ويلليك (الاثنتين) وبانا مريك فى ايران .

وتتسلق الحدود وهى متبعة اكمة مير عبر جبل سوراوا وبعد أن تترك خانياكا على
الجانب التركى تمر عن طريق الصبب المكون من مضيق بورش خوران وجبال هارافيل
وبله كو وشين تال وسار دول وكلامبى وكوبة وبركة بند وبرى خان واسكندر وآفينة
وكوتول . ويبقى وادى بجركا فى تركيا وقرىتا سارتك وسرو فى ايران وتمر الحدود من
طرف كوتور الجنوبى على الاكمة التى ترتفع الى غربى قرية بهك الايرانية ثم تتصل
وهى متبعة قمم جبل سربايدوست بذروة جبل زونت .

ومن جبل زونت تتبع الحدود بصورة متواصلة الصبيب الكائن بين المناطق الايرانية المسماة تركه ور ودشت ومركة ور وسنچق جيكاى التركى اى ذرى جبال شيفه شيشالى وجبل جوفرى وجبل برديز وكوتاكوتر وكازى بك وايوح وماى حلانة والجبال الواقعة الى غربى دينار ودلامبر . وبعد ذلك تصل الى مضيق كله شين بعد ان تترك الجانب الايرانى الحوض الذى يصب - بطريق اوشنو - فى بحيرة اورميه بما فى ذلك ينابيع نهر كادر (قادر) المعروف باسم آب سر كادر . (الواقع واديه الى الغرب من جبل دلامبر والى الشرق من جبل كرده) .

والى الجنوب من مضيق كله شين تترك الحدود حوض لاونيه بما فى ذلك وادى جومنى كللى (الواقع الى شرق زردة كل والى الجنوب الغربى من سبى رز) على الجانب الايرانى ومياه رواندوز على الجانب التركى . ثم تسير مارة بالقمم والمضايق التالية : سياه كوه وزرده كل وبوز وبارزين وسرشيويه وكوى خوجه ابراهيم . وبعد ذلك تواصل سيرها نحو الجنوب متبعة سلسلة جبال قنديل الرئيسية وتاركة على الجانب الايرانى أحواض سواعد نهر كيالو من الجانب الايمن : وهى جداول بردانان وخضر آفا وتلى خاتان .

ومن المفهوم بأن العشائر التركية التى من عاداتها قضاء فصل الصيف فى الوديان المذكورة عند ينابيع كادر ولاوينه ستستمر على التمتع بمراعيها وفق عين لشروط المعمول بها فى الماضى .

وبعد أن يصل خط الحدود قمة سرقله (قلعة) كلين يمر من فوق زنوى جاسوسان ومضيق بامين ويقطع نهر وزنه بالقرب من جسر برده بردان . وهناك على قومسيون التحديد أن يبيت فى مصير قرية شينيه وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا .

ثم بعد برده يصعد خط الحدود الى سلسلة جبال فوكابا باكير وبرده سبيان وبرده عبد الفتاح ومضيق كانى رش . وبعد ذلك يتبع الصبيب المكون من لاكاف كرد ودونلرى ومضيق خان أحمد وطرف تبة سالوس الجنوبى . وهكذا تمر الحدود ما بين قرية قاندول (التركية) وقرى كيش كيشيوا ومازنى اوه (الايرانيتين) وتصل الى مجرى نهر كيالو (الزاب الصغير) .

وبعد اتصال خط الحدود بمجرى نهر كيالو يسير متبعا اياه مع المجرى وتاركا الضفة اليمنى منه (آلان عجم) على الجانب الايرانى والضفة اليسرى على الجانب التركى . وعند وصول الحدود الى مصب نهر خيله رشى (احد سواعد نهر كيالو فى الجانب الايسر) تسير مع مجرى النهر المذكور تاركة قريتى آلوت وكويرو الخ . . على الجانب الايرانى ومنطقة آن مايونت على الجانب التركى . وتترك مجرى النهر المذكور عند طرف جبل بالو الجنوب الغربى صاعدة الى الطرف الشمال الغربى من سلسلة جبال سور كوف الممتدة لى الجنوب من ذلك النهر وتمر على اكمة سور كوف تاركة منطقتى سويل وشبوه كل على الجانب التركى .

وعند وصول الحدود الى النقطة الفلكية من جبال سور كوف الواقعة تقريبا فى الدرجة ٣٥ والدقيقة ٤٩ من العرض الشمالى تمر فى اتجاه قرية جامبارو التى سيقدر مصيرها من قبل قومسيون التحديد وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا . ثم يصعد الخط الى سلسلة الجبال التى تؤلف الحدود بين منطقة بانه الايرانية ومناطق قزلجة وكالاش وبردكجل وبشت هالكاجال ودوبرا وباراجال وسبى كانا التركية . وبعد ذلك يصل الى مضيق نوخويان . ومن ثم تنشئ الحدود — وهى متبعة الصبيب — تارة نحو الجنوب وطورا نحو الغرب مارة بطريق قمم فول كوزا وبشت شهيدان وهزار وبالى كدر وقلة ملائك وكوه كوسه رشه وفاصلة منطقة تره تل التركية من منطقة مريوان الايرانية .

ومن هناك تتبع الحدود جدول خليل آباد سائرة عكس المجرى الى حد ملتقاه بنهر جام قزلجة وبعد ذلك تتبع نهر جّام قزلجة مع المجرى لحد مصب ساعده الايسر الذى يصب من قرية بناوه سوته . ثم تتبع جدول بناوه سوته مع المجرى وتصل — بطريق مضيقى كله نافي صار وكله بيران — الى مضيق سورين المعروف على ما يظهر باسم جيكان (أو جاقان) .

ثم تصبح سلسلة جبال اورامان الرئيسية الممتدة الى الجهة الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية عبارة عن الحدود بين ايران وبين منطقة شهر زور العثمانية . وتستمر الحدود عند بلوغها قمة كيماجار (الى الجنوب الشرقى من قلة سلم والى الشمال الغربى من شهر اوراماه) فى اتباع الاكمة الرئيسية الى محل تفرعها على الجانب

المغربى وترتفع الى شمال وادى ديروولى تاركة قرىتنى هانه كرملة ونوسود على الجانب الايرانى . أما فيما يخص القسم الباقي من الحدود لحد نهر سيروان فعلى القومسيون ان يقوم بصورة استثنائية بتحديد الأرض آخذا بنظر الاعتبار - التغييرات التى طرات هناك ما بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٩٠٥ .

والى جنوب نهر سيروان تبدأ الحدود بالقرب من مصب نهر جام زمكان مارة بطريق جبل بيزل ومنه تنزل الى مجرى مياه جام رزشك . ثم بعد أن تتبع الصبب الواقع بين المجرى المذكور وبين النهر الذى يسمى (حسب الخريطة المطابقة) بشت غراو عند ارتفاعه الى جبل بنديمو تعود فتصعد الى قمة الجبل المذكور .

وبعد أن تسير الحدود متبعة اكمة بمو تعود فتتبع عند بلوغها سلسلة جبال دربند دهو (دربندهور) نهر زنجينه (عباسان) لحد أقرب نقطة من قمة شوالدير (نقطة فلكية) واقعة الى أسفل قرية ماميشان . وتصعد الحدود الى هذه القمة وبعد ذلك تمر بطريق ذرى التلال التى يتألف منها صبيب بين سهول تليكو وسرقله ومن ثم بطريق جبال خولى باغان وعلى بك وبندر كوك كرميك وسنكلر واسينكوران لحد النقطة الكائنة فى مضيق تنك حمام الواقع مقابل طرف جبال كراوين الشمالى .

ومن هناك تتبع الحدود مجرى نهر قوراطو لحد القرية المسماة بذلك الاسم . وعلى قومسيون التحديد أن يقرر مصير قرية قوراطو بالنظر الى قوميات سكانها . ومن ثم تمر الحدود بطريق الطريق الواقع بين قرىتنى قوراطو وكوشى كورك وبعد ذلك تسير على محاذاة ذرى جبالى كيشكه وآق داغ وبعد أن تترك قلة سبزي فى ايران تنشئ نحو الجنوب لحد مخفر كانى باز العثمانى . ومن هناك تتبع نهر الوند مع المجرى لحد النقطة الكائنة على بعد مسافة ربع ساعة نزولا من ملتقاه بجدول كيلان . ومن تلك النقطة تستمر فى سيرها لحد نقطة صو متاخمة آب بخشان (وفق الخط المتفق عليه مع محمود شوكت باشا والمبين بصورة تقريبية على الخريطة الملحقة بمذكرة السفارة الروسية المؤرخة فى ٥ (١٨) آب سنة ١٩١٣) تاركة نقط مقاطعى فى تركيا . وبعد أن يتبع خط الحدود جدول نبط دره سى ويبلغ نقطة تقاطع طريق قصر شيرين والجدول المذكور يعود فىواصل سيره على محاذاة جبال واربلند وكونزغ كيليشوفان وجبل غربى (تنمة جبل حمر يناجين) . وعلى قومسيون التحديد أن يضع اتفاقية خاصة لتوزيع مياه كنكير (سومر) ما بين الفرقاء ذوى الشأن .

وبما انه لم يتم البحث بالتفصيل في قسم الحدود الواقع بين منسدى والنقطة الشمالية للخط المبين في التصريح المنعقد في لندن بتاريخ ٢٩ تموز (شويب) بين حقى باشا والسير ادوارد غراى فان الموقعين في ادناه يتركون البت في ذلك القسم من الحدود لقومسيون التحديد .

وأما بشأن التحديد من منطقة حويزة لحد البحر فان خط الحدود يبدأ من المحل المسمى أم الشر حيث ينفصل خور الدول من خور العظيم . وتقع أم الشر الى شرق محل اتصال خور المحسين بخور العظيم على بعد تسعة أميال الى الشمال الغربى من بساتين الواقعة في الدرجة ٣١ والدقيقة ٤٣ والثانية ٢٩ من العرض الشمالى . ومن أم الشر ينثنى الخط نحو الجهة الجنوبية الغربية لحد الدرجة ٣٥ من الطول الغربى تقريبا في الطرف الجنوبى من بحيرة صغيرة تعرف باسم العظيم أيضا وواقعة في خور العظيم على بعد مسافة قصيرة الى الشمال الغربى من شويب . ومن هذه النقطة يواصل الخط سيره نحو الجنوب على محاذاة الهور لحد الدرجة ٣١ من العرض الشمالى ويتبعه سائرا نحو الشرق تماما لحد النقطة الكائنة الى الشمال الشرقى من - كشك بصره بحيث يترك هذا المحل في الأراضى العثمانية . ثم يسير الخط من هذه النقطة نحو الجنوب لحد قناة خيان الى نقطة كائنة بين نهري ديايى ونهر أبو العرابيد ويتبع منتصف مجرى قناة خيان لحد نقطة اتصال القناة المذكورة بشط العرب عند مصب نهر ناز الله . ومن هذه النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب لحد البحر تاركة النهر وجميع الجزر الموجودة فيه تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية : -

(أ) يعود ما يلى الى ايران : ١ - جزيرة محله والجزيرتين الواقعتين بين جزيرة محله والصفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الايرانى) ٢٠ - الجزر الأربع الواقعة بين شطيط وماوية والجزيرتين الكائنتين مقابل منكوحى والتابعتين لجزيرة عبادان ٣٠ - جميع الجزر الصغيرة الموجودة الآن أو التى قد تتكون فيما بعد مما يتصل عند هبوط الماء بجزيرة عبادان أو بالأراضى الايرانية الى أسفل نهر ناز الله .

(ب) يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديشين - الى فوق والى أسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب - تحت السلطة الايرانية عملا بما جاء في معاهدة أرضروم . بيد انه ليس لهذا الأمر مساس بحق تركيا في استعمال هذا القسم من النهر كما أن سلطة ايران سوف لا تتناول أقسام النهر الواقعة خارج المرسى .

(ج) لا يجرى تغيير ما فى الحقوق والتقاليد والعادات الحالية فى
الأسماك فى الضفة الايرانية من شط العرب . وتشمل كذلك كلمة (الضفة
تتصل بالساحل وقت هبوط الماء .

(د) لا تتناول السلطة العثمانية اقسام الساحل الايرانى
مؤقتا عند ارتفاعها أو من جراء عوامل عرضية أخرى . ولا تم
— على جانبها — على الأراضى التى قد تصبح مكشوفة بصورة
يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادى .

(هـ) يستمر شيخ المحمرة على التمتع وفق أحكام القوانين العثمانية بحصر
ملكيتها فى الأراضى العثمانية .

ان خط الحدود المقرر فى هذا التصريح مبين بالأحمر على الخارطة الملحقة بهذا
البروتوكول (١) .

أما اقسام الحدود التى لم تذكر بالتفصيل فى خط الحدود المذكور فى أعلاه فتقرر
على أساس مبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا وذلك عملا بمنطوق المادة الثالثة من
معاهدة أرضروم .

ثانيا

يتم تحديد خط الحدود على الأرض من قبل قومسيون تحديد مؤلف من قومسيرو
أربع حكومات يمثل كلا منها قومسير واحد ونائب قومسير. ويحل النائب محل القومسير
فى القومسيون اذا دعت الحاجة .

ثالثا

على قومسيون التحديد عند قيامه بالمهمة الملقاة عليه أن يمثل : —

١ — أحكام هذا البروتوكول .

٢ — النظام الداخلى للقومسيون المرفق بهذا (الذيل من هذا البروتوكول) .

رابعا

إذا تضاربت آراء القوميسرين بشأن خط الحدود فى أى قسم كان من الحدود فعلى
القوميسرين العثماني والايراني أن يقدموا فى ظرف ثمانى وأربعين ساعة بيانا خطيا كل
بنقطة نظره الى القوميسرين البريطانى والروسى وعلى هذين القوميسرين أن يعقدا

(١) لم ترفق هذه الخارطة بمذكرة الحكومة الايرانية — السكرتيرية .

اجتماعا خصوصيا ويصدرا قرارا في المسائل المختلف عليها ويبلغا قرارهما الى زميلهما العثماني والايراني . ويجب ان يدرج هذا القرار في محضر الاجتماع العام وان يعترف به كانه يقيد الأربع حكومات كلها .

خامسا

حالما يتم تحديد قسم من الحدود يعتبر ذلك القسم كانه مثبت نهائيا ولا يكون عرضة لأي تدقيق أو تعديل فيما بعد .

سادسا

يحق للحكومتين العثمانية والايرانية أن تؤسسا أثناء سير أعمال التحديد مخافر على الحدود .

سابعا

من المفهوم بان الامتياز الممنوح بموجب المعاهدة المؤرخة في الثامن والعشرين من شهر آيار سنة ١٩٠١ (٩ صفر سنة ١٣١٩ هجرية) من قبل حكومة صاحب الجلالة الامبراطورية شاه ايران الى وليم نو كس دارسى والذى تشغله الآن (عملا بمنطوق المادة التاسعة من تلك المعاهدة) شركة النفط الانجليزية الفارسية المحدودة الكائن محصل ادارتها المسجل في ونجستر هاوس بلندن (ويشار الى هذه المعاهدة في أدناه بكلمة « المعاهدة » في الذيل « ب » من هذا البروتوكول) سوف يبقى نافذ العمل بصورة تامة مطلقة في كل الأراضى التى حولتها ايران الى تركيا بناء على أحكام هذا البروتوكول والذيل « ب » منه .

ثامنا

توزع الحكومتان العثمانية والايرانية على موظفى الحدود عددا كافيا من نسخ خريطة التحديد التى رسمها القومسيون مع نسخ كافية من ترجمة البيان المنصوص عليه في المادة الخامسة عشرة من نظام القومسيون الداخلى لكنه من المفهوم بأن النص الفرنسى وحده هو النص المعول عليه .

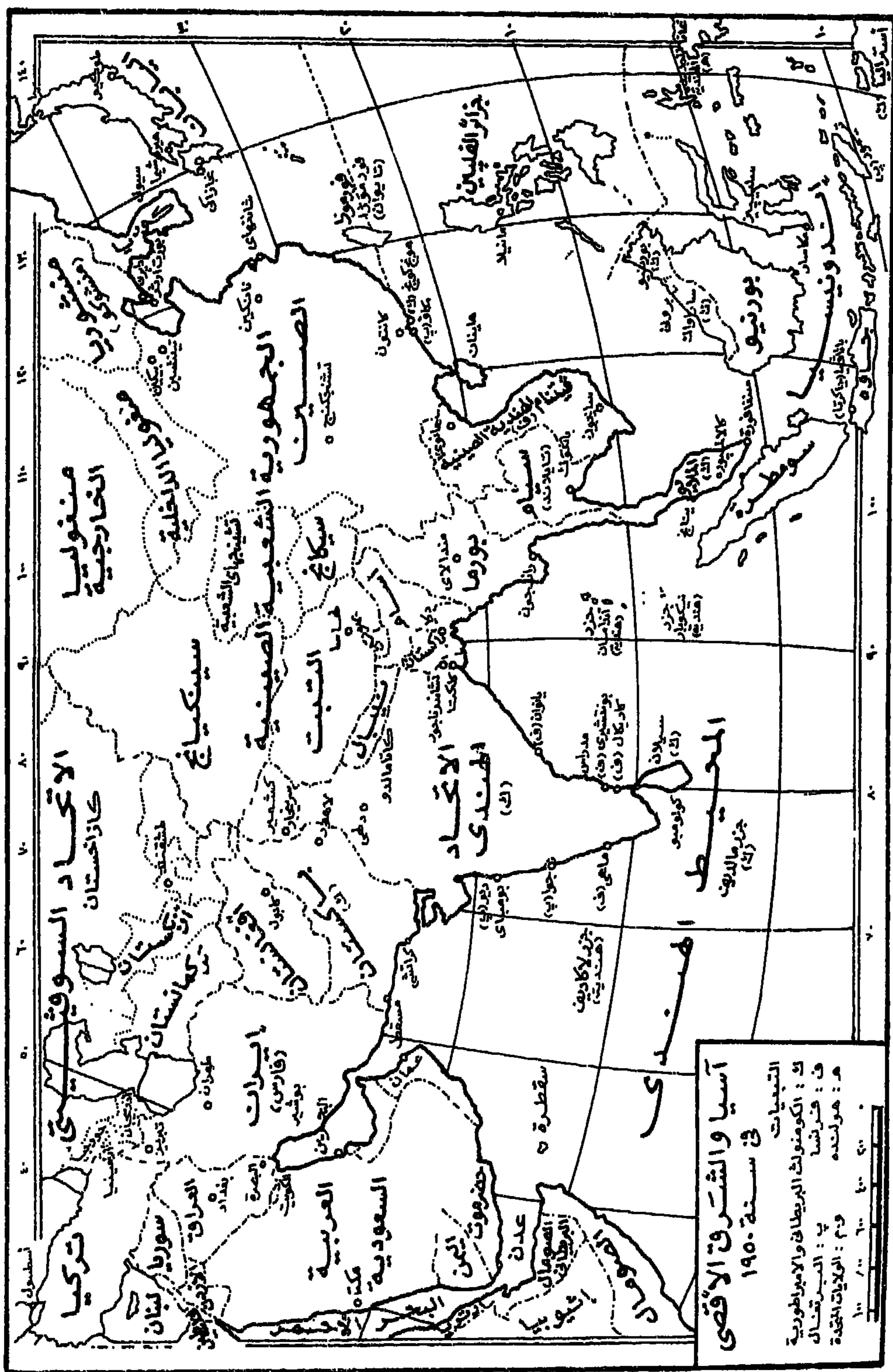
الامضاءات

لويس مالت

احتشام السلطنة محمود

ميشيل ده جيير

سعيد حليم



المصادر الوثائقية

– وثائق عابدين بالقاهرة ، نقلت الى القلعة

Public Record Office

المراجع العربية

– أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم . مكتبة الآداب ، القاهرة .

– أحمد جمال باشا : مذكرات . ترجمة أحمد شكرى . القاهرة ١٩٢٣ .

– أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية . ستة اجزاء . بغداد .

– أحمد طريين : الوحدة العربية . القاهرة . ١٩٦٠ .

– الماوتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض .

– بيتشسون : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى . ترجمة عزة دروزة .

– جمال الدين الشيال : الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق . معهد الدراسات العربية العليا (جزآن) .

– حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط . القاهرة .

– ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية . القاهرة .

– عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . القاهرة . ١٩٦٨ .

– عبد العزيز نوار : داود باشا . القاهرة ١٩٦٨ .

– عبد العزيز نوار : مصر والعراق . القاهرة ١٩٦٨ .

– عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية فى انهار العراق . القاهرة ١٩٦٨ .

– عبد العزيز نوار : البابية والبهائية فى العراق . مجلة الجمعية التاريخية بالقاهرة ١٩٦٤ .

– عبد العزيز نوار : دور العراق فى حرب الفرم . مجلة الجمعية التاريخية بالقاهرة ١٩٦٦ .

- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر . بيروت ١٩٧٣ .
- عبد العزيز نوار : تاريخ أوروبا الحديث من الثورة الفرنسية الى الحرب البروسية .
- عبد العزيز نوار : تاريخ أوروبا المعاصر .
- عبد العزيز نوار : تاريخ الولايات المتحدة الامريكية .
- عبد العزيز نوار : وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث . جامعة لبنان العربية .
- عبد العزيز نوار : العلاقات العراقية الايرانية ؛ دار الفكر العربى .
- عبد العزيز نوار : الجذور التاريخية للحرب العراقية الايرانية .
- عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء فى سيرة الوزراء (مخطوط فى دار الكتب بالقاهرة) .
- محمد فاضل : الحرب فى صدر البها والباب . القاهرة .
- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . القاهرة :
- محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية (١٨٥٦) . معهد الدراسات العربية العليا . القاهرة .
- محمد رقعت : التيارات السياسية فى البحر المتوسط . دار المعارف . القاهرة .

المراجع الاوربية الوثائقية

- Aitchison, C. :
A Collection of Treaties, engagements and sanads relating to India and Neighbouring Countries. 12 Vols. Calcutta 1892.
- Hertslet, Sir Edward. :
Treaties between Great Britain and Persia and between Persia and other Foreign Powers in Force on the 1st April 1891. London 1891.
- Hurewitz, J. :
Diplomacy in the Near and Middle East, 2 Vols. New York 1958.
- Lorimer, J. G. :
Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Parts I-II. Calcutta, Superintendent Government Printing. India 1905.
- Parliamentary Debated (Hansard's)
- Parliamentary Papers.

المؤلفات الأوروبية

- Andrew, W. P. :
Indian Railways as connected with British Empire
in the East. 4th Edition, London 1884.
- Ali, K. :
A Study in Moslem Rule in Indo-Pakistan. 3rd Edition.
The Famous Publishers. Decca 1963.
- Arnold, A. :
Through Persia By Caravan. 2Vols.
Tinsley Brothers. London 1877.
- d'Avrile, A. :
La Golfe Persique, route de l'Inde et de Chine. Paris
1908.
- Baha Ullah,
La Livre de la Certitude. Paris 1904.
- Chand, Dr. Tara :
Society and State in Mughal Empire. The Publication
Divisions. Ministry of Information. India 1961.
- Curzon, Hon George N. :
Armenia. A year at Erzroom and on the Frontiers of
Russia, Turkey and Persia, John Murray. London
1854.
- Curzon, Hon George N. :
Persia and the Persian Question. 2 Vols. London 1928.
- Curzon, Hon. George N. :
Russia in Central Asia in 1889 and the Anglo-Russian
Question. Longmans. London 1889.
- Dupré, A. :
Voyage en Perse. Paris 1819.

- Edwards, S. and Garratt, H. :
Mughal Rule in India. Chand & Company 1956.
- Fraser - Tytler :
Afghanistan. A Study of Political Development in
Central Asia. Oxford University Press 1950.
- Flandin, E. :
Voyage en Perse. Par Ordre de M.L. Ministre des Af-
faires Etrangères. 2 Tomes. Paris 1851.
- Garrett, G. :
The Legacy of India. London 1937.
- Huart, C. :
Histoire de Bagdad dans les Temps Modernes. Paris
1901.
- Huart, C. :
Les Calligraphes et les Ministuristes de l'Orient Mu-
sulman. Paris 1908.
- Huart, C. :
La Religion de Bab. Reformateur Persan du XIX
Sclecle. Ernest Leroux. Paris 1889.
- Hoskins, H. :
British Routes to India. New York 1928.
- Hunt, G. H. :
Outram and Havelock's Persian Campaign, London
1858.
- Invasion of India from Central Asia. London, Richard
Bentley and Son. Published in Ordinary to Her Ma-
jesty the Queen, 1879.
- Latham, G. :
India to England. Proposed New Overland route Via
Turkish Arabia. 1870.

- Layard, H. :
Nineveh and its Remains. 2 Vols. London 1849.
- Layard, H. :
Early Adventures in Persia London 1887.
- Lynch, B. :
Note on Steam Communication between England and India. Aug. 1837.
- Low, C. R. :
History of the Indian Navy (1613-1863).
2 Vols. London. 1877.
- Morand, R. :
La Routes des Indes. Paris 1936.
- Morland, (W.), and Chatterjee (A.) :
A History of India. 2nd Edition. London 1944.
- Morland, W. :
India at the Death of Akbar. An Economic Study.
Delhi 1962.
- Kisrawi Tibrizi and Sayyid Ahmed :
Two Hundered Years History of Khus. Tehran 1934.
- Panikkar, K. :
Asia and Western Dominance. Allen and Unwin. London 2nd Impression 1954.
- Pharood, J. B. :
Progress and Present Position of Russia in the East.
Madras MDCCCXXXVIII (1838).
- Phelps, M. :
Life and Teaching of Abbas Effendi. A Study of the Religion of the Babis or Bahais. London 1903.

- Pichon, J. :
 Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. Paris
 1937.
- Prasad, I. :
 A Short History of the Muslim Rule in India. Allah-
 abad. 1933.
- Prawdin, M. :
 The Mongol Empire. Its Rise and Legacy. Allen and
 Unwin. 2nd Impression. 1941. Translated by Eden and
 Cedar Paul.
- Rolandshay, Earl of :
 The Life of Lord Curzon. Being the Authorized Bio-
 graphy of George Nathaniel Marquess Curzon of Ked-
 leston. K.G. 3 Vols. London. Ernest Benn. Ltd. 1928.
- Rawlinson, H. :
 Notes on a March (Zohab), at the Foot of Zagros,
 along the Mountains to Khuzistan (Susiana), and
 from Thence through the Province of Luristan to
 Kirmansheh in the year 1836. (The Journal of the
 Royal Geographical Society of London. Volume 9th
 1839. Part I.).
- Rouire, Dr. :
 La Rivalité Anglo-Russe au XIXe Sc. En Asie, Golfe
 Persique Frontière de l'Indes. Paris 1908.
- Smith, V. A. :
 The Oxford History of India. 3rd Edition. Edited by
 P. Spears. Clarendon Press. London 1961.
- Sykes, P. :
 A History of Persia. 2 Vols. London 1951.
- Wilson, A. :
 The Persian Gulf. London 1954.

خاتمة

تناولنا في هذا الكتاب تاريخ ثلاث شعوب اسلامية : (الدولة العثمانية) منذ كانت في تركيا ثم البلقان ثم مسيطرة على الغالبية العظمى من البلاد العربية ، والدولة الفارسية ، ومسلمو الهند ، وكل ذلك بين القرنين السادس عشر واول القرن العشرين .

وسنتناول في الجزء الثاني من تاريخ الشعوب الاسلامية مجموعة من الشعوب الاسلامية في جنوب شرق آسيا ، ونسير في نفس الوقت في اصدار تاريخ الشعوب الاسلامية في المشرق العربي والمغرب العربي خلال نفس تلك الفترة ، وقد صدر تاريخ العراق منذ عدة سنوات ونحن بصدد اصدار تاريخ الشام الحديث .

المحتوى

تمهيد ٥

الباب الأول

نشأة ونمو الدولة العثمانية

منذ القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر

(ص ٢٧ + ص ٢٥٨)

الفصل الأول

- نشأة ونمو الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان ٢١
- ١ - نمو الأماة في الأناضول والبلقان ٢٢
- ٢ - نمو الدولة العثمانية في البلقان ٤٠
- ٣ - فتح القسطنطينية ٤٥

الفصل الثاني

- الفتوحات العثمانية في البلاد العربية ٦٢
- ١ - الحرب العثمانية الفارسية الأولى ٦٥
- ٢ - الفتح العثماني للشام ومصر ٧٢
- ٣ - الامتداد العثماني إلى الحجاز ٩٤
- ٤ - الفتح العثماني لليمن ٩٧
- ٥ - الفتح العثماني للعراق ١٠٠
- ٦ - التوسع العثماني في شمال أفريقية ١٠٦

الفصل الثالث

- الكفاح العثماني ضد العدوان البرتغالي على الديار الإسلامية ١١٢

الفصل الرابع

- الدولة العثمانية في الذروة ١٢٧

الفصل الخامس

خصائص الدولة العثمانية ١٣٥

الفصل السادس

أزمات الدولة العثمانية منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى مؤتمر
برلين ١٤٩

الفصل السابع

حركات الإصلاح والتنظيمات في القرن التاسع عشر ١٥٩
الدولة العثمانية ومؤتمر برلين ١٨٧٨ ١٧٧

الفصل الثامن

الصراع الدولي على خطوط المواصلات العالمية عبر المشرق العربي خلال
القرن التاسع عشر ١٨٣

الفصل التاسع

الجامعة الإسلامية ٢١٧

الفصل العاشر

تطور العلاقات بين العرب والترك منذ القرن التاسع عشر حتى اعتاب
الحرب العالمية الأولى ٢٢٥

الباب الثاني

تاريخ فارس الحديث

(ص ٢٥٩ ص ٤٨٨)

الفصل الأول

عهد الأسرة الصفوية في فارس (١٥٠٠ - ١٨٢٢) ٢٢١

- فارس في عهد الشاه إسماعيل الصفوي

الدولة الصفوية في نور التأسيس ٢٦٨

- ٢٨٠ - الشاه طهماسب ١٥٢٤ - ١٥٧٦
- ٢٨٦ - فارس في أيام الشاه عباس الكبير ١٥٨٧ - ١٦٢٩
- ٣٠٥ - الغزوة الافغانية لفارس امير محمود وأشرفا
- ٣٠٧ ١ - مير محمود
- ٣٢٢ ٢ - اشرف

الفصل الثاني

فارس في عهد نادرشاه وكريم خان الزند

- ٣٢٩ ١ - نادر شاه
- ٣٤٦ ٢ - كريم خان الزند

الفصل الثالث

الاسرة القاجارية

- ٣٥٥ (اهم مشكلاتها الداخلية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر)
- ٣٥٧ ١ - الشاهات الاول اغا محمد وفتح على شاه ومحمد شاه
- ٣٦١ ٢ - ثورة اغاخان
- ٣٦٢ ٣ - الحركة البابية

الفصل الرابع

- ٣٧٢ فارس القاجارية في خضم الصراع الدولي ضد نابليون
- ٣٧٥ ١ - فارس والصراع الدولي ضد نابليون
- ٣٨٤ ٢ - الازمات الفارسية الروسية

الفصل الخامس

- ٣٨٩ الازمات الفارسية العثمانية خلال القرن التاسع عشر

الفصل السادس

- ٤٣٥ المشكلة الافغانية والازمات الفارسية البريطانية

الفصل السابع
الحركة الوطنية والتقسيم البريطاني الروسي لفارس عام ١٩٠٦-١٩٠٧ ٥١

الفصل الثامن
نهاية الإسرة القاجارية ٤٨١

الباب الثالث مسلمو الهند (ص ٤٨١ ÷ ص ٥٨٨)

الفصل الأول
مدخول وتفوق الإسلام في الهند ٤٩٧

الفصل الثاني
امبراطورية المغول في الهند عصر الذروة ٥٠٩

الفصل الثالث
تدهور الدولة الإسلامية المغولية وسقوطها ٥٣٥

الفصل الرابع
الثورة الهندية ١٨٥٧ - ١٨٥٨ ٥٤٩

الفصل الخامس
الصدوة الإسلامية من الهزيمة الى الدولة الإسلامية باكستان ٥٦٧

الملاحق ٥٨٩

ا - الملاحق العربية

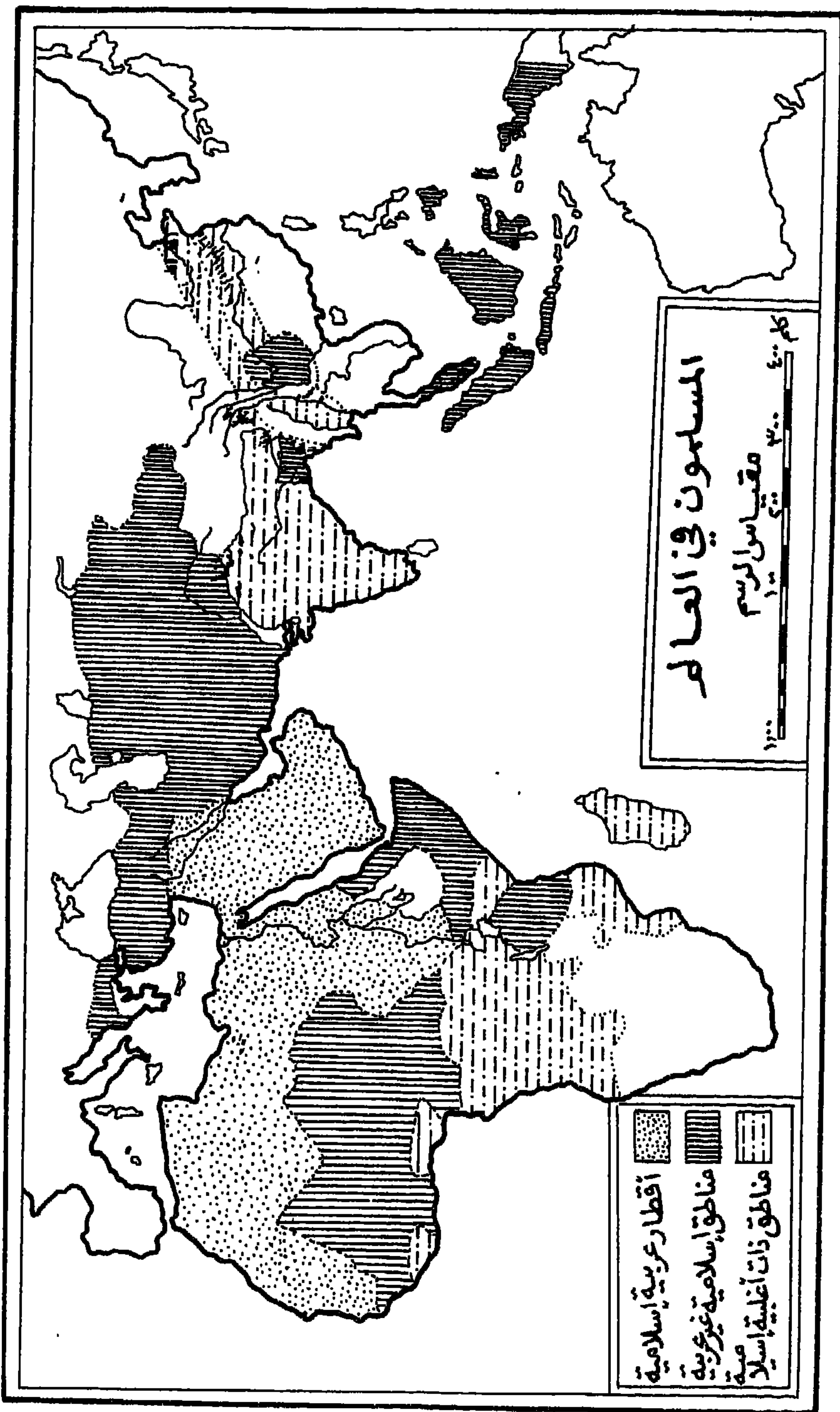
ب - الملاحق الانجليزية ٦٨٢

الخارطة ٦٨١

المصادر والمراجع ٦٩٣

خاتمة ٧٠٠

المحتوى ٧٠١







البalkan بين ١٨٧٨ - ١٨٨٠



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

